الدكتـورة فريـال مهنـا

علوم الاتصـال والمجتمعات الرقمية



Communication Sciences & Digital Societies

Prof. Ferial Mouhanna

هذا الكتاب

من المؤكد أن الثورات المذهلة وغير المنقطعة التـي تشـهدها الإنسـانية اليوم في مجـال الاتصال، وفي مجال القدرة على إنتـاج ومراقبـة أنظمـة اتصالية جديـدة لنقـل المعلومـات وجمعها ونشرها وتبادلها وتخزينها على صعيد كوكبي، يمثل طفرة غير مسبوقة أخـذت تحدث تبدّلات عميقة في شروط الوجود الإنساني سواء بالنسبة للحياة الفردية أم بالنسبة للحياة الجماعية، ذلك أن التغيرات التي تجري في كامل النظام الاتصالي تمـارس تـأثيرات نوعيّة ليس في الفكر والمعرفة الإنسانية فحسب، وإنما أيضاً في طرائـق إنتـاج هـذا الفكر وما ينجم عنها من عقليات وسلوكيات وأنظمة حياتية متكاملة.

من خلال استخدام ((النظرية الانتقالية)) التي تفسّر التاريخ البشري عبر مراحل مميزة للتطور الاتصالي الإنساني، يسلط هذا الكتاب الضوء على ما تعتقد المؤلفة أنه يمثل أحـد أهم ما أفرزته التقانيات المعلوماتية الجديدة ألا وهو ذلك التحول الجذري الذي طرأ على أسس وقواعـد التعـاطي مـع النـص، والـذي أوجـد كيفيـات جديـدة كشـفت، بصـورة ملموسة ومتجلية، عن أن النص لم يكن قط نصاً أحادياً وإنما هو دوماً، في جوهره، نص منهل يمتلك جملة من الخصـائص شـأنها أن تحدث انقلاباً عميقاً في أنظمـة إنتاجـه وفي منهجيات فهمه وتفسيره وتأويله وسبر المغزى الثاوي في بنياته المتاهية.

من هنا تنبـع أهمّيـة هـذا التحـوّل في مقاربـة النـص بالنسـبة لعـالم عربـي وكـون إسلامي يشكّل القرآن الكريم مرجعيّتهمـا العليـا والمطلقـة، ذلـك أن هـذا الانقـلاب النوعي الذي أحدثته تقانيات المعلوماتيـة الجديـدة في عمليـات إنتـاج الفكـر والثقافـة قابل لفتح آفاق رحبة، ليس فقط فيما يتعلّـق بآليـات ومنـاهج قـراءة النـص الإلهـي، وإنما أيضاً وخاصة في إمكانية إزالة تناقض مصطنع وتعارض إشكالي بين صلاحية هذا النص لكل زمان ومكان وبين مقاربته بوصفه نصاً أحادياً.

الحقيقة أن أزلية القرآن الكريم لا يمكن أن تكمن ولا يمكن أن تتحقق ولا يمكن أن تتجلّى، في المستوى العقلي، إلاّ في نصّيته المنهلة وهو أمر [illegible] لمبدع هذا النص الذي أراد له أن يكون خاتمة النصوص المقدسة

توزيع

دار الفكر المعاصر

المؤلّفة: الدكتورة فريال مهنا

- أستاذة الإعلام الاجتماعي والثقافي في جامعة دمشق منذ ١٩٨٦.
- نشرت العديد من الأبحاث والدراسات المتخصّصة في مجلّات علمية عربية وأجنبية.
- عضو في عدد من المنظّمات والجمعيات العلمية والاجتماعية.
- عضو في هيئات تحرير مجلات متخصّصة عربية وأجنبية.
- شاركت في ندوات ومؤتمرات علمية وفكرية حول الإعلام والاتصال الجماهيري وحول الاتصال وحوار الأديان ومعضلات الحرّية والديمقراطية، في جامعات ومنظّمات ومراكز دراسات عربية وأجنبية.
- نشرت عشرات المقالات السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية في صحف ومجلات عربية وأجنبية.
- لها مؤلفات عديدة منها :
  - الإعلام والنظم السياسية، طبعة أولى ١٩٨٦، طبعة ثانية ١٩٩٢
  - تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري، ١٩٨٩
  - نحو بلاغة إعلامية معاصرة ج١، ١٩٩٣
  - نحو بلاغة إعلامية معاصرة ج٢، ١٩٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية

الدكتورة

فريال مهنا

علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية/ فريال مهنا.- دمشق: دار الفكر؛ بيروت؛ دار الفكر المعاصر ٢٠٠٢.-٦٢٤ص؛ ٢٥سم.

١- ٣٠٢,٢ م هـ ن ع ٢- العنوان

٣- مهنا

مكتبة الأسد

ع- ٢٠٠٢/٣/٤٥٠

الرقم الموضوعي: ٠٧٠
الموضوع: الإعلام (صحافة-صحف-نشر)
العنوان: علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية
التأليف: د. فريال مهنا
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية-دمشق
عدد الصفحات: ٦٢٤ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

توزيع دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

الطبعة الأولى
ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آذار(مارس) ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الزمر ٣٩/٩]

صدق الله العظيم



إهداء

إلى أبناء إخوتي إسكندر وسارة ولارا ورامي ويونس الذين يغرسون وروداً ورياحين في دروبي المقفرة

مُقدّمة

على مرّ العصور لم يعرف التقدّم الإنساني هدنة، فعمليات تراكم الثقافة تتحرك بلا هوادة، تارة بشكل استمراري وتدرّجي، وتارة بصورة طفرات نوعية غير متّصلة وغير انسيابية كما يحدث اليوم بفعل ثورات الاتّصال المتلاحقة التي ما تزال تستكمل، بآليات متسارعة، رسم ملامح حقبة تكنومعلوماتية جديدة من شأنها أن تعيد صياغة الوجود الإنساني محدثة تأثيرات غير مسبوقة، ليس في مضمار الحياة المادّية والإنتاجية فحسب، بل في جميع فروع الحياة بكلّ تشعّباتها وتلوّناتها، ذلك أن التغيرات التي تطرأ في حقل الاتصال الإنساني تحدث عمليّات امتداد وتوسّع وتبدّل في قدرات الإنسان الاتصالية خلال مرحلة تاريخية معيّنة، مؤدّية، بصورة حتمية، إلى تأثيرات تتعلّق بالمعتقدات وبالقيم الجماعية، بالعقليات والسلوكيات، كما بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات.

وبما أن تطوّر القدرة الاتصالية للإنسان في كلّ حقبة يحدث تغيّيراً في كامل النظام الاتّصالي دون أن يزيح أو يمحو وسائل الاتّصال القائمة، فإن هذا التغيّير يتجلّى في نشوء حالات مستجدّة من علاقات التأثير الممكنة ومن التكامل أو التهميش أو الاستبدال المتبادل في طرائق وأساليب التفاعل الاتصالي الاجتماعي، بدءاً من الاتصال الشخصي، مروراً بالاتصال الممأسس وانتهاءً بالاتصال الإعلامي الممتد والمعمّم، مؤدّياً ، في كلّ مرّة، إلى إيجاد توازن جديد في آليات الاتّصال يجد تفسيراته في (النظرية الانتقالية) التي اعتمدها هذا الكتاب ليلقي الضوء على وقائع جديدة منبثقة من التشابك والتفاعل الحالي بين الأنظمة الاتّصالية في كليّتها وبين مختلف أوجه الحياة المادّية والروحية للأفراد والجماعات.

ولعلّ من أهم الوقائع التي ظهرت ونمت في خضمّ تلك التقانيات المعلوماتية الجديدة تتمثّل في الانقلاب الجذري الذي طرأ على بنيات النصّ وتراكيبه وأبعاده ومفاهيمه ، ذلك أن النصّ الإلكتروني الذي يتوضّع الآن داخل وسائل الاتّصال الجديدة والذي غدا يتحرّك عبر مساراتها المعقّدة والمتشابكة بلا قيود ولا حواجز ، يجسّد اليوم أداة ثورية من شأنها التأثير بعمق على ما يطلق عليه ماكلوهان العمليات العقلية العليا للإنسان وتجلّياتها، إذ يفرض نفسه كتقانية مميّزة للحقبة الجديدة، مسبّباً انكماشاً مستمراً للإنسان الطيبوغرافي، مشكّلاً أحد العوامل الجوهرية في تثبيت وتسريع صيرورات العولمة الجارية بكل تداعياتها، مبدّلاً، مرحلة بعد مرحلة، جوهر ومقوّمات العلاقة التي تقوم بين الإنسان والطبيعة، ليس فقط في العالم المتقدّم وإنّما أيضاً في عوالم الجنوب التي تعد مستهلكاً لهذه التقانية الاتصالية، أو في أحسن الحالات، منتجاً تابعاً لها.

انطلاقاً من أن العالم العربي والعالم الإسلامي يشكّلان جزءاً حيوياً من هذه العوالم الجنوبية ويواجهان، في هذه المرحلة الحرجة من بدايات الألفية الثالثة، تحدّيات بالغة التعقيد والقسوة تهدّد وجودهما الإنساني والحضاري كما أبداً من قبل، وانطلاقاً من حقيقة أن المستجدّات العلمية والتقانية تدفع بشكل متسارع نحو تشكّل نصّية من نوع جديد قابلة لإنتاج فكر رقمي مؤهّل، بطبيعته المتاهية وخصائصه المنهلة، لممارسة تأثيرات عميقة في مضامين الموسوعات المعرفية والثقافية التقليدية التي تضطلع بتحديد المرجعيّات، والتي تسهم إسهاماً حاسماً في وضع محدّدات وطرائق قراءة الواقع والتعامل معه، وانطلاقاً من أن النص المقدّس يجسّد في الديار العربية والإسلامية المرجعية المطلقة والأبدية في مناهج مقاربة الواقع وتحليله والتعاطي مع إشكالياته وصياغة الحلول لمعضلاته، فإن النصّية الرقمية وتقاطعاتها مع المناهج العلمية المستحدثة تقدّم حلولاً مثلى، لم يسبق لها مثيل لإنجاز عمليات تكيّف ملائمة بين وقائع العصر الجديد وبين مضامين التناصّ الفقهي المنبثق من نصوص القرآن الكريم، وهي عمليات لم يعد من الممكن الاستغناء عنها أو تجاهلها لأن الحاجة أصبحت ماسّة لتوظيف خصائص التقانيات المعلوماتية الجديدة في عملية إنتاج فكر عربي وإسلامي قادر على تجاوز هذه المرحلة الانعطافية الخطرة، ومؤهّل، بالتالي، لممارسة تأثيراته على صعيد كوكبي، والتفاعل بكفاءة واقتدار مع معضلات العصر الجديد.

يطرح هذا الكتاب، من خلال خلفيات تاريخية وضمن إطار سياقات فكرية واجتماعية تواكب سيرورات المنظور الاتّصالي، أهم الأدوات والمناهج القاعدية حول إمكانيات استخدام مميّزات النصّية الإلكترونية المنهلة في محاولة أولى لإدخال هذا الجانب من الوقائع التقانية الجديدة في صميم الموسوعات المعرفية لعلماء الإسلام المتنوّر وللنخب الفكرية العربية والإسلامية المدعوة اليوم لاستيعاب واستقلاب تلك التقانيات بما يخوّلها إحداث النقلة النوعية المطلوبة ضمن نطاق أولويات تأخذ في الحسبان أهمّية الاقتران والتلاحم بين عمليات بناء مفاهيم وقيم معيّنة وبين آليات صناعة فكر عربي وإسلامي أصيل يقدّم للإنسانية نموذجاً حضارياً قابلاً للاقتداء والانتشار، وقادراً على الإسهام الفعّال في تحديد العديد من ملامح حقبة حضارية ما تزال في أطوار التخلّق.

والله وليّ التوفيق

المؤلّفة

الباب الأول

الاتصال الجماهيري
والإعلام الجماهيري

الفصل الأول

الاتّصال والإنسان

الاتصال الإنساني عبر الحضارات

إن ما تشهده الإنسانية اليوم في مجال ثورات الاتصال غير المنقطعة، يدفع إلى تصوّر مدى التطوّر المذهل الذي بلغه الإنسان العاقل "L'homo sapiens" خلال فترة زمنية يسيرة مقارنة بعمر الكون الذي يمتد إلى ملايين السنين.

كما هو معروف، يقسّم علماء الأنتروبولوجيا المراحل الأولى من وجود الجنس البشري على كوكب الأرض إلى عصور متعدّدة كالعصر الحجري والعصر البرونزي والعصر الحديدي إلخ... وهي تقسيمات مفيدة لمتابعة النمو التقاني وتقدّم إنتاج الأدوات المادية التي استخدمها الإنسان ليحلّ مشكلاته المرتبطة بالغذاء وصنع الأسلحة الضرورية للبقاء، ولكنها تفقد صلاحيتها لدى تسليط الضوء على جانب جوهري للوجود الإنساني ألا وهو القدرة على الاتصال.

إن متابعة التطوّر الإنساني في مضمار الاتصال تتطلّب تحديد سلسلة أخرى من الحقبات استطاع فيها الإنسان الأول في البداية والإنسان العصري، فيما بعد، تحقيق منجزات متتالية في المقدرة على تبادل ونقل وجمع ونشر معلومات.

لا شك أن هذه المقدرة هي التي أتاحت للأشكال الإنسانية الأولى، التي تعاقبت على الأرض خلال حقبات زمنية ممتدّة، أن تطوّر تفكيرها و أن تخترع وأن تراكم وتنقل لبشر آخرين حلولا جديدة لمشكلات الوجود بكفاءات تزداد إتقاناً بمرور الزمن.

إن تحديد حقبات لتطوّر آليات الاتصال لدى الإنسان لا يعني على الإطلاق عدم أهمية الجوانب الأخرى للتطوّر، وإنما يعني أن تقدّم الحضارة التي نهض بها الإنسان العاقل في الأربعين ألف سنة الأخيرة ترتبط بالقدرة على استخدام أنظمة اتصال مختلفة أكثر مما ترتبط بأدوات استعملت لإنتاج مصنوعات.

الواقع أن هذه القدرة على إنتاج ومراقبة أنظمة اتصالية لتخزين وتبادل ونشر المعلومات تعدّ العامل الأساس للتغيير في التاريخ الإنساني وفي حقبات ما قبل التاريخ[١].

لذلك، فإن تاريخ الوجود الإنساني يمكن توضيحه بصورة أفضل من خلال " النظرية الانتقالية[٢] " التي تفسّر التاريخ الإنساني عبر سلسلة من التغيّرات في الحقل الاتصالي، أي عبر مراحل مميّزة للتطوّر الاتصالي الإنساني، قائمة على عمليات امتداد وتوسّع وتبدّل في قدرات الإنسان الاتصالية التي تتحقّق بصورة غير استمرارية أو غير انسيابية (أي تتم بصورة طفروية أو استحالية) وبصورة تراكمية، حيث أن كل وسيلة اتصالية جديدة تحدث تغيّيراً في كامل النظام الاتصالي، دون أن تزيح أو تمحو وسائل الاتصال القديمة. وهكذا، فإن كل حقبة اتصالية تكتسب أهمية بالغة سواء بالنسبة للحياة الفردية أم بالنسبة للحياة الجماعية.

يمكن رصد كل مرحلة من هذه المراحل عبر تحديد الاستخدام المنظّم للعلامات والإشارات، للكلمات، للكتابة، للطباعة، ومن ثم لوسائل الاتصال الراهنة.

من المحتمل أن تكون المرحلة الأولى هي حقبة العلامات والإشارات[٣] التي بدأت بنماذج قبل إنسانية حيث كانت الأجوبة المرتبطة بالغريزة والعوامل الوراثية تلعب الدور الحاسم وكان السلوك الاتصالي الناجم عن تعلّم في حدوده الدنيا. فالأجناس الإنسانية الأولى التي لم تكن تعرف بعد صناعة الأدوات، كانت تتواصل فيما بينها كما بعض الأجناس الحيوانية الراقية اليوم، أي عن طريق إشارات وحركات مفهومة للجميع. وفي مرحلة ما، بدأ التعلّم يصبح أكثر أهمية لكي يستطيع هذا الإنسان الفهم والمشاركة في نظام الإشارات والرموز التي صنعتها المجموعة. ولكن، بقطع النظر عن قدرة الإنسان على إبداع وتجميع ثقافة، ثمة قرائن مقبولة بأن أجدادنا القدماء لم يكونوا يستخدمون لغات منطوقة مستندة إلى منفصلة تراكيب معقّدة للأصوات[٤].

الأشكال الأولى للحياة الإنسانية، حسب شهادات قليلة متوفّرة، استمرت لملايين السنين، عبر عدد محدود من الأصوات التي كان يمكن إنتاجها فيزيائياً كالصراخ

(1) M. L. DeFleur & S. J. Ball-Rokeach," Theories of Mass Communication ", 5° Ed.Longman Publishing Group New York, 1989, p. 19.
(2) Ibid. p. 19.
(3) Ibid. p. 19.
(4) R. Finn, " Origins of Speech" ,in Science Digest, 1985, p. 52.

والهمهمة، إضافة إلى لغة الجسم[٥] . إن هذه الأنظمة الاتصالية المعتمدة على التقطيع المنفصل، كانت تخلق مشكلات من أهمها تلك المتعلّقة بالذاكرة القريبة، كما كانت تقلّص، إلى حد بعيد، الاتصال الداخلي أي التفكير والتجريد والتصنيف والاستنتاج والاستقراء والوصول إلى النتائج عبر المقدّمات. ولذلك، فإن تطوّر ثقافة معقّدة نسبياً لم يكن ممكناً في حقبة ترتكز على هذه الأدوات الاتصالية.

مع تغيّر العلاقة بين الكتلة الدماغية والكتلة الجسدية أو بالأحرى مع اتساع الكتلة الدماغية التي أدت إلى ازدياد قدرة التعلّم شيئاً فشيئاً، فإن هذه العلاقة انقلبت رأساً على عقب. ولكن الأمر تطلّب ملايين السنين قبل أن يتمكّن الإنسان من اتباع نظام اتصالي محدّد، أي قابل للتعلّم والتعليم، من الحركات والأصوات والإشارات الأخرى الضرورية للانخراط في تبادلات اتصالية لا غنى عنها في الحياة الاجتماعية.

تم تحقيق قفزة نوعية ومفاجئة عندما دخل الإنسان في مرحلة الكلمة واللغة. وتوجد أدلّة مقنعة بأن هذه المرحلة بدأت مع ظهور إنسان الكروماغنون " Cro Magnon " الذي يعدّ جد أجدادنا الذين شرعوا في الكلام في حقبة تمتد ما بين تسعين إلى أربعين ألف عام، ويمكن القول إنه منذ حوالي خمسة وثلاثين ألف عام كانت اللغة مستخدمة تماماً[٦] . هذا يعني أن حضارة تلك الحقبة كانت تستند إلى مجتمع قائم على الاتصال الكلامي.

عندما ظهر إنسان الكروماغنون كان سكان نياندرتال"Neanderthal" موجودين وضاربين جذوراً في ذات المنطقة الجغرافية، ولا توجد شكوك حول أن رجل نياندرتال كان ذكياً وصياداً ماهراً وصانعاً لأدوات فعّالة[٧] ، إضافة إلى أنه كان متين الجسم وقوياً ما يؤهله للبقاء. ولكنه مع ذلك، انقرض، في حين أن إنسان الكروماغنون استمر وتطوّر وأخذ يزدهر قرناً بعد قرن. لعل الفرضية الأكثر منطقية أن هذا الأخير عندما استطاع تطوير لغة كلامية اكتسب تفوّقاً حاسماً على جيرانه، حيث تمكّن من أن يخترع وينقل إلى الأجيال اللاحقة تقنيات لحفظ الأطعمة ووسائل للحماية من برد الشتاء، وبشكل عام، للحماية من كل العوائق التي كانت تحول دون بقائه داخل بيئة عدائية، في الوقت الذي بقي فيه إنسان النياندرتال سجين حقبة اتصالية قائمة على الإشارات والحركات[٨] .

(5) DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit., p. 22.
(6) Ibid. p. 27.
(7) Ibid. p. 27.
(8) Ibid. p. 28.

وعندما استقر إنسان الكروماغنون في بلاد ما بين النهرين الخصبة، بدأ، منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً، يحسّن تقانيات الزراعة التي حلّت محل البداوة، ويروّض الحيوانات، إلى أن أصبح يعيش حياة قروية مستقرة تماماً منذ ما يقارب الستة آلاف وخمسمائة عام قبل الميلاد.

من الواضح أن هذا التطوّر النوعي للغة الكلامية مارست تأثيرات عميقة على الأفراد والمجتمعات، وإذا كانت القدرة على استخدام اللغة المنطوقة لم تشكّل سبباً مباشراً لتغييرات كبيرة، فإنها سمحت للإنسانية في أن تحقّق قفزات نوعية عملاقة[٩]، كان من المستحيل تحقيقها لولا اللغة الكلامية.

أما المرحلة التالية من تطوّر أدوات الاتصال فتعود إلى خمسة آلاف عام فقط حيث جرى الانتقال إلى حقبة الكتابة التي تعدّ أداة هائلة لتطوير الإمكانات الاتصالية الإنسانية، وقد ظهرت هذه الأداة الجديدة لدى السومريين والمصريين وبلاد ما بين النهرين بصورة عامة، أي في المناطق التي مارس فيها الإنسان الزراعة لأول مرّة في تاريخ البشرية.

يتجلّى تاريخ الكتابة في الانتقال من التمثيل الرسومي إلى الأنظمة الصوتية، أي إلى تمثّل الأفكار المعقّدة برموز ورسوم تمت أسلبتها لاستخدام حروف بسيطة تمثّل أصواتا معيّنة[١٠]. وهي طريقة كتابة تسمح بتسجيل معلومات والعودة إليها لاحقاً. وقد تطلّب الأمر آلاف السنين للوصول إلى هذه الصيغة الاتصالية التي تكمن قيمتها وفعّاليتها في تثبيت رموز اصطلاحية وتكويدها لكي تصبح قابلة للفهم من قبل طرفي العملية الاتصالية.

إن هذه الطريقة الكتابية الأولى لبّت حاجات عديدة لإنسان تلك العصور في مجال الاقتصاد الزراعي ومتطلّباته.

بدورها الصور الرسومية لتسجيل أحداث، شكّلت أيضاً تقدّماً ذا مغزى نسبة إلى الذاكرة الخالية من مرجعية خاصة، وكان جوهر الموضوع يكمن في اختراع قواعد معيّنة وجعلها اصطلاحية، مؤهّلة لتخزين معلومات وقادرة على تجاوز حواجز الزمان والمكان، حيث أصبحت الرسوم الغرافيكية الاصطلاحية قابلة لفك رموزها وفهمها وإن كانت منجزة من قبل أشخاص بعيدين جغرافياً أو غدوا في عداد الأموات.

(9) Ibid. p. 29.
(10) Ibid. p. 29.

بتطوير نظام محكم من الرموز الهيروغليفية على الحجر التي تحولت فيما بعد إلى رسوم وأشكال تصويرية، أصبح المصريون القدماء مجدّدين مهمّين للنظام الرسومي الاصطلاحي[١١].

أما السومريون فقد طوّروا نظاماً آخر للكتابة إذ استخدموا صوراً صغيرة منحوتة على لوحات من الفخّار لكي يخلقوا تمثّلا للأفكار، وأخذوا يتقنون تدريجياً هذه الرسوم الصغيرة، ثم استخدموا أدوات دقيقة لرسمها إلى أن أصبحت أشكالاً خطية (الخط المسماري) تحمل المعنى دون الرجوع إلى الأشياء المرسومة[١٢].

حوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد أوجد السومريون فكرة ربط الرمز الاصطلاحي بصوت معيّن بدلاً من ربطه بمفهوم معيّن[١٣]، مما أعطى الكتابة دفعة نوعية كبيرة إذ بدلاً من استخدام آلاف الرموز لتمثّل آلاف الأفكار، أصبح من الممكن استخدام عدد قليل جداً منها لتمثيل أصوات لفظية كانت تركّب الكلمات[١٤].

خلال أقل من ألف عام، تم الوصول في أوغاريت إلى الكتابة الأبجدية، وقد انتشرت، خلال فترة قصيرة، في جميع أنحاء العالم القديم، وبعد عدة قرون وصلت إلى اليونان. وهكذا فقد تم تثبيت فكرة استخدام الحروف للدلالة على ألفاظ متناغمة وصوتية بدلاً من تمثّل المقاطع اللفظية[١٥].

بعد تعديلات عديدة أجرتها شعوب مختلفة على هذا النظام، طوّر اليونانيون وبسّطوا هذا النظام اللغوي الذي غدا أكثر فعّالية، وحوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد كانت اليونان تتمتّع بأبجدية عرفت انتشاراً واسعاً، وانتقلت هذه الأبجدية في وقت لاحق إلى روما[١٦] حيث جرى تغييرها وتحسينها.

تعدّ الكتابة الأبجدية، إضافة إلى الأدوات المصنوعة والنار، إحدى أهم الإنجازات التي عرفها الإنسان، فبدونها لبقي معظم الناس أميّين حتى اليوم. ولا ريب أن التقدّم الهائل في مجالات العلوم والفنون والسياسة والدين لم تكن ممكنة التحقيق لولا قدرة الناس على القراءة.

(11) Ibid. p. 30.
(12) Ibid. p. 31.
(13) Ibid. p. 31.
(14) Ibid. p. 31.
(15) Ibid. p. 32.
(16) Ibid. p. 32.

وقد استطاع الإنسان تجاوز صعوبة أخرى تتعلّق بعملية انتقال المعلومات، إذ تم استبدال الحجر بمواد أخرى يسهل نقلها وتداولها، ففي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد اكتشف المصريون طريقة لصنع ورق متين من أوراق البردي[١٧]. أيضاً شعوب المايا عرفت تطويراً شبيهاً في مجال الكتابة، وقد ذهل المستعمرون عندما اكتشفوا في العالم الجديد على الضفة الأخرى من الأطلسي، شعوباً تعيش داخل أبنية حجرية متينة مليئة بمكتبات وكتب. ومما يؤسف له أن جنود الاحتلال الإسباني عمدوا إلى إحراق الكثير من هذه الكتب[١٨].

يقول هارولد إنّيس إن اكتساب تقانية جديدة للاتصال مستندة إلى أداة خفيفة وقابلة للتنقل، مع إيجاد نظام رموز مكتوبة يمكن تدوينها بسرعة ويسر، خلقا الشروط الضرورية لإحداث تغيّيرات اجتماعية وثقافية كبيرة في تلك الحقبات من تاريخ البشرية[١٩].

إلى جانب الكتابة، حقّق الإنسان إنجازاً آخر فتح آفاقاً عريضة في مجال الاتصال ألا وهو اختراع الطباعة التي أحدثت تغيّيرات جذرية في مجال إعادة إنتاج و انتشار المعلومات والمعرفة. غير أن ثمة مرحلة انتقالية حاسمة أسهمت في ظهور الطباعة في الغرب تجسّدت من خلال استبدال الورق بالرقّ في العالم الإسلامي في القرن الثامن. كان الورق قد اخترع قبل ذلك بكثير في الصين، ولكن الدولة الإسلامية هي التي بدأت بنشره تدريجياً في أوروبا انطلاقا من الدولة العربية الإسلامية في إسبانيا.

عرفت الصين حوالي عام ٨٠٠ بعد الميلاد، ضروباً من تقانات الطباعة المعقّدة، غير أن تلك التقانية القائمة على الحروف المعدنية المتحركة ظهرت على يد الألماني جوهان غوتنبيرغ عام ١٤٥٥ الذي اخترع نظاماً فريداً لإنتاج الأحرف حقّق قفزة نوعية حاسمة في تاريخ الإنسانية الاتصالي.

لقد خشي غوتنبيرغ في البداية، ألاّ تنجح تقنيته الجديدة في اجتذاب الناس الذين تعوّدوا على قراءة نسخ من كتب ومؤلّفات مخطوطة بعناية فائقة، فعمد إلى إنجاز طبعات متقنة للإنجيل آملاً بيعها للأغنياء، وبالفعل، فقد تكلّل عمله بالنجاح وعرفت هذه النسخ المطبوعة نجاحاً كبيراً. ولأول مرّة أصبحت الأناجيل متوفّرة أيضاً بلغات

(17) Ibid p. 32.
(18) Ibid. p.33.
(19) H. A. Innis, " Empire and Communications ", Toronto, University of Toronto Press, 1972, p. 10-14.

غير اللاتينية، مما أفقد الكنيسة الرسمية احتكارها المطلق للكتاب المقدّس، وخلق حالة من التحدّي للسلطات اللاهوتية ولتأويلات وتفسيرات روما في مجال الفقه الديني. وهكذا، فإن وجود وسيلة اتصالية جديدة فتح الطريق أمام حركات معارضة تناوئ البنيات الاجتماعية والدينية التي كانت قائمة آنذاك[٢٠].

لم يمض وقت طويل على بدء التفكير بصناعة صحيفة يومية في القارة الأوروبية وفي العالم الجديد. وإذا كانت البدايات قد شهدت صحافة يومية نخبوية، فسرعان ما تم تطوير هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة لتصبح، خلال فترة زمنية قصيرة، ذات طابع جمعي ثم جماهيري[٢١].

في نهاية القرن التاسع عشر، اتّضح لعلماء الاجتماع أن وسائل الإعلام الجماهيري الجديدة - صحف، مجلات، دوريات وكتب - التي غدت أكثر انتشاراً وحضوراً في المجتمع، قد أخذت تدخل تغيّيرات مهمة في الشرط الإنساني. ويعتقد الأمريكي كولي[٢٢] أن ثمة أربعة عوامل أعطت الوسائل الاتصالية الجديدة قوة تأثيرية تفوق إمكانيات أية وسائل اتصال عرفتها المجتمعات السابقة، فتلك الوسائل كانت أكثر فعّالية فيما يتعلّق:

١) بقدرتها على التعبير، أي بقدرتها على نشر أفكار وتعميم أحاسيس على أوسع نطاق ممكن.

٢) بديمومتها في الذاكرة، أي بانتصارها على حاجز الزمان.

٣) بسرعتها، أي بانتصارها على حاجز المكان.

٤) بانتشارها، أي بتوافرها لجميع الطبقات الاجتماعية.

و بيّن كولي أن خصائص الوسائل الإعلامية الجديدة (المطبوعة) التي ظهرت وتطوّرت في القرن التاسع عشر قد أحدثت، بصورة نهائية، تبدّلات عميقة في البنيات العقلية للمتلقّي، وفي كيفيات تنظيم المجتمعات وآليات أدائها للوظائف المناطة بها.

(20) DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit., p. 36.
(٢١) في نيويورك، تم إصدار صحيفة يومية بثمن بخس وتقانيات سريعة للطباعة والتوزيع، وهي صحيفة الـ" penny press " التي عرفت، بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٠، انتشاراً جماهيرياً واسعاً مجسّدة ظهور أوّل وسيلة إعلام جماهيري حقيقية.
(22) C. Horton Cooley, " Social Organization", Boston, Charles Scribner's Sons, 1909, in Melvin, op. cit. p. 3.

في منتصف القرن التاسع عشر خطت الإنسانية مرحلة أخرى بظهور وسائل الاتصال الكهربائية، كالبرق والهاتف، التي، وإن لم تشكّل، بحد ذاتها، وسائل اتصال جماهيري، فإنها أضافت عنصراً جديداً لعملية التراكم التقاني الذي أدى، فيما بعد، إلى ظهور وانتشار وسائل الإعلام الإلكتروني(٢٣).

ففي السنوات العشر الأولى من القرن العشرين أصبحت السينما وسيلة اتصال جديدة، تبعها اختراع الراديو وانتشاره على أوسع نطاق، مشكّلا قفزة نوعية أخرى في مضمار الاتصال، وفي نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات تم إنجاز نقلة جديدة باختراع الترانزيستور ثم جاء ظهور التلفزيون وانتشاره، بصورة شعيرية وأفقية، ليحقّق قفزة نوعية أخرى، معطياً الاتصال الجماهيري خصائص لم تعرفها الإنسانية من قبل، طبعت العصر بطابعها ومارست تأثيراتها في جميع فروع الحياة الإنسانية.

وتتالى التطوّر التقاني ليصل إلى بروز وسائل إعلام جديدة كالفيديو والفيديوتيكس "Videotex" التبادلي ثم التلفزيون المشفّر والكابلي و الفضائي الخ..

ولكن التقدّم الإنساني لم يعرف هدنة، واستمرت عملية تراكم الثقافة، حيث دخلنا، منذ فترة وجيزة عصر التكنومعلوماتية، ولا يمكن لأحد أن يحدّد بيقين انعكاسات هذه الأداة الاتصالية، ولكن تقانيات المعلوماتية الجديدة أخذت تحدث تغييرات عميقة في مجال الاتصال الجماهيري أدّت، خلال فترة زمنية وجيزة، إلى تشكّل " مجتمع المعلوماتية ".

من ناحية أخرى، لا يمكن القول إن عملية تطوّر الاتصال قد جرت بشكل استمراري وتدريجي فحسب، إذ كما ظهرت أشكال جديدة للحياة بصورة طفرات نوعية للتطوّر البيولوجي، فقد تمت في مضمار الاتصال قفزات نوعية جاءت بصورة فجائية وغير متواصلة.

وفي كل عصر من هذه العصور يلاحظ أن حياة الناس تغيّرت جذرياً تحت تأثير هذه الوسائل الاتصالية، ولهذا، من الأهمية بمكان أن نعتبر أن تطوّر المقدرة الاتصالية تتشابك تماماً مع تقدّم الإنسانية، وأن طبيعة أنظمة الاتصال في مجتمع ما ترتبط ارتباطاً عضوياً بجميع الأوجه الأخرى للحياة اليومية للأفراد الذين يعيشونها. ففي كل حقبة اتصالية ينشأ توازن جديد، أو، بمعنى آخر، حالات مستجدّة من علاقات

(23) M. DeFleur & E. E. Dennis, " Understanding Mass Communication", Boston ,Houghton, Mifflin,1981, pp. 6-23.

التأثير الممكنة ومن التكامل أو التهميش أو الحلول المتبادل محل، بالنسبة لطرائق وأساليب التفاعل الاتصالي الاجتماعي، بدءاً من الاتصال الشخصي، مروراً بالاتصال الممأسس وانتهاءً بالاتصال الإعلامي، ذلك أن بنية الاتصال تؤدي، بصورة حتمية، إلى تأثيرات تتعلّق بالمعتقدات وبالقيم الجماعية(٢٤)، بالعقليات والسلوكيات، كما بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع، في مرحلة تاريخية معيّنة.

الإعلام الجماهيري والنظرية الانتقالية

انطلاقاً من مفهوم النظرية الإنتقالية التي ترى أن كل تحرّك من عصر اتصالي إلى آخر، يستند إلى مبدأ التراكم وليس إلى مبدأ الانتهاء و الاستبعاد الكامل، يلاحظ أن وسائل الاتصال بدءاً من العلامات والإشارات التي استخدمها الإنسان الأول وأتقنها، مروراً بالكلمة المنطوقة واللغة والكتابة والطباعة ووسائل الاتصال الجماهيري الأخرى، لا تتتابع كمراحل قائمة بذاتها ومنتهية في الزمن، ولا تزيح ما سبقها، وإنّما تستمر جميعاً لتختلط وتتمازج عبر ظهور وتبلور أطر جديدة ومتحرّكة من علاقات التنافس والتكامل والتداخل والتفاعل:

- فعندما ظهر وانتشر الراديو ثم التلفزة ساد اعتقاد بأن الصحافة المطبوعة ستندحر أمام سطوة هذه الوسائل الإلكترونية كليّة الحضور، غير أن المطبوع استطاع أن يفيد من التقانيات الجديدة في مختلف مراحل صناعة المنتج الإعلامي المطبوع وأن يوظّفها ليتمكّن، ليس فقط من الاستمرار، وإنّما أيضا من المنافسة، عبر اكتشافه مميّزات خاصة به يفتقر إليها الإعلام المسموع والتلفزي، من أهمّها:

  - قدرة المتلقّي على تحديد زمن التلقّي ومكانه وظروفه، أي أن المتلقّي يستطيع أن يقرأ صحيفته في أي زمن وأي مكان وفي أي وضعية يراها مناسبة.
  - إمكانية عودة المتلقّي إلى النص في كلّ مرّة، وتكرار عملية التلقّي، أيضاً في أي وقت وفي أي مكان.
  - قدرة المتلقّي على اختيار الموضوعات وتحديد تسلسل النصوص والصفحات في عمليّة التلقّي واصطفاء المقاطع أيضاً في النص الواحد.

(24) F. Balle, " Médias et Société", Ed, Montchrestien, Paris, 1984, p. 81.

- تتميّز الوسيلة المطبوعة في تقديم خلفيات واسعة وإعطاء الإعلام الجماهيري عمقاً وشمولية لا يتّسع لهما المسموع والتلفزي.

لقد استطاع الإعلام المطبوع تطوير هذه الخصائص ليخوض التنافس وليتمكّن، في الوقت نفسه، من تحقيق توازنٍ وتكامل جديدين مع وسائل الإعلام الإلكترونية.

- الراديو أيضاً اكتشف جملة من المميّزات التي تجعله قادراً على الاستمرار والتطوّر والمنافسة، عقب ظهور وانتشار التلفزة، من أهمها:

- الاستخدام الأمثل للصوت الإنساني الذي يدخل في صميم المعنى والمغزى عبر خصائص فيزيائية يتمتّع بها محدثاً لدى المستمع وقعاً نفسياً خاصاً ومتفرّداً، من خلال خصائصه الفيزيائية والنفسية. بالإضافة الى استثمار المؤثّرات الصوتية الطبيعية والاصطناعية كافة والتي تثير خيال المتلقّي وتغني المخيّلة الإنسانية.

- ما تزال السرعة والآنية والانتشار اللامحدود تشكّل عوامل مهمّة في قدرة الإذاعة على المنافسة، غير أنها فقدت الكثير منها إثر التطوّر العاصف للتلفزة الفضائية.

- يعدّ عدم ضرورة التفرّغ الكامل في الاستماع الى الإذاعة أهم نقطة قوة للراديو، وهي الخصيصة التي يستطيع الراديو من خلالها خوض منافسة حقيقية مع التلفزة وخاصة في مقاطع زمنية معيّنة من ميزانيات التلقّي اليومي، كما أنها تشكّل عامل تكامل مهم مع بقية وسائل الإعلام الكبرى.

- ضمن هذا السياق، لا بد من التنويه بخصوصية التلفزة كوسيلة إعلامية فريدة تتمتّع بخصائص غير متوافرة في وسائل الإعلام والاتصال كافة:

- فبالإضافة الى احتوائها الصوت والصورة والحركة واللون والزوايا والأبعاد التي تتطلّب تفعيل جملة من الحواس الإنسانية لم يسبق لها مثيل. وفضلاً عن أنها دخلت كل بيت مخترقة الحياة الحميمة للإنسان المعاصر، فإنها استطاعت أن تستقطب خواص وسائل إعلام واتصال عديدة بطريقتين أساسيتين، أولهما أنها جمعت، في مزيج فريد وخلّاق، بين الراديو والمسرح والسينما والإعلام المطبوع (Teletext) وفنون أخرى تقع في مجال الرسم والنحت والعمارة والهندسة إلخ.. مجسّدة ومهمّشة، في الوقت نفسه، تلك الوسائل الإعلامية والثقافية جميعاً.

وثانيهما أنها استطاعت أن تمنح معظم هذه الوسائل التي ابتلعتها، امتداداً وانتشاراً مكانياً وزمانياً غير محدود، فالسينما والمسرح اللذين لم يكونا يتجاوزان حدود صالة، أصبحا يتجوّلان داخل المنازل في أي وقت، بل أصبحا، بعد انتشار التلفزة الفضائية، يجتازان حدود المجتمع الواحد ليجوبا الكرة الأرضية بأسرها.

- ولم تستطع ثورات الاتصال المتلاحقة أن تنال من مكانة التلفزة التي استعادت سطوتها خلال العقد الأخير من القرن الماضي، بعد فترات ركود أعقبت الانبهار الأولي، وذلك بفضل جنوحها نحو مزيد من " الواقعية "، وتمكّنها من تطويع مختلف أدوات وأشكال المناظرات وأقلمتها، بصورة استعراضية ومسرحية، مع متطلّبات الشاشة الصغيرة، ومحاولتها التغلّب على عامودية واحادية تدفّقها، اللتين غدتا تمثّلان نقاط ضعف أساسية بالنسبة لها، في ظل انتشار التقانيات المعلوماتية الجديدة أفقية التدفّق، عبر صناعة منتجات اعلامية تتّسع لردود فعل آنية من قبل المتلقّي على الرسالة الاعلامية، مستفيدة من تقانيات اتصال اخرى كالهاتف والفاكس والبريد الالكتروني و الاقمار الصناعية إلخ..

- بل إن هذه التلفزة التي غدت كوكبية الأبعاد والتي تقدّم لمئات الملايين من الناس تمثّلاً للواقع أكثر إتقاناً وأرفع تقانية، وبالتالي، " أكثر صدقية "، استطاعت، ليس فقط مقاومة واستثمار المنجزات الحديثة في مجال الاتصال، وإنّما تمكّنت أيضاً من التعامل مع أهم هذه المنجزات وهي الإنترنت، فثمة فضائيات تعرض بلا انقطاع، على اجزاء من شاشاتها الصغيرة، مواقع متنوّعة للإنترنت، الى جانب موادها الاعلامية التقليدية، محقّقة اقتراباً أولياً من التقانيات الجديدة، عبر عمليات اصطفاء وعبر انتقائية تتلاءم وأهداف المحطة التلفزية. وهكذا، فإن التلفزة لم تكتف بخلق تمثّل للواقع والترويج له كواقع حقيقي، بل انطلقت نحو خلق شكل آخر من أشكال التمثّل، ليس للواقع الحياتي هذه المرّة، بل تمثّلاً لواقع الإنترنت، يتيح للجمهور العريض الإطلال على هذه الوسيلة الاتصالية الجديدة من نوافذ تفتحها له التلفزة، دون أن تجعله يبذل أي جهد في البحث والتقصّي.

لذلك، يمكن القول إنه رغم ما طرأ على تقانيات الاتصال الانساني من ثورات خلال العقدين الاخيرين، ورغم ما تحدثه وستحدثه هذه الثورات المتتالية من تغييرات عميقة في طبيعة الاتصال وامتداده وامكاناته، خاصة في نطاق طفرة الكومبيوتر والإنترنت التي أعطت للنشاط الاتصالي أبعاداً كونية غير مسبوقة وقلبت، بصورة جذرية، مفاهيم الاتصال وآلياته وبدأت تمارس تأثيرات، لم تستكمل ملامحها بعد، في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية لشعوب الأرض كافة[٢٥]، يبقى الإعلام الجماهيري بشكل عام، وما يطلق عليها وسائل الإعلام الكبرى (الصحافة المطبوعة والإذاعة والتلفزة) بشكل خاص، نقطة ارتكاز أساسية لا غنى عنها في مضمار الاتصال الإنساني الراهن، إذ يشكّل قطاعاً صناعياً شديد الأهمية، وعالماً رمزياً قابلا للاستهلاك الكثيف، واستثماراً تقانياً يزداد ازدهاراً، وتجربة فردية يومية، ونظام وساطة ثقافية، وتفاعلات اجتماعية، وصراعات سياسية[٢٦].

بكلمات أخرى، يمكن القول إن الإعلام الجماهيري هو عبارة عن منظومة اجتماعية ممأسسة تقوم بنشاط مفتاحي يكمن في إنتاج وإعادة إنتاج وتوزيع المعرفة التي تستطيع أن تجعلنا قادرين على إعطاء معنًى لهذا العالم، وأن تشكّل إدراكنا له وأن تسهم في معرفتنا للماضي وفي إعطاء استمرارية لفهمنا للحاضر[٢٧]، هذا يعني أن الإعلام

---

(25) M. Wolf, "Teorie delle Comunicazioni di Massa", Ed. Bompiani,Milano, 1995, p.11.

(26) D. McQuail, "Mass Communication Theory ", An introduction, London, 1983,trad. Le Comunicazioni di Massa, Ed. Il Mulino, Bologna, 1986, p. 51.

(٢٧) إن استيعاب التلفزة لبعض مواد الإنترنت ليست أحادية الاتجاه بطبيعة الحال، فالإنترنت أيضاً بدأت تمتد الى التلفزة لاحتواء بعض منتجاتها، بالإضافة الى أن الشبكة أخذت تستوعب، بصورة متزايدة، مواداً إعلامية عديدة في الإعلام المطبوع (صحف ومجلات ودوريات)، ولا شك أن هذا الاستيعاب وهذا الاحتواء المتبادل بين التلفزة والإنترنت يمثّل ظاهرة جديدة في حقل الاتصال الإنساني ستكون لها أبعاد من الصعب التكهّن بطبيعة تأثيراتها في الوقت الحاضر، وخاصة في عوالم الجنوب، ومنها العالم العربي، ذلك أن تأدية التلفزة دور الراشح للإنترنت تفتح قنوات اتصالية بين هذه الأخيرة وجمهور واسع من الأميّين والملمّين المبعدين عن هذه التقانية المعلوماتية الجديدة التي أعادت للقراءة مكانتها ومركزيّتها في العمليّة الاتصالية. بالإضافة إلى ذلك، فإن التلفزة تسهم في تحقيق اتصال بحاجز بين الإنترنت وبين شرائح واسعة من جمهور يجهل لغات أجنبية عالمية.
من السهل التوقّع بأن هذا التداخل وهذه التبادلية مؤهّلة لتطوّر مستمر، سيحدث، في كل مرحلة، توازناً جديداً وغير مسبوق، بين مختلف وسائل الاتصال الجماهيري التقليدية من جهة وبين التقانيات المعلوماتية الجديدة، من جهة أخرى.

الجماهيري يحتلّ اليوم موقعاً مركزياً في حياتنا اليومية، من شأنه أن يسهم في تحديد مصير الجنس البشري.

الاتصال الجماهيري والإعلام الجماهيري•

قبل الخوض في بنية الإعلام الجماهيري، من الضروري تحديد مفاهيم ترتبط بالاختلاف القائم بين الاتصال الجماهيري والإعلام الجماهيري، ذلك أن ظهور وانتشار تقانيات الاتصال الفضائي عبر الأقمار وعبر الإنترنت عمّق التباين بين وسائل اتصالية تفتقد التبادلية وأخرى يكمن أحد عناصر ثوريتها في قدرتها على تحقيق تفاعل اتصالي تبادلي الطابع، مع كل ما ينجم عن ذلك من تأثيرات في مجالات اتجاه التدفّق المعلوماتي ومواقع طرفي العملية الاتصالية (المرسِل والمتلقّي) وأدوارهما وطبيعة تفاعلاتهما.

فالاتصال الجماهيري يحمل في طيّاته آلية تبادلية، أي أن الاتصال عبر الوسائل هو اتصال تفاعلي "Interactive" متعدّد الأطراف يخلق توازناً ذا مغزى بين المرسل

• للتعرّف، بالتفصيل، على أنواع الاتصال الإنساني وأشكاله ومظاهره، إقرأ:

- نسمة البطريق، " التلفزيون والمجتمع والهويّة الثقافية "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- جيهان رشتي، " الأسس العلمية لنظريات الإعلام "، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- صالح أبو إصبع، " الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة "، دار آرام للدراسات والنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٥م.
- فاروق أبو زيد، " مدخل إلى علم الصحافة "، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- نبيل عارف الجردي، " مقدّمة في علم الاتّصال "، مكتبة الإمارات، ١٩٨٥م.
- R. Escarpit," Théorie de l'Information et de la Communication", Ed. Hachette Univ.,Paris, 1976.
- J. Durand, " Les Formes de la Communication" , Ed. Dunod, Paris, 1981.
- G. Bettetini, " Teoria della Comunicazione ", Ed. F. Angeli, Milano, 1994
- B. Valli; " Comunicazione e Media ", Ed. Carocci, Roma, 1999.
- Hiebert & Ungurait & Bohn, " Mass Media : An Introduction to Modern Communication ", Ed. Longman, New York, 1979.
- J.Condon, «When People Talk with People, in Basic Readins in Communication Theory, Ed. C. D. Morten, New York, Harper & Row, 1979.

والمتلقّي لأن هذا الأخير يتحوّل، خلال الزمن الواقعي للاتصال، من متلقٍ إلى مرسل متفاعل وديناميكي، في حين أن الإعلام الجماهيري، في أغلبيته، هو اتصال أحادي الاتجاه، من المرسل الى المتلقّي الذي لا يستطيع أن يغيّر منحى التدفّق آنيا لكي يعبّر عن أفعاله أو ردود أفعاله بصورةٍ فورية أو متزامنة، ما يعطي الإعلام الجماهيري خصائص مغايرة لتلك التي تتمتّع بها تقانيات المعلومات الجديدة، القائمة، بشكل جوهري، على عملية التبادلية والتفاعلية في إطار اتصال تعدّدي على صعيد كوكبي.

لهذا، يعمل الإعلام الجماهيري، الذي أصبح اليوم إحدى الوسائل التقليدية، على إنجاز عمليات تكيّف مستمرة بين مختلف قطاعاته من جهة، وبينه وبين وسائل الاتصال الحديثة من جهة أخرى، بما يعزّز حضوره و فعّاليته ومكانته وقدرته على المنافسة والتأثير في إطار أسس جديدة للتكامل، محاولاً الإفادة من معطيات الثورة التكنومعلوماتية و طاقاتها وآفاقها غير المحدودة.

ضمن إطار هذه التطوّرات الجديدة التي طرأت على الاتصال الإنساني، إذن،لا بد من تحديد بعض المصطلحات العلمية التي تكتسب أهميّة في مجال تأطير وتصنيف الدراسات الاجتماعية المرتبطة بالإعلام والاتصال بشكل عام.

تستخدم دراسات إعلامية غربية مصطلحات متباينة للتدليل على " اتصال " و " إعلام " و " جماهيري "، فالمدرسة الفرنسية تطلق كلمة " إعلام " 'Information' لتعطي معنى المضمون ومعنى الطريقة التي ينقل خلالها هذا المضمون[٢٨] ، أي أن هذه الكلمة في المصطلح الفرنسي تتضمّن عناصر متعلّقة بالمعرفة والتقويم.. وأخرى مرتبطة بالأجهزة والمعدّات والتقنيات[٢٩] ، وثالثة متّصلة بطريقة نشر ومعالجة.. أي الصحف والإذاعة والتلفزة: 'Entreprises de Diffusion' [٣٠] . أماعلماء الاجتماع الأمريكيون، فقد طرحوا مصطلحاً مركباً من كلمة إنكليزية " Mass " وأخرى لاتينية، "Media " فأصبحت "Mass Media " تعني الإعلام الجماهيري. وهو مصطلح فرض نفسه في مختلف المؤلّفات العالمية، مما دعا أوروبا اللاتينية إلى الاستغناء عن الشق الإنكليزي من الكلمة والاحتفاظ بالشق اللاتيني واستخدامه بصيغة الجمع، "Les Medias " "I Media " للتدليل على الإعلام الجماهيري.

(28) F. Balle, " L'Information ", Encyclopoche Larousse, Librairie Larousse, Paris, 1977, p.5-14.
(29) Ibid. p. 5-14.
(30) Ibid. p. 5-14.

وفيما يتعلّق بالاتصال الجماهيري، فإن الغرب يستخدم التعبير نفسه "Mass Communication ".

في ظل التطوّر المستمر لتقانيات الاتصال والمعلوماتية، من المهم تثبيت مصطلحات عربية واضحة تؤدي المعنى الدقيق لكي يجري تداولها بصورة موحّدة في أبحاث العلوم الإعلامية التي تستخدم أحيانا التعابير الأجنبية أو مصطلحات متباينة (الاتصال الجماهيري، الإعلام الجماهيري، وسائل الإعلام، أجهزة الإعلام الخ..) للتدليل على ذات المعنى، في حين أنها تحمل مضامين مختلفة :

فالاتصال الجماهيري يحتضن جميع وسائل الاتصال الإنساني على صعيد جمعي وجماهيري[٣١] : الاتصال الشخصي المباشر(ما يطلق عليه العلاقات الاتصالية الأوليّة)، الاتصال الجمعي المباشر كالخطابة والمسرح وغير المباشر كالسينما، والاتصال الجماهيري غير المباشر(العلاقات الاتصالية الثانوية) كالكتاب والصحافة والإذاعة والكاسيت والتلفزة الأرضية والفضائية والفيديو ووسائل الاتصال التعدّدي "Hypermedia" بمختلف أشكاله وتقنياته، بالإضافة إلى وسائل الاتصال الجديدة كالإنترنت والقرص المدمّج والديسك " Floppy " إلخ..

أما الإعلام الجماهيري فيقتصر على الكتاب و الصحافة المطبوعة والإذاعة والتلفزة التي تفتقد التبادلية الاتصالية الآنية بصورة عامة وتؤدي أنشطة أحادية وشاقولية.

* * *

(٣١) من المفضّل استخدام مصطلح " إعلام جمعي" للتدليل على إعلام مباشر وغير مباشر يحظى بجمهور محدود نسبياً (المسرح، السينما، الخطابة، الندوة الخ..)، واستخدام مصطلح " إعلام جماهيري " للتدليل على الكتب والصحف والإذاعة والتلفزة والكاسيت والفيديو الخ.. لأن " جماهيري" تؤدي معنى الكثرة والاتساع والشمول والغزارة.

الفصل الثاني

البنية والوظائف في الإعلام الجماهيري

بنية الإعلام الجماهيري

إذا استثنينا الكتاب الذي يتمتّع، كوسيلة إعلام جماهيري، بخصائص متفرّدة تقع خارج إطار هذه الأبحاث، يمكن تحديد **بنية الإعلام الجماهيري** (صحافة، إذاعة، تلفزة أرضية وفضائية، أو ما يسمّى بوسائل الإعلام الكبرى) على النحو التالي :

١) مختلف الإشارات اللغوية (الأبجدية) المكتوبة أو المنطوقة والإشارات غير اللغوية المتمثّلة في النقاط والفواصل والخطوط والمنحنيات والرموز الأيقونية، في الصوت وخصائصه الفيزيائية وفي المؤثّرات الصوتية الطبيعية والاصطناعية، في الصور والمؤثّرات البصرية والألوان والزوايا والأبعاد والحركات الحاملة جميعاً، وبصورة متضافرة، للمعلومات والأفكار والتقويمات التي تحتويها الرسالة الإعلامية المطبوعة والمسموعة والمتلفزة في فروع الحياة كافة.

٢) كل المعدّات والأجهزة الصناعية والتقانيات التي تسخّر خصائصها لاحتضان تلك الإشارات ومعالجتها، تمهيداً لنشرها وبثّها وتعميمها على أوسع نطاق داخل المجتمع وفي مجتمعات خارجية.

٣) جميع من يستخدم تلك الأدوات اللغوية والفنية والتقنية في المطبوع والمسموع والمتلفز ليصنع رسالة إعلامية تستجيب لرؤية المرسل وسياساته.

٤) القنوات التمويلية والميزانيات المخصّصة لتغطية النشاط الإعلامي جميعاً. وقد اكتسب هذا العنصر أهمية بالغة في العقد الأخير إثر التطوّر العاصف للإعلام الفضائي وتقنياته.

هذا يعني أن الإعلام الجماهيري مؤلّف من عنصر فكري (الرموز الأبجدية والفنية الحاملة للدلالة)، ومن عنصر تقني (وسائل الإعلام الكبرى : صحافة وإذاعة وتلفزة)، ومن عنصر اقتصادي (المؤسّسة الإعلامية الاقتصادية) ومن عنصر إنساني (رجل الإعلام)[٣٢] .

إن هذه البنية المركّبة للإعلام الجماهيري تجسّد نظاماً جزئياً يتحرّك في نطاق النظام الاجتماعي الكلّي ويتفاعل مع عناصره في جميع المستويات، متبادلاً التأثير مع مختلف الأنظمة الجزئية الأخرى، السياسي والفكري والاقتصادي والثقافي والأخلاقي والتقاني، عبر قيامه بطائفة من الوظائف تحدّد طبيعتهاعلى أرض الواقع مضامين وأشكال هذا النظام الكلّي، ضمن إطار معطيات تاريخية معيّنة في المجتمعات الإنسانية.

المنظومات العقائدية والوظائف في الإعلام الجماهيري

ينطلق الفكر الشيوعي الكلاسيكي في تحديده لوظائف الإعلام من نظام الحزب الواحد والصراع الطبقي، ومن التحديدية الاقتصادية الماركسية القائمة على الملكية العامة لوسائل الإنتاج المادية والفكرية، وديكتاتوريةُ البروليتاريا والموقع الذي يجب أن تحتلّه الطليعة الثورية في المجتمع، كما ينطلق من تعاليم بليخانوف وفلسفته في هذا المجال.

وقد لعب لينين الدور الأساسي في بلورة هذه المنطلقات وترجمتها وتطبيقها في الدولة البلشفية الفتية، منيطاً بالإعلام وظائف الدعاية والتحريض والتنظيم.

فالإعلام في نظرية لينين هو أداة لتربية الجماهير الشعبية وأداة لتدريب الشعب وتهذيبه[٣٣]، وهو وسيلة لتعليم الشعب الية تنظيم العمل بطريقة جديدة[٣٤] ، والإعلام حزام يربط الجماهير بالحزب ويدفعها إلى الالتحاق بالطليعة[٣٥].

(٣٢) رغم أنه يعمل في نطاق استراتيجيات إعلامية يرسمها المرسل، فإن رجل الإعلام، بخلفياته الثقافية والاجتماعية والتربوية والعقلية والنفسية، يشكّل عنصراً مستقلاً غير قابل للدمج الكامل مع العنصر الفكري، لأن هذا الوجود الإنساني بحد ذاته وآليات ترجمته لسياسات المرسل، يقدّم معطيات مهمّة تغني التناول السوسيولوجي للظاهرة الإعلامية.

لا بد من التنويه في هذا السياق، بأن دراسة العنصر الإنساني في بنية الإعلام الجماهيري لا صلة له، موضوعاً وكيفية، بالأبحاث التقليدية المتعلّقة بمستويات إعداد الكادرات الإعلامية.

(33) Lenin I. V., " Despre presa ", Ed. Politica, Bucuresti, 1960, p.637.
(34) Ibid.,p. 638.
(35) J. M. Domenach," La Propagande Politique ", 7°Ed. P. U. F., Paris, 1973, p. 22.

ويرى لينين في الإعلام منظّماً جماعياً يشكّل رؤية للعالم خاصة بجماعة معيّنة، ويصوغ وعي هذه الجماعة واندماجها في المجتمع[٣٦] .

ودفع ستالين هذه المفاهيم إلى حدودها القصوى، إذ ألغى كل أشكال الإقناع والطوعية والجدل اللينيني معتبراً الإعلام أداة تعقد صلة مع الجماهير العمّالية.. صلة تماثل في قوّتها أي وسيلة ناقلة أخرى[٣٧] . ووصف ستالين الإعلام بأنه جهاز • لا يوجد في الطبيعة ما يضاهيه قوة وسلاسة[٣٨] .

وتبنّت أوروبا الشرقية، بعد الحرب الثانية، والعديد من دول العالم الثالث حديثة الاستقلال، هذه المفاهيم لوظائف الإعلام واستخدمتها المنظومة الشيوعية وحلفاؤها في العالم لخوض جميع مراحل الحرب الباردة.

وبَقيت هذه المفاهيم ثابتة في جوهرها عقوداً طويلة رغم الازمات التي تعرّض لها الفكر الشيوعي في الشرق والغرب، وخاصة إثر أحداث المجر وبعض دول العالم النامي الواقعة في مجال النفوذ السوفييتي.

ففي عام ١٩٥٩، خاطب نيكيتا خروتشوف الصحفيّين السوفييت قائلاً :

" أنتم الحزام الناقل والأمين، تتلقّون قرارات الحزب لتحملوها إلى أعمق أعماق شعبنا"[٣٩] .

وفي عام ١٩٦٣ كان خروتشوف ما يزال يقول: " لا نملك أداة أكثر قوّة وأكثر فعالية من صحافتنا.. إن الصحافة هي الأداة الأيديولوجية لحزبنا على أوسع نطاق عمل"[٤٠] .

ويلاحظ أن الأدبيات العقائدية الشيوعية لم تتزحزح في جوهرها عن المفهوم الستاليني لبنية الإعلام ووظائفه في المجتمع عبر مختلف مراحل تطوّر الاتصال

(36) G. Moscovici, " La Psychanalyse: Son Image et Son Public" Ed. P. U. F., Paris,1961, p.560.

(37) G. Mond, "Le Regime de l'Information dans les Pays Socialistes", I.F.P. Cours,1980, p. 4.

• إن إطلاق مصطلح جهاز إعلامي بدلاً من وسيلة إعلامية في الدول ذات النظام الشمولي نابع من اقتناعها بأن الإعلام يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من أجهزة الحكم الردعية الأخرى وعلى رأسها الأجهزة الأمنية.

(38) Ibid. p. 4.

(39) G. Mond, op. cit. p. 5.

(40) Ibid. p. 6.

الجماهيري بصورة عامة، داخل نطاق الثورات العلمية والتقانية التي شهدتها المجتمعات المتطوّرة في العقود الأخيرة.

ورغم انهيار الكتلة الشيوعية وإخفاق معظم المرتكزات الفكرية للإعلام الشيوعي وما نجم عنهما من تبدّلات عميقة في النظام الإعلامي العالمي، فإن تلك المفاهيم لوظائف الإعلام ما تزال متداولة داخل العديد من المجتمعات النامية ومنها تلك العربية والإسلامية.

أما الفكر الغربي بصورة عامة، فإنه يتناول وظائف الإعلام منطلقاً من فلسفة التنوير العقلي[٤١] وصياغاتها الفكرية المعاصرة، ومن الاقتصاد الرأسمالي والمفاهيم الليبرالية للحرية والديمقراطية المكرّسة دستورياً وحقوقياً وبراغماتياً.

وظائف الإعلام الجماهيري

استناداً إلى هذه المفاهيم الفلسفية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية، يجمع علماء الإعلام والاجتماع في الغرب على أن الوظيفة الإخبارية للإعلام الجماهيري تعدّ مسألة بدهية غير خاضعة للنقاش وهي تحتلّ موقعاً مركزياً في النشاط الإعلامي لأي مجتمع حر وديمقراطي:

يسمّي هارولد لاسويل (HaroldLasswell) الوظيفة الإخبارية، وظيفة رصد المحيط.. التي تضطلع بها مجموعة تتحرّى في الوسط السياسي للدولة[٤٢] .

ويصف جان ستويتسل (Jean Stoetzel) الوظيفة الإخبارية بأنها وظيفة مركزية[٤٣] ، يتيح الإعلام من خلالهاالاتصال داخل مجتمع، بالتناغم مع مؤسّسات عديدة أخرى.. عبر نشر المعلومات[٤٤].

(٤١) إقرأ حول هذا الموضوع : جون لوك : الروح العامة (حكَم بين الامير والرعيّة)
بورك : القوّة التشريعية والنقدية للرأي العام.
روسو : الإرادة العامة والعقد الاجتماعي.
كانط : الرأي العام كحكم مطلق بين السياسة والأخلاق، القبول العام كمعيار للحقيقة، حق التشريع والنقد للرأي العام.

(42) H. D. Lasswell, " Structure et Fonction de la Communication dans la Société ", The Communication of Ideas, Harper, New York, 1947, in " Sociologie de L'Information ", F. Balle et G. Padioleau, Larousse Université, Paris, 1973, pp. 31-41.

(43) J. Stoetzel, " Fonction de la Presse ", Etudes de Presse, 1951, Vol. III, N. 1, pp. 37-42.

(44) Ibid. pp. 37-42.

ويرى مالكوم ويلي (Wiley) أن إحدى أهم وظائف الإعلام هي تزويد المتلقّي بالأخبار والمعلومات الخام[٤٥].

وفي مستهلّ لوحة تشارلز رايت (Charles Wright) المؤلّفة من اثني عشر عنصراً والمتعلّقة بالتحليل الوظيفي لنظام الاتصال الجماهيري الفرعي، داخل النظام الاجتماعي الكلّي، والتي استند رايت في إعدادها إلى مفهوم روبيرت ميرتون (Robert Merton)[٤٦] حول وظائف الإعلام الظاهرة والكامنة وحول الخلل الوظيفي، نجد الوظيفة الإخبارية التي يصفها رايت بأنها وظيفة الرصد – الأخبار – للاتصال الجماهيري.. القائمة على اصطفاء المعلومات المحلّية والوطنية والدولية وصياغتها ونشرها[٤٧].

أما فرانسيس بال (Francis Balle) فيقول إن المعلومات التي يبثّها الإعلام الجماهيري تزوّد المجتمع بوسائل تجعله قادراً على اكتشاف ذاته بذاته. وتوفّر إمكانية أن يغيّر الإنسان نفسه بنفسه وأن يغيّر المجتمع نفسه بنفسه[٤٨] .

والأهم من ذلك هو ما يشير إليه بال من أن الوظيفة الإخبارية تجعل الخيارات المتعلّقة بالمصير الجماعي أكثر وضوحاً وتجعل الحلول للوصول إلى هذه الخيارات أكثر فعالية وأقل غموضاً[٤٩] .

وهكذا، فإن الوظيفة الإخبارية تشكّل قاعدة أساسية لا غنى عنها تؤهّل الإعلام الجماهيري لتأدية وظائفه الأخرى، انطلاقاً من المعلومات التي يتيح تعميمها ويضمن تجوالها في المجتمع، ويرتكز إلى معطياتها ليمارس عمليات التأثير والاقناع.

تعدّ وظيفة بناء العلاقة بين مختلف عناصر المجتمع[٥٠] التي يطرحها تشارلز رايت في لوحته الخاصة بالتحليل الوظيفي، من أهم الوظائف الإقناعية للإعلام الجماهيري، فهي، كما يقول بيير ألبير (Pierre Albert) تفتح حواراً مع العالم وتكسر عزلة الأفراد.. وتساعد على انتشار القيم السياسية.. وتشارك في تفعيل الحياة الاجتماعية.. وتسهم في تنظيم ردود الأفعال وتوازنها.. وتخلق الضمير الجماعي[٥١].

(45) F. Balle, " Médias et Société ", 3° Ed. Montchrestien, Paris, 1984, p. 550.
(46) R. Merton, " The Sociology of Knowledge and Mass Communication, Social Theory and Social Structure ", Ed. Free Press, Glencoe, 1957, pp. 439-528.
(47) C. Wright, " Public Opinion Quaterly ", Princeton University, vol. 24,pp. 605620.
(48) F. Balle, " L'Information ", op. cit. pp.10-11.
(49) Ibid. pp. 10-11.
(50) C. Wright, op. cit. pp. 37-42.
(51) P. Albert, " La Presse ", Encyclopoche Larousse, Paris, 1977, pp. 35-39.

وهي الوظيفة التي يجد جان ستويتسل بأنها تحقّق الانتماء الاجتماعي للأفراد والمجموعات[٥٢]، ويرى هارولد لاسويل أنها تنسّق ردود أفعال مختلف أطراف المجتمع على الوسط المحيط[٥٣]، وهي تلك المرتبطة بعناصر التقويم[٥٤] التي تحدّث عنها بال في عرضه لبنية الإعلام الجماهيري وجعلها ملتحمة عضوياً بعناصر المعرفة[٥٥] التي تحتوي المعلومات القاعدية.

ويطرح لازرسفيلد وميرتون (P. Lazarsfeld & R. Merton) وظيفة أخرى ترتدي أهمية خاصة في المجتمعات الراهنة، فهي تتجلّى بقيام الإعلام الجماهيري بتقوية الضبط الاجتماعي تجاه الأفراد المرتكبين.. وفرض المعيار الأخلاقي[٥٦] من خلال شن حملات إعلامية مكثّفة تفضح سلوكهم المنحرف[٥٧]، ذلك أن الأفعال التي خرق بها هؤلاء الأفراد الأنظمة والقوانين قد تكون معروفة لقطاعات واسعة في المجتمع من خلال شبكة الاتصال المباشر والشخصي، ولكن إفشاء تلك الأفعال وتعميمها عبر وسائل الإعلام تخلق شروطاً اجتماعية ونفسية تلزم أغلبية أعضاء المجتمع بوجوب التعبير عن إدانة صريحة لهذا الخرق وضرورة استتباب القواعد الأخلاقية العامة[٥٨].

في معرض تناولهم لإشكال الاتصال الإنساني وأدواته، يبرز بعض علماء الاجتماع وظائف تتعلق بتعميم الثقافة[٥٩] وترتبط بنقل الإرث الاجتماعي من جيل إلى آخر[٦٠] . ليس ثمة خلاف حول أن الإعلام الجماهيري يرفد عمل هيئات ومؤسّسات تعليمية وتربوية وثقافية واجتماعية، إذ يعمّم ثقافة جماهيرية ذات طبيعة معيّنة ويسهم في إحياء التراث ونشر الموروث الاجتماعي عبر الأجيال، مستخدماً معالجات وتقانيات تستجيب لخصائصه وآليات إنتاجه وطبيعة منتجاته. ولا خلاف أيضاً حول

(52) J. Stoezel, op. cit., pp. 37-42.
(53) H. Lasswell, op. cit., pp. 31-41.
(54) F. Balle, " L'Information ", op. cit., pp. 5-14.
(55) Ibid. pp. 5-14.
(56) Lazarsfeld & Merton, "Sociologie de l'Information ", op. cit. p. 59.
(57) Ibid
(58) Ibid. p. 60.
(59) C. Wright, op. cit. p. 61.
(60) H. Lasswell, op. cit. p. 55.

وجود وظيفة• ترفيهية(٦١) ووظيفة إعلانية(٦٢) للإعلام الجماهيري، ولكن تحليل

(61) F. Balle, " Media et Société ", op. cit. p. 552.

• تتضمّن هذه الوظيفة كل ما يرتبط بثقافات الترفيه في الإعلام الجماهيري، بدءاً من برامج التسلية والترفيه والإمتاع والألعاب المختلفة، مروراً بالمنوّعات والبرامج الرياضية والموسيقية، انتهاءا بالدراما والمسلسلات والسهرات الإذاعية والتلفزية الخ..

(62) Ibid., p. 552.

– الإعلان هو " أي شكل من التقديم غير الشخصي، للأفكار والمنتجات والخدمات، من قبل مصدر قابل للتعرّف عليه، مقابل ثمن يدفعه هذا المصدر". لمزيد من التفصيل، أنظر:

(The Committee on Definitions of The American Marketing Association,A Glossary of Marketing terms, reprint, Chicago, 1963, p. 9).

– الإعلان هو " أي شكل من الاتصال الجماهيري له طابع الإقناع ويتم دفع ثمنه، مرسل من قبل مصدر قابل للتعريف، وله أهداف ذات طبيعة تجارية ". لمزيد من التفصيل، أنظر:

(E.T. Brioschi, " Elementi di Economia e Tecnica della Pubblicità", 2° ed. Vita & Pensiero, Milano, 1995.p.39.

– حول الفرق بين الإعلان والدعاية، هناك مفاهيم متباينة:

" بمرور الزمن وبالاستخدام المستمر؛ أصبح للمصطلحين – الإعلان والدعاية – معنيين مختلفين في معظم عناصرهما. يمكن القول إن كليهما يدلان على عملية إرسال معلومة: عندما يكون هدف إرسال هذه المعلومة نشر وتعميم مفاهيم أخلاقية، اجتماعية، سياسية، ثقافية، والإقناع بها فهي دعاية. غير أنها تصبح إعلانا عندما تجنح نحو تقديم هذه المعلومات ونحو خلق قناعات بها للحصول على فوائد اقتصادية آنيّة بصورة عامة، أي للتحريض من أجل القيام بشراء شيء ما. ولكن يمكن أن يقوم الإعلام الجماهيري بنشاط إعلاني من أجل أهداف ليست، بشكل مباشر وفوري، ذات طبيعة اقتصادية، ويمكن ان يمارس الدعاية للوصول الى نتائج اقتصادية بعيدة المدى " للمزيد، أنظر:

- (D. Villani, La Pubblicità ed I suoi Mezzi, ed. Giuffrè,1955, Milano, p. 5).

غير أن عدداً من المؤلّفين الفرنسيين يتفقون حول الطبيعة التجارية الصرفة للإعلان، من أبرزهم، هيربان الذي يميّز تماماً بين الإعلان والدعاية، معرّفاً الأوّل بأنه استخدام تقنيات اتصالية لنشر وبث رسائل لها أهداف تجارية، ومعرّفاً الثانية بأنها استخدام تقنيات اتصالية لنشر وبث رسائل فلسفية، سياسية، دينية، اجتماعية، ثقافية الخ.. لها أهداف عقائدية- غير ربحية- ولكن، إذا اختلف الإعلان والدعاية في الأهداف، فهما يستخدمان ذات التقنيات وذات الوسائل. للمزيد، أنظر:

- (P. Herbin,Vocabulaire de la Pubblicité. Ed. De La Gourdine. Lagny. 1964, p. 156- R. Leduc, La Pubblicité: Une force au service de l'Entreprise. Préface de R. Gérin, 2° Ed. Dunod, Paris, 1969, p. 23).

ثمة من يبدي رأيا مغايراً في موضوع التباين بين الإعلان والدعاية، مؤكداً " أن الإعلان تقانية هدفها سواء تسهيل نشر وتعميم أفكار معيّنة، سواء تيسير علاقات اقتصادية بين بعض الناس الذين يمتلكون سلعة أو خدمة ويريدون تقديمها لآخرين لديهم استعداد لاستعمال هذه السلعة أو الخدمة. هذا الهدف يمكن أن يكون تجارياً ويمكن أن يكون غير تجاري أي غير ربحي". للمزيد، أنظر:

(C. R. Haas, La Publicité : Théorie, Technique & Pratique, 4° Ed. Dunod, Paris, 1965, p. 5).

– في العقود الأخيرة من القرن الماضي، أخذت الدولة ومنظّمات وهيئات عديدة في المجتمع –

موضوعات هاتين الوظيفتين ومضامينهما ينبع من خلفيات فكرية وثقافية وقيمية ويستند الى تقويمات اقتصادية واجتماعية خاضعة للحالة الحضارية التي يعيشها كل مجتمع.

يقدّم جان كازنوف (Jean Cazeneuve) نظرية خاصة في مجال وظائف الإعلام إذ يعتقد بأن المجتمع الإنساني محكوم عليه في أن ينظّم العلاقات القائمة بين الإنسان وبين الشرط الإنساني، ومحكوم عليه أيضاً بأن ينظّم العلاقات بين هذا الشرط الإنساني وبين اللامشروط(٦٣) .

يقول كازنوف إن الطقوس والأساطير كانت تؤدي هذه المهمّة في المجتمع التقليدي، حيث كانت تقدّم حلاً لحاجات البشر المتناقضة في توقهم إلى الخروج من شرطهم وفي رغبتهم بالانغلاق داخل هذا الشرط(٦٤)، أما اليوم فإن الإعلام الجماهيري هو الذي يقوم بهذه المهمّة في المجتمعات المعاصرة، عبر رسائل ينقلها تحتوي عناصر ملتصقة بالواقع وملتصقة بالخيال في اللحظة نفسها، وإن بنسب متغيّرة(٦٥)، ولهذا فإن التمييز بين عناصر الواقع وعناصر الخيال يغدو – حسب كازنوف– تمييزاً مصطنعاً منذ اللحظة التي تفرض فيها وظيفة الإعلام الجماهيري هذه، عليه، تبديل الواقع(٦٦)، لذلك، فإن الإعلام مضطّر للهروب في كل لحظة من الواقع، محتفظاً، في الوقت نفسه، بصلة وثيقة مع هذا الواقع(٦٧) . ويتّفق كازنوف مع تشارلز رايت فيما يتعلّق بالوظائف المختلفة التي أسندها هذا الأخير للإعلام الجماهيري، غير أن

المدني تستخدم تقنيات الإعلان لتحقيق أهداف غير تجارية، فنشأ وتطوّر الإعلان الاجتماعي والإعلان السياسي والإعلان الثقافي والإعلان التنموي والإعلان التوعوي إلخ.. وكلّها عبارة عن رسائل إعلانية مدفوعة الثمن من قبل المعلن. إلاّ أن أهدافها المباشرة ليست ربحية وتجارية، وإن كان بعضها يتوخّى تحقيق أهداف اقتصادية معيّنة قريبة أو بعيدة المدى، ولذلك فهي تقع جميعاً في حقل الإعلان الخدمي المجتمعي.

من ناحية أخرى، لا بد من الإشارة أنه حتى الإعلان التجاري البحت الذي يروّج لسلعة أو لماركة أو خدمة معيّنة بهدف تحقيق أرباح، يحتوي في ثناياه رسالة أخرى متوارية، تروّج لسياسات وثقافات وسلوكيات وعقليات وأنماط حياتية معيّنة، يؤدي تعميمها ونشرها على أوسع نطاق في المجتمع، إلى تحقيق مصالح المعلن الطويلة الأجل.

(63) J. Vazeneuve, "La Société de L'Ubiquité", Ed. Denoël, paris, 1972, pp. 5-64.
(64) Ibid. p. 64.
(65) Ibid. p. 64 & next.
(66) Ibid. p. 64 & next.
(67) Ibid.

كازنوف يعتقد بأن جميع هذه الوظائف ما هي سوى مشتقّات للوظيفة الوحيدة التي يؤدّيها الإعلام وهي وظيفة تبديل الواقع التي يطلق عليها كازنوف وظيفة الاستحالة (Transmutation) [٦٨].

وظائف الإعلام في المجتمعات العربية الراهنة

بدهي أن المقاربة العلمية للوظائف المناطة بالبنيات والأنظمة الفرعية داخل النظام المجتمعي لا تهتم برصد الجانب القانوني أو الحقوقي أو النظري لهذه الوظائف، بل تعنى بدراسة ممارستها الفعلية من قبل تلك البنيات والأنظمة، داخل حركة المجتمع الواقعية، كما تعنى بما قد يطرأ عليها من خلل وظيفي للتعرّف على طبيعة هذا الخلل ومسبّباته الموضوعية والذاتية.

لقد استخدم العديد من الباحثين الإعلاميين صيغة رايت للتحليل الوظيفي وأبرزوا جوانب خلل في تأدية الإعلام الجماهيري لوظائفه في مجتمعات متقدّمة[٦٩].

إلاّ أن علماء الاتصال وصفوا طرائق استخدام الوظيفيّين لهذا المنهج التحليلي بالذاتية والإغراق[٧٠]، وأثاروا شكوكاً حول مشروعية تعميم نتائج حالات جزئية

(68) Ibid.

(٦٩) أنظر في المصدر السابق (Media et Société) ص ٥٥٦-٥٥٨، حيث يعتقد ميرتون ولازرسفيلد أن للإعلام دور المخدّر الاجتماعي (Narcotique Social) للأفراد والجماعات وللنظام الاجتماعي بأكمله، ويركّز جوزيف كليبر (J. Klapper) على التهرّبية (L'Escapisme) التي تحرف الانسان عن مشكلاته الحقيقيّة.. وتجيّر طاقاته إلى إنجازات لشخصيات وهمية، فيصبح الهروب عمليّة لا رجعة منها، ويغذّي الهروب نفسه فيتحرّك الإنسان داخل حلقة مفرغة.

وأنظر:

- (E. Morin, L'Esprit du Temps, Ed. Grasset, Paris, 1962, pp. 78 إدغار موران 89)، حيث يتحدّث عن حالتي الإسقاط والتوحّد الناجمتين عن التعرّض للإعلام الجماهيري واللتين تؤثّران في الخيال الفردي وتؤدّيان بالإنسان إلى أن يعيش بالتفويض حياةً تحرّمها عليه شروطه العادية.. وأن يخوض تجارب هي في الواقع ليست تجاربه.. وأن يرتدي ذاتاً أخرى افتراضية غير ذاته تحقّق له ما يتوق إليه داخل نفسه، فتصبح الثقافة الجماهيرية أو ثقافة الوسائل مصدر تروية للخيال الجماعي ومصدر قوى إسقاطية وإبعادية أو تعويضية، تخرج الإنسان من سياقات واقعه وتقذف به نحو حالة اغترابية كاملة.

(٧٠) أنظر الابحاث التي أجراها الوظيفيّون في :

- "Media et Société ", op. cit., pp. 544-567.
- " Sociologie de L'Information", op. cit., pp. 305-317.

محدودة في الزمان والمكان، وحول أحكام نهائية على صعيد المجتمع فيما يتعلّق بالتأثير الذي تمارسه مضامين وأشكال ثقافة الوسائل[٧١].

إن هذا التحفّظ على أساليب استخدام منهج التحليل الوظيفي لا يعني التحفّظ على مفهوم التحليل الوظيفي بحد ذاته، فهو منهج مفتوح يتمتّع بفاعلية، لأن ميرتون الذي نوّه بالوظائف الظاهرة والوظائف المستترة أو غير المتوقّعة[٧٢] لم يفرض وظائف ثابتة بل ترك للباحث حرّية تحديد هذه الوظائف انطلاقاً من أوضاع واقعيّة تسمح بكشف طبيعة التفاعل بين الظاهرة الإعلامية والظواهر الاجتماعية الأخرى في نطاق المجتمع، مع الأخذ في الحسبان سمات هذا المجتمع والمرحلة الحضارية التي يمر بها.

ولذلك، يمكن القول إن صيغة رايت لا تفرض مفاهيم أو طرائق بحث مطلقة وجامدة، وإنّما تقدّم إطاراً مرناً يتيح التعرّف على مواقع الخلل الوظيفي للإعلام الجماهيري في سياقات زمانية ممتدّة وأبعاد مكانية تحتضن الماكرواجتماعي (Macrosociety) وتحتوي المعطى التاريخي والحضاري بما ينسجم وخصوصية كل مجتمع، ويمكن أن تعتمد أيضاً على الملاحظة والتحليل المضموني والشكلي للمنتج الإعلامي[٧٣].

الإعلام الجماهيري والسلطة السياسية

يثير موضوع الوظائف في الإعلام الجماهيري العربي إشكاليات خاصة، تخضع لمؤثرات موروثية وسياسية واجتماعية عاشتها المجتمعات العربية والإسلامية، بدءا

(٧١) أنظر:

- E. Katz & D. Faulkes, " Public Opinion Quaterly ", Princeton University Press, vol. 26, 1962, pp. 377-388.

وأنظر في التأثيرات القصيرة والطويلة الاجل للاعلام الجماهيري في :

- M. Wolf, " Gli Effetti Sociali dei Media", Ed. Bompiani, Milano, 1995, pp. 31-175-179.

(٧٢) حول الوظائف المتعمّدة وغير المتعمّدة لميرتون، إقرأ في مصدر سابق :

- Sociologie de L'Information, pp. 56-60.

(٧٣) تكمن صلاحية منهجيّة التحليل الوظيفي للنظام الإعلامي العربي في اعتبار هذا الأخير نظاماً فرعياً مفتوحاً يتبادل التأثير ويتفاعل مع النظام المجتمعي الكلّي، انطلاقا من توفّر سمات عامة مشتركة للنظام الاتصالي الجماهيري العربي تسمح بالتعميم، في المجالات التاريخي والسياسي والتشريعي والاجتماعي والثقافي، حيث يمكن التركيز، خاصة، على طبيعة ومقوّمات العلاقة القائمة بين هذا النظام الاتصالي وبين النظام السياسي العربي، وتأثيرات هذه العلاقة على آليات تأدية الإعلام الجماهيري العربي لوظائفه في المجتمع.

من حقبات التدهور الحضاري، مروراً بالاحتلال العثماني القرني، ثم الاحتلال الغربي والتجزئة إثر تفكّك الأمبراطورية العثمانية وإخفاق الثورات القومية والنهضوية، انتهاءً بطبيعة الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تم تأسيسها في الأقطار العربية والإسلامية خلال مراحل الاستقلال وتوطيد السيادة الوطنية.

لقد أدركت السلطة السياسية في البلدان العربية، منذ فجر الاستقلال أهميّة الإعلام وأدواره وخاصة المسموع والتلفزي منه، الذي استطاع هدم جدران الأمّية والوصول إلى أوسع قطاعات المجتمع. ولذلك فقد حرصت على الإمساك بناصية الإعلام جميعاً، لتثبيت عوامل قوّتها واستمراريها، مستمدّة مبرّراتها من أن ظروف التخلّف والتجزئة تفرض ضرورة سيطرة الدولة على الإعلام الوطني، لكي لا يتشتّت في متاهات الإعلام الفئوي والخاص، ولكي يتم صبّ الجهد الإعلامي برمّته في اتجاه الخروج من حلقات التخلّف وإنجاز استراتيجيات التنمية والتصدّي للتحدّيات القومية والإقليمية[٧٤].

في إطار تلك الشروط التاريخية والسياسية والاجتماعية، وفي غياب أي شكل تقليدي أو تراثي أو مبتكر من أشكال الديمقراطية وأي نموذج مستقر من نماذج حرّية التعبير واستقلالية المؤسّسة الإعلامية يمكن محاكاته وتعميمه ضمن نطاق النظم السياسية والاجتماعية والعقائدية العربية السائدة[٧٥]، تبيّن الملاحظة الطويلة الأجل

(٧٤) "...وتعتبر كثير من الدول النامية أن المعارضة الدائمة من جانب وسائل الاتصال الجماهيري ترفاً لا يحتمله وضعها كدول تعاني من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، ويشكّل هذا الموقف حرجاً لكل من الإعلاميّين وحكوماتهم، تتمثّل في المدى الذي يمكن من خلاله احتمال المعارضة السياسية من جانب هذه الوسائل.." (أنظر: ليلى عبد المجيد، مجلّة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلّد الثالث والعشرون، ديسمبر ١٩٩٤).

(٧٥) ثمّة تجربة إعلامية وحيدة في الوطن العربي خاضتها لبنان عقب الاستقلال. حيث أدى اختياره للنظام الديمقراطي البرلماني الغربي إلى تبنّي تشريعات تعهد للقطاع الخاص بمعظم النشاط الإعلامي، ما أعطى الإعلام اللبناني المطبوع والمسموع والتلفزي هوامش حرّية واسعة أفسحت في المجال لتطوّر إعلامي لم تشهده أي من الدول العربية. إلاّ أن الطبيعة الخاصة للنظام السياسي والاجتماعي اللبناني أعطت للأنظمة العربية ذرائع مختلفة، غير مقنعة، تحول دون الإفادة من هذه التجربة الديمقراطية العربية الفريدة التي شكّلت، في مجال حرّية الإعلام، استثناء حضارياً يؤكّد القاعدة. ولا بد من الإشارة، في هذا المقام، إلى ظهور وانتشار صحافة مطبوعة خاصة تتمتّع بهوامش حرّية نسبية في بعض الدول العربية التي ما تزال السلطة فيها ممسكة بزمام الإعلام الإذاعي والتلفزي جميعاً (تعدّ قناة الجزيرة الفضائية القطرية تجربة فريدة هي الأخرى، إلاّ أنه من الصعب التوقّع ما إذا كانت ستشكّل حالة ظرفية أو أنها ستصبح ظاهرة قابلة للانتشار، ما يجعلها تجسّد استثناء آخر لا يحجب إمكانية عرض سمات عامة مشتركة لأكثر من ٩٠٪ من الإعلام العربي المطبوع والإذاعي والتلفزي).

والمتابعة المنتظمة والمقاربة العلمية والتحليل الموضوعي لآليات ممارسة الإعلام العربي والإسلامي وظائفه في المجتمع، ما يلي:

الوظيفة الإخبارية

تتّخذ علاقات الإعلام الجماهيري العربي بالسلطة السياسية طابع العلاقة بين تابع ومتحوّل[٧٦]، حيث يقوم المتحوّل، أي السلطة السياسية، بمهمّة الإملاء جوهراً وشكلاً، ويقتصر التابع، أي الإعلام، على إعداد أو حتى مجرّد تلقّي نصوص إعلامية جاهزة تنشر و تبث في الوسائل التقنيّة[٧٧].

(٧٦) فريال مهنا، الإعلام والنظم السياسية، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٣، ص. ٩٦ وما بعد.

(٧٧) - "..إن أسلوب صنع القرار في الوطن العربي لا يسمح بأن يكون نظام الاتصال مشاركاً في العمليّة. وقد ترتّب على ذلك أن نظام الاتصال لم يكن سوى أداة في يد السلطة السياسية.." (أنظر: بسيوني إبراهيم حمادة، دور وسائل الاتصال في صنع القرارات في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣).

- "..يمثّل احتكار السلطة السياسية للنشاط الإعلامي في الوطن العربي الظاهرة الأكثر شيوعاً.." (لمزيد من التفصيلات، أنظر: حمّاد إبراهيم، أزمة المعارضة في الصحافة المصرية المعاصرة، ورقة عمل لندوة دراسة المجتمع المصري، الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٣).
- "..إن النظام الصحفي السلطوي يشكّل الاتجاه الغالب على الأنظمة الصحفية العربية.. والنظام الصحفي اللبناني هو النظام الوحيد الليبرالي.." (لمزيد من التفاصيل، أنظر: فاروق أبو زيد، النظم الصحفية في الوطن العربي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٦).
- "..إن الاهتمام الأساسي للرسالة الإعلامية هو الجوانب السياسية والدعائية والتحرّك في دائرة الحكّام والزعماء.." (أنظر: عبد الله أبو حلال، الإعلام وقضايا الوعي الاجتماعي في الوطن العربي، المستقبل العربي، العدد ١٤٧، ١٩٩١).
- "..لا يتجاوز دور المحرّر في الصحافة العربية دور موزّع البريد في نقل الرسائل بين المصادر المختلفة.." (أنظر: عبد الفتاح عبد النبي، الأداء المهني للعاملين بالصحف المصرية، مجلّة اليقظة العربية، العدد ٨، آب ١٩٩٠).
- يلاحظ نبيل دجاني أن من البلدان العربية الأربعة التي درسها (الجزائر- السعودية- مصر- لبنان)، هناك ثلاثة (ما عدا لبنان) تتّصف الصحافة فيها بأنها "في خدمة السلطة السياسية.." أنظر:
(N. H. Dajani. " Analyse de la Presse dans quatre pays arabes" : La Presse en Eveil : Etudes des cas. France.n. 103, 1997).
في المجلّة الجزائرية للاتصال، معهد علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، العدد ١٥، حزيران ١٩٩٧.
- "..تميل الحكومات في معظم الأقطار العربية إلى توجيه الصحافة ووضعها تحت سيطرتها.. ولذلك، فإن الصحافة العربية لا تستطيع أن تذهب بعيداً بسبب القيود السياسية والاجتماعية والدينية المفروضة عليها، مما يحدّ من فرص وجود دوريات تعبّر عن آراء وأيديولوجيات تخرج عن رأي السلطة.." (أنظر: ياسر الفهد، الصحافة الثقافية في الخليج العربي، دار البشائر، دمشق، تاريخ بلا).

وكنتيجة طبيعية لهذه العلاقة، يلاحظ أن الإعلام العربي يشكو ضموراً واضحاً في وظيفته الإخبارية •، أي في وظيفة البحث عن المعلومات ومعالجتها وتعميمها ذلك أن المتحوّل يحول دون أن يبادر التابع إلى التحرّي في الوسط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.. من أجل رصد البيئة المحيطة (لاسويل).

ويعمل هذا الإعلام، في الوقت نفسه، على تقنين كميّة المعلومات التي يمرّرها عبر

• تسمح نظرية الإعلام بقياس الأنتروبيا {Entropy}، (وهو عامل رياضي يستخدم كمقياس للطاقة غير المستفادة أو للطاقة المهدورة في نظام حراري دينامي). أي يمكن تطبيق هذا العامل الرياضي لقياس كمّية المعلومات الواردة في إشارة أو في رسالة أو في مصدر معيّن. وتعرّف المعلومة بأنها كاللايقينية التي تصبح يقينية بظهور الإشارة فقط، هذه اللايقينية تتناسب عكسياً مع ازدياد احتمالية ظهور الإشارة.. وتزداد الأنتروبيا كلّما ازداد عدد الاحتمالات وتنخفض كلّما كانت الاحتمالات غير متساوية، وتصبح الأنتروبيا مساوية للصفر عندما يحتوي أحد الإمكانات احتمالاً مساوياً لـ(١/١) أي عندما يصبح الاحتمال أكيداً، إذن، ليست هناك أية عدم يقينية، إذن، ليست هناك أي معلومة.

هذه النظرية تعني ببساطة أن كميّة الأنتروبيا، أي نسبة المعلومات الواردة في رسالة إعلامية ما تنخفض كلّما ازداد احتمال ظهور هذه المعلومات في تلك الرسالة، أي كلّما ازداد يقين المتلقّي بورودها.

ويلاحظ، لدى تطبيق هذه الصيغة على نصوص إعلامية تمثيلية تنشرها وتبثّها وسائل إعلام عربية وإسلامية أن كميّة المعلومات تقترب من النسب الاعتيادية الموجودة في مجتمعات أخرى متقدّمة ونامية، عندما تكون هذه الرسالة متعلّقة بشؤون خارجية لا تمسّ بشكل جوهري شؤون الجمهور الإعلامي العربي والإسلامي، وأن حجم المعلومات يهبط هبوطاً لافتاً عندما ترتبط الرسالة بأحداث وقضايا قومية وإقليمية، لتدنو من الصفر، أي من اللامعلومة عندما يتم نشر أو بثّ رسالة متّصلة بوقائع داخلية تقع في صلب اهتمام الجمهور الإعلامي.

لا شك أن الأنتروبيا أو حجم المعلومات الواردة في رسالة إعلامية عربية أو إسلامية تتفاوت من موضوعات الى أخرى ومن وسيلة إعلامية الى أخرى ومن مجتمع الى آخر، ولكنّها تقع، بصورة عامة، ضمن نطاق مقاييس أنتروبية تكشف عن وجود ضعف معلوماتي جوهري (Anémic)، تزداد حدّته لدى تناول الإعلام أحداثاً وشؤوناً تقع في أعلى سلّم أولويات الجمهور الإعلامي لأنها ترتبط بصميم حياته ومصالحه وصيرورة المحيط الذي يعيش فيه.

لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، أنظر :

- فريال مهنا، نحو بلاغة إعلامية معاصرة، الجزء الأول، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٣، ص. ٨٦-٨٨.
- E. Robert, "L'Ecrit et La Communication", Ed. P. U. F.,Paris, 1984, pp. 22-24.

القنوات الإعلامية إلى أقصى حدّ ممكن[٧٨] ، فلا يبقى للتابع سوى حريّة اللجوء إلى

(٧٨) تقتصر الأخبار والتقارير الإخبارية الواردة في الصحف والإذاعات والتلفزات العربية الرسمية حول أحداث داخلية جوهرية مرتبطة بحياة السواد الأعظم من الناس وقضاياهم ومشكلاتهم ومصائرهم في جميع المجالات، على نشر وبث نصوص جاهزة، مصنّمة، وأحادية المصدر (السلطة)، تحتوي تعداداً روتينيّاً مكروراً لأسماء وألقاب صنّاع الحدث ومناصبهم من المسؤولين في المستويات كافة (اجتماعات سلطات تنفيذية وتشريعية- اجتماعات مؤسّسات وهيئات حكومية- تشريعات وقرارات وإجراءات وسلوكات سياسية وإدارية واقتصادية ومالية ومصرفية وثقافية واجتماعية وتنموية الخ..)، تليها عبارات شعارية ثابتة وصالحة لكل حدث في كل زمان ومكان "..وبحث مجلس الوزراء المسائل المرتبطة بالانتاج الزراعي والتسويق.. ووضع الخطط المناسبة لها.. (دون شرح ماهيتها)، كما بحث فيما تمّ إنجازه في مشاريع الريّ والسدود الخ.. واتّخذ القرارات الملائمة (دون عرض فحواها أو توضيح طبيعة المعالجات الواردة فيها ")/ "وناقش أعضاء الهيئة (التشريعية) موضوعات (زراعية – صناعية- خدمية- تجارية-داخلية أو خارجية الخ..) مطروحة على جدول الأعمال (دون ذكر مضمون المداخلات) ثـمّ تـمّ إقرار بعضها وإحالة البعض الآخر إلى اللجان المختصّة لمناقشتها.." / " وناقشت المؤسّسة (المختصّة) سير العمل في بعض المرافق التابعة لها، واتّخذت الإجراءات والتدابير اللازمة (دون توضيحها) " / "..وأصدر الوزير (المعني) القرارات الضرورية لتطوير العمل في الحقل.. (الخدمي أو التمويني أو الاقتصادي أو التعليمي أو القضائي أو الإعلامي الخ..) ورفع وتائره (دون ذكر المشكلة أو الوضع القائم) وإزالة المعوّقات (دون ذكرها أو دون ذكر مسبّباتها أو دون ذكر آليات إزالتها) وهكذا..

ويزخر الإعلام العربي الرسمي بأخبار وتقارير مستفيضة حول تحرّكات أركان السلطة في جميع القطاعات، حيث تمتدح منجزاتهم ونجاحاتهم، وتمجّد المكتسبات التي حقّقتها هذه السلطة في جميع المجالات، والهبات التي أنعمت بها على الشعب، والتطوّر المطّرد الذي يشهده المجتمع.. وتخلو جميع هذه المواد الإعلامية "الإخبارية" من أي معلومات أو معطيات محدّدة أو ارقام أو بيانات توضيحية أو وثائق تفصيلية من شأنها أن تحقّق الحد الأدنى من الشفافية. وإذا كانت الصحف تعرض أحيانا لبعض المشكلات الجزئية والهامشية في بعض المجالات الاقتصادية والخدمية، فإن الإذاعة والتلفزة تحجمان تماماً عن إيراد أية إشكاليات أو سلبيات من أي نوع وفي أي مجال.

أما فيما يرتبط بالأحداث العربية، فالأخبار والتقارير تتضمن أسماء المسؤولين مسبوقة بألقابهم التفخيمية والتعظيمية وأسماء أعضاء الوفود وطقوس لقاءاتهم (مصافحات – عناق – تقبيل أيدي ووجنات وجبهات – أناشيد وطنية – استعراض حرس الشرف – إستقبالات شعبية – زينات – مراسم توديع) وعبارات مكرورة : "..وتـمّ بحث العلاقات الثنائية والموضوعات ذات الاهتمام المشترك، وكانت وجهات النظر متطابقة.." / " وجرى بحث العلاقات بين القطرين الشقيقين وسبل تطويرها والأوضاع في الشرق الأوسط والعالم.." / " وحمّل (اسم المسؤول) تحيّاته وتمنياته لأخيه (نظيره) معرباً عن سروره واعتزازه بما تحقّق من منجزات وانتصارات على الصعد كافة الخ..".

".. وأشاد الجانبان بعمق العلاقة التي تربط البلدين والشعبين الشقيقين، وأعربا عن أملهما في تحقيق تطلّعات شعبيهما وآمال الأمة العربية..".

طائفة من الإنشائيات والكليشهات والمقولبات والأشكال الشعارية الثابتة والصالحة في كل زمان ومكان وظرف ليتمكّن من سد الفجوات المعلوماتية[٧٩] .

كما ورد آنفا، يصف فرانسيس بال الوظيفة الإخبارية بأنها عملية نشر معلومات تزوّد المجتمع بوسائل تجعله قادراً على كشف ذاته.. وتوفّر له إمكانية تغيّير نفسه بنفسه.. وتجعل الخيارات المتعلّقة بالمصير الجماعي أكثر وضوحاً، كما تجعل الحلول للوصول إلى هذه الخيارات أقل غموضاً وأكثر فعالية.

هذا يعني أن الانحباس المعلوماتي في الإعلام العربي يكرّس أشكالاً من الامتثالية المبنية على عدم معرفة وليس على إرادة واعية وقبول مدرك، ما يجعل هذه الامتثالية عاملاً رئيساً من عوامل تعطيل قابلية التطوّر في صفوف العامّة وتجميد دور الخاصّة المتنوّرة.

والأهم من ذلك، هو أن هذا الحجر المعلوماتي المنظّم يهدف إلى جعل الخيارات المتعلّقة بالمصير الجماعي أقل وضوحاً وجعل الحلول للوصول إلى هذه الخيارات أكثر غموضاً وأقل فعّالية.

- " وشكر (المسؤول) مضيفه على حسن الوفادة وكرم الضيافة ودعاه إلى بلاده، فرحّب الضيف ووعد بردّ الزيارة في أقرب وقت الخ..".

إن هذه الأنماط من النصوص " الإخبارية" تحتلّ المساحة الأكبر في كل الإعلام الرسمي. ومن العبث ربطها بوسيلة إعلامية معيّنة أو بزمان ومكان معيّنين، لأنها طاغية في جميع الأزمنة والأمكنة: وهي تتحرّك ضمن مسارات خاصة بها لا علاقة تربطها بمجرى الأحداث في المجتمع الواقعي.

ويتّبع الإعلام العربي الرسمي أجندة إخبارية تتنافى مع أكثر مفاهيم العمل الإعلامي بدهية، حيث تتقدّم أخبار إنشائية مطوّلة حول تحرّكات روتينية يومية لمسؤولين حكوميين، أو حول تبادل رسائل تهنئة بمناسبة أعياد عامة وخاصة تقليدية، أو رسائل عزاء أو ولاء أو تأييد ضمن نطاق التركيبة التراتبية للنظام، على أخبار داخلية وعربية وإقليمية ودولية غاية في الأهمّية بالنسبة لحياة الشعوب العربية ومصائرها ومستقبلها. ويكفي أن يتابع المرء أجندة نشرات الأخبار في الإذاعات والتلفزات العربية الرسمية أثناء أحداث مهمّة وخطيرة حدثت وتجري داخل الأقطار العربية أو في فلسطين وجنوب لبنان والعراق وغيرها، ليتعرّف على غرابة واستبدادية المعايير الإعلامية التي يتبناها هذا الإعلام العربي في تنظيم أجنداته الإخبارية.

(٧٩) "..إن وسائل الاتصال العربية الخاضعةلإشراف حكومي مباشر أثبتت، في كثير من الأحيان، قصورها عن الوفاء بحاجة الجماهير إلى القدر الكافي من المعلومات والتنوّع المطلوب في مصادرها.." (ليلى عبد المجيد، مجلّة عالم الفكر، المصدر نفسه).

ولا شك أن هذا الضمور المعلوماتي يتفاوت في شدّته وموضوعاته ومظاهره من إعلام عربي إلى آخر ومن وسيلة إعلامية إلى أخرى ومن فترة زمنية إلى أخرى، تبعاً لظروف المتحوّل ومتطلّباته وتقلّباته وسلوكه وأساليبه، غير أن الخلل الحاصل في الوظيفة الإخبارية يعدّ سمة عامة أساسية من سمات الإعلام الجماهيري العربي.

وهكذا، فإن الخلل في الوظيفة الإخبارية الذي أحدثه المتحوّل ليكرّس الإعلام الأمني، أصبح يؤدي، بصورة متزايدة، إلى تعريض الأمن الإعلامي العربي للخطر.

وظيفة صياغة الرؤية

وبما أن العلاقة بين مختلف وظائف الإعلام الجماهيري هي علاقة عضوية، فإن الخلل الحاصل في الوظيفة الإخبارية للإعلام العربي يؤدي إلى خلل آخر في وظيفة صياغة الرؤية التي يصفها ستويتسل، كما ورد آنفا، بأنها تحقّق الانتماء الاجتماعي ويسمّيها رايت بناء العلاقة بين عناصر المجتمع، ويطلق عليها لاسويل وظيفة تنسيق ردرد أفعال مختلف أطراف المجتمع على الوسط المحيط: ذلك لأن الإعلام العربي ينظّم ردود أفعال على الوسط المحيط دون أن يتحرّى في هذا الوسط، فيعمد الى بناء العلاقة بين عناصر المجتمع انطلاقا من تفكير تابع، يخضع لإرادة المتحوّل ورغباته، ما يضطرّه الى استخدام صيغ افتراضية، تبريرية وملفّقة لا تستند الى وقائع ومجريات وتفاعلات حقيقيّة قائمة بين مختلف عناصر المجتمع الواقعي[٨٠].

(٨٠) من خلال دراسة نماذج عديدة ومتنوّعة في موضوعاتها واهتماماتها وتخصّصاتها، عبر فترات زمنية مطوّلة، يلاحظ أن السلطة تترك في بعض الدول العربية، لصحف يومية رسمية وخاصة ومجلات ثقافية واجتماعية، هامش حرّية زئبقي، تخضعه لإرادتها باتجاه التوسيع أو التقليص الظرفي، فقط فيما يتعلّق بمعالجة موضوعات خدمية واقتصادية واجتماعية محدودة (العراق – ليبيا – تونس – سورية – السودان). وهناك دول عربية أخرى تسمح لصحافتها المطبوعة الخاصة أو العامة بخوض شؤون سياسية واقتصادية وثقافية ثانوية وجزئية لا تقترب مطلقاً، تصريحاً أو تلميحاً، من المرتكزات الأساسية للنظام وسياساته الداخلية والخارجية (مصر – الأردن – المغرب – اليمن – أغلبية دول الخليج – الجزائر).

أما فيما يتعلّق بالإعلام الإذاعي والتلفزي، فإن هوامش الحرّية فيما يرتبط بوظيفة الإسهام في صياغة الرؤية، بصورة مستقلّة، معدومة. وكما يوضّح د. إبراهيم حمادة بسيوني أنه إذا كان نظام الاتصال الصحفي يتمتّع بقدر من الحرّية.. فإن نظام الاتصال الإذاعي والتلفزي لا يدعو لطرح مجرّد تساؤل عن دوره في صناعة القرارات، إذ ليس هناك مجال أمام المعارضة (إن وجدت) ليس لامتلاك ولكن مجرّد عرض أفكارها ضمن البرامج الإذاعية والتلفزية التي تخضع مباشرة -

ليس من الصعب إدراك مدى خطورة هذا الخلل في عصر المعلومات وثورة الاتصالات الأرضية والفضائية، فالمتلقّي العربي الذي يجد نفسه في مواجهة ستار من الصمت المعلوماتي الداخلي ويحاول إشباع حاجاته الفيزيولوجية من خلال الانخراط في شبكات معلوماتية أهلية تحتوي خليطاً من " أنباء وتحاليل وتفسيرات شفهية" تتداولها المجالس، وشائعات منفلتة، مصدراً ومضموناً، تغذّيها مصادر إعلام خارجي يتحرك عن غير معرفة دقيقة بالشأن الداخلي وينطلق من دوافع مختلفة تضمن مصلحة مرسل غير مكترث أو غير نزيه أو حتى مناوىء.

وما يزيد الوضع تفاقماً أن هذه الشبكات الأهلية تنشط داخل مواقع موازية للإعلام الرسمي الذي يدور في فلك لا يتيح له التقاطع معها لتناول مضامينها وضبطها في مناخ نقاش علني.

وظيفة الضبط الاجتماعي

ونتيجة لهذا الخلل المزدوج، من الطبيعي أن تختلّ وظيفة الضبط الاجتماعي في الإعلام العربي، أو بكلمات أخرى، وظيفة الرقابة الاجتماعية التي يمارسها أي إعلام في حالته الصحيّة، عبر عمليات إفشاء متواصلة تؤدي إلى بلورة إدانة جماعية علنية لمواقع الفساد والانحراف، تترتّب عليه بالضرورة إجراءات ردعية ووقائية ملائمة تكرّس سيادة المعيار الأخلاقي.

ليس بمقدور الإعلام العربي، بنية ووظيفة، أن ينهض بهذه المهمّة الحيوية[٨١] لأنه

= لإشراف وزارة الإعلام. (بسيوني إبراهيم حمادة، العلاقة بين الإعلاميّين والسياسيّين في الوطن العربي، مجلّة عالم الفكر، مصدر سابق).

وتشير أ. د. نسمة البطريق أن هناك ميلاً متعمّداً لدى الإعلام العربي لاختصار المشكلات الاجتماعية والسياسية والثقافية وتحجيمها في صورة لا تتناسب والواقع المرير الذي يعيشه المجتمع العربي وطبقاته المختلفة، نتيجة للتقنيات المتّبعة من قبل الحكومات في الدول العربية وتنوّعها وفقاً للنزعات السياسية وتحقيقاً لمبدأ سلطة الدولة وانفرادها في تطبيق أيديولوجية واحدة لا تمثّل الوعي الفكري والثقافي للطبقات والأنماط الاجتماعية الأخرى (نسمة أحمد البطريق، نظرية الإعلام المرئي المسموع، دراسة في المدخل الاجتماعي، كليّة الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٩).

(٨١) تتطرّق بعض الصحف والمجلات العربية، في عدد محدود من الدول العربية، الى مواطن فساد إداري واقتصادي وممارسات بيروقراطية معيقة، ولكن محاولاتها الإفشائية تطال فقط مواقع مسؤولية اقتصادية وادارية دنيا أو متوسّطة في أفضل الأحوال، وغالبا ما تذهب هذه الرقابة المتواضعة والخجولة أدراج الرياح وتتحوّل الإدانة الجماعية الى عملية استهلاكية وتفريغية عقيمة، لأن الإعلام لا يقوم بها بمبادرة ذاتية وحرّة، كمصدر مستقل من مصادر المجتمع، بل استجابة لإرادة =

يتحرك في حقل ألغام سلطة سياسية لا ترى في الإعلام وسيطاً موضوعياً بينها وبين أطراف المجتمع الأخرى، أو انعكاسا للإرادة العامة التي يتحدّث عنها جان جاك روسو، أو للروح العامة التي يشير إليها جون لوك، ولا ترى في الإعلام تجسيداً لرأي عام جعله كانط حكماً مطلقاً بين السياسة والأخلاق، بل ترى فيه جهازاً حسّاساً من أجهزتها تنحصر مهمّته في صياغة رؤيتها الأحادية ونشرها، وفي تحويل عناصر المجتمع إلى جماعات خاملة تستقبل الرؤية وتختزنها لتعود إلى ترديدها قسرياً عند الحاجة، محقّقة " القبول الجماعي".

ولذلك، فإن الإعلام العربي يجد نفسه مرغماً على إغراق المتلقّي بسيل إعلامي يسير دوماً في اتجاه عامودي، من الأعلى إلى الأسفل، ويعمل جاهداً على منع أي تدفّق جوهري وحقيقي للرأي من الأسفل إلى الأعلى.

ولا شك أن امتناع الإعلام الجماهيري العربي عن فتح قنواته أمام هذه الطاقة المتجوّلة أفقيا في أوساط المجتمع، يجعل هذا الإعلام عاجزاً عن التخفيف من شدّة الاحتقان الموجود في ثنايا هذا المجتمع، ويؤدي إلى إخفاقه في أن يلبّي للجمهور حاجة حقيقيّة غدت أكثر إلحاحاً في عصر التقانيات المعلوماتية الجديدة.

* * *

= سلطوية تستخدم ما تعدّه جهازاً من أجهزتها، لتخفيف وطأة الاحتقان المتفاقم داخل المجتمع. لهذا، تغدو تلك المحاولات مجرّد فقاعات تجرّد الإعلام المطبوع من أية سلطة فعلية ومن أي نفوذ أو تأثير ذي معنى، وتفقده، بالتالي، كل مصداقية وتدفع الجمهور ألى مزيد من الشعور بالعجز والإحباط. وبدهي أن ممارسة الإعلام الإذاعي والتلفزي لوظائف الضبط الاجتماعي تكاد تكون محرّمة تماماً.

الفصل الثالث

ثقافات الإعلان و الترفيه في الإعلام العربي

الوظيفة الإعلانية

وتأتي الوظيفة الإعلانية منسجمة مع الخلل العام، غير أن هذا الخلل يزداد عمقاً وخطورة، يوماً بعد يوم، نتيجة تصاعد استخدام المجتمعات العربية الراهنة للتقانيات الاتصالية الحديثة المرتبطة أيضاً بالتلفزة الأرضية والفضائية، فالإعلان التلفزي، بصورة خاصة، لم يعد مجرّد وسيلة لزيادة حجم الاستهلاك السلعي في المدى المنظور وتحقيق ربحية عالية وأهداف اقتصادية آنيّة، وإنّما أصبح - حسب أبحاث السوق الحديثة التي تعدّها مؤسّسات مختصّة على الصعيد الاجتماعي القومي وعبر القومي - عنصراً مهمّاً يندرج في إطار خطط واستراتيجيات تتصبّ، بصورة أساسية، على إيجاد مقولبات ترسّخ نموذجاً حياتياً شاملاً ونظاماً أخلاقياً متكاملاً وسلّم قيم مدروس بعناية، يحقّقون في نهاية المطاف أهدافاً ومصالح بعيدة المدى لأصحاب السلع والمنتجات والخدمات. وتثبت دراسات السوق الأخيرة أن المؤسّسات الاقتصادية لم تعد تنتج سلعة ثم تحاول ترويجها وتسويقها عبر الإعلان فحسب، بل تعمل أيضاً على صنع مستهلك مهيأ اجتماعياً ونفسياً وسلوكياً لتنفيذ استراتيجياتها، ليس فقط على صعيد محلّي، وإنّما أيضاً وخاصة، على صعيد كوكبي.

وما يزيد الأمر تفاقماً أن الإعلان الذي يستثمر كل خصائص التلفزة وتقانياتها، يحتلّ في العصر الراهن حيّزاً كبيراً في الإعلام الجماهيري المتلفز، والرسالة الإعلانية هي الرسالة الأكثر تكراراً بالمقارنة مع الرسائل التلفزية الأخرى، وهي أيضاً الأكثر حضوراً لأنها تبث في جميع القنوات أو معظمها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن جمهور البرامج التلفزية الأخرى هو دوماً جمهور جزئي، لأن المتلقّي يجري عملية اصطفاء حسب عمره وجنسه وقناعاته ووضعه الاجتماعي وثقافته وميوله واهتماماته ورغباته، في حين أن جمهور الإعلان هو جمهور كلّي وشامل لأن الرسالة الإعلانية متغلغلة في ثنايا جميع المواد الإعلامية ولا تخضع لعمليات انتقاء إرادية أو واعية.

إن هذا الحضور الكلّي وتلك الأدوار المؤثّرة التي يسهم الإعلان التلفزي من خلالها في صياغة عقليات وسلوكيات وقناعات، تصطدم، في معظم البلدان المتطوّرة بأنظمة دفاعية متكاملة قائمة على تشريعات وقوانين وإجراءات حماية ورقابة تتضافر الدولة والمجتمع المدني لوضعها موضع التطبيق، صيانة لحقوق السواد الأعظم من الناس وحماية للفئات الأكثر هشاشة تجاه النشاط الإعلاني عبر وسائل البث الجماهيري.

بدهي أن المجتمعات العربية لم تبلغ بعد مراحل متطوّرة في أبحاث السوق وفي استراتيجيات الإعلان التجاري، إلاّ أن حاجتها إلى أنظمة دفاعية ذات طابع تشريعي ومؤسّسي تفوق حاجة تلك الدول المتقدّمة لأسباب عديدة لعلّ أهمّها التالي[٨٢] :

١) إن الإعلان التلفزي العربي يمر بأطوار الاندفاع الكمّي العشوائي نتيجة متغيّرات اقتصادية وثقافية وفكرية هبطت على مجتمعات عربية غير مهيّأة موضوعياً وذاتياً لمجابهة هذا الضرب من النشاط الإعلاني الفوضوي.

٢) وقد أدخلت هذه المتغيّرات الفجائية إلى مضمار النشاط الصناعي والتجاري فئات اجتماعية تبحث عن ربح آني مضمون بعيداً عن هموم التنمية، وتفتقر، في معظمها، إلى خلفيات علمية وثقافية ومعرفية وإلى خبرة وعراقة في مجال المعطيات الحديثة لاقتصاد السوق، وتروّج هذه الفئات لمنتجاتها وخدماتها عبر بث رسائل إعلانية تعكس عقليتها وسلوكياتها وقيمها الاجتماعية، ما أدّى إلى اقتران الكم العشوائي بالكيف الرديء.

٣) إن أكثر القائمين على صناعة الإعلان العربي ينتمون إلى ذات الفئات الاجتماعية المنتمية من القاع أو يتنافسون على إرضاء تلك الفئات ومجاراتها، فيحمّلون الرسالة الإعلانية، إضافة إلى الكم المنفلت والمضمون الغث، صوراً وأشكالاً ورموزاً تسهم في طمس قيم حضارية وجمالية أصيلة لتعمّم أنماطاً حياتية مشوّهة وسيّئة التهجين.

---

(٨٢) انظر: فريال مهنا، "الإعلان التلفزي والتشريعات في المجتمعات الراهنة"، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد ٥، ١٩٩٩، ص. ٤٥.

٤) تتسرّب عبر شاشات التلفزة العربية أحيانا مواد إعلانية أجنبية منتزعة من سياقاتها كما هي، لا يتلاءم بعضها مع خصوصية مجتمعاتنا ومع أعرافنا وتقاليدنا الإيجابية، وهو أمر يجب ألاّ يبقى في مجال القرار الظرفي بل أن يدخل في محيط القوننة. من ناحية أخرى، فإنه على الرغم من أن التقانيات التي يستخدمها الإعلان العربي المحلّي ما تزال في أطوارها الأولى، فإن تأثّر أساليب العرض وأدوات الإقناع بمفاهيم غربية مقحمة على السياق الحضاري العربي من جهة، والحرص على الالتزام بالجوانب المظهرية، دون الجوهرية، للتقاليد، من جهة أخرى، يمارسان تأثيرات سلبية من حيث المضمون القيمي ومن حيث المضمون الشكلي، في غياب تشريعات إعلانية واضحة تنظّم الظاهرة وتحدّد المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية والجمالية.

٥) يتوجّه الإعلان إلى جمهور تلفزي يستهين، في أغلب قطاعاته، بتأثير الرسالة الإعلانية ونفوذها، ويستقبلها بسلبية خالية من أية روح نقدية واعية.

٦) تسلك الدولة، في العديد من المجتمعات العربية، سلوك القطاع الخاص، إذ تتهافت تلفزات القطاع العام على أرباح الإعلان السريعة والسهلة، متجاهلة بعض أهم مسؤولياتها الاجتماعية تجاه المجتمع، متغافلة عن الضرر الذي تتعرّض له جهود التكيّف الاقتصادي مع معطيات العولمة، وعن الآثار السلبية لهذه الهجمة الإعلانية.

صحيح أن من حق الدولة وواجبها أن تبحث دوماً عن مصادر دخل، غير أن ذلك يجب ألاّ يتم على حساب المجتمع، لأن إصلاح ما تفسده مادة إعلانية هابطة، موضوعاً وشكلاً، سيكلّف الدولة أكثر ممّا تحصل عليه من عائدات الإعلان. وإذا كانت الدولة ومؤسّساتها المختلفة تستخدم الإعلان أحياناً لتحقيق بعض الأهداف الإنتاجية والخدمية، فإن هذا النوع من الترويج الإعلاني يتبدّد ويفقد وقعه في خضم بحر من الإعلان التجاري الخاص.

٧) تخضع عملية تقويم المنتج الإعلاني العربي، في أغلب الأحيان، لاعتبارات غير مهنية وقناعات شخصية وتقديرات فردية وقواعد فضفاضة تفتقر إلى قوّة التشريع، وتدابير إجرائية تفرض إرادة السلطة المختصّة لا سلطة القانون.

تعدّ التجربة الإعلانية الأوروبية[٨٣]، بشكل عام، من أكثر التجارب تطوّراً في

(٨٣) كان مجلس السوق الأوروبية أصدر تشريعات عامة حول الإعلان التضليلي في أيلول عام١٩٨٤، تتضمّن سلسلة من الإجراءات الوقائية بهدف حماية المستهلك والجمهور بصورة عامة من أي إعلان يضلّل أو يمكنه أن يضلّل الأشخاص الذين يستهدفهم أو يصل إليهم، ويمكنه أن يدفعهم، بالتالي، إلى سلوك اقتصادي متهوّر يؤدّي إلى الإضرار بهم، كما تتضمّن جملة من التدابير التي يجب أن تتّخذها الدول الأعضاء في السوق لخلق بنيات قضائية وإدارية مخوّلة إصدار عقوبات بحق أصحاب السلع والخدمات المعلن عنها، حتى وإن لم تكن هناك آية أدلّة ملموسة أو براهين تثبت وقوع الضرر فعلياً، إذ يكفي أن تتوفّر النيّة في خداع المستهلك أو الجمهور.

غير أن مجلس السوق الأوروبية وجد أن الانتشار الكبير للتلفزة الخاصة والفضائية خلال السنوات الأخيرة يحتاج إلى تشريعات قائمة بذاتها تحمي المجتمعات الأوروبية وتزوّدها بأدوات فعّالة لمواجهة الاجتياح الإعلاني الذي رافق هذا الانتشار، فأصدر التشريعات- الإطار عام ١٩٨٩ تحت اسم " التلفزة بلا حدود".

الملفت في مقدّمة هذه التشريعات أن مجلس السوق لا يميّز بين تلفزة عامة مملوكة للدولة وبين تلفزة تجارية خاصة، حين يؤكّد أن الوظائف الحيوية للتلفزة تتجلّى في إنتاج برامج إخبارية وتربوية وتثقيفية وترفيهية، وأن الإعلان الذي يعدّ مصدراً مالياً لا غنى عنه يجب ألاّ يحوّل هذه التلفزة إلى مجرّد وسيلة إعلانية، بل أن يسهم في تحسين أداء التلفزة لتلك الوظائف الاجتماعية الأهم والتي يجب أن تشغل معظم زمن البث.

تضع التشريعات -- الإطار الأوروبية لجميع الدول الأعضاء قواعد كميّة تتعلّق بالكثافة الإعلانية في التلفزة، وأخرى نوعية ترتبط بمضمون المادة الإعلانية.

أهم بنود القواعد الكميّة تحدّد الكثافة الإعلانية على النحو التالي:

١. يجب ألاّ تتجاوز الكثافة الإعلانية ٢٠٪ من ساعة بث تلفزي واحدة، أي أن زمن الإعلانات يجب ألاّ يتجاوز ١٢دقيقة في الساعة.
٢. يجب ألاّ تزيد الكثافة الإعلانية عن ١٥٪ من البث التلفزي اليومي، أي أن الزمن المخصّص للإعلانات يجب ألاّ يزيد عن ثلاث ساعات ونصف تقريباً خلال ٢٤ ساعة من البث.
٣. تخصّص نسبة ٥٪ إضافية من البث اليومي للبيع التلفزي وللبرامج الإعلانية الترويجية، فتصبح النسبة الإجمالية للإعلان المفرد وللبيع والترويج (١٥+٥=٢٠٪) من البث اليومي، أي حوالي ٤ ساعات في ٢٤ ساعة.
٤. فيما يتعلّق بالقطع الإعلاني أثناء بث مادة إعلانية، يجب ألاّ يبدأ هذا القطع قبل مرور ٢٠ دقيقة على الأقل على بدء بث المادة الإعلامية.
٥. يمنع القطع الإعلاني منعاً باتاً خلال بث برامج أطفال ونشرات أخبار وبرامج إخبارية وبرامج وثائقية وبرامج دينية لا تزيد مدة بثها عن ٣٠ دقيقة.
٦. أما بالنسبة للأفلام الطويلة والأفلام التلفزية (فيما عدا المسلسلات والروايات المتلفزة والبرامج الترفيهية والبرامج الوثائقية التي تزيد مدة بثها عن ٤٥ دقيقة)، فيسمح بالقطع الإعلاني مرة واحدة خلال الـ ٤٥ دقيقة.

العالم، إلاّ أن ذلك لا يعني تطبيق تجارب الأخرين بصورة آلية على واقع عربي مختلف من حيث درجة التطوّر ومن حيث البنيات الفكرية والثقافية ومن حيث المفاهيم الاجتماعية والأخلاقية، وإنّما يعني الإفادة من جوهر تلك التجربة ومنهجها بهدف تجنّب ثغرات وسلبيات واجهتها تلك الدول المتقدّمة في وقت لم يكن الانتشار الإعلامي، وخاصة المتلفز منه، بلغ هذه الأبعاد غير المحدودة وأصبح الوقوع فيها عبر تجربة ذاتية مغلقة، يؤدي إلى إحداث أضرار بالغة بالمجتمعات العربية النامية التي تجابه الظاهرة الإعلانية كمّاً ونوعاً، في حقبة ثورات تقانية اتصالية متسارعة الوتيرة وإعلام جماهيري أرضي وفضائي يحقّق حضوراً كلّياً ويمارس تأثيرات اجتماعية وثقافية من شأنها أن تسهم في تحديد اتجاهات التطوّر ووتائره داخل تلك المجتمعات التي تحاول اختزال المراحل التقليدية للدخول في سياق الراهن واللحاق بركب حضارة ذات سمات جديدة.

= أما أهم بنود القواعد النوعية المرتبطة بمضمون المادة الإعلانية، فهي:

١- يجب أن تحترم الرسالة الإعلانية القيم الأوّلية للإنسان.

٢- تحرّم التشريعات- الإطار الأوروبية أن يتضمّن الإعلان إهانة أو تحقيراً للكرامة الانسانية.

٣- وتحرّم أن تحتوي الرسالة الإعلانية أي شكل من أشكال التفرقة، فيما يتعلّق بالجنس والعرق والقومية.

٤- وتحرّم أن يوجّه الإعلان إهانة لقناعات دينية أو سياسية.

٥- وتحرّم هذه التشريعات أن يشجّع الإعلان الجمهور على اتباع سلوك يشكّل خطراً على صحته أو على أمنه وسلامته أو على حماية البيئة.

٦- تمنع التشريعات- الإطار منعاً باتاً الإعلان:

أ. لترويج السجائر والسيجار والتبغ بكل أنواعه.

ب. لترويج أدوية أو علاجات طبية لا يمكن الحصول عليها إلاّ بوصفة طبية.

٧- ثمة قواعد أخرى تنظّم الإعلانات الموجّهة للقاصرين وتلك المروّجة للمشروبات الروحية. وهي قواعد صارمة تتضمّن شروطاً إضافية وإجراءات كابحة تهدف إلى حماية القاصرين من أخطار الإعلان التلفزي الذي يستهدفهم، وحماية المستهدفين من أضرار المشروبات الروحية.

٨- تلزم تلك التشريعات القناة التلفزية بالإشارة صراحة أن المادة التي تبثها هي ذات صبغة إعلانية.

وهناك جملة من القواعد تتعلّق بتنظيم الإعلان المباشر والإعلان غير المباشر، الإعلان الصريح والإعلان الخفي، إضافة إلى المسائل المرتبطة بتمويل منتجي السلع والخدمات ومسوّقيها، للبرامج التلفزية.

إلى جانب هذه القواعد العامة، تفرض التشريعات- الإطار قواعد خاصة أكثر تشدّداً ترتبط بفئات سلعية عديدة منها العقاقير التي لا تحتاج إلى وصفة طبية والمنتجات المعدّة لاتباع نظام غذائي خاص والمنتجات المالية الخ..

(Documents : Directives CEE, n° 552, Octobre1989, " TV sans Frontière").

لمزيد من التفاصيل، إقرأ : فريال مهنا، الإعلان التلفزي في المجتمعات الراهنة، مصدر سابق.

إذن، و بعيداً عن استيراد حلول معلّبة ووصفات جاهزة تؤدي إلى تفاقم المشكلات لا إلى حلّها، فإن الاسترشاد بتجربة إعلانية عريقة كتلك الأوروبية، تتيح إمكانية التعامل بكفاية مع حقبة تكنومعلوماتية تحدث تغيّيرات مستمرة في بنيات الاتصال الاجتماعي لم يعد بالإمكان مجابهتها واستيعاب تأثيراتها، بوعي وفاعلية، عبر إجرائيات متخلّفة ووتائر تقليدية:

ثمّة حدّ أدنى من التنسيق بين مختلف الدول العربية الأعضاء في الجامعة العربية حول العديد من القضايا الأمنية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، ما يمهّد الطريق لسنّ تشريعات إعلانية إطار تلتزم بها جميع الدول الأعضاء وتعمد إلى استيعابها في تشريعاتها القطرية بما يتناسب وظروف كل مجتمع عربي.

غير أن سنّ تشريعات إعلانية قطرية لا يمكن أن تترجم بصورة صحيحة و أن تكتسب فعالية دون إحداث هيئات أهلية[٨٤] ترفد مؤسّسات الرقابة الإعلانية الرسمية،

(٨٤) إلى جانب أجهزة الرقابة الإعلانية الرسمية، هناك العديد من التنظيمات المجتمعية الإعلانية في أوروبا، من أهمها هيئات الرقابة الذاتية التي تنضوي تحت لوائها، بشكل طوعي وحرّ، ٩٥٪ من الفعاليات الإعلانية العامة والخاصة، بدءاً من الهيئات الإعلانية في الجامعات، مروراً بوكالات الإعلان ومؤسّسات الصحافة المطبوعة وهيئات الإذاعة والتلفزة الخاصة والعامة، الوطنية والمحلّية، وشركات الإنتاج الإعلامي الفكرية والتقانية والبحثية والاستشارية، انتهاءً باتحادات الصناعات والمؤسّسات الاقتصادية والخدمية الأخرى في القطاعات العام والخاص والمشترك، وتنظيمات المستهلكين. ويلتزم المنتسبون إلى هذه الهيئات بقبول جميع البنود الواردة في شرعة الرقابة الذاتية، ويتعهّدون بتنفيذ أحكام كل اللجان والمجالس المختصّة.

تحدّد هيئات الرقابة الذاتية الإعلانية في مقدّمة شرعتها هدفها الأساسي المتمثّل في ضمان أن يحقّق الإعلان -- في ممارسته للدور المفيد الذي يؤدّيه داخل العملية الاقتصادية - خدمة للجمهور، مع ايلاء عناية خاصة لتأثيره على المستهلك. وتركّز هذه الهيئات في شرعتها على أن الوظيفة الجوهرية لأي تشريع أو قانون هي الوقاية قبل العلاج وأن هذه الوقاية تكتسب أهمية خاصة في الرقابة الذاتية لأن الجهات التي وضعت قوانين الهيئات وانظمتها هي نفسها المدعوّة إلى الالتزام بها وتنفيذها. ولذلك، فإن معظم هذه الجهات تسعى لمعرفة رأي تلك الهيئات مسبقاً في أي عمل إعلاني، وتلتزم بأي تعديل تقترحه لجانها المختصّة، كما أنها تحاول التقيّد بأنظمة الهيئات منذ المراحل الأولى لصنع الرسالة الإعلانية.

وتتمتّع هذه الهيئات الذاتية بنفوذ كبير لأن نفاذ أحكامها، تماماً كنفاذ أحكام الرقابة الرسمية للدولة، ولكن بشكل طوعي وحرّ، وعلى وجه الخصوص، لأن قدرتها على البت السريع والعاجل، خلافاً لأجهزة رقابة الدولة، في المخالفات الإعلانية المقدّمة لها من قبل أي مواطن أو أي منظّمة أهلية ضد المؤسّسات والشركات الاقتصادية والخدمية المعلنة، تدفع جميع أطراف الفعاليات الإعلانية إلى اللجوء إليها والالتزام بقراراتها، لأن التوقيت المحسوب بدقّة لنشر أو بث =

ما يستوجب تفعيل أدوار المجتمع المدني الذي يمثّل عنصراً لا غنى عنه في مجال تطبيق القوانين الإعلانية، وخاصة تلك التي تتعلّق بحماية الطفل والقاصر[٨٥] والقيم

- الإعلانات المفردة أو الحملات الإعلانية هو مسألة حيوية بالنسبة لتلك المؤسّسات الاقتصادية والخدمية العامة والخاصة.

ثمّة تنظيمات أهلية رقابية أخرى، من أهمّها منظّمات المستهلكين التي تؤدي في الدول الأوروبية دوراً مهمّاً في حماية جمهور المستهلكين والدفاع عن مصالحهم، في مواجهة مؤسّسات اقتصادية وخدمية عامة وخاصة. وتتدخّل هذه المنظّمات في كل شيء يخص الحياة اليومية للمستهلك، بدءاً من اختبار نوعية المنتجات والخدمات وإبداء رأيها في مدى صلاحيّتها للمستهلك؛ انتهاء بالمطالبة وقف أي إعلان تجد أنه يلحق الضرر بصحة المستهلك البدنية أو الاجتماعية أو النفسية، مـا جعلها قوّة معارضة اجتماعية تفوق نفوذ الأحزاب والنقابات.

بالإضافة إلى أجهزة رقابة الدولة وهيئات الرقابة الذاتية ومنظّمات المستهلكين، هناك هيئات ومؤسّسات أخرى، تعليمية وأكاديمية، اجتماعية وثقافية، تتدخّل باستمرار ضد إساءة استخدام الإعلان، عبر ندوات وحوارات ومؤلّفات وبيانات ومنشورات يجري تعميمها على أوسع نطاق في مختلف وسائل الاتصال الجماهيري.

وتلقى أصوات هذه الهيئات والمنظّمات صدى واسعاً في المجتمعات الأوروبية، ما يرغم الفعاليات الإعلانية على وضعها في الحسبان في جميع مراحل صناعة الإعلان :

(Codice di Autodisciplina Publicitaria, 21° ed. in vigore, Annuario 1995, Milano).

- لمزيد من التفاصيل، إقرأ : فريال مهنا، الإعلان التلفزي والتشريعات في المجتمعات الراهنة، مصدر سابق.

(٨٥) من خلال التزام القوانين الإعلانية الإيطالية، على سبيل المثال، بتشريعات مجلس الإتحاد الأوروبي الإعلانية بخصوص الطفل، يضع المشرّع الإيطالي ثلاثة مستويات من الحماية فيما يتعلّق بجمهور القاصرين:

- المستوى الأوّل يرتبط بحماية القاصر الذي يؤدي أدواراً في الفيلم الإعلاني، حيث ينصّ القانون على أن منتجي الإعلان يجب أن يحصلوا على موافقة مسبقة من أحد قضاة محاكم القصّر، إذا أرادوا أن يسندوا دوراً إعلانياً للقاصر الذي لا يتجاوز عمره ١٤ عاماً. ويصدر القاضي قراره بعد التقائه بالقاصر ومعرفة طبيعة الدور ومضمونه.
- المستوى الثاني يتعلّق بحماية القاصر من الإعلان الموجّه إليه جهاراً.
- المستوى الثالث يختص بحماية القاصر الذي يمكن أن يتعرّض للإعلان التلفزي غير الموجّه إليه بصورة مباشرة.

ويفصّل المشرّع أحكام الحماية في المستويات الثلاثة؛ على النحو التالي :

١- إيلاء عناية خاصة وتوخّي الحذر في صنع الرسالة الإعلانية الموجّهة للطفل أو التي يمكن أن يتعرّض إليها الطفل.

٢- استخدام الطفل والقاصر في الفيلم الإعلاني يجب ألاّ يستغلّ المشاعر الطبيعية التي يكنّها الراشدون للصغار.

-

الاجتماعية والأخلاقية، وتلك التي ترتبط بالجانب المعلوماتي وبالقيود الكميّة والنوعية للإعلان وبالترويج للمنتجات الحرجة[٨٦] .

- ٣- يجب ألاّ تؤذي مضامين الرسالة الإعلانية القاصر جسدياً أو نفسياً، ويجب ألاّ تستغلّ براءته وسهولة تصديقه وقلّة تجربته.

وبشكل خاص :

٤- يجب ألاّ يخرق الإعلان قواعد السلوك الاجتماعي السائدة عموماً.

٥- ويجب ألاّ ترد في الإعلان أعمال وأوضاع تعرّض الطفل للخطر.

٦- ويجب ألاّ يحتوي الإعلان إطلاقاً مضامين تشعر القاصر بعقدة النقص إذا لم يتمكّن من امتلاك السلعة المعلن عنها، أو تجعله يعتقد أن عدم اقتنائه لتلك السلعة ناجم عن تقصير والديه في أداء واجباتهما نحوه.

٧- يجب عدم تحريض أشخاص آخرين غير الوالدين على شراء سلعة خاصّة بالطفل أو بالقاصر.

٨- يجب ألاّ يستغلّ الإعلان الثقة الخاصّة التي يضعها القاصر في والديه وأساتذته أو في أشخاص آخرين مؤثّرين في حياته.

٩- تحرّم أحكام القانون الإيطالي أن يخاطب الإعلان المروّج لمشروبات روحية جمهور القصّر أو أن يستخدم القاصر في أي فيلم إعلاني يروّج بشكل مباشر أو غير مباشر لمشروبات كحولية.

١٠- من أهم الشروط والقيود التي يفرضها التشريع الإيطالي على الإعلان لأدوية لا تحتاج إلى وصفة طبية أو لمنتجات متعلّقة بنظام غذائي خاص أو لمستحضرات التجميل، أنه يحرّم خاصّة التوجّه إلى الأطفال لدى الترويج لتلك الأدوية والمنتجات الغذائية والتجميلية.

١١- يحتوي القانون الإيطالي سلسلة من المحظورات فيما يرتبط بالرسالة الإعلانية المروّجة لمختلف أنواع ألعاب الأطفال.

(٨٦) وهي المنتجات الكحولية والتبوغ بجميع أنواعها وأشكالها والعقاقير التي يمكن الحصول عليها دون وصفة طبية والمواد الغذائية المخصّصة للطفولة الأولى والمواد التي، وإن كانت غير مصنّفة كأدوية، فإنها تقدّم ويروّج لها كوسائل وقاية أو شفاء من أمراض.

وفيما يتعلّق بهذه الأنواع من السلع يحظّر التشريع ربط استهلاك الراشدين للمشروبات الروحية بقدرات جسدية معيّنة أو بقيادة السيارة أو وسائط نقل أخرى، كما يمنع خلق انطباع لدى المتلقّي بأن تناول الكحول يسهم في نجاح اجتماعي أو جنسي، أو أن المشروبات الروحية تمتلك خصائص علاجية أو مهدّئة أو منشّطة تساعد على حلّ حالات صراع نفسي. ويحرّم القانون أيضاً أن يضفي الإعلان على الأشخاص الذين يمتنعون عن تعاطي الخمرة صفات سلبية.

بالنسبة لإعلان الأدوية والعلاجات الأخرى، فرض القانون أن كل إعلان لمنتجات طبية لا تحتاج إلى وصفة طبية يجب أن يتضمّن عبارة " اتّبع بعناية التحذيرات الواردة في النشرة المرفقة بالدواء "، وفي التلفزة يجب أن تبقى هذه العبارة على الشاشة لمدة ٨ ثوان على الأقل. وعلى مروّجي جميع المنتجات الطبية غير المتطلّبة وصفة طبيب أن يحصلوا على إذن مسبق من وزارة الصحة التي قد تفرض بشكل إلزامي إضافة عبارات تحذيرية أخرى إذا وجدت أن نوع الدواء أو العلاج -

إن تركيبة المجتمعات العربية وتراثها السياسي والفكري والثقافي من جهة، ومشكلات التطوّر في عصر ثورات الاتصال من جهة ثانية، حالت دون نشوء تنظيمات مجتمعية وأهلية مستقلّة ذات نفوذ وقادرة على الإسهام في ممارسة رقابة فعّالة على النشاط الإعلاني وخاصة التلفزي منه.

وكنتيجة طبيعية لهذا الواقع الموضوعي لم يكتسب الجمهور التلفزي العربي الوعي الاجتماعي الذي يخوّله التعامل بكفاية مع طبيعة تأثير الرسالة الإعلانية[٨٧]:

١- فهذا الجمهور لا يأخذ الإعلان على محمل الجدّ، إذ يعدّه شكلاً من أشكال العرض التلفزي الذي يدخل في نطاق التسلية والترفيه، ولذلك، فإنه إن اقتنع بشراء السلعة أم لم يقتنع، يتأثّر بشخصيات الفيلم الإعلاني ولقطاته وحواراته ولغته وألوانه بصورة مستقلّة عن المنتج أو الخدمة التي يروّج لها؛ وهذا ما يزيد نوعية تأثير الرسالة الإعلانية السلبية خطورة[٨٨].

٢- ويستهلك الجمهور العربي، في معظم قطاعاته الأدنى ثقافة المادة الإعلانية بصورة لانقدية لأنه يفتقر إلى الروح النقدية المدرّبة والقادرة على إدراك الطبيعة المزدوجة للرسالة الإعلانية وتقدير تأثيراتها الكامنة[٨٩].

- يستدعي ذلك. ويجب أيضاً ألاّ يظهر في إعلان الأدوية كل ما من شأنه أن يوحي بأن استشارة الطبيب هي من قبيل تحصيل حاصل.

لمزيد من التفصيلات: يقرأ: فريال مهنا. الإعلان التلفزي والتشريعات. مصدر سابق.

(٨٧) لا تشكّل القوانين الإعلامية عامة والإعلانية خاصة في البلدان العربية مرجعية يمكن الاستناد إليها في أي مقاربة علمية. لأن التعارض الحاصل بين المدوّن وبين الممارس على أرض الواقع هو أكثر عمقاً وشمولية من التعارض القائم بالنسبة لبقية القوانين السائدة في الدول العربية؛ ولذلك، فإن سبر الواقع الإعلامي بشكل عام والإعلاني بشكل خاص، يتم عبر تتبّع بعض جوانب الظاهرة الإعلانية العربية في حركتها اليومية الواقعية بهدف رصد المشكلات الحقيقيّة وتحقيق اقتراب أوّلي من حلول يمكن أن تسهم في إدخال الإعلان العربي، مضموناً وشكلاً، ضمن سياق التطوّر الذي يشهده العالم على الأصعدة الاجتماعي والعلمي والتقاني.

(٨٨) في شرائح واسعة من المجتمعات العربية، تعدّ الأم الإعلان التلفزي وسيلة ترفيه وإلهاء لطفلها، تماماً كبرامج الأطفال، وكثيراً ما تتركه أمام الشاشة الصغيرة أثناء بثّ إعلانات من أجل أن تتفرّغ لأعمال منزلية، ما جعل الطفل يعتاد على المطالبة بمشاهدة الإعلان على أساس أنها مادة مسلّية تعنيه ويحق له متابعتها.

(٨٩) كما تمت الإشارة إليه آنفاً، فإن الإعلان بكل أنواعه، يتضمّن رسالتين، إحداهما تروّج للسلعة أو الخدمة وهي الرسالة المباشرة، والأخرى تعمّم قيماً وعقليات وسلوكيات وأساليب حياة، وهي الرسالة غير المباشرة والأعمق أثراً.

٣- ويفتقر هذا الجمهور، بصورة عامة، إلى أهم أدوات التذوّق الجمالي الحضاري بشقيه الفكري والشكلي.

٤- وتجهل أغلبية الجمهور التلفزي العربي كيفية ممارسة حقوقها الطبيعية وأسلوب تنظيم ردود أفعالها كطرف حيوي في العملية الاتصالية الإعلانية.

إن اقتران هذه العوامل مجتمعة، في ظلّ اندفاع كميّ فوضوي للإعلان العربي، يضع الدولة في المجتمعات العربية أمام مسؤوليات أكثر جسامة من أية دولة في أي مجتمع متطوّر، ويجعل منها الطرف الوحيد القادر على تأسيس أنظمة دفاعية في مضمار الإعلان التلفزي تحمي الفئات الأكثر هشاشة وحساسية، وتعمل على نشر وعي حقيقي لا شعاري وإنشائي، وتصون تلك القيم التي تشكل منطلقاً لتحقيق التطوّر في نطاق الأصالة ضمن صيغ حضارية تتساوق مع سمات هذا العصر مؤكّدة خصوصيتها[٩٠].

---

(٩٠) تنتشر في الإعلان التلفزي العربي نماذج طفولة تجسّد معاني اجتماعية وتربوية سلبية بكل المعايير، تلحق الضرر بصحة الطفل النفسية وتحدث اضطراباً في النمو الطبيعي لمداركه العقلية وتؤذي خياله العفوي وتشلّ قدراته على تعلّم التذوّق الجمالي والصحي والحضاري، وتعلّمه ازدراء الطبيعة والاستهانة بالقيم البيئية. وتكرّس الإستهلاك قيمة عليا محدثة خللاً في عملية تنظيم سلّم قيم طفل يعيش ظروف مجتمع نام، وتعطّل، بالتالي، استعداده للارتقاء والتطوّر. فهناك، على سبيل المثال، نسبة لا يستهان بها من الإعلانات تقحم الطفل في عمليات ترويج لسلع تخصّ الكبار وتجري على لسانه ألفاظاً وعبارات رديئة المضمون والمستوى، وتعوّده على استخدام لغة سوقية، وترسّخ أنماطاً مشوّهة من العلاقات بينه وبين والديه وأخوته وأترابه، وتغرس في مداركه الغضّة قيماً وسلوكيات سلبية يعاني منها عالم الراشدين. وهناك نماذج إعلانية أخرى تعلّم الطفل كيفية تقليد سلوك الكبار وتصرّفاتهم، فالطفل يتحرّك ويتكلّم كرجل، والطفلة تتبرّج وتتحدّث كامرأة ناضجة، والحوار بين طفلين نسخة من حوار بين رجلين أو بين رجل وامرأة. ويعطي المنتجون لهذا الضرب من الأفلام الإعلانية طابعاً هزلياً أحياناً، وتمرّرها الرقابة دون أن تدرك عواقب هذا التفكير المنحرف والإعتداء المستمر على الطفولة.

ثمة أنواع أخرى من الإعلانات التلفزية العربية تقدّم الرجل بهلواناً او راقصاً او متنكّراً بزي نسائي. في قوالب فنية مبتذلة مضموناً وشكلاً، وتحوّل ربة البيت إلى راقصة في المطبخ والطرقات أو إلى إمرأة بليدة، جاهلة وخانعة، وتحوّل الأطفال إلى مخلوقات ببّغائية متخلّفة، وتبرز سلوكيات شبابية غربية الطابع، مصطنعة ومقتلعة من سياقاتها في مجتمعات الغرب. ولا شك أن هذه الأنماط من الأفلام الإعلانية العربية تلحق ضرراً بالغاً بالمجتمع، إذ تثبّت في المخيال العربي صوراً اجتماعية وأسرية منحرفة وتغيّب قيماً إيجابية وأصيلة للرجولة، وتدمّر جملة من الفضائل التي تتوحّد مجتمعاتنا معها عبر المرأة.

أما الوجه الآخر للمسؤولية الملقاة على عاتق الدولة وحدها في ظلّ انعدام أي شكل من أشكال الرقابة المجتمعية، هو أن تؤدي التلفزات العامة المهمّات المناطة بها كخدمة اجتماعية، وأن تنظّم عملية البثّ الإعلاني كمّاً ونوعاً، بحيث لا يطيح المعيار التجاري بجميع المعايير الصحيّة و الاجتماعية[٩١]، وبحيث لا تضيف هذه التلفزات إلى سلبياتها مساوىء التلفزات التجارية، لأن عواقب هذا السلوك، على صعيد المجتمع، سيكلّف الدولة أضعاف مكاسبها من عائدات الإعلان[٩٢].

---

(٩١) ثمة عدد قليل من التلفزات العربية الخاصة التي تروّج للتبوغ وترفقها بجملة مكتوبة في أسفل الشاشة بخط صغير تحذّر من مخاطر التدخين على الحياة والصحة. وهي جملة غير كافية من حيث المضمون والموقع والزمن، ومن حيث الطريقة أيضاً لأن هناك قطاعات واسعة من الجمهور الأميّ، ما يتطلّب عبارات تحذيرية ملفوظة تقدّم توضيحات أكثر إسهاباً. وتروّج هذه المحطّات التلفزية أيضاً لمشروبات روحية دون قيود في المضمون والزمن، وهو أمر يشكّل خطورة على الجمهور التلفزي الشاب، خاصة وأن هذه المحطّات تبثّ فضائياً وتستقطب جمهوراً عريضاً. يجب إدراج جمل تحذيرية ملفوظة وتقييد أوقات بثّ مثل تلك الإعلانات.

من ناحية أخرى، تبثّ بعض التلفزات العربية العامة والخاصة إعلانات لأدوية آلام الرأس واضطرابات الجهاز الهضمي وغير ذلك، دون أن تورد أية محاذير، مما يشكّل خطورة على صحة المستهلك. من الضروري أن يتضمّن الإعلان لهذه الفئات من السلع عبارات تحذيرية تتعلّق بقواعد الاستعمال ومدّته والآثار الجانبية والثانوية المحتملة ودور الطبيب. ويجب أن تكون العبارات ملفوظة وليس مكتوبة على الشاشة فقط. بالإضافة إلى ذلك، تروّج التلفزات العربية العامة والخاصة للعديد من المنتجات التي لا تقع في نطاق الأدوية، ولكنّها تمتلك خصائص شفائية وعلاجية أو وقائية، منها المستحضرات المحتوية على نباتات أو أنواع معيّنة من الأعشاب والأغذية المستخدمة في تخفيض الوزن والمراهم ومستحضرات النظافة الشخصية إلخ.. وتورد، في نهاية الإعلان، عبارة مكتوبة : " مسجّل في وزارة الصحة أو في وزارة التموين"، وهي عبارة غير كافية البتّة لحماية المستهلك وقد تؤدي إلى تضليله إذ تقوّي ثقته بالسلعة وتدفعه إلى استهلاكها بلا حدود. يجب أن يتضمّن الإعلان عبارات تحذيرية واضحة وملفوظة تحدّدها جهات مختصّة وتندرج في نص قانوني صريح.

(٩٢) من الملفت أن بعض الجهات المعنيّة في الدولة تبادر، من حين إلى آخر، إلى استخدام أفلام إعلانية لتوعية الجمهور صحيّاً أو بيئيّاً أو اجتماعياً، فتبثها التلفزات العامة، جنباً إلى جنب، وفي ذات الحزمة الإعلانية أحياناً، مع إعلانات تجارية منافية لأبسط القواعد الصحيّة والبيئيّة، ومتناقضة مع المفاهيم الاجتماعية السويّة، ومضادّة لمتطلّبات التطوّر الاجتماعي والعقلي والسلوكي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مردود هذه الإعلانات التوعوية يتبدّد في بحر من الترويج الإعلاني التجاري المضاد، ما يؤدي إلى أن تهدر الدولة، ليس فقط نفقات التوعية، بل أوجه عديدة من الإنفاق الخدمي والتنموي، وكل ذلك يعني، في المحصّلة، خسارة مادية ومعنوية. أما المجتمع، فهو الخاسر الأكبر في هذه المعادلة.

بدهي أن مستوى الأداء الإعلاني يتأثّر بعوامل اجتماعية واقتصادية عامة ويحتاج إلى محرّكات موضوعية في البنيات المادية للمجتمع، ولكن تجربة الإعلان العربي قد أثبتت أن الركون إلى أنظمة إدارية بحتة وتعليمات بيروقراطية وتوجيهات شفهية وإجراءات إرتجالية، يؤدي باستمرار إلى كبح حركة تلك العناصر الموضوعية ويبطل مفعول التأثير الحاسم الذي يمكن أن تمارسه العوامل الذاتية في المجتمعات النامية.

ولذلك، فإن الخطوة الأولى لتجاوز هذا الخلل تكمن في تحرير الإعلان من سطوة الأجهزة الإدارية الرسمية والبدء بسنّ قوانين إعلانية محكمة تغطّي جميع مراحل الصناعة الإعلانية الفكرية والتقانية والتسويقية، وتصبح جزءاً من التشريع القائم وتخضع لها، على حدّ سواء، المؤسّسات الإعلانية وجميع أطراف النشاط الإعلاني.

غير أن قوننة الإعلان والإرتقاء به إلى مستوى التشريع المتطوّر لا يحلّ وحده مشكلات العمل الإعلاني العربي،لأن عملية الالتزام بروح القوانين وتحقيق الأهداف التي وضعت من أجلها يحتاجان إلى عوامل أخرى من أهمها نوعية القائمين على النشاط الإعلاني ومستواهم العلمي وخلفياتهم الثقافية.

إن وجود موظّفين بيروقراطيين، غير مؤهّلين، أو غير قادرين على فهم طبيعة العمل الإعلاني وخصوصيته في أهم مفاصل القرار الإعلاني، يفرغ القوانين من محتواها ويعطّل الأهداف الأصلية للتشريعات، ولا تكفي المطالبة بانتقاء عناصر ملائمة، بل يجب أن تدرج شروط التخصّص والخبرة والكفاية الثقافية والتربوية ومفاهيم القرار الجماعي الحديثة في نصوص القوانين الإعلانية لتقييد اختيار القائمين على العمل الإعلاني.

كما يجب أن تشمل هذه النصوص القانونية شروطاً صارمة لممارسة الإنتاج الإعلاني على المستويين الفكري والتقاني، لأن الإعلان في مجتمع الحضور الكلّي للاتصال الجماهيري، يعدّ منتجاً فكرياً بالغ الأهمية، ومن غير الممكن تركه بين أيدي فئات تنتمي إلى مستويات علمية وفكرية وثقافية وتربوية دنيا في المجتمعات العربية.

بدهي أن الشروع في تنظيم الجوانب القانونية والاجتماعية والإنتاجية والرقابية للإعلان العربي، لا يمكن أن يتحقّق إلاّ من خلال الانفتاح على تجارب إعلانية غنية ومتقدّمة، للإفادة منها بصورة خلاقة، ضمن نطاق الخصوصية القطرية والعربية، وصولاً إلى ضمان المصالح الإنتاجية والتسويقية للفعاليات الاقتصادية في القطاعات كافة، وإلى توظيف النشاط الإعلاني التجاري لتطوير وعي اجتماعي حقيقي لدى المستهلك.

الوظيفة الترفيهية

عندما تدرس وظائف الإعلام، غالباً ما تنسى الوظيفة الترفيهية للصحافة المطبوعة، كما أن النظريات الاجتماعية المرتبطة بالترفيه، والتي تشير دوماً إلى مؤسّسات الاتصال الجماهيري، كالراديو والسينما والتلفزة، تغفل، بصورة منتظمة الصحافة المطبوعة. ومع ذلك فإن هذه الوظيفة للإعلام المطبوع حقيقيّة ومن الضروري أن ياتي ذكرها، لإن الجمهور نفسه يعتبر أن قراءة الصحف والمجلات هو نشاط ترفيهي ويطالب صحيفته في أن ترفّه عنه، وهو يختارها ليس فقط ليحصل على معلومات، وإنّما أيضاً ليروّح عن نفسه(٩٣)، فالأوقات التي يختارها قارىء الصحف والمجلات هي فترات الراحة أو الاسترخاء بعد وجبة الغداء أو قبل النوم. أكثر من ذلك، فإن قراءة الصحيفة هي فسحات الترويح عن النفسَ التي يبحث عنها الإنسان في الأوقات الميتة، في وسائط النقل، في صالات الإنتظار، في أيام الأعياد وعندما يكون الطقس ماطراً(٩٤).

إن الصحافة المطبوعة هي وسيلة ترفيهية تماماً كما هي وسيلة إخبارية، وكثيراً ما تكون نسب قراءة القصص والحوادث المتفرّقة في الصحيفة أعلى من نسب قراءة الإفتتاحية نفسها، ولا ينال هذا الموضوع إطلاقا من الطبيعة المركزيـة للوظيفة الإخبارية في الصحافة المطبوعة(٩٥). وحتى الأخبار التي توردها تلك الصحافة تتأثر، بصورة واعية أو غير واعية، بوظيفة الترفيه هذه، والمساحات المخصّصة للمواد المنوّعة تستجيب لحاجات القارىء إلى التسلية(٩٦).

كل ذلك لا ينفي، بطبيعة الحال، أن الإعلام التلفزي الذي يكرّس معظم بثّه للمواد الترفيهية، قد أعطى، خلافاً للإعلام المطبوع والإذاعي، أبعاداً غير مسبوقة لمفاهيم الترفيه، فمن خلال إنتاج الدراما بمختلف أشكالها والأفلام التلفزية والبرامج الخفيفة والمنوّعة والهزلية إلخ..، اقتبست التلفزة العديد من الفنون وأعادت صياغتها وطوّرت صناعتها بما يتساوق مع خصائصها التقانية، ومن خلال بثّ الأفلام السينمائية والمسرحيات والاستعراض والرقص والأغاني استطاعت أن تحتضن جميع الفنون، القديمة منها والحديثة.

(93) J. Stoezel, " Sociologie de l'Information : Fonctions de la Presse : A coté de l'Information", op. cit., p. 280.
(94) Ibid. p. 280.
(95) Ibid. p. 280.
(96) Ibid. p. 281.

وإذا كان الإعلام العربي عموماً لم يرقَ في مجال الترفيه إلى المستويات اللائقة بجمهور على درجة من الثقافة والوعي، لأسباب ذاتية من أهمّها الخلل الحاصل في وظائفه الأخرى والخلل الناجم عن طبيعة تموضعه داخل المجتمعات العربية وطبيعة علاقته بمختلف أطراف النظام السياسي، بالإضافة إلى ضعف الموارد المادية المخصّصة له(٩٧)، فإن وظيفة الترفيه في الإعلام التلفزي العربي، على وجه الخصوص، شهدت، في العقد الأخير من القرن الماضي، إنعطافات خطيرة تحت وطأة عوامل موضوعية، تقع خارج إطار النظام الإعلاميّ، مارست تأثيراتها على أساليب أداء هذا الإعلام لوظيفته الترفيهية.

ولعلّ أهم هذه العوامل يتجلّى في أن مجتمعات عربية تمثّل ثقلاً نوعياً، من النواحي التاريخية والجيوسياسية والفكرية والثقافية، بالإضافة إلى أنها تتمتّع بتراث مهم في مجال الإنتاج التلفزي بشكل عام، اتّبعت خيارات ومسارات معيّنة في الحقل الاقتصادي أحدثت تغييرات ذات مغزى في التركيبة الاجتماعية والطبقية لهذه المجتمعات، حيث تراجعت مكانة فئات متوسّطة ديناميّة تحتضن النخب العلمية والثقافية. نتيجة تهميش أدوارها ومكاسبها في العمليّة التنموية، ما أدّى إلى تدهور مواقعها الاقتصادية أيضاً، وحيث طفت على السطح شرائح أخرى عريضة، تمكّن ممثّلوها وروّادها من تسخير آليات النمو الاقتصادي لمصالحهم والإفادة من ثغراتها ومثالبها التي أصبحت مألوفة في العالم النامي، محدثين انقلاباً في البنيات الاجتماعية التقليدية والسلّم الاقتصادي داخل تلك المجتمعات.

ومن الطبيعي أن تفرض هذه الشرائح الجديدة، القادم بعضها من القاع الرثّ تعليمياً وثقافياً، والتي امتلكت قوّة ماديّة لا يستهان بها، عقلياتها وقيمها الأخلاقية والجمالية، أيضاً على إعلامها الجماهيري، المهنيّ، بنية ووظيفة، لتلبية متطلّباتها في مواده الترفيهية التلفزية خاصّة.

وما يزيد الأمر تفاقماً أن خصوصية الوسيلة، أي التلفزة، حملت ثقافة الصورة التي تمثّل العمود الفقري للثقافة الجماهيرية، ثقافة الإنفعال والغرائز(٩٨)، بالإضافة إلى أن خروج التلفزة العربية إلى الفضاء وتحقيقها حضوراً كوكبياً، دفعها نحو البحث

(٩٧) متوسّط مخصّصات الدول العربية للثقافة والإعلام لا يتجاوز ١٪ من موازناتها (أنظر محمد سبيلا، نزاع ثقافة الكلمة وثقافة الصورة، صحيفة " الحياة "، ٢٩تشرين الثاني، ١٩٩٤، في نهوند القادري، الإعلام الفضائي العربي وثقافة الترفيه، ندوة قسم الإعلام في جامعة دمشق حول الإعلام الفضائي العربي والعولمة، ص.١٦، نيسان ١٩٩٩).

(٩٨) نهوند القادري، الإعلام الفضائي العربي وثقافة الترفيه، مصدر سابق.

عن نقاط مشتركة لدى جمهور شديد التنوّع، وأصبح الهاجس التفتيش عن كل ما يثير ويدهش ويبهر بغض النظر عن الإفادة والمعرفة(٩٩).

ولذلك، يلاحظ أن الطابع اللافت لمختلف الأنماط الترفيهية في الإعلام التلفزي العربي، التي تشكّل ٥٠٪ من البرامج التلفزية جميعاً، والتي يتم استيراد ثلثيها من الخارج(١٠٠)، يتجلّى في طغيان السطحية والإسفاف بل والابتذال أحياناً، على حساب الأصالة والجودة والقيم الجمالية الراقية(١٠١).

---

(٩٩) نهوند القادري، الإعلام الفضائية العربي وثقافة الترفيه، مصدر سابق، ص ١.

(١٠٠) أحمد زين الدين، صحيفة " السفير"، ٣٠ كانون الاول، ١٩٩٧، في نهوند القادري، مصدر سابق.

(١٠١) – " تتبارى القنوات الفضائية (في البرامج الترفيهية) وتتفنّن في أساليب التسلية المسطّحة للوعي والمخدّرة للمعاناة الوجودية والطامسة للهدر " (مصطفى حجازي، العولمة ما بين هدر الكفاءات وهدر الوعي، صحيفة "السفير"، ١٥ شباط ١٩٩٩، في نهوند القادري، مصدر سابق، ص. ١٦).

– " لعلّ نظرة عامة على البرامج الترفيهية ترينا أن معظمها يحمل ايحاءات جنسية وذلك من خلال حشد نسبة كبيرة من الفتيات الجميلات الصغيرات، بحيث تحوّلت إلى شاشات للأنوثة يسيطر فيها شكل ودرجة أنوثة المرأة على كل شيء.. (عمرو خفاجي، مركز الأهرام للدراسات، صحيفة الحياة، ٥ شباط ١٩٩٩).

– وتكاد تقتصر صناعة الصورة في هذه التلفزات على وجوه الفتيات في الفيديو كليبات التي تسعى لتفجير المكبوتات في مجتمع ذكوري.. الموسيقى في خدمة الصورة –.. أما المسلسلات، فإنها تتوزّع بين أمريكية قديمة معادة أكثر من مرة ومكسيكية مدبلجة تدور في أغلبيتها حول الغرام والانتقام، يتماهى المشاهدون الذين يعيشون أوضاعاً صعبة مع أبطالها، وعربية تحوز المسلسلات المصرية على نسبة ٨٠٪ منها.. وتشهد القنوات انتشار الدراما السورية التي تتميّز بكلفتها البسيطة وغالباً ما تتوافق مع العقلية الرقابية لبعض دول الخليج. أما برامج الألعاب والمسابقات، فهي الأسخف بين مجموع البرامج الترفيهية.. حيث يغوص الكل في لعبة التسطيح القاتلة، وكل سؤال سخيف هو قيد حديد لعقل المشاهد.. وأخيرا تتكامل عمليات استغلال وإذلال الناس نفسياً وفكرياً ووضعهم في موضع المستعدّ لعمل أي شيء مقابل الحصول على المال أو الجائزة أو متعة اللحظة الراهنة، من خلال البرامج الفكاهية التي هي أقرب إلى التهريج منها إلى الكوميديا.. " (نهوند القادري، مصدر سابق، ص. ١٩–٢٠).

– " هذه المحطّات ما زالت تتعامل مع التلفزة على أنها أداة لقتل الوقت؛ وهي، بالتالي، لا تحترم عقل المشاهد العربي، وتعتقد أن هؤلاء المشاهدين ملك لها.. الكثير من البرامج التي تعرض تحت شعار التسلية المحايدة والترويح؛ هدفها تحويل الأنظار عن القضايا الحسّاسة وتنويم القابلية النقدية للذهن، وجعل الإنسان يستغرق في الحلم الخاص القائم على القناعة والصمت والاستهلاك، بحيث يصبح الخيار الإستهلاكي بديلا عن الخيارات كافة.." –

ويدور نقاش في المجتمعات العربية حول طبيعة الوظيفة الترفيهية للإعلام التلفزي وأهدافها، فالبعض يرى أن مهمّة الإعلام يجب أن تقتصر على إرضاء وإشباع ثقافات القاع العريض السائدة في المجتمع، في حين يعتقد البعض الآخر أن الإعلام يجسّد، بشكل غير مباشر وعلى المدى الطويل، قوّة تأثيرية كبيرة ويشكّل نقطة ارتكاز مهمّة في عملية الإرتقاء التدريجي بهذه الثقافات. ويبدو أن الرأي الأوّل هو الغالب، لأن ثمة قناعة في العديد من مواقع القرار بأن السعي نحو تعميم حضارة فكرية وثقافية وجمالية، تتكامل فيها الأصالة والعصرنة، سيوفّر، بطريق العدوى، مرتعاً خصباً لتغلغل قيم حضارية إلى مجالات حياتية أخرى (وخاصّة السياسية والفكرية منها) تجعل من المتعذّر الإبقاء على الحالة السلبية والتقبّلية والاستلابية القائمة في أوساط الجمهور العريض.

وظائف الإعلام الجماهيري العربي والثقافة الجماهيرية

يقدّم الإعلام المسموع والإعلام التلفزي العربي خاصّة، من خلال وظائفه جميعاً، جملة من البرامج العلمية والثقافية والتربوية والدينية والسياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية والأدبية، تشكّل، مع البرامج الترفيهية ومع المواد الإعلامية الأخرى، ثقافة جماهيرية ذات سمات مميّزة :

- فمعظم هذه الثقافة تجري صناعتها داخل خطوط حمراء تكاد تنعدم في تحديد مواقعها واستطالاتها أي أشكال حوارية نديّة ذات طابع مؤسّسي واستقلالي، بين المهنيّين وبين مفاصل المسؤولية داخل المؤسّسة الإعلامية من جهة، وبين النظام الإعلامي ككل والسلطة السياسية، من جهة أخرى.
- وهذا يؤدي، في كثير من الأحيان، إلى حدوث انفصام بين معطيات الواقع المجتمعي ومضامين ثقافة الوسائل التي تعمد، تحت وطأة وحدانية الفكر المسيطر، إلى تهميش الأساسي والتركيز على الثانوي وتجاهل المتغيّر والمستجدّ، حرصاً على عدم الاقتراب من مناطق المحظورات، وتمسّكاً بأشكال مستقرّة للانتاج الإعلامي الفكري.

– (عروة النيروبية، الإعلان التجاري المرئي: أحلام مؤجّلة ثمنها الاستلاب، صحيفة السفير، ١٨ شباط ١٩٩٩).

– إن تلقّي برامج الترفيه من قبل مشاهدين أمّيين.. في مجتمعات يعاني معظمها من أزمات اقتصادية، تفاقم العلاقة السكونية بالتلفزة، أي الاستسلام لأي شيء مطروح بالمجان.." (نهوند القادري، مصدر سابق، ص. ٢١).

- ولذلك، فإن أكثرية هذه الثقافة تخضع لهيمنة أنماط شتّى من التفكير الآلي الذي يغلب عليه التناول الصوري والنقلي والترديدي، والمعالجات التقليدية والبيروقراطية والقوالب السردية الرتيبة.

وترفد هذه الآليات الإعلامية المهيمنة، شبكات اتصال شخصي مباشر أهلية (علاقات اتصالية أوّلية) تتجوّل في المواقع الثقافية الدنيا من النسيج الاجتماعي، في مجتمعات تخلّت فيها النخب المتنوّرة والواعية عن دورها أو أجبرت على ذلك فانكفأت[١٠٢]، أو انهمكت في عملية دفاع وجودي عن النفس، نتيجة تعرّضها لأشكال متنوّعة من التهميش والإقصاء. ولا شك أن ثقافة الإعلام الجماهيري العربي والثقافة الرثّة لتلك الشبكات الأهلية، تتضافران لتغذية لوالب الصمت[١٠٣] التي تسهم بدورها في تعميق الجمود القائم.

- كل ذلك يفضي إلى إفراز ثقافة جماهيرية تندر فيها المقاربة العلمية والموضوعية القائمة على التحليل والتركيب والتعليل، والمستندة إلى الاستقراء والاستنتاج والاستدلال، وتتزاحم في مطاويها مفاهيم تقريظية وتمجيدية أو هجائية وتقريعية أو رثائية وحنينية، لا مكان فيها للنسبية والوسطية والاحتمالية والاختلافية.

إن سيطرة هذا الضرب من الثقافة الجماهيرية، منذ بدايات انتشار وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزية خاصّة، أسهمت، عبر تأثير تراكمي في الزمن، في تشكيل مخيّلة عربية عاجزة عن الإبداع ومستسلمة للمحاكاة والتقليد، بمعزل عن السياقات الواقعية لحركة التطوّر الإنساني، كما شاركت في صنع عقليات عربية لانقدية، عصيّة على التفاعل والتلاقح الخلّاق والمجدي، ضمن نطاق الأصالة.

إن هذا الجمود الذي استمر عقوداً طويلة واستمد مبرّراته التاريخية والسياسية والاجتماعية من ضرورة زج الطاقات الإعلامية الوطنية برمّتها في بوتقة وحيدة للنهوض بالمجتمع ومواجهة التحدّيات الإقليمية، شكّل، في الحقيقة، عائقاً رئيساً أمام بلوغ هذه الأهداف، ورفع جدراناً داخلية وخارجية كرّست عزلة الإعلام الرسمي وأظهرت عجزه، وقدّم دلائل كافية على أن الصيغة الاحتكارية للعمل الإعلامي تنتج،

---

(١٠٢) نهوند القادري، مصدر سابق، ص. ٢٦.

(١٠٣) في نظرية لولب الصمت، إقرأ:

- Wolf, " Gli Effetti dei Media", 5° Ed. Bompiani, Milano, pp. 65-74.

على الدوام، ثقافة مغلقة وعقيمة، ليس بمقدورها أن تتواصل، بصورة خلّاقة، مع الوقائع الحضارية المعاصرة.

وجاءت متغيّرات التسعينيات من القرن الماضي لتحسم، بشكل نهائي، مسألة إخفاق نموذج الإحتكار السلطوي للإعلام. وقبل أن تتمكّن السلطة السياسية في الأقطار العربية من إعادة صياغة مبرّراتها القديمة لتسوّقها في حلّة جديدة، لكي تشرّع قبضها على كل الإعلام، تسارعت وتائر الثورات التقانية في حقل الاتصال بشكل غير مسبوق لتكسر هذا الاحتكار على أرض الواقع ولتضع الإعلام الرسمي في مأزق الحالة التنافسية، حيث تبيّن أن هذا الإعلام غير مهيّأ، بنيات ووظائف، لخوضها والانخراط في آلياتها والتأثير في مساراتها.

ورغم إدراك السلطة السياسية في الدول العربية بأنه غدا من المستحيل وقف منجزات تقانيات الاتصال والإعلام الفضائي، فإنها استمرّت في سوق أطروحات شتّى للإبقاء على نظام إعلامي طوت الأحداث والمجريات صفحته.

لعلّ من أهم هذه الأطروحات وأكثرها جدّية هي تلك المتعلّقة بمسألة الغزو الإعلامي الخارجي وأخطاره على هويّة الإمة العربية وتقاليدها وأخلاقياتها. وهي قضية مهمّة وحسّاسة بحدّ ذاتها وتثير قلقاً في العديد من الأمم المتقدّمة التي تشهد مجتمعاتها نقاشات وحوارات مفتوحة بهدف التوصّل الى حلول واقعيّة وفعّالة تحمي الهويّة الوطنية والتراث والقيم.

غير أن طرح البعض لهذه المشكلة في المجتمعات العربية ينطلق، في كثير من الأحيان، من دوافع كامنة تتناقض في جوهرها مع تلك المعلنة والمرتبطة بالحماية الأخلاقية والقيمية[١٠٤]، إذ ترمي إلى ترويج ذرائع مقبولة لتكريس الاحتكار السلطوي وتقديمه كحل أمثل لمجابهة هذا الغزو، في محاولة، غدت مستحيلة، لمنع تسرّب مفردات ومفاهيم وسلوكيات حضارية تتّصل بطبيعة العلاقة القائمة بين أركان المجتمع

---

(١٠٤) أنظر: عبد الفتّاح عبد النبي، تكنولوجيا الاتصال والثقافة بين النظرية والتطبيق، العربي للنشر، القاهرة، ١٩٩٠، حيث جاء في ص. ١٥٢: ".. إن القضية لا تكمن في خطورة أو عدم خطورة البث الفضائي المباشر، وإنّما في قدرتنا على التعامل مع الآخرين وشروط هذا التعامل، فلا ينبغي أن نتعامل باللامبالاة مع التطوّرات الجديدة في مجال الاتصال، فهذا يحمل معه مخاطر ضياع الهويّة وفقدان القدرة على الإبداع الذاتي والمبادرة، وبالتالي، الاستسلام للآخرين.. ولقد أصبح من المستحيل، في ظلّ هذه التطوّرات، الدعوة للانعزال عن العالم الخارجي، والمطلوب أن ندعم قدرتنا على التعامل مع الآخر، كي نأمن تحوّله إلى سيطرة من جانب طرف على الآخر..".

المدني والنظام السياسي في المجتمعات المتطوّرة، والتي يؤدي التعرّف على تفاصيلها عن قرب والاطّلاع على دقائقها بشكل مستمر، إلى مقارنتها بالأنظمة السياسية العربية وإدراك ثغرات هذه الأخيرة ومثالبها.

لقد أثبت التاريخ، عبر آلاف السنين، أن العرب هم من أكثر الشعوب اعتزازاً بتراثهم وتمسكاً بتقاليدهم وعاداتهم وفضائلهم وقيمهم، ويعرف مروّجو أطروحة الغزو أن الجمهور الإعلامي العربي، ككل جمهور في أية بقعة من العالم المتقدّم والنامي، يميل، بصورة فطرية، إلى تفضيل إعلامه الوطني الذي يتوقّع أن يجد نفسه فيه، وأن القلّة التي تحتكّ بالفضائيات الخارجية تمثّل صفوة علمية وثقافية وسياسية واجتماعية لا تحتاج إلى وصاية، فهي تتمتّع بمستويات وعي عالية ومقدرة تمييزية ونقدية، وتحقّق منطقة احتكاك حيوية ببؤر ثقافية وأدبية وفنّية وتقانية متقدّمة تضمن الحد الأدنى من التواصل الحضاري الراشد.

وأثبتت التجربة أن غياب أيّ شكل من أشكال التعدّدية الإعلامية والافتقار إلى الثراء الإعلامي القائم على التنوّع والتقابل والاختلاف داخل المجتمعات العربية، يمثّلان أهم الأسباب الجوهرية لعزوف الجمهور عن متابعة الشاشات الوطنية والبحث عن أدوات اتصال وإعلام تنتمي إلى هذا العصر وتصوغ معطياته.

ولا بد من التنويه، في هذا المقام، بأن ظهور وانتشار محطّات تلفزية عربية فضائية خاصّة، شكّل، في وقت مناسب، حزام أمان مؤقّت استطاع مجابهة التدفّق الإعلامي الخارجي. ويبدو أن هذه المحطّات تستقطب اليوم الأغلبية الساحقة من الجمهور الإعلامي العربي في جميع بقاع العالم.

ورغم أن البثّ الفضائي العربي الخاص من خارج الأوطان يشكّل حلاً مؤقّتاً في هذه المرحلة، فإنه لا بد من ايجاد صيغ تخوّل انطلاق محطّات تلفزية فضائية خاصة، من الأرض العربية[١٠٥]، بما يتيح إمكانية الشروع في إحداث تبديل جذري في بنيات الإعلام الرسمي، عبر إزالة طابعه الفئوي والاحتكاري والعمل على غرسه في المجتمع وإعداده لخوض الإعلام التنافسي في قلب المجتمعات العربية، ضمن أطر تشريعية ورقابية تفيد من التجارب الحضارية للدول المتقدّمة في نطاق الخصوصية

(١٠٥) تعد محطّة الجزيرة التي تبثّ من على الأرض القطرية محاولة أولى في هذا الاتجاه، إلاّ أنه قد آن الأوان لكي تتحوّل هذه " المعجزة " إلى ظاهرة طبيعية على امتداد الأرض العربية، وأن تتم الإفادة من التجربة ونقدها وتحليلها وتحسين أداءها والارتقاء بها لكي يصبح الإعلام العربي، العام والخاص، نظاماً تسوده الندّية في علاقاته مع النظام السياسي العربي كي يغدو مصدراً مستقلاً من مصادر المجتمع، يتمتّع بمصداقية ومكانة ونفوذ.

العربية[١٠٦]، لأن ذلك من شأنه أن يرتقي بالإعلام العربي العام والخاص جميعاً، وأن يحقّق استقطاباً ومصداقية، وأن يعمّم في أوساط العامّة وعياً نوعياً تمس الحاجة إليه في هذه الحقبة التي يعدّ الانفتاح المعلوماتي اللامحدود أهم سماتها، والتي بدأت فيها أهم وأقوى شبكات التلفزة العالمية في بثّ برامجها باللغة العربية.

ثقافات الإعلام الجماهيري ومعضلات التنشئة

أما فيما يتعلّق بتعرّض الناشئة العربية لثقافات الإعلام الجماهيري، الداخلي والخارجي، فإن الخطر المحدق لم يعد يكمن في المحطّات التلفزية الفضائية الأجنبية العامة والخاصة فحسب، بل وأيضاً وخاصّة، في الفيديو والإنترنت وألعاب الحاسوب المتنوّعة وتلك التقانيات التي تزاوج بين الحاسوب والفاكس والهاتف والتلفزة (Multimedia) معطية أبعاداً جديدة للاتصال والإعلام تتدافع عبرها الأرقام والرموز والإشارات والأصوات والصور والمؤثّرات السمعية والبصرية والضوئية، لتصنع عوالم غريبة وافتراضية، أخذت تحدث تغيّرات عميقة في طرائق التفكير والعمل والسلوك، وتفرض أنماطا حياتية لم يسبق للإنسانية أن خاضت فيها.

ولا ريب أن توق الأطفال والشباب إلى معايشة تلك العوالم ودفاعاتهم الهشّة تجاه تأثيراتها تثير أنساقا جديدة من المعضلات، لا يمكن التصدّي لها بتدابير تقليدية تعتمد المنع أو التجاهل أو الإدانة، ذلك أن حجب هذه التقانيات عن النشء اليوم هي تماماً كحجبه عن التمتّع بمزايا الكهرباء ومنعه من ركوب الدرّاجات النارية وقيادة السيارات والسفر بالطائرات أو ممارسة أنواع معيّنة من الرياضة لأنها تشكّل خطورة على الحياة.

ثمة حاجة إلى تغيير جذري في فلسفة التعاطي مع مستجدّات الاتصال الإنساني، ثمة حاجة إلى تجاوز منطق الإجرائيات التكتيكية، المجزّأة والارتجالية، ثمة حاجة ماسّة إلى التخلّي نهائياً عن إصدار قرارات بيروقراطية فوقية واتخاذ تدابير قانونية

(١٠٦) يتم تصوير اتّباع بعض الدول العربية أسلوب المنع الرقابي الذاتي في الإعلام العربي، كشكل منطوّر من أشكال الرقابة. والحقيقة أن إحلال المنع الرقابي الذاتي محل محظورات رقابية خارجية مسبقة أو لاحقة، مع الإبقاء على مفاهيم الرقابة الحالية، سيزيد الأمر سوءاً، لأن الرقيب الخارجي الذي يتحاور معه القائم على العمل الإعلامي ويجادله ويحاول إقناعه أو مقاومته أو الاحتجاج عليه أو حتى التمرّد عليه، هذا الرقيب سيصبح قابعاً داخل رجل الإعلام ليدفعه، في خضمّ المحظورات السياسية والاجتماعية والثقافية القائمة، إلى ترويض فكره وتدجين قلمه، ويرغمه على قمع ذاته واضطّهادها، إمّا حفاظاً على موقعه ووجوده، وإمّا خشية من عقاب لاحق.

تقنّية، لأن ذلك لن يجدي نفعاً ويؤدي، في الوقت نفسه، إلى تعميق تخلّف المنطقة العربية عن تقانيات اتصالية تتقدّم بسرعات ضوئية.

الحقيقة أن الخطر لا يكمن في احتكاك الأطفال والشباب العربي بهذه التقانيات، وإنّما في حدوث هذا الاحتكاك في ظلّ غياب للمجتمع المدني النخبوي عن مسرح الأحداث في معظم المجتمعات العربية، وهوغياب ناجم، بالدرجة الأولى، عن طبيعة النظام الاجتماعي العربي القائم على المركزية والتراتبية والوصائية والاتّكالية.

لا مناص من وضع استراتيجيات دفاعية محكمة تبدأ، قبل كل شيء، بالاعتراف أن هذه المعطيات التقانية هي حقيقة واقعة، وبالعمل على تنظيم انتشارها تنظيماً عقلانياً وواقعياً، عبر تفعيل أدوار المجتمع المدني النخبوي، بحيث تعمل المؤسّسات الأسرية والتعليمية والتربوية والدينية والاجتماعية والثقافية والرياضية متضافرة لتمكن الناشئة من التعامل مع المستجدّات التقانية بصورة علمية واعية، عبر آليات رقابية واصطفائية أهلية ومدنيّة، تؤدي مرونتها وطوعيتها إلى تخلّي الصغار عن ممارسة "التقيّة" في التعامل مع بعض هذه التقانيات، وتولّد لدى الطفل والمراهق العربي إحساسا بالحاجة إلى إشراف الكبار ومشورتهم وإشراكهم المستمر في خوض هذه المغامرة التكنومعلوماتية المثيرة. إن تضافر أركان الدولة وعناصر المجتمع المدني في رسم هذه الاستراتيجيات الدفاعية وتنفيذها سيفضي بالضرورة إلى بناء سياج حماية لا يشعر الصغار بوطأته، يمتّن الصلة بين الأجيال ويفتح آفاقاً صحيّة لعبور النشء بسلام نحو حضارة العصر.

لا بد من الإشارة، في هذا السياق، أن عمليّة ولوج الأجيال الشابة هذه الحضارة، تصبح أكثر أمانا وفاعلية وأصالة، عندما يتحوّل العالم العربي، شيئاً فشيئاً، من مستهلك سلبي للانتاج التلفزي والتكنومعلوماتي الأجنبي إلى منتج حقيقي قادر على صناعة منتجات إعلامية واتصالية ومعلوماتية تمتاز بالجودة وترقى إلى مستوى المنافسة على الصعيد العالمي. إن الشروط الموضوعية لإخراج هذا الانتاج إلى حيّز الوجود متوافرة، وقد آن الأوان لتوفير الشروط الذاتية.

كما ورد في معرض حديثه عن وظائف الإعلام الجماهيري، يصف كازنوف المجتمع الإنساني بأنه مجتمع محكوم عليه بأن ينظّم العلاقات القائمة بين الإنسان وبين الشرط الإنساني.. ومحكوم عليه أيضاً بأن ينظّم العلاقات بين هذا الشرط الإنساني وبين اللامشروط[١٠٧] .

(107) J. Cazeneuve," La Société de L'Ubiquité", Ed. Denoël, Paris, 1972, pp. 5-64.

ويقول كازنوف إن الطقوس والأساطير كانت تؤدي هذه المهمّة في المجتمع التقليدي، حيث كانت تقدّم حلاً لحاجة البشر المتناقضة في توقهم إلى الخروج من شرطهم وفي رغبتهم بالانغلاق داخل هذا الشرط[١٠٨] .

ويعتقد كازنوف ان الإعلام الجماهيري هو الذي يقوم بهذه المهمّة في المجتمعات المعاصرة، عبر رسائل ينقلها تحتوي عناصر ملتصقة بالواقع وملتصقة بالخيال في اللحظة نفسها، وإن بنسب متغيّرة[١٠٩]. ولهذا، فإن التمييز بين عناصر الواقع وعناصر الخيال يغدو – حسب كازنوف – تمييزاً مصطنعاً منذ اللحظة التي تفرض فيها وظيفة الإعلام الجماهيري هذه، عليه، تبديل الواقع[١١٠] .

لذلك، فإن هذا الإعلام مضطّر للهروب، في كل لحظة، من الواقع، محتفظاً، في الوقت نفسه، بصلة وثيقة مع هذا الواقع[١١١].

ويتّفق كازنوف مع تشارلز رايت فيما يتعلّق بالوظائف المختلفة التي أسندها هذا الأخير للإعلام الجماهيري، غير أن كازنوف يعتقد بأن جميع هذه الوظائف ما هي سوى مشتقّات للوظيفة الوحيدة التي يؤديها الإعلام الجماهيري، وهي وظيفة تبديل الواقع التي يطلق عليها كازنوف – Tarnsmutation - أي وظيفة الاستحالة[١١٢].

إن عناصر الواقع في المجتمعات العربية هي عناصر التخلّف بجميع أشكاله، وعناصر الخيال يمكن أن تكون عناصر الانعتاق والتقدّم المادي والعلمي والتقاني والتطوّر الاقتصادي والاجتماعي والتحرّر السياسي.

ولكن، ولكي تتمكّن تلك المجتمعات أن تجعل من عناصر الحلم هذه حقيقة واقعة تدخل العرب في القرن الحالي، ليصبحوا جزءاً مهمّاً من وقائعه وعاملاً مؤثّراً في أحداثه، عليها أن تحدث تبدّلات جذرية في بنيات الإعلام والاتصال الجماهيري العربي وأسس علاقته بالنظام السياسي العربي، بحيث تجعل منه مصدراً سيّداً ووسيطاً

(108) Ibid. p. 64.
(109) Ibid. 64.
(110) Ibid. 64.
(111) Ibid. p. 64.
(112) Ibid. p. 64.

قائماً بذاته، قادراً على التحرّي، بحرّية ومسؤولية في الوسط المحيط، الذي غدا اليوم وسطاً كوكبياً، وصياغة الرؤية والقيام بعمليّات الضبط الاجتماعي لتجسيد الشفافية التي أصبحت مطلباً ملحاً لجميع شعوب الأرض، ومؤهّلا، بعناصره البشرية والفكرية والاقتصادية والتقانية، لتعميم ثقافة جماهيرية تسهم في النهوض العربي، وذلك عبر وظيفة الاستحالة هذه، بكل ما تحتويه من أدوات وآليات وطاقات، وصولاً إلى تبديل الواقع بما يحقّق للعرب إمكانية بناء حضارة جديدة تحتفظ بعناصر الأصالة والتميّز الروحي، وتتمثّل، في ذات الوقت، عناصر التطوّر والمعاصرة.

* * *

الفصل الرابع

النظريات الفكرية - السياسية في الاتصال الجماهيري ومعضلات الحرّية

توطئة

منذ فجر التاريخ يشكّل الإعلام والاتصال الجماهيري مرتعاً لطروحات تتعلّق بكل أنواع الحرّيات في مجال الفكر. وبعد نشوء الصحافة المطبوعة، النخبوية ثم الجماهيرية، ثم انتشار الإعلام المسموع والمتلفز، غدا هذا الإعلام برمّته انعكاساً للأنظمة السياسية، وفي ذات الوقت، عنصراً أساسياً من عناصرها. وبصفته سلطة رابعة في المجتمع، يفترض أن يتجاوز نفوذها السلطات الثلاث الأخرى، فإن الإعلام الجماهيري هو وسيلة جميع القوى التي تنشط وتتحرك داخل المجتمع.

إن ما يحدث تغيّيراً في الإعلام والاتصال الجماهيري هو شروط ممارسة أشكال الحرّيات الفكرية كافّة، منذ تشكّل هذا الإعلام وحتى أساليب تعبيره. كما أن ما يحدّد تمظهره، هو توق الناس إلى الاتصال فيما بينهم وطريقتهم في الوجود وفي العيش المشترك[113].

وهكذا، فمنذ بدايات تاريخ الإعلام وحتى الانفجار الحديث لثورات الاتصال، عرفت حرّية الفكر مراحل متتابعة، تتفرّد كل مرحلة منها بسياق معيّن، يحدّد، بشكل حاسم، طرائق وكيفيات ممارسة تلك الحرّيات، بما يتلاءم مع المبادىء و المثل التي يحتضنها هذا السياق، بالنسبة لمفاهيم حرّية الفكر.

---

(113) F. Balle, Médias & Société, op. cit., p. 189.

النظريات الفكرية ـ السياسية في الإعلام الجماهيري

تمت بلورة نظريات فكرية وسياسية للإعلام، لأوّل مرّة عـام ١٩٥٦، عندما بـادر ثلاثة أساتذة جامعيّون في الولايات المتحدة[١١٤] إلى صياغة عدد من النظريات، تستند مضامينها إلى طبيعة البنيات السياسية التي سادت خلال حقبات متتابعة من تاريخ الإنسانية، مارس الإعلام فيها نشاطاً ينسجم، في جوهره، مع تلك البنيات. كما بادروا إلى تقديم نظرية جديدة وطالبوا بضرورة تطبيقها، نتيجة اقتران جملة من المستجدّات، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، يرتبط بعضها بالتمركز الهائل الذي عرفه الإعلام الجماهيري، وبفعاليته المعلوماتيّة الكبيرة وبتعاظم وظيفته الإعلانية، إذ أصبح الإعلان يحتلّ الموقع الأوّل في الصحف وفي الإذاعة[١١٥]، ويتعلّق بعضها الآخر بازدياد الاحتجاج على وسائل الإعلام الكبرى الثلاث، حيث هوجمت الصحف لارتباطها بشركات اقتصادية كبرى، كما اتّهمت بالامتثالية وبالاعتداء المستمر على الأخلاق العامة والحياة الخاصة، وبالتبعيّة والاستجابة لضغوط كبار المعلنين. ولم يوفّر الجمهور الإذاعة، حيث أدان تمركزها الشديد ضمن شبكات إعلامية ضخمة، واتهمها بالديماغوجية والمحافظة. أما بالنسبة للتلفزة، فهي مشتبهة بأنها تفرد مساحات واسعة للجريمة والجنس، كما تفعل السينما[١١٦].

وقد صاغ هؤلاء الأساتذة الأمريكيون نظرياتهم على النحو التالي[١١٧]:

• نظرية السلطة أو النظرية الإستبدادية*

- تجسّد نظاماً إعلامياً ساد في بريطانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكان له انتشار كبير. ولا يزال هذا النظام موجوداً في العديد من مناطق العالم.
- تنبع هذه النظرية من فلسفة الحكم المطلق (الحق الإلهي) للملك أو للحكومة، أو للإثنين معاً.

(114) F. Silbert, J. Peterson, W.schramm, "Four Theories of the Press ", Urbana, University of Illinois Press, 1963, p. 153.
(115) F. Balle, Médias & Société, op. cit., p. 197.
(116) Ibid., p. 197.
(117) Silbert, Peterson & Schramm, Four Theories of the Press, op. cit.

* In Presse-Actualité, n° 106, Janvier 1976,Paris, Claude J. Bertrand.

- هدف الإعلام فيها دعم الحكومة القائمة، والإسهام في تنفيذ أنشطة الدولة.
- يستطيع ممارسة الإعلام كل من يحصل على رخصة ملَكية أو رخصة من قبل السلطة بشكل عام.
- الرقابة مشدّدة، من خلال التحكّم بمنح الرخص للأفراد، أو من خلال احتكارات معيّنة، أو من خلال هيئات مختصّة، أو رقابات مختلفة.
- يحظّر، في هذه النظرية، توجيه أي نقد من أي نوع للجهاز السياسي الحاكم، أو لأي شخص يحتلّ موقعاً في السلطة.
- ملكية الصحف يمكن أن تكون عامة أو خاصة.
- ينطلق مفهوم هذه النظرية من أن وسائل الإعلام هي عبارة عن أدوات لتحقيق سياسة الحكومة، دون أن يكون الإعلام بالضرورة مملوكاً من قبل هذه الحكومة.

• النظرية الليبرالية أو نظرية الحرّية*

تعدّ هذه النظرية نتاجاً للتاريخ أكثر ممّا تعدّ صيغة للفكر[١١٨]، وهي تتجلّى في:

- أنها استمدّت مفاهيمها من كتابات ميلتون[١١٩] (Milton) ولوك (Locke) وميل

* In Presse-Actualité, op. cit.

(118) F. Balle, op. cit., p. 189.

(١١٩) لقد أعطت الثورة الفرنسية، عام ١٧٨٩، حرّية الرأي. التكريس الأكثر طموحاً والأكثر شهرة، ليس لأنها صاغتها للمرة الأولى. ولكن لأنها فكّرت فيها بأبعاد كوكبية. وبانتشار الصحافة الجماهيرية في القرن التاسع عشر، أصبحت حرّية الصحافة أحد اشكال حرّية التعبير عن الرأي. ويشكّل القانون الفرنسي لعام ١٨٨١ تكريساً لهذه الحرّية.

أما المقالة النقدية الشهيرة - Aeropagitica - التي كتبها الشاعر جون ميلتون، فتعدّ حتى اليوم أهم كتابة حول الدفاع عن حرّية التعبير وحرّية الكلمة وتوضيح معانيها. فللمرة الأولى، عام ١٦٤٤، وفي الوقت الذي كان فيه يسخر من الرقابة، كان ميلتون يدعو الى حرّية الطباعة دون ترخيص ودون رقابة، من خلال جملته المشهورة:

"For the liberty of unlicenced printing ".

السويد هي البلد الأوّل في العالم الذي قونن حرّية الصحافة ١٧٦٦ وأدرجت هذا القانون في دستورها، وهو ينص على منع أية رقابة على الصحف، وعلى حماية مصادر المعلومات ومبدأ حق الاطّلاع الحرّ على الوثائق الرسمية، إضافة إلى قانون القذف والتشهير الذي يحمي الأفراد. ـ

(Mill) ومن الفكر التنويري الأوروبي، وبصورة عامة، من فلسفة التنوير ومن الحقوق الطبيعية للإنسان وامتداداتها المعاصرة من جهة، ومن أسس الاقتصاد السياسي البرجوازي القائم على لامحدودية التنافس وعلى اقتصاد السوق وقوانين حماية رأس المال الخاص من جهة أخرى.

- جرى تطبيقها في بريطانيا إثر متغيّرات عام ١٦٨٨، حيث تحولت الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية إثر انهيار النظام الإقطاعي، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، مع بداية صعود الرأسمالية المركانتيلية ثم الصناعية في الدول المتقدّمة. وقد مارست هذه النظرية نفوذاً كبيراً وهي مطبّقة في أمكنة عديدة من العالم.
- أهداف الإعلام في هذه النظرية الإخبار والترفيه والترويج لبيع السلع، ولكن أيضاً وخاصّة، المشاركة في اكتشاف الحقيقة ومراقبة أنشطة الحكومة.
- يستطيع امتلاك وسائل إعلام كل من تسمح له أوضاعه المالية بذلك.
- تمارس الرقابة عبر عمليّة التنظيم الذاتي للحقيقة في السوق الحرّة للأفكار، ومن قبل القضاء.
- تحرّم النظرية التشهير والإخلال بالقيم الأخلاقية السائدة، والأنشطة التخريبية في زمن الحرب.
- الملكية خاصّة في أغلب الأحيان.
- يعدّ الإعلام في النظرية الليبرالية أداة لمراقبة جميع أعمال الحكومة وتقويمها ونقدها، ووسيلة لتلبية حاجات أخرى للمجتمع.

- حول فكرة حرّية التعبير نفسها، أصدرت ولاية فيرجينيا الأمريكية عام ١٧٧٦ وثيقة حول الحقوق: " Viginia's Bill of Rights "
حيث ورد في بعض نصوصها " أن حرّية الصحافة هي أحد اكبر مرتكزات الحرّية، ولا يمكن لأحد أن يقيّدها، إلاّ إذا كان طاغية ".
وقد دخل هذا المبدأ عام ١٧٩١في نص دستور الولايات المتحدة الأمريكية، حيث جاء " أن مجلس الشيوخ لن يصدر أي قانون يقيّد حرّية الكلمة أو حرّية الصحافة ".
وعلى مدى القرن التاسع عشر، تضمّنت دساتير وقوانين جميع الدول الأوروبية المضامين نفسها حول حرّية الصحافة، حيث ترافق انتشار الصحافة الجماهيرية الكبرى مع صعود الرأسمالية ومع ازدهار الديمقراطية السياسية:
- لمزيد من التفاصيل، انظر: (F. Balle, Médias & Société, op. cit. pp. 189-212).

إذن، تعدّ نظرية الحرّية في الإعلام الجماهيري وريثة فلسفة الأنوار والاقتصاد السياسي الليبرالي، وهي تعبّر، في نهاية المطاف، عن رفض مبدأ السلطة، وعن أن لا أحد يمكنه أن يحتكر الحقيقة، أو أن تكون الحقيقة، التي تعرّف بأنها تطابق للفكر مع الوقائع الملحوظة، امتيازاً لفرد واحد أو لطبقة واحدة، وتعارض هذه النظرية أيّة محاولة لحسم موضوع الحقيقة عن طريق سلطة ما[١٢٠] .

تعدّدية الإعلام، التعدّدية وتنوّعية المصادر ووسائل الإعلام تشكّل، حسب هذه النظرية، السلاح الوحيد للمجتمعات ضد الدعاية، ضد احتكار الكلمة، ضد الأيديوقراطية[١٢١]. المنافسة الحرّة تبدو، في هذا الإطار، كوسيلة هدفها الوصول إلى الحقيقة أو، بالأحرى، تحقيق الموضوعية.

في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، رأى الغرب أن ثمة حاجة لتجديد الفكر الليبرالي وتجاوز المفهوم الليبرالي القديم للإعلام الذي أصبح تقليدياً وأورثوذكسياً، فعمد إلى استبدال مفهوم حرّية الإعلام بمفهوم " حق الإنسان في الوصول إلى المعلومات"، وقد استمرّت هذه الإرهاصات الفكرية التجديدية خلال فترة ما بعد الحرب الثانية، إلى أن تبلورت على مدى عقد السبعينيات، حول مفهوم جديد يتجلّى في مقولة " حق الإنسان في الاتصال "[١٢٢].

لا شك أن دخول نظريّة الحرّية التقليدية في أزمة، وبدء التفكير بضرورة تحديثها وتطويرها، نجما عن جملة من التحدّيات التي نشأت وتفاقمت في خضم التجربة الليبرالية الإعلامية على أرض الواقع. ولعلّ أهم هذه التحدّيات هي:

١) تجربة الحرب العالمية الثانية التي أثبتت أن الإعلام قد تحول إلى مجرّد دعاية ومزايدات دعائية، وأن الصراع بين الدول، والعداء الأيديولوجي الحاد من أجل السيطرة والهيمنة، لم يكن أبداً في صالح التجوّل الحرّ للمعلومات، فهذه الأخيرة تحوّلت إلى أداة للصراع من أجل السلطة. وقد استمر هذا الصراع بأشكال أخرى عقب الحرب، بين أمم كانت متحالفة، حيث دخلت الإنسانية حقبة الحرب الباردة التي جسّد الإعلام فيها ركيزة أساسية ورئيسة في عملية النزاع بين المنظومتين الشيوعية والرأسمالية، من أجل توسيع وتوطيد مناطق نفوذهما في العالم.

---

(120) Ibid., p. 195.
(121) Ibid., 195.
(122) Ibid., p. 196.

٢) ظهور وانتشار وسائل الإعلام اللاإلكترونية شكّل تحدّياً آخر متعدّد الأوجه، فالدولة لم تكن تستطيع، من الناحية التقانية، أن تسمح استخدام الموجات بصورة عشوائية، وكان لا بد من أن تحتكر توزيعها للمصلحة العامة. من ناحية أخرى، لم يكن من الممكن أن تتلقّى الإذاعة والتلفزة نفقات خدمتها من الناس مباشرة، ما اضطرّ الدولة إلى التدخّل لإيجاد نظام تمويل ملائم. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإذاعة والتلفزة، خلافاً للصحافة المطبوعة، تتوجّه نحو جمهور شامل، ما يجعل الدولة عاجزة عن إمكانية حجب جمهور نوعي، كما أن الإذاعة والتلفزة اعتبرتا أدوات فعّالة ومتميّزة للإسهام في تعميم سياسات تربويّة وسياسات ثقافية تعدّها الدولة جزءاً من مهمّاتها. غير أن الأهم من هذا كلّه، أن الحكومات وجدت في هذه الوسائل اللاإلكترونية وسيلة تحرك بفاعلية لتشكيل الرأي العام، ما دفعها إلى ممارسة سيطرة معيّنة عليها، مقدّمة ذرائع شتّى.

٣) في أعقاب الحرب العالمية الثانية وضعت العقيدة الليبرالية موضع نقاش، من خلال مفهوم الحرّية ومن خلال مفهوم الديمقراطية. فالماركسية التي عرفت آنذاك انتشاراً كبيراً، أثارت شكوكاً جدّية حول مفهوم الحرّية، معتبرة أن الحرّية في مفهوم العقيدة البرجوازية ليست حقيقيّة وإنما هي شكلية، إذ ما فائدة الحرّية الحقوقية إن لم يكن الإنسان يمتلك وسائل ممارستها؟ الحرّية تصبح عقيمة عندما لا نستطيع التمتّع بها فعلياً. ولا ريب أن إلقاء الفكر الماركسي الضوء على التناقض القائم بين الجانب الحقوقي والجانب الواقعي في هذه المسألة، لفت إلى أهميّة توافر شروط عديدة، تحدّد ممارسة الحرّية على أرض الواقع.

٤) لم يقتصر هذاالنقاش حول الحرّية، على العقيدة الماركسية، فقد جرت حوارات متعدّدة الأشكال داخل الفكر الليبرالي نفسه، نجم عنها تفسيرات جديدة للحرّية تتناقض مع المفاهيم الليبرالية القديمة. فالحرّية، في رأي العديد من مفكّري البرجوازية ليست معطى موجوداً مسبقاً، بصورة تلقائية، تجب حمايته، بل هو إمكانية يجب العمل للفوز بها. وبذلك تم الانتقال من مفهوم الحرّيات الفردية التي تقاوم السلطة، إلى مفهوم جديد لدور الدولة التي تصبح، على العكس، الضامن الأخير لهذه الحرّيات.

وهكذا، سقطت مقولة بنيامين كونستان (BenjaminConstant) الشهيرة : " الحرّيات هي عبارة عن مقاومات "، لتحلّ محلّها مقولة

لاكوردير (Lacordaire) : " بين الغني والفقير، بين الضعيف والقوي، الحرّية هي التي تضطّهد، والقانون هو الذي يحرّر "[١٢٣] .

٥) خلال فترات انتشار الصحافة الجماهيرية المطبوعة، عرف الإعلام تمركزاً متصاعداً، حيث تحولّت الصحف والمجلات والدوريات، بجميع أنواعها، إلى مؤسّسات ضخمة تسيطر عليها مجموعات مالية واقتصادية عملاقة، ما أدى إلى تآكل المنافسة الحرّة في رحاب اقتصاد السوق المفتوح، وتقوية الاتجاه المتحرك نحو التحكّم في الإنتاج الصحفي. وبذلك، وجّهت ضربة قاسية لمفهوم الحرّية الليبرالي، إذ غدت الحقيقة التي يرى الفكر الليبرالي أنها يجب ألاّ تقتصر على فرد واحد أو على طبقة واحدة، محصورة في نطاق كارتلات وترستات صحفية تتنافس فيما بينها[١٢٤] .

---

(123) Ibid. p. 203.

(١٢٤) يعود الميل الدائم إلى تمركز الإعلام في أيدي فئات قليلة اقتصادية ومالية إلى سببين رئيسين: الأوّل اقتصادي ويرتبط بقوانين التطوّر الرأسمالية، حيث يخضع المنتج الإعلامي، الذي يندرج ضمن فئات " المنتجات المستمرة "، إلى ظاهرة الكلفة الجانحة نحو التدنّي التي تقوّي وضع المنتجين المسيطرين، وتضعف وضع صغار المنتجين، فصحيفة ما تستطيع أن تقدّم لقرّائها مادة إعلامية أفضل (تقارير إخبارية مكلفة على سبيل المثال) كلّما كان انتشارها أوسع، وكذلك التلفزة، فهي تقدّم منتجاتها بصورة مستمرّة للمستهلكين وغير المستهلكين، خلافاً لمنتجات أخرى كتلك الغذائية مثلاً. أما السبب الثاني في الجنوح نحو التمركز فهو تقاني يتجلّى في وجود حدود مادية لتكاثر مراكز البثّ ومنتجي السلعة الإعلامية، وهذا الأمر ينسحب على جميع وسائل الإعلام الكبرى. فكما أن ثمة حدوداً لأطياف الراديو الكهربائية، هناك أيضاً استحالة تقانية في صدور أعداد غير محدودة من الصحف الوطنية، مهما بلغ ثراء البلد واتساعه.

من ناحية أخرى، لابد من الإشارة أن هذا الاتجاه نحو التمركز في الصناعة الإعلامية لا يصل قط، في النظام الرأسمالي، إلى حدوده القصوى، أي إلى الحالة الإحتكارية الكاملة، لأن المجتمع لا ينصهر أبداً في الدولة ولا يتطابق معها. وينجم عن ذلك أن تكون هناك إمكانية في أن يسيطر تنظيم واحد على معظم السوق الإعلامية، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى استبعاد شركاء عديدين صغار، فيصبح الوضع الاحتكاري (Monopole) مطعّماً بوجود قطاعات إعلامية متوسّطة وصغيرة منافسة. وفي هذه الحالة يمكن القول إن الجنوح نحو التمركز يصل إلى وضعية قرب احتكارية (Oligopole).

– لمزيد من التفاصيل، أنظر:

- G.Locksley, The EEC Telecommunications Industry.Competition.Concentration and Competitivness, Brussels, Commission European Communities, in Médias & Société, op. cit. pp.155-185.

- William Hoking,"Freedom of The Press ",A framework of principle, A report from the Commission on Freedom of the Press, New York, 1972.

- J. Robert " Libertés Publiques ", Ed.P. U. F., 2°vol., Paris, 1977. =

٦) لا بد من الإشارة، في هذا السياق أن النظام الديمقراطي السائد في المجتمعات الغربية، أسهم في إحداث التطوّر الذي طرأ على الفكر الليبرالي الذي وضع على المحك في التجربة الواقعية، فالمجتمع المدني الذي يتمتّع بنفوذ كبير في تلك المجتمعات انبرى لمجابهة تداعيات التقدّم الهائل الذي طرأ على تقانيات الاتصال الجماهيري وشارك بفعّالية في آليات وضع حلول ملائمة، لا تقتصر على حماية الحريّات الفردية والعامة بمفهومها الليبرالي القديم، بل أيضاً وخاصة، على حماية الحريّات المجتمعية التي غدت مهدّدة بفعل عمالقة التنافس شبه الإحتكاري في مضمار الإعلام الجماهيري.

• نظرية المسؤولية الاجتماعية*

أمام تضافر جميع تلك العوامل التي أدت إلى تقويض. الكثير من جوهر النظرية الليبرالية الإعلامية، عمد ثلاثة أساتذة جامعيون في الولايات المتحدة وهم سيلبرت وبيترسون وشرام عام ١٩٥٦، إلى صياغة نظرية جديدة استمدّوا عناصرها من كتابات بعض المفكّرين الغربيين ومن أعمال لجنة هاتشينس الأمريكية(١٢٥) حول

* - Claude-Jean Bertrand, "Les Médias aux États-Unis ", P. U. F., 2° Ed. refondue, Paris, 1982.
- J. Morgan & J. Spicer, "La Presse et l'État ", La reglementation de la presse écrite dans douze pays occidenteaux, Gouvernement de Québec, Ministère des communications, 1982.
- In Presse-Actualité, op. cit.

(١٢٥) أعضاء لجنة هاتشينس الأمريكية حول الحرّية، وقّعوا على تقرير،عام ١٩٤٧، جاء فيه : " أن هناك تناقضاً بين الفكرة التقليدية لحرّية الصحافة وبين المقابل الضروري لها ألا وهو المسؤولية. فالمسؤولية، كاحترام القوانين، ليست في حد ذاتها معرقلة للحرّية، بل على العكس، يمكنها أن تكون التعبير الأصيل عن حرّية إيجابية.
والمسؤولية إنّما تحتجّ على حرّية اللامبالاة.. يحدث كثيراً اليوم أن تكون حرّية الصحافة ليست سوى تعبير عن اللامسؤولية الاجتماعية. يجب على الصحافة أن تدرك أن اندفاعها الانفعالي وأخطاءها لم تعد تخص الحقل الخاص بل أصبحت تمثّل أخطاراً عامة. وإذا انخدعت الصحافة، فهذا معناه أنها، بدورها، قد خدعت الرأي العام.
لم يعد من الممكن أن نعطي الصحافة حق ارتكاب الخطأ.. ونحن نجد أنفسنا أمام معضلة حقيقية : الصحافة يجب أن تبقى نشاطاً حرّاً وخاصاً، أي إنسانياً وقابلاً للخطأ، وفي الوقت نفسه، لم يعد لها الحق في أن تخطىء، لأنها تقدّم خدمة عامة ".

حرّية الصحافة ومن احتجاجات الرأي العام الأمريكي ومن الأخلاقية المهنية. تتضمّن النظرية عدّة مفاهيم:

١) التأكيد على أن مهمّة الإعلام تزويد المتلقّي بالمعلومات والترفيه عنه والعمل على بيع السلع، ولكن أيضاً وخاصة، رفع وتيرة كل صراع على صعيد النقاش.

٢) حق استخدام الإعلام لأي شخص لديه ما يقوله.

٣) تمارس الرقابة على الإعلام من خلال نشاط المجتمع المدني وعمل المستهلكين واحترام أخلاقية المهنة.

٤) هدف الإعلام ينصبّ على الحقوق المعترف بها للأفراد وعلى المصالح العليا للمجتمع.

٥) الملكية خاصة، إلاّ إذا كانت الحكومة مرغمة على التدخّل لضمان سير عمل الخدمة العامة(١٢٦) .

(١٢٦) خلافا للولايات المتحدة الأمريكية التي تركت الإذاعة والتلفزة في نطاق السوق والتنافس الحرّ،قرّرت حكومات أوروبا الغربية إنشاء مؤسّسات عامة لوسائل الإعلام الإلكترونية، تملكها الدولة، من خلال تشكيل مجالس إدارة تضم ممثّلين عن الحكومة وعن " مستمعين ومشاهدين " وعن الصحافة المطبوعة، إضافة إلى شخصيات اجتماعية مرموقة. ويعيّن البرلمان أو مجلس الوزراء أو رئيس الوزراء أو وزير الثقافة أو وزير الداخلية أو عدد من هذه الجهات مجتمعة، أعضاء مجالس تناط بها مهمّات تحديد الخطوط العامة لعمل المؤسّسة الإعلامية وإقرار الميزانية ومراقبة تنفيذها والتأكّد من نوعية البرامج ورصانتها والإشراف على موضوعية المعلومات المذاعة ودقّتها ومنع أو تحديد كميّة الإعلانات ووضع المعايير المرتبطة بنوعية البثّ الإعلاني ومضمونه.
وقد تم تشكيل لجان للخطط الإعلامية في البلدان الأوروبية للإشراف على التقيّد بالقواعد المتعلّقة بالتخطيط، وتختلف صلاحيات هذه اللجان من دولة إلى أخرى. فهي محدودة نسبياً في بريطانيا، وواسعة في الدول الأخرى بشكل عام.
وبعد ان توطّد إعلام الدولة الإذاعي والتلفزي في أوروبا واكتسب تجربة واحتلّ مكانة ومصداقية في أوساط الجمهور الإعلامي على اختلاف مشاربه، فتحت القارة القديمة المجال أمام القطاع الخاص، خلال النصف الثاني من السبعينيات وبدايات الثمانينيات، منهية احتكار الدولة للإعلام المسموع والتلفزي، مفسحة الطريق للتمويل الخاص، ولكن داخل إطار ضوابط معيّنة تعطي الدولة دوما حق التدخّل، بموجب قوانين وضعتها السلطة التشريعية، ما أدى إلى إنشاء مئات المحطّات الإذاعية والتلفزية التي رفعت وتيرة التنافس ومستوى الأداء للمحطّات العامة والخاصّة جميعاً.
– لمزيد من التفاصيل، أنظر: (F. Balle, Médias & Société, op. cit., pp. 212-394).

٦) يجب أن يضطلّع الإعلام بمسؤولياته الاجتماعية، وإذا لم يفعل، يجب العمل من أجل إرغامه على ذلك.

وهكذا، انتهى مفهوم كان يعدّ أحد أهم مقدّسات النظرية الليبرالية، أي مفهوم ترك قوانين السوق تتحرك بحرّية تامّة، دون أدنى تدخّل من قبل الدولة ' Laisser Faire '. حتى في الولايات المتحدة التي لم تشأ الدولة فيها أن تتدخّل في النشاط الإعلامي برمّته، تم تشكيل لجان رقابة أهمّها لجنة الاتصال الفدرالية المسؤولة فقط أمام الكونغرس، عن مراقبة تنفيذ القوانين المرتبطة بحظر الترستات، ولجنة كارنيجي التي شكّلها الرئيس جونسون عام ١٩٦٤ والتي قدّمت تقريراً يطالب الكونغرس بإنشاء مكتب فدرالي للتلفزة العامة. وقد تم تشكيل المكتب حيث أخضع لقوانين فدرالية، وجرى تحريره من هدف الربح واستقلّ تماماً عن الحكومة، وانحصرت مهمّته في توزيع المخصّصات على محطّات التلفزة العامة والإشراف، عبر الاتصال العام، على الشبكة التي توصل هذه المحطّات فيما بينها، بالإضافة إلى اختيار البرامج التي توزّعها تلك الشبكة[١٢٧].

لا شك أن هذا الواقع الجديد الذي فرضه انتشار وسائل الإعلام الإلكترونية، مارس تأثيرات ذات شأن، في عملية تغيير جوانب جوهرية من التفكير الليبرالي، وخاصة في الغرب الأوروبي، إذ اصبحت الدولة طرفاً أساسياً في النشاط الإعلامي، بجميع جوانبه الاقتصادية والفكرية والتقانية والاجتماعية، وخاضت التنافس بكفاية مع الإعلام الخاص، مستفيدة من مصداقية الدولة في نظام ديمقراطي.

غير أن تطوّر الفكر الليبرالي لم يتوقّف عند مسألة التحوّل من ضرورة تحلّل السوق الإعلامية من القيود في حقبة الصحافة المطبوعة، إلى حتمية تدخّل الدولة المنظّم في العمل الإعلامي، في حقبة الإعلام الإلكتروني، بل تجاوزه ليطرح مفاهيم جديدة لا تقتصر على الحرّيات الفردية والعامة، وإنما ترتبط بالحقوق الاجتماعية والثقافية للجمهور العريض، ولعل منّ أهم هذه التغيّيرات يتمثّل في الانتقال من مفهوم " حق الإنسان في الوصول إلى المعلومات" إلى مفهوم " حق الإنسان في الاتصال":

طرحت مقولة " حق الإنسان في الوصول إلى المعلومات"لأول مرّة في نشرة " السلام على الأرض" التي أصدرها الفاتيكان عام ١٩٦٣، وفيها يتم التشديد على حق أي إنسان في الحصول على إعلام موضوعي. وقد عاد البابا بولس السادس ليؤكّد هذا المفهوم عام ١٩٨٤، إذ قال[١٢٨] :

(١٢٧) إقرأ تفاصيل أكثر في : - (C. J. Bertrand, Les Médias aux États-Unis, op. cit.)

(128) F. Balle, Médias & Société, op. cit. p. 205.

إن الإنسان المعاصر له الحق في ان يصل الى المعلومات، وان هذا الحق له صفة شمولية، وهو غير قابل للخرق وغير قابل للتحريف، لانه متجذّر في طبيعة هذا الانسان. وأوضح بولس السادس ان لهذا الحق جانب موجب وآخر سالب : الأوّل يتمثّل في حق البحث عن المعلومات وثانيهما يتجسّد في تمكين الجميع من تلقّي هذه المعلومات.

في عام ١٩٦٩ طرح الفرنسي جان دارسي (Jean D'Arcy) لأول مرّة، مقولة أكثر تطوّراً تتمثّل في حق الإنسان في الاتصال، وهي مقولة لا تهدف إلى أن تحلّ مفهوماً محلّ آخر، وإنّما ترمي إلى أن يعي الإنسان حركة التيّار الذي يحمله. ذلك أن التقدّم المستمر للإنسانية، والسيطرة المتعاظمة على البيئة المحيطة، والانتصارات المتتالية على الزمان والمكان، تستطيع، في كل مرّة، أن تولّد حرّيات متزايدة، وحقوق وواجبات جديدة[١٢٩].

ويعتقد دارسي أن أخذ التطورات الجديدة التي طرأت على وسائل الإعلام في الحسبان، تتطلّب تجاوز حقبة طويلة من الاتصال العمودي والأحادي الاتجاه، والانطلاق نحو عصر التقانيات الجديدة التي تضمن اتصالاً تبادلياً وأفقياً.. ينعش أملاً جديداً في بناء مجتمعات أقلّ انغلاقاً وأقلّ اغتراباً[١٣٠].

فعلى الصعيد العالمي، يطالب دارسي تجاوز النقاش العقيم والمجرّد حول " التجول الحرّ للمعلومات " الذي يلحظ الصحافة المطبوعة فقط، ويقترح على المجتمع الدولي أن يعطي وسائل الاتصال الإلكترونية مهمّات تضاف إلى تلك التي تؤدّيها الآن، وهي مهمّات تستبدل الإعلام التنسيقي والتعاوني بين الأمم والشعوب، بالإعلام العمودي ووحيد الاتجاه، حيث يؤدّي إسهام كل طرف إلى تقدّم جميع الأطراف، عبر مسارات نمو مشترك للجميع، لأن النمو الإنساني لم يكن أبداً سطرياً وأحادي التوجّه[١٣١].

ولذلك، فإن الدعوة لتبنّي مفهوم حق الاتصال، يمكنه أن يؤدي إلى خلق "عقلية الاتصال" التي تنحو باتجاه تقوية التعبير المحلّي والاتصال الشخصي وإعادة بناء

(129) J. D'Arcy, "Revue Française de Communication ", n° 3, Paris, 1979, pp. 7-17.

(130) Ibid.

(١٣١) يقول جان دارسي: " بعد ملايين السنين من الهيمنة الثقافية، ومن محاولات الأمبراطوريات القديمة والجديدة فرض حضاراتها وفرض رؤيتها للعالم على الشعوب الأخرى، يكتشف عصرنا الحالي ضرورة احترام الآخرين، ويتحقّق تدريجياً من أن ثراء الإنسانية بأسرها يأتي من تنوّعنا وليس من أحادية حضارية مفروضة بشكل مصطنع ".

وتوزيع وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، على صعيد المجتمع الواحد، وعلى صعيد المجتمع الدولي.

إن تاريخ الحرّيات يختلط دوماً بالمعركة المستمرّة ضد أولئك الذين يريدون احتكار التعبير، ولهذا، فإن العقبة الرئيسة تكمن في عقلية وسائل الإعلام التي لا تتحرك إلاّ ضمن مفهوم تكثير التجوّل العمودي، بمضاعفة عدد هذه الوسائل، وخاصة في البلدان النامية، التي تتبنّى المفهوم العمودي للإعلام. في حين أن التقدّم التقاني للإعلام الإلكتروني يمهّد الطريق لمفهوم التجوّل الأفقي القائم على حق الإنسان في الاتصال[١٣٢].

ولا ريب أن إشكالية حق الاتصال تتضمّن معنيّين مختلفين في أبعادهما ونتائجهما، أولهما يرتبط بعملية إلزام الدولة في أن تقدّم معلومات لكل من يطلب إليها ذلك، وثانيهما أن هذه المعلومات يجب أن تجعل الناس مواطنين لا مجرّد رعيّة. ضمن هذا الإطار، يتحقّق المفهوم الحقيقي لحق الإنسان في الإعلام، وتنتفي الأسباب التي تتذرّع بها الدولة لتبرّر وصايتها على وسائل الإعلام. ذلك أن جوهر مفهوم تدخّل الدولة في الإعلام لا يعني تكريس الإعلام العمودي وحيد الاتجاه، بل يعني أن تسعى الدولة لخلق الشروط الضرورية من أجل ضمان تجوّل الأفكار والأعمال بحرّية، بسيولة وبغزارة، عبر الوسيلة الإعلامية، مهما كانت أشكال هذا التجول ومهما كانت مضامين هذه الأفكار.

إن فرض تدخّل الدولة يجب أن يتم حسب قواعد تضمن حيادية هذه الدولة، في نطاق تكثير كبير لوسائل الإعلام، وضمن إطار ضمان تنوّعيّة هذه الوسائل واختلافيّتها وتباينيّتها وتعدّديتها، لكي تحقّق الاستجابة المطلوبة مع الحاجات الحقيقية للجمهور، بجميع فئاته واتجاهاته، عبر انفتاحية كبيرة في عملية نشر المعلومات والأفكار والآراء على أوسع نطاق[١٣٣].

• النظرية الشيوعية أو النظرية الشمولية*

تتضمّن عناصر هذه النظرية التالي :

١) جرى تطبيقها في الإتحاد السوفييتي في بدايات القرن العشرين، وفي دول أوروبا الشرقية عقب الحرب الثانية، وامتد تأثيرها إلى مناطق عديدة في العالم النامي.

(132) Ibid.
(133) F. Balle, Médias & Société, op. cit., pp. 206-21.
*In Presse-Actualité, op. cit.

٢) تنبع من الأيديولوجية الماركسية – اللينينية – الستالينية، ممتزجة بفلسفة هيغل والفكر الروسي في القرن التاسع عشر.

٣) مهمّة الإعلام في هذه النظرية تتجلّى في الإسهام في نجاحات النظام الإشتراكي السوفييتي واستمراريته، وبشكل خاص، في ديمومة ديكتاتورية الحزب الشيوعي.

٤) يقوم على الإعلام أعضاء مخلصون وأوفياء للحزب، بصورة أورثوذكسية.

٥) تمارس الرقابة على الإعلام عبر العمل السياسي والاقتصادي للحكومة.

٦) تحظّر النظرية على الإعلام توجيه أي نقد لأهداف الحزب الاستراتيجية.

٧) الملكية عامة، ولا وجود لملكية خاصة في الإعلام جميعاً.

٨) الإعلام مملوك للدولة، وتسري الرقابة عليه بشكل صارم.

من المفارقات اللافتة في هذه النظرية أن مفاهيمها اللينينية الستالينية تتناقض، بشكل أساسي، مع منابعها الماركسية وتتعارض مع كل ما جاء في الأدبيات الماركسية حول الظاهرة الإعلامية.

فقد كان كارل ماركس ينظر إلى الصحافة من زاوية حرّية التعبير والنضال ضد المنع الرقابي، أي من زاوية هي أقرب إلى العقيدة الليبرالية التي كانت سائدة في عصره:

بعد أن نشر البيان الشيوعي بعدّة سنوات فقط، تطرّق ماركس إلى هذا الموضوع، تعليقاً على مناقشات حول حرّية الصحافة والنشر الواردة في تقارير عن نشاط مجلس الدييت في رينانيا، فقال[١٣٤] :

إن الصحافة هي الوسيلة الأكثر اعتيادية التي يعبّر من خلالها الأفراد عن وجودهم الروحي.. إن الصحافة الحرّة هي المرآة الروحية التي ترى فيها الأمة نفسها، والتساؤل حول الذات هو الشرط الأول للحكمة.. الصحافة ليست ويجب ألا تكون أي شيء آخر سوى التعبير بصوت مرتفع عن أفكار ومشاعر كل يوم لشعب يفكّر حقاً كشعب.. وكالحياة نفسها، فإن الصحافة هي في صيرورة دائمة لن تتلاشى أبداً.. الصحافة تعيش في وسط الشعب وتقتسم معه بصدق آلامه ومعاناته وآماله وعواطفه.. إنها تجسّد السياسة الحقيقية الأصيلة بكل معنى الكلمة..

(134) Marx – Angels " Opere ", Editura de Stat pentru Literatură Politică, vol. 1, Bucureşti, 1957.

إن الشعب يرى جوهره مرتسماً في جوهر صحافته، وإذا لم يرَ هذا الأمر، فإنه يعتبر الصحافة شيئاً غير جوهري لأنه لا يستحق أن يؤخذ في الحسبان، فالشعب لا يسلّم نفسه للخداع.. إن الشعب يعلم أن صحافته أخذت على عاتقها مشكلاته وهي على استعداد لتحمل المشاق باسمه.. إن الحكّام والمحكومين بحاجة متساوية، لكي يتمكّنوا حل مصاعبهم، إلى عنصر ثالث يكون سياسياً دون أن يكون رسمياً، وبهذا الشكل، فهو لا ينبع من المقدّمات البيروقراطية.. الصحافة، إذن، هي عنصر مدني دون أن يكون متورطاً في المصالح الخاصة والحاجات المرتبطة بها.. الصحافة هي نتاج الرأي العام وهي تخلق بدورها، الرأي العام.. إن قانون الصحافة هو أمر صحيح وقانون الرقابة هو أمر غير صحيح، قانون الرقابة هو إجراء بوليسي.. إن غياب الحرّية هو خطر الموت الحقيقي للإنسان.. رجل الرقابة ليس لديه من قانون سوى رئيسه، أما القاضي فإن رئيسه هو القانون..

أمام القاضي تساق جريمة نشر ما، أمّا أمام رجل الرقابة فتساق روح الصحافة نفسها. قانون الرقابة هو أمر لا يعقل لأنه يريد أن يعاقب ليس على جريمة نشر وإنّما على رأي.. إن الشعب الذي ينظر الى الكتابة الحرّة كأمر مخالف للقانون يعتاد على اعتبار اللاشرعية كأمر حرّ والحرّية كأمر غير مشروع، والشرعية كغياب للحرّية. أنظر كيف تدمّر الرقابة روح الدولة. إن الرقابة هي جريمة مستمرّة ضد حقوق الأفراد ولكنّها، خاصة، جريمة ضد الأفكار.

لم ينطلق لينين الماركسي إطلاقاً من مفهوم ماركس لحرّية الصحافة، وإنّما تجاهلها وانطلق، في رؤيته النظرية، من الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ومن ديكتاتورية البروليتاريا عبر الحزب الثوري الطليعي، كما انطلق من سياقات ترتبط بالثورة البلشفية وصراعاتها في روسيا القيصرية آنذاك، وبالظروف الدولية التي أحاطت بالدولة السوفييتية الفتية، وأيضاً من تكوين لينين وشخصيته كصانع ثورات ومحرّض سياسي، في وقت أدرك فيه لينين أن ظهور الراديو وانتشاره كوسيلة إعلام ديناميّة مؤثرة، غيّرت جذرياً شروط الاتصال الإنساني، حيث دخلت فئات جديدة، وشرائح اجتماعية هائلة لتصبح جزءاً مهمّاً من الجمهور الإعلامي في ذلك الوقت.

الصحافة، في نظر لينين أداة لتربية الجماهير الشعبية[١٣٥]، أداة لتدريب وتهذيب الشعب[١٣٦]، وسيلة لتعليم الشعب كيف يجب عليه أن ينظّم العمل بطريقة جديدة[١٣٧]،

---

(135) V. I. Lenin, " Despre Presă ", Ed. Politica, Bucarest, 1960, p. 637.
(136) Ibid. p. 638.
(137) Ibid. p. 638.

والإعلام، لدى لينين، منظّم جماعي، يشكّل رؤية للعالم خاصة بجماعة معيّنة ويصوغ وعي هذه الجماعة واندماجها في المجتمع[١٣٨]، وأيضاً الإعلام، في تفكير لينين، حزام يربط الجماهير بالحزب ويدفعها نحو الالتحاق بالطليعة[١٣٩].

وقد دوّن لينين بعض عناصر عقيدته الإعلامية عام ١٩٠٦ في كتيّب بعنوان " تنظيم الحزب وأدب الحزب " جاء فيه[١٤٠] :

يجب أن تتحوّل الصحف إلى صحف تابعة لمختلف تنظيمات الحزب. دور النشر وصالات المطالعة والمكتبات يجب أن تخضع لإشراف الحزب. البروليتاريا الاشتراكية المنظّمة يجب أن تراقب كل هذه الأنشطة بشكل عميق..

يجب تأميم مؤسّسات الصحافة كافّة.. فالتأميم يعني إعادة الحرّية إلى الصحافة.. إن الرأسماليين، وفي أعقابهم عدد من الاشتراكيين والمنشفيك يقولون إن حرّية الصحافة تعني إلغاء الرقابة والسماح لكل الأحزاب بإصدار صحف على هواها، والحقيقة أن هذه ليست حرّية صحافة ولكنّها حرّية للأغنياء والبرجوازية في أن تخدع الجماهير الشعبية المسحوقة والمستغلّة.

في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٧ أصدر لينين أول قانون للصحافة أغلق بموجبه جميع صحف المعارضة.

وجاء في أحد بنود القانون أن إعادة الحرّية الكاملة للصحافة ستتم بمجرّد ترسيخ أسس النظام الجديد وأن هذه الحرية ستمارس في إطار المسؤولية أمام القانون بموجب التشريع الأكثر اتساعاً والأكثر تقدّمية[١٤١].

وصدر قانون ثان للصحافة في السابع عشر من تشرين الثاني ١٩١٧، جاء فيه : أن حكومة العمّال والفلاحين تقصد بحرّية الصحافة تحرير الصحافة من هيمنة رأس المال وتحويل المطابع ومصانع الورق إلى ملكية الدولة وإعطاء كل مجموعة من المواطنين الذين يصل عددهم إلى نسبة معيّنة (عشرة آلاف) حقّاً مماثلاً في استخدام

---

(138) S. Moscovici, "La Psychanalyse: Son Image,et Son Pubblic ", Ed. P.U F., Paris, 1961, p. 560.
(139) J.M. Domenach, " La Propagande Politique ",7°Ed. Que sais-je ? Paris, 1973, p. 22.
(140) G. Mond, in " Lenin et la Presse, Le Régime de l'Information dans les Pays socialistes ", Ed. I.F.P., Paris, 1980, p. 5.
(141) Ibid. p. 14.

حجم مناسب من الورق ومن اليد العاملة[١٤٢] . وأكّد القانون أن لهذه الاجراءات طابعاً مؤقتاً وسيتم إلغاؤها بأمر خاص عندما تستتب الشروط العادية للحياة العامة[١٤٣] .

في العاشر من شباط ١٩١٨ صدر قانون يقضي باحتكار الدولة لكل المطابع والمنشورات والراديو. وفي السادس من حزيران عام ١٩٢٢ تمّ تاسيس القيادة العامة للأدب والنشر مهمّتها الإشراف على الرقابة المسبقة وعلى المنشورات الأجنبية.

كما جاء في معرض وظائف الإعلام، اعتنق ستالين المفهوم اللينيني للصحافة، إذ قال في المؤتمر الثاني عشر للجنة المركزية للحزب عام ١٩٢٣ إن الصحافة هي المنبر الأكثر قوّة الذي يلتقي فيه الحزب كل يوم، كل ساعة مع الطبقة العاملة.

وأوصل ستالين هذا المفهوم إلى حدوده القصوى عندما قال إن الصحافة أداة تعقد صلة مع الجماهير العمّالية، صلة تماثل في قوّتها أي وسيلة ناقلة أخرى. لا يوجد في الطبيعة جهاز يضاهي قوّة وسلاسة الصحافة[١٤٤] .

بتأميم جميع وسائل الإعلام في روسيا السوفييتية، وبتثبيت مبدأ الرقابة المسبقة من قبل قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي، عبر لجنة حزبية منبثقة عن اللجنة المركزية، مارست روسيا السوفييتية النظرية الإعلامية الشيوعية بكل أبعادها:

في أعقاب الحرب الثانية، انتشرت أسس هذه النظرية وتطبيقاتها السوفييتية الحرفيّة في أوروبا الشرقية وفي العديد من دول العالم الثالث التي اتّبعت العقيدة الشيوعية، أو التي خضعت لمناطق نفوذ المنظومة الشيوعية، بقيادة موسكو.

وهكذا، فإن الإعلام الذي وصل الى حالة قرب احتكارية في الغرب الرأسمالي، حيث استمرّت المؤسّسات الإعلامية العملاقة تتنافس فيما بينها، مبقية، مع ذلك، على التنوّع والتباين[١٤٥] والقدرة على تقديم المعلومات وتقويم أعمال السلطة الحاكمة ونقدها، أصبح في الدول الشيوعية والدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي،

(142) Ibid. p. 14.
(143) Ibid. p. 15.
(144) Ibid. p. 117.
(١٤٥) رغم وجود حالة شبه احتكارية في الغرب الرأسمالي، فإن الإعلام لم يفقد وضعيّته التنافسية، بسبب استمرارإعلام شديد التنوّع، أهمّه إعلام الدولة التي تخاطب جميع فئات الجمهور وتضمن مصالح مختلف أطراف المجتمع، والإعلام التابع لأحزاب سياسية ومنظّمات اقتصادية ومالية وهيئات اجتماعية وثقافية وإعلام متخصّص، وآخر مرتبط بالنفوذ القوي للمجتمع المدني. ولا ريب أن هذا الواقع يرمي بثقله لجهة تخفيف وطأة الاحتكارات ومواجهتها؛ عبر التغلغل في ثنايا عديدة ومهمّة من الجمهور الإعلامي.

احتكارا مطلقاً للسلطة السياسية، ما جعله يجسّد نموذج الإعلام الشمولي القائم على الأحادية الإعلامية الكاملة.

ولقد تعرّض هذا النظام الإعلامي الاحتكاري، الذي بلغ أوجه في نهاية العصر الستاليني، الى أزمات عديدة تفاقمت خلال أحداث بولندة وهنغاريا عام ١٩٥٦، ثم تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، وخلال الثورة الثقافية في الصين الشعبية، حيث غدت قوى المعارضة ضد النظام السياسي، الجهة الأكثر قدرة على التمرّد على احتكار الكلمة من قبل الحزب الواحد وقيادات الحزب الواحد.

على جانب آخر، فإنه رغم الاختلافات الثقافية والعرقية والدينية واللغوية، ورغم تباين درجات التطوّر الصناعي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي بين دول أوروبا الشرقية، تمّ تبنّي النظرية الشيوعية وجرى تطبيق التجربة السوفييتية بحرفيّتها، بقطع النظر عن خصوصية كل بلد ومجتمع.

إن هذه الوحدانية في الإعلام الشيوعي، أدت – حسب أنطوان سبير[١٤٦] – الى أن تحتلّ الشائعة أكثر فأكثر الفراغ الناشيء عن حجب المعلومات المنتظم وعن سياسة التعتيم الإعلامي الصارم :

إن المعلومة التي تنتقل من الفم الى الأذن أصبحت المعلومة الأكثر مصداقية. إذ تبيّن، من استطلاعات سريّةأجريت في بعض دول أوروبا الشرقية، أن الأحاديث الخاصة المتمثّلة في طريقة "من الفم الى الأذن"أوبالأحرى، هذا "الراديو الرصيفي"يجسّد الدفاعات الأهم للشعب، في مواجهة الصمت المعلوماتي الرسمي أو سياسة اللامعلومات التي غدت جزءاً لا يتجزأ من الإعلام الشيوعي.

وقد استمرت الأنظمة الشيوعية وتلك التي تخضع لنفوذها، في اعتماد هذه النظرية الإعلامية. ولم يكترث المفكّرون الماركسيون بتناول النظرية نقداً أو تحليلاً أو تعديلاً أو تبديلاً، في ضوء التجربة الطويلة وتداعياتها ونتائجها، حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الشيوعية في بداية التسعينيات. إذ اقتصر الاجتهاد على فصل قسري ومصطنع للفكر الماركسي- اللينيني التقليدي عن التجربة السوفييتية وملحقاتها في أوروبا والعالم الثالث، في مجال الفلسفة والاقتصاد السياسي دون الإعلام، ضمن إطار معالجة ذرائعية، تتجاهل ما طرأ على تقانيات الاتصال من ثورات متلاحقة خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

* * *

(146) F. Balle, `Médias et Société, op. cit. p. 410.

الفصل الخامس

نظريات الإعلام و العالم العربي

الإعلام عبر التاريخ العربي والإسلامي

استخدم العرب في جاهليتهم الكلمة المنطوقة، فجاء إعلامهم سمعياً على ألسنة الشعراء والخطباء والقصّاص والرواة.

ولقد عرض الدكتور طه حسين في نظريته حول الأدب الجاهلي[147] قرائن على أن اللغة العربية الشعرية في العصر الجاهلي الأخير لم تكن ذاتية ومحصورة في نطاق التخاطب الشخصي، ولم تكن بريئة ساذجة، غامضة وجافّة تصوّر حياة بداوة بسيطة داخل صحراء مترامية معزولة تماماً عن بقيّة العالم، وإنّما كانت لغة شعرية متطوّرة تجسّد حياة عقلية ذات شأن ونضوجاً فكرياً مكّن الجاهليين من التواصل بسهولة مع لغة القرآن الكريم التي بلغت الإعجاز، ومن التأثّر بالصور والأساليب والصياغة الفريدة التي أنزل بها الله عزّ وجلّ كتابه على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فالقرآن الكريم يكشف لنا عن مجتمع جاهلي معقّد، متشابك، وصل فيه التمايز الاقتصادي والاجتماعي مراحل متقدّمة، وظهر فيه التفاوت الثقافي والمعرفي بوضوح بين العامّة والخاصّة.

كما يكشف عن وجود علاقات اقتصادية واجتماعية جاهلية متبلورة، حيث التجارة والعلاقات التجارية الداخلية والخارجية ناشطة ومزدهرة، حيث السياسة والحياة السياسية تبرز صراعاً على السلطة ونزاعاً على الحكم وخصومة على توزيع الجاه والنفوذ في الداخل، وخلافاً في الموقف والسلوك على صعيد السياسة الخارجية، إذ يشير القرآن الكريم الى تواصل جاهلي مع الفرس والروم.

---

(١٤٧) طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، المجلّد الأوّل، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة رابعة، ١٩٨١.

لا يعقل أن يخلو الشعر الجاهلي من أية مظاهر لهذا المجتمع المركّب وأن يتجاهل الشعراء الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية الحافلة في العصر الجاهلي المتأخّر، لينصرفوا تماماً الى الوقوف أمام الأطلال ومناجاة الحبيب.

لا بد أن يكون هؤلاء الشعراء الذين عاشوا تلك النهضة العقلية والفنّية في الجاهلية الأخيرة قد تناولوا أحداث هذا المجتمع وخاضوا في تفاصيلها وجسّدوا في قصائدهم صوراً متنوّعة للحياة الجاهلية، متمثّلين عقلية ذلك العصر ومفاهيمه، معبّرين عن مشكلاته وصراعاته وتناقضاته.

وما دام شعراء الجاهلية المتأخّرة قد استخدموا لغة عربية بلغت نضجاً فكرياً وفنّياً معيّناً، فمن المرجّح أن هذا الشعر السمعي قد تجاوز لغة الاتصال الشخصي الى لغة الاتصال الجمعي، وأن هذه اللغة امتلكت قدراً كبيراً من الجدّية والرصانة والوضوح والمرونة التي تجعلها قادرة على التعبير عن ظواهر اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية شهدها المجتمع الجاهلي في أطواره الأخيرة.

كل ذلك يرجّح أن الشعر مثّل أداة إعلامية حقيقية في الجاهلية، حيث لم يكن تعبيراً عن الذات فحسب، وإنّما كان أيضاً مرآة الجماعة، وأن الشاعر لعب دوراً إعلامياً مؤثّراً في العصر الجاهلي الأخير، مستعيناً بلغة إعلامية غنية، مكتملة معنى وأسلوباً، في ظل نهضة عقلية وفنّية عرفها العرب قبيل الدعوة.

يقول ابن سلاّم في طبقاته : كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون.. كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه[148].

ويقول عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[149].

أما النثر الجاهلي، فإن للخطابة فيه أهمية خاصة بالنسبة للإعلام، لأنها تعدّ شكلاً من أشكال الاتصال الجمعي.

يقول الجاحظ: وجملة القول إنّا لا نعرف الخطب إلاّ للعرب والفرس.. إلاّ أن كل كلام الفرس وكل معنى للعجم فإنّما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكّر ودراسة الكتب.. وكل شيء للعرب فإنّما هو بديهة

---

(١٤٨) محمّد بن سلاّم، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، قراءة، مطبعة المدني، ص. ٢٤.

(١٤٩) طبقات إبن سلاّم، ص. ٢٥.

وارتجال وكأنّه إلهام.. فما هو أن ينصرف وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد، فتأتي المعاني إرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً.. وكانوا أميّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل[١٥٠].

ويقول عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : وما تكلّمت به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلّمت به من جيّد الموزون[١٥١].

ويعتقد من يقرأ الجاحظ في البيان والتبيّن أن الجاهليّين قاطبة كانوا خطباء، فالأسماء التي أوردها أكثر من أن تحصى.

وإذا كانت صناعة النثر في العصر الجاهلي بدأت، كما يقول الدكتور شوقي ضيف، بصورة فنيّة لا تأنّق فيها ولا تعقيد تبعاً لحياة العرب البسيطة التي لم تكن تعتمد على تصعيب الأداء وعلى تنميق[١٥٢]، وإذا كان هذا النثر استمر في العصر الإسلامي في الصورة التي رسمها العصر الجاهلي من حيث نسجه وصوغه، وإن اختلفت موضوعاته وتشعّبت معانيه[١٥٣]، فإن ذلك من شأنه أن يعمّق القناعة بأن الخطابة الجاهلية أدت، موضوعاً وشكلاً، مهمّة إعلامية، لأن الإعلام ليس معنيّاً بالجوانب الجمالية والزخرفية التي تدخل في نطاق الأدب، وإنّما يعنى بمضمون هذا النثر وبمدى تمثّله للشأن العام.. يمكن القول إذن، إن الخطابة الجاهلية أدت دوراً في عملية الاتصال الجمعي في الحقبة الجاهلية المتأخّرة، وأدت، معنى وأسلوباً، أغراضاً إعلامية مهمّة.

أما سجع الكهّان، فهو شكل آخر من أشكال الخطاب الإعلامي الجاهلي، فقد كان هؤلاء الكهّان يتمتّعون بنفوذ واسع ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهانته، فتصدر عن رأيه، وقد تتخطّى شهرته إقليمه فتقصده العرب من أقاليم نائية[١٥٤].

ولم يكن سجع الكهّان سوى طقوس وثنية قائمة على الشعوذة لتحقيق أغراض

(١٥٠) الجاحظ، البيان والتبيّن، دار الكتب العلمية، الجزء الثالث، بيروت، ص.١٣.
(١٥١) الجاحظ، البيان والتبيّن، الجزء الأوّل، ص. ٨٥١.
(١٥٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص. ٧.
(١٥٣) المصدر نفسه، ص. ٨.
(١٥٤) المصدر نفسه، ص. ٣٨.

أصحابها الدنيوية، غير أنها تعدّ صورة من صور الخطاب الإعلامي الجاهلي، إذ كان هؤلاء الكهّان يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام والتأثير في نفوس السامعين[١٥٥].

وهكذا نلاحظ أن الإعلام الجاهلي اتّخذ طابعاً شفهياً بحتاً معتمداً لغة شعرية ونثرية مسموعة، ناضجة ومتقنة.

ونزل الوحي الإلهي على النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبدأت ثورة جمعت العرب في أمّة استطاعت، تحت رايات الإسلام، أن تبني واحدة من أعظم الحضارات الإنسانية، محدثة تغيّيرات خطيرة في تاريخ البشرية.

لقد جسّد القرآن الكريم الإعجاز الإعلامي بكل معانيه وأشكاله، وأحاط بأنواع التعبير الإعلامي جميعاً، وأتت سنّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لتردف هذا الإعلام القرآني، معطية الطابع الجوهري للإعلام والاتصال الجمعي في تلك الفترة.

وكان من المنطقي أن ينحسر الشعر انحساراً لافتاً وأن تشهد الخطابة مزيداً من الازدهار، فالتنزيل المنجّم أثار، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، جملة من المسائل والقضايا والشؤون التي تحتاج الى توضيح وتفسير وشرح وتحليل بلغة نثرية، كما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أغنى الخطابة ورفع من شأنها وأدخلها في صميم الحياة الإسلامية.

ولقد ارتقى الإعلام النثري فكراً وفناً إبان الدعوة، ذلك أن القرآن الكريم وحّد اللهجات العربية وأغنى اللغة القرشية معنى ولفظاً وأسلوباً، محقّقاً للإعلام وللغة الإعلامية نهضة فكرية وفنيّة مهمّة.

استمرّت الخطابة، في صدر الإسلام، إعلاماً فاعلاً، مستمداً مادته الأساسية من القرآن الكريم والسنّة. وكان النبيّ صلوات الله عليه قُدوة الخلفاء الراشدين في وصاياهم وخطبهم التي كانت تهدف الى نشر تعاليم الدين الجديد.

وتحدثنا كتب الأدب والتاريخ أن خطب الشخين رضي الله عنهما، كانت آية في البيان والبلاغة والفصاحة، وأن عثمان رضي الله عنه لم يبلغ مبلغ سلفيه، أما علي كرّم الله وجهه، فلم يقلّ عنهما بلاغة في خطبه.

يمكن القول إن الإعلام الخطابي اتّخذ طابعاً دينياً وإيمانياً يهدف الى تثبيت دعائم الإسلام واستكمال بناء المجتمع الإسلامي، بينما بقي الشعر منحصراً في أضيق نطاق.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص. ٨٣.

شهد الإعلام في العصر الأموي تطوّراً نوعيّاً مهمّاً نتيجة ظروف سياسية وعسكرية واجتماعية تميّزت بها تلك الحقبة التاريخية.

إن استتباب الأمر للمسلمين وانتشار الدين الجديد في أقاليم وأمصار واسعة، وتفجّر صراع خطير على الحكم في الدولة الإسلامية الفتية، تخلّلته فتن وحروب طاحنة، كل ذلك، أعاد للشعر سطوته الإعلامية، إذ سخّر كل طرف من الأطراف المتنازعة شعراء العصر لخدمة أغراضه السياسية وشن حملاته الإعلامية الهادفة الى إقناع الناس بصلاحيّته وأحقّيته في حكم المسلمين.

وفي خضم تلك الصراعات الدامية، نجد الخطابة التي ارتفع شأنها إبان الدعوة، قد تلوّنت تلوّناً زمنياً واضحاً وأصبح العنصر الديني فيها مطوّعاً لتحقيق الأهداف السياسية للقوى المتنازعة.

ويلاحظ أن الإعلام الجمعي الخطابي أخذ يلعب دوراً نفسياً كبيراً في تلك المرحلة المضطّربة من حياة المسلمين.

من الضروري الإشارة، في هذا السياق، أن عنصراً جديداً دخل مجال الإعلام الجمعي، ألا وهو القصص الذي نشأ منذ الخليفة عمر بن الخطّاب، إذ كان هناك قصّاصون يقصّون في المساجد، وآخرون يقصّون في مقدّمة الجيوش الفاتحة[١٥٦].

غير أن القصص عرف ازدهاراً غير مسبوق في العصر الأموي وتبدّلت أهدافه لذات الأسباب التي أدت الى تسيّس الخطابة وإيقاظ الشعراء. فقد كان قصّاص المسلمين يتحدّثون الى الناس في مساجد الأمصار، فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتّصل بالنبوّات ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازي والفتوح، وكان الناس كلفين بهؤلاء القصّاص مشغوفين بما يلقون اليهم من حديث. وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة، فاصطنعوها وسيطروا عليها، فالأحزاب السياسية على اختلافها كانت تصطنع القصّاص ينشرون لها الدعوة في طبقات الشعب على اختلافها[١٥٧].

ارتقى الإعلام النثري ارتقاء عظيماً في العصر الأموي، وإذا كان الخطباء قد عنوا بإحكام خطابتهم عن طريق البيان التام والحجّة البالغة والألفاظ المونّقة[١٥٨]، فإن

(١٥٦) طبقات إبن سعد وأسد الغابة، عن الفن ومذاهبه، مصدر سابق، ص. ٧٤.

(١٥٧) طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، مصدر سابق، ص. ١٦٠.

(١٥٨) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، مصدر سابق، ص. ٨٠.

القصّاص ألانوا اللغة الإعلامية وحمّلوها من الطاقات ما تستطيع به التعبير عن المعاني الدقيقة، ففتحوا أبواباً لا حصر لها من الجدال في مسائل الدين والعقيدة، وتولّوا بمعانيهم يفرّعون فيها ويولّدون ويأتون بكل جديد مستطرف وبديع مستحسن[١٥٩].

غير أن الأهم من ذلك كلّه، هو أن هؤلاء القصّاص والوعّاظ الذين كانوا يخاطبون الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم، استخدموا لغة إعلامية حقيقية بالمغنى المعاصر إذ هبطوا بأساليبهم قليلاً عن مستوى أساليب الخطابة السياسية حتى تفهمهم جميع الطبقات وحتى لا يرتفعوا بكلامهم عن فئات الشعب، ومع هذا الهبوط لم يخرجوا الى السوقة بل وازنوا موازنة دقيقة بين كلامهم ومستوى الفصاحة، فأخلوه من الألفاظ الغريبة، وفي الوقت نفسه، لم يسقطوا به الى ألفاظ مبتذلة، وألجأهم ضيق معانيهم الى التنويع فيها والتفريع والتوليد، كما ألجأهم الى ضروب من الترداد والتكرار والترادف[١٦٠].

وهكذا، فإن الشعر والقصص السياسيّين والخطابة ذات الصبغة الدنيوية قد شكّلوا معاً مرتعاً غنياً وأدوات فعّالة لإعلام جمعي متقدّم حرفة وأسلوباً، في العصر الأموي.

أضفى العصر العبّاسي على الإعلام الجمعي سمات جديدة، نمت وتبلورت في ظلّ التطوّر الاجتماعي والثقافي والعلمي الهائل الذي تحقّق في تلك الحقبة.

لقد احتفظ الشعر بمكانته كأداة إعلامية طوال القرن الثاني للهجرة، متمثّلاً ملامح المجتمع العبّاسي بكل طبقاته وفئاته، إلاّ أن أمره ضعف في القرن الثالث[١٦١]، ولم يبق له إلاّ فنون يمكن أن تستغني عنها الجماعة[١٦٢].

أما النثر فقد بلغ أشدّه[١٦٣]، ومصدر ذلك تلك العلوم الكثيرة التي نشأت في القرن الأوّل، ثم العلوم الأجنبية التي أدخلت في اللغة العربية[١٦٤].

ولكن، أي نثر اضطلّع بالإعلام الجمعي في عصر العبّاسيين ؟

لقد استمرّت الخطابة أداة إعلامية مؤثّرة في الحقبة الأولى من ذلك العصر، ولكنّها سرعان ما تضاءل شأنها وسارت نحو الأفول عندما استتبّ الأمر للحكم العبّاسي.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص. ٩٢.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص. ٩١.

(١٦١) طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر، ص. ٥٣.

(١٦٢) المصدر نفسه، ص. ٨٨.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص. ٥٣.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص. ٥٥.

أما القصص، فقد بقي أداة إعلامية قيّمة في العصر العبّاسي جميعاً.

ولكن الإعلام الجمعي العبّاسي دخل مضماراً جديداً أحدث تطوّراً لا سابقة له في بنياته ووظائفه، وهو مضمار المناظرات الكلامية التي حقّقت ارتقاءً كبيراً في العصر العبّاسي، والتي مارس الإعلام من خلالها دوراً يفوق أي دور قام به في جميع العصور العربية والإسلامية.

ويتحدّث الجاحظ مطوّلاً عن متكلّمي هذه المناظرات مبيّناً عمق تأثيرهم في عقول الناس ونفوسهم، ويصفهم قائلاً :.. فقد مرّنوا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعاني وعرضها بخلفيات حدودها ودقائقها، والحوار فيها والجدال ومحاولة إقناع الخصوم وإسكاتهم، وبلغوا من ذلك كل مبلغ[١٦٥].

والحقيقة أن المناظرات الكلامية في العصر العبّاسي شكّلت ظاهرة إعلامية فريدة في المناخ الحواري والجدالي الذي أوجدته، وفي أجواء التنوّر العقلي والتحرّر الفكري التي أشاعتها، وفي الموضوعات شديدة التنوّع والمتشعّبة التي طرحتها وعبّرت عنها بلغة راقية وغير معقّدة، وفي التفاعل العميق الذي حقّقته بين أقطاب هذه المناظرات بمختلف اتجاهاتهم الفكرية والاجتماعية، وبين العامّة بجميع فئاتها.

من العسير الإدّعاء بأن الكتاب العبّاسي حقّق عملية اتصال جمعي، إذ بقي في نطاق الخاصّة ولم يجر تداوله لأسباب ثقافية وتقنية، على صعيد السواد. ولكن هذا الكتاب أدى دوراً مهمّاً في رفد الإعلام السمعي وتغذية قنواته لأن رجال إعلام ذلك العصر، الذين كانوا ينتمون الى الخاصّة المثقّفة، استمدّوا موضوعاتهم، وخاصّة في مجال المناظرات، من تلك الكنوز المدوّنة التي كانوا يطّلعون عليها ويسهمون في إغنائها ويتجادلون حولها، ويخرج كل منهم بقناعات معيّنة يطرحها على الناس بلغة مبسّطة، سهلة وقابلة للفهم في أوساط العامّة.

يلاحظ أن العصور العربية التي أعقبت العصرين العبّاسيين قد أحدثت تغييرات ملموسة في طبيعة الإعلام الجمعي ومضامينه وصيغه، وإن استمرّت بعض أشكال تعبيره القديمة لفترات زمنية طويلة.

فقد شهد عصر الإمارات حركة أدبية وعقلية واسعة[١٦٦]، وهو يعدّ أحفل العصور العربية بالنشاط الأدبي والعلمي والفلسفي[١٦٧] ، غير أن الكتابة الفنّية دخلت طوراً

(١٦٥) حيوان الجاحظ، عن الفن ومذاهبه، ص. ١٣٠.

(١٦٦) الفن ومذاهبه، ص. ٢٢٨-٢٢٩.

(١٦٧) الفن ومذاهبه، ص. ٢٢٨-٢٢٩.

جديداً حيث أصبح التصنيع أساسياً[١٦٨]، وكانت موجة التصنيع في القرن الرابع الهجري حادّة حدّة شديدة، فلم يسلم منها أحد إلاّ في القليل الأقلّ، حتّى كتّاب التاريخ أنفسهم[١٦٩].

ويلاحظ أن هؤلاء الكتّاب جميعاً من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع، أخذت تظهر على أسلات أقلامهم شيات مذهب آخر هو مذهب التصنّع، إذ نراهم يعمدون الى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو الى اتّخاذ فنون جديدة في نثرهم لا تمتّ الى التجميل والتصنيع بصلة، وإنّما تمتّ الى التحذلق والتكلّف، فالمعاني فقدت قيمتها ولم يعد لها أهميّة، إنّما الأهميّة كلّها للألفاظ وما تطرّز به من وشي وحلي[١٧٠].

وإذا كانت الأندلس قد تقدّمت في الحركة العقلية في عصر سلطان المغاربة، بعد ذهاب عصر ملوك الطوائف، فإنّها لم تتقدّم في الحركة الأدبية، وقد سرت ظاهرة التعبير بالأساليب المحفوظة التي لا تفصح عن فكرة محدّدة[١٧١].

أما الفاطميّون، فقد استمرّوا في انتهاج مذهب التصنيع، وجنى الأيّوبيّون ثمار النهضة الفنّية الفاطميّة، إلاّ أنّهم استمرّوا على نهجهم التصنيعي، واتّجهوا ذات الوجهة من الإطراف بغرائب العبارات[١٧٢].

أما المماليك، فقد عنوا بالحركة العلمية، وعنوا بالحركة الأدبية[١٧٣].

واقرأ في الآثار الكتابية في أثناء العصر العثماني، فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تقرن الى أي عصر من العصور السابقة[١٧٤].

ولا شك في أن الاتجاه الذي سلكته اللغة الأدبية العربية خلال العصور الأخيرة، قد أسهم، الى جانب عوامل تاريخية وسياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، في تحديد ملامح إعلام عربي وإسلامي معاصر أدى احتضانه لبذور التصنّع وغرقه في لجّة الألفاظ المرصّعة الجوفاء والعبارات الغريبة، الى فقدانه أهم مقوّماته الطبيعية وخصائصه الفيزيولوجية المتمثّلة في إصابته المعنى وبساطته وسهولة تعبيراته وفعّالية تواصله المعرفي والثقافي مع السواد.

(١٦٨) الفن ومذاهبه، ص. ٢٢٨-٢٢٩.

(١٦٩) الفن ومذاهبه، ص. ٢٢٩.

(١٧٠) الفن ومذاهبه، ص. ٢٢٩.

(١٧١) المصدر نفسه، ص. ٣٣١.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص. ٣٦٧.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص. ٣٣٧-٣٣٨.

(١٧٤) المصدر نفسه، ص. ٣٧٨.

وبدخول العرب والمسلمين نفق الاحتلال العثماني، بدأ تأريخ جديد لعصور عربية وإسلامية شهدت تقهقراً فكرياً وعلمياً وثقافياً، امتدّ حقبات طويلة. وقد استمرّ التدهور خلال فترات الاحتلال الغربي، ثم الاستقلال، مدخلاً البلدان العربية والإسلامية ضمن منظومة الدول والمجتمعات المتخلّفة.

الإعلام العربي المعاصر

عندما دخلت الدول العربية مرحلة الاستقلال تباعاً، بعد احتلالات استمرّت قروناً عديدة، وجدت المجتمعات العربية نفسها، إذن، خارج قطار الحضارة التي كانت استقلّته أمم أخرى، ووجدت الشعوب العربية نفسها حاملة أثقال موروث الحقبات الأخيرة التي كانت تسجّل تراجعاً حضارياً سريعاً لا هوادة فيه، أعقبته سلسلة من الإخفاقات النهضوية الاستراتيجية في الأزمنة الحديثة والمعاصرة، وإن تخلّلته بعض النقاط المضيئة التي سرعان ما خبت تحت وطأة التخلّف الشامل.

ومنذ اعتلاء القوى الوطنية سدّة الحكم، حرصت الأغلبية الساحقة من الدول العربية، بما فيها تلك التي اختارت طريق التطوّر الرأسمالي، على عدم اعتناق النظرية الليبرالية الإعلامية[١٧٥] ، وعدم خوض تجربة الإعلام الليبرالي، وازداد هذا الحرص حدّة، فيما بعد، لدى انتشار الإعلام المسموع والتلفزي، وما ترتّب على ذلك من تبدّلات في بنيات الاتصال الجماهيري ووظائفه.

وتبنّت تلك الأقطار نموذج إعلام الدولة[١٧٦]، منطلقة من قناعة معلنة بأن هذا النموذج يشكّل حتمية تفرضها مرحلة التطوّر الإجتماعي والاقتصادي والظروف السياسية والقومية والاستراتيجية الناجمة عن واقع التجزئة والاستعمار الاستيطاني لجزء من الأرض العربية. وهذا ما أدى بالفعل الى إبعاد الأفراد والجماعات عن الإعلام وانفراد الدولة بالمسؤولية الإعلامية جميعاً، على اعتبار أن الشأن الإعلامي يقع في مجال عمل المجتمع ولا يجوز تركه نهباً للمبادرة الخاصة كغيره من الأنشطة،

(١٧٥) باستثناء لبنان.

(١٧٦) تحتكر الدولة في البلدان العربية والإسلامية، باستثناء لبنان (وقطر مؤخّراً، ولكن بصورة تجريبية غير معسّسة وغير مقوننة)، الإعلام الإذاعي والتلفزي، أما بالنسبة للإعلام المطبوع، فقد سمحت دول عربية وإسلامية للقطاع الخاص بالاستثمار فيه، تاركة هوامش حرّية تضيق وتتّسع حسب شروط وظروف قطرية، موضوعية وذاتية غير مستقرّة وغير ملحوظة في القانون المدوّن، ولكن محتفظة بهيمنة قانونية ورقابية عليه، ما يجعله تابعاً وخاضعاً، بصورة جوهرية، لمقوّمات الإعلام الرسمي السائد.

إذ أن المرحلة التاريخية غير العادية تتطلّب إعلاماً مجتمعياً غير عادي ينخرط في عمليات التنمية ويسهم في تحقيق طموحات الأمة.

الواقع أن التطوّر الفكري الذي طرأ على النظرية الليبرالية التقليدية، وخاصة فيما يرتبط بالإعلام الإذاعي والتلفزي، دفع العديد من الدول الرأسمالية المتطوّرة[١٧٧] التي كانت تعيش مرحلة حضارة صناعية وبعد صناعية، والتي كانت أطلقت يد المبادرة الخاصة في الصحافة المطبوعة، تماشياً مع الفكر الليبرالي التقليدي، الى حصر الإعلام المسموع والتلفزي في نطاق الدولة عقوداً من الزمن، إدراكاً منها للتغيّرات الجوهرية التي طرأت على تركيبة الجمهور الإعلامي، وخضوعاً لضغوط قطاعات واسعة في المجتمع المدني، رأت في الإذاعة وفي التلفزة خاصة، تهديداً للتماسك الاجتماعي والقيم الأخلاقية السائدة.

ثمّ شرعت هذه الدول، بدءاً من النصف الثاني من السبعينيات، في فتح الأبواب تدريجياً أمام القطاع الخاص وقيّدته بسلسلة من التشريعات والقوانين، بعد أن قطع إعلام الدولة أشواطاً وتعاظمت قدراته وتهيّأت بنياته لخوض التنافس بكفاية، وبعد أن ولّت مرحلة الانبهار الأولي بالوسائل الإلكترونية وتطوّراتها، وأخذت تنمو في أوساط الجمهور العريض القدرة التحليلية والروح النقدية تجاه المنتج المسموع والتلفزي[١٧٨] ولكن، في حين مارست تلك الدول الغربية المتقدّمة إعلام الدولة بمختلف أبعاده وجوانبه، تخلّت الدول العربية والإسلامية عن جوهره وخصائصه الأصلية، محوّلة الإعلام الوطني الى إعلام فئوي يتعذّر عليه تحقيق النهوض لجسر الهوّة الحضارية.

(١٧٧) تركت الولايات المتحدة الأمريكية الإعلام برمّته للقطاع الخاص وأخضعت المنتج الإعلامي لاقتصاد السوق، وإن شرعت، في وقت لاحق، في إصدار تشريعات وسنّ قوانين تحدّ من التمركز الإعلامي وتحول دون احتكار مؤسّسات إعلامية عملاقة للإعلام بأسره، وذلك من أجل الحفاظ على حالة تنافسية داخل إطار المجموعات الإعلامية العملاقة وخارجها، وحرصاً على التعدّدية والتنوّع، وتمسّكاً بالمبادىء الأصلية للنظرية الليبرالية التي تعدّ حرية التعبير إحدى أهم مرتكزاتها. أما دول أوروبا الغربية فقدعمدت، إثر انتشار الإعلام الإلكتروني، الى جعل الإذاعة والتلفزة ملكية عامة للدولة، غير أنها التزمت ضمان استقلالية حقيقية للمؤسّسة الإعلامية تجاه السلطة السياسية، وهي استقلالية تحميها التشريعات والقوانين ذات العلاقة لا الإجراءات الاعتباطية أو الظرفية، وتحظى كل أطراف الدولة في هاتين الوسيلتين الإعلاميتين، بدءاً من المعارضة، بأحزابها وحركاتها، وتنظيمات المجتمع المدني المختلفة، بحضور يضاهي حضور أركان السلطة الحاكمة.

(١٧٨) فريال مهنا، جدلية المضمون والشكل في الخطاب الإعلامي العربي، مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية، المجلّد ١٦، العدد الأول، ٢٠٠٠. ص. ٨.

إعلام الدولة وإعلام السلطة

لكي نتمكّن من التميّيز بين إعلام الدولة وإعلام السلطة، ولكي نستطيع، بالتالي، معرفة خلفيات هذا الخلل في الإعلام العربي والإسلامي بشكل عام، لا بد من التعرّف على الفرق بين الإعلامين:

إعلام الدولة هو إعلام المجتمع بكل فئاته وتيّاراته السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية والقيمية، وإعلام الدولة هو المعبّر عن وقائع المجتمع الكلّي بتفاعلاته وإشكالياته، بإنجازاته وإخفاقاته، بتناغميته وتناقضاته، وإعلام الدولة هو المحتضن للحركة المجتمعية والمجسّد لطبيعتها والمشارك في تحديد اتجاهاتها، وإعلام الدولة هو الذي يحتوي الرأي والرأي الآخر، الموقف والموقف المضاد، السلطة والمعارضة، الحاكم والمحكوم، وهو الذي يبرز الإرادة العامّة التي تؤدي دور الحكم بين " الأمير والرعيّة ".

من الواضح أن الإعلام الوطني في أغلبية البلدان العربية لا يحمل هذه الخصائص ولا يتمتّع بهذه الصفات، ذلك لأن آليات تشكّل النظام السياسي والاجتماعي العربي، والمسوّغات التاريخية والفكرية والحقوقية التي استخدمت لضمان استمراريته، عبر عقود الاستقلال، وفي مراحل انتشار الإعلام الإلكتروني خاصّة، ولأن الظروف العربية والإقليمية والدولية التي صنعت النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ ثم النكسة في حزيران ١٩٦٧ وما نجم عنهما من احتلال وصراعات عربية عربية بلغت حد الدموية أحياناً، وحروب أهلية وإخفاقات قومية، كل ذلك متضافراً ومتفاعلاً، قدّم الذرائع الكافية لكي يتمكّن أحد أطراف الدولة، أي السلطة، من استقطاب الإعلام الجماهيري برمّته، وتعميق هذا الاستقطاب، عقداً بعد عقد، بحجّة مواجهة معطيات " المرحلة الخطيرة " أبداً، حتى فقد إعلام الدولة أهم مقوّماته وتحول الى إعلام الطرف الوحيد في معظم الحالات، وجرى توظيفه للحفاظ على الحالة القائمة (Statu. Quo) ريثما يتم حلّ " المعضلات القومية والإقليمية ".

في ظل استتباب هذه العلاقة بين المؤسّسة الإعلامية و السلطة السياسية والمجتمع، إذن، ما هي طبيعة العلاقة بين الإعلام العربي وبين مختلف أركان النظريات الإعلامية التي تم عرضها آنفاً؟

لا شك أنه من العسير المطابقة بين نظرية واحدة من هذه النظريات والإعلام الواقعي العربي، لأن هذا الأخير يحتوي عناصر أكثر من نظرية، وإن كان لا يتقارب البتّة مع عناصر أخرى:

١- فبعض هذا الإعلام يسمح بوجود مبادرة خاصة في مجال المطبوع، وبصورة استثنائية في مجال المتلفز، ولكن توجيه النقد" للأمير " محظّر تماماً طبقاً للنظرية الاستبدادية التّي تتضمّن عقوبات شتى للمخالفين، من بينها سحب الرخص وإغلاق الصحيفة إغلاقاً مؤقتاً أو دائماً إلخ..

٢- والبعض الآخر من هذا الإعلام حرّم الملكية الخاصة في جميع الإعلام، بما فيه المطبوع، واضعاً المؤسّسة الإعلامية بأسرها ضمن نطاق الملكية العامة التي أدت، في الممارسة، الى استيلاء السلطة على إعلام الدولة، طبقاً للنظرية الشيوعية.

٣- في الحالتين، لا يتمتّع الإعلام بأي استقلالية حقيقية، ولا يحق له ممارسة دوره الرقابي والنقدي على الحكومة والسلطة بمختلف أشكالها ومظاهرها وتجلّياتها، بل يحق له فقط دعم أعمال الحكومة ومساندتها والترويج لها والتعتيم على ثغرات الحكم ونقل الأوامر والتعليمات من الأعلى الى الأسفل، وسد المسار المتّجه من الأسفل الى الأعلى، إلاّ فيما يتعلّق ببعض الشؤون الهامشية والثانوية التي لا تمس السلطة في جوهرها.

٤- بعد عقود من المحظورات والمحرّمات، وإثر عمليات تصفية منظّمة ومستمرّة للمهنيّين والمتخصّصين وذوي الخبرة، وإثر ممارسة نظام صارم لعقاب " المتمرّدين " ومكافأة " الطيّعين والملتزمين"، تحولت الرقابات الخارجية الى رقابات ذاتية داخلية أشد وطأة، في ظلّ علاقات غير موضوعية، وبيروقراطيات لا تحتمل سوى بروز عناصر لا تتمتّع بكفاية وبعيدة عن مقوّمات الأخلاقية المهنية، وعناصر أرغمت على التهميش و الصمت لتحتفظ بمواقعها، ما جعل آليات الرقابة الذاتية عاملاً من عوامل تدهور النشاط الإعلامي المهني، وتحول الإعلام الى مؤسّسات بيروقراطية، تابعة كلّياً للمؤسّسة السياسية، حيث يتم صنع منتج إعلامي رديء يجري اجتراره وإرغام المتلقّي على إعادة استهلاكه، ويبرّر استمراريته وجدواه من خلال ذرائع ترتبط بتحدّيات وتهديدات خارجية، إقليمية ودولية، أسهم الإعلام العربي والإسلامي نفسه في تفاقمها وازدياد مخاطرها على الأمن الإعلامي الوطني والقومي والإسلامي.

لقد أدى تبنّي المجتمعات العربية لهذا المزيج من النظريتين الاستبدادية والشيوعية، بالإضافة الى حصيلة متشابكة من العوامل التاريخية والسياسية والإجتماعية والثقافية، الى تشكيل ملامح معيّنة للإعلام العربي المعاصر، يمكن إجمال أهمها كالتالي:

١) إن غياب حرّية التعبير في الإعلام العربي وعدم تمتّع هذا الأخير بأية استقلالية حقيقية في المجتمع، ليس ناجماً عن طغيان إعلام الدولة وانحسار الإعلام الخاص، بل عن طغيان إعلام السلطة وتقويض إعلام الدولة. فهذا الأخير قائم في مجتمعات أخرى بلغت أقصى مراحل التقدّم، وهو يؤدي وظائف لا غنى عنها، لأنه يحقّق تماسكاً اجتماعياً وتوازناً ثقافياً وقيمياً، ويخوض تنافساً مع الإعلام الخاص يسفر عن ارتفاع وتائر التطوّر في العمل الإعلامي ولا سيما الفكري والمعلوماتي منه، ويؤدي الى تساوق الإعلامين العام والخاص المستمر مع متطلّبات الجمهور الإعلامي في عصر المعلوماتية.

لذلك، فإن اعتقاد الأكثرية في العالم العربي بأن الخلل يكمن في الملكية العامة للإعلام، وبأن الحل يكمن في تبني مفاهيم الإعلام الليبرالي بصيغه التقليدية التي تجاوزها الغرب نفسه إثر انتشار الإعلام الإلكتروني واتجاه الإعلام نحو التمركز، هو اعتقاد لا يأخذ في الحسبان جوهر المشكلة، وإن استمد مشروعيته من حقيقة أن الجمهور الإعلامي العربي خاض بألم إعلام الطرف الوحيد ولم يتعرّف على إعلام الدولة نتيجة الانفصام الذي حصل بين المفهوم التشريعي والحقوقي لإعلام الدولة من جهة، وبين الممارسة العملية لهذا المفهوم من جهة أخرى، وهو انفصام أدى، كما رأينا، الى انتفاء معظم مقوّمات إعلام الدولة وأهمّها.

الحقيقة أنه إذا كان إعلام الدولة يمثّل حاجة في مجتمعات تقانية، فإنه يجسّد ضرورة في مجتمعات نامية تتعرّض لتحدّيات شتى في مجال الهويّة والشخصية والتراث، لأن إعلام الدولة، في حالته الفيزيولوجية، يمثّل نقطة ارتكاز لا غنى عنها، فبه يناط جانب حيوي من جوانب وضع وتنفيذ استراتيجيات التنمية، وعبره يخوض المجتمع عملية التواصل والتفاعل المجدي مع العالم الخارجي، وعليه تقع مسؤولية الاشتراك الفعلي في بناء المعاصرة داخل بوتقة الأصالة.

٢) إنطلاقاً من مفهوم عام جرى تداوله في الأدبيات الإعلامية الغربية وغير الغربية خلال نشأة الصحافة الجماهيرية المطبوعة، حول تقسيم هذه الأخيرة الى صحافة خبرية وصحافة رأي، اكتسب هذا المفهوم صبغة نضالية وعقائدية في الأوساط السياسية والإعلامية العربية إبان النشاط المعادي للاحتلال الأجنبي، حيث اعتبرت صحافة الرأي أحد أهم أركان

هذا النشاط، وروّجت السلطة الوطنية لهذا المفهوم خلال مراحل الاستقلال، مبدّلة منطلقاته العقائدية الأصلية، إذ ركّزت على جدّية صحافة الرأي وصدقيتها ووصمت الصحافة الخبرية باللاإلتزامية الوطنية، موحية، في الوقت نفسه، بأن تعميم رؤية السلطة وأطروحاتها، دون الأطراف الأخرى في المجتمع، عبر قبضها على إعلام الدولة، من شأنه أن يؤكّد هذه الإلتزامية ويعطيها أبعادها الحقيقية. وبذات المنطق، جيّرت السلطة هذا المفهوم لتوجد تناقضاً وهمياً بين الإلتزامية وبين المهنيّة الإعلامية، بحيث تستبعد إحداهما الأخرى بصورة حتمية، وذلك لكي يتسنّى لها التضحية بالثانية لصالح الأولى، " فالأوضاع الاستثنائية دوماً " التي تعيشها البلدان العربية، داخلياً و قومياً وإقليمياً، تجعل الإعلام" الإلتزامي"، الذي وضعت له السلطة توصيفاً ذرائعياً وغير علمي وأرغمت الآخرين على تبنّيه وتعميمه، يجب أن يحتلّ أولوية مطلقة في كل الأحوال.

الواقع أنه، عبر مختلف الحقبات التاريخية والتشكيلات الاجتماعية، وسواء أكان الإعلام مملوكاً لمؤسّسات أم لجماعات أم أفراد أم دول، وسواء أكان يغلب عليه الطابع الخبري أم الموقفي أم غير ذلك، لا يمكن أن يتحرك إلاّ في حالة إلتزامية، بصورة أو بأخرى، فالإنتمائية هي دوماً خاصيّة أساسية من خصائص الإعلام.

حقيقة الأمر أن التناقض الفعلي في الإعلام العربي الواقعي يقع بين أحادية الإلتزامية وبين المهنيّة التي تتطلّب ممارستها، قبل كل شيء، تفاعلاً وتقابلاً وتبادلاً ضمن إطار تعدّدية إنتمائية للإعلام الجماهيري، تجسّد المجتمع بكل تنوّعه وتلوّنه واتّجاهاته.

ولا شك أن هذا اللاتعايش الموضوعي بين وحدانية الانتماء في كل الإعلام وبين المهنيّة ينبثق من تناقض لا خلاف عليه بين الأيديولوجيا والإقناعية (Persuasion) في الإعلام العربي الرسمي[١٧٩].

لهذا كلّه، نجد أن الإعلام العربي الذي يمثّل أحد عناصر النظام السياسي والاجتماعي، لا يمكنه، بتركيبته وبنياته ووظائفه، أن يصنع منتجاً إعلامياً مؤهّلاً للاندماج في محيط تسوده تعدّدية الانتماء والإقناعية، وإنّما يستطيع

(١٧٩) الأيديولوجيا تطرح وجهة نظر وحيدة وتكرّرها الى ما لا نهاية، داعية الى اعتناقها والإيمان بها كمسلّمة، أما الإقناعية فهي تطرح وجهات نظر متعدّدة وتناقشها وتقارن فيما بينها ثم تدعو الى اعتناق إحداها، بناء على اقتناع عقلي ناجم عن حوار ومفاضلة.

أن يقدّم فقط منتجاً إعلامياً أيديولوجياً لا يقوى على الحركة إلاّ في إطار عالم دلالي منتاغم ومتجانس، لا صلة تربطه بالحركة الواقعية للبيئة المحيطة، لأن تلك الحركة تعيش داخل عالم دلالي يعدّ التناقض إحدى سماته الفيزيولوجية الأساسية(١٨٠).

٣) لهذا كلّه، نرى أن الإعلام العربي يصنع، في معظمه، منتجاً إعلامياً طقسياً(١٨١) يحتضن حقائق مطلقة يتجول فيها تفكير مغلق الدوائر يحول دون قيام الإعلام بوظائفه الفيزيولوجية كأداة لأحد أطراف العملية الاتصالية (المرسل). ويحتوي هذا المنتج لغة مونولوجية استقصائية تنفي الآخر وتنبذ القيم الحوارية والمفاهيم الاحتمالية وترفض كل ما يقع في إطار الظرفية والسياقية والنسبية.

ولا ريب أن اجتماع هذه الصفات في المنتج الإعلامي العربي يمثّل نموذجاً مثالياً ومرتعاً خصباً للغة المحظورات (Tabou)، التي تعطّل تماماً الوظائف الإفشائية للإعلام والتي تعدّ أحد مبرّرات وجود الإعلام في أي مجتمع راهن.

---

(١٨٠) يقول أومبرتو إيكو، في كتاب له حول السيميولوجيا العامة، إن مسألة تتطلّب طبيعتها إجراء مقارنة بين نوعين من المقدّمات (Premises)مختلفين، إلاّ أنه يجري انتقاء أحد النوعين الذي لا يحتوي خاصّيات تناقضية ويتم، بصورة واعية أو غير واعية، إهمال أو إسقاط النوع الآخر الذي يعرقل سيرورة المسألة بصورة مستقيمة خالية من التعرّج. كل ذلك هو أيديولوجيا.
ويعرّف إيكو الطرح الأيديولوجي عموماً، بأنه كل موضوع يتم عرضه أو تناوله أو تفسيره من خلال اختيار واحدة من الإمكانات الاصطفائية الظرفية فقط، وتجاهل وجود إمكانيات أخرى لمقدّمات تناقضية أو تكميلية ظاهرياً من شأنها أن تقود الى نتائج متعارضة.
ويقول إيكو إن هذا التجاهل هو طمس للتناقضية الطبيعية الموجودة في المساحة الدلالية الآتية من المنبع (Continuum). ويميّز إيكو بين الأيديولوجيا والإقناعية (Persuasion) فيصف الأخيرة بأنها تعرض للقيم الاختلافية وتقرّر أسس القيم ذات الأفضلية، ولكنّها تمارس عملية الإقناع إنطلاقاً من أن تلك القيم التفضيلية لا تتحرّك في نطاق استبعادية مطلقة كما الأيديولوجيا، بل في نطاق أفضليات تدرّجية ونسبية مفتوحة الآفاق.
لمزيد من التفاصيل، أنظر:
- فريال مهنا، جدلية المضمون والشكل في الخطاب الإعلامي العربي، مصدر سابق، ص. ٩- ١٠.
- U. Eco, “A Theory of Semiotics ”, Indiana University Press, IV Ed. Bompiani, Milano, 1975, pp. 359-371.

(١٨١) أي تكرار لعبارات وجمل وأنماط تعبيرية ضمن لازمة تشبه الطقوس القبلية البدائية أو النصوص اللاهوتية.

٤) خلال قرون من الزمن جسّد الشعر والخطابة ثم القصص والمناظرات أدوات اتصال وإعلام جمعي فعّال في أطوار مختلفة من تاريخ العرب والمسلمين، غير أن النظام السياسي العربي الذي تأسّس عقب الاستقلال، تمسك بموروث الشعر والخطابة، وأسقط موروث القصص والمناظرات من إعلامه المعاصر، لأن هذا النظام وجد في التعبير الشعري الذي يتعارض مع بنية النص الإعلامي، وسيلة ملائمة لتمرير ضروب مختلفة من صياغات نثرية مديحية وهجائية ورثائية يغلب عليها التفخيم أو النيل أو الإغراق بهدف تقليص المساحة المعلوماتية والتحليلية في الرسالة الإعلامية وبالتالي، تمويه الدوافع الحقيقية لسياساته وتحالفاته وصراعاته وحروبه وسلوكياته بشكل عام.

كذلك، فإن الخطابة التي لعبت أدواراً إعلامية مهمّة في التاريخ العربي والإسلامي، وتمّ تكريسها سنّة في التراث الديني، والتي تؤدي اليوم وظائف دينية ودنيوية فاعلة في المجتمعات العربية والإسلامية، دخلت لتشكّل عنصراً أساسياً من عناصر المنتج الإعلامي العربي، رغم أن طرائقها التعبيرية تتنافى تماماً مع لغة الإعلام الجماهيري المعاصر، إلاّ أن تثبيت مشروعية أحادية الانتماء الإعلامي، تتطلّب فنوناً خطابية قادرة على تغليب العنصر الانفعالي وتهميش العنصر العقلاني والإقناعي الذي يعدّ سمة مميّزة من سمات الإعلام الجماهيري في هذا العصر.

أما القصص الذي ازدهر في الإعلام الراهن لأكثر الدول تطوّراً بسبب حاجة المتلقّي الملحّة الى أن يعرف دقائق ما يحدث في عالم يزداد تعقيداً وتشابكاً وغموضاً، والمناظرات (Talk Show) التي يعتقد علماء في الاجتماع والإعلام أنها أحد أسباب عودة التلفزة الى سطوتها وجاذبيتها بعد مراحل من الفتور أعقبت الانبهار الأولي بهذه الوسيلة الجديدة، فإنهما يكادان يكونان غائبين في المنتج الإعلامي العربي، رغم أنّهما يمثّلان نقاطاً مشرقة وغنية في التراث الثقافي والسياسي العربي والإسلامي والإنساني. ومن الواضح أن أسباب عدم تثمين هذا التراث وإبراز خصائصه وأقلمته ليدخل في سياق الراهن، تعود الى أن القصص يستدعي غزارة في المعلومات وقدرات توليدية وإبداعية معاصرة، والى أن المناظرات تستوجب منهجاً حوارياً مفتوحاً يخضع لمنطق الاقناعية والاعتراف بالآخر ونسبية الحقيقة، وهي كلّها سمات تتعارض مع إعلام الطرف الواحد في

المجتمع حيث تسود إيديولوجيا وحيدة وحقائق مطلقة، وحيث لا مكان لصوت آخر أو لرأي آخر أو لأيديولوجيا أخرى.

بالانتقال من المحيط الداخلي والقريب الى الخارجي والبعيد، يتّضح أن الإعلام العربي يناجي ذاته في نطاق بيئة مغلقة، عبر منتج إعلامي عائلي وقبلي، ليس له حضور يذكر في الأنظمة الإعلامية المتداولة عالمياً، ما يدلّ على أن هذا الإعلام غير قادر على التواصل الخلاّق مع الحالة الحضارية الراهنة بسبب افتقاره لأدوات تستنبط بواسطتها صيغاً مرنة، مواكبة، يستطيع العالم "الآخر" فكّ رموزها والتعاطي مع المنطق الذي يحكمها وتنظيم ردود أفعال دقيقة حيال ما تحتويه. كلّ ذلك يجعل الإعلام العربي إعلاماً يتموضع خارج الزمان والمكان.

٦) بناء على هذه الخصائص التي يتميّز بها النظام الإعلامي العربي، من حيث المضمون والشكل ومن حيث مضمون الشكل، يمكن القول إن المنتج الإعلامي لهذا النظام هو منتج غير اقتصادي. فالضعف الكائن في بنياته المعرفية والمعلوماتية، والخلل الحاصل في أنماطه التعبيرية، وعجزه عن تحقيق حضور ذي شأن في الحركة الإعلامية الدولية، كلّ ذلك، يؤدي الى تدنّي مستويات الإنتاجية وارتفاع نسب الهدر اليومي للصناعة الإعلامية العربية، تزداد كميّته طرداً مع انفتاح الجمهور الإعلامي على الإعلام الفضائي وتعاظم منجزات ثورات الاتصال وتسارع وتائر تنوّع وارتقاء الكود[١٨٢] اللغوي الإعلامي في العالم.

٧) حول هذا الإعلام المدغمت[١٨٣] فكرياً والمعيّر ثقافياً والخاسر اقتصادياً

---

(١٨٢) يمكن استخدام مصطلح "كود" كما هو وإخضاعه للتصريف: كود- كوّد- يكوّد- تكويد- مكوّد.

إن النظام الإعلامي العربي والإسلامي السائد، وفي محاولة منه لطمس تعدّدية الاصطفاء الكودي وتنوّع خياراته، ولحظر استيعاب مستجدّاته، يعمد الى إحداث استبدالات كودية نهائية، من شأنها أن تكرّس مفاهيم مفرطة التكويد (Hypercodés)، أي مفاهيم ثابتة، ومصطلحات جامدة، غير قابلة للتجديد والإغناء، وبالتالي غير قادرة على تمثّل التطوّر المستمر الذي يطرأ على لغة الإعلام، نتيجة ثورات الاتصال والتغيّرات المتسارعة في بنيات المجتمع المعرفية والثقافية والاجتماعية.

(١٨٣) المدَغْمت صفة مشتقّة من دوغماتية "Dogmatism" ، وهي تعريب لمصطلح أجنبي يعني الجزمية أو توكيد الرأي والقطع به من غير مبرّر كافٍ، ويعني وجهة نظر مبنية على مقدّمات غير ممحّصة تمحيصاً وافياً.

وقد أخضع المصطلح باللغة العربية للتصريف : دغمت، يدغمت، مدغمت، دوغماتية أو دوغمائية.

واجتماعياً، تتكوّم بيروقراطيات إعلامية عربية تترعرع في مطاويها هرمية وظيفية راسخة ومستقرّة، تصنع منتجاً إعلامياً صورياً، وتحقّق دورة إنتاجها بآليات نسخية مكرورة، مهمّتها تحصين البيروقراطيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية والخدمية التي تحمل، بصورة عامّة، ذات الخصائص، والتي تسهم بدورها في تقوية البيروقراطية الإعلامية وضمان استمراريتها وولائها للحيلولة دون قيام الإعلام بوظائفه الضبطية والإفشائية منها على وجه الخصوص.

وللحفاظ على هكذا إعلام عربي وحيد الخليّة وحيد اللازمة والايقاع، فإن هذا التحالف البيروقراطي الذي يتبادل المنفعة والمصالح، يحرص على تصفية المهنيّة والكفاية بكل مظاهرها واجتذاب حملة الأختام الساهرين على ألاّ تظهر في الأفق أي " هرطقة " تجعل الزمام يفلت، حتى في إطار وحدة الموقف والهدف.

٨) يقول معتنقو التحديدية الاقتصادية إن اعتلال الإعلام العربي ناجم عن تخلّف أسلوب الإنتاج الذي تعاني منه المجتمعات العربية، وإنه من غير الممكن أن ينفصل النظام الإعلامي عن الواقع المادي القائم أو أن يمتلك، كبنية فوقية، أدوات تطوّرية بمعزل عن طبيعة البنيات التحتية ودرجة تطوّرها.

من المسلّم به، حتى بالنسبة للتحديديين، أن فعل القوانين الموضوعية للتطوّر لا قيمة له في غياب وعي اجتماعي متكوّن عبر آليات طوعية، والإعلام تحديداً يعدّ أحد أهم العوامل في تشكيل هذا الوعي ورسم مساراته، لأنه، وخلافاً لأنواع أخرى من الاتصال الإنساني، لا يقف عند مخاطبة الخاصّة أو شرائح اجتماعية محدودة، بل يتوجّه، محمولاً في عربة وسائل البثّ الجماعي، الى تلك الكثرة التي تعدّ أداة لا غنى عنها في تفعيل الحركة المادية العامّة والتي بدونها يبقى التطوّر المادي مجرّد أوهام في أذهان النخبة وأوراقها.

الى ذلك، فإن الإعلام الجماهيري، كعامل ذاتي وكنظام جزئي، على احتكاك مباشر وغير منقطع بأحداث حياة كل يوم وكل ساعة، أي بالجديد والمستحدث المتعلّق بجميع أنواع العلوم والمعارف، يمتلك عناصر تطوّره الداخلية التي تؤثّر في عمل القوانين العامّة، تماماً كما تتأثّر بها.

إن الإعلام الخاص الذي يعيش خارج الأوطان دليل على إمكانية إرتقاء الإعلام، رغم أن معظم هذا الإعلام يقيم علاقات وثيقة مع " الداخل " ويستمد موضوعاته من صميم حياة المجتمعات العربية.

ولا ريب أن تأثير هذا الإعلام قد ازداد شدّة واتّساعاً في وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزية والفضائية، فالكلمة المنطوقة، كما يقول ليونيل بولانجيي أصبحت وسيلة عمل، طريقة تعبير، قوّة إقناع، سلطة حقيقية..[١٨٤].

الواقع أن الإعلام البيروقراطي هو الذي يعطّل عمل القوانين الداخلية لتطوّر الإعلام العربي وهو الذي يجمّد إمكانية إسهامه في تحريك عوامل تطوّرية أخرى، مادّية وفكرية، أو تسريع وتيرتها.

ولا شك أن هذه البيروقراطيات الإعلامية العربية، التي أفرزتها أنظمة سياسية تغيب عنها قيم الحرّية والديمقراطية، ويغيّب فيها المجتمع المدني النخبوي، تدرك أن الخطر الحقيقي الذي يتهدّدها يكمن في التطوّر اللامنقطع لتقانيات الاتصال الأرضي والفضائي، ولذلك، فإنها، وفي محاولة منها لحماية امتيازاتها وتثبيت عوامل استمراريتها، تلجأ الى عقد اتفاقيات فوقية فيما بينها، بذريعة " التصدّي لأخطار الغزو الخارجي الثقافي والقيمي "، والحقيقة أن وجود هذه البيروقراطيات يعدّ العامل الأهم في تحقيق أهداف " الغزو الخارجي " وتمرير استراتيجياته، لأنها تجسّد كل ما من شأنه أن يحدث قطيعة فكرية ووجدانية بين الجمهور العربي وإعلامه الوطني، وتدفعه بقوّة لتلقّف ما يأتيه عبر الفضاء، غثّه وثمينه، بعد أن جرّدته من أسلحته ومنظوماته الدفاعية وفي مقدّمتها الوعي الاجتماعي والروح النقدية.

نحو نظرية إعلامية عربية ؟

في بدايات القرن الواحد والعشرين، قرن الثورات المعلوماتية المعولمة، التي أحدثت وتحدث تبدّلات جذرية في بنيات الاتصال الإنساني وطبيعته واتّجاهاته وحركته ومداه، وفي مفاهيم الزمان والمكان اللذين اكتسبا أبعاداً كوكبية غير مسبوقة، لا مناص من إحداث تغيّرات حقيقية وعميقة في الاتصال والإعلام الجماهيري العربي، بنية وتشريعاً ووظيفة وموقعاً وتموضعاً في المجتمع، بما يتناسب مع حتميات العصر

(184) L. Bellenger,"L'Expression Orale ", 2° Ed. P. U. F., Paris, 1983. p. 3.

وشروطه الحياتية على جميع الصعد. ولكن هذه العملية تتطلّب خيارات صعبة وتغييرات ذات مدى استراتيجي، لعلّ أهمّها ما يلي[١٨٥] :

- لا بد من إعادة إعلام الدولة أي إعلام السلطة في الواقع العملي، الى المجتمع وتحريره وتوفير عوامل انعتاقه من ربق السلطة، ليصبح إعلاماً مفتوح الهوامش وليتحوّل من تابع أخرس لإرادة السلطة وناقل خامل لممارساتها وأنشطتها، الى مصدر مستقل من مصادر المعلومات في المجتمع، يتمتّع بنفوذ حقيقي لا صوري ويمارس سلطة رابعة فعلية، تتواصل وتتفاعل مع السلطات الأخرى، بما يحقّق ممارسة هذا الإعلام لوظائفه، في الحقول المعلوماتي والتقويمي والوسيطي خاصة. هذا يعني أن الإعلام العام يجب أن يبقى وأن تتوافر له جميع الشروط الضرورية ليخرج من منطقة نفوذ السلطة الى رحاب الدولة لكي يستطيع تجسيد وقائع المجتمع بكل أطرافه، بكل تلوّناته وتشعّباته وتناقضاته وتفاعلاته، بما يمكّن هذا المجتمع من الولوج في حقائق العصر واستيعاب خصائصه وملامحه وشروط التعامل الايجابي مع معطياته.
- لا شك أن السلطة السياسية تتحمّل مسؤولية إخفاق تجربة إعلام الدولة، غير أن ثمة مسؤولية لا يستهان بها تقع على عاتق أطراف أخرى، أدت مواقفها الى تمرير إعلام الطرف الواحد:

أهم هذه الأطراف هي النخبة المثقّفة والمتنوّرة التي تعاملت مع عملية التجيير السلطوي باتّباع سلوكين مختلفين، يتراوح أولهما بين دعم إجراءات السلطة والمساعدة في إنجاح الاستيلاء وتثبيته، بهدف احتلال مفاصل أساسية في المؤسّسات الإعلامية المختلفة لم يستمر طويلاً، وبين عدم الاكتراث والسلبية، ويتراوح ثانيهما بين الرفض الصامت أو المتردّد وبين عداء سافر غير تمييزي لكل مبادرات السلطة الوطنية، بلغ حد اللاموضوعية والتطرّف المجاني في كثير من الأحيان.

لقد أدى السلوك الأول الى مد السلطة بأدوات فاعلة لإنجاز التحويل، وأدى السلوك الثاني الى شعور السلطة بالقلق أو الخطر تجاه عدائية راديكالية، ما دفعها الى إغلاق الهوامش وإبعاد النخبة المتعاونة والاعتماد على عناصر طفيلية، رديئة مهنياً أو قيمياً، لتستطيع الإمساك بناصية الإعلام جميعاً.

(١٨٥) فربال مهنا، جدلية المضمون والشكل في الخطاب الإعلامي العربي، مصدر سابق، ص. ١٠-١٦.

ومن المنطقي أن تسفر هذه القطيعة بين المفكّرين والمثقّفين وبين السلطة عن تفاقم التبعية الوظيفية وعن تورّم البيروقراطيات، وأن تؤدي، بالتالي، الى إفقار المنتج الإعلامي موضوعا وشكلاً وتعميق عزلته عن الثقافة بجميع فروعها وعن مستجدّات الحضارة وتيارات التعبير الإبداعي.

ولكن، وضمن إطار معطيات الوضع القائم، ولكي يخرج الإعلام الوطني من المأزق الذي يجد نفسه فيه، لا بد لهذه النخبة المتنوّرة من القيام بإعادة نظر شاملة في سلوكياتها تجاه السلطة بحيث يتحول الصمت الرافض والعدائية المجهرة الى مواقف موضوعية وواقعية استقلالية الطابع، تبني هذه النخبة من خلالها جسوراً مع السلطة تمهّد لنشوء ما يمكن أن يطلق عليه" الحالة التفاوضية".

ويفترض أن يشكّل الوضع المتردّي الذي آلت اليه البيروقراطيات الإعلامية دافعاً لكي يتقبّل النظام السياسي العربي هذه الصيغة التي بمقدورها أن تحقّق فعالية وأن تمارسْ تأثيرات في المجتمع، تصبّ، في النهاية، في مصلحة السلطة أيضاً.

ولا شك أن هذه الحالة التفاوضية بين طرفين مستقلّين ومتعاونين تنهي التبعية من جهة، وتضع حدّاً للتنافر وفقدان الثقة المتبادل من جهة أخرى. والأهم من ذلك أنها تزعزع أحد أقوى مرتكزات الإعلام البيروقراطي المتمثّل في ابتعاد النخبة المختصّة عن الشأن الإعلامي في الداخل ولجوء قسم منها الى الإعلام العربي المهاجر.

إن دخول أهل العلم وحملة القلم الحقيقيّين الى الإعلام الوطني المطبوع والإذاعي والتلفزي من شأنه أن يقود، دوماً في حالة تفاوضية غير منقطعة مع السلطة، الى تصفية عناصر الارتزاق وتثبيت معايير الكفاية والمهنيّة، وأن يؤدي، في المحصّلة، الى إقالة النظام الإعلامي من عثراته وتحريره من أسر حاملي " الدمغات " وإعداده لتلبية حاجات متجدّدة لجمهور عربي متطلّب يعيش مرحلة الانبهار بالرسائل الهابطة عليه عبر الفضاء وجمهور شاب يخوض تجربة تقانيات الاتصال المتعدّد والمعلوماتية بكل أبعادها.

- لا بد من التنويه بأن تأهيل الإعلام العربي لدخول العصر ليس معناه الوقوع مجدّداً في اتّباع طرائق نقلية مشوّهة، بحجّة التواصل مع الإعلام الحضاري، وإنّما يعني تجاوز الموروث الانحطاطي والنهل من تراث مشرق شكّل الإبداع

العربي والإسلامي أحد أهم منابعه وأدواته، ويعني الانطلاق من السياقات المعاصرة للمجتمعات العربية وليس من سياقات مجتمعات أخرى مغايرة. فصناعة المنتج الإعلامي تستدعي استخدام هوامش الحرّية المتاحة للالتصاق بوقائع المجتمع والعمل على الارتقاء به من خلال آلية إقناعية لا آلية بافلوفية[١٨٦] متخلّفة، وتستوجب التعبير عن هذه الوقائع عبر

---

(١٨٦) يعتقد البعض أن استخدام وسائل الدعاية البافلوفية ضد الخصم أو العدو قد أثبت فعّاليته في العديد من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، والحقيقة أنه منَ الصعب الجزم بأن هذه الطريقة تمارس تأثيراتها في كلّ الظروف والأحوال، فالدعاية البافلوفية التي استخدمها الإعلام العربي ضد إسرائيل، قبيل وإبّان وحتى بعد حرب حزيران ١٩٦٧، سجّلت نكسة كبيرة، ايضاً لهذا الإعلام الذي نشأ وتبلور في أحضان التجارب الثورية العربية، بدءاً بتلك الناصرية التي غدت مدرسة إعلامية في العالم العربي؛ والتي ما تزال مكوّناتها البافلوفية قائمة حتى اليوم في معظم الإعلام العربي الراهن؛ ما نجعل هذا الأخير عاجزاً عن دخول العصر للتعامل بمصداقية مع وقائع القرن الواحد والعشرين.

غير أن الجانب الأخطر في الإعلام الجماهيري العربي يكمن في أنه يستخدم الآلية البافلوفية القائمة على المنعكسات الشرطية، ليس مع العدوفحسب، وإنّما أيضاً وخاصّة، مع الجمهور العربي. ومن المعروف أن تلك الآلية البافلوفية تجسّد أسلوباً يضرب جذوره في المناطق الأكثر ظلمة للاوعي الجماعي.. حيث الفكرة لا أهميّة لها ولا قيمة.. حيث تجد الأهواء والسلوكيات اللامعقولة والمتناقضة منطقياً، تأثيرها وتوازنها. وكما يقول تشاكوتين، إن تحريك الغريزة يجعلها تتجلّى بسلبية تعبّر عن نفسها بالخوف وبمظاهر الاكتئاب والامتناع، ويجعلها تتجلّى بإيجابية تفضي الى الحماسة الشديدة والى حالة من الهذيان.. الإثارة يمكنها أن تؤدي الى النشوة والذهول، أي الى حالة يخرج فيها الإنسان عن طوره.. إن طرائق دعاية هتْلر وغوبلز مع الشعب الألماني وضعته في حالة تنويم مغناطيسي حقيقي وانتزعته من نفسه، فوقوعه حتى العظم في خضمّ المنعكسات الشرطية البافلوفية أفقده القدرة على فهم الواقع وأدى به الى الدمار في نهاية المطاف.

من الأهميّة بمكان أن يخرج الإعلام العربي من أسر تجربة ستالينية منسوخة بصورة حرفية، وأن يتحرّر من موروث ثوري ناصري وغير ناصري، وأن يفك عزلته ليتمكّن من الانفتاح، موضوعاً وشكلاً وتقانية، على تيّارات التطوّر والتقدّم، وليستطيع تأسيس إعلام إقناعي، عقلاني، يخاطب العقل الواعي والمناطق النبيلة والمضيئة في اللاوعي الإنساني.

بدهي أن ذلك لا يمكن أن يتحقّق دون إحداث تغيّيرات ذات معنى في النظام السياسي العربي، بحيث تزول الحالات الاستثنائية لتسود قيم الديمقراطية والتعدّدية السياسية والفكرية والثقافية في المجتمع، وبحيث تنتهي الشرعية الثورية أو الإرثية لتبدأ الشرعية الدستورية وتقام دولة المؤسّسات وتؤسّس سلطة القانون ويتعاظم تدريجياً نفوذ المجتمع المدنيّ، لكي تتمكّن النخبة المتنوّرة من احتلال مواقع تخوّلها الإسهام في هذا التغيير. ولا شك أن الإعلام المتحلّل من هيمنة السلطة والمتحرّر من حالة طوارىء وهمية وذرائعية طال أجلها، والمستند الى رأي عام -

الاستعانـــة بإمكانـات بلاغـــة إعلامية غنيـة تتميّز بالمرونـة والقـدرة علـى التكيّف.

- تشكّل الرقابة " الذاتية " داخل المؤسّسـات الإعلاميـة عائقـاً كبيـراً أمـام انطلاقـة الإعلام العربـي والإسلامي، فـالأطر الرقابيـة المعتمدة تعشـعش فـي معظمهـا عقليات لا تنتمي الى هذه الحقبة، وعناصر غير مؤهّلة تمارس رقابـة ديوانيـة، جزيئية وحرفية تشلّ العمل الإعلامي وتهدر طاقاته.

لقد بات من الضروري في هذا الزمن، إحداث تغيّير جذري في مفهوم الرقابـة وطبيعتها ومستويات ممارسيها، بحيث تنضوي هي الأخرى تحت لواء التعايش التفاوضي المستمر وتخضع لرؤية تقويمية ذات طابع استراتيجي مفتوح الآفـاق يراعـي الاتجاهات العامـة دون الدخـول فـي التفـاصيل والجزئيـات اليوميـة المرهقة للنشاط الإعلامي.

- يحق للمجتمعات العربيـة والإسلامية أن تخـوض تجـارب الإعـلام المشـترك والخـاص داخل الوطـن، وخاصـّة فـي الإذاعـي والتلفزي، لأن المسـاكنة بيـن إعلام الدولة والإعلام الأهلي والمدني يمكن أن يشكّل حافزاً للارتقاء بـالإعلام فكراً ولغـة وحضـوراً، ويمكـن أن يفتـح آفـاق دخولـه عـالم القـرن الواحـد والعشرين.

وإذا كان من الطبيعي الإفادة من تجارب متقدّمة في هذا المضمـار، فإنـه مـن غير الملائم تبنّـي أنمـاط جـاهزة، إذ أن جانبـاً لا يستهان بـه مـن الخلل الـذي أصاب النظام الإعلامي العربي ناجم عن اتّباع الأسلوب النسخي.

- وفي جميع الأحوال، من الأهمية بمكان أن تنضـوي أيـة تجربـة مستقبلية تحـت لـواء المسـؤولية المهنيّـة والاجتماعيـة التـي تحدّدهـا الظـروف الملموسـة لكـل مجتمع على حدة، بما يؤسّس نظامـاً إعلاميـاً يقـوم بـدور الرقيـب بـدلاً مـن أن

- حرّ ومعلن، يستطيع أن يؤدي دوراً أساسياً في غرس تلك القيم في المجتمع، وفي الحيلولة دون أن يصبح خيار الحرّية والديمقراطية والانفتاح فصل آخر من فصول الإخفاق والإحباط.

لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، إقرأ :

- فريال مهنا، تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص. ٣٤ وما بعد.

- S. Tcnakotine, "Le Viol des Foules par la Propagande Politique », en J.M.Domenach, La Propagande Politique, 8° Ed. Gallimard, Paris, 1979.

يكون مراقباً ومحاصراً، ويشكّل مصدراً مستقلاً من مصادر المجتمـع، بدل أن يكون مجـرّد مملوك لمصـادر أخرى، ويتهيّأ لتمثّل قيم التطوّر وخوض المقايسة بشكل خلاّق وتحقيق مصداقيـة على صعيد داخلي وإقليمي ودولـي، ضمن نطاق التميّز والخصوصية.

ليس المهم صياغة نظرية إعلامية خاصّـة بالعـالم العربـي، بقـدر مـا هـو مهـم وضع أسس ومرتكزات حضارة إعلامية جديدة يخوض الإعلام العربـي مـن خلالها تجربة حرّية التعبير بكـل أبعادهـا وأشكالها فـي إطـار مسؤولية مهنيّـة واجتماعية، أمام الرأي وليس أمـام الحـاكم، بحيث يتخلّـص، شيئاً فشيئاً، مـن موروثات قديمة ومعاصرة شلّت نشاطه الطبيعي وأخلّت بوظائفه الفيزيولوجيـة وأفقدتـه المصداقيـة وجردتـه مـن سلطته فـي المجتمـع، و بحيث يصبـح هـذا الإعلام، بالتالي، مصـدراً مستقلاً رئيسـاً مـن مصـادر المعلومـات فـي الداخـل والخـارج ويغـدو مرجعيـة أساسية وموثوقـة مـن مرجعيـات التقويـم وصياغـة الرؤية والإفشاء والنقد.

إن وضع هذه الأسس والمرتكزات موضع التنفيذ، عبر عملية براغماتيـة قابلـة للتعديل والتصحيح والتقويم واستيعاب المستجدّ والمستحدث، في كل مرحلة من مراحل التغيّير والتطوير، تحـرّر الإعـلام العربـي مـن محدوديـة النظريـات وطبيعتها الجامدة، وتفتح أمامه مجالات رحبة لينطلق نحو آفاق جديـدة للتطـوّر تخوّله دخول عصر المعلوماتية وثورات الاتصال، بدون صدمات أو انتكاسـات أو انهيارات قد تؤدي الى حدوث نكوص خطير في زمـن لـم تعد فيـه ثـورات الاتصال اللامنقطعة تسمح بسيرورات متباطئة أو متلكّئة، فالزمن أصبح أكـثر أهمية وحساسية من أي حقبة عاشتها الإنسانية.

* * *

الباب الثاني

نظريات التأثير
في الإعلام الجماهيري

الفصل الأول

الأسس الاجتماعية لنظريات التأثير

خلفية

قد رأينا أن كل وسيلة إعلامية تدخل تبدّلات أساسية، سواء في التفكير الإنساني على صعيد فردي، سواء في التطوّر الثقافي على صعيد جماعي.

وبذات الوقت، أيضاً المجتمعات الإنسانية تخضع لتغيّرات مستمرّة، فهي ليست أنظمة اجتماعية مستقرّة تماماً، فالماضي هو الذي يعطي شكلاً للنماذج الاجتماعية المستقبلية.

وبما أنه، سواء تقانيات الاتصال، سواء النظام الاجتماعي، يعيشان عمليات تغيّير دائمة، ثمة مشروعية للاعتقاد بأن التأثيرات التي يمارسها الإعلام الجماهيري ليست متساوية في جميع المراحل التاريخية للتطوّر الإنساني[١٨٧]. وتنحو الأبحاث العلمية إلى توصيف علاقات منتظمة بين ظواهر، وإلى إعطاء تفسيرات حول كيفية ممارسة أحداث معيّنة لتأثيرات على هذه الظواهر، ودفع ظواهر أخرى إلى بناء نماذج وظواهر جديدة. هذا يعني أن العلم يبحث في مبادئ ثابتة.

رغم هذه الصعوبات، ومنذ بداية عصر الاتّصال الجماهيري، حاول الباحثون والعلماء فهم ماهية التأثيرات التي يمارسها الإعلام الجماهيري على الجمهور الإعلامي. وقد أنتجت تلك الأبحاث والدراسات جملة من الصيغ تعمل على وصف وتفسير واستشراف ما يجري عندما تتعرّض فئة من هذا الجمهور الإعلامي لرسائل إعلامية من خلال وسائل خاصة للاتصال الجماهيري.

(187) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, op. cit. p.160.

يمكن القول، بصورة تقريبية، إن تقديم وتحليل النظريات المختلفة لم يجريا بصورة تتابعية فحسب، وإنّما أيضاً وخاصة حسب معايير وتحديدات أخرى تقع ضمن الأطر التالية[١٨٨]:

١- السياقات الاجتماعي والتاريخي والاقتصادي، حيث ظهر وانتشر نموذج نظري معيّن حول الاتصال الجماهيري.

٢- نموذج النظرية الاجتماعية المفترضة أو المستدعاة بشكل صريح من قبل النظريات الإعلامية. وغالباً ما يتعلّق الأمر بنماذج سوسيولوجية متوارية، ولكن لا تغيب عنها حالات ترابط مفتوح بين أطر مرجعية سوسيولوجية وأبحاث حول الإعلام.

٣- نموذج العملية الاتصالية التي تبرزها كل نظرية إعلامية. وحتى في هذه الحالة، غالباً ما يتطلّب الأمر التصريح عن هذا العنصر الاتصالي، لأنه، في العديد من النظريات، لا يتم التعامل مع هذه العملية الاتصالية كما ينبغي.

إن تحليل الروابط بين هذه العوامل الثلاثة تسمح بمفصلة الوشائج بين مختلف نظريات الإعلام، كما تسمح بمعرفة النظرية أو الصيغة التي كانت سائدة وبمعرفة أسباب ذلك، في مراحل مختلفة من بحوث الإعلام الجماهيري (communication research). بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التحليل يسمح بفهم مشكلات الإعلام الجماهيري التي تم تناولها بشكل منتظم كمشكلات بارزة ومركزية، وتلك التي تم تهميشها وأصبحت ثانوية[١٨٩].

في العقد الأول من القرن العشرين كان الإعلام الجماهيري في مرحلته الطفولية، وكانت النظريات السوسيولوجية حول طبيعة المجتمع تبرز مفهوم " الجماهيري " الذي كان يقصد به شكلاً من العلاقة الإنسانية غير الشخصانية في مجتمعات مدينية صناعية كانت تخرج إلى حيّز الوجود. من خلال هذا الضرب من التفكير نشأ مفهوم المجتمع الجماهيري، وبالتالي، مفهوم الإعلام الجماهيري. من الضروري فهم أصل وطبيعة هذا المفهوم الأساسي.

أوغست كونت وتقسيم العمل في المجتمع

إن تأسيس السوسيولوجيا كعلم منتظم، منصرف، خصّيصاً، إلى دراسة الحركة الاجتماعية، لم يبدأ قبل منتصف القرن التاسع عشر. وكان أوغست كونت (Auguste Comte) هو أوّل من قام بتطبيق المنهج العلمي المستند إلى الفلسفة الوضعية

(188) M. Wolf, teorie delle comunicazioni di Massa, Ed. Bompiani, Milano, 1995, p. 15.
(189) T. Gitlin, in M. Wolf, Teorie delle Comunicazioni di Massa, op. cit. p. 15.

(Positivism)، على دراسة المجتمع، وأوّل من أطلق مصطلح السوسيولوجيا على هذا العلم، - على الأقل، حسب ما يقوله البعض -[١٩٠].

إن إسهامات كونت الرئيسة في البحث العلمي للظواهر الاجتماعية كانت ذات طبيعة فلسفية، ولكن كتاباته العديدة تحتوي مفهوماً عضوياً للمجتمع، شهد تطوّراً كبيراً فيما بعد، على يد علماء اجتماع آخرين.

إن النظرة إلى المجتمع كوحدة عضوية لم يخلق مع كونت، ولكن الأخير هو الذي صنع منه مسلّمة أساسية أدت الى نتائج مهمّة. وحسب هذه المسلّمة، فإن المجتمع يعد نوعاً خاصاً من المتعضّي (Organism)، مختلف عن المتعضّي البيولوجي الحيواني أو النباتي، أي، وبصورة أدق، يعدّ متعضّياً جماعياً، لديه - حسب كونت - بنية، تحتوي أجزاء متخصّصة تعمل بشكل متناسق، ولذلك، فإن الكلّي هو شيء أكثر من مجرّد مجموع العناصر، وأن هذا الكلّي يخضع لتبدّلات تدرّجية[١٩١].

(١٩٠) درجت الأدبيات الغربية على تجاهل الدور التأسيسي الذي قام به بعض الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين في مضمار العلوم الاجتماعية خلال العصور الوسيطة، حيث كان الغرب يعيش تخلّفاً علمياً قرنياً، في حين كانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تخوض في العديد من مجالات العلوم الإنسانية، ترجمة وتمحيصاً وتأليفاً إبداعياً شكّل أحد أهم عناصر الحضارة الإسلامية آنذاك. وعندما بدأ الغرب نهضته في القرن الخامس عشر، لم ينطلق، بطبيعة الحال، من فراغ، وإنّما استند الى علوم العرب والمسلمين وفلسفتهم التنويرية ليحقّق انطلاقته، في وقت أخذت فيه الدولة الإسلامية تسير حثيثاً نحو الأفول.
في هذا السياق، لا بد من التنويه بالدور التاريخي المتميّز الذي قام به هؤلاء العلماء العرب والمسلمين في مجال العلوم الاجتماعية وفي مجال التفكير الاجتماعي المستقلّ نسبياً عن الموضوع الإيماني، وخاصّة إثر احتكاكهم وتأثّرهم بالفلسفة اليونانية عقب الحروب الصليبية:
فابن سينا الذي اعتبر الشيخ والمعلّم الأوّل، أبرز الطابع الإسلامي للاجتماع، وبنى الفارابي في مدينته الفاضلة صورة خيالية عن المجتمع المثالي وأوصل الفيلسوف الى مراتب عليا، في حين اعتبر إخوان الصفا أن تحقيق المجتمع الفاضل يأتي من خلال التوفيق بين الشريعة والفلسفة التي تطهّر وتغسل ما علق بهذه الشريعة من شوائب.
ولا بد من الإشارة الى الماوردي الذي يعدّ أهم منظّري القانون العام في عهد البويهيّين، بالإضافة الى الرحّالة الجغرافيّين المسلمين (ابن حوقل - ابن بطّوطة - ابن فضلان - المقدسي - البيروني إلخ..) الذين قاموا بدراسات مستفيضة حول عادات الشعوب وتقاليدها ونفسياتها والمقارنة بينها. وقد توّج ابن رشد التفكير الاجتماعي والفلسفي العربي والإسلامي بحديثه عن الحقيقة المزدوجة، الدينية والفلسفية، وعدم التعارض بينهما شريطة الانفتاح على العلم والمعرفة.
ولا ريب أن ابن خلدون يعدّ، من خلال مقدّمته التي حوت عناصر عديدة في مبادئ العلوم الاجتماعية، مؤسّس علم الاجتماع، قبل كونت بقرون من الزمن.

(191) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, op. cit. p. 162-163.

وقد لاحظ كونت أنه حتى وإن بدا أن كل فرد أو مجموعة منهمك في بلوغ أهداف خاصة تماماً، فإن النتيجة النهائية هي، في جميع الأحوال، نظام يعمل بصورة متناغمة. وكان كونت مهتمّاً، خصوصاً، بمبدأ معيّن من مبادئ التنظيم الاجتماعي القائم على التعضّي، التي تأخذ في الحسبان هذه الآلية، ألا وهو مبدأ التخصّص. ويعتقد كونت أن تقسيم الوظائف التي يعمل الناس على أساسه بشكل إرادي، هو مفتاح، ليس فقط لاستمرارية استقرار المجتمع، وإنّما أيضاً لإمكانية حدوث حالات فوضوية في هذا المجتمع[192].

كان كونت، إذن، يربط موضوع الوظائف التخصّصية للأفراد بإطار ذي تناغم واستقرار كبيرين. وكان يعتقد أنه من المحتّم أن تسهم هذه الأنشطة التخصّصية في تحقيق التوازن العام للمجتمع، لأن كل التنظيمات الفردية تستخدم، في نهاية المطاف، للصالح العام، بما فيها تلك المختلّة وغير المتقنة. ولكن كونت رأى خطورة في التنظيم المبالغ به، وهذه النقطة مهمّة جداً للدارسين في حقل الاتصال الجماهيري، لأن الفكرة نفسها استخدمت، فيما بعد، من قبل علماء اجتماع، لتطوير مفهوم المجتمع الجماهيري. إن الجانب الأكثر أهمية في فكرة التخصّص المبالغ به هو أن يتمكّن تنظيم اجتماعي يشكو من عدم الكفاية، من إقامة روابط بين الأفراد تدعم الحفاظ على نظام رقابة اجتماعية متكاملة ومستقرّة : .

يقول كونت[193]:

إن التقسيم الأساسي للعمل الإنساني لا يمكن أن يتفادى إثارة تعارضات فردية فكرية وأخلاقية معاً، يتطلّب تأثيرها المتداخل ضبطاً دائماً من شأنه أن يتفادى أو أن يحتوي تقدّمها التناقضي. بالفعل، إذا كان تقسيم الوظائف الاجتماعية يسمح، من جهة، بتطوّر متّسق للروح، فإنه، يتّجه، من جهة أخرى، الى خنق الروح الجماعية أو، على الأقل، الى إعاقتها بشكل عميق.

ويمضي كونت في تحليله العميق والناقد للعواقب التي يمكن أن تنجم عن ارتفاع مبالغ به لتقسيم العمل، فقد كان يعتقد أنه كلّما كان الأفراد في وضعيات متعارضة داخل النظام الاجتماعي، كلّما تناقصت قدرتهم على فهم الآخرين. وهكذا، فإن ذات المبدأ الذي سمح وحده بتطوّر وامتداد المجتمع العام، يهدّد، بوجه آخر، في تفكيك هذا المجتمع الى تنظيمات فئوية عديدة غير منسجمة، تبدو وكأنّها لا تنتمي أبداً الى النوع نفسه.

(192) Ibid. p. 16.
(193) A. Comte, " Corso di Filosofia Positiva" (1830-1842),trad. 2 voll, Torino, Ed. UTET, 1967, pp.360-361.

التنظيم الاجتماعي، في رؤية كونت، يتطوّر، يطوّر تناغماً واستقراراً من خلال تقسيم العمل. ولكن، من ناحية أخرى، ثمة إمكانية أن يؤدي تطوّر مبالغ به الى اللانظام والتقهقر، مفتتاً أسس اتصال ذي كفاية بين الأطراف المختلفة للمتعضّي.

إن هذه التخصّصية المفرطة تفضي الى اختلافات اجتماعية أكثر عمقاً، وإذا توصّلت هذه الاختلافات الى تهديد فعّاليةالروابط القائمة بين أطراف النظام الاجتماعي، عندئذ يصبح التوازن والتناغم مهدّدين أيضاً. ولا شك أن هذا الموضوع يشكّل إحدى نقاط البداية الأساسية للنقاش الجاري حول الاتصال الجماهيري.

نظرية سبينسر الاجتماعية

تبنّى المؤسّس الثاني للسوسيولوجيا الحديثة هيربيرت سبينسر (Herbert Spencer) نظرية كونت وطوّرها وعمّقها بشكل كبير. كما كونت، كان سبينسر فيلسوفاً قبل كل شيء وكان مهتمّاً بالعلم كوسيلة لجمع عناصر ملموسة للمعرفة. وقد حمله هذا الاهتمام الى صياغة ما يعتقد أنها المبادئ الأكثر أهمية والمشتركة بين جميع العلوم. وأعطى سبينسر شكلاً نهائياً لقوانين التطوّر الخاصّة به في مؤلّفه " مبادئ في السوسيولوجيا " بين عامي ١٨٧٦ و١٨٩٦، حيث يلاحظ أن ثمة نقاط كثيرة مشتركة بينه وبين كونت.

إن نظرية المجتمع التي صاغها سبينسر كانت عضوانية الطابع تماماً، فبعد أن عرّف المجتمع بأنه نظام من الوظائف، حلّل، بشكل عميق، المنظومة الاجتماعية بمفتاح نمو وبنيات ووظائف وأنظمة أعضاء، مطوّراً تشابهاً معقّداً بين المجتمع وأعضاء الإنسان[194].

كان تقسيم العمل جزءاً مهمّاً جداً من تحليلات سبينسر الذي كان يعدّه عاملاً موحّداً أساسياً يبقي المتعضّي متماسكاً:

يقول سبينسر[195]:

يشهد المجتمع نموّاً مستمرّاً: ومع النمو، تصبح أجزاء هذا المجتمع مختلفة، مبرزة نموّاً بنيوياً، وتمارس الأجزاء المختلفة، بصورة متزامنة، أنشطة ذات طبيعة متنوّعة، وهي أجزاء ليست مختلفة فحسب، لأن هذه الاختلافات تقيم أيضا فيما بينها علاقات

(١٩٤) لمزيد من التفصيل حول نظرية سبينسر اقرأ :
- H. Spencer, " Principi di Sociologia » (1876-1896), trad. Ferrarotti, 2 voll. Ed. UTET, Torino, 1968, vol.I, pp. 546-559.
(195) Ibid. pp. 546-559.

تؤدي الى أن يجعل كل جزء الجزء الآخر ممكناً. والتعاون المتبادل بين الأجزاء يجعل هذه الأخيرة مترابطة يعيش أحدها من أجل الآخر، بحيث تشكّل جميع الأجزاء تركيبة قائمة على ذات المبدأ العام الذي يقوم عليه متعض إنساني فردي.

كان سبينسر مقتنعاً بأن التطوّر الأساسي للطبيعة هو ذو طبيعة تدرّجية وأن هذا التطوّر التدرّجي طبيعي وبالتالي، إيجابي، وأن أي تدخّل في التطوّر الطبيعي للمجتمع هو تدخّل عشوائي ومن شأنه أن يتسبّب بعواقب وخيمة. ما يعني بأن سبينسر كان معارضاً تماماً لأي تشريع يحاول حلّ مشكلات المجتمع. وأنه، خلافاً لكونت الذي كان مؤيّداً للتغيّير الاجتماعي المخطّط، كان سبينسر يدعو الى انتهاج سياسة ترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي دون أي تدخّل على الإطلاق (Laissez faire).

لم يكن أي من هذين العالمين يدرك ماهية التغيّيرات الجذرية التي ستحدث في البنية الاجتماعية خلال القرن العشرين. فكونت الذي كان يصوغ نظريته في بداية الثورة الصناعية، وسبينسر الذي كان يدوّن أفكاره في خضم المرحلة الأولى لهذه الثورة، لم يتمكنا من توقّع أن انقلاب المؤسّسة الصناعية في أعقاب نشوء النظام الصناعي والنظام الاقتصادي الجديدين، قد بدّل بنية المجتمع نفسها. الواقع أن تزايد وتائر البحث العلمي الذي ولّد وسائل الاتصال الجماهيري، أعطى أيضاً شكلاً لقوى التنظيم الصناعي الجديد، وكانت أصداؤه ستسمع في كل أنحاء العالم.

نظرية تونيس في الروابط الاجتماعية

ثمّة صياغة أخرى مهمّة أنجزها الألماني فيرديناند تونيس (Ferdinand Tönnies)(١٩٦) مطوّراً تحليلاً لنظرية سوسيولوجية خاصة بالـ (Gemeinschaft)(١٩٧)، والـ (Gesellschaft)(١٩٨)، حيث عقد مقارنة بين نوعين من المجتمعات شديدي الاختلاف، أحدهما قبْل– صناعي والآخر مشبع بالتصنيع. وقد أعطى تونيس في تحليله لطبيعة المجتمع حيّزاً أقل للتشابه العضوي ولنتائج التخصّصية وتقسيم العمل، وركّز، بالمقابل، على نوعية العلاقات الاجتماعية القائمة بين أعضاء المجتمع أو بين مجموعات اجتماعية، في ضربين مختلفين جداً من التنظيم الاجتماعي:

- أحدهما تقليدي يقوم على علاقات شخصية كتلك العلاقات التي تربط بين أعضاء عائلة واحدة، إلاّ أنها تمتد أيضاً الى خارج الإطار العائلي، لتشمل أعضاء في قرية مثلاً أو في مجتمع صغير الحجم، حيث تترسّخ صلات بين أفراد تجمعهم روابط الدم ويكنون احتراماً لبعضهم البعض، أو حيث تجمعهم، بشكل تقليدي، وشائج انتماء الى مكان واحد مشترك يعيشون فيه على أرضية تكاملية. ولكن هناك أيضاً - حسب تونيس - علاقات تقليدية قائمة على توافق عقلي عندما يتعاضد أعضاء هيئة دينية مثلاً، من خلال الإيمان المشترك بمعتقدات معيّنة تصبح قاعدة لتنظيم اجتماعي قوي ومتماسك. ويوضّح تونيس مجتمع الـ (Gemeinschaft) بأنه أسلوب للإحساس المشترك والمتبادل والشعور التشاركي، يجمع الناس كأعضاء يشكّلون أجزاء من كلّ متوافق.
- أما التنظيم الآخر، فإنه، في بنائه النظري الذي صاغه تونيس، عبر معايشته المباشرة لمجتمع ألماني ينتقل من نموذج اجتماعي زراعي بشكل أساسي، الى مجتمع يتحرك نحو المدينية والتصنيع، يتصّف بوجود بنية اجتماعية قائمة على إبرام عقد يؤسّس لصلات شكلية، عقلانية، حيث العلاقة العقدية ممتدّة الى جميع أعضاء المجتمع. ويصف تونيس هذه الصيغة العقدية بأنها تجسّد مجتمعاً يعيش فيه الفرد بشكل غير شخصي ومجهول. وهو مجتمع يعامل فيه الأفراد أو يتم النظر إليهم استناداً الى خصالهم الشخصية، ولكنهم يحظون بتثمين يتناسب طرداً مع قدرتهم على ممارسة احترام عميق للالتزامات والواجبات التي يحتويها العقد. ولذلك، فإن مجتمع (Gesellschaft) هو عبارة عن نظام علاقات تنافسية يحاول الأفراد من خلالها إيجاد وسائل للحصول على أقصى حد ممكن من المكاسب في التبادلات وعلى إعطاء أدنى حد ممكن للآخرين، وهم يتعلّمون، في الوقت نفسه، كيفية عدم الوثوق بالآخرين.

إن هذين التصوّرين للقطبية القائمة بين الـ (Gemeinschaft) والـ (Gesellschaft) تعطي إطاراً مفهومياً مفيداً لتفسير أثر التغيّيرات التي حدثت في الشروط الاجتماعية، على الناس، في النظام الصناعي الجديد، وتعطي أيضاً وخاصّة أفكاراً من شأنها أن تمارس تأثيراتها في مجال التعرّف على تأثير وسائل الإعلام الجديدة في المجتمع. ذلك أن تراكم الفكر السوسيولوجي حول طبيعة المنظومة الاجتماعية المعاصرة يقدّم أفكاراً قاعدية ترتكز عليها التفسيرات المرتبطة بالإعلام والاتصال الجماهيري.

---

(١٩٦) لمزيد من التفاصيل حول نظرية تونيس، اقرأ:

- F. Tönnies, Comunità e Società (1887), trad. Ed. Di Comunità, Milano, 1963.

(١٩٧) هذا التعبير يعني باللغة الألمانية ضرباً من التنظيم الاجتماعي في مجتمع تقليدي، حيث حميمية الوشائج بين الأشخاص تنبع من التقاليد المتوارثة ومن روابط الدم ومن الصداقات أو من أي عوامل اجتماعية تضمن توافقية. ويضع هذا الضرب من التنظيم الاجتماعي الأفراد في قلب سلسلة من الأنظمة تسود فيها رقابة اجتماعية غير شكلية شديدة التأثير.

(١٩٨) وهو تعبير يعني باللغة الألمانية نوعاً من التنظيم الاجتماعي الذي يمثّل فيه العقد المبرم شكلياً، الشرط الأساسي لقيام علاقات اجتماعية. وهو عقد تم التوصّل إليه بصورة عقلانية، ضمن إطار علاقات اجتماعية إرادية، حيث يلتزم الطرفان باحترام واجبات معيّنة يؤدي عدم القيام بها الى فقدان مصالح معيّنة.

تحليل دوركهايم لمفهوم تقسيم العمل

في نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٣) تصدّى إميل دوركهايم (Emile Durkheim) للقضايا الاجتماعية نفسها التي عالجها كونت وسبينسر وتونيس، حيث أظهر كيف أن تقسيم العمل[١٩٩] في المجتمع هو المنبع الرئيس للتعاضد الاجتماعي والنفسي بين الأفراد، وكيف أن حدوث تغيير في تقسيم العمل، نتيجة التقدّم الاجتماعي، يفضي الى تبدّل في القوى التي توحّد المجتمع.

يقول دوركهايم[٢٠٠]:

.. يجب أن نتساءل فيما إذا كان تقسيم العمل يقوم بذات الوظيفة داخل مجموعات أكثر امتداداً، وفيما إذا كان ينهض، في المجتمع المعاصر الذي يشهد التطوّر، بوظيفة لحم الجسم الاجتماعي وضمان وحدته.

من المشروع أن نفترض أنه حتى المجتمعات السياسية الكبيرة لا تستطيع أن تحتفظ بتوازنها إلاّ بفضل التخصّصية في أداء الواجبات، أي أن تقسيم العمل هو المنبع الرئيسي، وإن كان ليس الوحيد، في ضمان التعاضد الاجتماعي. أن كونت هو أوّل عالم اجتماع لفت الى تقسيم العمل كشيء مختلف تماماً عن كونه ظاهرة اقتصادية فحسب، إذ إنه رأى فيه الشرط الأكثر جوهرية للحياة الاجتماعية المقصودة بكل امتدادها العقلاني، أي بكل تطبيقاتها على مجموع العمليات المختلفة، بدلاً من تقليصها لمجرّد استخدامات مادية.

من أجل أن يبيّن العواقب الاجتماعية لتقسيم العمل، يقارن دوركهايم بين التعاضد الميكانيكي والتعاضد العضوي. الأول، في نظرة دوركهايم، هو ذاك التعاضد الذي يجمع الناس المتشابهين بشكل جوهري. ففي الحياة المشتركة، ومع وجود تقسيم بدائي للعمل، فإن مجموعات معيّنة في المجتمع تصوغ جملة من المعتقدات والقيم والتوجّهات التي تتقاسم الإيمان بها بصورة عميقة ومتساوية، ولذلك، وضمن هذه الشروط، فإن مساحة تطوّر فردية واسعة في المجتمع تتقلّص بشكل كبير. ويعتقد عالم الاجتماع الفرنسي أنه في المكان الذي لا يوجد فيه تقسيم للعمل أو يوجد تقسيم في حدوده الدنيا، فإن التشابه الشديد لا يطال الأعمال فحسب وإنّما أيضاً مشاعر الأشخاص. وفي هذا النوع من المجتمعات، يمكن للتعاضد أن يزداد بمنطق يتعارض

(١٩٩) يرى دوركهايم في تقسيم العمل شيئاً أكثر من مجرّد التخصّصية المتعلّقة بالمنظومة الاقتصادية.

(٢٠٠) لمزيد من التفاصيل حول نظرية دوركهايم الاجتماعية، اقرأ:

- E. Durkheim, "La Division du Travail Social (1893) ", Ed. P. U. F., Paris, 1978.

مع نمو الشخصية، لأن هذه الأخيرة هي التي تميّز إنساناً عن آخر. وفي حالة قصوى، فإن جميع أشكال الفردية تلغى، ويصبح جميع أعضاء المجتمع متجانسين تماماً في تنظيم نفسي. ويرى دوركهايم أن الجزيئات الاجتماعية لا يمكن أن تكون في حالة اتّساق إلاّ بهذه الطريقة، ذلك لأنها لا تستطيع أن تتحرك بتوافقية كاملة إلاّ بقدر ما تكون فاقدة لحركات خاصّة بها، وهي الحالة التي توجد فيها الجزيئات غير العضوية، ولهذا، يمكن أن نسمّي هذا الضرب من التعاضد الاجتماعي تعاضداً ميكانيكياً، كذاك الذي يجمع بين عناصر الجماد، على العكس من تلك العناصر التي تشكّل وحدة الأجسام الحية.

واضح أن فكرة التعاضد وطبيعته الميكانيكية، كما يقدّمها دوركهايم كقاعدة توحّد أعضاء مجموعة من البشر، هي عبارة عن بناء مجرّد لا ينطبق على الواقع، ولكنه يمنح أداة تفسيرية أخرى، مفيدة جداً لفهم ولادة المجتمع الحديث.

انطلاقاً من هذا المفهوم الدوركهايمي، يمكن القول إنه إذا كان التعاضد الميكانيكي يرتكز على التجانسية، فإن التعاضد العضوي يرتكز على اللاتجانسية. وفي مجتمع يشهد تطوّراً مطّرداً في تقسيم العمل، فإن كل الأشخاص الذين يؤدون أعمالاً تخصّصية، مرتبطون بأولئك الذين تتناسق أنشطتهم معهم. لقد طوّر سبينسر متوازيات بين المتعضيّات والمجتمع كأنظمة موحّدة مؤلّفة من أجزاء فاعلة بصورة تبادلية. ويلحظ دوركهايم التبعية المتبادلة التي خلقتها التخصّصية، ويحدّدها في ضرب من القوّة الاجتماعية التي تربط أعضاء مجتمع وتدفعهم نحو تشكيل معيّة تعمل بصورة تناغمية. ولكن العامل المهم هو أن تقسيم العمل، الذي ينتج تعاضداً عضوياً، ينمّي، بشكل محسوس، أيضاً درجة الفردية والاختلافية الاجتماعية داخل المجتمع:

يشرح دوركهايم هذه الفكرة قائلاً :

في حين أن شكل التعاضد السابق – أي اللاعضوي أو الجمادي – يفترض وجود تشابه بين الأفراد، فإن الشكل الحالي القائم على التعاضد العضوي يفترض اختلافهم. التعاضد الأوّل ممكن فقط عندما يتم امتصاص الشخصية الفردية من قبل الشخصية الجماعية، أما التعاضد الثاني فيمكن تحقيقه، فقط إذا كان كل فرد يمتلك مجالاً خاصاً به للعمل، وبالتالي، شخصية خاصة به. ولذلك، فإن الضمير الجماعي يجب أن يكشف الغطاء عن جزء من الضمير الفردي، لكي تستقر في هذا الأخير، تلك الوظائف الخاصة التي لا يستطيع الضمير الجماعي أن ينظّمها، وكلّما ازدادت هذه المنطقة المكشوفة اتّساعاً، كلّما أصبح التماسك الناجم عن التعاضد العضوي أكثر قوّة[٢٠١].

(201) Ibid.

ويبيّن دوركهايم كيف أن ازدياد تقسيم العمل يصعّد تبعية كل فرد متخصّص للأفراد الآخرين. ولكن ذلك لا يعني أن هذا اللاتجانس يؤدي إلى القبول، بل على العكس، فكل واحد الآن يمتلك أسلوباً في التفكير وفي العمل خاصاً به وهو أقلّ تحمّلاً وخضوعاً للرأي المشترك للجماعة. وهكذا، وفي حين أن الأشخاص عاليّي الاختصاص مرتبطون، من جهة، بشبكة من التبعيات الوظيفية، فإنهم، من جهة أخرى، معزولون من الناحية النفسية، بقدر ما تحملهم التخصّصية على تطوير فردية أكثر حدّة[٢٠٢].

ويلفت عالم الاجتماع الفرنسي أيضاً أن تقدّم المجتمع نحو صيغ أكثر تعقيداً يؤدي إلى ازدياد العلاقات الاجتماعية التي تشبه، إلى حد بعيد، تلك التي أطلق عليها تونيس العلاقات اللاشخصية واللاحميمية (Gesellschaft) ، لافتاً أن العلاقات العقدية التي كانت في الأصل نادرة أو غائبة تماماً، تتزايد مساحتها كلّما اتّسعت رقعة تقسيم العمل في المجتمع. ولهذا، فإن ارتفاع وتيرة تقسيم العمل يؤدي ، ليس فقط إلى ازدياد الاختلاف الفردي، وإنّما أيضاً إلى إدخال أعداد متزايدة من العلاقات بين أناس أكثر شكلانية وتشظّياً[٢٠٣].

ويلاحظ دوركهايم أن تقسيم العمل في سياق ظروف معيّنة، يمكنه أن يولّد أشكالاً مرضية : فإذا أنتج تقسيم العمل، في حالة عادية، تعاضداً اجتماعياً، يحدث أن يفضي ذلك إلى نتائج مختلفة تماماً بل ومتعارضة. لأنه إذا كانت الوظائف الاجتماعية، أي أجزاء البنية العضوية، غير ممفصلة جيّداً فيما بينها، فإن التعاضد العضوي قد ينكسر. والأمثلة على حدوث ذلك تتبدّى في الأزمات التجارية والتردي الاقتصادي والصراع بين العمّال وأرباب العمل والتمرّد الأهلي والفوضى واحتجاجات الفئات التحتية[٢٠٤].

يمكن القول، إذن، إن تقسيم العمل نفسه الذي ينتج، في حدود معيّنة، تناغماً، قد يغرس، إذا تجاوز هذه الحدود، بذور الشقاق الاجتماعي. وهذه هي أطروحة كونت التي يسمّيها دوركهايم اللانظامية والفوضوية.

إن الاختلاف الوظيفي يؤدي إلى اختلاف أخلاقي لا يمكن تفاديه، والاثنان يتطوّران بشكل متواز. وتصبح المشاعر الجماعية، شيئاً فشيئاً، أكثر عجزاً عن لجم

(202) Ibid.
(203) Ibid.
(204) Ibid.

الميول النابذة والطاردة المفترض أنها نتاج لتقسيم العمل، لأن هذه الميول تتعاظم باتّساع تقسيم العمل، من ناحية، وبازدياد ضعف المشاعر الجماعية، من ناحية أخرى[٢٠٥].

وباختصار، كلّما أصبح المجتمع، شيئاً فشيئاً، أكثر تعقيداً، أمسى أعضاؤه أكثر انغماساً في أنشطتهم الفردية وفقدوا قدرتهم على الإحساس بالانتماء وبالتوحّد مع الجماعة. وهكذا، يصبحون، في النهاية، جماعات من الأفراد المعزولين نفسياً، الذين يتفاعلون فيما بينهم، ولكنهم منغلقين ومتقوقعين ومرتبطين ببعضهم البعض من خلال روابط ذات طبيعة عقدية فحسب.

نشوء نظرية المجتمع الجماهيري

في نهاية القرن التاسع عشر كانت مجتمعات الغرب المتطوّرة تحمل سمات تغيّير داخل نظام تقليدي ومستقر، حيث غدا الأشخاص مرتبطين بعضهم بالبعض الآخر بشكل صارم ضمن إطار واقع معقّد، وحيث أصبح الأفراد معزولين اجتماعياً.

إن تطوّر وتراكم نظريات اجتماعية غير متناسقة ومتعارضة فيما بينها، كانت تمثّل مؤشّراً واضحاً لسمات هذا التغيّير. فالمجتمع الذي كان نظاماً معقداً ومتّسعاً أصبح الآن أكثر تعقيداً، ويعدّ البعض أن هذا التعقيد كان يمثّل التقدّم الذي يوجّه، من خلال قوانين التطوّر الطبيعية، نحو نظام مرغوب به ومتناغم أكثر من جميع المراحل السابقة، ويعدّه البعض الآخر توجّهاً خطراً نحو حياة بائسة ومعزولة يهتم الفرد فيها بأنشطة خاصة فقط، ويعجز عن التوحّد بصورة مليئة، مع الآخرين.

وقد تفجّر جدل حادّ حول ضرورة أو عدم ضرورة التدخّل، عبر سنّ قوانين، في مسار المجتمع التطوّري، وحول الاستراتيجيات الأمثل لمزيد من التطوير النظري فيما يتعلّق بتلك التبدّلات العميقة الجارية.

ورغم اختلاف وجهات النظر، فإن أغلبية الباحثين في النظام الاجتماعي كانوا متّفقين على أن اللاتجانسية والفردية تتفاقمان في المجتمعات الغربية، وأن قدرة المجتمع على ضبط أعضائه، بشكل فعّال وغير شكلاني، تتضاءل، وأن ثمة تصاعداً في اغترابية الفرد عن المجموع، وأن العلاقات المتشظّية والعقدية تتكاثر مؤدّية إلى ازدياد حدّة العزلة النفسية للإنسان[٢٠٦].

(205) Ibid.
(206) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Com. op. cit. p. 174.

وأجمع العلماء الاجتماعيّون على أن هذه الاتّجاهات العامّة هي التي شكّلت ما أطلق عليه المجتمع الجماهيري، وهو مفهوم لا يعني الإشارة إلى مجتمعات ذات أبعاد كبيرة أو مجتمعات تضم أعداداً كبيرة من الأفراد، وإنّما يعني طبيعة ونوعية العلاقات التي تربط بين الأفراد وبين النظام الاجتماعي الذي يحيط بهم[٢٠٧].

الواقع أن لمفهوم المجتمع الجماهيري جذور عميقة في تاريخ الفكر السياسي الأوروبي، وهو يحتوي عناصر وخيوطاً عديدة تجعله مصطلحاً مظلّة يتطلّب، في كل مرّة، تفسيرات دقيقة. ولكن توضيح معنى هذا المصطلح بمفتاح إعلامي يتجلّى في اعتبار المجتمع الجماهيري نتاجاً للتصنيع المتعاظم وثورة النقل والمواصلات والتجارة وانتشار قيم مجرّدة حول المساواة والحرّية، وضعف الوشائج التقليدية (العائلة، الهيئات الحرفية، الهيئات الدينية، الجماعات المدنية) التي أدّت إلى تراخي النسيج المتماسك للمجتمع وتهيئة شروط الانعزالية والاغتراب الجماهيري وتفكّك النخبة وظهور الإنسان الجماهيري[٢٠٨] .

وفي نظرة محافظة تجاه هذه التبدّلات الاجتماعية العميقة، يعتبر بعض المفكّرين أن الفرد الجماهيري هو إنسان مضاد للفرد ذي النزعة الإنسية والمثقّف، وأن حكم الجماهير هو حكم غير الأكفياء الذين يؤسّسون أدوارهم على المعرفة المتخصّصة المرتبطة بالتقانية والعلم، وأن الجماهير تقلب رأساً على عقب كل ما هو مختلف وفريد ومتميّز ونخبوي وفردي[٢٠٩] .

وهناك اتجاه آخر للتحليل يتعلّق بالدينامية القائمة بين الفرد والجماهير، ومستوى التجانس الذي تتجمّع حوله هذه الجماهير، إذ يلاحظ سيمّل (Simmel) أن الجماهير هي تشكيل جديد لا يتأسّس على شخصانية أعضائه، ولكن فقط على تلك الجوانب التي يتشارك فيها واحدهم ويتشابه مع الآخرين جميعاً، وهو تشكيل يتساوى مع الأشكال الأكثر بدائية وضحالة في التطوّر العضوي. إن أفعال الجماهير تتّجه مباشرة نحو الهدف وتحاول بلوغه سالكة الطريق الأقصر، وهذا ما يجعل تلك الجماهير خاضعة لفكرة وحيدة وهي الفكرة الأكثر بساطة، وبسبب بساطتها لا بد أن تكون أيضاً الفكرة الأكثر تجذّراً والأكثر استقصائية. إن الجماهير مؤلّفة من أكوام متجانسة من الأفراد

(207) Ibid. p. 175.
(208) O. Y Gasset," La Rebellion de Las Masas ", Madrid 1930, trad. La Rebellione delle Masse, Ed. Il Mulino, Bologna, 1962, p. 12.
(209) Ibid. p. 12-13.

المتساوين جوهرياً، من الصعب التمييز فيما بينهم، حتى وإن قدموا من بيئات مختلفة وغير متجانسة أو من مجموعات اجتماعية متباينة[٢١٠].

ويعتقد بلومر (Blumer) أن الجماهير مركّبة من أشخاص لا يعرفون بعضهم البعض، منفصلين مكانياً، مع إمكانية شبه معدومة في أن يتفاعلوا، بالإضافة إلى ذلك، فإن الجماهير مجرّدة من التقاليد ومن قواعد السلوك ومن الزعامة ومن أية بنية تنظيمية[٢١١].

في المجتمعات الجماهيرية، إذن، يفترض[٢١٢]:

١) أن الأفراد يعيشون شروط عزلة نفسية تجاه الآخرين.

٢) أن اللاشخصانية تسود العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الأفراد.

٣) أن أولئك الأفراد قد تحرّروا نسبياً من الأواصر والواجبات الاجتماعية غير الشكلانية التي كانت تلزمهم وتقيّدهم.

رغم أن العديد من علماء الاجتماع في القرن العشرين قد تناولوا هذه المفاهيم المرتبطة بالمجتمع الجماهيري وأعادوا دراستها وتمحيصها وأعطوا تفسيرات مغايرة نسبياً لها، فإن هذه المفاهيم القاعدية تبقى صالحة وسارية المفعول.

وفيما يتعلّق بالمجتمعات المدينية الصناعية في الغرب المعاصر، فقد لخّص بروم (Broom) وسيلتزنيك (Selznick) ملامح أساسية لفكرة المجتمع الجماهيري على النحو التالي[٢١٣]:

يتألّف المجتمع المعاصر من جماهير، بمعنى أنها كتلة واسعة من الأفراد المعزولين والمنعزلين، والمرتبطين بعضهم بالبعض الآخر عبر سلسلة من الطرائق المتخصّصة، ولكنهم يفتقدون أي قيمة أو هدف مركزي وموحد. إن الوهن الذي أصاب الروابط التقليدية. إلى جانب نمو العقلانية وتقسيم العمل قد أوجدوا مجتمعات مؤلّفة من أفراد تجمعهم روابط ضعيفة جداً. بهذا المعنى، فإن كلمة "جماهير" توحي بشيء أكثر شبهاً بالأكوام منه بمجموعات اجتماعية مترابطة بشكل قوي ومتماسك.

(210) G. Simmel, "Grundfragen der Soziologie " (Individuum und Gesellschaft), de Gruyter, Berlin, trad. Forme e Giochi di Società, ed. Feltrinelli, Milano, 1983, p. 68.
(211) Blumer, 1936, in M. Wolf, op. cit. p.19.
(212) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, op. cit. p. 175.
(213) H. Blumer & L. Broom, in DeFleur & Rokeach, op. cit. p. 175.

إن هذا التحليل للطبيعة الاجتماعية للإنسان يضاف إلى مفاهيم عامة أخـرى تتعلّق بطبيعة هذا الإنسان النفسية. ولا ريب أن السلوك الإنسـاني كـان ينظـر إليـه، فـي بعد عصبي- بيولوجي ومقارن،على أنه نتاج للإرث الجيني، ولذلك، كان يتـم البحـث عن دوافع السلوك في البنيات البيولوجية. إن هذا الاتجاه الفكـري كـان مـن شـأنه أن يلقي بثقله على التفسيرات الأولى لعمل الاتصال والإعلام الجماهيري.

على هذه الخلفية الفكرية الاجتماعية، أخذت وسائل الاتصال والإعـلام الجمـاهيري تنتشر في معظم المجتمعات الغربية، مثيرة تفسيرات شتى حول مدى تأثيرهـا ونفوذهـا في المجتمع الجماهيري.

الإعلام الجماهيري كنظام اجتماعي

قد رأينا أن كل وسيلة إعلامية ظهـرت وانتشـرت نتيجـة التقـدّم التقـاني فـي مجـال الاتصال الإنساني، كانت تواجه جملة من الشروط الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسـية والثقافيـة والحقوقيـة التـي تحـدّد أسـاليب عمـل هـذه الوسيلة الجديـدة وطبيعـة علاقتهـا بالوسـائل التـي سبقتها وطرائـق استيعاب البنيـة الاجتماعيـة لهـا وآليـات تأثيرهـا فـي المجتمع.

انطلاقاً من هذه الرؤية، ومن التقـدّم الهـائل الـذي شـهدته وسـائل الإعـلام الكبـرى والذي تزامن وتفاعل، بشكل أو بآخر، مع نشوء وتطـوّر المجتمـع الجمـاهيري، يمكـن القول إن الإعلام الجماهيري الراهن يجسّد شيئاً أكثر تعقيداً مـن مجـرّد مجموعـه، إذ يمثّل جزءاً لا يتجزأ من البنية المؤسّسية للمجتمعات المعاصرة، سواء من حيـث كونـه مؤسّسة صناعية أو مؤسّسة اجتماعية تتمتّع بحضور ونفوذ يتناسب مـع طبيعـة النظـام الفكري و السياسـي القـائم ومـع نوعيـة القوانين والتشـريعات التـي تنظـم عملـه فـي المجتمع، ومع درجة التقدّم التيّ وصل إليها هذا المجتمع.

فـالإعلام الجمـاهيري يدخـل فـي نطـاق الاقتصـاد مقدّمـاً صناعـة خدميـة أساسـية، ويشكّل عنصراً مهمّاً من البنية السياسية، كما يعدّ عاملاً مركزياً في المؤسّسـة العائليـة لأن منتجاته من الترفيه والثقافة الشعبية، يتم استهلاكها، بصـورة كاملـة تقريبـاً، داخـل البيئة الأسرية، وقد أصبح الإعلام الجماهيري والتلفزة، على وجه الخصـوص، جـزءاً من المؤسّسـة التربويـة بمـا يبثّـه مـن مـواد تعليميـة وتربويـة، وعنصـراً مـن عناصـر المؤسّسة الدينية أيضاً، بما يقدّمه من منتجات تلبي حاجات روحية للإنسان(٢١٤).

(214) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, op. cit., p. 138.

إن هذا التغلغل الذي وصلت إليه المؤسّسة الإعلامية في المجتمع الراهن، والتـأثير الذي تمارسه في العديد من مجالات الحياة، أثار علـى الـدوام تسـاؤلات حـول طبيعـة وحجم التأثير الذي يمارسه الإعلام الجماهيري، والأدوار التي يؤديها، سواء أكان يدفع نحو التغيّير والتبدّل أم يعمد إلى توطيد الاستقرار والاستمرارية .

لقد عمد الباحثون في مجال الإعلام الجماهيري، لفترات ممتدّة، إلى تحقيق اقتـراب نفسي، و التركـيز علـى الصيغـة المعرفيـة التـي شكّلت القـاعدة الأساسـية فـي أبحـاث الإعلام خلال عقـود طويلـة مـن الزمـن، والتـي اسـتهدفت التـأكّد مـن تـأثير مضـامين الإعلام على العمليّات العقلية للجمهور الإعلامي.

تتضمّن المقولة الأساس في هذا الاقتراب التأكيد على أن تعرّض المتلقّـي للمعلومـات التي يقدّمها الإعلام الجماهيري يؤدي، بالضرورة، إلـى تغيّيـرات فـي العوامـل المعرفيـة كالآراء والحاجات والميول والمعتقدات التي تبدّل، بدورها، سلوكيات الفرد.

غير أن العديد من هذه الدراسات والأبحاث، لم تقتصر على معرفـة تـأثير الإعـلام الجماهيري في المتلقّي فحسب، وإنّما أخذت تهتم، بصورة جوهرية، بدراسـة الظـاهرة الإعلامية كنظام متكامل، في علاقاتها مع الظواهر الأخـرى الموجـودة فـي المجتمـع والتي تتفاعل فيما بينها.

ثمة مفاهيم عديدة تتعلّق بتطوير التحليل النظري في دراسـات الإعلام الجمـاهيري بوصفـه نظامـاً اجتماعيـاً، فبالإضافة إلـى مفهـوم التطـوّر التدرّجـي الاجتمـاعي الـذي صاغه أوغست كونت، والنموذج الصراعي الذي شرحه إميل دوركهايم، هنـاك أيضـاً المفهوم البنيوي- الوظيفي الذي يتعامل مع الإعلام الجماهيري بوصفه نظاماً اجتماعياً جزئياً.

أساسيات التحليل الوظيفي

يعتقد أصحاب النظرية الوظيفية(٢١٥) أنه من الضروري إيجاد منهج علمـي لتفسير المثابرة والاستمرارية التي أظهرتها وسائل الإعـلام الجمـاهيري فـي التصدّي لتـاريخ طويل من الانتقادات الموجّهة إليها من قبل فئات عديدة ونافذة في المجتمع. والواقع أن قـدرة الإعـلام علـى الاسـتمرار لحقبـات طويلـة رغـم حمـلات الإدانـة والهجـوم الـذي يتعرّض لها في كل مرحلة من مراحل تطوّر تقانيات الاتصال الإنسـاني، يمثّل إحدى أهم الإشكاليات الرئيسة في نظام الإعلام الجماهيري.

(٢١٥) انظر ميرتون ورايت في الفصل المتعلّق بوظائف الإعلام الجماهيري.

إن استقرار واستمرارية النظام الإعلامي في مجتمع ديمقراطي، حيث تضطلع الحكومة بدور محدود، تقوم على حقيقة أن الإعلام يتوجّه نحو الجمهور العريض وأن هذا الأخير يرغب في نوعية المواد الإعلامية التي يتلقاها، وأن الإعلام يستمر في إعطائه إيّاها ملبّياً هذه الرغبة، ولذلك فإنه يستمر ويزدهر[٢١٦].

وقد انتقد العديد من الباحثين هذا التفسير لاستمرارية الإعلام الجماهيري، لأنه تفسير يطرح، من جديد، قضية البيضة والدجاجة. والواقع أنه من العسير معرفة ما إذا كانت أذواق الجمهور هي التي تحدّد نوعية المادة الإعلامية أم أن ما يقدّمه الإعلام هو الذي يحدّد أذواق هذا الجمهور. من المحتمل أن تكون أذواق الجمهور هي السبب وهي النتيجة في الوقت نفسه، ولهذا، فإن العلاقة بين الطرفين هي علاقة دائرية، تماماً كقصّة البيضة والدجاجة.

يقدّم المفهوم البنيوي- الوظيفي اقتراباً مفيداً لفهم هذه العلاقة بين الجمهور والإعلام الجماهيري، ولتفسير الاستمرارية المذهلة التي حافظ عليها الإعلام الجماهيري، رغم إمعانه في تقديم مضامين إعلامية ذات نوعية هابطة[٢١٧].

(٢١٦) لا يمكن القبول بهذا التفسير في المجتمعات ذات الأنظمة الشمولية، حيث تسيطر الحكومة، بشكل مباشر، على الإعلام جميعاً، بهدف مراقبة تدفّق المعلومات والقيام بعمليّات فلترة تضيق وتّسع حسب الموضوعات وحسب شدّة النظام السياسي الشمولي؛ من أجل الهيمنة على الرأي العام وإعطائه تفسيرات أحادية للأحداث تتلاءم ومصالح السلطة السياسية وتسهم في تحقيق ديمومتها. لهذا، فإن العلاقة بين طرفي العملية الإعلامية هي علاقة عمودية بحتة وذات اتّجاه واحد، من الحكومة إلى الرعية، حيث يؤدي الإعلام أدواره كتابع للنظام السياسي السائد، دون أن يكترث باتّجاهات الرأي، خاصّة وأن المؤسّسة الإعلامية في تلك الأنظمة لا تسلك سلوكاً اقتصادياً يتصل بالربح والخسارة، وبالتالي يرتبط بالعائد الإعلاني والتنافس في السوق، لأن تمويلها يقع على عاتق الحكومة التي تعدّها جهازاً حسّاساً من أجهزتها. لذلك، يمكن القول إن استمرار الإعلام الجماهيري كنظام اجتماعي في المجتمعات غير الديمقراطية مرتبط بإرادة النظام السياسي وحاجاته ومتطلّباته وليس باتّجاهات ومواقف الرأي في المجتمع المدني النخبوي؛ أو برضى الجمهور وقبوله،أو بحاجته إلى ضرب معيّن من المنتجات الإعلامية. ومن الطبيعي أن يعمل الإعلام في هذه الأنظمة على تعميم امتثالية عميقة، قسرية الطابع، للحفاظ على الوضع القائم حتى درجة الجمود الكامل، وأن يبتعد عن القيام بأية بادرة أو حركة نحو التغيّير والتطوير والارتقاء.

(٢١٧) قبل ظهور الإعلام الجماهيري بوقت سحيق، كان بإمكان أفلاطون أن يفتح نقاشاً حول الكلفة والفضائل الاجتماعية للثقافة الجماهيرية. ففي مقولاته حول تربية الأطفال والمراهقين الذين يتم إعدادهم ليصبحوا قادة جمهوريته المثالية، كان أفلاطون يعتقد أن الثقافة الجماهيرية، في ذلك الوقت، تتسبّب في إيذاء عقول الشباب.

- ويقول أفلاطون في معرض حواراته، هل يمكن السماح لأي كان في أن يقصّ على الشباب

يتحرّك هذا الضرب من التحليل من اعتبار أن الإعلام الجماهيري كنظام اجتماعي يعمل ضمن نطاق نظام خارجي ذي طبيعة خاصّة، مؤلّف من مجمل الشروط الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع.

إن التحليل البنيوي - الوظيفي للأنظمة الاجتماعية يهتم بنماذج أعمال وأنشطة يؤديها أفراد أو مجموعات فرعية أو تحتية لها صلات متبادلة داخل تلك الأنظمة[٢١٨]. من أجل ذلك، فإن نظاماً اجتماعياً ما هو عبارة عن مفهوم مجرّد، إلاّ أنه ليس بعيداً عن سلوكيات الناس القابلة للملاحظة والتحقّق من طبيعتها بشكل ميداني وإمبيريقي[٢١٩]. هذا يعني أن النظام الاجتماعي هو جملة من الأعمال والأنشطة المستقرّة والمتكرّرة والبنيوية، التي يشكّل بعضها تمظهراً للثقافة المشتركة للأفراد والجماعات، ويشكّل البعض الآخر تمظراً للاتّجاهات النفسية لهؤلاء الأفراد والجماعات، الذي ينجم هو الآخر عن تلك الثقافة المشتركة[٢٢٠]. إذن، يشكّل النظام الثقافي والنظام الاجتماعي ونظام الشخصية لكل فرد نماذج مختلفة من المجرّدات الناتجة من السلوك المعلن والرمزي لكل إنسان. وهي كلّها مجرّدات ذات قيمة متساوية يشكّل كلّ منها قاعدة انطلاق خاصّة لتطوير نماذج عديدة من التفسيرات والتوقّعات. بشكل عام، فإنه من الصعب أو من المستحيل تحليل أو فهم إحدى هذه المجرّدات بصورة كاملة دون الاستناد، على الأقل جزئياً، إلى المجرّدات الأخرى أيضاً[٢٢١].

إذا كان النظام الاجتماعي هو عبارة عن مصطلح علمي مجرّد، ما هو إسهام هذه المنهجية المفهومية في فهم وسائل الإعلام الجماهيري ؟ لمعرفة ذلك يجب أن نوضّح

= حكاية خيالية يصنعون .نيها ويستقبلون في نفوسهم آراء معارضة لتلك التي يجب - حسب رأينا - أن يؤمنوا بها عندما يصبحون كباراً ؟

يفترض ألاّ نسمح بذلك أبداً. لهذا من المفترض أن نراقب، قبل كل شيء، مؤلّفي الحكايات لنرى فيما إذا كانوا يؤلّفون حكايات جيّدة لكي نتبنّاها، أو رديئة لنرفضها. بالإضافة إلى ذلك، يفترض أن نقنع المربّيات والأمّهات بأن يقصصن على الأطفال ما نختاره نحن من هذه الحكايات التي تشكّل عقولهم، وأن نختار بعناية أكبر بكثير من اختيار الأيدي التي تعنى بأجسامهم. إن ما يقصّ الآن على الأطفال من حكايات يجب رفض العديد منها.

- اقرأ أفلاطون:

- Platone ,in Repubblica: "dialoghi politici e lettere". F. Adorno, 2 voll. Ed. UTET, Torino, 1970.

(218) DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit. p. 13.
(219) Ibid. p. 139.
(220) Ibid. p. 140.
(221) Ibid. p. 141.

بدقّة ماذا يعني مصطلح النظام الاجتماعي وأي نوع من التحليل يسمح هذا النظام القيام به.

إن إحدى الأفكار المهمّة والرئيسة في دراسة الأنظمة الاجتماعية تتعلّق بوظيفة بعض الظواهر الخاصّة المتكرّرة (مجموعة من الأعمال والأنشطة) داخل نظام اجتماعي. أي بالوظيفة داخل نظام اجتماعي مستقر في أعماله وأنشطته. في هذا الإطار، يصبح لكلمة وظيفة معنى قريب جداً من معنى النتيجة أو العاقبة[٢٢٢].

ضمن هذا السياق إذن، يمكن اعتبار أن ثمة حاجة اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية أو مشاعرية، في أن تقوم الأطراف بالوظائف والأدوار الاجتماعية المناطة بها، بشكل صحيح، لكي لا يتعرّض استقرار النظام للخطر.

على هذا النسق، يمكن دراسة نظام اجتماعي متكامل أو نظام اجتماعي فرعي أو جزئي أو تحتي يتحرك داخل نظام أكثر اتّساعاً يتحرك هو الآخر ويؤدي وظائفه وأعماله وأنشطته ضمن السياق الخارجي للشروط الاجتماعية القائمة في المجتمع الكلّي.

لا شك أن التحقّق من أنّ تأدية أو عدم تأدية (خلل وظيفي) كل نظام جزئي وظائفه داخل نطاق المجتمع الكلّي ومدى تأثير ذلك على استقرار أو على عدم استقرار النظام الاجتماعي الجزئي والكلّي، يجب أن يخضع لدراسات علمية تؤكد أو تنفي وجود الخلل الوظيفي. غير أن التحليل الوظيفي هو الذي يضع الفرضية التي سيتم التحقّق منها، وهذا هو الدور الجوهري للنظرية الوظيفية.

التحليل الوظيفي إذن، يركّز على ظواهر خاصّة تتحرك في داخل النظام الاجتماعي الكلّي، ويحاول تبيان كيف أن هذه الظواهر يمكن أن تؤدي إلى نتائج تسهم في المحافظة على استقرار النظام بكلّيته، أو أن تؤدي إلى عكس ذلك، وعندئذ تصبح الوظيفة خللاً وظيفياً. ولكن لا بد من الإشارة أن مسألة وجود أو عدم وجود خلل يبقى مسألة نسبية مرتبطة بإيجابية أو سلبية المحافظة على الاستقرار أو التحرك نحو التغيير في مجتمع ما في مرحلة تاريخية معيّنة.

يعدّ الإعلام الجماهيري، بطبيعة الحال، نظاماً اجتماعياً جزئياً تكراري الطابع، يعمل داخل النظام الاجتماعي الكلّي، ويتفاعل مع مختلف الأنظمة الاجتماعية الجزئية الأخرى الموجودة في المجتمع، ولذلك، يمكن استخدام النظرية البنيوية - الوظيفية لدراسة النظام الإعلامي وطبيعة وظائفه أو الخلل الوظيفي الذي يمكن أن يصاب به.

(222) Ibid. p. 144.

ليس من المستحيل، وإن كان من الصعب، إعداد فئات ووحدات نصّية لتحليل مضامين الإعلام والتعرّف بوضوح على المواد الإعلامية الهابطة التي يمكن اصطفاؤها من خلال حجم أو عدد المواقف الأكثر سلبية تجاهها، ويمكن، بصورة عامة، تقسيم مضامين كل وسيلة إعلامية حسب الفئات التالية[٢٢٣]:

- مضامين ذات مستوى هابط، وهي المواد التي ينشرها ويبثّها الإعلام على أوسع نطاق، والتي يتابعها جمهور إعلامي عريض، والتي هي الأكثر تعرّضاً لهجوم النقّاد[٢٢٤].
- مضامين غير مختلف عليها، أي لا تشكّل موضوعاً خلافياً. وهي مواد إعلامية واسعة الانتشار ومتابعة من جمهور إعلامي عريض، ولكنّها قلّما تتعرض لهجوم أو قلّما يتم تناولها من قبل النقّاد[٢٢٥].
- مضامين ذات مستوى فكري وثقافي رفيع، تنشر وتبثّ بكميات كبيرة ولكنّها ليست متابعة من الجمهور العريض. ويرى النقّاد في هذه المواد مضامين راقية من حيث الذوق والقدرة على رفع مستوى الأخلاقيات والتربية وإثارة اهتمام المتلقّي بشكل إيجابي[٢٢٦].

من المهم تحديد عناصر النظام الاجتماعي الخاضع للدراسة ورسم حدوده التي تتشكّل فيها مضامين إعلامية هابطة. بهذا الشكل يمكن وضع فرضيات بطريقة استقرائية حول كيفية إسهام هذه المضامين في عمل النظام المدروس.

من الأفضل عدم الاقتصار على دراسة وسيلة إعلامية واحدة بل وضع مخطّط مفهومي عام بإمكانه أن يشمل أية وسيلة إعلامية تخضع للبحث، ويمكن من خلاله إبراز نقاط التشابه وبالتالي نقاط الاختلاف بين وسائل الإعلام الكبرى كافة، وخاصة فيما يرتبط بالعلاقات القائمة بين عناصر النظام.

(223) Ibid. pp. 146-147.

(٢٢٤) من الأمثلة على الإنتاج الرديء في الإعلام العربي: المقالات التعليقية والتحليلية والتقارير الإخبارية في المطبوع والبرامج الإخبارية والحوارية في المسموع والتلفزي وبعض البرامج الترفيهية الهابطة ونسبة مرتفعة من الإعلانات وأنواع عديدة من الدراما التاريخية والاجتماعية التلفزية إلخ..

(٢٢٥) من الأمثلة على هذا الضرب من المواد الإعلامية: بعض المجلاّت العلمية و الاختصاصية والمواد التي تحتوي معلومات وخدمات، كحالة الطقس والصيدليات المناوبة إلخ..

(٢٢٦) من الأمثلة على الإنتاج الجيّد: المقالات والتحاليل العقلانية والرصينة والبرامج الترفيهية الراقية والموسيقى الجادّة والأفلام والمسلسلات رفيعة المستوى من حيث النص والمعالجة والأداء والتقانية إلخ..

من بين عناصر النظام هناك :

- الجمهور الإعلامي الذي يشكّل عنصراً رئيساً في النظام الاجتماعي للإعلام الجماهيري، وهو عنصر شديد التعقيد ويتميّز بخصائص عديدة أهمّها :

١- أنه غير متجانس من حيث المواقع الطبقية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية. فهو يمثّل تراكما عمودياً لرقائق أفقية متباينة ثقافياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتعليمياً.

٢- هو جمهور مبعثر في المكان والزمان بالنسبة للإعلام المطبوع ومبعثر في المكان، متضافر في الزمان بالنسبة للإعلام المسموع والتلفزي. فالإعلام المطبوع يسمح للمتلقّي باستهلاك المادة الإعلامية في أي مكان وفي أي وقت يشاء. أما الإعلام المسموع والتلفزي فإنه يوحّد زمن التلقّي بصورة عامة، والتبعثر في الزمان الذي يمكن أن يتحقّق عبر الكاسيت والفيديو يبقى محدوداً، إذ من المستحيل تقريباً تسجيل التدفّق الإعلامي الإذاعي والتلفزي لفترات مطوّلة وبكمّيات كبيرة.

٣- الجمهور الإعلامي غير متجانس من حيث العمر، وإذا كان الإعلام المطبوع يتطلّب جمهوراً راشداً ومتعلّماً، فإن الإعلام المسموع والتلفزي على وجه الخصوص أصبح يستقطب جمهوراً عريضاً من الأطفال والقاصرين، وغدا عضواً فاعلاً في التنشئة ينافس الوالدين والمدرسة.

٤- هوجمهور غير متواصل لأن التبعثر في المكان يؤدي إلى عدم التواصل المادي، وقد أصبح هذا التبعثر، في عصر الفضائيات ذا أبعاد كونية.

٥- الجمهور الإعلامي غير منظّم بشكل عام، ولكن ثمة تنظيم ما داخل عدم التنظيم كما سنرى فيما بعد.

٦- لا يمكن التعرّف بصورة مباشرة على ردود أفعاله تجاه المادّة الإعلامية، لأن رجع الصدى يحتاج إلى دراسات وأبحاث متعدّدة الأوجه تمتد من الاستطلاع البسيط إلى الدراسات المخبرية العميقة التي تستمر فترات طويلة جدّاً من الزمن. ورغم محاولات الإذاعة و التلفزة إعداد برامج يستطيع المتلقّي من خلالها أن يتدخّل في صميم المادة الإعلامية وأن يبدي رأيه، فإن هذه الطريقة تبقى شديدة المحدودية وغير تمثيلية البتة بل ومضلّلة أحياناً، وبالتالي غير صالحة لمعرفة اتجاهات ومواقف الجمهور الشامل أو فئات معيّنة منه بصورة دقيقة تسمح بتحاليل علمية دقيقة.

٧- رغم التبعثر في الزمان والمكان، وعدم التواصل وعدم التجانس العمري والاجتماعي والثقافي والتعليمي والحضاري ، ورغم عدم وجود تنظيم محكم للجمهور الإعلامي، فإن من خصائصه أن يتوحّد معرفياً ونفسياً ومشاعرياً تجاه مادّة إعلامية تتضمّن معلومات أو تقويمات حول قضية عامة تثير اهتمامات معرفية أو عاطفية استثنائية لدى فئات أو جماعات معيّنة تعيش شروطاً حياتية أو سياسية أواجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو وجدانية واحدة أو شديدة التقارب، وبالتالي، فإن هذه الجماعات تجتمع وتتضافر معنوياً ونفسياً وانفعالياً لدى تعرّضها لذات المضمون الإعلامي؛ وذلك من خلال ردود أفعال ومواقف موحّدة أو متشابهة. وهكذا، فإن الجمهور المبعثر يصبح جمهوراً مندمجاً ومتواصلاً معرفياً أو وجدانياً.

٨- كما سنرى فيما بعد،لا يتكوّن الجمهور الإعلامي من أفراد مجهولين و منعزلين وإنّما من جماعات انتماء أو جماعات ضغط عابرة أو ثابتة، تحتوي على قادة رأي يمارسون تأثيرات مهمّة بالنسبة لطرائق فهم الرسالة الإعلامية واستيعابها وأساليب تفسيرها والاقتناع أو عدم الاقتناع بمضمونها.

إن هذا الجمهور شديد التباين والتراكم والتفاعل المتعدّد الجوانب في الوقت نفسه، يحتوي، كعنصر في النظام الإعلامي، متغيّرات عديدة ترتبط بحاجاته واهتماماته الأساسية، والفئات المختلفة الموجودة فيه وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراده، وتدلّ هذه المتغيّرات على آليات السلوك التي تحدّد نماذج التعرّض و التفسيرات وردود فعل الجمهور تجاه مضامين منتج إعلامي معيّن.

في البلدان التي تسود فيها حريّة التعبير وفي مقدّمها حريّة الإعلام والاتصال والديمقراطية واقتصاد السوق، ثمة عناصر أخرى في النظام الإعلامي منها(٢٢٧):

- مراكز البحث الإعلامي والاتصالي التي تقوم بقياس سلوك الجمهور تجاه تلك المضامين الإعلامية التي جرت نمذجتها، كما تقوم بإجراء أبحاث عديدة حول السوق تتضمّن معلومات مفيدة لمسؤولي المؤسّسات الإعلامية الذين يقرّرون، استناداً إليها، مضامين الرسالة الإعلامية لفئات الجمهور المتنوّعة. هذا يعني أن هناك ارتباطاً بين الجمهور كعنصر في النظام الإعلامي وبين مراكز البحث حول السوق وطبيعة استهلاك الجمهور للمادة الإعلامية كعنصر آخر، ويشكّل العنصران، على صعيد نظري، نظامين فرعيّين أو تحتيّين في النظام الإعلامي المتكامل.

(227) Ibid. pp. 149-150.

- الموزّعون الذين يمرّرون المنتج الإعلامي إلى الجمهور، وهم يختلفون في طبيعة عملهم تبعاً للوسيلة الإعلامية، وعلاقاتهم بالجمهور الإعلامي ذات اتجاه واحد، لأن رد فعل الجمهور، كما رأينا، هو رد فعل مؤجّل يتم التعرّف عليه من خلال مراكز البحث التي تمرّر نتائج الدراسات للموزّعين أيضاً. ويعدّ الموزّعون نظاماً فرعياً آخر تجمعه مع العنصرين الآخرين علاقات تؤدي، شيئاً فشيئاً، إلى مزيد من التعقيد في النظام الإعلامي.
- بالإضافة إلى الجمهور ومراكز البحث وشركات التوزيع، ثمة عنصر آخر هو منتج المادة الإعلامية الذي يرتبط بالممول والموزّع. وهو يمثّل عدداً من الأنظمة الفرعية أو التحتية تختلف باختلاف الوسيلة الإعلامية (هناك الممثّلون والمخرجون ومنتجو التلفزة والصحفيون ومراسلو وكالات الأنباء والفنيّون والناشرون ومنتجو الأفلام والنقابيون والموظّفون إلخ..).
- فوق هذه البنية المعقّدة والمترابطة والمتفاعلة، هناك أنظمة فرعية أخرى تمارس الرقابة. أهمّها الهيئات التشريعية التي تنظّم أنشطة الإعلام من الناحية القانونية، والمؤسّسات التي تشرف على تنفيذ القوانين والتشريعات الخاصة بالإعلام، وترتبط الهيئات التشريعية بالجمهور من خلال الاقتراع والرأي العام الذي يجسّد أهميّة خاصة بالنسبة لهذه الهيئات. وهناك قنوات معلوماتية مفتوحة على الدوام وفعّالة بين السلطة التشريعية وسلطة تنفيذ القوانين المتعلّقة بالإعلام وبين الجمهور الذي تمثّله منظّمات خاصّة وتطوّعية تسهم في تحديد قواعد وكودات السلوك الاجتماعي والأخلاقي الذي يجب أن تلتزم به مختلف وسائل الإعلام، وتمارس هذه المنظّمات الطوعية رقابة المجتمع المدني على الموزّعين وعلى الوسائل بصورة عامّة.

هناك، بطبيعة الحال، شروط خارجية أو بالأحرى عناصر فرعية تقع خارج إطار النظام الفرعي الإعلامي المتكامل، ولكنّها تحيط ببنياته من كل جانب، وهي التي تحدّد مجمل المضامين الإعلامية المقبولة أو غير المقبولة. هذه الشروط الخارجية المتمثّلة في قواعد السلوك الاجتماعي تتجلّى في الأخلاقيات التي يدخل بعضها ضمن حدود القوانين، وفي الأذواق و الأنظمة الثقافية العامة والفرعية والقناعات والمعتقدات والتقاليد والأعراف إلخ..

ويمكن القول، بشكل عام، إنه إذا كانت كل وسيلة إعلامية تشكّل نظاماً اجتماعياً فرعياً قائماً بذاته ومنفصلاً، فإن الإعلام الجماهيري جميعاً يرتبط عبر مختلف وسائله، ارتباطا وثيقاً ومنتظماً، وهو يتبادل التأثير ويتفاعل باستمرار مع الشروط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية السائدة في المجتمع الكلّي الذي يحتضن عمليات تطوّر

الإعلام، مؤثّراً فيها ومتأثّراً بها، ويقدّم تفسيرات شتّى لكيفيات تمظهرها في مرحلة تاريخية معيّنة.

ولا شك أن نظام المبادرة الحرّة ومشروعية البحث عن الربح ومزايا الرأسمالية المقيّدة والقيمة العامة لحريّة التعبير في المجتمعات الديمقراطية، كلّ ذلك، يشكّل شروطاً خارجية إضافية تمارس تأثيراتها في بنيات الإعلام الجماهيري الفكرية والاقتصادية والتقانية والإنسانية التي تجسّد بدورها أنظمة فرعية تتفرع عنها، كما رأينا، أنظمة فرعية وتحتية أخرى تمارس منفردة ومجتمعة، تأثيراتها في النظام الإعلامي، وبالتالي في النظام الاجتماعي برمّته[٢٢٨]..

* * *

(٢٢٨) لا ريب أن آليات عمل الإعلام الجماهيري في الأغلبية الساحقة من المجتمعات العربية تختلف من حيث أن هذا الإعلام لا يمارس فعلياً حريّة التعبير ضمن إطار مجتمع ديمقراطي، ولا يتمتّع كمؤسّسة اجتماعية أو كنظام اجتماعي باستقلالية ولا يشكّل مصدراً منفصلاً من مصادر المعلومات في المجتمع، ولا يعتمد قوانين الربح والخسارة في سوق مفتوحة، ولا يعيش أي نوع أو أي مستوى من الحالات التنافسية الداخلية (أي داخل المجتمع الواحد، لأن التنافس البيني والخارجي فرض على الإعلام العربي في أعقاب الثورات التقانية الاتصالية)، وبالتالي هو ليس معنياً باستقطاب الجمهور الإعلامي أو بمدى رضى هذا الجمهور عن مضامينه (باستثناء حساسيّته تجاه حملة من المعايير الأخلاقية والعادات والأعراف والتقاليد والقيم التراثية والدينية)، لأن الهمّ الأكبر بالنسبة له يتجلّى في دعم السلطة السياسية وتسويغ سلوكها وضمان استمراريتها، عبر منتجات إعلامية ترمي إلى أدلجة مكثّفة ومباشرة وفجّة، بعيداً عن الإقناعية والعقلانية وبعيداً عن أي تعدّدية. ولذلك، فإن العديد من الوسائل الإعلامية في المجتمعات العربية تعمل بخسارة مشكّلة عبئاً مادياً على الدولة أو بالأحرى على دافعي الضرائب، وتستمر تحت وطأة معايير غير اقتصادية وغير علمية بشكل عام، لتحقيق أهداف معيّنة ترغب السلطة السياسية في بلوغها، رغم أن ما يطرأ على الاتصال الجماهيري من ثورات تقانية أصبح يشكّل تحدّياً كبيراً لوسائل الإعلام الرسمية العربية التي لن تتمكّن من تجاهل الوقائع الاتصالية إلى ما لا نهاية، وستتعرّض للإفلاس الفكري والجماهيري الكامل إن لم تتحرّك لإحداث تغيّرات جوهرية عميقة في بنيات الإعلام ووظائفه ومواقعه داخل المجتمع.

الفصل الثاني

نظريات التأثير المباشر في الإعلام الجماهيري

تمهيد

في بدايات القرن العشرين، قامت الحرب العالمية الأولى في دول أوروبا وخاضت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً غمارها. وإذا كانت الحروب فيما مضى تجري بين قوّات عسكرية، بعيداً عن السكان المدنيين والمجتمعات، فإن جيوش هذه الحرب كانت مدعومة ومرتبطة بالمؤسّسات الصناعية الكبرى، وبالتالي، فإن القدرات الإنتاجية للأمم المتحاربة كانت تشكّل العامل الأساس في حسم الصراع. من هذا المنطلق، نشأت ضرورة زجّ جميع طاقات الأمة وثرواتها وإمكاناتها في المعركة.

غير أن عملية رصّ الصفوف حول أهداف الحرب ومراميها واجهت مشكلة تشظّي تلك المجتمعات في أعقاب الثورات الصناعية، حيث أدى تقسيم العمل والتخصّصية، كما رأينا، إلى تبدّلات بنيوية جذرية تجلّت في لاتجانسية المجتمع وفرديته وعزلة أفراده وانعزاليتهم وانهماكهم في علاقات عقدية وغير شخصانية، خالية من أواصر المساندة المشاعرية والوجدانية ومن روابط المجتمع التقليدي والتزاماته.

لهذا كلّه، كان لا بد من إعادة اللحمة إلى تلك المجتمعات لكي تحظى جيوشها بدعم مادّي ومعنوي وعاطفي من شأنه أن يدفعها بقوّة وعزيمة نحو خوض المعارك وتحقيق الانتصار النهائي على العدو.

وبما أن الدعاية هي الوسيلة الأفضل لانبعاث مجتمع الـ" Gemeinschaft " على حد تعبير تونيس، والتصدّي لمجتمع الـ (Gesellschaft) المشرزم والمبعثر والانعزالي الذي

أفرزته الثورات الصناعية، فإن وسائل الإعلام الجماهيري المتوافرة آنذاك، شكّلت الأداة الأكثر ملاءمة لتنفيذ هذه السياسة. وقد قامت هذه الوسائل بحملات دعائية على نطاق واسع لم يشهد الإعلام مثيلاً لها في تاريخ الإنسانية، مستنهضة المشاعر الوطنية والقومية ومبرزة فظائع وجرائم للعدو مبالغ بها أو حتى مختلقة. غير أن الجمهور كان يستهلك بشغف هذه المواد الإعلامية ولا يشك البتّة في صحتها ومصداقيتها. والواقع أن الجمهور الإعلامي الذي لم يكن معتاداً على هذا الضرب من الإعلام الكثيف والمستمر كان منبهراً ومتفاعلاً إلى حد كبير مع مضامين هذه الدعاية، خاصة وأن هذا الجمهور كان ما يزال يتعامل مع وسائل الإعلام الجماهيري بسذاجة وعدم دراية، فحتّى كلمة دعاية لم يكن الفرد المتوسط العادي يدرك معناها تماماً[٢٢٩].

نظرية الرصاصة السحرية " magic bullet theory" أو الإبرة تحت الجلد

الواقع أن المفاهيم التي طرحت حول طبيعة المجتمع الجماهيري كنوع جديد من التنظيم الاجتماعي، تبرز وتؤكّد على العنصر المركزي في نظرية الرصاصة السحرية، أي على مسألة أن الأفراد معزولون، مجهولون، منفصلون ويعيشون في المجتمع كذرّات وحيدة[٢٣٠]. ومن وجهة نظر الدراسات الإعلامية، فإن هذه الخصائص التي يتميّز بها الجمهور الإعلامي تمثّل الفرضية الرئيسة في إشكاليات التأثير، إذ إن الأفراد، كعناصر جماهيرية، يتعرّضون لرسائل إعلامية ومضامين وأحداث تذهب إلى أبعد بكثير من تجاربهم الواقعية، وتستند إلى عوالمَ دلالية وقيمية لا تتطابق بالضرورة مع القواعد السائدة في المجموعة التي ينتمي إليها الفرد[٢٣١]. بهذا المعنى، فإن الانتماء إلى الجماهير يوجّه انتباه أعضاء هذه الجماهير بعيداً عن أفلاكها الحياتية والثقافية، نحو مناطق لا تزال غير مشيّدة بنماذج وتوقّعات معروفة ومستقرّة[٢٣٢].

إن هذا العامل المرتبط بالانعزال المادي والمعياري للفرد داخل الجمهور هو الذي يفسّر جزءاً كبيراً من الأهميّة التي تعطيها نظرية الرصاصة السحرية للقدرات التلاعبية لوسائل الإعلام الجماهيري التي كانت سائدة آنذاك. أما العامل الثاني المتعلّق بخصائص الجمهور الإعلامي، فيتجلّى في استمرارية انسجام هذه الخصائص مع جزء

(229) DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit. p.177.
(230) M.Wolf, " teorie delle Comunicazioni di Massa ", op. cit. p. 19.
(231) E. Freidson, " Communications Research and The Concept of The Mass ", American Sociological Review, vol. 18, n° 3, in Schramm-Roberts Eds, 1972, pp. 197-208.
(232) Ibid.

من التقاليد الأوروبية في مجال التفكير الفلسفي والسياسي الذي يرى في الجماهير أكواماً من البشر تنشأ وتعيش داخل ما بعد وضد الروابط الأهلية التقليدية التي كانت موجودة، وذلك نتيجة تفكّك الثقافات المحلّية، حيث أصبحت الأدوار ضمن إطار الجماعات غير شخصانية ومجهولة[٢٣٣]. إن ضعف جمهور إعلامي سلبي ومجرّد من أي دفاعات تتأتّى، بالضبط، من هذا التبعثر والانحلال[٢٣٤].

حسب نظرية الإبرة تحت الجلد، إذن، فإن كل فرد هو ذرّة معزولة تستجيب وحدها لأوامر وتوجيهات وسائل الإعلام الجماهيري الاحتكارية[٢٣٥]. وإذا كانت رسائل الدعاية تستطيع الوصول إلى أفراد الجمهور، فإن القوّة الإقناعية تحقّق أهدافها بسهولة، أي إذا وصلت رصاصة الدعاية إلى هذا الفرد، فإن تلك الدعاية تصيب الهدف التي وضعته نصب عينيها[٢٣٦].

وهكذا، فإن التأثيرات العميقة التي مارستها الدعاية أثناء الحرب الأولى قدّمت الدليل المثالي لصياغة نظرية التأثير الأولى لوسائل الإعلام الجماهيري، التي انطلقت من فرضية أن المثيرات التي صنعتها هذه الوسائل لتحقيق أهداف معيّنة، وصلت إلى كل عضو في تلك المجتمعات الجماهيرية، وأن كل شخص تعرّض لهذه المثيرات استوعبها وتمثّلها بشكل متشابه، وأنها أدت إلى ظهور استجابات متساوية، مباشرة، فورية، قوية وشاملة، من قبل جميع المتلقّين[٢٣٧].

الحقيقة أن نظرية الرصاصة السحرية ليست نموذجاً للعملية الاتصالية بقدر ما هي نظرية للفعل صاغتها مفاهيم السيكولوجية السلوكية[٢٣٨]، هدفها دراسة السلوك

(233) Ibid.
(234) Ibid.
(235) C. Wright Mills, " Power, Politics and People ", Oxford University Press, New York,1963, trad. in Saggi di Sociologia della Conoscenza, Ed. Bompiani, Milano, 1971, p. 203.
(236) M. Wolf, op. cit, p. 21.
(237) DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit, p. 178.
(٢٣٨) إن الصيغة السيكولوجية للسلوك تعود إلى مؤلّفات واتسون (Watson) :

" Psychology as the Behaviorist Views It "

وهي تهدف إلى دراسة المضامين السيكولوجية، من خلال تبدّياتها القابلة للملاحظة. بهذا الشكل، يأتي تموضع السيكولوجيا، بين العلوم البيولوجية، في نطاق العلوم الطبيعية. والسلوك، الذي هو موضوع السيكولوجيا برمّتها، يجسّد تكيّف المتعضّي مع البيئة: أما السلوكيات المعقّدة الناجمة عن الإنسان والقابلة للملاحظة بطريقة علمية، فيمكن تجزئتها إلى سلسلة من الوحدات، وكذلك المثير الذي يتعلّق بتأثير البيئة على الفرد، والاستجابة، أي رد فعل الفرد على البيئة، والتقوية، أي تأثيرات الفعل القادر على تبديل ردود الفعل اللاحقة على البيئة.

الإنساني بذات المنهجيات المرتبطة بالتجربة والملاحظة. فنظام الفعل الذي يميّز السلوك الإنساني يجب أن يتم تفكيكه من قبل العلم السيكولوجي، إلى وحدات مفهومة، متميّزة وقابلة للملاحظة. وفي العلاقة المعقّدة بين المتعضّي والبيئة، فإن المثير يمثّل العنصر الحاسم : فهو يتضمّن الأشياء والشروط الخارجية المحيطة بالفرد، والتي تنتج ردّ فعل. ولهذا، فإن المثير وردّ الفعل هما الوحدتان الطبيعيتان اللتان يمكن من خلالهما توصيف السلوك[٢٣٩]. إذن، وحدة " مثير - استجابة " تعبّر عن عناصر أي شكل من أشكال السلوك.

ولا شك أن نظرية الفعل هذه ذات الطابع السلوكي كانت ملائمة لتحقيق التكامل مع التنظيرات المتعلّقة بالمجتمع الجماهيري، لأنها كانت تقدّم نقطة الاستناد لتأسيس القناعات حول فورية وآنية التأثيرات التي يمارسها الإعلام الجماهيري. فالمثير، في علاقته بالسلوك، هو الشرط الأولي لردّ الفعل، والصلة الوثيقة بين الاثنين تجعل من المستحيل تحديد أحدهما إلاّ ضمن إطار تحديد الآخر، وهما يشكّلان معاً وحدة تحليل.

إذن، هناك، من جهة، الإعلام الجماهيري الفائق القوّة والذي ينشر رسائله، وهناك، من جهة أخرى، الجماهير المتذرّرة التي تنتظر تلقّي هذه الرسائل، وفي الوسط، أي بينهما، لا يوجد شيء البتّة[٢٤٠]، لأن وسائل الإعلام الجماهيري التي تمثّل ضرباً من النظام العصبي البسيط، تمتدّ لتلامس مباشرة كل عين وكل أذن، في مجتمع يتميّز بندرة العلاقات الشخصية وبتنظيم اجتماعي لا شكل له[٢٤١].

وترى هذه النظرية المستندة إلى صياغات نفسية متأثّرة، إلى حد بعيد، بسيكولوجية الغرائز، الخاضعة بدورها لتأثير الداروينية التي كانت بلغت أوجها حينئذ، أن سلوك كل فرد ناجم عن آليات بيولوجية وراثية معقّدة تدخل بين المثيرات والاستجابات. وبالتالي، فقد كان من المعتقد أن الطبيعة الإنسانية الأساسية هي في جوهرها متساوية بين فرد وآخر. وحسب هذه النظريات النفسية، فإن الأشخاص يرثون ذات التركيبة تقريباً من الآليات البيولوجية الطبيعية التي تزوّدهم بالدوافع والطاقة ليستجيبوا لمثيرات معيّنة بأساليب معيّنة، وهي آليات ذات طبيعة انفعالية وغير عقلانية.

(239) M. Wolf, op. cit. p. 21.
(240) E. Katz & P. Lazarsfeld, " Personal Influence : The Part Played by People in the Flow of Mass Communications ", Ed. Free Press, New York, 1955, trad. " L'Influenza Personale nelle Comunicazioni di Massa ", Ed. ERI, Torino, 1968.
(241) Ibid. p. 4.

إذن، وبكلمات أخرى، فإن تلك الآليات السيكولوجية، ذات الطبيعة الوراثية، هي التي جعلت كل الأشخاص يستجيبون بطريقة متساوية تقريباً، وخاصّة في غياب صلات اجتماعية وثيقة تستطيع أن تتصدّى لتأثير هذه الآليات، ذلك لأن الفرد كان متحلّلاً، من الناحية السيكولوجية، من القيود الاجتماعية القويّة ومن الرقابة الاجتماعية غير الشكلانية التي كانت سائدة في المجتمعات التقليدية.

وبما أن هذه الآليات هي كذلك، وبما أن هناك أيضاً تلك المفاهيم المرتبطة بالمجتمع الجماهيري، فإن نظرية الرصاصة السحرية، المرتكزة على آلية المثير - الاستجابة، وعلى أن الإعلام الجماهيري هي وسائل فائقة القدرة، اعتبرت نظرية صحيحة[٢٤٢]، خاصّة وأن معظم التأثيرات التي حدثت آنذاك لم تخضع لأي دراسة ميدانية واعتبرت صحّتها تحصيل حاصل[٢٤٣]، لأن نظرية الإبرة تحت الجلد كانت منسجمة تماماً مع النظرية العامة سواء السوسيولوجية أم السيكولوجية التي تمّت صياغتها آنذاك. هذا بالإضافة إلى أن التأثير الهائل الذي مارسته الدعاية إبّان الحرب الأولى شكّل البرهان الكافي لمقدرة الإعلام الجماهيري التي وصفها لاسويل بأنها المطرقة والسندان الجديدين للمساندة الاجتماعية[٢٤٤]. وكانت هناك أيضاً حقيقة أخرى غير قابلة للمناقشة ظاهرياً، وهي أن الإعلانات الجماهيرية لذاك العصر أثبتت أن الإعلام يستطيع إقناع الناس بشراء سلع بكمّيات ونوعيات لم يكن أحد يقدر على تخيّلها في ذلك الوقت، ممّا قوّى القناعة بأن الإعلام الجماهيري يتمتّع بمقدرة استثنائية، وقوّى بالتالي صحّة نظرية الرصاصة السحرية[٢٤٥].

---

(242) Ball-Rokeach & DeFleur, op. cit. p. 181.
(243) M. Wolf, op. cit. p. 22.
(244) Lasswell, " Propaganda Tecnique ", in Melvin DeFleur, op. cit. p. 181.
(245) DeFleur &Ball-Rokeach. cit. p. 181.

- يقول وولف وماكويل إن الرصاصة السحرية نظرية غير علمية، نشأت نتيجة انتشار مناخ رأي عام متخوّف من الإعلام، ولم تنشأ عن معارف متحقّق منها ميدانياً، ولكنّها، مع ذلك، تؤدّي دور مرحلة تأسيسية في الدراسات الطويلة حول الإعلام الجماهيري: أنظر :

- M. Wolf, " Teorie delle Comunicazioni di Massa ", Ed. Bompiani, Milano, 1995.
- D. MacQuail, « Mass Communication Theory. An Introduction , London, 1983, trad. "Le Comunicazioni di Massa ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1986.

وبعد مرور زمن طويل اتجهت فيه أبحاث الإعلام من البسيط إلى المعقّد ومن التوجّه الفلسفي - السياسي إلى التحليل الأمبيريقي المتشعّب، يميل البعض إلى الاعتقاد بأن نظرية الرصاصة السحرية لا وجود لها البتّة، وأن أياً من الباحثين العلميين في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، لم يستخدم ما أطلق عليها فيما بعد نظرية الرصاصة السحرية. أنظر:

- K. Lang & G. Lang, " Mass Communications and Public Opinion ", in M. Rosenberg, Ed. R. Turner, New York, 1981. =

غير أن نظريات الطبيعة الإنسانية لم تبق على حالها، فالسيكولوجيا والسوسيولوجيا اللتان أصبحتا علوماً راسخة كانتا تخرجان، شيئاً فشيئاً، من أشكال التفكير التقليدي، وكانتا قد بدأتا تهتمّان أكثر بالبحث الإمبيريقي. وبالتالي، فإن نظرية الرصاصة السحرية غدت معرّضة، بصورة مباشرة، لعمليات تحقّق ميدانية فيما يتعلّق بصلاحيتها تجاه الواقع القائم.

صيغة لاسويل وتجاوز نظرية الرصاصة السحرية

ظهرت صيغة لاسويل[٢٤٦] خلال الثلاثينيات، أي في فترة العصر الذهبي لنظرية الرصاصة السحرية، كتطبيق لصيغة من أجل التحليل الاجتماسياسي، وهي تبيّن أن الطريقة المناسبة لوصف فعل اتصالي هي الإجابة عن الأسئلة التالية:

- من؟
- يقول ماذا؟

= ورغم ذلك، فإن التفكير المرتبط بالتأثيرات القوية للإعلام كان يشكّل موضوعاً بالغ الأهميّة في المجال الصحفي والأدبي في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن الأبحاث اتّجهت، فيما بعد، نحو المقاربة النقدية؛ ورغم أن دراسات كاتز ولازرسفيلد في العام ١٩٥٥ جعلت من الرصاصة السحرية نظرية رسمية، فإن البحث اتّخذ منحى ميدانياً حول صيرورات التأثير؛ وقد أعطى هذا النوع من الأبحاث صورة أكثر تعقيداً وأقلّ سطرية وتهديداً لتأثيرات وسائل الإعلام، أنظر :

- E. Katz & P. Lazarsfeld, " Personal Influence ", Ed. The Free Press, Glencoe, 1955.

وقد أكّد غوبلز وزير الإعلام إبان الحكم النازي في ألمانيا، في (Völkischer Beobachter, ١٩٣٤) أن فعّالية الدعاية في الإعلام ليست غير مشروطة وأن الأخير يستطيع أن يحقّق تأثير صدمة الكلمة بشكل عميق في حال الالتزام بالشروط التالية : التخطيط المعنى به، التقيّد بعوامل مختلفة: (وحدانية المصدر، فعّالية وسائل الدعاية، مصداقية، المصدر غير المرئي، تزامن دقيق، بساطة في الطرح، درجة مثالية من التكرار إلخ..).

يمكن القول إن الرصاصة السحرية مقولة أكثر ممّا هي نظرية، نجمت عن خشية الناس من الروائز الأولى للإعلام الجماهيري الذي كان في بداية انتشاره، داخل مجتمعات تسير نحو التصنيع بخطى متسارعة، ويعيش فيها الجمهور الإعلامي، حسب النظريات السوسيولوجية التي كانت سائدة، في حالة تفتت وفقدان أية دفاعات أمام سطوة وسائل إعلامية جماهيرية جديدة.

(246) H. D. Lasswell, "Politics :,Who Gets What, When, How ", McGraw – Hill, New York,1936, in The Structure and Function of Communication in Society, 1948, Ed. Lyman Bryson L., The Communication of Ideas, 3, Harper, New York, in Schramm – Roberts Eds. 1972, p. 84.

- عبر أية قناة؟
- لمن؟
- وبأي تأثير؟

وتتركّز الدراسة العلمية للعملية الاتصالية على عنصر أو أكثر من هذه العناصر. فالمختص بالسؤال " من ؟" (المرسل) يجري دراساته حول العوامل التي تولّد وتقود الاتصال، وهي تسمّى التحليل الضبطي (control analysis)، والمختص في" يقول ماذا ؟ " يطبّق تحليل المضمون (content analysis)، أما من يهتم بدراسة " بأية قناة ؟ " فهو يبحث في قنوات الاتصال (الصحف، الراديو، السينما، التلفزة) أي (media analysis)، ومن يريد دراسة الأشخاص الذين يتعرّضون للإعلام : " لمن ؟ " فيبحث في تحليل شرائح الجمهور الإعلامي (audience analysis)، وإذا كانت المسألة متعلّقة بتأثير الإعلام على المتلقّين، فالموضوع يدور حول تحليل التأثيرات (effect analysis).

ويعدّ لاسويل أحد آباء تحليل المضمون، وهو منهج يضرب جذوره في نظرية الرصاصة السحرية بالذات. فالدراسة المنتظمة والدقيقة لمضامين الدعاية كانت تشكّل طريقة لكشف فعّاليتها ولتصعيد دفاعات الجمهور تجاهها، ومساعدة المواطن الذكي على اكتشاف وتحليل تلك الدعاية.

وقد وضع لاسويل بعض المقدّمات القوية فيما يتعلّق بعمليات الاتصال الجماهيري[٢٤٧]:

- فهذه العمليات تتّصف بأنها غير متساوقة وغير متماثلة، مع مرسل نشيط ينتج المثير وجماهير سلبية من المتلقّين أصابها المثير فقامت بردّ فعل
- عملية الاتصال متعمّدة وموجّهة نحو تحقيق هدف، وهو الحصول على تأثير قابل للملاحظة وللقياس لكونه يفضي إلى سلوك مرتبط، بشكل ما، بذلك الهدف. وهذا الأخير له علاقة منتظمة مع مضمون الرسالة الإعلامية. ومن هنا تنشأ نتيجتان : تحليل المضمون يطرح نفسه كأداة للتعرّف على أهداف التلاعب الذي يمارسه المرسل، والتأثيرات الوحيدة الملائمة لهذا النموذج هي تلك القابلة للملاحظة، أي تلك المرتبطة بإحداث تغيير وبتبديل السلوكيات والتوجّهات والآراء إلخ..

(247) Ibid.

- تبدو أدوار المرسل والمتلقّي معزولة، مستقلّة عن العلاقات الاجتماعية والتموضعية والثقافية التي تجري العمليات الاتصالية داخلها، إلاّ أن النموذج بحدّ ذاته لا يلحظ هذه العلاقات، فالتأثيرات ترتبط بمتلقّين متذرّرين ومعزولين[٢٤٨].

واضح أن العلاقات الشخصانية وغير الشكلانية لم تكن تؤخذ في الحسبان وكانت تعدّ غير ذات أهمّية بالنسبة لمؤسّسات المجتمع الحديث.

وإذا كانت النظرية السلوكية ترى أن الفرد الخاضع لمثيرات الدعاية باستطاعته أن يستجيب دون مقاومة، فإن التطوّرات اللاحقة لأبحاث الاتصال تتّفق في إظهار أن تأثير الإعلام الجماهيري يخضع لوساطة المقاومة التي يحرّكها المتلقّون بطرائق شتّى. ومع ذلك فإن صيغة لاسويل نجحت في فرض نفسها كصيغة صالحة للنظريتين المتناقضتين معاً، بل إنها قدّمت نفسها، في نهاية فترة النجاح الكبير لنظرية الرصاصة السحرية، كصيغة صالحة من أجل تجاوز تلك النظرية[٢٤٩].

إن متطلّبات صناعة الاتصال الجماهيري، فيما يرتبط بتطوّراتها التجارية والإعلانية، والدراسات المؤسّسية حول الدعاية وتأثيراتها، كانت تضع في مركز الاهتمام موضوع تفسير السلوك الاستهلاكي للجمهور. فمن جهة، وبالتناغم مع نظرية الرصاصة السحرية، كان يتم اختيار بعض المؤشّرات والمتغيّرات لفهم ردّ فعل الجمهور الاستهلاكي، ومن جهة أخرى، كان يجري تراكم الوضوح الإمبيريقي بأن هذا الاستهلاك كان اصطفائياً، ولم يكن متساوياً بل مختلفاً[٢٥٠].

وهكذا، فإنه من خلال العمل على معرفة مدى صلاحية الفئات الاجتماعية - الديموغرافية الموجودة ضمنياً في نظرية الرصاصة السحرية، لتقديم تفسير ملائم لسلوك الجمهور القابل للملاحظة، بدأ التحرك نحو تجاوز تلك النظرية.

لا شك أن المفهوم الذرّي لجمهور الإعلام الجماهيري، الذي يعدّ جوهر نظرية الإبرة تحت الجلد، أخذ يقترن بعلم آخر في بداية الأبحاث الإعلامية الميدانية، وهو السيكولوجية السلوكية التي كانت تبرز سلوك الفرد بحدّ ذاته، ودور هذا الفرد في السياق الاجتماعي- الاقتصادي (أبحاث السوق، الدعاية، حالة الرأي العام إلخ..)، كناخب ومواطن ومستهلك[٢٥١].

(248) Ibid.
(249) M. Wolf, cit. p. 25.
(250) Ibid.
(251) Ibid. p. 26.

عندما كفّت نظرية الرصاصة السحرية عن أن تضطلّع بوصف التأثيرات المخيفة للإعلام الجماهيري، وتحوّلت إلى صيغة ملموسة للبحث، فإن الافتراضات التي قامت عليها أخذت تعطي نتائج تتناقض تماماً مع أسس تلك النظرية. ذلك أنه اتّضح أن الجمهور صعب المراس، وهو الذي يقرّر فيما إذا كان يريد التعرّض للرسائل الإعلامية أم لا، وحتى عندما يقرّر التعرّض، فإنه لا يتأثّر بالرسالة، أو أنه يتأثّر باتجاه مناقض للاتجاه الذي كان يرغبه المرسل. وهكذا كان على الباحثين، أن يحوّلوا اهتمامهم، شيئاً فشيئاً، نحو الجمهور لمعرفة المتلقّين والسياقات التي يشكّلونها(٢٥٢).

الواقع أن تجاوز نظرية الرصاصة السحرية جرى عبر ثلاثة مسارات متقاطعة ومتشابكة:

المسار الأوّل والمسار الثاني تركّزا حول المقاربات الإمبيريقية ذات الطبيعة السيكولوجية - التجريبية والسوسيولوجية، والمسار الثالث تمثّل في المقاربة الوظيفية لموضوع الإعلام الجماهيري بشموليته، بالتزامن مع بروز النظرية البنيوية - الوظيفية، على مستوى السوسيولوجيا العامّة(٢٥٣). المسار الأول يدرس الظواهر السيكولوجية الفردية التي تشكّل العلاقة الاتصالية، والثاني يبرز عوامل الوساطة بين الفرد والوسيلة الإعلامية، والثالث يصوغ فرضيات حول العلاقة بين الفرد والمجتمع والإعلام الجماهيري.

نظريات التأثير الاصطفائي

تمهيد

أدى بروز حدثين في بدايات القرن العشرين، إلى التخلّي عن فكرة أن التعرّض للإعلام الجماهيري ينتج تأثيرات فورية ومتساوية ومباشرة على الجمهور. الحدث الأول، كما أشير آنفاً، هو بدء الأبحاث الإمبيريقية على نطاق واسع، وظهور نتائج تتعارض مع نظرية الرصاصة السحرية، والحدث الثاني هو أن علماء الاجتماع وعلم النفس توصّلوا إلى نتائج جديدة تماماً حول الخصائص الشخصية والاجتماعية للإنسان.

ومع تراكم الأبحاث الميدانية المعقّدة والنتائج المؤكّدة، اصبح جلياً أن نظرية الرصاصة السحرية لا تجد صدى لها في الواقع. فالمقاربات الجديدة نجمت عن صيغ

(252) Ibid. p. 27.
(253) Ibid.

عامّة تمّ تطويرها انطلاقاً من السيكولوجيا والسوسيولوجيا اللتين انهمكتا في دراسة الطبيعة الإنسانية، الأولى عبر بعد شخصي، والثانية عبر بعد جماعي وتفاعلي.

غير أن هذا التراكم لم يكن منتظماً، لأن الباحثين كانوا ينتمون إلى حقل العلوم الاجتماعية العامّة، وكانوا يعودون إلى مواقعهم الأصلية بمجرّد انتهاء البحث، وهذا ما أدى إلى تطوّر نظري غير متناسق، وحتى فوضويّ، وإلى تكوّم ميكرودراسات خاصّة، ولكنّه أدى، في الوقت نفسه، إلى تراكم كبير للمعرفة في هذا المجال، أصبح يشكّل قطاعاً مستقلاً في مضمار أبحاث الإعلام، أطلق عليه فيما بعد علم الإعلام الجماهيري الذي يتضمّن، بصورة عامّة، إعادة النظر في مفهوم العملية الاتصالية كعلاقة ميكانيكية وفورية بين المثير والاستجابة، وإبراز مدى التعقيد الذي يعتري العناصر الداخلة في لعبة العلاقة بين المرسل والرسالة والمتلقّي(٢٥٤).

من خلال حصيلة عامّة لهذه الأبحاث، نشأت نظريات التأثير الاصطفائي، وهي عبارة عن صياغات متفرّقة، غير أنها مترابطة ومتفاعلة فيما بينها: وهي نظرية الفروق الفردية ونظرية التباين الاجتماعي ونظرية العلاقات الاجتماعية.

(254) M. Wolf. Teorie delle Comunicazioni di Massa. op. cit. p. 28.

- إن المفهوم المستند إلى مفتاح تقليصي لتأثير الإعلام الجماهيري، تأسّس من خلال اكتشاف آليات اصطفائية على الصعيد الفردي من جهة، وعلى تجذّر الصيرورة الاتصالية في السياق الاجتماعي، من جهة أخرى. وقد تطوّرت تأثيرات الإعلام داخل شبكة معقّدة من التفاعلات الاجتماعية. نجمت عنها محدودية التأثير واتّجاهه نحو قدرة الإعلام على تقوية الاتّجاهات أكثر من قدرته على تغييرها، أي أن وسائل الإعلام تسهم، في نهاية المطاف، في الحفاظ على النظام، وأن الامتثالية في وسائل الإعلام ناجمة ليس فقط عمّا تقوله، وإنّما أيضاً وخاصّة عمّا تسكت عنه لتأكيد الحالة القائمة وتجنّب إثارة مشكلات جوهرية حول البنية الاجتماعية. حول هذا المفهوم، أنظر:

- P. Lazarsfeld & R. Merton, " Mass Communication. Popular Taste and Organized Social Action ". New York. 1948. trad. " Mezzi di Comunicazione di Massa. Gusti Popolari e Azione Sociale Organizzata ". Ed. E. Capecchi. 1967.

- لا بد من الإشارة، في هذا المقام، أن تكريس التأثيرات المحدودة للإعلام، أدّى إلى تلاشي أبحاث ما أطلق عليها مدرسة شيكاغو التي أنجزت دراسات إعلامية، في فترة متزامنة مع أبحاث التأثيرات المحدودة، أظهرت فيها بوضوح نوعاً من التأثير غير المحدود، والذي يؤكّد دور كبير للإعلام في صناعة نماذج من الحياة اليومية وفي تعميم ثقافة وطنية.

حول هذا الموضوع، أنظر:

- R. Lynd & H. Lynd, " Middletown. A Study in American Culture ", 1929, trad. " Middletown ", Ed. Comunità, Milano, 1970.

في ذات الفترة الزمنية، نجح ايفان بـافلوف (Ivan Pavlov) فـي الربـط بيـن نمـوذج سلوكي يدخل في الأفعال الطبيعيـة للكلب (سيلان اللعـاب) وبيـن مثيـر غريـب تمامـاً (إشارة صوتية) عن هذه الأفعال. لم يحدث أبداً من قبل أن سال لعاب كلب يعيش في بيئته الطبيعية، بسبب إشارة صوتية، ولكن تجربة بافلوف ربطت بين الحدثيـن فـي نموذج سلوكي ثـابت. وقـد أدت تجربـة الطبيب الروسـي إلـى إعـادة صياغـة التفكير النظري برمّته، فيما يتعلّق بالتعارض بين الوراثية والتعلّمية، ليس فقط للحيـوان وإنّمـا للإنسـان أيضـاً، كمـا وضعـت الأسس لتطويـر صياغـات متعدّدة لنظريـة " الشـرطية التقليدية "(٢٦٣).

في العقود اللاحقة برزت نظريات عديدة حول التعلّم وشملت مفاهيم شرطية تقليدية وأداتية وعملية، كما شملت مفاهيم بديلة كالتعلّم الكتابي والمعرفي والاجتماعي(٢٦٤).

إلى جانب الاعتراف بصحّـة نظريـات التعلّم، أولـى علمـاء النفس أهمّيـة مماثلـة للدوافع، حيث رافقت التجارب المخبرية التي أجريت علـى موضـوع التعلّم، تجـارب أخرى ترتبط بالمثيرات التي تؤدي دور المحرّضات للقيـام بأفعـال معيّنـة. والواقـع أن المفهومين كانـا وثيقـي الارتبـاط، حيث كـان يجـري العمل مـن أجـل الحصـول علـى مؤشّرات تفسّر أسباب اتّباع سلوك معيّن دون آخر، تجاه مثير معيّن. وكـانت النتـائج النهائية تؤكّد أن المتطلّبات البيولوجية يمكنها أن تشكّل دوافع جوهرية بالنسبة للحيـوان وبالنسبة للإنسان. ولكن النتيجة الأكثر أهمية تجلّت فـي أن العديـد مـن الدوافـع التـي ارتكز عليها السلوك، كانت، هي الأخرى، دوافع مكتسبة.

لذلك كلّه، يلاحظ أنه في حين أن الدوافع الوراثية والبيولوجية (الجوع - العطش- الرغبة الجنسية) يمكن أن تكون متشـابهة، نسبيـاً، بيـن شخـص وآخـر، فـإن العوامل المتعلّقة بالدوافع المكتسبة أو المتعلّمة هي نتاج تجارب الفرد الاجتماعية. وبما أن كـل إنسان لديه جملة من التجارب التعلّمية الخاصّة به، خاضها في بيئته الاجتماعيـة، فـإن الدوافع المكتسبة من قبل كل إنسان تنتج فروقاً فردية عميقة جداً(٢٦٥).

وهكذا، فإن الصيغة التقليدية التي كانت تعيد السلوك إلى عوامل بيولوجية، أي إلـى الغريزة، والتـي عرفت انتشـاراً فـي نظريـات التحليل النفسـي، والمفـاهيم الفرويديـة، أخذت بـالتراجع أمـام براهيـن دامغـة تدحـض فكـرة تقاسم الأفـراد المتسـاوي لأنظمـة

(263) Ibid. 192.

(٢٦٤) لمزيد من التفاصيل حول النظريات المرتبطة بهذا الفرع من السيكولوجيا، اقرأ:

- J. W. Donahoe & M. G. Wessells, "Learning, Language, and Memory ", Ed. Harper & Row, New York,1980.

(265) Ball-Rokeach & DeFleur, cit. p. 193.

دوافعية معقّدة وشاملة ذات طبيعـة وراثيـة، وتؤكّـد تنوّعيـة الجنس البشـري وتعتـرف بأهمّية التكيّف الاجتماعي والتكيّف الثقافي والتعلّم كعوامـل مشـكّلة للشخصيـة، وغيـر قابلة للتعايش البتّة مع فكرة الغريزة.

ومنذ اللحظة التي ثبت فيها أن ثمّة فروقـاً فرديـة ناجمـة عـن خصـائص مكتسبة للشخصيّة، بين أفراد الجمهور، من الطبيعي القول إن التأثيرات هـي الأخـرى مختلفـة باختلاف تلـك الفـروق الفرديـة(٢٦٦)، وإن دخـول هـذه المتغيّرات بيـن طرفـي العمليـة الاتصالية يكسر فوريـة وتسـاوي التـأثيرات، ويـبرز أيضـاً اتّسـاع الـدور الـذي يؤدّيـه المتلقي(٢٦٧)، ويبيّن أن طبيعة ودرجة تعرّض الجمهـور للمـواد الإعلاميـة ترجـع، فـي جزء كبير منها، إلى خصائص سيكولوجية لأفراد هذا الجمهور(٢٦٨).

أمام هذا الانحسار الكامل للعامل الغريـزي، عمـدت السـيكولوجية الاجتماعيـة إلـى إيجاد مفهوم بديل ذي طبيعة دوافعية تستند إليه جملة من السلوكيات الإنسـانية الناجمـة عن التعلّم، وهو مفهوم الاتّجاه الذي يبرز الفروق الفردية المكتسبة عن طريق التعلّم.

وغدا الاتّجاه، الذي اعتبر نوعاً من الاستعداد المكتسب، حجر الزاويـة فـي إعطـاء شكل للسلوك(٢٦٩)، كما أصبح المفهوم النظري المركزي والأساسي لجوانب عديـدة مـن السيكولوجيا، ومرجعيـة أساسـية للسـيكولوجيا الاجتماعيـة التـي ابتكـرت جملـة مـن التقانيات الرياضية المعقّدة لقياس الاتّجاهات.

ثمة ثلاثة أسباب جعلت مفهـوم الاتّجـاه يلاقـي نجاحـاً سـاحقاً، أولّهـا توافـر نمـاذج رياضية متنوّعة وسهلة الاسـتعمال نسبيـاً لقيـاس الاتّجاهـات، وثانيهـا أن هـذه النمـاذج كانت مثالية لإنجاز أبحـاث ميدانيـة بواسطة الإستمارات التـي تمليهـا العيّنـة مباشـرة، وثالثها أن الاستمارات كـانت تقدّم معطيـات رقميـة صالحـة للتحليل الإحصـائي، وأن مفهوم الاتّجاه كان سهل الاستخدام في التجارب المرتبطة بـ قبل/ بعد، لمعرفة فيمـا إذا طرأت تغيّرات معيّنة على سلوك أفراد العيّنة(٢٧٠).

وقد أدّى اعتناق مفهوم الاتّجاه من قبل الباحثين إلى اقتناعهم بـأن نشـر أيـة رسـالة إعلامية إقناعية من شأنها أن تبدّل اتّجاهات الناس، انطلاقاً من المفهـوم السـيكوديناميـ بأن العوامل المعرفية تحدث تغيّرات في السلوك، وبأن الاتّجاهات والسلوك مرتبطيـن

(266) Ibid.

(267) M. Wolf, op. cit. p. 29.

(268) H. Hyman & P. Sheaysley, " Some reasons Why Information Campaigns Fail ", Public Opinion Quarterly, vol. 11, in Schramm- Roberts Eds, 1972, pp. 448-466

(269) F. R. Westie & M. DeFleur, "Attitudes as a Scientific Concept ", in Social Forces, 42, 1963, in Ball-Rokeach & DeFleur, cit. p. 194.

(270) Ball-Rokeach &DeFleur, cit. p. 195.

بشكل مباشر وبسيط. غير أنه اتّضح، فيما بعد، أن تلك المفاهيم التي سادت في الفترة ما بين الثلاثينيات والستينيات لا أساس لها، وأن الاتّجاهات والسلوك قلّما يحقّقون انسجاماً، وهناك العديد من الدراسات التي تؤكّد عدم وجود ارتباط مباشر بين الاثنين. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا المفهوم يمثّل إطاراً غير مكتمل في العلاقة بين الأفراد والإعلام الجماهيري.

وأكّدت أبحاث سيكولوجية لاحقة بوضوح، أنه، على صعيد البنيات المعرفية يوجد حقل واسع جداً من الفروق الفردية، وأن الرسائل الإعلامية، لكي تكون مؤثّرة وتحقّق الهدف، يجب أن تصنع على قياس المصالح الخصوصية والحاجات والقيم والقناعات لمجموعات محدّدة، وأنه لا يمكن صنع رسالة إعلامية وحيدة لجميع الفئات والجماعات القائمة في المجتمع، بل يجب صياغة مضمون إعلامي يشدّ انتباه مقطع محدّد وخاص من الجمهور.

كل ذلك، أدى إلى ظهور وانتشار مفهوم تقطيع السوق كمبدأ مفيد لتطوير استراتيجيات من أجل بيع الجمهور الإعلامي منتجات أو رجال سياسة أو سلوكيات مفيدة اجتماعياً. وقد أدّت هذه المقاربة، التي طوّرت الأبحاث المتعلّقة بسيكوديناميّة الإقناعية من أجل الإعلان والحملات العامّة وحملات الترويج، إلى تحويل المنهج التجريبي ونماذج قياس الظواهر، من السيكولوجيا إلى أبحاث السوق.

والواقع أن أبحاث تقطيع أو تجزئة السوق تأسّس على التقدّم الهائل الذي شهدته النظريات النفسية حول مفهومي التعلّم والدوافعية، وجرى تعميمه على أوسع نطاق، فيما بعد، لدراسة العلاقة بين البنية النفسية الفردية وتغيّرات السلوك المرغوبة من قبل المرسل[٢٧١].

نظرية التباين الاجتماعي

لم تعد الأبحاث التي أدّت إلى نشوء هذه النظرية تهتم بالبنية السيكولوجية للفرد، وإنّما بالبنية الاجتماعية لجماعات ومجموعات واسعة في المجتمع المديني – الصناعي الذي أخذت أبعاده تتّضح تماماً.

لذلك، كان لا بد أن يعاد النظر بالنظريات الاجتماعية التي انتشرت في القرن الثامن عشر، والتي اعتبرت أن المجتمعات الصناعية الحديثة قد حولّت الأفراد إلى كائنات متماثلة، مجهولة وخالية من الروابط الاجتماعية، لأنه أصبح جليّاً، من خلال

(271) Ibid.

الأبحاث الإمبيريقية العديدة، أن أعضاء المجتمعات المعاصرة ليسوا متساوين وأنه يمكن تصنيفهم داخل فئات اجتماعية محدّدة[٢٧٢]، على أساس التمايز الطبقي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والبيئي والمعتقدي والعرقي والديني إلخ.. واتّضح، أيضاً من خلال دراسات ميدانية، أن أعضاء كل فئة أو مجموعة تتميّز بصفات متشابهة تمارس تأثيراتها على سلوكياتهم.

وهكذا، فإن التأكيدات التي وردت في مؤلّفات كونت وسبينسر وتونيس ودوركهايم حول انهيار المجتمعات الزراعية التي كانت تجمع الناس بروابط قويّة ترتكز على عناصر أساسية كالروابط العائلية والصداقات المستقرّة واحترام التقاليد والإقامة الثابتة في مسقط الرأس إلخ.. وحول ترسّخ العلاقات غير الشخصانية في المجتمعات الصناعية المدينية، قد تم دحضها لاحقاً، إذ تبيّن أن ثمة علاقات من نوع آخر حلّت مكان القديمة وأعادت المجتمع إلى تماسكه على أسس جديدة، وهي نتاج لتبدّلات حدثت، بصورة متوازية، مع عمليات التصنيع المكثّفة.

ولعلّ أهم أشكال هذه التبدّلات التي شهدتها المجتمعات الصناعية والتي أدّت إلى ازدياد تعقيدها، هي التحوّل إلى المدينية والتحديث والهجرة وتفاقم تقسيم العمل والتراكمية التي أوجدت أنظمة تراكم مديني- صناعي أكثر انفتاحاً وتعقيداً من التراتبية الريفية، والحركية الاجتماعية التي طوّرت بنيات اجتماعية شديدة التباين. غير أن ذلك كلّه لم يؤد إلى تفتّت المجتمع وانعزالية الأفراد، بل شكّل قاعدة لنشوء أنواع أخرى من الروابط غير الشكلية[٢٧٣].

وقد أثبتت دراسات سوسيولوجية عديدة، استخدمت فيها منهجية العيّنات والتحليل الكمّي والنوعي، أن التباين الاجتماعي كان ينتج نماذج سلوكية مختلفة[٢٧٤].

وبتطبيق منهج البحث السوسيولوجي القائم على " الملاحظة المشاركة " أي منهج البحث عبر التواجد في الموقع أثناء وجود أنشطة عادية للمجموعات والجماعات في الأحياء والمناطق السكنية المختلفة، في أمكنة العمل الريفية والمدينية، في المستشفيات والثكنات والسجون والعيادات إلخ.. تبيّن أنه، داخل كل فئة اجتماعية، يتقاسم الأفراد طريقة حياة متميّزة خاصّة بهم، وهي عبارة عن ميكروثقافة أو ثقافة تحتية منفصلة عن ثقافة المجتمع[٢٧٥]، وإن كانت تشكّل جزءاً منها، ويمكن العثور على هذه الثقافات الفرعية التي تختلف عن الثقافة العامة أو الثقافة المتوسّطة السائدة في المجتمع الكلّي، في كل زاوية من زوايا المجتمع، وفي كل تجمّع سكني حتى داخل المدينة الواحدة.

(272) Ibid. p. 198.
(273) Ibid.
(274) Ibid. p. 203.
(275) Ibid. p. 204.

وقد أدّى اكتشاف هذه الميكروثقافات في المجتمعات المعاصرة إلى أن يأخذ باحثو تأثيرات الإعلام الجماهيري في الحسبان عامل التباين الاجتماعي.

وبذلك أصبحت النظرية الإعلامية المتّصلة بالبحث السوسيولوجي في الموقع، تكمن في ربط عمليات الاتصال الجماهيري بخصائص السياق الاجتماعي الذي تتحقّق تلك العمليات داخله[٢٧٦]. وهناك مساران في هذه النظرية القائمة على البحث السوسيولوجي الإمبيريقي : أحدهما يتعلّق بدراسة التركيبة المتباينة لمختلف فئات الجمهور الإعلامي ولمختلف نماذج استهلاك المنتجات الإعلامية، والثاني يتضمّن الأبحاث حول الوساطة الاجتماعية التي تميّز هذا الاستهلاك[٢٧٧].

إذن، من الممكن تحليل فعّالية الإعلام الجماهيري فقط داخل السياق الاجتماعي الذي يعمل هذا الإعلام فيه، لأن التأثيرات التي يمارسها الإعلام ترتبط بالقوى الاجتماعية التي تسود في مرحلة معيّنة[٢٧٨]. بهذا الشكل، انتقل موضوع التأثيرات من مفهوم الاقتران السببي المباشر بين المضامين الإعلامية وبين الجمهور، إلى مفهوم التأثير الوساطي حيث تتداخل الديناميات الاجتماعية مع العمليات الاتصالية[٢٧٩].

الواقع أن الدلالة الأساسية لهذه النظرية، المبنية على دراسات ميدانية عديدة، تكمن في التجذّر الكامل والشامل لأنشطة الاتصال الجماهيري داخل أطر اجتماعية شديدة التعقيد، حيث متغيّرات اقتصادية وسوسيولوجية وسيكولوجية تتفاعل فيما بينها بلا توقّف[٢٨٠].

• نظرية الاستخدامات والإشباعات

تنقل هذه النظرية حقل الدراسات من المفهوم السلبي للجمهور الإعلامي إلى المفهوم الإيجابي القائم على إدراك أن أعضاء هذا الجمهور هم أناس فاعلون يصطفون من الإعلام المضامين والرسائل التي يفضّلونها.

كانت نظرية الرصاصة السحرية ترى في الجمهور كتلة خاملة تنتظر بسلبية أن تتلقّى المعلومات التي يعممها الإعلام من أجل أن تستوعبها وتتذكّرها وتتبنّى مضامينها متّبعة سلوكاً متشابهاً بالنسبة للجميع. وقد اتّضح، فيما بعد، أن ثمة أدواراً قوية جداً للمتغيّرات المعرفية وللثقافات التحتية في عملية التأثير.

(276) M. Wolf, cit. p. 43.
(277) Ibid.
(278) P. Lazarsfeld, "Radio and the Printed Page ", Duell, Ed. Sloan & Pearce, New York, 1940, in F. Balle & Jean Padioleau, Sociologie de l'Information, ed. Larousse Université, Paris, 1973, p. 234.
(279) DeFleur & Ball-Rokeach, Ibid., p. 46.
(280) Ball-Rokeach & DeFleur, Ibid. p. 52.

في هذه النظرية بالذات، لم يعد السؤال المطروح : ماذا يفعل الإعلام بالجمهور؟ بل ماذا يفعل الجمهور بالإعلام؟ ولماذا يستخدم الناس المنتجات الإعلامية وما هي الإشباعات التي يحقّقونها ؟ وتنطوي هذه الأسئلة على انتقال موضوع التأثير من مضمون المادة الإعلامية فحسب، إلى السياق الاتصالي برمّته. فمنبع الإشباعات التي يحصل عليها المتلقّي من الإعلام الجماهيري، قد يتعلّق بالمضمون الخاص للرسالة أو بالتعرّض للوسيلة الإعلامية بحدّ ذاته، أو بالوضعية الاتصالية الخاصة المرتبطة بوسيلة إعلامية ما[٢٨١].

إن السلوك الاصطفائي للمتلقّي، الذي كان يعتقد في البداية، أنه ناجم عن تشويش معيّن أو عن عدم فاعلية الإعلام الجماهيري، هو في الحقيقة عامل من العوامل التي تقع بين المثير والاستجابة وتحدّد طبيعة التأثير[٢٨٢]. هذا يعني أن النشاط الاصطفائي والتفسيري للمتلقّي - المؤسّس سوسيولوجياً على بنية حاجات الفرد - قد دخل ليشكّل جزءاً مستقرّاً من العملية الاتصالية وعنصراً مؤثّراً لا يمكن إلغاؤه[٢٨٣].

بالاستناد إلى جملة من الأدبيات الإعلامية المتعلّقة بالوظائف السيكولوجية والاجتماعية للإعلام الجماهيري، صنّف بعض الباحثين الإعلاميين[٢٨٤] خمس طبقات من الحاجات يمكن للإعلام أن يشبعها وهي :

- حاجات معرفية (اكتساب وتقوية معارف وفهمها).
- حاجات مشاعرية - مظهرية (تقوية التجربة المظهرية والانفعالية).
- حاجات تكميلية على مستوى الشخصيّة (اطمئنان، استقرار عاطفي، نمو المصداقية والوضع الاجتماعي).
- حاجات تكميلية على الصعيد الاجتماعي (تقوية العلاقات الشخصية، ومع العائلة ومع الأصدقاء ومع الزملاء إلخ..).
- حاجات ترويحية (تراخي التوتّرات والتخفيف من الصراعات).

يمكن اعتبار كل طبقة من هذه الحاجات متغيّراً مستقلاً لدراسة تأثيرات الإعلام الجماهيري.

(281) P. Lazarsfeld & B. Berelson & H. Gaudet, " The People's Choice ", Columbia University Press, New York, 2° ed. 1948, in Sociologie de l'Information, op. cit. p. 231.
(282) M. Wolf, cit. p. 75.
(283) W. Schulz, in M. Wolf, cit. p. 75.
(284) M Wolf, cit. p. 75.

غير أن هذه النظرية تعرّضت لانتقادات منها أن مفهوم الاستخدامات والإشباعات لا يشكّل نظرية مستقلّة، وإنّما هو إعادة صياغة مختصرة لبعض أوجه نظريات التأثير الاصطفائي[٢٨٥]. ويعتقد بعض منتقدي النظرية أن فرضيتها الأساسية (أي أن الحاجات الفردية لأعضاء الجمهور والإشباعات التي يحصلون عليها تؤثر في نماذج انتباههم لمضامين الإعلام الجماهيري وفي طرائق استخدامهم للمعلومات التي يتلقّونها) هي في جوهرها صياغة مبسّطة لنظرية الفروق الفردية المرتكزة على عامل البنية المعرفية[٢٨٦]. ويؤخذ على نظرية الاستخدامات والإشباعات، من ناحية أخرى، أنها حتى اليوم لم تنتج سوى قوائم طويلة من الحاجات والإشباعات التي تستمدّها من الاستمارات، وأنها عجزت عن إعطاء تفسير منتظم يذهب أبعد من ذلك[٢٨٧].

نظرية العلاقات الاجتماعية

إثر التأكّد، من خلال أبحاث ميدانية، بأن الأفراد في المجتمعات المعاصرة لا يعيشون حالة عزلة وتقوقع، ولا يخضعون لتأثير الرسائل الإعلامية وهم مجرّدون من أية روابط اجتماعية، وأن الوشائج التي تربطهم بعائلاتهم وأصدقائهم وزملائهم في العمل وغيرهم، تمارس تأثيرات حاسمة على سلوكياتهم المتعلّقة بآليات تأثير الإعلام الجماهيري، ظهرت نظرية أخرى في مجال نظريات التأثير الاصطفائي، وهي نظرية العلاقات الاجتماعية.

لقد اكتشف العديد من الباحثين، بطريق الصدفة، وبصورة مستقلّة، وخلال فترة زمنية واحدة تقريباً، دور علاقات المجموعات الاجتماعية في عملية التعرّض للإعلام الجماهيري، ولكن يمكن تمييز بحث أجراه لازرسفيلد وبيريلسون وغوديت[٢٨٨] حول تأثير الحملات الإعلامية في انتخابات الرئاسة الأمريكية عامي ١٩٤٠ و١٩٤٤، تمّ على أثره اكتشاف أهمّية روابط المجموعات كجملة من المتغيّرات التي دخلت بين المواد الإعلامية وبين التأثيرات التي تحدثها في الجمهور.

واتّضح، عبر هذه الدراسة الميدانية الممتدة في الزمن أن الانتماء إلى فئات اجتماعية كان يحدّد درجة اهتمام أعضاء المجموعة بالمنتجات الإعلامية وخيارات

(285) Katz – Gurevitch – Haas, " On the Use of Mass Media for Important Things ", American Sociological Review, n° 38, in M. Wolf, cit. p. 64.
(286) Ball-Rokeach & DeFleur, cit. p. 207.
(287) Ibid.

(٢٨٨) لمزيد من التفاصيل حول هذه النظرية، اقرأ :
- J. Werner Severin & W. James Tankard jr., " Communication Theories ", Ed. Longman, New York, 1988, pp. 300-310.

التصويت. كما اتّضح أن الفعل المتضافر لكل هذه المتغيّرات كان يمارس تأثيره، ليس فقط على درجة ونوعية تعرّض الأفراد للمواد الإعلامية، وإنّما أيضاً على نوعيات التأثير التي كانت تمارسها مضامين الإعلام.

وأصبح جليّاً، عقب انتهاء الدراسة، أن العلاقات الاجتماعية غير الشكلية قد رمت بثقلها في تغيير طريقة اصطفاء الأفراد لمضامين الإعلام والطريقة التي كانت هذه المضامين تمارس تأثيرها عليهم. فأفراد العائلة والأصدقاء وأشخاص آخرون كانوا يحملون الأفكار الواردة في الإعلام ويعملون على إبراز أهمّيتها في أوساط آخرين لم يحتكّوا شخصياً بتلك المواد الإعلامية. وهكذا نشأ تدفّق غير مباشر ولكن مهم، من الأفكار والتأثيرات التي كانت تمر من الإعلام إلى أولئك الذين تعرّضوا لموادّه مباشرة، ومنهم إلى أشخاص آخرين لم يقرؤوا ولم يسمعوا بالرسائل التي كان الإعلام يعمّمها.

وأثبتت دراسات أخرى لاحقة قام بها هؤلاء العلماء، أن ثمّة تمريراً للمعلومات عبر مرحلتين قاعديتين : في المرحلة الأولى يجري التمرير من الإعلام إلى أفراد يمتلكون معلومات وافية و يتابعون بانتظام وسائل الإعلام ، وفي المرحلة الثانية يجري تمرير المعلومات التي حصل عليها هؤلاء الأفراد المطّلعين من الإعلام مباشرة، إلى آخرين أقل تعرّضاً بشكل مباشر للرسائل الإعلامية وأكثر اعتماداً على الغير في استقاء معلومات تأتي عبر القنوات الإعلامية.

لقد أتاحت هذه الأبحاث دحض النظريات التي كانت تصف المجتمعات الجماهيرية بصورة عشوائية، حيث يخضع الأفراد المعزولون لتدفّق الرسائل الإعلامية، وحيث يستطيع الإعلام الجماهيري، إثر زوال المجموعات الأوّلية والمجموعات الثانوية في المجتمع الجماهيري المفتّت، أن يقنع أي أحد بأي شيء، شريطة أن يستخدم تقانيات الإقناع بشكل فعّال[٢٨٩].

وتمكّنت هذه الدراسات السوسيولوجية النوعية أن تبرز أهمّية العلاقات الشخصية في تشكيل آراء الأفراد، وبرهنت على أن القيم المعاشة والمختزنة داخل المجموعات الأوّلية كالعائلة ومختلف مجموعات الانتماء المهني والنقابي والسياسي والديني، بعيداً عن أن يكون المجتمع الحديث قد قضى عليها، ليست أبداً مستبعدة في عمليات تشكيل الآراء من قبل رسائل تنشرها وتبثّها، مجتمعة، وسائل الإعلام الجماهيري[٢٩٠].

(289) Lazarsfeld & Berelson & Gaudet, in Sociologie de l'Information, op. cit. p. 235.
(290) E. Katz, Interpersonal Relations and Mass Communication : Studies in the Flow of Influence, Columbia University, 1956, in Sociologie de l'Information, cit. p. 285.

داخل تلك المجموعات الأوّلية والثانوية، هناك أشخاص أكثر تعرّضاً من غيرهم للإعلام الجماهيري، وهم يخضعون مباشرة لتأثيراته. هؤلاء الأشخاص الذين يتمتّعون بهذا الامتياز المعلوماتي، وهم أيضاً أولئك الذين يعدّون أكثر مشاركة في الحياة العامّة والاجتماعية، ينشرون داخل مجموعاتهم الموضوعات التي تأثّروا بها. وقد أطلق على هذه الفئة من الناس " قادة الرأي " (Opinion Leaders)، وهم، في ذات الوقت، الأكثر تعرّضاً للإعلام والأكثر تمتّعاً بسلطة كبيرة في مختلف أوساطهم الاجتماعية[٢٩١].

وهكذا فإن نشر الرسائل لإعلامية يتم بشكل غير مباشر، ومن المحتمل أن بعض تأثيرات المواد الإعلامية تلامس أوّلاً قادة الرأي الذين ينقلونها، بدورهم، إلى مجموعات ينتمون إليها ويؤثّرون في أعضائها. ومن الطبيعي أنه لايمكن التعايش بين صورة جمهور ينظر إليه كأفراد متفرّقين ملتصقين بالإعلام الجماهيري ولكنّهم معزولون، وبين مفهوم يقوم على عملية اتّصالية ذات مرحلتين، تتحقّق عبر شبكة من الأفراد المرتبطين بعضهم بالبعض الآخر والذين يشكّلون قنوات للاتّصال الجماهيري[٢٩٢].

وقد ظهر أيضاً أن قادة الرأي لا يكتفون بنقل المعلومات التي يتلقّونها من وسائل الإعلام، وإنّما يقدّمون تأويلات وتفسيرات لها، ما يجعلهم يسهمون في تشكيل رأي أولئك الذين يستقون معلوماتهم منهم. وقد تمّ الاعتراف بهذه الصيغة من التأثير الشخصي كعملية أساسية تتدخّل في المسار القائم بين الرسالة الإعلامية والاستجابات لمضمونها[٢٩٣].

لقد أدّى اكتشاف التدفّق الإعلامي على مرحلتين (two-step flow of communication) إلى تجميع أدبيات غنيّة حول طبيعة قادة الرأي وعمليات التأثير الشخصي، تبيّن أن العلاقات الاجتماعية غير الشكلية تشكّل عوامل غاية في الأهميّة، تدخل بين الرسالة الإعلامية والمتلقّي وتحدّد ليس فقط الطريقة التي يصطفي فيها الأشخاص مضامين الإعلام، بل أيضاً طرائق تفسيرهم لهذه المضامين وأساليب ردود أفعالهم عليها.

وهكذا، فإن نظرية العلاقات الاجتماعية أغنت، أكثر فأكثر، المعارف حول الديناميات والعوامل القاعدية التي تحكم العمليات الاصطفائية التي تمارسها مختلف فئات الجمهور الإعلامي في ردود أفعالها على الرسائل الإعلامية.

(291) Ibid.
(292) E. Katz & P. Lazarsfeld, Personal Influence, 1955, trad. 1968, cit., p. 286.
(293) Ibid.

وبشكل عام، فقد تبيّن أن قادة الرأي الذين يتمتّعون بنفوذ كبير في مجموعاتهم الانتمائية، يتشابهون كثيراً مع أولئك الذين يمارسون تأثيراتهم عليهم، ويعملون على التقيّد بصرامة بالقواعد التي تحكم مجموعة الانتماء، ويعتبرهم الآخرون مطّلعين تماماً على معلومات مرتبطة بقطاع معيّن دون غيره. ولذلك، فإن قيادة الرأي لا تمارس بالضرورة من قبل أشخاص متموضعين في مواقع أعلى في السلّم التراتبي، تجاه من هم أدنى منهم درجة أو أكثر، إذ يبدو أن التأثيرات تمارس بين أشخاص يعيشون حالة اجتماعية متشابهة، حتى وإن كان هذا الأمر ليس دقيقاً في جميع الحالات[٢٩٤].

وفي البحث الحاسم الذي أجراه كاتز ولازرسفيلد[٢٩٥] حول هذا الموضوع، اكتشفا أن " الوضعية في دورة الحياة " تمثّل متغيّراً حرجاً من شأنه أن يحدّد مَن يؤثّر في مَن وحول أي موضوع. فمثلاً، الشباب الذين كانوا يعملون والذين كانوا أكثر احتكاكاً، من خلال الإعلام، بعالم الأزياء والأدوات التجميلية كانوا يعدّون قادة رأي من قبل ربّات البيوت المتفرّغات اللواتي كن أقل معرفة بهذه الأمور. من جهة أخرى، كان يتم اللجوء إلى نساء متزوّجات لديهن العديد من الأطفال لطلب نصائح حول منتجات ضرورية للبيت وحول عمليات الشراء والعروض المناسبة في السوبرماركيت وهكذا. يمكن القول، إذن، إن فئات اجتماعية كالفئات العمرية والحالة الاجتماعية وحجم الأسرة وشروط العمل تؤهّل بعض الأفراد لأن يتابعوا الإعلام بصورة اصطفائية، تجعلهم يصبحون، بهذا الشكل، غزيري المعلومات حول موضوعات خاصّة. وكنتيجة لذلك، كان هؤلاء يبدون، بالنسبة لمَن لم يكن يتعرّض بذات القدر للإعلام، مصادر موثوقة يمكن اللجوء إليها لطلب النصيحة حول تلك الموضوعات بالتحديد.

وبصورة عامة، تبيّن أن نوع العلاقات الاجتماعية لشخص ما تجسّد عاملاً مهمّاً، يؤثّر في كيفية وصول معلومات إعلامية لشخص آخر وفي كيفية استخدام هذا الآخر لتلك المعلومات لاحقاً. فالبعض يتعرّض بشكل مباشر للإعلام وينتقي المعلومات بصورة تنسجم مع ملامحه السيكولوجية، والبعض الآخر يتابع الإعلام ويتأثّر بطرائق الأفراد الآخرين الذين ينتمون لفئته الاجتماعية. والبعض الثالث يتلقّى معلومات خضعت لفلترة عبر تفسيرات أفراد آخرين، ولذلك فهذا البعض يتأثّر من قبل قادة الرأي بقدر ما يمكن أن يتأثّر بالمعلومات نفسها لو تلقّاها من الإعلام بصورة مباشرة.

(294) DeFleur & Ball-Rokeach, cit. p. 213.
(295) Katz & Lazarsfeld, Personal Influence, 1955, trad. 1968,cit., p. 286.

أما فيما يتعلّق بمواصفات قائد الرأي، فإن القائد المحلّي يمارس تأثيراته على المجموعة في موضوعات متعدّدة، فهو، كما يقول ميرتون[٢٩٦]، متعدّد الأشكال (Polymorphic). وهناك اتّجاه عكسي يميّز قائد الرأي غير المحلّي (Monomorphic) الذي يتّصف بأنه نوعي وانتقائي في شبكة علاقاته الشخصية، وأنه عاش معظم حياته خارج الجماعة التي ينتمي إليها والتي عاد إليها كغريب، إلاّ أنه يتمتّع بكفاءات خاصّة وبالتالي بسلطة فيما يتعلّق بموضوعات معيّنة، وهو يستهلك عادة أنواعاً راقية من المنتجات الإعلامية ويوظّفها بطريقة تختلف عن طريقة القائد المحلّي الذي يبني جزءاً كبيراً من سلطته على كونه شخصاً معروفاً من جميع أفراد الجماعة.

إن التحليل المعقّد الذي قام به ميرتون[٢٩٧] يرمي إلى إبراز كيف أن الاتّجاه الأساسي لعمليات التأثير الشخصي متجذّرة في البنية الاجتماعية، ولذلك، ومن أجل دراسة وزن ووظيفة الإعلام الجماهيري داخل بنية التأثير الشخصي، يجب أن تقترن التحاليل، ضمن نطاق المواصفات الشخصية للمتلقّين، بالتحاليل المرتبطة بأدوارهم الاجتماعية وبمدى انخراطهم وتغلغلهم في شبكات العلاقات الشخصية.

ويعتقد ميرتون أن عملية التأثير الشخصي تتحرك أيضاً في اتّجاه أفقي، فقلّة من الناس موجودة في قمّة البنية التأثيرية يمكنهم أن يتمتّعوا بكمّية كبيرة من التأثير الشخصي، غير أن الحجم الكلّي للتأثير الممارس من قبل هذه المجموعة المحدودة العدد يمكن أن يكون أقل من حجم التأثير الذي تمارسه أعداد كبيرة من الأشخاص تتموضع في الدرجات السفلى لبنية التأثير[٢٩٨].

من ناحية أخرى، لا بد من التنويه بأن سلسلة التأثيرات هي، في حقيقتها، أطول بكثير وأكثر تفصلاً مما تعرضه فرضية التأثير على مرحلتين، هذا بالإضافة إلى أن تبدّل الموضوعات المطروحة داخل مجموعات الانتماء يؤدّي إلى أن يتبادل المؤثّرون والمتأثّرون أدوارهم، أي أن من يضطلع بدور قائد رأي في مجموعة الانتماء فيما يخص موضوعاً معيّناً قد يترك مكانه لغيره أثناء مناقشة موضوع آخر[٢٩٩].

على أية حال، فإن الأبحاث التي أجراها آخرون في مراحل انتشار التلفزة، قلبت العديد من المفاهيم المتعلّقة بموضوع المرحلتين، ذلك أن التلفزة التي احتلّت موقعاً

(296) R. Merton, " Patterns of Influence. A Study of Interpersonal Influence and of Communications Behavior in a Local Community ", in Lazarsfeld P.- Stanton eds., Arno Press, New York, 1948-1949, in M. Wolf, cit. p. 52
(297) Ibid. p. 53.
(298) Ibid.
(299) E. Katz, " The Two-Step Flow of Communication : An up-To-Date Report on an Hypothesis ", Public Opinion Quarterly, vol. 21, n° 1, in M. Wolf, cit. p. 53.

مركزياً في العقود الأخيرة بدّلت بشكل عميق آليات التأثير وكيفية استخدام الوقت الحرّ. ويقول بوكيلمان[٣٠٠] إن مرحلة هيمنة التلفزة أعفت قادة الرأي، بشكل كلّي تقريباً، من وظائفهم المرتبطة بفلترة المعلومات الصادرة عن الشاشة الصغيرة، بسبب ما تبثّه هذه الأخيرة من موضوعات ومعلومات وآراء يتابعها المتلقّي في أوقات فراغه، وأن معظم الرسائل التلفزية يتم تلقّيها بصورة مباشرة، دون المرور، بمستوى الاتصال الشخصي، ولهذا، فإن دور الاتصال الشخصي ينصبّ على الحوارات الشخصية التي تتم في المجموعة حول مضامين الإعلام الجماهيري أي (opinion-sharing) أكثر مما يستخدم كأداة لتمرير تأثير الإعلام على المتلقّين (opinion-giving). من المحتمل إذن، أنه، مع بقاء صلاحية النتائج العامّة لنظريات التأثير المحدود، فإن فعّالية الإعلام الجماهيري تدرس ضمن سياق علاقات اجتماعية يعمل الإعلام في قلبها.

في النهاية، يمكن القول أن نموذج التأثير الشخصي يشدّد، من جهة، على لاسطرية الآليات التي تتحدّد من خلالها تأثيرات الإعلام، وعلى الاصطفائية المضمرة للدينامية الاتصالية، من جهة أخرى. وفي هذه الحالة، فإن الاصطفائية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ليس مع الآليات السيكولوجية للفرد فحسب، بل مع شبكة العلاقات الاجتماعية التي تشكّل البيئة التي يعيش فيها، والتي تعطي شكلاً للمجموعات التي ينتمي إليها.

الآليات الانتقائية في النظريات الاصطفائية

في نظرية الرصاصة السحرية لم يكن هناك بين المثير والاستجابة أي عنصر مؤثّر، وقد تمّ تجاوز هذه النظرية، كما رأينا، لعدم انسجامها مع وقائع الأبحاث الميدانية التي أثبتت، بشكل عملي، أن كل العوامل السيكولوجية والسوسيولوجية التي تميّز الأفراد والجماعات، تشكّل متغيّرات لا غنى عنها في أي بحث إعلامي لمعرفة طرائق وديناميات التأثير بشكل علمي ودقيق.

وقد أبرزت النظريات الاصطفائية الثلاث أن هذه المتغيّرات تميّز فئات الجمهور الإعلامي المختلفة، سواء من حيث الفروق الفردية أم من حيث التباين الاجتماعي أم من حيث العلاقات الاجتماعية.

(300) F. Böckelmann, "Theorie der Massenkommunikation. Das System Hergestellter öffentlichkeit,Wirkunsforschung und Gesellschftliche Kommunikationserhä ltnisse", Suhrkamp, Frankfurt,in Teoria della Comunicazione di Massa, Ed. Eri, Torino, 1980, p. 123.

ومن أجل استكمال ملامح تلك المتغيّرات، لا بد من التطرّق إلى مبادئ قاعدية تحكم أفعال وردود أفعال الفئات المختلفة من الجمهور الإعلامي، التي تتأثّر بالمضامين الإعلامية تبعاً لسلوكيات اصطفائية أهمها : الانتباه والاستيعاب والتذكّر والفعل أو رد الفعل.

• مبدأ الانتباه الاصطفائي

إن اختلاف البنية المعرفية للفرد يؤدّي إلى نشوء نماذج مختلفة من الانتباه لمضامين الإعلام، ويبني الجمهور الإعلامي هذه النماذج عبر قيامه بعملية فلترة عقلية تستقبل بعض هذه المضامين وتزيح أخرى.

ولذلك، فإن دراسة التأثيرات التي يمارسها الإعلام يجب أن تتحرّك في اتّجاهين، أولهما تحليل ما يتعرّض له الجمهور أو فئات معيّنة من هذا الجمهور ولماذا يتعرّض له، وبعد ذلك، يصبح من المجدي دراسة التغيّرات السببية التي طرأت على تلك الفئات[٣٠١]. والواقع أن قطاعات الجمهور تميل إلى التعرّض لمعلومات إعلامية تنسجم مع قابلياتها واستعداداتها وتحاول تجنّب معلومات تتعارض مع هذه الاستعدادات، فإذا كان الناس يميلون إلى التعرّض للإعلام الجماهيري حسب اتّجاهاتهم ومصالحهم، ويحاولون تحاشي مضامين إعلامية أخرى، فإنه من الواضح أن الإعلام لن يغيّر مواقفهم، بل ومن الممكن أن يقوّي آراءهم الأوّلية[٣٠٢].

ولعلّ الصياغة القياسية لهذه الآلية توضّح وجود علاقة إيجابية بين آراء الجمهور وبين ما يختاره هذا الأخير من المواد الإعلامية[٣٠٣]، أي أن الجمهور يختار تلك المواد الإعلامية التي تنسجم الآراء الواردة فيها مع ما يؤمن به. إذن، هناك علاقة سببية بين استعدادات المتلقّي وبين سلوكه الاستهلاكي تجاه وسائل الإعلام.

من ناحية أخرى، يلاحظ أن الأشخاص الذين يتمتّعون بروابط اجتماعية متينة يتابعون بانتباه خاص موضوعات تهم أقاربهم وأصدقاءهم، كما أن نماذج الصداقات يمكن أن تؤثّر في الأفراد لدرجة توجيه أو إعادة توجيه سلوكهم الاتصالي وطرائق استهلاكهم للمواد الإعلامية، بل إن العلاقات الاجتماعية تستطيع دفع الشخص إلى متابعة مضامين إعلامية لا تعجبه[٣٠٤].

---

(301) P. Lazarsfeld, "Radio and The Printed Page ", op. cit. p. 134.
(302) J. T. Klapper, " The science of Human Communication ", Basic Books, New York,1963, in M. Livolsi, Comunicazione e Cultura di Massa, Ed. Goepli, Milano, 1969, pp. 245-251.
(303) Lazarsfeld- Berelson-Gaudet, op. cit. p. 164.
(304) Melvin DeFfeur, cit. p. 215.

كل ذلك يعني أن مبدأ الانتباه الاصطفائي يقوم على أن البنية المعرفية والانتماء إلى فئات معيّنة والروابط الاجتماعية القويّة والمصالح والآراء والمعارف المسبقة والاتّجاهات والحاجات والقيم ، بالإضافة إلى متغيّرات أخرى كالحالة الاجتماعية والمهنة ودرجة التعليم وعادات استهلاك المنتجات الإعلامية، كل ذلك، يؤدّي إلى صناعة نماذج انتباه لمضامين إعلامية مرتبطة بهذه العوامل.

• مبدأ الإدراك الاصطفائي

يقصد بالإدراك عملية إعطاء معنى ومغزى لمضمون معيّن، ويستند مصطلح إدراك إلى النشاط السيكولوجي الذي ينظّم الأفراد من خلاله تفسيرات ذات معنى للمثيرات الحسيّة التي يستقبلونها من المحيط الخارجي. إن تنوّع البنيات المعرفية يؤدّي إلى أن ينظّم الأفراد نماذج مختلفة من المعاني ومن التفسيرات لكل ضروب المثيرات، ومن بينها مثيرات المواد الإعلامية.

لا يتعرّض أعضاء الجمهور لوسائل الإعلام المختلفة في حالة عريٍّ سيكولوجي، فهم على العكس من ذلك، محميّين ومزوّدين بنزعات قبْلية وبعمليات اصطفائية وبعوامل أخرى[٣٠٥].

هذا يعني أن أعضاء فئات معيّنة من الجمهور، تنتمي إلى ثقافات تحتية خاصّة، يعطون نماذج متباينة من التفسيرات لمضامين إعلامية معيّنة، أي أنهم يحولون ويشكّلون المعنى، بما يتلاءم مع استعداداتهم وقيمهم، حتّى أنهم يحدثون أحياناً تبدّلاً جذرياً في معنى الرسالة الإعلامية، والواقع أن الآليات السيكولوجية التي تتدخّل لتقليص مصادر توتّر مبالغ به أو مصادر تنافر معرفي بين ميول الجمهور ومعتقداته وأحكامه المسبقة وبين مضامين الإعلام الجماهيري، تؤثّر بعمق على عمليات وكيفيات إدراك هذه المضامين[٣٠٦].

ثمة وجه آخر للإدراك الاصطفائي يكمن في تأثيرات الاستيعاب أو التنافر، حيث يدرك المتلقّي الآراء الواردة في الرسالة الإعلامية على اعتبار أنها قريبة من قناعاته أكثر مما تتضمّنه فعلياً هذه الآراء، ويتحقّق هذا النوع من الإدراك إذا فعلت فعلها، بصورة متوازية، شروط أخرى هي[٣٠٧]:

---

(305) J. T. Klapper, The science of Human Communication, op. cit. p. 247.
(306) E. Cooper & M. Jahoda, " The Evasion of Propaganda,Prejudiced People Respond to Anti-Prejudice Propaganda ", Journal of Psychology, vol. 23, n°1, in M. Wolf, cit. p. 34.
(307) P. L. Kendall & K. M.Wolf, " Deviant Case Analysis in the Mr. Biggott Study : The Exception Refines The Role ", 2°Ed. Arno Press, New York, 1979, pp. 158-179.

- فروق غير عميقة بين آراء المتلقّي وآراء المرسل.
- تورّط سطحي وتعلّق ضعيف للمتلقّي بموضوع الرسالة بالنسبة لآرائه الخاصّة.
- موقف إيجابي من المتلقّي تجاه المرسل، أي ثقة المتلقّي بالقائم على الوسيلة الإعلامية.

وتحدّد هذه الشروط ما يطلق عليه " حقل القبول " وهي مساحة تؤطّر المجال الذي يدرك فيه المتلقّي الآراء الواردة في الرسالة الإعلامية على أساس أنها آراء " موضوعية " و " مقبولة ". أما " حقل الرفض "، فإنه يؤطّر الشروط العكسية ويؤدّي إلى إدراك الرسالة الإعلامية على أساس أنها رسالة دعائية وغير مقبولة، ما يولّد نفور المتلقّي، وبالتالي إدراكه لوجود مسافة بين آرائه والآراء الواردة في الرسالة أكبر بكثير ممّا هي عليه في الواقع[٣٠٨].

• مبدأ الذاكرة الاصطفائية

أثبت العديد من الدراسات الميدانية أن اختزان الرسالة الإعلامية في الذاكرة تجري عبر عمليات اصطفائية شبيهة بالانتباه الاصطفائي والإدراك الاصطفائي. فجوانب الرسالة الإعلامية المنسجمة مع آراء المتلقّي وميوله يجري اختزانها في الذاكرة بحجم أكبر من جوانب أخرى، ويتصاعد هذا السلوك كلّما تباعد زمن التلقّي. وقد بيّن بارتلت أنه مع مرور الزمن، فإن عمليّة الاختزان في الذاكرة تصطفي العناصر التي أكسبها المتلقّي مغزى، وتسقط أخرى أكثر تعارضاً وأكثر بعداً عنه، من الناحية الثقافية[٣٠٩].

ويتعلّق ما يطلق عليه " تأثير بارتلت "، بآلية خاصّة في عمليات الاختزان للرسائل الإقناعية، فإذا قدّمت رسالة إعلامية ما، إلى جانب الموضوعات الرئيسة التي تصبّ في صالح موضوع معيّن، نقاطاً أخرى معارضة، فإن تذكّر هذه الأخيرة يتضاءل بشكل أسرع من الموضوعات الرئيسة، وهذه العملية المرتبطة بالاختزان الاصطفائي تسهم في تقوية التأثير الإقناعي تجاه الموضوعات المركزية[٣١٠].

(308) M. Wolf, cit. p. 35.
(309) C. Hovland & O. Harvey & M. Sherif, " Assimilation and Contrast Effects in Reaction to Communication and Attitude Change ", Journal of Abnormal and Social Psychology, vol. LV, n°2, 1957, in M. Wolf, cit. p. 36.
(310) F. C. Bartlett, Remembering. " A Study in Experimental and Social Psychology ", Cambridge University Press, London, 1932, in M. Wolf, cit. p. 36.

وهناك ما يشبه تأثير بارتلت هو " التأثير المستتر أو النائم " (sleeper effect)، ففي بعض الأحيان، وبينما يكون التأثير الإقناعي، فور التعرّض للرسالة الإعلامية، معدوماً تقريباً، يأخذ شيئاً شيئاً، بالتصاعد مع مرور الزمن. وإذا كان موقف المتلقّي سلبياً، في البداية، نتيجة عدم ثقته بمصدر الرسالة الذي يشكّل حاجزاً إقناعياً، فإن الاختزان الاصطفائي في الذاكرة يخفّف من شأن هذا العامل السلبي، أي المصدر، في الوقت الذي تبقى فيه مضامين الرسالة مختزنة، ما يؤدّي إلى ازدياد تأثيراتها الإقناعية[٣١١].

وبصورة عامة، فإن بعض الناس لديهم ذاكرة حيّة وواضحة، تستمر فترات طويلة من الزمن، تجاه بعض أنواع المضامين الإعلامية، والبعض الآخر يؤدّي اختلاف بنياتهم المعرفية وفئات انتماءاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، إلى نسيان مضامين إعلامية معيّنة بسرعة. إذن، يتضافر مبدأ التخزين الاصطفائي في الذاكرة مع الانتباه الاصطفائي والإدراك الاصطفائي ليحدّد طبيعة ومناحي وشدة وعمق واستمرارية تأثير الرسالة الإعلامية في مختلف قطاعات المتلقّين.

• مبدأ الفعل الاصطفائي

لا يتّبع جميع أعضاء الجمهور السلوك نفسه نتيجة تعرّضهم لرسائل إعلامية. والفعل يمثّل آخر حلقة في سلسلة المبادئ الاصطفائية، حيث تسبقه عمليات استهلاك وإدراك وتذكّر المضامين الإعلامية. وترتبط هذه العمليات جميعاً بالتأثيرات التي تدخل بين المثير والاستجابة، وهي تتّصل، كما ورد آنفاً، بالمتغيّرات المعرفية وفئات الانتماء والتحت- ثقافات أو الثقافات الفرعية والروابط الاجتماعية.

كلّ ذلك، يؤكّد أنه يمكن صياغة نظريات التأثير الاصطفائية، من خلال طريقتين : الأولى تتعلّق بطبيعة الشروط المتغلغلة بين مضامين المواد الإعلامية واستجابات الأشخاص، والثانية تتّصل بالمبادئ الأربعة للاصطفائية التي تحمل الأفراد على المتابعة والتفسير والتخزين والقيام بعمل، بأساليب مختلفة، نتيجة التعرّض للمنتجات الإعلامية.

يمكن إعادة طرح أسس نظريات التأثير الاصطفائي كما يلي[٣١٢]:

(311) D. Papageorgis, Bartlett, " Effect and Persistence of Induced Opinion Change ", Journal of Abnormal and Social Psychology, vol. LXVII, n° 1, in M. Wolf, cit. p. 36.
(312) C. Hovland & A. Lumsdaine & F. Sheffield, " The Effect of Presenting One Side versus Both Sides in Changing Opinions on a Cotroversial Subject ", In Experiments on Mass Communication, Princeton University Press, in Schramm – Roberts Eds., 1972, pp. 467-484.

١) إن التنوّع في البنيات المعرفية للأفراد هو نتيجة تجارب التعلّم في البيئة الاجتماعية والثقافية.

٢) في المجتمعات المعقّدة تطوّر الفئات الاجتماعية تحت- ثقافات متميّزة لأن أعضاء هذه المجتمعات يصوغون ويتقاسمون آراءً واتّجاهات ونماذج أفعال ترضي حاجاتهم وتساعدهم على مواجهة مشكلاتهم.

٣) في المجتمعات المدينية- الصناعية يحافظ الأشخاص على أواصر مهمّة مع العائلة والأصدقاء والجيران وزملاء العمل إلخ..

٤) الفروق الفردية في البنيات المعرفية وفي التحت- ثقافات لمختلف الفئات وفي العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجمهور الإعلامي، تولّد لدى الأفراد، نماذج اصطفائية لجهة الانتباه والإدراك والتخزين في الذاكرة والأفعال المتعلّقة بأشكال خاصّة من المضمون الإعلامي.

رغم التعقيد الموجود في النظريات الاصطفائية، فإنها تعطي في الوقت الراهن، مؤشّرات مهمّة ودقيقة بالنسبة للعوامل التي يجب تعميق الأبحاث بشأنها لفهم وتوقّع تأثيرات الإعلام الجماهيري على الجمهور. صحيح أن هذه النظريات تطرح قوائم مطولة جداً من المتغيّرات التي تعترض الطريق بين المثير والاستجابة، ولكن هناك دراسات غزيرة أثبتت، بشكل قاطع، صلاحية هذه المتغيّرات، ويجب على الباحثين الإعلاميّين الحاليّين أن يستكملوا هذه المقاربات العلمية لكي يصبح من الممكن تكريس نظريات التأثير الاصطفائي بصورة أكثر فعّالية.

العوامل المتعلّقة بالرسالة الإعلامية

من الضروري التنويه، في هذا السياق، بعوامل أخرى مهمّة حول موضوع التأثير، ألا وهي العوامل المتعلّقة بالرسالة الإعلامية نفسها :

فيما يتّصل بالدراسات حول التنظيم المثالي للرسائل الإعلامية ذات الأهداف الإقناعية، فإن نتائجها ترتبط غالباً بالمتغيّرات التي جرى الحديث عنها أعلاه. في جميع الأحوال، تبقى الارتباطات بين مختلف العوامل ثابتة : فما هو معروف بالنسبة لموضوعات معيّنة يؤثّر بوضوح على القابليات المتعلّقة بها، كما أن هذه القابليات نحو موضوعات بعينها تؤثّر في أسلوب تنظيم المعارف وحجمها وصياغة معلومة جديدة حول تلك الموضوعات. ولذلك، فإن اتّجاهات البحث المنفصلة تمثّل، في الحقيقة، منحيين متميّزين عملياً ولكنّهما متّحدان مفهومياً.

ومن أجل إعطاء فكرة مكثّفة عن هذا النوع من الأبحاث، من الضروري التركيز على أربعة عوامل تتعلّق بالرسائل الإعلامية، وهي : مصداقية المصدر، تسلسلية الأفكار، تكاملية الأفكار، وإظهار الخواتيم[٣١٣].

١- مصداقية المصدر:

تتساءل الدراسات الميدانية بخصوص هذا المتغيّر حول ما إذا كانت سمعة المصدر عاملاً يؤثّر في تبديل الآراء التي يتم الحصول عليها من الجمهور، وبصورة مترابطة، فيما إذا كان افتقار المصدر إلى المصداقية يؤثّر سلباً على عملية الإقناع. أي أنه إذا كانت هناك رسائل متطابقة ولكنّها متباينة التأثير، فهل هذا يعني أن السبب يعود إلى انتسابها إلى مصدر اعتبر قابلاً للتصديق أم غير قابل؟

إن هذا التساؤل على جانب كبير من الأهمّية لجهة إعداد أية حملة إعلامية:

في دراسة قاما بها لمعرفة مدى تأثير العامل المرتبط بالمصدر، أعدّ هوفلاند ويس رسائل متطابقة حول موضوع واحد، ولكنّهما نسباها إلى مصادر مختلفة، واتّضح لهما أن التأثيرات على فئات متجانسة من الجمهور كانت متباينة. إلاّ أن النتيجة الأكثر إثارة للاهتمام هي أن قياس درجة التغيّير فور استهلاك الرسائل الإعلامية أثبت أن المواد التي نسبت لمصدر ذي مصداقية عالية ينتج تبدّلات في الرأي أكثر بكثير من الرسائل التي نسبت إلى مصادر ضعيفة المصداقية. ولكن قياس درجة التغيّير بعد استهلاك المواد الإعلامية بفترة من الزمن (أربعة أسابيع) أظهر أن التأثير المستتر قد بزغ، إذ أخذ يتلاشى تأثير عدم مصداقية المصدر، مترافقاً مع زوال تدريجي لهويّة المصدر نفسه وبالتالي، لزوال عدم مصداقيته أيضاً، وهذا ما سمح لاحقاً بتقبّل الجمهور لتعلّم واستيعاب المضامين المنسوبة إلى مصادر ضعيفة المصداقية[٣١٤].

الواقع أن هذه الدراسة ودراسات كثيرة غيرها تؤكّد أن مشكلة مصداقية المصدر ليست في الكمّية الفعلية للمعلومات التي تلقّاها الجمهور، ولكن بقبول مؤشّرات ترافق هذه المعلومات. بمعنى آخر، يمكن للتعلّم أن يحصل، ولكن ضعف مصداقية المصدر يؤدّي إلى اصطفاء القبول.

(313) Ball-Rokeach & DeFleur, op. cit. p. 217.
(314) M. Wolf, cit. p. 37.

٢- تسلسلية الأفكار:

يهدف هذا النوع من الدراسات إلى التحقّق، من خلال رسالة إعلامية ثنائية (أي تحتوي أفكاراً مع موقف ما وأخرى ضد هذا الموقف في موضوع معيّن)، فيما إذا كانت الأفكار البدئية المؤيّدة للموقف أكثر تأثيراً من الأفكار الختامية المناوئة لهذا الموقف. وفي حال أظهرت تلك الدراسات أن أفكار بداية النص هي أكثر تأثيراً، فإن المصطلح المستخدم هو التأثير الأولي (primacy effect)، أما إذا كانت أفكار نهاية النص هي الأكثر تأثيراً فيقال التأثير الأكثر حداثة أو الأحدث (recency effect).

وتتّبع هذه الطريقة لمعرفة فيما إذا كانت الأفكار في الموقع الأول أو الموقع الثاني، هي أعمق تأثيراً، في رسالة إعلامية تحتوي الأفكار المؤيّدة وتلك المناوئة.

الواقع أن كل الدراسات حول هذا المتغيّر كانت عبارة عن محاولات تحقّق من صحّة أو عدم صحّة ما يطلق عليه "قانون الأوّلية" (primacy law) الذي يرى أن الإقناع يتأثّر أكثر بالأفكار الموجودة في الجزء الأول من النص[٣١٥]. الحقيقة أن الكثير من الأبحاث التجريبية اللاحقة توصّلت إلى نتائج متناقضة، دون أن تتمكّن من أن تغلّب، بيقين، أحد التأثيرين على الآخر، رغم استخدامها لمتغيّر الزمن في عملية قياس التأثير، سواء بالنسبة للنص بكامله، أم بالنسبة لجزئي النص المؤيّد والمعارض. ومع ذلك، وفي غياب اتّجاهات عامّة وحيدة، فإن بعض الارتباطات تبدو أكثر استقراراً: منها، بشكل خاص، أن المعرفة والألفة مع الموضوع المطروح تترافق مع تفوّق التأثير الأحدث، وأن عدم معرفة المتلقّين للموضوع من قبل، يترافق مع تفوّق التأثير الأولي. ويمكن الحصول على ذات النتيجة فيما يتعلّق بمتغيّر مصلحة المتلقّي تجاه الموضوع المطروح في الرسائل الإعلامية.

على أية حال، يبدو جلياً أنه إذا تبدّى تأثير مختلف، يتّصل بتسلسل الأفكار، لصالح أو ضد خاتمة معيّنة، فإن هذه الخاتمة ترتبط بمتغيّرات أخرى عديدة من الصعب أحياناً إظهارها بشكل قاطع.

٣- تكاملية الأفكار:

وهي تعني دراسة تأثير الإعلام الجماهيري في مجال تبديل أفكار الجمهور، فيما إذا تمّ عرض وجهة نظر واحدة (one side) أو وجهتي نظر (both side) متعارضتين، في قضيّة مختلف عليها.

(315) C. Hovland & W. Weiss, " The Influence of Source Credibility on Communication Effectiveness ", Public Opinion Quarterly, vol. 15, n° 4, 1951, in M. Wolf, cit. p. 38.

- وقد أسفرت دراسات أجراها بعض الباحثين[٣١٦] حول هذا المتغيّر أن **عرض وجهتي النظر المتعارضتين هو أكثر فعّالية من عرض وجهة نظر واحدة تتلاءم مع الموقف الذي يريد المرسل إقناع الجمهور به، في حال وجود متلقّين كانوا، في البداية، معارضين لهذا الموقف.**

- بالنسبة للأشخاص الذين كانوا، منذ البداية، مقتنعين بهذا الموقف، فإن عرض وجهتي النظر المتّفقة والمعارضة هو أقل فعّالية من عرض وجهة نظر واحدة متّفقة مع الموقف الذي يراد الإقناع به.

- تتأثّر فئات الجمهور الأعلى تعليماً أكثر إذا جرى عرض وجهتي النظر، بينما فئات الجمهور الأقل تعليماً تتأثّر بشكل أكبر إذا عرضت وجهة نظر واحدة مؤيّدة للموقف الذي يريد المرسل إقناع الجمهور به.

- تنخفض فعّالية الإعلام في حال عرض وجهتي النظر المتّفقة والمعارضة، بالنسبة لفئات الجمهور المتدنية التعليم والمقتنعة مسبقاً بوجهة النظر التي يرغب بها المرسل.

- إن تجاهل فكرة مهمّة وأساسية أثناء عرض الموضوع، يلفت أكثر إلى غيابها، ويؤدّي، بالتالي، إلى انخفاض فعّالية الإعلام الذي يقدّم وجهتي النظر، أكثر من انخفاضه فيما لو جرى عرض وجهة نظر واحدة.

٤- إظهار الخواتيم:

السؤال المطروح في هذا المجال يتعلّق بمعرفة فيما إذا كانت تزداد فعّالية مادة إعلامية، لو جرى عرض الخاتمة التي توضّح بصراحة دعوة المتلقّي إلى تبنّي الموقف الذي يريده المرسل، أو لو لم توضّح الخاتمة هذه الإرادة صراحة، وتركت للمتلقّي إمكانية استخلاص النتائج.

من المستحيل التوصّل إلى إجابة قاطعة بالنسبة لجميع الحالات. وتظهر الدراسات[٣١٧] بعض الارتباطات غير الواضحة تماماً بين هذه النقطة وبين المتغيّرات السيكولوجية الفردية. أحد هذه الارتباطات تتعلّق بدرجة تورّط المتلقّي بالموضوع المطروح: عندما يكون التورّط كبيراً، من المفضّل استخدام الخواتيم المستترة أو المضمرة. وأيضاً، كلّما كانت معرفة الجمهور بالموضوع أعمق، وكلّما كان هذا

(316) F. H. Lund, " The Psychology of Belief. IV. The Law of Primacy in Persuasion ". Journal of Abnormal and social Psychology, vol. 20, in M. Wolf, cit. p. 39.
(317) Hovland & Lumsdaine & Sheffield, op. cit., pp. 484-494.

الجمهور ينتمي إلى فئات مثقّفة ومتعلّمة، كلّما كان من الأفضل الاكتفاء بخواتيم ضمنية غير صريحة. بالمقابل، فإن طرح خواتيم تعلن صراحة الموقف المطلوب تبنيه، في موضوعات معقّدة لا يعرفها الجمهور بشكل جيّد، يؤدّي إلى زيادة فعّالية الإعلام.

وبصورة عامّة، يلاحظ أن جميع الدراسات حول شكل الرسالة الإعلامية الأكثر ملاءمة للإقناع، تشدّد على أن فعّالية بنية الرسالة تتغيّر بتغيّر بعض خصائص الجمهور، وأن تأثيرات الإعلام الجماهيري ترتبط، جوهرياً، بالتفاعل بين مختلف هذا العوامل. وعلى عكس نظرية الرصاصة السحرية، فإن نظريات التأثير الاصطفائي المرتبطة بأبحاث سيكولوجية وسوسيولوجية تجريبية، تقلّص القدرة المطلقة لوسائل الإعلام في التلاعب بالجمهور.

وبالتعرّف على مدى تعقّد العوامل التي تتداخل في عملية تحديد الاستجابة للمثير، تقلّ كثيراً حتمية التأثير الكثيف، وبإظهار الحواجز السيكولوجية الفردية التي يحرّكها المتلقّون، تبرز لاسطرية العملية الاتصالية. وبالتشديد على خصوصية كلّ متلقّ، يجري تحليل أسباب عدم الفاعلية لبعض الحملات الإعلامية.

ولكن رغم ذلك كلّه، ومن حيث المبدأ، يلاحظ أنه، حسب هذه النظريات، يستطيع الإعلام أن يمارس تأثيراً وأن يفرض نفوذه. ولكن هذا التأثير ليس ثابتاً وليس واحداً وليس مبرّراً لمجرّد أن الإعلام نشر وبثّ رسائل إعلامية.

إن التأثير والإقناع يجب أن يأخذا في الحسبان الجمهور وخصائصه السيكولوجية والسوسيولوجية، وأن يصنعا بنيات نصّية تحسب حساب كلّ المتغيّرات.

إذا التزم الإعلام بهذه الشروط، فإنه يستطيع تحقيق تأثيرات كبيرة وعميقة، خاصّة إذا عمل من خلال المسارات المعقّدة التي تشكّل نسيج الجمهور الإعلامي.

* * *

الفصل الثالث

نظريات التأثير بين النقد والبحث الإداري

تمهيد

تجسّد النظريات النقدية النقيض الأساسي لأبحاث الاتصال والجزء المدمّر (pars destruens) لأشكال المعرفة الإعلامية والاتّصالية التي كانت تتراكم بصعوبة في أعقاب الصياغات التي كانت تقدّم في الحقل الإداري.

إن موضوع النقاش الرئيس المتعلّق بأزمة الدراسات الإعلامية يدور حول التعارض القائم بين البحث الإداري والنظرية النقدية، وهو تعارض غني يطرح جملة من الإشكاليات المرتبطة بفعّالية الإعلام الجماهيري في المجتمعات المعاصرة.

النظرية النقدية

للنظرية النقدية مرجعية تاريخية تتمثّل في المجموعة النقدية التي تدير معهد فرانكفورت للأبحاث السوسيولوجية (Institut für Sozialforschung) الذي تأسّس في العام ١٩٢٣ وأصبح مركزاً مهمّاً اكتسب هويّته المحدّدة، إثر تعيين ماكس هوركايمر (Max Horkheimer) مديراً له. وبقدوم النازية، اضطرّ المعهد الذي غدا يعرف بمدرسة فرانكفورت، إلى الإغلاق وهاجر ممثّلوه الأساسيّون إلى باريس ثم إلى الولايات المتّحدة. وعاد المعهد إلى ممارسة نشاطه في العام ١٩٥٠ مقدّماً أطروحات نظرية متميّزة تنبئ عن أصالة وتفرّد، وتسعى إلى تمتين الموقف النقدي تجاه العلم والثقافة، عبر اقتراح سياسي بإقامة تنظيم عقلاني للمجتمع، باستطاعته تجاوز أزمة العقل[٣١٨].

(318) M. Wolf, op. cit. p. 80-100.

الهويّة المركزية للنظرية النقدية تتمظهر كبناء تحليلي للظواهر التي تتحرّى عنها، من جهة، وفي الوقت نفسه، كمقدرة على إرجاع هذه الظواهر للقوى الاجتماعية المسؤولة عن تحديدها، من جهة أخرى[٣١٩].

من هذه الناحية، يقدّم البحث الاجتماعي للنظرية النقدية نفسه كنظرية للمجتمع بمفهومه الكلّي والشامل : من هنا نشأ الجدل المستمر مع المهتمّين بالعلوم والأبحاث الفئوية التي تتخصّص مميّزة، تدريجياً، حقول صلاحيات منفصلة، إذ تنتقد هذه النظرية القيود التي يتم وضعها في الدراسات الفئوية الساعية نحو دقة شكلية والخاضعة للمنطق الأداتي، لأنها، بهذا الشكل، تجد نفسها منحرفة عن مسارات فهم المجتمع ككيان كلّي، ما يجعلها تؤدّي، بالنتيجة، وظيفة المحافظة على النظام الاجتماعي القائم.

وتريد النظرية النقدية أن تؤدّي دوراً معاكساً تماماً، متجنّبة الوظيفة الأيديولوجية للعلوم ولفروع المعرفة الفئوية.

إن هذه الفروع المعرفية التي يعدّها الباحثون في مجالها تقرير واقع، هي - حسب النظرية النقدية - نتاج وضع تاريخي - اجتماعي خاص[٣٢٠]:

يقول هوركايمر إن الوقائع التي تنقل إلينا معاني، هي مسبقة التشكّل، اجتماعياً، عبر طريقتين : أوّلاً من خلال الطبيعة التاريخية للشيء المدرك وثانياً من خلال الطبيعة التاريخية للعضو المدرك. الاثنان ليسا فقط طبيعيّين، وإنّما هما متشكّلان عبر النشاط الإنساني.

وتشجب النظرية النقدية الفصل والتعارض الحاصلين بين الفرد والمجتمع، معتبرة إيّاهما حصيلة تاريخية للانقسام الطبقي، مؤكّدة انحيازها إلى النقد الجدلي للاقتصاد السياسي. لذلك، تعدّ نقطة البداية بالنسبة لهذه النظرية تحليل نظام الاقتصاد التبادلي : بطالة، أزمات اقتصادية، عسكرتارية، إرهاب، شروط حياتية للجماهير، كلّ ذلك، لا يعقل أن يؤسّس على العوامل التقانية البحتة، كما كان يمكن أن يحدث في الماضي، ولكن على العلاقات الإنتاجية التي لم تعدّ موائمة للوضع الحالي[٣٢١].

ضمن نطاق المبادئ الأساسية للمادّية الماركسية، تكمن فرادة علماء مدرسة فرانكفورت (من هوركايمر إلى أدورنو، ومن ماركوز إلى هابرماس) في مواجهة الموضوعات الجديدة المرتبطة بالديناميّات المجتمعاتية في تلك الفترة، كالحكم

(319) Ibid.
(320) M. Horkheimer, Traditionelle und Kritische Theorie, Zeitschrift für Sozialforschung, vol. VI,1947, cit.in Rusconi, 1968, p. 67.
(321) Ibid.

الاستبدادي والصناعة الثقافية وتحوّلات الصراعات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية المتقدّمة.

يقول روسكوني إنه من خلال ظواهر البنيات الفوقية للثقافة والسلوك الجماعي، ترمي النظرية النقدية إلى اختراق معنى ظواهر البنيات التحتية للمجتمع المعاصر : الرأسمالية والتصنيع[٣٢٢].

وفي نطاق هذا الأفق، فإن كلّ علم اجتماعي يتقلّص - حسب النظرية النقدية - إلى تقانية بحثية صرفة، وتجميع وتصنيف بحت للمعطيات " الموضوعية "، ينفي إمكانية الوصول إلى الحقيقة، لأنه يتجاهل، برنامجياً، وساطاته الاجتماعية. يجب التحرّر من الضدّية الفقيرة للسكونية والدينامية الاجتماعية التي تبرز في النشاط العلمي، بالدرجة الأولى، كضدّية عقائدية مفهومية للسوسيولوجيا الشكلية، من جهة، والإمبيريقية الخالية من الصياغة المفهومية، من جهة أخرى[٣٢٣].

وتطرح النظرية النقدية نفسها لتحقيق ما يفوت السوسيولوجيا أو ما يؤجّل، أي صياغة نظرية للمجتمع تتضمّن تقويماً نقدياً لبنائها العلمي.

وبهذا الشكل تصبح السوسيولوجيا ناقدة للمجتمع، وفي الوقت نفسه، لا تتقلّص مقتصرة على توصيف وموازنة المؤسّسات والعمليات الاجتماعية، بل على العكس، تعمل على مواجهة تلك المؤسّسات والعمليات الاجتماعية، مع جوهر الموضوع، وهو حياة أولئك الذين تقوم المؤسّسات فوقهم وتضغط، بطرق عديدة، على كينونتهم. وعندما يفقد التفكير والتأمّل بما هو مجتمع، التوتّر القائم بين المؤسّسات والحياة، ويحاول، مثلاً، حلّ الاجتماعي في الطبيعي، فإن هذا التفكير لا يقوم بجهد تحريري من الإكراه الذي تمارسه المؤسّسات، وإنّما، على العكس، يوجد أسطورة أخرى، ووهم مثالي بنوعية فريدة، يعيد إليه ما ينشأ عبر المؤسّسات الاجتماعية[٣٢٤].

ويعبّر ماركوس عن هذا المفهوم بقوّة عندما يقول إن الأهداف الخاصة للنظرية النقدية هي تنظيم الحياة بحيث يرتبط قدر الأفراد ليس بالصدفة أو بالضرورة العمياء لعلاقات اقتصادية منفلتة، وإنّما يرتبط بالإنجاز المخطّط للإمكانيات الإنسانية[٣٢٥].

(322) G. E. Rusconi, " La Teoria Critica della società ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1968, p. 38.
(323) M. Horkheimer & T. Adorno, " Soziologische Excurse ", vol. IV, dei Frankfurter Beiträge zur Soziologie,Institut für Sozialforschung, Frankfurt, 1956, trad. Lezioni in Sociologia, Ed. Einaudi, Torino, 1966, p. 39.
(324) Ibid. p. 36.
(325) H. Marcuse, " Zum Begriff des Wesens, Zeitschrift für Sozialforschung ", vol. V, 1936, cit. in Rusconi, op. cit. p. 80.

إن هذا العرض المختصر لتفكير مدرسة فرانكفورت شديد التعقيد ومتعدّد الجوانب، اقتصر على موضوعات تلامس تحديداً حقل الإعلام الجماهيري. ومن بين أهم عناصر تفكير النظرية النقدية بالنسبة لوسائل الإعلام، يبرز، قبل أي شيء، التحليل الذي صاغته تلك النظرية حول الصناعة الثقافية.

• الصناعة الثقافية كنظام

استخدم مصطلح الصناعة الثقافية لأول مرّة من قبل هوركايمر وأدورنو في مؤلّف جدلية الفكر التنويري، حيث جاء توضيح " تحوّلات التقدّم الثقافي إلى ما هو مضاد له "، على قاعدة تحليل خصائص الظواهر الاجتماعية في المجتمع الأمريكي، بين الثلاثينيات والأربعينيات.

ويميّز الباحثان بين الثقافة الجماهيرية والصناعة الثقافية، إذ يقولان، إن حقيقة الصناعة الثقافية مختلفة تماماً عن الثقافة الجماهيرية، فهذه الصناعة، بأفلامها وإذاعتها وصحفها ومجلاّتها، تشكّل نظاماً، وكلّ قطاع فيه متناغم مع نفسه ومع الآخرين جميعا[٣٢٦].

وحول هذا النظام، يقدّم العاملون فيه تفسيرات وتبريرات بمفتاح تقاني : السوق الجماهيرية تفرض تنظيماً وتوحيداً قياسياً : أذواق الجمهور وحاجاته تفرض مقولبات ونوعية رديئة وهابطة. ولكن يحدث أنه بالضبط في هذا الدوران من التلاعب ومن الحاجة التي تنشأ عنها، أن يتضافر النظام أكثر فأكثر. غير أن لا أحد يقول شيئاً حول البيئة التي تكتسب فيها التقانية كلّ هذه السلطة على المجتمع نفسه.

إن العقلانية التقانية اليوم هي عقلانية السيطرة نفسها[٣٢٧].

إن تراكم المنتجات الثقافية، حسب نوعيّتها الجمالية والتزامها، يخدم بإتقان منطق النظام الإنتاجي برمّته : الواقع أن إعطاء الجمهور تراتبية نوعيّات عبر سلسلة تخدم فقط القياس الكمّي الكامل[٣٢٨]:

فتحت التباينات، تبقى الهويّة الأساسية، المقنّعة بالكاد، وهي السيطرة التي تمارسها الصناعة الثقافية علىالأفراد : إن كلّ ما تقدّمه هذه الصناعة من جديد ليس سوى إعادة تقديم، بأشكال مختلفة، أشياء دائماً متطابقة، هذا التغيّير يخفي هيكلاً عظميّاً،

(326) Horkheimer & Adorno, " Dialektik dei Aufklärung, Philosophische Fragmente ", Querido Verlag, Amsterdam, 1947, trad. Dialettica dell'Illuminismo, Ed. Einaudi, Torino, 1966, p. 81.
(327) Ibid. p. 131.
(328) Ibid.

يجري فيه قليلاً من التبدّل، بقدر تبدّل مفهوم الربح نفسه، منذ أن تمكّن هذا المفهوم من الهيمنة على الثقافة[٣٢٩].

في نظام الصناعة الثقافية، يغطّي سير العمل أي عنصر، من الرواية التي تتطلّع إلى أن تصبح فيلماً سينمائيّاً، وحتى آخر مؤثّر صوتي[٣٣٠]. وينظر السينمائيّون بعين الريبة إلى أي مخطوط لا يجدون فيه مسبقاً إمكانية تصنيفه في رأس قوائم الكتب الأكثر مبيعاً (best -seller).

من الواضح أن هذا النظام يشرط، بشكل كامل، شكل ودور عملية التلقّي ونوعية الاستهلاك، كاستقلالية المستهلك مثلاً. كلّ هذه الآليات متضمَّنة في الإنتاج. لقد حدس كانط، ببصيرة نافذة، ما جرى تحقيقه بتعمّد من قبل هوليود : المشاهد تحت مقص الرقابة مسبقاً، وأثناء إنتاجها، لتحقيق الانسجام مع النماذج الذهنية الملائمة التي يجب أن يجري تأمّلها[٣٣١]. ولكن آلة الصناعة الثقافية تدور في مكانها : هي التي تحدّد الاستهلاك وتستبعد كلّ ما هو جديد قد يبدو كخطر لا فائدة منه، بما أن تلك الآلة قد رفعت إلى القمّة فعّالية منتجاتها.

• الفرد في عصر الصناعة الثقافية

في عصر الصناعة الثقافية، الفرد لا يقرّر باستقلالية : فالصراع بين الاندفاعات والوعي يتم حلّه بالانتساب اللانقدي للقيم المفروضة : إن ما كان الفلاسفة يطلقون عليه يوماً، حياة، انكمشت داخل فلك الخاص، ثم داخل الاستهلاك فحسب، والذي هو ليس سوى ذيل للعمليّة الماديّة للإنتاج، بدون استقلالية وبدون جوهر[٣٣٢].

ويجد الإنسان نفسه تحت رحمة مجتمع يتلاعب به كيفما شاء، فالمستهلك ليس سيّداً، كما تحاول الصناعة الثقافية إظهاره، إنه ليس موضوع هذه الصناعة بل أداتها[٣٣٣]. وحتّى إذا اعتقد الأفراد بأنهم تخلّصوا، في الوقت الحرّ، من الآليات الإنتاجية الصارمة، فالحقيقة أن المكننة تحدّد، بشكل تكاملي، صناعة منتجات الترفيه، وما يستهلك من هذه المنتجات في أوقات الفراغ ما هو إلاّ نسخ مكرورة ومعادة الصناعة من قبل العملية الإنتاجية نفسها، والمضمون المزعوم هو عبارة عن واجهة

(329) T. Adorno, " Résumé über Kulturindustrie, in Ohne Leitbild. Parva Aesthetica ", Suhrkamp, Frankfurt,1967, trad. Riassunto sull'Industria Culturale, in Petronio G.Letteratura di Massa, Letteratura di Cosumo, Ed. Laterza, Bari, 1979, pp. 5-15.
(330) Horkeimer & Adorno, Dialektik der Auflärung, op. cit. p. 134.
(331) Ibid. p. 93.
(332) T. Adorno, " Minima Moralia ", Berlin, 1951, trad. Minima Moralia, Ed. Einaudi, Torino, 1954, p.3.
(333) Adorno, Résumé über Kulturindustrie, op. cit. p. 6.

باهتة، والذي يطبع المتلقّي بطابعه هو التسلسل الآلي لعمليّات مضبوطة. ويمكن التحرّر من العملية الإنتاجية في المصنع وفي المكتب، فقط من خلال التكيّف الخامل[٣٣٤].

من هذه الاستمرارية، تنجم مسألة أنه، كلّما أصبحت مواقع الصناعة الثقافية، شيئاً فشيئاً، أكثر متانة وترسّخاً، فإنها تستطيع أن تشكّل حاجات المستهلك، من خلال إدارة هذه الحاجات وتنظيمها. وهكذا فإن مجمل السيرورة الاجتماعية تختفي عن الأنظار وتطمس بصورة نهائية، ويرتبط تقريظ المجتمع، بحميميّة، مع الصناعة الثقافية.

ويقول أعضاء مدرسة فرانكفورت إن عمليّة الترفيه، تعني، في هذه الحالة، الموافقة والرضى، وتعني، في كلّ مرّة، عدم الاضطرار إلى التفكير، نسيان الألم،حتّى في المكان الذي يمكن إظهاره. القاعدة الأساسية في هذه الصناعة هي العجز، وهي، فعليّاً، الهروب : ليس كما تزعم، الهروب من الواقع المرّ، وإنّما الهروب من آخر تفكير مقاومة يمكن أن تكون تلك الصناعة قد تركته. إن التحرّر الذي وعد به الترفيه هو التحرّر من التفكير، كإنكار له. إن صفاقة السؤال الخطابي : " أنظر ماذا يريد الناس، أي استدعاء، كما الأشخاص المفكّرون، أولئك الناس أنفسهم، الذين تكمن مهمّتهم في إنجاز الفطام من مفهوم الذاتوية[٣٣٥].

لقد تم استبدال الذاتوية بالشبه- فردية : الإنسان يجد نفسه مقيّداً بتطابقه مع المجتمع، بدون أي تحفّظ. كلّية الحضور، التكرارية والتوحيد القياسي للصناعة الثقافية، يجعلون من الثقافة الجماهيرية الحديثة أداة رقابة سيكولوجية محمومة. وإذا كان مفهوم الثقافة الشعبية ذاته، في القرن الثامن عشر، موجّهاً نحو التحرّر من التقاليدية الاستبدادية والنصف إقطاعية، يحمل معنى التقدّم، مصعّداً استقلالية الفرد ككائن قادر على اتّخاذ قراراته[٣٣٦]، فإن الصناعة الثقافية وبنية اجتماعية أكثر تراتبية وأكثر استبدادية، جعلت، في الحقبة الحالية، رسالة الطاعة اللاتفكيرية، القيمة السائدة والغازية.

وكلّما بدا جمهور وسائل الإعلام العصرية أكثر لاتمايزاً وأكثر تبعثراً، كلّما اتّجهت وسائل الإعلام نحو اقتناص " تكيّفه ". إن مبادئ الامتثالية والشكلانية كانت مقترنة بالروايات الشعبية منذ نشوئها. غير أن هذه المبادئ ترجمت اليوم إلى وصفات محدّدة

(334) Horkeimer & Adorno, Dialektik der Auflärung, op. cit. p. 148.
(335) Ibid. p. 156.
(336) Adorno, " Television and the Patterns of Mass Culture ", Quarterly of Film, Radio and Television, vol. 8, 1954, trad. Televisione e Modelli di Cultura di Massa, Ed. Hoepli, Milano, 1969, pp. 379-393.

حول ما يجب وما لا يجب عمله. إن انفجار الصراعات مخطط له مسبقاً، وكلّ الصراعات هي عبارة عن محاكاة. المجتمع هو المنتصر دوماً، والفرد هو عبارة عن دمية فحسب، تتلاعب بها القواعد الاجتماعية[٣٣٧].

إن نفوذ الصناعة الثقافية، في كل مظاهرها، تحمل نحو تشويه فردية المتلقّي نفسها: فهو كالسجين الذي ينهار تحت التعذيب وينتهي إلى الاعتراف بأي شيء، حتى بالذي لم يفعله.

ويصيب شيء مشابه، مقاومة المتلقّي، كنتيجة للكميّة الهائلة من القوّة التي تضغط عليه. وهكذا، فإن عدم التكافؤ بين قوّة كلّ فرد وبين البنية الاجتماعية المكثّفة التي ترمي بثقلها عليه، تدمّر مقاومته، وتضيف، في الوقت نفسه، ضميراً قلقاً، بسبب إرادته في أن يقاوم، رغم كلّ شيء. وعندما تكرّر المادّة الإعلامية بكثافة تصل درجة لا تعود معها تبدو كوسيلة وإنّما كعنصر جوّاني للعالم الطبيعي، ترتدي المقاومة وجهاً مختلفاً لأن وحدة الفردية تبدأ بالاصطدام[٣٣٨].

• نوعية المتعة في المنتجات الثقافية

إن منتجات الصناعة الثقافية، تشلّ، بتركيبتها الموضوعية، التلقائية والخيال. صحيح أنها مصنوعة بطريقة يتطلّب فهمها المناسب، سرعة حدس وقوّة ملاحظة وكفاية خاصّة، ولكنّها تمنع حتى النشاط العقلي للمتلقّي، إذا لم يكن يريد أن تفوته الوقائع التي تمر أمامه بسرعة[٣٣٩]. و بما أنها مصنوعة خصّيصاً لاستهلاك مشتّت الفكر وغير عميق، فإن هذه المنتجات تعكس، في كلّ واحدة منها، نموذج الآلية الاقتصادية التي تسيطر على فترات العمل وأوقات الفراغ. وكلّ منها تعيد طرح منطق الهيمنة التي لا يمكن اعتبارها كتأثير للمقطع الواحد، ولكن لكل الصناعة الثقافية وللدور الذي تؤدّيه في المجتمع الصناعي المتقدّم.

المتلقّي يجب ألاّ يعمل حسب ما يمليه عليه عقله : فالمنتج يقدّم وصفة لكل ردّ فعل: ليس بسبب سياقه الموضوعي، الذي ينحلّ ويذوب بمجرّد توجّهه للملكة العقلية، وإنّما من خلال إشارات. وكلّ اقتران منطقي، يتطلّب مقدرة ذهنية، يتم تفاديه بعناية شديدة[٣٤٠].

(337) Adorno, Television and the Patterns of Mass Culture, cit. p. 384.
(338) Adorno, " On Popular Music, Studies in Philosophy and social Sciences ", vol. IX, n° 1,1941, in M. Wolf, cit. p. 86.
(339) Horkeimer & Adorno, Dialektik der Aufklärung, cit. p. 137.
(340) Ibid. p. 148.

وفي نهاية المطاف، فإن التعرّض لوسائل الإعلام العصرية يتّجه نحو تعميق الجهاريّة السهلة، لأن فكرة الجوّانية الداعية إلى التفكير والتأمّل، تتراجع وتتهزم أمام إشارات بصرية صريحة يمكن استيعابها بنظرة واحدة[٣٤١] .

• تأثيرات الإعلام الجماهيري

لا بد من إيضاح بعض الخصائص الجوهرية للصناعة الثقافية الواردة في مفاهيم مدرسة فرانكفورت، إذ من الطبيعي أن أي نوع من أنواع تحليل وسائل الإعلام الجماهيري، لا يستطيع أن يتجاهل تأثيراتها، أو ما يطلق عليه فعّالية الإعلام. وحتّى الاهتمام بوسيلة إعلامية واحدة كالتلفزة ولغتها، يجب ألاّ ينفصل عن السياق الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي تنشط داخله وسائل الإعلام المختلفة.

إن أوّل ملاحظة لأدورنو هي أن وسائل الإعلام الجماهيري ليست، ببساطة، المجموع الكلّي للأعمال التي يصفونها أو للرسائل الناجمة عن هذه الأعمال، بل تكمن أيضاً في معانٍ متنوّعة يتراكم بعضها فوق البعض الآخر : وجميعها تتعاون للوصول إلى النتيجة[٣٤٢] .

وتعكس هذه البنية التراكمية الكثيفة من الرسائل، استراتيجية التلاعب الذي تنجزه الصناعة الثقافية:

إن ما تنشره وتبثّه هذه الصناعة، منظّم من قبلها بهدف استلاب المتلقّين، في مستويات سيكولوجية متعدّدة في آن معاً.

ويمكن أن تكون الرسالة الخفيّة أكثر أهميّة من تلك الظاهرة، وبما أن هذه الرسالة المستترة تمرّ في غفلة من الوعي، فإنه لن يتم تفاديها من قبل المقاومات السيكولوجية أثناء عمليات الاستهلاك، ومن المحتمل أن تخترق أدمغة المتلقّين[٣٤٣].

لا شك أن أي دراسة حول الإعلام غير قادرة على أن تأخذ في الحسبان هذه البنية شديدة التراكميّة، وخاصةً، تأثيرات الرسائل المستترة، تضع نفسها في أفق محدود وخارجٍ عن الموضوع : إن هذا الإهمال، بالضبط، هو الذي ميّز، حتّى الآن، - حسب أدورنو - التحاليل المتعلّقة بالصناعة الثقافية. بالطبع، فإن العلاقات بين مختلف المستويات (الظاهرة والخفيّة) للرسائل هي ليست بسيطة لجهة الاستيعاب والدراسة، ولكنّها، على أي حال، ليست صدفيّة أو خالية من المقاصد، بل إنّها، على العكس،

(341) Adorno, Television and the Patterns of Mass Culture, cit. p. 382.
(342) Ibid. p. 38.
(343) Ibid.

تعطي شكلاً للتوجّه نحو قنونة* ردود فعل الجمهور[٣٤٤]. ويترافق ذلك مع شكّ كبير ومشترك، حتّى وإن كان من الصعب تأكيده بمعطيات دقيقة، بأن معظم البرامج التلفزية مثلاً، ترمي إلى إنتاج وإعادة إنتاج الكثير من الرداءة والبلادة الذهنية والسذاجة التي يبدو أنّها تتلاءم مع المعتقدات الشمولية، وإن كانت الرسائل الظاهرة أو السطحية لهذه البرامج مناوئة للشمولية[٣٤٥].

إن التلاعب بالجمهور، الذي تتبعه وتحقّقه الصناعة الثقافية كشكل من أشكال السيطرة على المجتمع، يمرّ، إذن، عبر الوسيلة الإعلامية من خلال تأثيرات تتحقّق في مستويات مستترة للرسائل. فهذه الأخيرة تتظاهر بقول شيء، ولكنّها، في الحقيقة، تقول شيئاً آخر، وتتظاهر بأنّها خفيفة ومسلّية، ولكنّها، بوضع نفسها أبعد من معرفة الجمهور، فإنّها تؤكّد على تبعيته. والمتلقّي، من خلال المواد التي يتابعها، يجد نفسه، باستمرار وبدون أن يدري، خاضعاً لشرطيّة امتصاص الأوامر والوصفات والأحكام الغيابيّة بالإبعاد[٣٤٦].

• الأنواع

تعتقد النظرية النقدية أن استراتيجية السيطرة للصناعة الثقافية تأتي من بعيد، مزوّدة بتكتيكات عديدة، أحدها يكمن في قولبة الرسائل الإعلامية.

وتعدّ المقولبات (stereotypes) عنصراً لا غنى عنه لتنظيم واستباق تجارب الواقع الاجتماعي التي يخوضها المتلقّي. فهي تمنع الفوضى المعرفية، واللاتنظيم العقلي، أي، بعبارة أخرى، تمثّل أداة اقتصادية ضرورية في التعلّم، لا يمكن الاستغناء عنها : مع ذلك، ومن خلال التطوّر التاريخي للصناعة الثقافية، فإن وظيفة المقولبات قد تغيّرت وتشوّهت بعمق.

وأدّى تقسيم المضامين التلفزية إلى أنواع (برامج مسابقات، مسلسلات بوليسية، كوميديا إلخ..)، إلى تطوّر الصيغ الجامدة والثابتة، وهو أمر مهمّ، لأن هذه الصيغ تحدّد النموذج السلوكي للمتلقّي، قبل أن يطرح تساؤلات لدى تعرّضه لمضمون معيّن، وبالتالي، تحدّد، بشكل كبير، طريقة إدراكه لأي مضمون خاصّ. ومن أجل أن نفهم التلفزة، ليس كافياً، إذن، إبراز تأثيرات البرامج وأنواعها، وإنّما تمحيص

• اشتقاق من قناة أو من قنوات.

(344) Ibid.
(345) Ibid. p. 385.
(346) Ibid.

التصوّرات التي تعمل في داخلها عمليّات التأثير، حتّى قبل لفظ كلمة واحدة. من الأهميّة بمكان أن تصنيف البرامج قد توغّل بعيداً، بحيث أن المتلقّي يحتكّ بكل برنامج منها عبر نموذج محدّد سلفاً من التوقّعات، قبل أن يتلقّ البرنامج نفسه[٣٤٧].

وكلّما تجسّدت وتجمّدت تلك المقولبات، كلّما كان هناك احتمال ضعيف في أن يغيّر الناس أفكارهم المسبقة، مع تقدّم تجربتهم. وكلّما ازدادت الحياة العصرية تعقيداً، كلّما شعر هؤلاء الناس بإغراء التعلّق بكليشهات تبدو أنّها تحتوي نظاماً معيّناً لأشياء تغدو، في غياب هذا النظام، غير مفهومة. وهكذا فإن هؤلاء الناس يفقدون، ليس الفهم الحقيقي للواقع فحسب، بل يضعفون أيضاً وبشكل أساسي، قدراتهم على تفهّم تجربة الحياة، لكثرة استخدامهم للنظّارات العاتمة[٣٤٨].

النظرية النقدية و البحث " الإداري "

عندما تحلّل النظرية النقدية ، التي تشجب التناقض بين الفرد والمجتمع كنتاج تاريخي للتقسيم الطبقي، والتي تعارض فروعاً علمية تنظر إلى هذا التناقض كمعطى طبيعي، الصناعة الثقافية، تبرز، بشكل خاصّ، ميل هذه الصناعة إلى التعامل مع عقليات الجماهير كمعطى ثابت وكشرط من شروط وجودها.

إن التعارض الجذري للنظرية النقدية مع الفروع العلمية التي لا تستطيع، بمقارباتها الفنواتية، تفسير الظواهر الاجتماعية في إجماليّاتها وتعقيداتها، يتجلّى أيضاً تجاه الدراسات الإعلامية التي تشهد تطوّراً في المجتمع الأمريكي.

فالنظرية النقدية، كما أشير آنفاً، تعتقد أن مناهج البحث الإمبيريقي لا تخترق موضوعيّة الوقائع ولا بنية ومؤثّرات جذورها التاريخية، وإنّما، على العكس من ذلك، تنتج فتات الكلّ الاجتماعي، في سلسلة من " الأشياء " الملصقة اصطناعياً بعلوم متخصّصة عديدة. إن الخصيصة الأوليّة للفعل الاجتماعي وديناميّته التاريخية هما أول أمر يجري تجاهله[٣٤٩].

وتبدو أبحاث الإعلام الجماهيري مفتقرة للكفاية، لأنها تقتصر على دراسة الشروط الراهنة، منتهية بالرضوخ لاحتكار الصناعة الثقافية. وهي تهتم بصورة جوهرية، بكيفية التلاعب بالجماهير وبكيفية التوصّل، بأفضل الطرق، إلى أهداف معيّنة، داخل إطار النظام القائم[٣٥٠].

---

(347) Ibid. p. 388.
(348) p. 390.
(349) Rusconi, La Teoria critica della Società, op. cit. p. 261.
(350) Adorno, " Esperienze Scientifiche di uno Studio Europeo " comunità, n° 165, in M. Wolf, cit., p.92.

وترى النظرية النقدية أنه من الضروري إعادة مناقشة هذه الأهداف، فإذا كان البحث " الإداري " يطرح مشكلة كيفيّة التوصّل إلى زيادة أعداد الجمهور الإعلامي، فإن النظرية النقدية تعتقد أنه لا يمكن دراسة اتّجاهات الجمهور دون الأخذ في الحسبان مقدار عكس هذه الاتّجاهات لنماذج سلوكيات اجتماعية أكثر اتّساعاً، ومقدار مشروطية هذه الاتّجاهات من قبل بنية المجتمع ككيان كلّي[٣٥١].

ضمن إطار استرتيجية التحليل الكلّي التي تتبنّاها النظرية النقدية، يأتي رفض مناهج البحث الإداري ورفض مصادر معطياته. فإذا ألغت الصناعة الثقافية كلّ فردية وكلّ فكر مقاوم، وإذا كان المنتصر هو مبدأ الشبه - فردية الذي يخفي، في الحقيقة، القبول الخانع للقيم المفروضة، فإن الركون إلى أعضاء الجمهور الإعلامي كمصادر دقيقة للمعارف الواقعية فيما يتعلّق بالسيرورة الاتّصالية للصناعة الثقافية، يعني طمس كلّ إمكانية للفهم. إن وهم الشبه - فردية يجب أن يقوّي الشكوك المرتبطة بأي معلومة يعطيها أفراد الجمهور، يجب أن نفهم هؤلاء الأفراد أفضل ممّا يفهمون هم أنفسهم[٣٥٢].

ودون أن يستبعدوا الدراسات الإمبيريقية، يرى أصحاب النظرية النقدية أن ثمة ضرورة في أن تؤطّر هذه الدراسات داخل فهم المجتمع ككلّ. هذا يعني بوضوح أن النظرية النقدية تغلّب أهمية المقاربة النظرية التحليلية على المقاربة الإمبيريقية.

وترى النظرية النقدية أن البحث الإمبيريقي يسمح بتحليل العلاقات الداخلية للنظام الإنتاجي، ويمتنع على تناول ارتباطات هذا النظام مع الديناميّة التاريخية، أي مع خصائص كلّ ظاهرة اجتماعية، علماً أن هذه الخصائص تعمل كإسمنت اجتماعي، إلاّ أن البحث الإمبيريقي يهمل، بشكل برنامجي، هذا الجانب الخطير ويتطوّر داخل الأطر المؤسّساتية للصناعة الثقافية[٣٥٣].

إن التعارض الأساسي بين منهجي البحث الإعلامي، النقدي والإداري، ينجم من الملمح العام للنظرية النقدية ومن الجدل الذي أثارته ضدّ تخلّي السوسيولوجيا الإمبيريقية عن أية لحظة تفكير ذاتي بمناهجها ومبادئها، ومن هذا الاختلاف الجذري تنشأ، منطقياً، مفاهيم مختلفة حول الإعلام الجماهيري نفسه.

---

(351) Adorno, " On a social Critique of Radio Music ", in B. Berelson, ed. M. Janowitz, A Reader in Public Opinion and Propaganda, Free Press, New York, 1950, trad. " Critica Sociale sulla Musica Radiofonica ", in M. Livolsi, Comunicazione e Cultura di Massa, ed. Hoelpi, Milano, 1969, pp. 415-421.
(352) Ibid. 420.
(353) Adorno, On Popular Music, in M. Wolf, cit. pp. 93-95.

فبالنسبة للنظرية النقدية، الأمر يتعلّق بأدوات لإعادة إنتاج جماهيري، تطرح، عبر الحرّية المظهرية للأفراد، علاقات القوّة للجهاز الاقتصادي والاجتماعي القائم.

أما أصحاب البحث " الإداري "، فيرون في هذه الدراسات التي يجرونها، أدوات تستخدم لتحقيق أهداف معيّنة، كبيع سلع أو رفع المستوى الثقافي للجمهور وتحسين فهم السياسات الحكومية.

يقول لازرسفيلد: على أي حال، تتجلّى مهمّة البحث في جعل الأداة الاتصالية أكثر فهماً ومعرفة بالنسبة لمن يريد استخدامها من أجل تحقيق أهداف معيّنة، بما يساعد على تسهيل استعمالها(٣٥٤).

إن موضوع عدم أهميّة الأهداف العامة بالنسبة للدراسات الإمبيريقية، و الذي أثارته النظرية النقدية متّهمة البحث الإداري به، يعدّه لازرسفيلد نفسه عنصراً من عناصر قوّة النظرية النقدية، ولكن هذا العنصر تم تفسيره، غالباً، كموضوع نظري لا أهمية ولا معنى له.

يلاحظ لازرسفيلد :

من غير الممكن اتباع هدف خاص ودراسة وسائل الوصول إليه، عبر عزل الوضع التاريخي الشامل الذي يتموضع ضمنه الهدف والبحث عن الوسائل. إن وسائل الإعلام العصرية أصبحت أدوات شديدة-التعقيد لدرجة أنه كيفما تم استخدامها تمارس تأثيرات أكثر أهمية مما يريده القائم على إدارتها، بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الوسائل تمتلك، بحدّ ذاتها، تعقيداً هائلاً يتيح لمن يديرها خيارات أقل بكثير مما يعتقد. إن فكرة النظرية النقدية تتعارض عملياً، مع البحث الإداري، كونها تطلب، بشكل مسبق وبالإضافة للهدف الخاص، أن يتم تحليل الدور العام لوسائل الإعلام في النظام الاجتماعي القائم(٣٥٥).

يبدو أن هذا التفسير الذي يقدّمه لازرسفيلد حول النظرية النقدية، ينطوي على بعد ضمني، عملي وتطبيقي، يحبّذ تكاملاً بين الاتّجاهين، من جهة، إلاّ أنه يحتوي مأخذاً فيما يتعلّق بالانسجام الداخلي للمقاربة الاستشرافية للنظرية النقدية، من جهة أخرى.

ويصف لازرسفيلد أربعة مستويات متتالية في تطبيقات النظرية النقدية(٣٥٦):

(354) Lazarsfeld, " Remarks on Administrative and Critical Communications ", Research : Studies in Philosophy and Social Science, vol. IX, n°1, 1941, in M. Wolf, cit. pp. 94 –95.
(355) Ibid.
(356) Ibid. 96.

١- المستوى الأول يتضمّن نظرية حول الاتّجاهات الأساسية التي تقود نحو ما يصفه " ثقافة ترويجية ".

٢- المستوى الثاني يرتبط بظواهر خاصّة، لتوضيح إسهامات هذه الظواهر في تقوية الاتّجاه المسيطر.

٣- أما المستوى الثالث فيمثّل النتائج التي تظهر حول بنية الشخصيّة الإنسانية.

٥- والمستوى الرابع يضطلع بالملاحظات حول البدائل الممكنة.

وهناك تفسير آخر للنظرية النقدية، أكثر إثارة للاهتمام من تفسيرها بمفتاح " إداري" ، حيث يشرح لازرسفيلد كيف يمكن للنظرية النقدية أن تنشّط البحث الإمبيريقي(٣٥٧):

إذا درست تأثيرات الإعلام، مهما كانت المناهج المستخدمة معدّة جيّداً،يمكن فقط دراسة تأثيرات المواد المطبوعة أو الإذاعية التي تم نشرها وبثّها، لذلك، يمكن أن تهتم النظرية النقدية،بشكل خاص، بتلك المواد التي لا تنشر ولا تبث أبداً في وسائل الإعلام: أية أفكار وأية أشكال تعبيرية تم حذفها قبل أن تصل إلى الجمهور؟ لماذا وجد القائمون على الإعلام أن هذه المواد ليست مهمّة بالنسبة للجمهور العريض؟ لماذا لا تضمن تلك المواد الإعلامية أرباحاً كافية للرأسمال المستثمر؟ أو لماذا لا تتّسم بالكفاية أشكال التقديم التقليدية في وسائل الإعلام؟ .

كما يبدو ، يميل البحث الإداري الأكثر انتباهاً ومعرفة إلى أن يجعل النظرية النقدية أكثر عمليّة وقابلية للتطبيق الميداني، محاولاً حرفها عن مسارها الأصلي، غير أن الغموض يكتنف أيضاً بعض جوانب تلك النظرية، وخاصّة فيما يتعلّق بتفسيراتها للبحث الإداري الذي اعتبرته مفتقداً للمعنى نظرياً، ومفتقداً، ليس فقط للتحليل الملائم للسياق الاقتصادي الاجتماعي، ولكن أيضاً لرؤية شمولية تجاه المشكلات القائمة.

الواقع أن تسطّح البحث حول أهداف عملية لم يؤد دوماً إلى غياب نظري أو فقر في إشكالية الظواهر المبحوثة. فنظريات التأثير الاصطفائي التي نجمت عن أبحاث ميدانية عديدة ومنتظمة، قدّمت رؤى شمولية حول الظواهر، بل قدّمت نظريات متكاملة حول تأثيرات الإعلام يمكن استخدامها والإفادة منها في التعرّف على سلوكيات أي جمهور إعلامي بمختلف شرائحه، ولكنّها لم تتجاوز التوصيف إلى التحليل أو النقد أو تقديم الحلول، ولم تحقّق الربط التاريخي والسياسي والاجتماعي الضروري لتفسير العديد من الظواهر، كما لم تسعَ إلى ربط هذه الظواهر ببعضها

(357) Ibid.

البعض والتعاطي معها في السياق الاجتماعي الكلّي، لأنها، وكما نوّهت النظرية النقدية، اعتبرت أن تلك الظواهر ليست مرَضية وإنّما تدخل في طبيعة الأشياء، وتشكّل جزءاً من النظام الاجتماعي الطبيعي.

الحقيقة أن أبحاث الإعلام يجب أن تهتم بالدراسات الميدانية والتجريبية، ليس لمجرّد توصيفها وتقديم معلومات حولها تفيد، فقط، القائمين على الإعلام وعلى الإعلان والتسويق و الـ (Marketing) بشكل عام، بل تخدم أيضاً الباحثين في مجال كشف عمق مضامين الاتصال الجماهيري، معنى ومغزى، في مجتمع ما وفي مرحلة تاريخية ما، وفي مجال معرفة آليات التأثير ونتائجها على سلوكيات الجمهور العريض، ومن ثمّ إدخال جميع المعطيات المتوافرة داخل السياقات التاريخية و الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وربطها بالمجتمع، وتقديم تقويمات موضوعية وعقلانية ودقيقة حول أوضاع الإعلام الجماهيري وموقعه وعلاقاته بالنظام الاجتماعي الكلّي، بكل أشكاله ومظاهره، وأدوار هذا الإعلام في تقدّم أو تخلف المجتمع ككيان كلّي(٣٥٨).

(٣٥٨) إن أوضاع الإعلام العربي الرسمي الذي يشكّل معظم الإعلام العربي يحتاج إلى دراسات ميدانية جادّة للتعرّف على سلوكيات الجمهور الإعلامي العربي، ليس من أجل الاستجابة لأذواق هذا الجمهور وميوله واهتماماته واتّجاهاته بل لإيجاد الوسائل والأدوات الكفيلة بالارتقاء به نحو آفاق حضارية، فالإعلام العربي، ومنذ استقلال الأقطار العربية تباعاً، كرّس صيغاً جامدة ومضامين ثابتة داخل قوالب أسلوبية وتعبيرية فقيرة ورديئة وهابطة، بهدف تثبيت ما هو قائم، والتصدّي لأي شكل من أشكال التغيّير، حفاظاً على الاستقرار والسلم الاجتماعي، تحت وطأة أنظمة سياسية ديكتاتورية واستبدادية ذات طابع شرقي.
غير أن المتغيّرات التي شهدها العالم في العقد الأخير من القرن الماضي واتّجاه الدول والأمم والشعوب نحو تحقيق مزيد من الحرّية والديمقراطية والتعدّدية السياسية، وإحياء أدوار المجتمع المدني وخاصّة النحيوي منه، كلّ ذلك، يتطلّب القيام بتحاليل عميقة، تنطلق من المعطيات الإمبيريقية ولكنها لا تتوقّف عندها. بل تتناول بالنقد النظام الإعلامي في تموضعه ووظائفه وأدواره، وفي طبيعة علاقاته بالنظام الاجتماعي العربي، ليس بمفتاح ماركسي كما النظرية النقدية، لأن هذا المفتاح أصبح قاصراً ومتخلّفاً عن معطيات الراهن، بل بمفتاح ليبرالي يسهم في تحويل هذا النظام الاجتماعي الشمولي والاستبدادي إلى نظام تحرّري منفتح على المتحوّلات الحضارية ومؤهّل للتغيّير، لأن ترعرع المقولبات والكليشيهات المكرورة، وممارسة الإعلام العربي لأشكال شتّى من القهر الفكري والأيديولوجي، في سبيل تكريس مجتمع أحادي اللون، شاقولي الاتّجاه والتواصل، مركزي الطابع، أدّى، خلال عقود طويلة، إلى هبوط حاد في مستويات الوعي السياسي والفكري والاجتماعي والجمالي، وإلى غياب كامل لثقافات الحرّية والديمقراطية وحق الاختلاف والتنوّع والتعدّد.

يقول لانغ إن البحث الإداري المنتبه، من حيث المبدأ، إلى السياق التاريخي والاجتماعي لتطوّر وسائل الإعلام الجماهيري، قادر أيضاً على إبراز الجانب النظري في طرحه للمشكلات(٣٥٩).

بقطع النظر عن الروابط والمقاربات النظرية المتشابهة بين الاتّجاهين، من المهم التشديد على حقيقة أن كل اتّجاه سعى، في البداية، إلى قراءة الآخر بصورة تقليصيّة، تبعها تصعيد أيديولوجي للتعارض القائم بينهما. وهذا ما أدّى، بالنسبة للنظرية النقدية، إلى صعوبة المرور من مستوى التوصيف العام لنظام الصناعة الثقافية الشامل، إلى تحليل العمليّات الاتّصالية التي تحدث فعلياً. وقد تفاقمت هذه الصعوبة لأن النظرية النقدية عدّت هذا الضرب من البحث الإداري ثانوياً وغير ذي أهميّة، كونه موجوداً، ضمنياً في نطاق توصيف الدينامية الأساسية للمجتمع الصناعي الرأسمالي. ولذلك، ليس بطريق الصدفة أن تكون كل أطروحات النظرية النقدية المتعلّقة بالاتصال، شبيهة بتوصيف نظرية الرصاصة السحرية، أي نظرية الاتّصال الأكثر بدائية والأقل تشعّباً وتمفصلاً.

أما فيما يتعلّق بالبحث الإداري، فإن إدراك ضرورة وجود إطار مرجعي أكثر اتّساعاً، يتم داخله تجذير دراسة المشكلات الجزئية، لم يتحقّق بسبب الضغوط التي كانت تمارسها الطبيعة المؤسّسية للأبحاث على الجوانب المنهجية والعمليّة للتحرّيات البحثية. بهذا الشكل، كانت تعقيدات الظواهر الاتّصالية في نظرية المجتمع تتسطّح، من جهة، وكان يجري فك الارتباطات بين هذه الظواهر وبين المتغيّرات الأخرى، من جهة أخرى، بسبب نوعيّة البحث التي كانت عاجزة عن احتضان تلك الارتباطات.

وهكذا، فإن المسافة بين النظرية النقدية وبين البحث الإداري اتّسعت أكثر مما يسمح به الاختلاف الموضوعي الذي يمكن أن يسمح بالتعايش بل والتضافر، في سبيل تحقيق إحاطة شاملة بإشكاليات الإعلام الجماهيري.

= من حق الشعوب العربية أن تتخلّص من حالة الامتثالية والسلبية والخمول والخصاء الفكري والإبداعي الذي روّج له الإعلام ورسّخه عبر عشرات السنين، ترغيباً أحياناً وترهيباً أحياناً، لتنطلق نحو تغيّير تدرّجي، يدخلها معطيات القرن الواحد والعشرين، ليس كشعوب خاضعة ومستعبدة أو منفعلة، بل كشعوب فاعلة وديناميّة، قادرة على الإسهام في تحديد نوعيات وأشكال تخلّق النظام العولمي الجديد.

(359) K. Lang, " The Critical Functions of Empirical communication Research. Observations on German – American Influences. Media, Culture and Society ", 1, 1979, trad. " Le Funzioni Critiche della Communication Research Empirica, Problemi dell'Informazione ", 1, 1980, in M. Wolf, cit. p.98.

ومع أن أدورنو قد لاحظ أن الخلل القائم، في كل شكل من أشكال السوسيولوجيا الإمبيريقية، هو حتمية الاختيار بين دقّة وبين عمق المعطيات التي تم الحصول عليها، فإنه عدّل موقفه من الجدل الجاري بين السوسيولوجيا الإمبيريقية والسوسيولوجيا النظرية، إذ قال :

إن التحرّيات الإمبيريقية ليست فقط مشروعة وإنّما هي جوهرية ، حتى في حقل الظواهر الثقافية. ولكن يجب ألاّ نمنحها استقلالية وألا نعدّها مفتاحا ًشاملاً. كما يجب أن تورد خواتمها معرفة نظرية، فالنظرية ليست ببساطة عربة نقل تصبح نافلة بمجرّد الحصول على المعطيات الميدانية(٣٦٠).

ويعتقد ماورو وولف أنه ليس من قبيل الصدفة أن تتوافر إمكانية تجاوز التعارض القائم بين الاتجاهين، عبر مسارين، هما(٣٦١):

أوّلا بصدد بعض المسائل التي تفرض، واقعياً، نوعاً من الصياغات المفهومية في الحقل الإعلامي، تقفز على نقاط التناقض. كمسألة التأثيرات بعيدة المدى مثلاً، ومشكلة الأساليب التي يسهم الإعلام الجماهيري من خلالها في بناء صورة للواقع الاجتماعي الذي يصوغه الأفراد.

والموضوع الثاني يرتبط بتجاوز معطى كان يوحّد، ضمنياً،النظرية النقدية والبحث الإداري، وهو استناد التيّارين إلى نظرية إعلامية للعمليات الاتصالية. فكلّما حلتّ محل نظرية الإعلام ، شيئاً فشيئا،في أبحاث الاتصال (Communication Research)مرجعيّات نظرية أخرى (النظرية السيميولوجية - سوسيولوجية المعرفة - السيكولوجية المعرفية)، تتكرّس أشياء معرفية جديدة، ويصبح من الممكن وضع مشكلات تقليدية داخل أطر مختلفة، عبر تبديل مناهج المقاربات.

إن الواقع العام للبحث في مجال الإعلام الجماهيري اليوم، يشق طريقه عبر أفق ملموس من المقاربات في فروع علمية تزداد تمفصلا وتنوّعاً، كما تزداد تكاملاً.

لا شك أن الأبحاث القائمة على مرجعيات أيديولوجية صارمة لا يمكن أن تتوصّل إلى نتائج دقيقة، لأن الحاجز الأيديولوجي يحول، مسبقاً، دون تحقيق اختراق علمي موضوعي للظواهر ولمواطن الخلل الفعلي، كما أن البحث الإمبيريقي الصرف يتنحّى عن الخوض في المشكلات والقضايا الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية

(360) Adorno, Esperienze Scientifiche di Uno Studio Europeo, Comunità, n° 165, 1971, in M. wolf, cit. p. 99.
(361) M. Wolf, cit. p.99.

والاقتصادية، ويخرجها من سياقاتها التاريخية، مقدّماً توصيفات جزئية، مقطعية، آنية ومبتورة، تلتقط من الجمهور الإعلامي معطيات مخصّصة لاستخدام شركات إنتاجية واقتصادية تسخّر قراءة النتائج للوصول إلى آليات ربحية أكثر إتقاناً، مسقطة تماماً العامل الاجتماعي وأهمية تحقيق توازن صحّي ومعقول بين المصالح الجوهرية لجميع فئات وشرائح المجتمع.

الواقع أن البحث الإمبيريقي يمكن أن يشكّل منطلقاً أوّلياً لصياغة رؤى نظرية شمولية، صالحة، كأدوات بحثية علمية، للدخول في عمق الظاهرة الإعلامية في أي مجتمع، مع الأخذ في الحسبان، درجة تطوّر هذا المجتمع والمرحلة التاريخية التي يمرّ بها والسياقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يعمل الإعلام في نطاقها، في سبيل إيجاد أنجع الحلول لجعل الإعلام مؤسّسة اجتماعية مدنية، مستقلّة وسيّدة، تسهم في صنع آليات توازن يضمن انطلاقة عناصر التطوّر ويلجم عناصر التخلّف والإعاقة والتفاوت الاجتماعي المبالغ به، ويفتح أفضل مسارات ممكنة لخوض عمليات التقدّم الاجتماعي في العصر التكنومعلوماتي.

* * *

الفصل الرابع

نظريات التأثير الثقافية والاتصالية والسيميولوجية

تمهيد

بتحوّل النظرية النقدية، شيئاً فشيئاً، إلى قطب مرجعي للدراسات التي لم تكن تنتمي إلى مواقف البحث الإداري، بدأت تخرج إلى حيّز الوجود، حقول من المصالح والتفكير، مناوئة، هي الأخرى، للـ (Communication Research) تقع، خصوصاً، في مجال الثقافة الفرنسية. ويمكن، من خلال هذه المقارنات بين التيّار الأوروبي والتيّار الأمريكي، تقديم مشهد شامل للدراسات الإعلامية الفكرية والإمبيريقية، التي ما تزال، حتّى اليوم، تتأرجح بين هذين التيارين اللذين صنعا معاً أهم المرجعيات والنظريات في مضمار أبحاث الإعلام والاتصال الجماهيري.

النظريات الثقافية

لقد أنتجت هذه الدراسات، بالإضافة إلى النظرية النقدية وتداعياتها، ما يطلق عليها النظرية الثقافية، وخصيصتها الأساسية هي دراسة الثقافة الجماهيرية، مبرزة عناصرها الأنتروبولوجية الأكثر أهمّية والعلاقة التي يتموضع في نطاقها المستهلك والشيء المستهلَك.

لا ترتبط النظرية الثقافية مباشرة بالإعلام الجماهيري ولا بتأثيراته على المتلقّين، فموضوع تحليلاتها، المتّبعة برنامجياً، هو تحديد الشكل الجديد لثقافة المجتمع المعاصر.

الفرنسي إدغار موران ومؤلّفه " روح الزمن " (الصناعة الثقافية)، هما اللذان دشّنا هذا الخط البحثي، الذي يثير جدلاً حامياً ضدّ موضوع البحث الممثّل من قبل الإعلام، وضدّ سوسيولوجية الاتصال الجماهيري (أي ضدّ البحث الإداري بشكل جوهري).

يقول موران[٣٦٢]:

إن النظرة المتجهة نحو الاتصال الجماهيري تمنع، فعلياً، إمكانية التقاط مشكلة الثقافة الجماهيرية.. فالفئات المستخدمة في الدراسات الإعلامية تكسر وحدة الثقافة الضمنية في الاتصال الجماهيري، ملغية المعطيات التاريخية، متوصّلة، في نهاية المطاف، إلى مستوى من الخصوصيات التي يصعب تعميمها، وإلى مستوى من العموميّات غير القابلة للاستعمال.

ويعتقد موران أن الثقافة الجماهيرية هي واقع لا يمكن بقر أحشائه إلاّ بمنهج واحد، هو منهج الكلّية، وأنه من غير المقبول الاعتقاد بإمكانية تقليص الثقافة الجماهيرية إلى سلسلة من المعطيات الأساسية التي تسمح بتمييزها عن الثقافة التقليدية وثقافة الأنسنة. ويرى الباحث الفرنسي أنه لا يمكن أن تنكمش الثقافة الجماهيرية إلى معطى أساسي أو أكثر، ولا يمكن أن تقتصر السوسيولوجيا، التي ينعتها موران بالبيروقراطية، على دراسة هذا القطاع أو ذاك من الثقافة الجماهيرية، دون العمل على تعميق كلّ ما من شأنه أن يوحّد القطاعات المختلفة. ويشدّد موران على وجوب النظر إلى الثقافة الجماهيرية كمركّب من الثقافة والحضارة والتاريخ[٣٦٣].

ويكمن هدف موران في صياغة سوسيولوجيا الثقافة المعاصرة، المتحرّرة من المعضلة المزيّفة التي تطرحها السوسيولوجيا التقليدية كلّما انصبّ الحديث على الثقافة الجماهيرية، أي نوعيّات هذه الثقافة وعجزها. يجب التوقّف - حسب رأي موران - عن مناقشة هذه النقطة ودراسة الواقع الجديد. غير أن المؤلّف الفرنسي يقترح صياغة ظاهراتية منتظمة يدعمها بحث إمبيريقي.

ويقول موران في كتابه " روح الزمن "[٣٦٤]:

تشكل الثقافة الجماهيرية نظام ثقافة مكوّن من مجمل الرموز والقيم والأساطير والصور التي تتعلّق، سواء بالحياة العملية سواء بالمخيال الجماعي، ومع ذلك ليست الثقافة الجماهيرية النظام الثقافي الوحيد للمجتمعات المعاصرة. فهذه الأخيرة هي واقع سياسي ثقافي يحتوي الثقافة الجماهيرية،التي تخضع، ضمن إطار هذا الواقع، للاحتواء والرقابة

(362) E. Morin, " L'Esprit du Temps ". Ed. Grasset, Paris, 1962, p. 191.
(363) Morin, " Journées d'Etudes sur la Culture de Masse " . Seminar, 1960, in M. Wolf, cit. p. 101.
(364) Morin, L'Esprit du Temps, cit. p. 8.

والتحريم.. وفي الوقت نفسه، تميل إلى جعل الثقافات الأخرى تتآكل وتتفكك.. إنها ليست مستقلّة بشكل مطلق، يمكن أن تتشبّع بثقافة وطنية، دينية أو إنسانية. وهي ليست الثقافة الوحيدة للقرن العشرين، ولكنها التيار الجماهيري الحقيقي والجديد في القرن العشرين.

في الثقافة الجماهيرية (داخل النظام الغربي للثقافة الصناعية التي تحتضن أيضاً أنظمة أخرى في الدولة)، الموضوع مرتبط ارتباطاً شديداً بخصيصته كمنتج صناعي، وبوتيرته في الاستهلاك اليومي:

تنجم من الرباط الإنتاجي - البيروقراطي والتقاني نتائج أساسية تولّد اتجاهات متناقضة، تسير وتحدّد، في مستويات مختلفة، السيرورة الكاملة للثقافة الجماهيرية. هناك، أولاً التناقض بين المتطلّبات الإنتاجية- التقانية لجهة التوحيد القياسي، وبين الطبيعة الفردية والتجديدية للاستهلاك الثقافي. إن بنية المخيال نفسها هي التي تتيح الوساطة بين المتناقضين: النماذج القائدة والأشكال الشديدة النمطية للمخيال والموضوعات الأسطورية والشخصيات المنمّطة تؤلّف البنيات الداخلية والثابتة التي تستعملها الصناعة الثقافية.

وإذا كانت هذه الصناعة الثقافية تقلّص الأنماط إلى مقولبات، من جهة، فإنها لا تستطيع، من جهة أخرى، أن تخنق تماماً الإبداع لأنه حتى القياس الموحّد يحتاج إلى أصالة وتأصيل: فالاتجاهات نحو اللامركزية والاستقلالية النسبية للأدوار الإبداعية وللمنافسة هي، بالضبط، نتيجة الوساطة والتوازن بين المتطلّبات المتعارضة. بالإضافة إلى ذلك، يجد هذا التوازن أشكالاً خاصّة من التمظهر حتى في كل وسيلة إعلامية على حدة[٣٦٥].

إن التعارض بين سيرورات التوحيد القياسي الإنتاجي ومتطلّبات الفردية تعتدل من خلال ضرب من الخط الوسطي: وهذه هي ميزة أخرى للثقافة الجماهيرية. فقضية أن الصيغة تحلّ محلّ الشكل، ترتبط مباشرة بالإنتاج الجماهيري، الذي، كونه مخصّص لاستهلاك جماهيري، يفرض البحث عن قاسم مشترك ذي نوعية متوسّطة لمتلقّ متوسّط: التوفيقية (syncrétism) • هو التعبير الأفضل لجعل المضامين المتنوّعة تتجانس في ظلّ قاسم مشترك[٣٦٦].

(365) Morin, L'Esprit du Temps, cit. p. 19.

• يعطي بعض الباحثين لكلمة syncrétism معنى التلفيقية ويعتبر أن التوفيقية تقابلها كلمة Éclectisme التي تعني على وجه الدقة، الانتقائية أو الاصطفائية أي اختيار أفضل العناصر من نظريات ومفاهيم عدّة.

(366) Ibid. p. 29.

إن دور التوفيقية في الثقافة الجماهيرية ترتبط بعوامل بنيوية تشكّلها: فالتوفيقية تولّد نتائج مهمّة كالميل نحو التجانس بين قطاعين كبيرين في الثقافة الجماهيرية، وهما المعلومات والأفلام. ذلك لأنه تحت تأثير التوفيقية تكتسب الحوادث اليومية أهميّة، في المجال المعلوماتي، أي تلك المقاطع الواقعية حيث غير المنتظر والطريف والجريمة وحوادث الطرق والمغامرات، تغزو الحياة اليومية، في حين أن الأفلام تتلوّن بالواقعيّة وروايات المغامرات تبدو وكأنها واقعيّة. إن ما يحدّد كلمة معلومة والأهميّة المعطاة لأخبار الحوادث هي، إذن، في الحقل المعلوماتي، نتيجة لاتجاهين عميقين يغطّيان الثقافة الجماهيرية: من جهة، هناك الدينامية القائمة بين التوحيد القياسي والتجديد، ومن جهة أخرى، هناك التوفيقية والعدوى بين الواقعي والخيالي[٣٦٧].

ويسعى الاتجاهان معاً للبحث عن توسّع الاستهلاك، وهذا ما يضفي خصيصة أخرى أساسية على الثقافة الجماهيرية: الجمهور الجديد الذي يتلقّى المتعة. وهي، في الحقيقة، تمثّل الأرضية التبادلية والاتصالية الوحيدة من أجل طبقة تبزغ، ألا وهي طبقة الموظّف الجديد، التي تحتضن، بصورة متصاعدة، قطاعات واسعة من الطبقات الاجتماعية السابقة. وفيما وراء التفاوت (في الامتيازات والتراتبية)، تتبدّى أرضية مشتركة، وهويّة تشكّل جوهر الثقافة الجماهيرية، وهي هويّة القيم الاستهلاكية، وحول هذه القيم تحقّق الثقافة الجماهيرية التواصل بين شرائح اجتماعية مختلفة. وبما أن الثقافة الجماهيرية مؤسّسة على وحاملة أخلاقية استهلاكية، فإن قانونها الأساسي هو قانون السوق وديناميّتها تنجم من الحوار المستمر بين الإنتاج والاستهلاك، ولكنّه حوار غير عادل، كونه، يمثّل مسبقاً، حواراً بين طرف مسهب في الكلام وطرف أخرس. فالإنتاج الإعلامي يقدم روايات وقصص مطوّلة، يعبّر عن نفسه بلغة، أما المتلقّي فإنه يجاوب بردود فعل بافلوفية (نعم أو لا)، تقرّر نجاح أو إخفاق المواد الإعلامية المقدّمة[٣٦٨].

ويرى موران أن الثقافة الجماهيرية تجد أرضيّتها المثالية حيث يوفّر التطوّر الصناعي والتقاني شروطاً حياتية جديدة تفكّك الثقافات السابقة وتخلق حاجات فردية جديدة. فالمضامين الجوهرية للثقافة الجماهيرية هي الحاجات الخاصّة والعاطفية (سعادة، حب) والخيالية (مغامرات، حرّية) والمادّية (رخاء)[٣٦٩]. وكلّما صعّدت التحوّلات الاجتماعية، شيئاً فشيئاً، هذه الحاجات، كلّما امتدّت مسهمة بدورها في

(367) Ibid. p. 29.
(368) Ibid. p. 39.
(369) Ibid. p. 161.

تجذير هذا النظام من القيم.. وتوفّر الثقافة الجماهيرية، بأشكال مزيّفة، كلّ ما ينشأ، بانتظام، من الحياة الواقعية. وعبر جعلها جزءاً غير واقعي من حياة المستهلكين، تنتهي بتحويل المتلقّي إلى شبح من خلال إسقاط نفسه في تعدّدية العوالم الخيالية أو المتخيّلة، مضيّعة روحه في مستنسخات عديدة تحلّ محلّه وتعيش بدلاً منه. وهكذا، فإن الثقافة الجماهيرية تعمل في اتّجاهين متناقضين:

فمن جهة، يعيش الأشخاص المستنسخون، بدلاً من الأفراد الواقعيّين، أحراراً وأسياداً، يواسون هؤلاء الأفراد بنوعية حياة تنقصهم ويلهونهم عن حياتهم العادية، ومن جهة أخرى، يدفعون الناس إلى التقليد، ويقدّمون لهم المثل في البحث عن السعادة[٣٧٠].

ويعتقد موران أنه، في نهاية المطاف، تسهم الثقافة الجماهيرية في إضعاف كلّ المؤسّسات الوساطية - من العائلة إلى الطبقة الاجتماعية - لتبني أكواماً من الأفراد - الجماهير - في خدمة الآلة الاجتماعية الجبّارة[٣٧١].

ثمة أطروحات نظرية مشابهة، لمؤلّفين آخرين، في مقدّمهم أبراهام موليس[٣٧٢] الذي قدّم مقاربة سيبرانية (cybernétique) في محاولة لتوحيد حقل الثقافة وحقل الإعلام الجماهيري. ويصبّ موليس كلّ الظاهرة الثقافية في سوسيودينامكية، حيث القنوات هي وسائل الإعلام الجماهيري التي تمثّل النظام الذي ينظّم الثقافة.

ويرى موليس في الثقافة " دورة سوسيوثقافية " تنطلق بدءاً من بنيات دائمة في دورانها أي بنيات الإعلام الجماهيري. ومن أجل فهم هذا الدوران يجري المؤلّف مقاربة أخرى من الثقافة، على المستوى الفردي، الذي تبدو الثقافة فيه كشاشة من المعارف يسقط الفرد عليها انفعالاته ليبني إدراكاته. على المستوى الاجتماعي، تبدو الثقافة كمجمل احتمالات اقترانية بين مختلف عناصر المعرفة، ويمكن اعتبار هذه العناصر ذرّات (وحدة معنى) وكليمات (وحدة شكل) موزّعة على لوحة سوسيوثقافية علاقة.

ويمكن مقابلة ثقافة ممتدّة أفقياً حيث عناصر المعرفة كبيرة العدد، بثقافة عمقية شاقولية حيث العلاقات بين العناصر قويّة غالباً، وهي الثقافة الإنسانية التقليدية، في حالتها المثالية، التي تتأسّس على مفاهيم قاعدية مكتسبة عبر الدراسة والتعليم، وتتطوّر، بدرجات من التعميم ومن الامتداد، نحو الموسوعية. وبالتعارض مع الثقافة

(370) Ibid. p. 172.
(371) Ibid. p. 178.
(372) A. Moles, " Sociodynamique de la Culture ", Ed. Mouton, Paris, 1967, pp. 20-599.

التقليدية، فإن شاشة الثقافة العصرية هي فسيفسائية، ناجمة عن أكوام صدفوية من العناصر المتنوّعة، وهذا ليس ناتجاً فقط عن الانتشار الدغلي للمعارف في جميع المجالات، وإنّما أيضاً عن طبيعة القنوات، أي وسائل الإعلام الجماهيري، التي تنشر وتبثّ تدفّقاً من الرسائل غير التراتبية.

ويعدّ مفهوم الثقافة الفسيفسائية أساسياً بالنسبة لموليس، لأن هذه الثقافة تدخل في السوسيودياميكية الثقافية، طبيعتها نصف الصدفوية الناجمة عن إنتاج مشترك لغزارة معرفية من كلّ نوع، ومن وجود وسائل إعلام جماهيري تقانية تجد نفسها مرغمة على العمل بشكل صدفوي حسب استقطابات قويّة جداً ومكتومة جداً في الوقت نفسه، وهي حاضرة دوماً في جميع مراحل السيرورة الثقافية.

إن الطبيعة نصف الصدفوية الاستقطابية تلعب دورها في جميع مستويات الدورة الثقافية، منذ نشر أوّل فكرة أو أوّل عمل يرتبط، في جزء منه، بالصدفة وفي جزء آخر منه، بمبدأ الاصطفاء، وحتّى نشر هذا العمل عبر وسائل الإعلام. إن دراسة هذه الفكرة أو هذا العمل من الناحية العلمية لا تجدي بالنسبة للمشكلة الثقافية، بل يجب الأخذ في الحسبان الدورة المغلقة القائمة بين المبدع والمستهلك، التي تتدخّل كعامل تنظيمي على نطاق واسع، والتي على أساسها يمكن أن تصاغ نظرية عامّة للثقافة.

ويقول موليس إن هذا الضرب من الثقافة هي عبارة عن أكوام من العناصر المعرفية المحمولة على القنوات (ي وسائل الإعلام) والموزّعة على فروع مختلفة (صحافة، راديو، تلفزة)، وتأخذ هذه العناصر شكلاً ومعنى بدءاً من الميكرومكان المبدع، ثمّ تتحوّل إلى منتجات ثقافية عبر الإعلام الجماهيري، وتصل في النهاية إلى ماكرومكان مستهلك.

ويرى موليس أنه يمكن النظر إلى الدورة السوسيوثقافية عن طريق نموذج ذي طبيعة ميكانيكية، ويطوّر المؤلّف هذا النموذج حسب منهج التشابهات، إنه نظام سيبراني يمكنه أن يحتضن الطبيعة الاقتصادية والطبيعة البنيوية معاً ؛ ففي طبيعته الاقتصادية، تكون الثقافة، في هذه الدورة، سلعة يمكن تقدير ثمنها وكلفتها الاجتماعية، وفي طبيعته البنيوية، تتموضع الثقافة في مستوى الميكرومكان المبدع، حيث تتكوّن الثقافة الجماهيرية من شظايا أفكار وصور ومشاهد وأشكال تتداخل فيما بينها لتشكّل الرسائل الإعلامية.

ويعتقد موليس أن دراسة هذه اللوحة السوسيوثقافية مفيدة للمعرفة أكثر بكثير من استطلاعات الرأي وسبر الجمهور، لأنها تجد، من هذا المنطلق، أبواباً مفتوحة نحو تنظيم النظام الثقافي نفسه.

إن الهدف الجوهري لموليس هو فصل النظام– الدورة عن الثقافة التقليدية، لكي يعطى الإعلام الجماهيري مكانة عظيمة في هذه الدورة، ويقترح المؤلّف نظاماً سوسيوديناميكياً متشعّب الفروع لدراسة تلك الدورة، حيث يخصّص انتباهاً خاصّاً للميكرومكان المبدع الذي يصطفي ويحوّل وينشر أشكالاً وأفكاراً أساسية، مضطلعاً بدور حارس البوّابة الذي يفلتر كلّ شيء قبل أن يصل إلى الإعلام.. وبهذا الشكل، تبدو الدورة الثقافية كقطعة أساسية من آلة تصنع الرغبات.

وهكذا، يصوغ موليس عقيدته الدناميكية حول الثقافة، والتي تتعارض – حسب رأيه – مع العقائد الديماغوجية التي تميل إلى جعل المستهلك يبذل أقلّ جهد ممكن بحجّة ضرورة الاستجابة لذوقه ومتعته، والعقائد الدوغمانية التي تجهد لنشر قيم دائمة وتراتبية تقليدية عبر القنواتْ الثقافية، والعقائد النخبوية التي تريد تربية الفرد للارتقاء به عبر مبادئ موسوعية جديدة على مستوى ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه.

رغم تصعيده القوي للمفتاح المعلوماتي، فإن لبّ المقاربة الثقافية لموليس ينصبّ بالدرجة الأولى على وصف إنتاج الإعلام الجماهيري بأنه ثقافة فسيفسائية (موزايكية) مؤلّفة من شظايا معرفية تشكّل مخزناً يودعه الإعلام في أدمغة الأفراد، الذين يمتصّون، بصورة سلبية عملياً، كلّ ما يقترح عليهم.. ويعتبر موليس أن الماكروبينة التي ينتجها الإعلام الجماهيري توحّد المستهلكين وصنّاع الرسائل الإعلامية الجماهيرية، الذين يجدون مخرجاً في مجموعة واسعة من القنوات، محقّقين عملياً سيرورة كاملة للرجل العصري الذي يتمرّد فقط بشكل أحمق وأخرق.

ويمكن إدراج أطروحات ماكلوهان(٣٧٣) أيضاً ضمن أفق النظريات الثقافية، حيث يتناول العنصر: ماذا؟ في صيغة لاسويل طارحاً مقولته الشهيرة " القناة هي الرسالة "، التي تربط قنوات الإعلام الجماهيري، جوهرياً، بالتحوّلات الأنتروبولوجية الحاصلة، في كلّ مرّة، نتيجة إدخال تجديد اتصالي، عبر نماذج إدراكية حسّية ملتحمة بتقانية كلّ قناة إعلامية.

ويرى ماكلوهان أن التنظيم الرمزي للإنسان، ونظامه الإدراكي الحسّي، المكاني والزماني، يخضعان لروائز التقانيات الاتصالية المختلفة، وفي هذا المستوى، يحدّد الإعلام تأثيراته ذات المغزى الأكبر والدائمة. ويعتقد المؤلّف الكندي أن الانتباه إلى مضامين الإعلام تعتّم وتشوّش وتحرف الانتباه عن مسألة أن وسائل الإعلام تؤثّر في معرفة الناس للعالم، ولكن ليس لأن التأثيرات تتحقّق في مستوى الآراء ، بل لأن تلك

(373) M. Mac Luhan, " La Galaxie Gutenberg face à l'Ère Électronique. Les Civilisations de l'âge Oral à l'Imprimerie ", Ed. Dame, Paris, 1967.

الوسائل تحرّف دوماً ودون أن تجد مقاومة، ردود الفعل الحسّية أو أشكال الإدراك الحسّي.

ويتحدّث ماكلوهان عن القرية الشاملة، التي خضع العالم فيها إلى تحوّلات، كنتيجة حتمية للتغيّرات التي أثارتها وسائل الإعلام الإلكتروني: فالأرض الفيزيائية تم تجاوزها من قبل حلبة عالمية، كما أن الزمن تلاشى إثر التغطية التلفزية. في هذا الأفق، يرى ماكلوهان أن وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري هي عبارة عن استطالات وامتدادات للإنسان، فهذه الوسائل تصبح، بحدّ ذاتها، الرسائل الإعلامية الحقيقية التي تكتسب أهميّة، لأنها تحدث تبدّلات في المدرك الحسّي للإنسان، وكلّ تقانيات الاتصال، بلا حدود، يمكن تحليلها كاستطالات للنظام الفيزيائي المادّي والعصبي للإنسان.

وفي معرض شرحه لتأثير التقانية على القناعات والآراء، بقطع النظر عن المضامين، يميّز ماكلوهان بين نوعين من هذه التقانيات : فالراديو والسينما والصور هي قنوات ساخنة أي مليئة بالمعلومات وتتطلّب مشاركة ضعيفة من قبل المتلقّي، في حين أن الهاتف والتلفزة وأفلام الكارتون هي قنوات باردة فقيرة بالمعلومات ولذلك، هي غنيّة بمشاركة المتلقّي. ويقول المؤلّف إن تأثيرات قناة ساخنة يمكن أن تصبح باردة إذا كان المتلقّي بارداً كما في المجتمعات المتخلّفة وأوساط الفلاّحين والأشخاص الذين ما زالوا مرتبطين بعصر غوتنبيرغ، أي عصر الإعلام المطبوع. ويعيد ماكلوهان برودة السينما إلى أنها نتاج العصر الانتقالي بين التقانيات الميكانيكية والتقانيات الكهربائية. فالفيلم السينمائي يتطلّب التزاماً ضعيفاً من قبل المشاهد، في حين أن التلفزة التي تنتمي للتقانيات الكهربائية تتطلّب نقاشات وحوارات ودرجات عالية جداً من المشاركة.

ولكن المؤلّف الكندي يعود إلى القول إن هذه الاختلافات بين وسائل الإعلام سائرة نحو الأفول، فالسينما دخلت في التلفزة، وجودة الصورة لا يمكن إلاّ أن تتطوّر في التلفزة نتيجة التقدّم التقاني.

لقد أثارت النظريات الثقافية ردود فعل عديدة، فنظرية موران تعرّضت لانتقادات، وخاصة في الأوساط العلمية الفرنسية، إذ وصفها البعض بأنها شديدة العمومية وغامضة وتفتقر إلى الإمبيريقية.. وأنها تجسّد ميتافيزيقية كارثية بتأرجح بين الذي لا يمكن برهنته وبين ما هو ليس حتّى مزيّف(٣٧٤).

(374) P. Bourdieu & J. Passeron, " Sociologues des Mythologies et Mythologies des Sociologues", Les Temps Modernes, 211, 1963, trad. Mitosociologia, Ed. Guaraldi, Firenze, 1971, p. 24.

ويؤخذ على نظرية موليس أنها تشكو من ثغرة هي أن موليس الذي وصف النظام الثقافي بأنه قوّة تمارس في المجتمع، لم يستطع إعطاء طبيعة هذا النشاط، لأن دورته السوسيوثقافية ليست غاطسة تماماً في تعدّديات ومخاطيّات النظام الذي يشكّل المجتمع، فهنا تنقص عملية الوصل : إذ أنه، داخل الظواهر غير الصافية، أي التي لا تعوّم الثقافة إلاّ جزئياً، يجد نظام الثقافة نفسه مجسّداً في الحياة الاجتماعية، وبهذا المعنى، فإن الظاهراتية ليست متناقضة مع الانتظامية، ولكنّها مقترنة بها(٣٧٥).

أما فيما يتعلّق بنظرية ماكلوهان، فيقول موران إنها تبدو، من أوجه عديدة، كأيديولوجية محمومة وتفكير وحشي يرمي إلى إحداث تكامل بين الظاهرة الإعلامية والاتصالية وبين الإنسان، على قاعدة لعبة منتظمة فقيرة من التناقضات غير المناسبة، ومن خلال هاجس تقليصي يتجلّى في الثنائي الحواسي- التقاني. فهذا التاريخ الأنتروبولوجي للإنسان القبلي- السمعي، ثم الغوتنبيرغي الطباعي، ثم الكهربائي الذي يعرضه ماكلوهان يلائم الاقتصاد أكثر مما يلائم السوسيولوجيا والسيكولوجيا(٣٧٦).

على أي حال، لم تنل نظرية ماكلوهان الاهتمام من قبل الباحثين، وقد تم تهميشها، عقب الانبهار الأوّل بطروحاتها، في الدراسات الأساسية المتعلّقة بتأثيرات الإعلام والاتصال الجماهيري، أيضاً بسبب عمومية مقارباتها وتطرّفها ومقولاتها الاندفاعية المجّانية أحياناً.

ويصف آخرون النظريات الثقافية بأنها، كالنظرية النقدية، لوحات عامة حول النظام الكلّي للثقافة الجماهيرية وللصناعة الثقافية، وأنه عندما يتحتّم على أصحاب هذه النظريات وصف نموذج السيرورة الاتصالية التي تسند والتي تتموضع في تلك الدينامية الثقافية، يستدعون دائماً، ولكن ضمنياً، خصائص نظرية الرصاصة السحرية. فبساطة هذه النظرية في تفسير عمليات التأثير، تصلح لإبراز عدم أهمية المشكلة الاتصالية داخل تعقيدات الإطار الخلفي الذي يرتسم. ويبدو هذا العنصر جلياً، أيضاً في النظريات الثقافية(٣٧٧).

(375) Morin, " Nouveaux Courants dans l'Étude des Communications Masse ", Rapport UNESCO, La Revue Canadienne Anthropolitique, Edouar Montpetit, Montréal, Québec, in Sociologie de l'Information, op. cit. p. 105.

(376) Morin, Nouveaux Courants, op. cit. p. 111.

(377) M. Wolf, cit. p. 104.

آفاق الدراسات الثقافية (Cultural Studies)

لا شك أن المعرفة العملية لمهنيّي الإعلام الجماهيري (أي للصحفيّين ورجال الإعلام وخبراء الإعلان والمسؤولين في وسائل الإعلام المختلفة)، والمعرفة السياسية الخاصّة بالمؤسّسات الداخلة، بشكل مباشر أو غير مباشر، في إدارة ومراقبة وسائل الإعلام، هما معرفتان متنافستان ومتقابلتان.

إن مجمل المعارف التي أنتجتها الدراسات الإعلامية الإمبيريقية، تجد نفسها أمام مقاربات أخرى يمتلك أصحابها مصادر مستقلّة، وتدعمهم مصالح اقتصادية ومطالبات بالاستقلالية المهنيّة وممارسات للسلطة ومشاعر جماعية متجذّرة وتجارب يومية. وليس من المستغرب أن يجري تقويم الدراسات والنظريات في أبحاث الإعلام، على أساس فائدتها وفعّاليتها.

وتكمن مهمّة الباحثين الإعلاميّين والاتصاليّين في عرض تلك المعارف حول مؤسّسة (الإعلام) ضاربة جذورها في الأرض ولها مكانة رفيعة وتجد نفسها في وضعية تثير احتمال نشوء توتّر مع مؤسّسات أخرى، هي أيضاً ذات مكانة عالية وتتمتّع ببنية متينة وتشكّل مصدر سلطة اقتصادية وسياسية(٣٧٨).

إن هذا الجانب المرتبط بالعلاقات بين المؤسّسة الإعلامية والمؤسّسات الاجتماعية الأخرى، لا يشكل معطى طبيعياً في أبحاث الإعلام فحسب، وإنّما أخذ أيضاً يفرض نفسه كمشكلة تحتاج إلى تحليل في المجال الإعلامي نفسه : كيف تتمفصل العلاقات بين النظام الإعلامي والبنيات والمؤسّسات الاجتماعية؟ أية انعكاسات لهذه العلاقات تتطوّر في عمل وفي مواجهة وسائل الإعلام ؟

وفي التوجّه العام الذي بدأ يطبع أبحاث الإعلام بطابعه، ثمّة تركيز على البنيات الاجتماعية وعلى السياق التاريخي كعوامل جوهرية لفهم عمل الإعلام، وهذا ما تقوم به نظريات التأثير الثقافية، التي تهتم، بصورة خاصّة، بتحليل شكل خاص من السيرورة الاجتماعية، مرتبطة بعملية إعطاء معنى للواقع، وبتطوّر ثقافة وممارسات اجتماعية تشاركية، وبحقل مشترك من المعاني.

يقول هال إن الثقافة ليست مجرّد ممارسة فعل ما أو، ببساطة، وصف مجمل العادات والتقاليد لمجتمع ما، بل هي تمر عبر جميع الممارسات الاجتماعية وتشكّل

(378) D. McQuail, " The Historicity of Mass Media Science ", Ed. G. Wilhoit, Mass Communication Review Yearbook, vol. 1, Sage, Beverly Hills, 1980, in M. Wolf, cit. p.107.

مجموع تفاعلاتها وتداخلاتها(٣٧٩).

إن هدف الدراسات الثقافية هو تحديد أطر دراسة الثقافة في المجتمع المعاصر، كمجال تحليل مهمّ على الصعيد المفهومي، ومناسب وراسخ على الصعيد النظري. وتدخل في مفهوم الثقافة سواء المعاني والقيم التي تبزغ وتنتشر في الطبقات والمجموعات الاجتماعية، سواء الممارسات المتحقّقة فعلياً والتي من خلالها، يتم التعبير عن هذه المعاني والقيم. وحسب هذه التحديدات وطرائق العيش - المقصود بها المشيّدات الجماعية - يمارس الإعلام الجماهيري وظيفة مهمّة كونه يتحرك كعناصر نشيطة داخل تلك المشيّدات.

إن الدراسات الثقافية تولّي الثقافة دوراً ليس فقط انعكاسياً أو ثانوياً بالنسبة لتحديدات الحقل الاقتصادي، لذلك، فإن وجود سوسيولوجيا ملائمة للاتصال الجماهيري، يجب أن تضع نصب عينيها الجدلية التي تنشأ بين النظام الاجتماعي والاستمرارية وتحوّلات النظام الثقافي والرقابة الاجتماعية. ويجب دراسة البنيات والسيرورات التي تدعم وسائل الاتصال الجماهيري، من خلالها، وتعيد إنتاج الاستقرار الاجتماعي والثقافي. وهذا الأمر لا يحدث بصورة سكونية، بل عن طريق تكيّف الإعلام الجماهيري، باستمرار، مع الضغوط والتناقضات التي تنشأ في المجتمع، عبر استيعابها وضمّها إلى النظام الثقافي نفسه.

من هذه الناحية، تختلف الدراسات الثقافية عن اتجاه آخر في الأبحاث الإعلامية، أي عن التحاليل الاقتصادية للإعلام والإنتاج الثقافي الذي يمثّل حقلاً أكثر تقليدية، ويميل نحو التخفيف من حدّة خصوصية البعد الثقافي الأيديولوجي : وتأتي الدينامية الاقتصادية في هذا المجال كتفسير ضروري وكافٍ لفهم سيرورة التأثيرات الثقافية - الأيديولوجية للإعلام الجماهيري. إن الممارسات الثقافية العديدة تصبح غير متميّزة عن بعضها البعض، منذ اللحظة التي يتبيّن فيها أن الذي يهم هذا النوع من المقاربة هو الجانب الأكثر عمومية لشكل السلعة(٣٨٠).

أما الدراسات الثقافية فهي، على العكس، تضفي على البنيات الفوقية خصوصية وقيمة بنائية تذهب أبعد من التعارض القائم بين البنية التحتية والبنية الفوقية. إن التأثير الأيديولوجي الشامل لإعادة إنتاج النظام الثقافي من خلال الإعلام الجماهيري، تبرز عبر تحليل مختلف التحديدات (الداخلية والخارجية بالنسبة لنظام الإعلام الجماهيري)

(379) S. Hall, " Cultural Studies : two Paradigms, Media ", Culture and Society, n° 2, in Wolf, cit. p. 1083.
(380) S. Hall, Cultural Studies, op. cit. p. 109.

التي تقيّد أو تحرّر الرسائل الإعلامية داخل وعبر الممارسات الإنتاجية. من هذه الممارسات تتبدّى خاصة، طبيعة التوحيد القياسي والطابع التقليصي الذي يرعى بقاء الحالة القائمة (statu quo) ولكن تتبدّى أيضاً الطبيعة المتناقضة والمتنوّعة لتلك الممارسات : إن تعقّد إعادة الانتاج الثقافي يقفز إلى الصدارة، كما يتضح الارتباط الأساسي بين النظام الثقافي المسيطر وبين اتجاهات الأفراد. ويتم توجيه سلوك الجمهور الإعلامي من قبل عوامل بنيوية وثقافية تمارس تأثيرها، من جهة أخرى، على مضامين الإعلام، بسبب قدرة هذه المضامين على التكيّف وعلى الاستيعاب. بالإضافة إلى ذلك، تسهّل هذه العوامل البنيوية مأسسة نماذج فعّالة يستخدمها الإعلام وتستهلكها المشيّدات الثقافية(٣٨١).

وتتجه الدراسات الثقافية نحو التخصّص في تطبيقين مختلفين : أحدهما يعنى بأعمال الإنتاج الإعلامي كنظام معقّد من الممارسات المحدّدة لصياغة الثقافة وصورة الواقع الاجتماعي، والثاني يعنى بدراسات حول استهلاك الإعلام الجماهيري كمكان للتفاوض بين ممارسات اتصالية شديدة التباين(٣٨٢).

وتتميّز الدراسات الثقافية، من هذه الناحية الأخيرة، (كما يحدث بالنسبة لاقتصاد الإعلام) بمقاربات أخرى، شبيهة إلى حدّ ما، وخاصة، بتلك المقاربة التي يطلق عليها " النظرية التآمرية للإعلام " التي تربط مضامين الإعلام بأهداف الرقابة الاجتماعية التي تمارسها الطبقات المسيطرة. إن تحريم بعض الموضوعات وترويج أخرى ووجود بعض الرسائل التهرّبية وعدم تشريع وجهات نظر هامشية أو بديلة، كلّ ذلك، يشكّل عناصر تجعل من الإعلام أداة طيّعة لهيمنة وتآمر النخبة الحاكمة. وتتّخذ الدراسات الثقافية موقفاً معارضاً لهذه الأطروحات مؤكّدة مركزية المشيّدات الثقافية الجماعية كمروّج للاستمرارية الاجتماعية، غير أن هذه الدراسات تبرز الطبيعة المعقّدة والمرنة، الدينامية والنشطة لتلك المشيّدات التي لا تمثّل فقط سيرورة نفايتية* أو ميكانيكية، وتشدّد على أن البنيات الاجتماعية التي تقع خارج نظام الإعلام الجماهيري والشروط التاريخية الخاصة هي عناصر جوهرية لفهم الممارسات الإعلامية. بهذه الصورة، تؤكّد الدراسات الثقافية على الجدلية المستمرّة بين النظام الثقافي وبين الصراع والرقابة الاجتماعية(٣٨٣).

(381) Ibid.
(382) Ibid.

• اشتقاق من نفايات.

(383) Ibid. p. 110.

وبتحرّرها من الميكانيكية التقليصية التي تميّز المقاربة الاقتصادية أحياناً، ومن الوظيفية الصارمة التي تتّصف بها النظرية التآمرية، تصبح المشكلة الأساسية للمقاربة الثقافية، في صياغتها الأوسع والأكثر برمجة، هي تحليل خصوصيات الممارسات المختلفة لإنتاج الثقافة وأشكال النظام الممفصل والمعقّد الذي تخرجه تلك الممارسات إلى حيّز الوجود[٣٨٤].

النظريات الاتصالية

• تمهيد

إن المحطّات الأكثر أهمية في هذا العرض لنظريات التأثير في الإعلام الجماهيري، تتضمّن، دوماً، تعارضاً ثابتا بين الاقتراب السوسيولوجي والاقتراب الاتصالي على وجه الخصوص.

ولكن التشابك بين خطّي التفكير كان موجوداً دائماً والاندفاع الأكبر في اتّجاه أو آخر صوّر بعض اللحظات والنتائج الخاصّة في هذا الحقل.

أما النقاش حول أزمة الأبحاث الإعلامية، فقد تميّز بعمق، بالجدل القائم بين السوسيولوجيا والسيميولوجيا، فيما يتعلّق بالعنوانات والمرجعيات العلمية والفروع العلمية، وأحقّية صياغة المقاربات النظرية المرتبطة بالإعلام الجماهيري[٣٨٥].

وتطرح اليوم في الأبحاث الإعلامية مسألة مشروعية مقاربة اتصالية في الإعلام، وكنتيجة لتعدّدية المعارف والكفايات (مهنية، مؤسّسية، سياسية، علمية إلخ..) التي تعالج شؤون الإعلام الجماهيري، هناك توجّه لطرح نقاش حول مشروعية نموذج لسيرورة اتصالية. وبالنسبة للعديد من الباحثين، فإن الاستعداد لاعتبار الإعلام الجماهيري، بالدرجة الأولى، عملية اتّصالية، أي تحويل منظّم للمعاني. هو مفهوم شديد التجريد ولاتاريخي للإعلام الجماهيري[٣٨٦].

(384) Ibid.
(385) F. Rositi. " I modi dell'Argomentazione e l'Opinione Pubblica". Ed. Eri. Torino. 1982.

(٣٨٦) حول هذا الموضوع، اقرأ :

- P. Golding & G. Murdock, " Theories of Communication and Theories of Society ".Ed. Wilhoit, Mass Communication Review Yearbook, vol. 1. Sage, Beverly Hills, 1978.
- D. McQuail, " Prospettive nella Ricerca sui Mass Media ", in M. Livolsi, Le comunicazioni di Massa : Problemi e Prospettive, Ed. Angeli, Milano. 1981, pp. 109-123.

الواقع أنه بقطع النظر عن مطالبات فرع علمي أو آخر بأن يحدّد ويفسّر حقل البحث الإعلامي، فإن المشكلة الجوهرية، كما يقول وولف، ليست في قلب العلاقة رأساً على عقب بين الاتّجاه السوسيولوجي والاتّجاه الاتّصالي، وإنّما في إيجاد وتعميق كل نقاط التكامل والتوافق والترجمة والاستيعاب بين هذين الأفقين، فالإثنان ضروريان، ولا يمكن لأحدهما أن يكون كافياً وحده لمعالجة تعقيدات موضوعات البحث الإعلامي[٣٨٧].

• النموذج الاتصالي لنظرية المعلومات

يمكن أن يلاحظ، من الناحية التاريخية، أن مصطلحي " اتّصال " و" اتّصل " قد خضعا لتغيّرات محسوسة : فالاستخدامات التي تعني، في الإجمال، " التشارك " تصبح ثانوية تدريجياً، وتترك مكانها لاستعمالات لغوية تركّز على معنى " النقل " أو " الإرسال "[٣٨٨]. وتمثّل هذا الاتجاه بفعّالية نظرية المجتمع الجماهيري ونظرية الرصاصة السحرية الناجمة عنها، غير أن التعبير الأكثر متانة لهذا المعنى تعطيه نظرية المعلومات، أو بالأحرى النظرية الرياضية للاتصال[٣٨٩].

ويعود أصل النموذج إلى أعمال هندسة الاتصالات[٣٩٠]، حيث توجد ثلاث محطّات رئيسة : دراسة لنيكويت منذ العام ١٩٢٤ حول سرعة بثّ الرسائل البرقية، وعمل لهارتلي العام ١٩٢٨ حول قياس كمّية المعلومات، ثم دراسة لشانون العام ١٩٤٨ حول النظرية الرياضية للمعلومات، التي هي، قبل كل شيء، نظرية حول المردود المعلوماتي[٣٩١]. وتهدف جميع هذه الدراسات إلى تحسين سرعة بثّ الرسائل وتخفيض التشويشات وضياع المعلومات وزيادة المردود الإجمالي لسيرورة بثّ المعلومات، وتعني هذه الأخيرة خاصّية إحصائية لمنبع الرسائل، كقياس لوضعية

(387) M. Wolf, cit, p. 112.
(388) Y. Winkin. " La Nouvelle Cinmunication ". Ed. Seuil. Paris. 1981. p.14.

(٣٨٩) لمزيد من التفاصيل، أنظر :

- C. Shannon &W. Weaver. "The Mathematical Theory of Communication ." University of Illinois Press. Urbana.1949, trad. " La Teoria Matematica della Comunicazione". Ed. Etas Kompâs. Milano. 1971.

(٣٩٠) لمزيد من التفاصيل، أنظر :

- R. Escarpit, " Théorie Generale de l'Information et de la communication" . Ed. Hachette, Paris, 1976.
(391) Ibid. p. 19.

متساوية الاحتمالات، وتوزيع إحصائي متساوٍ موجود في المنبع، وكقيمة تساوي احتمالات بين عناصر عديدة متداخلة، وهي قيمة تتزايد بتزايد الخيارات الممكنة[٣٩٢].

إن النظرية الرياضية للاتصال هي، جوهرياً، نظرية حول البثّ المثالي للرسائل: وقد أعدّ شانون صيغة للنظام العام للاتصال تحتوي تدابير لتخفيض التشويش وزيادة مردود الرسائل وصولاً إلى الوضع المثالي للبثّ[٣٩٣].

إن بثّ المعلومة يتم من المنبع إلى المستقبِل، في حين أن تحويل الطاقة الموجَّهة تأتي من المرسل إلى المتلقّي، وتبيّن الصيغة أنه في أي سيرورة اتصالية، هناك دوماً منبع أو مصدر للمعلومة، ترسل منه، عبر جهاز إرسال، إشارة تسافر عبر قناة يمكن أن تعترضها تشويشات أو ضجيج. وبعد خروج الإشارة من القناة، يتلقّاها مستقبِل ويحوّلها إلى رسالة يفهمها المتلقّي[٣٩٤].

وتشكّل هذه الصيغة التحليلية، بتعديلاتها الاصطلاحية المختلفة، حضوراً دائماً في الدراسات الاتصالية، ربما بفضل قابليتها للتطبيق على ظواهر غير متجانسة. الواقع أن أي سيرورة اتصالية تتطوّر حسب هذه الصيغة سواء[٣٩٥]:

– تحقّقت بين آلتين (على سبيل المثال الاتصال الذي يحصل بين الأجهزة الاتزانية التي تؤمّن ألاّ تتجاوز حرارة معيّنة الحدّ المطلوب، من خلال عمليات ضبط تصحيحية للوضع الحراري في المصدر، بمجرّد تلقّي رسالة مكوّدة بشكل مناسب).

– تحقّقت بين إنسانين.

– تحقّقت بين آلة وإنسان (على سبيل المثال حالة مستوى البنزين الموجود في سيّارة، مرسل عن طريق إشارات كهربائية إلى لوحة السيّارة التي تظهر مباشرة أمام السائق).

وحتّى عندما نتحدّث لإنسان فإن جزءاً من الدماغ، موجوداً في القشرة الدماغية، يؤدّي دور المصدر، وجزءاً آخر موجوداً في المنطقة الزمنية للدماغ الأيسر (لمن

(392) U. Eco, " Estetica eTeoria dell'Informazione ", Ed. Bompiani, Torino, 1972, pp. 14-15.

(٣٩٣) للاطّلاع على صيغة شانون بالتفصيل، أنظر :

- Shannon & Weaver, The Mathematical Theory, op. cit.

(394) Eco, Estetica e Teoria dell'Informazione, op. cit. p. 10.

(395) Ibid.

يستعمل يده اليمنى) يؤدّي دور المكوِّد. وتنظّم النبضات الآتية من مركز التكويد، شيئاً فشيئاً، الطاقة السمعية والجهاز التنفّسي والجهاز السمعي. وتحمل الطاقة المنظّمة على طول طريق مؤلّفة من هواء البيئة، ويتم التقاطها من قبل مستقبِل، من الأذن الخارجية التي تمثّل التوجيه الميكانيكي لعظام الأذن ومن الأذن الداخلية التي تمرّر النبضات نحو مركز فك الشيفرة عبر العصب السمعي. ويتم استقبال النبضات غير المشفّرة من المتلقّي الذي يتوضّع في القشرة الدماغية للسامع[٣٩٦].

إن فعّالية هذا النموذج الاتصالي لا تكمن فقط في قابليته للتطبيق : فهذه الفعّالية تكمن في أنها تسمح بتحديد عوامل التشويش أثناء إرسال المعلومة، أي مشكلة الضجيج (التي يمكن أن تنجم عن ضياع الإشارة أو عن معلومة متطفّلة وصلت إلى القناة). إنها قضية مهمّة لأن الهدف العملي الرئيس للنظرية المعلوماتية للاتصال كان بالضبط تمرير أكبر حجم من المعلومات عبر القناة، مع أقل حجم من التشويش وأكبر قدر ممكن من توفير الزمن والطاقة[٣٩٧].

لقد صاغ شانون " نظرية القناة الضاجّة " وهي تقوم على أساس تحقيق الاستعمال الأفضل لفك التكويد : فعيوب سلسلة الطاقة يجري تصحيحها عبر تحسينات في مردود السلسلة المعلوماتية[٣٩٨]، للحصول، من خلال فك شيفرة مثالي، على قيم عالية من دقة القناة، أي الوصول إلى تحديد الطريقة الأكثر توفيراً والأكثر سرعة وأماناً لتكويد رسالة، دون وجود ضجيج يجعل الإرسال غير متقن.

وهكذا، يتم إبراز وجود عنصر آخر في الصيغة الاتصالية ، وهو الكود، فمن أجل أن يتمكّن المتلقّي من فهم الإشارة بالشكل الصحيح، يجب استخدام كود واحد في لحظة الإرسال وفي لحظة الاستقبال. ويعدّ الكود نظام قواعد يعطي لإشارات معيّنة قيماً معيّنة، وليس معاني معيّنة، لأنه في حالة وجود جهاز اتزاني (علاقة بين آلتين) لا يمكن القول إن الآلة المستقبلة تفهم معنى الإشارة، فهي قد صنعت لترد بطريقة معيّنة على تنبيه معيّن[٣٩٩].

وتثار حول هذه النقطة سلسلة من المحدّدات الصريحة والبرنامجية لنظرية المعلومات، وقد أزالت الأبحاث الإعلامية الإمبيريقية هذه العقبات، أو أسقطت المعرفة بها، ما جعلها تسهم في انتشار ونجاح النموذج الاتصالي المعلوماتي.

(396) Escarpit, Théorie Generale de l'Information et de la Communication, op. cit. p. 30-31.

(397) Ibid. p. 11.

(398) Ibid. p. 33.

(399) U. Eco, Estetica e Teoria dell'Informazione, op. cit., p. 11.

في مؤلّفات منظّري المعلوماتية، ثمة تمييّز قاطع بين " معلومة " كمقياس إحصائي للاحتمالات المتساوية للأحداث القادمة من المصدر وبين " معنى ". ويميّز شانون معنى رسالة، وهو أمر غير مهم بالنسبة لنظرية المعلومات، من قياس المعلومة التي يمكن تلقّيها عندما تكون رسالة معيّنة، حتّى وإن كانت مجرّد إشارة كهربائية، قابلة للاصطفاء من بين مجموعة رسائل تحظى باحتمالات متساوية. وتكمن مشكلة منظّر المعلومات، ظاهرياً، في أن تكويد الرسالة يجب أن يتم حسب قواعد معيّنة[٤٠٠].

الواقع أن منظّر المعلوماتية ليس مهتمّاً، بشكل فوري، بعملية الاقتران بين إشارات ثنائية العنصر ومضمونها الأبجدي المحتمل، ولكنه مهتمّ بالطريقة الأكثر اقتصادية لبثّ إشاراته دون أن يولّد غموضاً، من خلال تحييد الضجيج على القناة أو تصحيح أخطاء في البثّ. إن مشكلة نظرية المعلومات هي الحصيلة الداخلية للنظام المزدوج أو الثنائي، وليس مسألة أن الموجات القادمة من النظام الثنائي يمكن أن تعبّر عن مضمون أبجدي أو أي نوع آخر من الموجات[٤٠١].

وتمثّل نظرية المعلومات منهج احتساب وحدات إشارات قابلة للبثّ أو تمّ بثّها، وليس منهج احتساب وحدات معنى[٤٠٢]. بكلمات أخرى، فإن أفق منظّري المعلومات - كما يقول إسكاربيت[٤٠٣]، شبيه بأفق ساعي البريد الذي يريد إرسال رسالة : فالمرسل والمتلقّي يهتمّان بمعنى الرسالة التي يتبادلانها، في حين أن ساعي البريد لا يهمّه هذا الأمر، إذ أن دوره هو قبض ثمن خدمة يتناسب مع حجم الرسالة، أي مع كمّية المعلومات. إن الكود الذي تهتمّ به نظرية المعلومات، التي تجعل ممكناً بثّ معلومة، يفيد في تخفيض حجم الاحتمالات المتساوية البدئية لدى المصدر، عن طريق استخدام نظام اعتيادي. وهو نظام تركيبي بحت، ونظام تنظيمي لا يأخذ في الحسبان مشكلة معنى الرسالة، أي البعد الاتصالي.

إن المعلومة، كمقياس إحصائي للاحتمالات المتساوية للأحداث لدى المصدر، وككيان قابل للقياس من الناحية الكمّية فحسب، لا يمكن الخلط بينها وبين المعنى، أي القيمة المنسوبة على قاعدة كود يقرن العناصر المعلوماتية بوحدات أخرى (متوافقة اصطلاحياً)، لا يجري بثّها فعلياً.

(400) Shannon, " A Mathematical Theory of Communication ", Bell System Technical Journal, XXVII, n° 3 & n° 4, in Wolf, cit. p. 116.
(401) Eco, " Semiotica e Filosofia del Linguaggio ", Ed. Einaudi, Torino, 1984, p.264.
(402) Eco, Estetica e Teoria dell'Informazione, op. cit. p. 8.
(403) Escarpit, cit. p. 10.

وإذا كان مهمّاً، بالنسبة لنظرية المعلومات، الجوانب المرتبطة بحامل المعنى وخصائصه، وبشكل خاص مقاومة التشويش الذي يثيره الضجيج وسهولة الشيفرة وفكّها وسرعة البثّ، فإنه لا يمكن الاستغناء عن أن الرسالة بالنسبة للمتلقّي الإنساني، يجب أن تكتسب معنى، ويمكن أن تكون لها معانٍ عديدة.. ويستخرج المتلقّي معنى الرسالة من الكود وليس من الرسالة نفسها.. فقط عن طريق تكامل الكود مع الرسالة التي تمتلئ به. ويمكن القول إنه إلى أن يظهر الكود، لا توجد حوامل معنى، وإنّما فقط إشارات. وتتموضع حوامل المعنى في المساحة التي يتم فيها التعرّف على الكود.. بطبيعة الحال، لم يعد الكود، في هذه الحالة، نظاماً ينظّم حوامل المعنى أو الإشارات، ولكنه نظام تثنية ومتساويات. ويزاوج الكود نظام حوامل معنى مع نظام المعاني[٤٠٤].

ليس المفهوم المختلف للكود (اختلاف بين تركيب داخلي لتسلسل الإشارات وتوافق بين عناصر أنظمة متعدّدة)، هو وحده الذي يحدّ من نظرية المعلومات، وإنّما أيضاً وخاصّة الإفراغ المنتظم للبعد المتعلّق بالمعنى.

وبين هذين المفهومين للاتصال (أي نقل معلومات بين قطبين، وتحويل نظام إلى آخر)، تفضّل نظرية المعلومات، بشكل نهائي، المفهوم الأول. وبهذه الصورة، فإنها تستطيع صياغة منهج يتحرّى شكل التعبير بصفته إشارة فيزيائية، ولكنّها لا يمكنها أن تحصل إلاّ على قيمة توجيهية (موجّهة نحو كنايات أو تشابهات في أحسن حال) من أجل نظرية اتصالية أكثر قابلية للفهم، ولا يمكن أن تكون هذه النظرية سوى السيميولوجيا العامّة[٤٠٥].

إن هذه المحدودية للنموذج المعلوماتي تبدو وكأنّها تبعد الأهداف الأساسية التي حدّدتها السوسيولوجيا والتي تنصبّ على العلاقة بين الإعلام والمجتمع، وكأن هذه العلاقة يمكن أن تتحقّق خارج آليات بناء المعنى. الواقع أنه، حتّى بالنسبة للأبحاث الإعلامية والاتصالية الإمبيريقية، فإن فعّالية نظرية تغطّي السيرورات الاتصالية، مهمّة وضرورية. ولكن نظرية المعلومات لا تستطيع، بثغراتها الخطيرة، أن تؤدّي هذه المهمّة.

ورغم أن كلّ اتصال ذا طبيعة إنسانية يفترض وجود نظام معنًى كشرط أساسي[٤٠٦]، فإن النموذج المعلوماتي شكّل، لمدة طويلة، في الأبحاث الاتصالية الإمبيريقية، الصيغة المهيمنة، ولم يكن أبداً موضع نقاش، بل استخدم سواء من قبل البحث الإمبيريقي أم البحث النقدي. وهناك ثلاثة تفسيرات لهذا الموضوع[٤٠٧]:

(404) Eco, Estetica e Teoria dell'Informazione, cit. p. 21.
(405) Ibid. p. 26.
(406) Eco, " Trattato di Semiotica Generale ", Ed. Bompiani, Milano, 1975. p. 19.
(407) M. Wolf, cit. p. 120-123.

– الأوّل يتعلّق بانتشار النموذج المعلوماتي خارج حقله الخاص. فالجوانب الأكثر تقانية في النظرية الرياضية للاتصال (مفهوم الإنتروبيا والمفهوم المعلوماتي نفسه) اختفت أو تم استبعادها، وبقي الشكل الكامل للصيغة التي أصبحت، بفضل أهميّتها القصوى وبساطتها، صيغة اتصالية عامّة.

وفي نطاق هذا التوسّع، أدّت هذه الصيغة دوراً مهمّاً بسبب تبنّي اللسانيات الجاكوبسونية للنموذج المعلوماتي، حيث أرفق جاكوبسون مصطلحاته حول اللسانيات بالنظرية الرياضية للاتصال.

يقول جاكوبسون[408]:

يجب أن نعترف أن مشكلات تبادل المعلومات، من جوانب معيّنة، حظيت من قبل المهندسين بصيغة أكثر دقّة وأقلّ غموضاً، وبرقابة أكثر فعّالية للتقانيات المستخدمة، بالإضافة إلى إمكانيات تقدير حجم ذات مغزى.

إن مبدأ التفرّع الثنائي الذي يقبع خلف نظام الملامح المميّزة في اللسان، قد تم اكتشافه تدريجياً من قبل اللسانيات ووجد تأكيداً له عبر استخدام تقانيّي الاتصال لنظام العدّ الثنائي أو المزدوج. وعندما يعرّف التقانيون المعلومة المصطفاة من رسالة، كرقم أدنى من القرارات المزدوجة التي تسمح للمستقبل بإعادة بناء ما يجب أن يستخرجه من الرسالة، على أساس معطيات موجودة مسبقا تحت تصرفه، فإن هؤلاء التقانيّين يقدّمون صيغة واقعية وقابلة تماماً للتطبيق على دور الملامح المميزة في الاتصال اللساني.

ويقترح جاكوبسون تكاملاً ومساراً متوازياً بين الفرعين العلميين، مكتشفاً نقاط التقاء عديدة، كالمقاربة اللسانية لمشكلة المعلومات الحاملة للدلالة ولتعريف شانون للمعلومة بأنها كلّ ما يبقى ثابتاً عبر جميع العمليات القابلة لإعادة التكويد وللترجمة[409].

إن تعميم جاكوبسون لنظرية المعلوماتية في قراءته لها، قد خفّف من خصوصيّتها، ونجم عن ذلك نموذج اتصالي يركّز على الطريقة التي تنتشر فيها المعلومة حسب كود عادي ومتجانس، داخل العلاقة الوظيفية للبثّ

(408) R. Jakobson, " Linguistics and Theory of Communication, in Proceedings of Symposia in Applied Mathematics ", vol. XII, Structure of Language and its Mathematical Aspects, American Mathematics Society, Rhode Island, 1961, trad. " Saggi di Linguistica Generale ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1966, p.66.
(409) Ibid. p. 74.

والاستقبال، مقلّصاً تنقيح الرسالة بالمعنى الحرفي[410]. ويقدّم النشاط الاتصالي كبثّ مضمون دلالي ثابت بين قطبين محدّدين، ومكلّفين بتكويد وفك تكويد المضمون بموجب قيود كود هو الآخر ثابت. إن التشريع والانتشار اللذين أعطتهما اللسانيات الجاكوبسونية للصيغة المخفّفة لنظرية المعلومات، شكّلا أحد أسباب نجاح النظرية الاتصالية التي تمّت أقلمتها ولم تعد موضع نقاش.

– والتفسير الثاني لبقاء النموذج المعلوماتي مهيمناً يكمن في فعّاليته فيما يتعلّق بالموضوع الأهم بالنسبة للأبحاث الإمبيريقية، أي التأثيرات. فالموضوع كان دخل في حقل المفاهيم، بشكل ضمني، حسب معادلة بثّ يتلاءم معها جيّداً تمثّل السيرورة الاتصالية، باصطلاحات سطرية. أيضاً النظرية النفسية التجريبية حول العوامل الاصطفائية لدى الجمهور وحول البنية المثالية للرسائل الإقناعية، يمكن أن تكون، في بعض الجوانب، متشاكلة في متغيّر " الضجيج " الذي يعرقل سيرورة البثّ. فقط عندما يظهر النموذج السيميولوجي المعنى المضمّر في السيرورة الاتصالية، تجري صياغة مشكلة التأثيرات بصورة مختلفة، من خلال متغيّر فك الكود وأنظمة المعارف والكفايات التي توجّهه. وهذا ما يؤدّي - بالإضافة إلى انزياحات أخرى كتأثير الإشكاليات المرتبطة بسوسيولوجيا المعرفة والتغيّر في أوساط الرأي - إلى المقطع المتعلّق بمسألة تأثيرات الإعلام الجماهيري طويلة الأجل. ولكن، ما دامت مشكلة التأثيرات كانت تقتصر على معرفة ما يثيره بثّ على صعيد جماهيري لرسالة، كان النموذج المعلوماتي كافياً، فالنموذج مرسل/ مستقبل تلائم جداً التحليل التجريبي، وتقديرات الحجم على نطاق واسع، ومناهج المراقبة والتوصيف الشبيهة بتلك الموجودة في العلوم الفيزيائية[411].

– أما التفسير الثالث لنجاح واستمرار نظرية المعلومات، فهي تكمن في التوجّه السوسيولوجي العام للأبحاث الإعلامية والاتصالية وفي الدور الذي قامت به النظرية النقدية وتفرّعاتها. لقد أدّى التوجّه السوسيولوجي إلى أن تصبح

(410) R. Jacques, " Le Scheéma Jakobsonien de la Communication est-il Devenu un Obstacle Epistémologique ? ", N.- Vienne J. Eds., Langages, Connaissance et Pratique, Traveaux et Recherches, Universuté de Lille 3, 1982, in Wolf, cit. p.121.
(411) T. Sari, " Some Problems of the Paradigm in Communication Theory ", Philosophy of the Social Sciences,vol. 10, 1980, in Wolf, cit., p.122.

الإشكالية الاتصالية ثانوية بالنسبة للمسائل الأساسية الكبرى، وبخاصة العلاقة بين المجتمع والإعلام.

إن تبديل النموذج في السيرورة الاتصالية يبدو اليوم مطروحاً عملياً في المشكلات التي تتّجه نحوها الأبحاث الإعلامية. وثمة نموذجان يعدّان امتداداً وفي الوقت نفسه تجاوزاً لبعض عناصر النموذج الاتصالي التقليدي، وهما النموذج الاتصالي – السيميولوجي – المعلوماتي والنموذج السيميولوجي النصّي.

النموذج الاتصالي – السيميولوجي – المعلوماتي

إن القيمة الإرسالية لنظرية المعلومات، كانت تركّز على فعّالية السيرورة الاتصالية أكثر مما تركّز على ديناميّة هذه السيرورة. فالاهتمام المعرفي بالعناصر المختلفة للعلاقة الاتصالية في وسائل الإعلام كان خاضعاً للاهتمام بالقدرة الانتشارية لوسائل الاتصال، أي في بثّ المضامين نفسها لجمهور عريض. ولذلك، فإنه ليس قبيل الصدفة أن مشكلة التأثيرات التي تعني طرائق فك رموز الكود* وتفسير الرسائل، قد أثيرت مؤخّراً وخاصّة خارج إطار الأبحاث الإعلامية التقليدية(412).

لقد عمدت فروع علمية أخرى إلى إحداث التبدّل الجوهري في الصيغة الاتصالية، إذ جرى نوع من إدماج مشكلة المعنى، أو بالأحرى المطالبة بضرورة إدخالها في السيرورات الاتصالية لمعادلة نظرية المعلومات. وقد نجم عن ذلك نموذج سيميولوجي– معلوماتي يكمن اختلافه مع المعادلة السابقة في أن سطرية البثّ مقيّدة بعمل عوامل دلالية، تم إدخالها بواسطة مفهوم الكود، أي بالنظر إلى الاتصال الذي يعدّ تحويلاً للمعلومات، على أساس أنه تحويل من نظام إلى نظام آخر، وقد سمح وجود الكود بإنجاز هذا التحويل(413).

ويؤدّي مفهوم الكود في الصيغة الجديدة، الناجمة عن اقتران عناصر أنظمة مختلفة، إلى إحداث تغيير عميق في نظرية المعلومات. بالإضافة إلى ذلك، تكتسب أهمية نظرية كأداة بحث إمبيريقي، مسألة فك رموز الكود، أي العملية التي من خلالها تبني قطاعات الجمهور معنى مما تتلقّاه عبر الاتصال الجماهيري(414).

* يمكن إبقاء مصطلح الكود كما هو وإخضاعه للتصريف : كود – كوّد – يكوّد – تكويداً.

(412) M. Wolf, cit., p. 123.

(413) U. Eco & P.Fabri, " Progetto di Ricerca sull'Utilizzazione dell'Informazione Ambientale,Problemi dell'Informazione ", n°4, 1978, in Wolf, cit p. 124.

(414) Ibid.

كانت نظرية المعلومات تهتم بتحليل شروط مثالية لبثّ الرسائل، أما الآن فيجري التشديد على أن التأثيرات والوظائف الاجتماعية للإعلام لا يمكن أن تنفصل عن الطريقة التي تتمفصل فيها، داخل السيرورة الاتصالية، آلية التعرّف على الرسائل وإعطائها معنى، وهي آلية تشكّل جزءاً لا يتجزأ من الغلاقة الاتصالية.

وهكذا، تفتح بين الرسالة التي تعدّ شكلاً حاملاً للمعنى وبين الرسالة المستقبلة التي تعدّ معنى، مساحة مركّبة وممفصلة. وتدخل في هذه المساحة، من الناحية السيميولوجية، درجة تشارك المتلقّي والمرسل في المقدرات المتعلّقة بمختلف المستويات التي تبني معنى الرسالة. أما من الناحية السوسيولوجية، فالمتغيّرات المرتبطة بعوامل الوساطة بين الفرد والاتصال الجماهيري (شبكة مجموعات صغيرة، تدفّق في مستويات مختلفة، أدوار قادة الرأي، عادات وطرائق استهلاك الإعلام إلخ..)، تأخذ شكلها داخل تلك المساحة. وتحدّد الارتباطات المتبادلة بين هذين النظامين، إمكانية القيام بما يسمّى " الفك التحريفي لرموز الكود "(415)، حيث يعطي المتلقّون تفسيرات للرسائل تتعارض مع نوايا المرسل ومع الطريقة التي كان يتوقّع أن تجري فيها عملية فك الرموز.

يقول ايكو وفابري(416):

> حسب أوضاع سوسيوثقافية مختلفة، هناك تنوّع في الكود، أو بالأحرى في قواعد الكفاية والتفسير. والرسالة لها شكل حامل المعنى ويمكن أن تمتلئ بمعان عديدة ما دامت هناك أنواع مختلفة من الكود تحدّد قواعد ارتباط مختلفة بين المعطيات الحاملة للمعنى وبين معطيات المعاني. وإذا كانت توجد كودات قاعدية مقبولة من الجميع، فإن ثمة اختلافات بين كودات تحتية أو تحت كودات.

وخلافاً للنموذج السيكولوجي – التجريبي الذي يبرز جميع العقبات المتوضّعة على امتداد العملية الاتصالية السطرية، فإن النموذج السيميولوجي – المعلوماتي يفرض، كعنصر مؤسّس في الاتصال، طبيعته المضمرة كسيرورة تفاوضية تشترك بتحديدها، في أن معاً، أنساق مختلفة من العوامل.

(415) U. Eco &P. Fabri &P. Giglioli & F. Lumachi & T. Seppilli & G. Tinacci Mannelli. " Prima Proposta per un Modello di Ricerca Interdisciplinare sul Rapporto Televisione / Pibblico, Perugia, Istituto di Etnologia e Antropologia Culturale, mimeo, in Wolf, cit.. p.125.

(416) Eco & Fabri, Progetto di Ricerca sull'Utilizzazione dell'Informazione Ambientale. op. cit. p. 12.

وترتبط هذه الطبيعة التفاوضية بقيد مزدوج : بتمفصل الكودات من جهة، وبالوضع الاتصالي الخاص للإعلام من جهة أخرى. أي أنه، من ناحية، يمكن أن ينشأ بين المرسل والمتلقّي قصور كامل في الكودات أو تداخلات ظرفية، أو عدم مشروعية المرسل إلخ..[٤١٧]. من جانب آخر، فإن عدم التماثل بين الأدوار الاتصالية في الاتصال الجماهيري ومجمل العوامل الاجتماعية المعقّدة التي تتم عملية الاتصال من خلالها، تجسّد وضعاً يصبح فيه الفهم إشكالياً من الناحية البنيوية، أي غير قابل للتعريف مسبقاً مع النوايا الاتصالية للمرسل.

وخلافاً للنظرية النقدية، ثمة استحالة في الاستدلال، بشكل مباشر وسطري، على قواعد التعرّف على تأثيرات المعنى، انطلاقاً من قواعد الإنتاج التي تحدّد حقلاً من تأثيرات المعنى الممكنة، ولكن مشكلة معرفة قواعد التعرّف المطبّقة على نص في لحظة معيّنة، بشكل ملموس، تبقى غير متاحة في ضوء قواعد الإنتاج فحسب[٤١٨].

إن القيمة الكشفية للنموذج السيميولوجي - المعلوماتي مهمّة جداً : فهي تدلّ البحث الإعلامي على أنه لا غنى عن أن تقوم استراتيجية التحليل بضم واحتواء وساطة الآليات الاتصالية حول تحديد تأثيرات ماكرواجتماعية. فالوساطة الرمزية التي يقوم بها الإعلام ليست فقط نتيجة عمليات ميكانيكية لنشر وبثّ مضامين متشابهة، على أوسع نطاق، بل إنها، في الحقيقة، نتيجة تدابير وإجراءات تعمل في النواة الأساسية المتشكّلة عبر العلاقة الاتصالية.

ولكن يجب أن نلاحظ أن نفوذ النموذج في التحرّك الفعلي لدراسات الاتصال ، كان أقل من أهميّته النظرية، بسبب صعوبة وضع فرضيات قابلة للتعميم حول التأثيرات الاجتماعية للإعلام، انطلاقاً من دراسة رسائل إعلامية مفردة ضمن شروط تجريبية. على أية حال، يمكن القول إن هذا النموذج فتح فرعاً مهماً في الدراسات المتعلّقة بفهم وقابلية فهم الرسائل الإعلامية، ولا بد من إيجاد طرائق بحثية معقولة لاستخدامه بصورة فعّالة.

• النموذج السيميولوجي - النصّي

يمثّل النموذج السيميولوجي النصّي أداة أكثر ملاءمة من النموذج السيميولوجي المعلوماتي، من أجل تفسير مشكلات خاصّة للاتصال الجماهيري.

(417) Ibid. p. 126.

(418) E. Veron, " Sémiosis de l'Idéologie et du Pouvoir, Communication, 28, in Wolf, cit, p. 126.

يقول إيكو وفابري[٤١٩]:

إن التحدّث عن رسالة تصل، مصاغة على قاعدة كود معيّن، ويجري فك كودها على قاعدة كودات المتلقّين، تشكل تبسيطاً اصطلاحيا للاتصال الجماهيري يمكن أن يوقع في الخطأ. في الواقع الوضع هو التالي:

١- لا يستقبل المتلقّون رسائل مفردة قابلة للتعريف، ولكن مجموعات نصية.

٢- لا يقيس المتلقّون الرسائل بكودات قابلة للتعريف بحد ذاتها؛ ولكن بمجموعات من النصوص المختزنة، يمكن من خلالها، بالتأكيد، التعرّف على أنظمة نحوية من القواعد، ولكن في مستوى أكثر تقدماً من التجريد اللغوي التفسيري.

٣- لا يستقبل المتلقّون أبداً رسالة واحدة بل رسائل عديدة، سواء بالمعنى التزامني أم بالمعنى اللاتزامني.

لا شك أن التحول مهم، فالنموذج السيميولوجي المعلوماتي، بوضعه في المقام الأول العلاقة بين التكويد وفك الكود، كان يظهر آلية عادية سواء بالنسبة للاتصال الجماهيري أم بالنسبة للاتصال الشخصي. أما النموذج السيميولوجي النصّي فإنه قادر، وبمصطلحات سيميولوجية، على وصف بعض الملامح البنيوية الخاصة للاتصال الجماهيري.

كما أن النموذج السيميولوجي المعلوماتي كان يبرز، من السيرورة الاتصالية، بشكل خاص، عنصر الفعل التفسيري المطبّق على الرسائل (من خلال الكودات)، وبهذا الشكل، لم يكن هذا النموذج يأخذ في الاعتبار كما يجب، عدم التماثل في أدوار المرسل والمتلقّي (باستثناء النظر في شكل ردّ الفعل الذي يعدّ جانباً مرتبطاً باتّجاه قابلية بثّ الرسائل). أما في النموذج السيميولوجي - النصّي، فإن هذه العقبة قد أزيلت، إذ لم تعد الرسائل هي المقيّدة في عمليات التبادل الاتصالي (مما كان يتطلّب وجود وضعية متماثلة بين المرسل والمتلقّي)، بل إن العلاقة الاتصالية هي التي تتشكّل حول مجموعات من الصياغات النصّية.

لا يكمن الفرق بين النموذجين في الموضوع الاصطلاحي فقط، بل في الانزياح المفهومي الذي يسمح بالنظر، حسب مصطلحات اتصالية، في نتائج معطى بنيوي للإعلام الجماهيري، أي اللاتماثلية بين أدوار المرسل والمتلقّي.

(419) Eco & Fabri, Progetto di Ricerca sull'Utilizzazione dell'Informazione Ambientale, cit. 127.

من هذه اللاتماثلية، التي تميّز تاريخياً تنظيم الإعلام الجماهيري، تنجم النوعية المختلفة للكفايات الاتصالية بين المرسل والمتلقّي (المرسل يعرف ما الذي يفعله والمتلقّي يعرف ما الذي يتعرّف عليه)، والتمفصلات المتمايزة (بين المرسل والمتلقيّ) لمعايّير الملاءمة وقابلية معرفة المغزى في نصوص الإعلام الجماهيري.

يجب التأكيد، في هذا المقام، على أن المتلقّين، في الإعلام الجماهيري، لا يستقبلون رسائل مفردة متعرّف عليها بحدّ ذاتها، بل مجموعات صياغات نصيّة.

ويفترض هذا التميّز وجود مفاهيم ثقافية نحوية صرفية وثقافة منصّصة.

يقول لوتمان وأسبيسكي[420]:

إن الثقافة بشكل عام يمكن أن تمثّل كمجموعات من النصوص، ولكن من وجهة نظر الباحث من الأدق الحديث عن الثقافة باعتبارها آلية تخلق مجموعات من النصوص والحديث عن النصوص كنتاج للثقافة.ثمة مفهوم جوهري للتميّز النمطي للثقافة يتجلّى في الطريقة التي تعرّف هي نفسها فيها. وإذا كانت بعض الثقافات تمثّل كمجموعات من النصوص المضبوطة.. فإن ثقافات أخرى تشكّل نفسها كنظام من القواعد التي تحدّد إبداع النصوص.

يمكن القول، بكلمات أخرى، إنه في الحالة الأولى، تحدّد القواعد كحصيلة من السوابق.. أما في حالة التوجّه نحو القواعد، فإن التأليف الوجيز يمتلك هيئة آلية توليدية، وفي حالة التوجّه نحو النص، تنشأ عناقيد من الاستشهادات ومقاطع مختارة.

إن التميّز الذي صاغته سيميولوجية الثقافة، يعدّ الثقافة النحوية الصرفية ثقافة رفيعة، تحدّد بنفسها قواعد إنتاجها (بلغة تفسيرية متمظهرة ومعترف بها من قبل جماعة خطابية كاملة)، ويعدّ الثقافة المنصّصة ثقافة الإعلام الجماهيري حيث توجد الصياغات النصيّة التي تفرض نفسها وتنتشر وتتشكّل كنماذج ومرتسمات وأنواع[421].

إن الطبيعة المنصّصة لعالم الاتصال الجماهيري تؤدّي إلى نتائج عميقة فيما يتعلّق بطرائق تلقّي الإعلام نفسه: من المحتمل أن تكون الكفاية التفسيرية للمتلقّين ليست مبنية على كودات واضحة ومعترف بها بحدّ ذاتها، بقدر ما هي مؤسّسة ومتمفصلة على تراكيب من النصوص تم استهلاكها. أيضاً المرسل، وإلى جانب معرفته للكود،

(420) J. Lotman & B. Uspenski," Tipologia della Cultura ". Ed. Bompiani. Milano. 1975. p.51.

(421) P. Fabri. " Le Comunucazioni di Massa in Italia: Sguardo e Malocchio della Sociologia », Versus. n° 5. 1973. in Wolf, cit. p.129.

من المحتمل أن ينجز كفاية نصيّة متّجهة نحو قيمة (النجاح) نصوص سابقة، و " وصفات " و " صياغات " مستقرّة. في الإعلام الجماهيري، الاتجاه نحو النص المستهلك سابقاً أو المنتج سابقاً هو معيار اتصالي " قوي " ومقيّد، وهذا يوصل، خاصّة بالنسبة للمتلقّين، إلى كفاية تفسيرية، يؤدّي استدعاء النصوص السابقة فيها والمقارنة بين نصوص سابقة ونصوص لاحقة، إلى تراكم كبير للحلقات المفرغة.

إن المعطى السوسيولوجي المتّصل بالنموذج التاريخي والمؤسّسي الذي نظّم الإعلام الجماهيري معه أجهزته (تدفّق وحيد الاتجاه، تمركز، دورات برامجية، هياكل برامجية جامدة)، يرتبط، حسب مصطلحات الآليات الاتصالية، بعناصر خاصّة يمكن إيجادها وتوصيفها في النموذج السيميولوجي - النصّي. هذا يعني أن النموذج الأخير يسمح بالتعرّف على الطريقة التي يتحول بموجبها معطى بنيوي للأجهزة، إلى آلية اتصالية والطريقة التي يؤثّر فيها، عبر هذه الوساطة، على عمليات التفسير وعلى عمليات اكتساب المعرفة، وبالنتيجة، على تأثيرات الإغلام الجماهيري[422].

من الواضح أن التشابه الجوهري للروتين الإنتاجي في مختلف وسائل الإعلام الجماهيري، لا يفضي إلى تجانس التغطية المعلوماتية في العمق فحسب، بل يربط أيضاً التأثير الناجم عنه بأنظمة المعرفة لدى المتلقّين (ما دام الأشخاص يتشاركون في تلقّي ذات الأجندة المعلوماتية). ولكن هذا التأثير يأتي من خلال وساطة في طريقة تفسير النصوص، هذه الوساطة هي كيفيات قيام الآليات المتعاطية مع المعرفة بتشييد صورة العالم يستخرجها المتلقّون من النوع المعلوماتي للإعلام الجماهيري[423]. وبشكل متشابه، يمكن مواجهة مشكلة تنصيص الموضوعات التي يقوم بها الإعلام الجماهيري حول بعض المسائل الاجتماعية، معطياً إيّاها أهمية خاصّة، عبر مقاربة تكميلية، إمّا بتمحيص سبب حصول التنصيص وحول أية مسائل، وإمّا بتحليل الطرائق والاستراتيجيات الاتصالية التي تميّز، حسب تحديدات النظرية السيميولوجية النصيّة، تنصيص الموضوعات من خلال أنواع معلوماتية أخرى[424].

من المحتمل أن تكون الارتباطات بين هاتين النقطتين مفيدة لكليهما.

هناك جانب آخر خاصّ لظواهر الاتصال الجماهيري، تمّ التركيز عليه من قبل النموذج السيميولوجي النصّي، وهو يتعلّق بدور المتلقّي في بناء نص و فاعليته

(422) S. Larsen, " Memory for Radio News : Discourse Structure and Knowledge Updating ", Psychological Reports Aarhus, n° 51, 1980, in wolf, p. 130.

(423) Ibid.

(424) A. Agostini, " La Tematizzazione. Selezione e Memoria dell'Informazione Giornalistica, Problemi dell'Informazione ", n°4, 1984, 10.

الاتصالية. لقد درست السيميولوجيا وتحاليل الخطاب، بشكل خاص، الدينامية التبادلية بين المرسل والمتلقّي، وهي مرتبطة ومنتسبة إلى البنية النصّية، مبيّنة كيف تتفكّر هذه البنية المسارات التفسيرية التي يَجب على المتلقّي تحقيقها.

في العلاقة الاتصالية للإعلام الجماهيري، يرتدي هذا الجانب أهمية خاصة، لأن الإعلام يمأسس ضرباً من " الممارسة الصدفية ".

يقول فابري[٤٢٥]:

إن إحدى الخاصّيات المميزة لاستراتيجيات الاتصال الجماهيري هي، بالتأكيد، عدم معرفة قواعد الاتصال التي يتّبعها جميع أفراد الجمهور، وعدم معرفة السياقات التي يتم فيها استيعاب النصوص. من هنا تنشأ صعوبة جمّة في استخدام منظّم لقواعد قابلة للتطبيق في أوضاع الاتصال التبادلي المختلفة، من أجل إقرار عملية اصطفاء الخيارات الاتصالية المتاحة. إنه سبق إصرار وتعمد تجاه المجهول. إن الاتصال الجماهيري هو المكان الذي تترافق فيه عدم إمكانية التكهّن بما ستقوله الرسالة للمتلقّي، مع أقصى حدّ من عدم إمكانية توقّع كيفية استيعاب هذه الرسالة.

إن عدم التماثلية في الأدوار الاتصالية يتسبّب في بروز عناصر تتعلّق بالمتلقين في الاستراتيجيات النصّية، وتتّصل بعملهم التفسيري وبالمعلومات التي يمتلكها المرسل حولهم. الواقع أن المرسل يستبق فهم المتلقّي، ويختار شكل الرسالة الإعلامية التي يمكن أن يقبلها المتلقّي، وبفعله هذا، يتبيّن أن عملية التكويد تتأثّر بشروط عملية فك الكود. فالمعلومة نفسها تتحول بسبب أنه جرى تبادلها[٤٢٦]. وعلى عكس ما يصفه النموذج المعلوماتي، فإن المتحدّث لا يحدّد رسائله، آخذاً في الحسبان فقط المعلومة التي يريد بثّها أو نشرها، ولكنه يعتمد بالضرورة على شروط ظرفية فيما يتّصل بمعارف متلقّيه وقدراتهم وأوضاعهم. إنه موضوع مهم جداً في الدينامية الإنتاجية والاتصالية للإعلام، تم إبرازه نظرياً من قبل النظرية السيميولوجية – النصّية ، ويجب أن يخضع لمزيد من التحليل في العمق ومزيد من المفصلة الخاصّة في البحث.

من الأمثلة المتعلّقة بهذا الموضوع، تحليل الدور الذي تؤدّيه، في عملية بناء النصوص الإعلامية، المعارف التي يمتلكها المرسل حول الجمهور، أو تحليل الطريقة التي تنعكس فيها هذه الأنظمة المعرفية على الدينامية الاتصالية، أو دراسة طريقة تشكّل هذه الأنظمة وتثقّلها ودرجة مرونتها وهكذا. وتحدّد كلّ هذه النقاط المهمّة أحد

(425) Fabri, Le Comunicazioni di Massa in Italia, op. cit, p. 131.
(426) Jacques, " Le Scheéma Jacobsonien ", op. cit., p. 131.

النقاط الأقلّ تناولاً من قبل الدراسات الاتصالية. إن الإجراءات التقليدية التي تمت بموجبها مواجهة مسائل كقطاعات الجمهور الثانوية والصور المؤسّسية وأبحاث السوق إلخ.. تؤكّد وجود درجة معيّنة من الانعزال عن الواقع ومن عدم الاهتمام في معرفة حقيقة الجمهور، ومن التنبؤ الذاتي، وهناك، أحياناً، نوايا في ضبط الجمهور ومحاولة أقلمته مع الصور التي يمتلكها المرسل عنه[٤٢٧]، وليس مع الصورة الواقعية لهذا الجمهور.

إن لدى كلّ من المرسل والمتلقّي صورة عن الآخر، يشكّلانها ويغيّرانها ويعطيانها أهمية معيّنة، ولكنهما يفعلان ذلك بطريقة انطوائية دون وجود مرجعيات موضوعية، و لهذا، يميلان إلى الوقوع في المقولبات، المرسل يقع في مقولبات عن طبيعة الجمهور والمتلقّي يقع في صور مقولبة حول ما ينتظره من الإعلام[٤٢٨].

هناك، إذن، مسائل متّصلة بالمنطق الاتصالي للخطاب الإعلامي، تشكّل الأجوبة عنها أهمية في موضوع التأثيرات الاجتماعية : إن عدم التماثل في الأدوار الاتصالية، الذي ينجم عنه تمايز في الكفاية الاتصالية بين المرسل والمتلقّي يجعل عملية ضبط المحادثة - الغائبة في حالة الإعلام الجماهيري، في مستوى الردّ - سبقيّة الإصرار بشدّة في النص، حيث تتفاقم، بالدرجة الأولى، الملامح التي تنطبق على المتلقّي - النموذج (أي المتلقّي الذي يتصوّره المرسل ويرتسم في النص)، وحيث تتصعّد عناصر المعرفة المشتركة التي يفترضها النص، وتزداد حدّة الطابع شبه النظامي لشروط مقبولية ذات النصوص (المركّبة والمصنوعة داخل قوالب جامدة). ويرتبط العنصر الأخير بالدور الأساسي الذي تضطلّع به الأنواع في الإعلام الجماهيري، سواء في مختلف أشكال التعرّف عليها، سواء في دينامية تحوّلها الداخلي المتّصل بنظامها الشامل.

من خلال انتشار النموذج السيميولوجي النصّي، بشكل خاص، دخل النموذج الاتصالي ذو الأصل المعلوماتي في أزمة، يعيدها ولف[٤٢٩] إلى عدة عوامل منها وجود أطر عامة للمرجعيات أكثر اتّساعاً من البحث الإداري، وتغيّر الإشكاليات التي تحتلّ الأولوية، والعقم التدريجي للبحث الإمبيريقي ذي المستوى الهابط، وبروز مقاربات في فروع علمية متباينة حول مفهوم الاتصال.

(427) D. McQuail, " Communication ", Ed.Longman, London, 1975, p. 181.
(428) Ibid. p. 167.
(429) M. Wolf, cit. p. 132-134.

إن التداخل بين هذه العوامل سمح – حسب رأي وولف[٤٣٠] – ببدء مواجهة حامية وجدالية، بين أرباب الدراسات الإمبيريقية والفروع العلمية الاتصالية الأخرى. إن استمرار هذه المواجهة يشكّل اليوم مشكلة معقّدة وحسّاسة تتطلّب عناية كبيرة، خاصة على مستوى مخطّطات بحثٍ وخيارات منهجية. من المحتمل أن المرور عبر مراحل انتقالية من التكامل يمكنه أن يسهم في تطوير أبحاث الإعلام والاتّصال، عبر مرجعيات وفروع علمية متداخلة ومتشعّبة كما هي ظاهرة الإعلام الجماهيري.

ويعتقد ماكويل[٤٣١] أن الإعلام الجماهيري ظاهرة شديدة التعقيد لا يمكن تمثيلها بنموذج تقليدي، بالإضافة إلى ذلك، فإن الأنشطة الاجتماعية المفتاح التي يجب أن تخضع للدراسة ليست اتصالية فحسب، إلاّ بمعنى أن جميع العلاقات الاجتماعية تتبع للاتصال.

بالإضافة إلى اللاتماثلية في أدوار المرسل والمتلقّي، ثمة جوانب أخرى أساسية تجعل من المقاربة الاتصالية البحتة نموذجاً عاجزاً عن الإحاطة بالظاهرة الإعلامية إحاطة كافية: أولها أن المرسلين والمتلقّين يشكّلون مجموعات اجتماعية ذات بنيات متباينة، فالمرسلون عبارة عن مجموعات تتمتّع بمستويات تنظيمية شكلية وهي تنظيمات تراتبية ومتماسكة بقوّة عبر قيم مهنية مشتركة وأنظمة فعّالة من المحاسبة والمكافأة. أما المتلقّون، وعلى الرغم من أنهم يمثّلون حالة بنيوية حيث روابط المجموعة وأنظمة المرجعيات ممفصلة، وفي جزء منها مشتركة، إلاّ أنهم لا يمتلكون أشكالاً تجمّعية يمكن مقارنتها مع تلك التي يتمتّع بها المرسلون، بالإضافة إلى أنه من الصعب أن يمتلك الجمهور الإعلامي والجمهور الاتصالي إدراكاً جماعياً بالذات[٤٣٢].

ولا يقتصر الأمر على ذلك، فالبنية التنظيمية القوية التي تميّز المرسلين غالباً ما تؤدّي إلى ألاّ ينصرف الاتصاليّون (أي القائمون مباشرة على الاتصال)، إلى الاتصال، وعندما ينهمكون فيه فإنهم، بالدرجة الأولى، لا يتّصلون بالجمهور كما هو متعارف عليه بشكل عادي، ولكن مع قطاعات جمهور خاصّة جداً يمكن أن يكونوا زملاء، أو معلنين محتملين أو أعضاء في مؤسّسات أخرى. من الصعب، عندئذ، تمثيل سيرورة الاتصال الجماهيري من خلال نموذج اتصالي بسيط[٤٣٣].

كلّ ذلك، يستوجب أن يهتم البحث الإعلامي والاتصالي، بشكل جوهري، بدور الاتصاليّين في بنيات السلطة المهيمنة، وبقدرتهم على توليد تأثير مواجهة مع

(430) Ibid.
(431) D. McQuail, in Livolsi, Prospettive nella Ricerca sui Mass Media, op. cit. p. 54.
(432) McQuail, Communication, op. cit. p. 175.
(433) Ibid. p. 177.

الجمهور.فقط على هذا المستوى الماكرواجتماعي يمكن التقاط معنى الاتصال الجماهيري.

إن هذا الميل، الناشئ جزئياً من مبدأ الوظيفية الضمنية في إرث النظرية النقدية، أخذ يصبح، في الحقل الشامل للدراسات الإعلاميّة، الشكل الأحدث الذي من خلاله يجري استرجاع تعارضات قديمة. ونتيجة لهذا الضرب من الاتّجاهات، فإن إحدى المهمّات العسيرة والحاسمة هي معرفة وتطوير أي التقاء ممكن بين مختلف الفروع العلمية التي تضطلّع بدراسة الإعلام الجماهيري. إن اقتراب فرع علمي ما من حدود فروع أخرى، خارج المشكلات التي تعدّ جوهرية وذات أولوية، يعرقل جهود التضافر التي أخذت تخرج إلى حيّز الوجود في بعض حقول البحث الإعلامي. ولكن هناك أيضاً جانباً آخر : فإذا لم يتركّز البحث على صلات ممكنة وارتباطات ووساطات بين مختلف المقاربات، ستكون النتيجة الضمنية للإدّعاء بأن فرعاً علمياً معيّناً دون الفروع الأخرى، هو الأكثر أهمية، استمرار التمثّل السطري- البثّي القديم في السيرورة الاتصالية.

خلف المبدأ الوظيفي الذي يجد الموضوع الأولي للتحليل في ماكرو وظيفة الرقابة الاجتماعية التي يمارسها الإعلام، هناك فكرة ذات طبيعة اتصالية تخلط بين وحدانية الاتجاه الاتصالي وبين الفعل الاتصالي البسيط رغم وجود فروق جوهرية وأساسية بين آليات الاتصالين التي تفضي إلى نتائج شديدة الأهمية، ذات طابع اجتماعي. وهناك، من جهة أخرى، مفهوم ثقافي يفضي إلى تقاسم كامل ومتجانس للخريطة المعرفية من قبل جميع أعضاء مجتمع ما، وهو مفهوم متأثّر بمفاهيم الرصاصة السحرية التي ثبت، تجريبياً وإمبيريقياً، عدم صلاحيتها لصياغة مقاربة علمية واقعية ودقيقة، قادرة على استيعاب تعقيدات الظاهرة الإعلامية[٤٣٤].

لا ريب أن الموضوع الأهم لا يرتبط بقلب العلاقة بين الاتجاه السوسيولوجي والاتجاه الاتصالي في الدراسات الإعلامية الراهنة، ولكنه يكمن في إيجاد وتعميق التكاملات والتبادلات والتوصّل إلى عمليات استيعاب فعّالة بين أفقيْ البحث العلمي الإعلامي.

الحقيقة أن مختلف الأبحاث الإعلامية تقع على مفترق طرق فروع علمية عديدة، فظاهرة الإعلام الجماهيري تمتد لتشمل كل مناحي النشاط الإنساني في المجتمعات الراهنة، ويفترض أن تحظى بمقاربات متعدّدة الأوجه ومتشعّبة، بدءاً من تحليل العملية

(434) G. Sankoff, " The Social Life of Language ", Ed. University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1980, p. 50.

الاتصالية وتحديد طبيعتها ومساراتها وخصوصياتها، مروراً بالتعرّف على علاقة المؤسّسة الإعلامية بجميع المؤسّسات الاجتماعية الأخرى، وبجميع قطاعات الفعل الإنساني، وبمختلف الأنظمة الاقتصادية والسياسية والثقافية والقيمية والاجتماعية التي يتميّز بها مجتمع ما في لحظة تاريخية ما، انتهاء بدراسة آلية العلاقة القائمة بين المرسل والمتلقّي، من حيث أنها علاقة غير متكافئة من جهة، وعلاقة يمارس فيها المتلقّي تفسيرات للمعنى تولّد حالة تفاوضية بين الطرفين، من جهة ثانية، ومن حيث أن الجمهور الإعلامي بحدّ ذاته ليس جمهوراً متجانساً وإنّما هو، في الواقع الحياتي قطاعات متنوّعة ومتمايزة ومتفاوتة ومختلفة من جميع النواحي. كلّ ذلك، ينتج جملة من التأثيرات التي يجب أن تمحّص عبر مقاربات اجتماعية وثقافية وسيميولوجية نصيّة واتصالية أيضاً.

* * *

الباب الثالث

نظريات التأثير غير المباشر والطويل الأجل

الفصل الأوّل

من الآفاق القريبة إلى الآفاق البعيدة

تمهيد

كلّ ما تم بحثه في الفصول السابقة، كان يتعلّق بتأثيرات الإعلام والاتصال الجماهيري الآنية، سواء أكانت هذه الآنية بسيطة ومباشرة وفورية كما في نظرية الرصاصة السحرية، أم كانت معقّدة ومتداخلة ومتأثّرة بديناميات الاتصال وبعوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية وقيمية، ومرتبطة بطبيعة الجمهور وتفرّعاته وتشعّباته وامتداداته المكانية والزمانية.

بكلمات أخرى، جرى بحث ما يمكن أن يحدث للفرد والجماعات في مساحة زمنية متلاصقة مع زمن نشر وبثّ الإعلام الجماهيري ضروب محدّدة من المضامين لقطاعات من الجمهور تتمتّع بخصائص معيّنة.

من الواضح أن النظريات الاصطفائية ليست مبنية لتفسير التأثيرات الطويلة الأجل وغير المباشرة للإعلام على المجتمع وعلى الثقافة، لأنها تلجأ إلى مناهج استعارتها من العلوم الفيزيائية، أي من معارف تنطلق من علاقات سببية آنية بين متغيّرات تابعة ومتغيّرات مستقلّة.

لذلك، بدأ هذا الاتّجاه يتغيّر منذ الثمانينيات، واتّجهت الأبحاث الإعلامية نحو التشديد على ضرورة التخلّي عن فكرة أن روائز الإعلام محدودة، وعلى تبنّي مفهوم التأثير القوي للإعلام، ولكن في مساحات واسعة من الزمن، ومن خلال جملة من العوامل المرتبطة بالتنظيم الإعلامي وبخصائص الجمهور وبالشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والقيمية للمجتمع.

وكما يقول ميلفين دوفلور[٤٣٥]، فإن أهمية الاتصال الجماهيري في المجتمع لا تكمن في التأثيرات الفورية على قطاعات جمهور خاصّة، ولكن في التأثيرات غير المباشرة والمتوارية والبعيدة الأجل، على الثقافة الإنسانية وعلى تنظيم الحياة الاجتماعية.

ومن أجل وضع هذا التحول داخل سياقاته، لا بد من الإشارة إلى مسارين يقودان هذا التوجّه الجديد:

- أولهما مرتبط بالبحث الإعلامي، ويتميّز بظهور نماذج عديدة للتأثيرات القويّة. إذ تتّصف الفترة الحالية بأنها متّجهة نحو دراسة مشكلة التأثير حسب خطوط جديدة تشهد تبدّلات جوهرية، تؤكّد استمرارية قويّة من جهة، وطفرات انقطاعية، من جهة أخرى، في مجال النماذج التي تمّت صياغتها مؤخراً.
- أما المسار الثاني الذي تبدّلت عبره آفاق التأثيرات، فيتمثّل في أن عناصر من النظرية السوسيولوجية العامة ومن سوسيولوجية المعرفة المستندتين إلى موضوعات خاصّة، قد دخلت حقل البحث الإعلامي، كالتكيّف الاجتماعي والبناء الاجتماعي للواقع، وأن الالتحام بين أبحاث الإعلام وجوانب من النظرية السوسيولوجية وسوسيولوجية المعرفة وسوسيولوجية الثقافة والسيميولوجيا والسيكولوجية المعرفية قد أصبحت مرجعيّات مستقرّة في البحث الإعلامي.

على جانب آخر، هناك وجهان متداخلان في تلك الأبحاث، هما إيلاء اهتمام خاص للطبيعة التراكمية للتأثير، والميل إلى الاعتقاد بأن الإعلام الجماهيري قادر على ممارسة روانز قويّة على الجمهور.

مفاهيم التكيّف الاجتماعي

من المعروف أن المهمّة الأساسية للنظرية السيكولوجية كانت، خلال قرن كامل من الزمن، فهم الأسباب التي تدفع الأفراد الذين يتلقّون مثيرات من بيئتهم الفيزيائية والاجتماعية، أن يردّوا ويسلكوا ويتكيّفوا بأساليب اكتسبت أشكالاً محدّدة. ولكن، بمرور الزمن، تتالت نظريات سيكولوجية عديدة بدّلت أنواع التأثير التي تقع بين المثير والاستجابة.

(435) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, op. cit p. 219.

ويورد دوفلور[٤٣٦] ثلاث مجموعات مختلفة جداً من العوامل، تقع على الخط الواقع بين الإدراك الحواسي للمثيرات وبين اختيار الفرد لردود مناسبة يعطيها لها. وقد تشكّلت هذه المجموعات في مراحل زمنية متتابعة:

- المجموعة الأولى تتألّف من خاصيّات عقلية متوضّعة في وعي الإنسان.
- المجموعة الثانية تتكوّن من غرائز وراثية افترض أنها متشابهة بين جميع البشر.
- المجموعة الثالثة تستند إلى مفاهيم مرتبطة بعوامل معرفية اكتسابية.

وهكذا، وصلت السيكولوجيا إلى اعتماد صيغة (م – خ – ر)، حيث حرف الميم يعني المثير والراء ردّ الفعل، أما حرف الخاء فهي جملة خصائص المتعضّي التي تفسّر ردوداً متمايزة على فئات معيّنة من المثيرات.

منذ البداية، اعتمدت السيكولوجيا التجربة كاستراتيجية منهجية مفضّلة وهكذا فعلت السوسيولوجيا مع الاستطلاعات القائمة على العيّنات. ويرجع تفضيل السيكولوجيا للتجربة إلى مراحل البحث الأولى، فالعلوم الرسمية كانت تنظر إلى السيكولوجيا بريبة كبيرة لأن هذه الأخيرة كانت تهتم بظواهر عقلية كالأفكار والانفعالات والذكريات. وكانت هذه الموضوعات، حينذاك، تبدو غريبة وتافهة ولا يمكن الاعتراف بها كموضوعات شرعية للدراسة من قبل علماء الفروع العلمية التقليدية.

ومن أجل إحباط هذه النظرة لجأ علماء السيكولوجيا إلى التجربة كوسيلة وحيدة صالحة للتوصّل إلى نتائج موثوقة، ذلك لأن المناهج التجريبية كانت متّبعة في الفيزياء والبيولوجيا. وأمام اعتراض العديد من العلماء على علمية منهج الحوار السيكولوجي ودراسات وصف الحالات السيكولوجية التي تعتري الأشخاص، اتّبع علماء النفس طرائق المقاربة التجريبية والملاحظة المباشرة للسلوك الإنساني اللتين تعدّان مناهج شرعية من أجل تطوّر المعارف حول هذا الموضوع.

أما بالنسبة للسوسيولوجيا، فإن هذا النوع من المقاربات عسير جداً بل مستحيل، لأنه لا يمكن إجراء تجارب مباشرة لدراسة خصائص وسلوكيات مجموعات كبيرة من البشر أو جماعات أو مجتمعات بأكملها. ومن أجل تذليل هذه العقبة، عمد السوسيولوجيون إلى اتّباع استراتيجيات بديلة تحتضن منطق المناهج السيكولوجية بطرائق أخرى، حيث استبدلت الجماعات الإنسانية الكاملة بمجموعات صغيرة تمثيلية، أي بعيّنات يستطيع الباحث من خلال استمارات يعدّها وعبر أنواع أخرى من السبر،

(436)Ibid. p. 221.

أن يراقب تأثيرات المتغيّرات الخارجية، باستخدام مناهج إحصائية معقّدة تتيح الحصول على علاقات كمّية بين متغيّرات تابعة وأخرى مستقلّة. وقد استخدمت السوسيولوجيا أيضاً بعض المقاربات النوعية كالملاحظة التشاركية ودراسات ميدانية أخرى.

على أي حال، فإن الطرائق المتّبعة من السيكولوجيا والسوسيولوجيا تفيد خاصّة في دراسة السلوك على المدى القريب والمتزامن، ولا تصلح لدراسة التحوّلات السلوكية خلال مساحات واسعة من الزمن.

ولهذا، لم تستطع النظريات الاصطفائية اكتشاف تأثيرات ذات مغزى وفورية نتيجة تعرّض الجمهور الإعلامي لمضامين الإعلام الجماهيري، واعتبر أغلب الباحثين في هذا المجال أن السبب يعود إلى أن قدرة الإعلام على تغيير أو تعديل سلوكيات الناس محدودة، وقد حمّل قليل من العلماء مسؤولية هذه النتائج للنظريات الاصطفائية نفسها، التي تقتصر مناهجها على دراسة العلاقة بين السلوك وبين مضامين الإعلام بشكل آني ومتزامن، خلال مراحل زمنية قصيرة ومتقاربة.

وقد فهم علماء الإعلام مؤخّراً أن النظريات التي اعتمدوها لم تعد صالحة وأن هناك حاجة إلى مقاربات تدرس التأثيرات على الأفراد والجماعات، عبر تعرّض مستمر ومتراكم لمضامين الإعلام، وتبحث في التأثيرات الطويلة الأمد وغير المباشرة على الثقافة والمجتمع.

ثمة مقاربة عامّة تقدّم إطاراً مرجعياً يمكن من خلاله دراسة التأثيرات غير المباشرة والطويلة الأجل للإعلام، وهو مفهوم التكيّف الاجتماعي (Socialization)[٤٣٧]، وهو مصطلح - مظلّة، يحتضن جوانب عديدة من تلك الصيرورة التي تتشكل فيها آراء واتجاهات وسلوكيات أعضاء المجتمع، نتيجة تأثّرهم، خلال مساحات زمنية ممتدّة، بالأنظمة الاجتماعية - الثقافية التي ينتمون إليها. ويرتبط أحد جوانب التكيّف الاجتماعي، بشكل مباشر، بأنظمة الإجابات الشخصية للفرد، أي الطريقة التي يكتسب فيها الشخص أشكالاً جديدة من الفعل وأفكاراً جديدة تبدّل أساليبه الاعتيادية في تنظيم ردود فعله على البيئة الطبيعية والاجتماعية. وهناك جانب آخر للتكيّف الاجتماعي يضع الأشخاص في إطار من التبادلية الاجتماعية، بشكل يفهم معه كيف يعدّ هؤلاء الأشخاص للدخول وللمشاركة في مجموعات منظّمة، وكيف يمرّون في جميع المراحل عبر دورة حياتهم.

(437) Ibid. p. 224.

الإعلام الجماهيري كعامل للتكيّف الاجتماعي

في المجتمعات التقليدية يلاحظ أن دورة الحياة الإنسانية تمر عبر طقوس متعدّدة، بدءاً من العائلة والمدرسة والجامعة، مروراً بالعمل وما يطرأ عليه من تطوّر نوعي وموقعي، انتهاءً بمجموعات الانتماء والمجموعات الاجتماعية الأخرى.

لقد طرأ على هذه الدورة تبدّلات عميقة في المجتمعات العصرية، فثمّة مصادر للمعلومات والمعرفة والثقافة والقيم تخترق حدود النواة الأوّلية للإنسان، محدثة روائز تتداخل مع طرائق التربية في نطاق الأسرة وأحياناً تتعارض وتتناقض معها، وتجتذب هذه المصادر الفرد منذ نعومة أظفاره، محاولة التأثير على ميوله وسلوكياته وأساليب تفكيره وكيفيات فهمه للأحداث التي يعيشها وينمو معها. وترافق هذه المصادر حياة الإنسان أثناء مراحل التعليم المختلفة وتمارس تأثيراتها أيضاً في عمليات التعلّم والتربية، وكذلك الحال في مراحل العمل المتتابعة، وحتى انتقاء الفرد لمجموعات انتمائه يتأثر بتلك المصادر المتنوّعة.

لا ريب أن الإعلام الجماهيري يشكّل أهم هذه المصادر، فقد أصبح يمثّل حضوراً كلّياً في المجتمع ويمارس طقوسه التي أخذت تهمّش كلّ الطقوس الأخرى، وحوّل العالم بأسره، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، إلى حلبة إعلامية واحدة تستقطب متفرّجين من جميع أصقاع الأرض.

قبل الدخول في صميم العلاقة بين التكيّف الاجتماعي والإعلام الجماهيري، لا بد من تحديد مفاهيم التكيّف الاجتماعي للتعرّف على آليات عمل الإعلام في هذا المضمار[٤٣٨].

منذ فجر التاريخ يجري نقاش، في جميع الفروع العلمية حول ثنائية الطبيعة / الثقافة. وكان التساؤل الأهم يتعلّق بموضوع الخصائص التي تميّز الإنسان عن الحيوان، وخاصة فيما إذا كانت الشخصية الإنسانية - ذلك التنظيم السيكولوجي الداخلي والفريد الذي يكوّن الطبيعة الإنسانية لكل فرد - وراثية أم مكتسبة.

وحتّى إذا كان النقاش قد حسم وتم الاعتراف بالدور المركزي للتعلّم، فإن المسألة إلى اليوم ترتدي أهمية حيوية.

(٤٣٨) حول عمليات التكيّف الاجتماعي، اقرأ :

- J. A. Clausen, " Socialization and Society ", Ed. Little Brown, Boston, 1968.
- R. A. Levin, " Culture, Behavior and Personality ", Ed. Aldine, Chicago, 1973.

كيف يتم إعداد الإنسان ، خلال سنين معيّنة، في أن يصبح وأن يبقى عضواً في المجتمع، وفي أن يشكّل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع ؟ بكلمات أخرى، من أية مصادر وعلى أساس أية تجارب يكتسب كلّ منّا جميع الاتّجاهات الداخلية، وأنظمة الرقابة والمعارف التي تتيح تفسير العالم المحيط بمفاهيم محمّلة بمعنى، ويواجه البيئة الفيزيائية المحيطة ويحقّق ارتباطات بالآخرين بشكل مقبول للإنسان الآخر؟ الجواب على كلّ هذه التساؤلات هو: من خلال التكيّف الاجتماعي.

فمفهوم التكيّف الاجتماعي، إذن، واسع جداً. وهو عنوان عريض لعناصر معقّدة، وعملية طويلة الأجل ومتعدّدة الأبعاد لتبادلات اتصالية بين الأفراد وعوامل مختلفة في المجتمع، تفضي إلى إعداد الفرد للعيش في بيئة اجتماعية – ثقافية.

في أفق فردي، يزوّد التكيّف الاجتماعي الفرد بأدوات لكي يتّصل ويفكّر ويحلّ مشكلات، مستخدماً تقانيات مقبولة من المجتمع، وبشكل عام، لكي يتأقلم، بطريقة فريدة وأصيلة، مع البيئة. وعلى صعيد المجتمع، يرشد التكيّف الاجتماعي أعضاءه نحو انسجام كافٍ لضمان النظام في المجتمع وقابلية الاستشراف والاستمرارية.

• التكيّف الاجتماعي والفرد

لقد نشأت وجهات نظر عديدة، ولكن متكاملة، حول مفهوم التكيّف الاجتماعي، فالأنتروبولوجيون يستخدمون مصطلح التثقيف لتحديد السيرورة الاكتسابية حيث يخزّن أعضاء جدد في مجتمع ما جميع أوجه ثقافتهم، ليس فقط العاداتْ والتقاليد، بل أيضاً اللغة واستخدام الأدوات ومجمل الملاحم والأساطير والمعتقدات المشتركة والفولكلور. وعندما ينتقل الأشخاص من مجتمع إلى آخر تجري عملية إعادة تكيّف، يطلق عليها عملية الاستيعاب.

يستطيع الإعلام الجماهيري أن يتدخّل في تشكيل جميع عناصر التعلّم والتأقلم، موضّحاً خصائص النظام الاجتماعي في المجتمع، ومميّزات النظام الاجتماعي في المجتمع الجديد الذي ينتقل إليه الإنسان.

ويميل السيكولوجيون إلى تعريف التكيّف الاجتماعي كعملية تعلّم أساليب ممارسة رقابة على الغرائز الطبيعية، التي إن تركت حرّة في أن تنمو بدون رقابة، تؤدّي إلى سلوكيات غير مقبولة اجتماعياً ومخلّة بالنظام الاجتماعي.

ثمة مثال شهير حول الرؤية السيكولوجية للتكيّف الاجتماعي، يكمن في النظريات النفسية لسيغموند فرويد[٤٣٩].

غير أن أطروحات فرويد ونظريات أخرى للتحليل النفسي لم تكن مقبولة من قبل جميع السيكولوجيين.

على أية حال، فإن المبادئ التكوينية للتحديدات السيكولوجية المتعلّقة بالتكيّف الاجتماعي، بشكل عام، ترى أن الغرائز غير المقبولة اجتماعياً يجب أن تتم مراقبتها، والقواعد الأخلاقية للمجتمع يجب أن يتم تعليمها والسلوك اليومي يستوجب إيجاد حلّ للصراع بين عنصري الشخصية الإنسانية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام : ما هو دور الإعلام الجماهيري كعامل من عوامل عملية التكيّف الاجتماعي، في تحقيق تلك الأهداف الأساسية ؟ هل التعرّض لمضامين الإعلام يساعد الأفراد على مراقبة غرائزهم وحاجاتهم العميقة، أو أنه على العكس، يدفعهم نحو البحث عن إرضاءات بطرائق غير مقبولة ؟ هل يعلّم الإعلام عناصر التوحيد القياسي الأخلاقية التي يقبلها المجتمع، بشكل عام، أم أنه يقدّم عناصر

---

(٤٣٩) حلّل فرويد بنيات الشخصية الإنسانية، واعتبر أن الطبيعة الإنسانية تحتوي ثلاثة عناصر مرتبطة بالذات تعيش صراعاً مستمراً من أجل ممارسة الرقابة على سلوك الفرد : هذه العناصر هي الرغبة الجنسية والأنا والأنا الأعلى. فالرغبة الجنسية مكوّنة من غرائز طبيعية تبحث عن إرضاء جنسي، والأنا الأعلى هو ذلك الجزء من الشخصية الإنسانية الذي خزّن القواعد الأخلاقية للمجتمع، ويطلق عليه عموماً الضمير. والأنا هو الجزء الذي يقود السلوك ويزوّد الفرد بإدراك واعٍ للتصرّفات التي يقوم بها. وبما أن الأنا هو الذي يوجّه السلوك، فإنه الجانب النفسي الذي يتوسّط بين المتطلّبات غير الواعية للرغبة الجنسية والقيود الاجتماعية المكتسبة من قبل الأنا الأعلى الداعية إلى اتّباع سلوك مقبول اجتماعياً. فالأنا، إذن، يحلّ الصراعات بين العنصرين الآخرين في الشخصية الإنسانية، مقنوناً الطاقة الجنسية في أشكال سلوكية غير مدانة من قبل المجتمع. في هذا الأفق، يعرّف التكيّف الاجتماعي الفرد بقواعد السلوك المقبول اجتماعياً وبالسلوك المنحرف. ويقول فرويد إن مهمّة الحضارة في تربية الأطفال: هي وضع الوحش في القفص. بعبارات أخرى، يدفع التكيّف الاجتماعي الفرد إلى قبول التوحيد القياسي للمجتمع، الذي يحدّد الصّح والخطأ ويمنع الغريزة الطبيعية من ممارسة إرضاءات تحدث تفكّكاً وإدانة في المجتمع.

- لمزيد من التفاصيل حول التحليل النفسي عند فرويد، أنظر :

- S. Freud, " Introduzione alla Psicanalisi " (1915-1917), in Opere, 11 voll., Ed. Bollati Boringhieri, Torino, 1976, vol. VIII.

منحرفة من شأنها أن تضع الأفراد في حالة صراع مع الأكثرية التي تلتزم بالتوحيد القياسي (standard) ؟

أما السوسيولوجيون فيشدّدون على أن التكيّف الاجتماعي يعدّ الأفراد للمشاركة في حياة المجموعة. لذلك، يجري التركيز في السوسيولوجيا، بشكل خاص، على مشكلتين: الأولى ترتبط بالطرائق التي يكتسب من خلالها الأشخاص المعارف التي يحتاجون إليها فعلياً لكي يصبحوا أعضاء في مجموعات معيّنة كالأسرة والمدرسة ومجموعات العمل والنوادي إلخ..

والمشكلة الثانية هي ضرورة إعطاء الأفراد معارف أساسية حول المجموعات العديدة التي تكوّن المجتمع الذي ينتمون إليه. قد لا يصبح هؤلاء الأفراد أبداً أعضاء في تلك المجموعات، ولكنهم ملزمون بالاحتكاك بهم في ظروف متعدّدة، كما، على سبيل المثال، في المستشفيات والبنوك والمؤسّسات الحكومية إلخ..

الواقع أن التكيّف يجسّد عملية تكوينية معقّدة التحقيق، لأنه من أجل ممارسة أعمال تبادلية مع مجموعة أو مع المجتمع ككلّ، على الفرد أن يضع في ذهنه تفاصيل عديدة من التوقّعات المتعلّقة بعمل مجموعات لا حصر لها. فقط عندما يخزّن الإنسان هذه التفاصيل، يستطيع أن يتعامل مع الأنشطة المختلفة القائمة في المجتمع الذي ينتمي إليه.

ويحتاج الأفراد أيضاً إلى معرفة أنفسهم، فبمرورهم من الطفولة إلى المراهقة ومن الشباب إلى الكهولة والشيخوخة، ومن شروط المواطنين الناضجين إلى آخر سنوات العمر، يتغيّر الأفراد، ويحتاجون، في كلّ مرحلة من مراحل حياتهم، إلى مفاهيم جديدة حول أنفسهم. ماذا يعني، في مجتمع ما، أن تكون شاباً أو كهلاً أو هرماً ؟ إن هذه التحديدات وعملية إدراك الذات يجري تعلّمها عبر صيرورة التكيّف الاجتماعي، وهي تشكّل جزءاً من الثقافة العامة، وفي كلّ مرّة يدخل فيها الإنسان مرحلة جديدة من حياته، يعود إلى تخزين إدراكاته حول ذاته.

إن الاتصال الجماهيري في المجتمعات المعاصرة تعطي دروساً لا حصر لها حول هذه الموضوعات كافة. في الإعلام الجماهيري، تتدفّق صور شباب وكهول ورجال ونساء، سواء أكانت هذه الصور حقيقيّة أو مزيّفة، محرّفة أو واقعية، صحيحة أو خاطئة، عبر مضامين إعلامية يتعرّض لها الناس باستمرار. ولذلك، من الضروري فهم نتائج هذه التجارب على الفرد في المدى الطويل.

• التكيّف الاجتماعي والمجتمع

إن التكيّف الاجتماعي أساسي من أجل حياة المجتمع كنظام مستقر وتواصلي. ورغم التبديل المستمر في أعضاء المجتمع من خلال الولادات والوفيات، فإن النظام يستمر. وهو أمر ممكن لأن صيرورة التكيّف الإجتماعي تنقل إلى الأجيال اللاحقة أساسيات التنظيم الاجتماعي والثقافة العامة. من خلال تعلّم اللغة السائدة في المجتمع، يستطيع الأعضاء الجدد المشاركة في التفسيرات المشتركة أو الاصطلاحية لواقع العالم الخارجي. وعبر هذه المقدرة على الاتصال يتبنّى الأعضاء الجدد طرائق السلوك العامة والقيم المشتركة والحكمة والمعتقدات المنتشرة والتي تسمح للأشخاص في الاتصال بعضهم بالبعض الآخر في المواقف الاجتماعية اليومية. بتعبير آخر، فإن هؤلاء الأشخاص، نتاج التكيّف الاجتماعي، يجدون الكثير من الأمور بدهية ويشاركون الآخرين ذات المفاهيم حول جوانب عديدة من نظامهم الاجتماعي ويتواصلون مع بعضهم البعض بطرائق تعتبر مقبولة. وإذا لم يحدث ذلك، وإذا كانت هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية مشوّشة وغامضة، يصبح من الصعب تحقيق اتصال تبادلي قابل للتوقّع وفعّال. من المهم، إذن، اكتشاف كيف يقوم الإعلام الجماهيري بتطوير وتغيير الأسس المشتركة للنماذج المستقرّة في عملية التبادل الاجتماعي.

إن هذا التحليل للتكيّف الاجتماعي ولأهميّته الفردية والاجتماعية ولدور الإعلام فيه يجسّد إطاراً إجمالياً معقّداً. على أي حال، ثمة نقاط مشتركة في الطرائق التي تتناول فيها مختلف العلوم الاجتماعية مفهوم التكيّف الاجتماعي. ليس مهمّاً أن يتم التشديد على مراقبة الغرائز الداخلية، أو على التدريب على معرفة المجموعات أو على تخزين النظام الحياتي الكلّي في مجتمع ما. في جميع هذه الحالات، تبرز عوامل عديدة، وكلّ هذه المقاربات لعملية التكيّف الاجتماعي تتّصل بالطريقة التي تنتقل فيها التعبيرات الثقافية المتنوّعة - كالآراء المشتركة وأساليب الحياة التقليدية واللغة والقواعد الأخلاقية وأنواع عديدة من الكفايات - من خارج الإنسان إلى داخله، متحوّلة إلى أجزاء داخلية في بنيته السيكولوجية. هذا يعني أنه توجد أنواع مختلفة من العوامل الشكلية وغير الشكلية تقوم بدور المعلّمين، دون أن يعي الأشخاص أدوارهم أحياناً، فعوامل التكيّف يمكن أن تتصرّف بطريق الصدفة كما تأثيرات الأسرة على أطفالها، أو يمكن أن يخطّط لها المجتمع بشكل متعمّد، كما المدرسة. هناك أنواع أخرى من العوامل يمكنها أن تمارس وظائفها أيضاً بطريق الصدفة ودون أن تعي ذلك. المهم أنه من بين العوامل غير المتعمّدة في المجتمعات المعاصرة، هناك الإعلام الجماهيري الذي يبدو أنه يقوم بأدوار تزداد أهمية.

حتّى اليوم لم يفهم بصورة كاملة، دور وسائل الإعلام، ويبدو أن ثمة خطورة كبيرة في عدم إعطائه الأهميّة التي يرتديها فعلاً. إن الأبحاث الماضية المستندة إلى مناهج سببية وإلى فرضيات قصيرة الأجل، لم تسهم بشكل فعّال في توضيح الموقف.

ولذلك، من المحتمل أن تنصبّ الدراسات الإعلامية الحالية والمستقبلية على التأثيرات الطويلة المدى بالنسبة للأفراد وللمجتمعات.

نظرية التشكيل

تعدّ نظرية التشكّيل وسيلة فعّالة لفهم دور الإعلام الجماهيري في عمليات التكيّف الاجتماعي، وقد صاغ ألبرت باندورا[٤٤٠] هذه النظرية في نطاق نظرية عامة للتعلّم الاجتماعي، من شأنها أن تمثّل مرجعية أساسية لمعرفة آليات تأثير النشاط الإعلامي في صيرورة التكيّف الاجتماعي للفرد وللمجموعات الإنسانية بشكل عام.

• نظرية التعلّم الاجتماعي والتعلّم بالملاحظة

تفسّر هذه النظرية كيف يلاحظ الأفراد أفعال الآخرين ويعمدون إلى تبنّي نماذج العمل التي يلاحظونها، كطرائق للردّ على المشكلات وعلى الشروط وعلى الأحداث التي يصادفونها في حياتهم الشخصية.

ورغم أن النظرية عامّة، فإنها ترتدي أهمية كبيرة في دراسة الإعلام الجماهيري، لأن مضامين الإعلام تحتوي تمثّلات عديدة وتوصيفات للحياة الاجتماعية.

تنطلق نظرية التعلّم الاجتماعي من فرضية أن الأشخاص يكتسبون ارتباطات جديدة بين شروط تحريض خاصة موجودة في بيئتهم ونماذج فعل مستقرّة يتعلّمونها ويستخدمونها كردود على هذه الشروط. وتميل هذه الارتباطات، التي يسمّيها السيكولوجيون " مواقف "، نسبياً، إلى أن تصبح مستقرّة واعتيادية عندما تتوافر عوامل تقويتها. والتقوية هي، عادة، نتيجة للثواب، أي لتجارب سابقة مريحة، تدفع نحو الاستجابة لمنبّه ما بتصرّف محدّد. كما أن إزالة حالة مزعجة وعقابية يمكن أن تؤدّي إلى التقوية. وإذا كان نموذج عمل ما استخدم كإجابة على منبّه ما يتقوّى، يزداد احتمال أن يغدو هذا السلوك الخاص طريقة معتادة للرد على هذا المنبّه. وغالباً ما يعرّف السيكولوجيون التعلّم على أنه هذا الازدياد للاحتمال.

(٤٤٠) لمزيد من التفاصيل حول نظرية التعلّم، أنظر:
- A. Bandura, " Social Learning Theory ", Ed. Englewood, Prentice-Hall, 1977.

إن تقوية وتعزيز العلاقة بين المنبّه والإجابة تتحقّق عادة عندما يولّد اتّباع نموذج فعل من قبل الفرد إرضاءً معيّناً لهذا الفرد كالخروج من حالة توتّر مثلاً. وتطرح نظريات التعلّم المعاصرة أن عملية التقوية هذه يمكن أن تتحقّق بطرائق عديدة، من بينها الصدفة. ليس من الضروري أن تكون مكافأة عامل التعلّم، كالأب والأم والمعلّم، قصدية. وهناك مفهوم آخر مهم لنظرية التعلّم تتعلّق بالمشروطية الفاعلة. وهي تستند إلى اكتساب نموذج إجابة بواسطة تكرار تقوية لارتباط معيّن بين المنبّه والإجابة يتحقّق بطريق الصدفة. هذا يعني أنه، عندما تتكرّر إجابة معيّنة بشكل منتظم إلى حدّ ما، يحصل صاحب الإجابة على إرضاء أو ارتياحٍ من التوتّر دون أن يكون بالضرورة مدركاً لما يحدث. إن عملية تتالي التقويّة هذه تحدث بطرائق متعدّدة في البيئة الشخصية لكل الأفراد، مؤدّية إلى زيادة احتمال أن يصبح هذا الاقتران المقوّى بين المنبّه والإجابة، اعتيادياً. وتشدّد النظرية على أن اكتساب هذا السلوك تحديداً نتيجة المشروطية الفاعلة، يمكن أن يحدث بطريق الصدفة.

في مركز نظرية التعلّم هناك سيرورة قريبة جداً من فكرة تقليد السلوك، ولكنّها مقترنة بعامل التقوية. فمثلاً، إذا رأى شخص ما شخصاً آخر يعتمد تقنية معيّنة ناجحة في مواجهة مشكلة تصادف الشخص الأول الذي يلاحظ، فإن هذا الأخير يجرّب تلك التقنية ليرى مدى نجاحها بالنسبة إليه. فإذا استطاع حلّ مشكلته محققاً هو أيضاً النجاح والرضى المرجوين، فإن الارتباط بين هذه المشكلة وهذا السلوك بالتحديد يتقوّى.

وهكذا، فإنه إذا اتّبعت شخصية - نموذج سلوكاً معيّناً، وإذا تم التعرّف على هذا السلوك كحلّ للمشكلة أو كمكافأة لهذه الشخصية النموذج أو كتحقيق لشيء مرغوب فيه، تزداد احتمالات اتّباع السلوك نفسه. وإذا أدّى تبنّي هذا السلوك من قبل الشخص الذي يلاحظ إلى نتائج إيجابية، من المحتمل أن يبقى هذا النموذج الخاص (العادة) جزءاً دائماً في الجعبة الشخصية لهذا الشخص.

إن الشخصية- النموذج التي تبدي هذا السلوك يمكن أن تكون غافلة تماماً عن مسألة أنها خاضعة لمراقبة من قبل آخرين. والمراقب بدوره قد لا يعي أو لا يتذكّر الارتباط بين العمل الذي قامت به الشخصية النموذج وبين التقنية الفعّالة التي اتّبعها.

ولذلك، فإن التعلّم قد يحصل بشكل غير إرادي وغير واعٍ، دون أي تخطيط مسبق أو نيّة في التلاعب من قبل الشخصية النموذج.

وترى نظرية التعلّم الاجتماعي أن دينامية الإجابة الإنسانية مختلفة في العادة. فلدى الأشخاص، غالباً، فهم واضح جداً وتذكّر دقيق لسلوكيات نموذج ما، ومن المحتمل أنهم يدركون تماماً أنهم يتبنّون نموذج سلوك قاموا بمراقبته في وقت سابق. غير أن

ذلك لا يعني أنهم يمتلكون فهماً كاملاً لدوافع قيامهم بهذا السلوك، ولكنّهم يعرفون عادة أية نماذج راقبوا ويعون أنهم يقلّدون نموذجاً معيّناً.

إن أحد الأسباب الرئيسة التي تجعل منظّري التعلّم الاجتماعي يعتقدون أن تبنّي السلوك عبر نماذج هو، غالباً، خيار متعمّد، ينجم عن مراقبة الدور الحاسم الذي تؤدّيه اللغة في السلوك. وترى النظرية أن السلوك الرمزي هو عامل مهم في السلوك الكلّي للأفراد، وأنه من الضروري فهم كيفية اكتساب هؤلاء الأفراد للعادات.

يقول باندورا(٤٤١) :

إن المقدرة على استعمال رموز تعطي الإنسان أداة قوية لمواجهة بيئته. من خلال رموز شفهية وعقلية يصوغ الأشخاص ويحفظون تجارب على شكل تمثّلات تؤدّي دور الدليل في السلوك المستقبلي. إن المقدرة على الفعل المتعمّد متجذّرة في النشاط الرمزي.. بدون الخاصية الرمزية يعجز الإنسان عن التفكير التأمّلي. ولذلك، لا تستطيع نظرية للسلوك الإنساني أن تسمح لنفسها بإهمال الأنشطة الرمزية.

هذا يعني أن الأفراد يستخدمون اللغة وهذا ما يجعلهم قادرين على التفكير وعلى التذكّر وعلى رسم خطط للمستقبل.

إن اللغة والحياة الداخلية للفرد والمرتبطة بالسلوك الرمزي، لم تؤخذ في الحسبان، فيما مضى، لأنها تتعلّق فقط بالإنسان. ولكن نشوء نظرية التعلّم الاجتماعي والفرضيات المتّصلة بها، شرعت في إزالة المحرّمات القديمة التي كانت تحظّر اعتبار أن الإنسان يمتلك حياة عقلية خاصّة به.

ثمّة خصيصة أخرى لنظرية التعلّم الاجتماعي تشترك مع تفسيرات سيكولوجية أخرى، هي خصيصة تبنّي أفق طويل المدى. إن أغلب نظريات التعلّم تستند إلى مسألة أن المتعضّيات تتعلّم، ليس عبر تجربة واحدة، ولكن في أعقاب عدد من المحاولات يتقوّى فيها الارتباط بين المنبّهات والإجابة التي تعلّمها الأفراد حسب صيغ معيّنة. وتعطي نظرية التعلّم الاجتماعي أهمّية أكبر لاكتساب سلوكيات جديدة من خلال تعرّض واحد للنموذج، ولكنّها لا تستبعد أن يكون التعلّم نتيجة لتكرار المنبّه وأن يكون التعلّم ناجماً عن الملاحظة المتكرّرة لسلوك النموذج. وهكذا، فإن نظرية التعلّم الاجتماعي تعطي أفقاً حول تعلّم إجابات جديدة، على المدى القصير وعلى المدى الطويل أيضاً.

(441) Ibid.

• صيرورة التشكيل

تفيد نظرية التعلّم الاجتماعي في وصف تطبيق النظرية العامّة للتعلّم الاجتماعي، على تمثّلات الإعلام الجماهيري، فهذا الأخير يجسّد مصدراً مدهشاً ومتوافراً دوماً، يقدّم نماذج رمزية لجميع أشكال وأنواع السلوك التي يمكن استيعابها. وقد أظهرت أدبيات بحثية غنية أن الأطفال والكبار يكتسبون اتّجاهات وإجابات انفعالية وأساليب تصرّف من الإعلام الجماهيري جميعاً، ولكن، خاصّة من الأفلام والتلفزة(٤٤٢).

عندما تطبّق هذه النظرية لتفسير عمليات اكتساب أشكال جديدة من السلوك إثر التعرّض للإعلام الجماهيري، يكمن لب الموضوع في صيرورة التشكيل. وهي، باختصار تتضمّن مراحل عديدة تتموضع على النحو التالي(٤٤٣):

١) يراقب أحد أفراد الجمهور الإعلامي (أو يقرأ عن، أو يستمع لـ)، في المضامين الإعلامية طرازاً يعرض نموذجاً خاصاً من العمل أو التصرّف.

٢) ويتوحّد المراقب مع الطراز، أي يعتقد أنه كهذا الطراز، يريد أن يكون مثله، يعدّه مدهشاً وجديراً بأن يقلّد.

٣) يتعرّف المراقب، مدركاً أو غير مدرك، على أن السلوك الذي رآه أو وصف له، فعّال. أي أن الشخص المراقب يعتنق رأياً بأن هذا السلوك سيفضي إلى نتائج مرغوبة إذا قلّده عندما يجد نفسه في حالة معيّنة.

ترتكز هذه الصيغة المركّبة على مفاهيم معقّدة "كالتوحّد" و "التعرّف"، التي هي مفاهيم ذاتية تقبع داخل المراقب. وتشغل هذه المفاهيم العديد من السيكولوجيين الذين يفضّلون تطوير تفسيرات نظرية لا تتبع هذه الأفكار العقلية.

على أية حال، فإن الاعتراف المتأخّر بدور اللغة في التجارب الإنسانية دفع منظّري التعلّم إلى إعطاء أهمّية متزايدة لمسألة أن الإنسان يمتلك حياة جوّانية وأن هذه الحياة تمارس تأثيرات قوية على تصرّفاته.

(٤٤٢) حول دور الإعلام الجماهيري في التعلّم الاجتماعي، اطّلع :
- A. Bandura, " Aggression : A Social Learning Analysis ", Ed. Englewood Cliffs N. J., Prentice –Hall, 1973.
- R. M. Liebert & J. M. Niele & E. S. Davidson, " The Early Window : The Effects of Television on Children and Youth ", Ed. Pergamon Press, New York, 1973.

(443) Ball-Rokeach &DeFleur, cit. pp. 227-237.

لقد استطاعت نظرية التشكيل أن تخلق اهتماماً كبيراً بإجراءات تحليل مضامين الإعلام الجماهيري، لأن التمثّلات التي يصنعها هذا الإعلام يمكن أن تكشف أعداداً لا تحصى من نماذج السلوك التي يمكن تبنيها.

إن انتشار دراسات تحليل المضمون لتمثّلات الإعلام، التي أثارتها نظرية التعلّم، دفعت إلى ضرورة قياس مواقف الجميع، وتم نشر آلاف الأبحاث، التي لم تهتم بعدم إعطائها أدلّة على أنه انطلاقاً من هذه المواقف يمكن توقّع السلوكيات. في حين أن أدلّة توفّرت، فيما بعد، على أن لهذه السلوكيات قيمة توقّعية ضعيفة، إذ كان يفترض، ببساطة، أنه إذا كانت للأشخاص مواقف معيّنة، فإنهم كانوا سيتحرّكون بناء على هذه المواقف. من المعروف اليومَ أن الأمر ليس كذلك وأن هناك توافق ضعيف بين المواقف المقاسة وبين التصرّف المعلن[٤٤٤].

لا يمكن التفكير أنه لمجرّد وجود تمثّلات لأشكال سلوكية، بشكل كثيف، في مضامين الإعلام، يؤدّي إلى تبنّي هذه السلوكيات بصورة كثيفة. إن فرضية من هذا النوع لا أساس لها، وهي توقع في اعتناق ادّعاءات ضمنية شبيهة بفرضيات نظرية الرصاصة السحرية. ذلك أن دراسات تحليل المضمون لا تقول شيئاً البتّة حول اكتساب نماذج سلوكية مستقرّة بين الأفراد الذين يتعرّضون لأفعال معيّنة ممثّلة أو موصوفة في الإعلام الجماهيري.

وتقدّم نظرية التعلّم الاجتماعي نتائج ثمينة حول الشروط التي يمكن فيها للأفراد، داخل نطاق سياقات معيّنة، ملاحظة أو تبنّي تقنيات خاصّة لمواجهة مواقف معيّنة وضروب أخرى من نماذج السلوك المحدّدة مسبقاً.

إن تطبيق نظرية التعلّم الاجتماعي على الإعلام الجماهيري، عبر تطبيق نظرية التشكيل، تبيّن بوضوح أن الإعلام يمكن أن يمارس تأثيراته كعامل في صيرورات التكيّف الاجتماعي. إن من يصوغ وينتج وينشر مضامين إعلامية قد لا يتعمّد جعل تمثّلات السلوك الإنساني نماذج يحتذى بها[٤٤٥]. كما أن من يتبنّى أشكالاً من السلوك

(٤٤٤) حول موضوع التوافق بين هذين العاملين، اقرأ:

- A. Liska, " The Consistency Controversy : Reading on the Impact of Attitudes on Behavior ", Ed. J.Wiley & Sons, New York, 1975.

(٤٤٥) لا شك أن الربط بين النماذج السلوكية التي ترد في الإعلام وبين تبني أفراد في الجمهور الإعلامي لهذه النماذج ليس ميكانيكياً وليس مباشراً وليس حتمياً، حتى وإن وجد المتلقّي نفسه في موقف مشابه أو مطابق، كما أن طبيعة تأثر الجمهور بمضامين الإعلام وآليات تبنّي السلوكيات الواردة في هذه المضامين تختلف اختلافاً شديداً باختلاف جملة من المتغيّرات الأساسية، -

الوارد أو المبيّن في الإعلام يمكن ألاّ يكون راغباً، بشكل صريح، في التعرّض لهذه النماذج السلوكية التي يمكن أن ينسخها، ولكنه يفعل ذلك بوعي أو بعدم وعي.

من ناحية أخرى، يمكن أن تتمظهر الطبيعة الوظيفية لهذه السلوكيات المقتبسة من نموذج، نتيجة تعرّض وحيد للإعلام أو نتيجة تعرّض متكرّر لمضامين متشابهة. ويمكن تبنّي نموذج خاص من السلوك عقب احتكاك واحد أو عقب تجارب عديدة تقوي كلّ منها الأخرى. ولكن النظرية لا تعطي مؤشّرات واضحة حول هذه التساؤلات التي لم يستطع البحث حلّها.

غير أنه من الواضح أن نظرية التشكيل هيَ صيغة واعدة من أجل دراسة الاتصال الجماهيري. فهي لا تفترض أبداً أن تقديم الإعلام الجماهيري لنماذج سلوكية، يستوجب بالضرورة أن يتبنّى المستهلكون هذه النماذج. لذلك، تعدّ نظرية التشكيل فعّالة وقادرة على تفسير بعض التأثيرات المباشرة والآنية والتفسيرات غير المباشرة والطويلة الأجل، على الأفراد الذين يتعرّضون لمضامين الإعلام.

ولكن، في الوقت نفسه، هناك تأثيرات عديدة للاتصال الجماهيري لا يمكن دراستها من خلال هذه النظرية. فهي، كما النظرية العامة للتعلّم الاجتماعي، تحيط بالفعل الفردي وليس بالسلوك التشاركي، أي تستطيع أن تفسّر لماذا يتبنّى شخص ما سلوكاً معيّناً سبق أن أعيد إنتاجه أو وصفه في المضمون الإعلامي، ولكنها غير قادرة على تقديم معلومات حول شكل التنظيم الاجتماعي لأي مجموعة أو للمجتمع، أو حول إسهام الإعلام الجماهيري في الثقافة، وهما عاملان تأثيريان قويان جداً بالنسبة للخيارات السلوكية لدى الأفراد الذين يتبادلون التأثير مع أشخاص آخرين.

كمتغيّرات العمر ودرجة التعليم والمستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والبيئي والتربوي، ومتغيّرات شخصية الفرد بشقّيها الوراثي والاكتسابي، وأوضاعه النفسية والعصبية وطباعه وطبيعة وظروف تجاربه الحياتية المباشرة. ومتغيّرات صيرورة تكيّفه الاجتماعي والدروب التي سلكها في عملية التكيّف والسياقات الزمانية والمكانية التي تحرّك داخلها، خلال مراحل متتالية من حياته.
غير أن دوفلور يبالغ بصورة كبيرة إذ يقول بعدم وجود تعمّد وسبق إصرار في الإعلام الجماهيري الذي يعرض، بدرجة عالية من التكرار، نماذج سلوكية معيّنة في مواقف شبيهة جداً بمواقف الحياة الواقعية للإنسان. ذلك أن الإعلام نشاط غائي بطبيعته ولا يعقل أن يقدّم نماذج حياتية محدّدة عبر مختلف الأنواع الإعلامية التي يتعاطى معها، بدءاً من البرامج الإخبارية وحتى الأفلام والدراما والبرامج الترفيهية، دون أن يعي ذلك أو دون أن يتصوّر أن ثمة احتمالات في أن تقوم مجموعات من الجمهور أو قطاعات عمرية حسّاسة وهشّة، باتّباع تلك السلوكيات لدى مواجهتها لمواقف مشابهة أو حتى لمواقف تعتقد خطأً أنها مشابهة لتلك التي تابعتها في الإعلام.

نظرية التوقّعات الاجتماعية

• توطئة

يفسّر السيكولوجيون السلوك الإنساني عبر صيرورات داخلية تعطي شكلاً لأفعال وخيارات السلوك عند الأفراد. ومهمّة البحث هو اكتشاف ماهية القوى أو العوامل التي تعمل في المستوى العقلي، مفسّرة ما يختاره الناس للردعلى المثيرات التي يتلقّونها عبر وظائفهم الحواسية. ويمكن لهذه الصيرورات الداخلية أن تقع في مستوى الوعي أو اللاوعي، ويمكن أن تكون مكتسبة أو وراثية. كلّ هذه المتغيّرات تجسّد متغيّرات مستقلّة أو سببية، بينا المتغيّرات التابعة، أو التأثير هو السلوك المعلن للشخص والذي يجب أن تفسّره النظرية السيكولوجية[٤٤٦].

أما السوسيولوجيون والأنتروبولوجيون فيتصدّون لدراسة السلوك الإنساني من زاوية أخرى. وهم، إذ يعترفون بضرورة وجود مستوى تحليلي سيكولوجي - فردي، فإنهم يعتقدون بأنه مستوى تمثّل غير كامل للشرط الإنساني. ولعلّ الجانب الأوضح في الإنسان هي طبيعته الاجتماعية العميقة، فهو يتكوّن أثناء فعل اجتماعي، ويترعرع داخل مجموعة تميّز بروابط شخصية حميمية، و يعيش حياته في شبكة تفاعلات اجتماعية معقّدة، وفي النهاية يجري دفنه في مراسم اجتماعية. فهذا الإنسان، إذن، هو أكثر بكثير من متعضيّات فردية لها ردود فعل على المثيرات.لذلك، يركّز السوسيولوجيون، بشكل رئيس، على التفاعل الاجتماعي أو بالأحرى على أحداث قابلة للملاحظة تجري بين الأشخاص، وليس داخل أنظمتهم العصبية أو بنياتهم المعرفية[٤٤٧].

نظرية التنظيم الاجتماعي

يبدأ التحليل السوسيولوجي للسلوك الإنساني من فهم طبيعة المجموعات الإنسانية. وتتجلّى المبادئ الأساسية للتفسيرات السوسيولوجية في أن ما يقود السلوك الإنساني هو نموذج محدّد من التفاعل الاجتماعي.

ويؤكّد كولي أن الأفعال الملموسة للمجتمع تتجلّى في ما يعتقده الأشخاص بعضهم في البعض الآخر[٤٤٨] . ويستند كولي إلى مسألة أن الأفراد المنخرطين في مجموعة

(446) Ball-Rokeach &DeFleur, cit. p. 238.
(447) Ibid.
(448) C.H. Cooley, " Human Nature and The Social Order ", Ed. Schocken Books, New York, 1964, in M. DeFleur, cit. p. 239.

ينظّمون التبادل المشترك داخل نطاق قواعد يعترف بها الجميع. وتثبّت هذه القواعد تحديد السلوك الملائم وتضمن قابلية توقّع ما يُنتظر من كلّ عضو في المجموعة وما يمكن أن ينتظره أي عضو من الآخرين.

إن النماذج التي تنشأ من تثبيت هذه القواعد للتفاعل الشخصي تسمّى التنظيم الاجتماعي[٤٤٩]. وهو مصطلح - مظلّة يستند إلى فئات عديدة من الاتّفاقات الاصطلاحية الرامية إلى ضمان الاستقرار وقابلية التوقّع للسلوك الشخصي التبادلي في مجموعات إنسانية من كلّ نوع.

إن أعضاء هذه المجموعات أو أولئك الذين يتعاملون مع هذه المجموعات، يجب أن يتمتّعوا بكفاية فيما يتعلّق بنموذج التنظيم الاجتماعي لكل مجموعة. ذلك أن التوقّعات حول سلوكيات اجتماعية محتملة، تدلّ الأفراد على نماذج الفعل ورد الفعل التي يمكن انتظارها في ظروف سلوكية معيّنة.

ويذهب التنظيم الاجتماعي داخل المجموعات من تنظيمات بسيطة إلى أخرى شديدة التعقيد. فأعضاء هذه المجموعات قد تبدأ بعضوين لتنتهي بملايين الناس. وحتّى مجتمعات بأكملها يمكن أن تعتبر مجموعات ضخمة، متميّزة بنماذج تنظيم اجتماعي معقّدة، فيما يتّصل بأنشطتها الاقتصادية والسياسية والتربوية والدينية، التي تمارس داخل قواعد وعادات وتقاليد مشتركة تحدّد الطريقة المتوقّعة لسلوك الآخر..في حالة اعتبار المجتمع ككلّ مجموعة، يمكن القول إنها بنية اجتماعية للتدليل على التقسيمات الأساسية للتنظيم الاجتماعي في مؤسّسات وفي طبقات اجتماعية - اقتصادية[٤٥٠].

ولكن، مهما كانت أبعاد المجموعة ومهما كان مستوى تعقيدها، يمكن إعادة العناصر الأساسية للتنظيم الاجتماعي إلى أربعة مفاهيم أساسية : الضوابط، الأدوار، المواقع الاجتماعية، والأحكام[٤٥١]. وهي تقسيمات تحتية أساسية للتنظيم الاجتماعي، تضمن قابلية استشراف أنشطة إنسانية شخصية.

في العام ١٩٧٠صاغ دوفلور[٤٥٢] نظرية للقواعد الثقافية تقدّم قاعدة انطلاق لنظرية التوقّعات الاجتماعية الأوسع. وقد ضمّن دوفلور الصياغة الأولى الفكرة التالية:

(449) Ibid.
(450) Ibid.
(451) Ibid. p. 240.
(452)M. DeFleur & Ball-Rokeach, op. cit., pp. 129-139.

إن الإعلام الجماهيري، وبواسطة اصطفاء وإبراز موضوعات معينة، يخلق لدى الجمهور انطباعاً بأن الضوابط الثقافية العامة المتعلّقة بالموضوعات التي تم إبرازها، مبنية ومحدَّدة بشكل معين. وبما أن السلوك الفردي يقاد، بشكل عام، من قبل ضوابط ثقافية خاصة بموضوع أو قضية ما، فإن الإعلام الجماهيري يمارس، إذن، تأثيراً غير مباشر على السلوك.

وحتّى إذا كانت النظرية شهدت، فيما بعد، تطوّراً، فإنها خطوة أولى فحسب نحو فهم أوسع للتأثيرات غير المباشرة للإعلام الجماهيري على السلوك.

وقد تم توسيع النظرية لتشمل عناصر التنظيم الاجتماعي: الأدوار، المواقع الاجتماعية، والأحكام، بالإضافة إلى الضوابط.

تعدّ الضوابط قواعد عامة يتم تعلّمها واتّباعها من قبل أعضاء المجموعة. وهي تغطّي حقلاً واسعاً جداً من الأنشطة، بدءاً من الطقوس البسيطة (كطريقة الردّ على الهاتف)، وحتّى التعاليم المورّطة انفعالياً. في بعض الأحيان، لا تترتّب عواقب خطيرة على خرق الفرد أو المجموعة لهذه الضوابط، وفي أحيان أخرى، تكون العواقب وخيمة لدرجة أن الأمر يتطلّب احترام تلك الضوابط بصرامة. بعض هذه الضوابط ليس شكلياً، إذ ينجم عن تبادلات يومية تلقائية، وبعضها الآخر يتحوّل إلى قوانين شكلية مدوّنة[٤٥٣].

ويتطلّب السلوك داخل المجموعة الاجتماعية أن يمتلك الأعضاء خريطة ذهنية داخلية مكتسبة تتضمّن هذه الضوابط التي يمكن أن تكون مفصّلة ومعقّدة، من أجل أن يتفاعلوا مع أفراد آخرين ضمن نطاق التصرّف المقبول.

أيضاً الأدوار هي قواعد ولكنها تتعلّق بمواقع خاصة في التنظيم النشاطي للمجموعة. وتحدّد الأدوار الأقسام المتخصّصة التي يشغلها الأشخاص في أنشطة المجموعة، وهم لا يعطون تعليماتٍ عامة صالحة لجميع الأعضاء.

فالأدوار تسمح للأشخاص في التحرك جماعياً بشكل متناسق لبلوغ الأهداف التي لا يمكن أن تتحقّق إذا تحرّك كل عضو بصورة مستقلّة عن الآخر. وتعدّ العوامل المفتاح في هذه الحالة، التخصّص في الأنشطة والوشائج القائمة بين هذه الأنشطة. فالأفراد الذين يتحرّكون ككتلة واحدة من الأدوار المتخصّصة والمترابطة، هم كأقسام آلة في نظام عضوي. في تقسيم الأنشطة، تحمل كلّ وظيفة متخصّصة إسهامها والنتيجة النهائية (بلوغ الأهداف) أكبر من مجموع الأقسام[٤٥٤].

(453) Ibid.
(454) Ibid.

في بعض الأحيان، ينظر إلى المجموعة كنظام اجتماعي مؤلّف من عناصر مترابطة تسهم في الاستقرار الكلّي وفي استمرارية المجموعة ككلّ واحد.

وفي حين أن كلّ دور هو مجمل الأنشطة المتخصّصة، فإن صلات الروابط الداخلية لكلّ مجموعة يجب أن تكون معروفة لجميع الأعضاء.

ولكي تكون أنشطة المجموعة فعّالة، من الضروري أن يخزّن كلّ عضو خريطة أدوار في ذهنه، بشكل يضمن أن تكون ردود فعل الآخرين متوقّعة في سلسلة عريضة من المواقف والظروف.

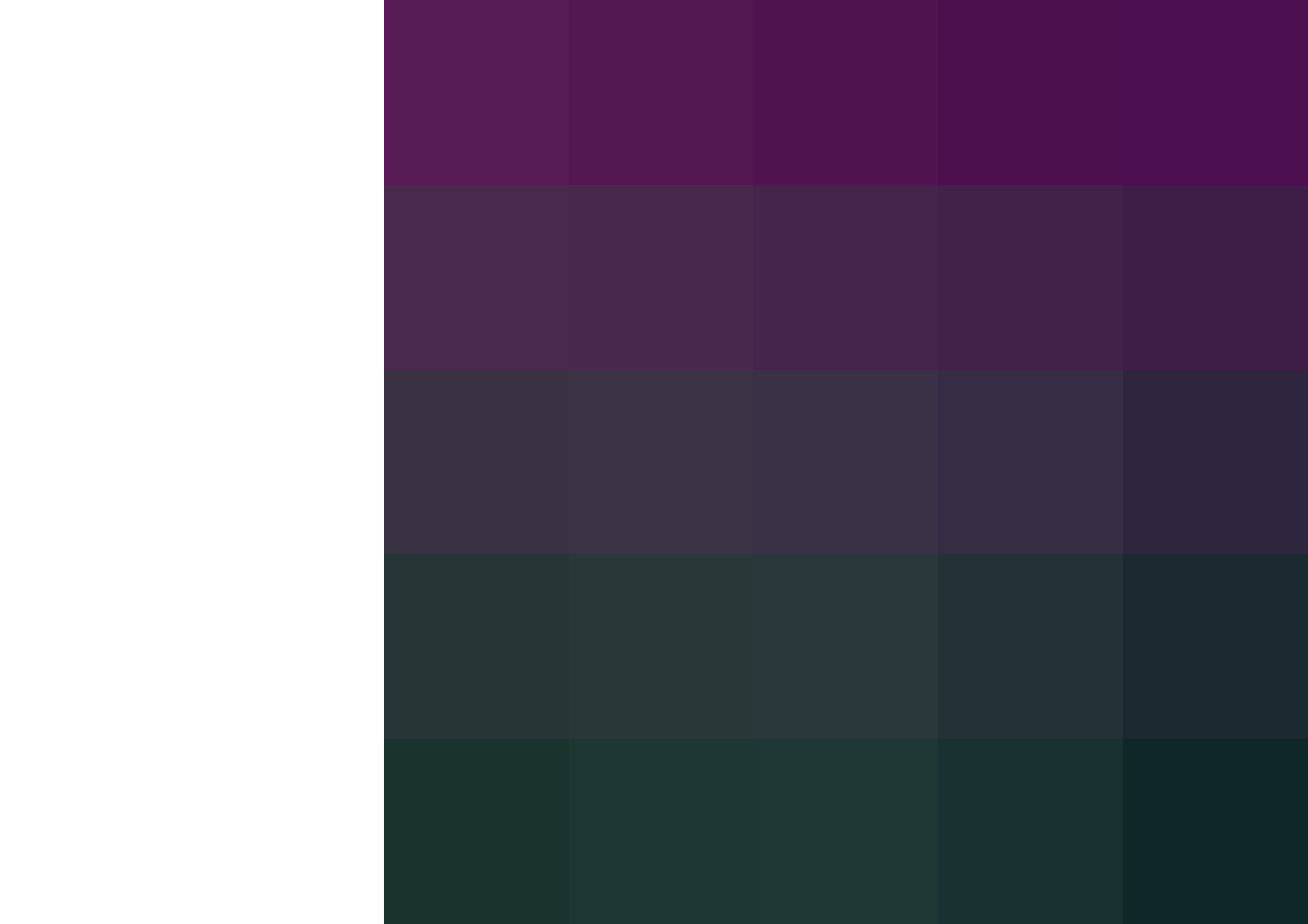
العنصر الثالث في التنظيم الاجتماعي هو الموقع الاجتماعي. فبعض الأعضاء يتمتّعون بسلطة وقوّة وامتيازات تميّزهم عن الآخرين. وغالباً ما تترجم فروق المواقع في أن البعض يستطيع أن يفعل بصورة تجعل الآخرين يلتزمون بأوامره. وتستوجب السلطة الممنوحة لهؤلاء الأعضاء أن يحظوا بدعم كلّ المجموعة في عملية ممارستهم لهذه السلطة[٤٥٥].

ولكي تقوم المجموعة بأنشطتها، دون عراقيل، من المهم أن يعترف جميع الأعضاء بهذه المواقع الاجتماعية، وأن يأخذها السلوك المتبادل في الحسبان.

أما الأحكام فهي مطبّقة بهدف الحفاظ على الرقابة الاجتماعية في المجموعة، ذلك أن المخالفات والسلوكيات التي تنحرف عن الضوابط المعتمدة، تعرّض للخطر عمل المجموعة كنظام سلوكيات اجتماعية قابلة للتوقّع، وبالتالي، تحدّ من قدرة المجموعة على بلوغ الأهداف المنشودة، لذلك، يتم تطبيق أحكام سلبية لمعاقبة المنحرفين ولعدم تشجيع الآخرين الذين قد يفكّرون في ارتكاب مخالفات. بالمقابل، تنفّذ أحكام إيجابية لمكافأة المتميّزين في التزامهم بالقواعد والضوابط المقرّرة، وفي تفانيهم لتحقيق أهداف المجموعة. وإذا كان العضو يرغب في تجنّب إصدار أحكام سلبية ضدّه، من الأهمية بمكان أن تكون لديه توقّعات دقيقة حول طرائق ممارسة إجراءات الرقابة الاجتماعية للمجموعات[٤٥٦].

وتعطي نظرية التنظيم الاجتماعي أهمية كبيرة للأحداث التي تجري بين الأشخاص، وليس لتلك التي تجري داخل رؤوسهم. فالجميع يجب أن يتعلّم الضوابط والأدوار، ولكن التبدّلات النسبية السيكولوجية الداخلية ليست كلّ شيء: فالسلوك الاجتماعي يعدّ أكثر من مجرّد مجموع الأقسام المختلفة، وللمجموعات حياة خاصة

(455) Ibid.
(456) Ibid. p. 242.



أن الإعلام ينقل معلومات حول قواعد التصرّف الاجتماعي، التي يتذكّرها الأفراد، الذين يشكّلون فوراً السلوك الظاهري.

وبذلك، تصبح النظريات المعقّدة المرتبطة بتشكيل وتغيير الاتّجاهات والسلوك وجميع عناصر النظريات المعرفية، مفاهيم نافلة، ويتبيّن أن نظرية التوقّعات الاجتماعية نظرية بسيطة واقتصادية، تقدّم تفسيراً للتأثيرات غير المباشرة والطويلة الأمد للإعلام الجماهيري الذي يعدّ عاملاً (غير إرادي وغير قصدي)[٤٦١] لتعميم التعليمات التي تربط بين التكيّف الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي.

وقد استمدت نظرية التوقّعات الاجتماعية عناصرها، أيضاً من مصادر أكثر عمومية كنظرية التكيّف الاجتماعي ونظرية التعلّم الاجتماعي اللتين تحاولان إثبات أن الأفراد يعرفون استخدام الإعلام الجماهيري كمصادر يتعلّمون منها، إمّا بشكل قصدي أو بشكل غير متعمّد[٤٦٢]، التعاليم المفيدة لاتّباع السلوك المناسب الذي سيساعدهم على التأقلم مع العالم المعقّد الذي يعيشون فيه.

لا تصلح نظريتا التشكيل والتوقّعات الاجتماعية لتوجيه البحث عبر تجارب أو استطلاعات رأي. بل هما مفيدتان في تفسير كيف أن طرائق معيّنة من التقديم ومضامين معيّنة في الإعلام يمكنها أن تؤدّي جزءاً مهمّاً من عمليات التكيّف الاجتماعي على المدى الطويل، في مجتمع توجد فيه وسائل إعلام جماهيري بوفرة.

بطبيعة الحال، من الصعب القيام ببحث ممتدّ يشمل مجمل الضوابط والقواعد والأدوار والمواقع والأحكام التي التقطتها العيّنة من الإعلام خلال فترة زمنية طويلة نسبياً.

---

(٤٦١) كما قلنا آنفاً، لا يعقل أن تكون جميع مضامين الإعلام غير إرادية وغير قصدية. فالإعلام الجماهيري مؤسّسة تؤدّي وظائف اجتماعية محدّدة في أي مجتمع، وتتفاعل مع مختلف المؤسسات الاجتماعية الأخرى متبادلة التأثير معها، ما يجعلها ملزمة بطرح موضوعات وتقديم مضامين يعيها تماماً القائمون عليها، كونهم يدركون جيّداً أدوارهم في نوعيّة التكيّف الاجتماعي الذي يريدون تعميمه وفي نوعية التنظيم الاجتماعي الذي يحاولون تكريسه وترسيخه في أذهان الجمهور، بطرائق وأساليب صريحة حيناً ومتوارية حيناً، ما يجعل الإعلام بمجمله عاملاً من عوامل التكيّف وطرف من أطراف تعليم قواعد وقوانين التوقّعات الاجتماعية في المجتمع، على المدى الطويل.

(٤٦٢) إذا كانت معظم المضامين الإعلامية تقدّم بشكل واعٍ ومدرك، فإن آليات تأثّر الجمهور الإعلامي بهذه المضامين يمكن أن تدخل في نطاق الوعي ويمكن أن تتحرّك في مناطق اللاوعي من العقل الإنساني. وهي تحتاج، في جميع الأحوال، إلى مساحات زمنية ممتدّة، تحقّق التراكم الضروري لإنجاز عمليات الاستيعاب والتمثّل والتخزين.

الواقع أن هاتين النظريتين تفيدان في تنظيم وتفسير العلاقات القائمة بين فئات مختلفة من المضامين الإعلامية والتأثيرات الطويلة الأجل على الأفراد والمجتمعات. وتعطي النظريتان أيضاً مبدأً تأسيسياً مصغّراً مصنوعاً على طريقة داروين الذي صاغ إطاراً مفهومياً بيّن فيه العلاقات بين التكيّف مع البيئة وبين ارتقاء النوع.

لا شك أن نظرية التشكيل ونظرية التوقّعات الاجتماعية تحرّض الانتاج الكثيف لملاحظات منتظمة لمضامين الإعلام، سواء أكانت تعدّ أنشطة مكوِّنة أو تمثّلات للتوقّعات الاجتماعية، وتشجّع على ملاحظة الجمهور خلال فترات زمنية مطوّلة، بحثاً عن آثار تأثيرات الإعلام الجماهيري في السلوكيات اليومية للناس.

* * *

الفصل الثاني

الإعلام الجماهيري ونظريات بناء المعنى

تمهيد

ينقل ميلفين دوفلور تعليقاً لباحثَين[٤٦٣] حول الدراسات العلمية الإعلامية، يقول:

لدراسات الأنشطة الإعلامية تاريخ طويل، ولكنها دراسات أنجزت بشكل سطحي. وحسب رأينا، فإن أشكالاً مختلفة من الإعلام والاتصال كانت: غالباً. الهمّ الأوّل لعقول من الدرجة الثانية. والهمّ الثانوي لعقول من الدرجة الأولى.

لا شك أن الأبحاث الإعلامية والاتصالية أخذت تشكّل، شيئاً فشيئاً، فرعاً علمياً مستقلاً، يقع على مفترق علوم إنسانية أخرى لا حصر لها. ولذلك من الصعب أن يتبلور هذا الفرع العلمي الفتي خلال فترات زمنية تعدّ قصيرة جداً مقارنة بعلوم اجتماعية وإنسانية ضربت جذورها في أرض صلبة و أصبحت قرنية.

ويقول دوفلور [٤٦٤] إن تأسيس فرع علمي جديد يتطلّب زمناً طويلاً. ومن أجل أن يغدو مقبولاً يجب أن يرسم حدوده بوضوح وأن ينظّم تعليماً خاصاً به وأن يتفق أصحابه على صنع مناهجه. ولا شك أن الاعتراف بالعلم الجديد وإعطاءه القيمة التي يستحقها تنبع من الجذور الثقافية التي يمتلكها، وهي، في جميع الأحوال. تعدّ خطوة مهمّة إلى الأمام.

(463) W. Barnett Pearce & E. Vernon Cronen, " Communication, Action and Meaning : The Creation of Social Realities ", Ed. Praeger, New York, 1980, pp. 13-14.
(464) DeFleur & Ball-Rokeach, cit. p. 248.

المهم أن بعض أشكال الاتصال الإنساني وخاصة الاتصال الجماهيري منه، تحتاج إلى تمحيص في أفق تاريخ الفكر. ومن خلال تحديد هويّة مبادئ الشرط الإنساني، يستطيع الباحثون في مجال الإعلام أن يفهموا كيف أن الاتصال الذي يمرّ اليوم عبر وسائل الإعلام الجماهيري، هو صيرورة، في الوقت نفسه، شبيهة ومختلفة عن الاتصال الشخصي في المجتمعات الإنسانية الأولى[٤٦٥].

• البحث عن المبادئ في حقبة انتقالية

قد رأينا من خلال النظرية الانتقالية أن الإنسان، منذ فجر التاريخ، حقّق خطوات عملاقة في مجال الاتصال، غيّرت كلّ خطوة منها تغييراً عميقاً مقدرة المجتمع على تخزين المعرفة والمعلومات واستدعائها في أي وقت، وتعميمها على أوسع نطاق، واستخدامها لتحقيق منجزات مذهلة في علاقة الإنسان مع الطبيعة وفي علاقاته داخل المجتمعات الإنسانية.

ولقد أدّى هذا التراكم المعرفي الهائل، الذي بدأ بالإشارات والعلامات وانتهى باختراع اللغة وبالكتابة، إلى تراكم ثقافي غير مسبوق، ارتقى بالفكر الإنساني في جميع مناحي الحياة، وأسّس حضارة تلامس اليوم قمماً جديدة في عصر التكنومعلوماتية.

ولا ريب أن التطوّر الهائل لتقانيات الاتصال الإنساني أدّى الدور الأهم في عملية بناء هذه الحضارة، غير أنه، وعلى الرغم من الآفاق الرحبة التي بلغتها وسائل الاتصال السمعية والبصرية، حاملة الصوت الإنساني والصورة المتحركة، بشكل آني وفوري، عبر فضاءات الكرة الأرضية بأسرها، فإن الاتصال الجماهيري يبقى تابعاً، بصورة كاملة وأساسية، إلى استخدام اللغة التي تعدّ مفتاح التقدّم الإنساني وبوّابة كل عتبة حضارية بلغها الإنسان عبر العصور.

ولكن هذه اللغة لم تكن لتستطيع ممارسة كلّ هذه التأثيرات، في كل مرحلة تراكم ارتقائي، لولا اختراع العقل الإنساني المبدع للكتابة ثم للطباعة. فالاتصال الكتابي لم يفقد أهميّته على مرّ القرون، وهو لا يزال يجسّد اليوم النواة الصلبة لمختلف أشكال وتقانيات الاتصال.

إن الباحث في مجال الاتصال الجماهيري يجب أن يعرف، بالدرجة الأولى، طبيعة الكلمات والرموز الأخرى والمصطلحات اللغوية وطبيعة المعنى والعلاقة بين المعارف المكتسبة عبر اللغة والسلوك[٤٦٦].

(465) Ibid.
(466) Ibid. p. 249.

لهذا، فإن البحث عن المبادئ الأساسية للاتصال المكتوب مهم الآن كما كان مهمّاً في الماضي، ويلاحظ أن منجزات التقانيات المعلوماتية الجديدة قد أثبتت هذه المقولة التي تتيح التعرّف على طريقة فهم العلاقات بين الواقع الخارجي وبين البناء الداخلي لهذا الواقع الذي شهد تطوّراً لا مثيل له خلال قرون طويلة من الزمن.

إن هدف تحليل من هذا النوع يبرز مسألة أن بعض مبادئ المعرفة الإنسانية مرتبطة بالمشكلة الأساسية لروائز الاتصال الجماهيري التي يمكن أن تجعل الباحث قادراً على فهم الكثير من التأثيرات غير المباشرة والطويلة الأجل.

• بين الوجود والمعرفة

قبل أفلاطون، اهتمّ الفلاسفة بدراسة المبادئ التي تشكّل منطلقاً لطبيعة الوجود، أي ما هو قائم في الواقع، ولطبيعة المعرفة، أي المقابل الذاتي لهذا الوجود. وقد أدّت الدراسات في الوجود إلى نشوء أساسيات العلوم الفيزيائية التي تتعلّق بطبيعة الوجود نفسه. أما المعرفة، فقد أوصلت إلى ما يسمّى اليوم بالسيكولوجية وبجميع العلوم الاجتماعية المعاصرة، لأنها كانت تغطّي مباشرة مسألة العلاقات بين التمثّلات الجوّانية والذاتية للواقع (المعاني)، وبين تأثير المعرفة على السلوك الإنساني[467].

بالنسبة لمفكّريّ اليونان القديمة، كانت العلاقة بين المعرفة وبين الفعل القضيّة المركزية، لأنها عدّت قاعدة يمكن الانطلاق منها لتطوير مفاهيم الفضيلة والعدالة. وقد أدرك هؤلاء المفكّرون أنه عندما يكتسب الإنسان معرفة داخلية حوّل طبيعة الأشياء، فإن هذه المعرفة تمنحه أسساً لتحديد طرائق السلوك المناسبة في مواجهة تلك الأشياء[468].

وينطبق هذا المفهوم على العلاقات الاجتماعية : فإذا تمّت معرفة الطبيعة الاجتماعية القاعدية للإنسان، يصبح من الممكن جعله يتصرّف بصورة معيّنة مع الإنسان الآخر.

إن هذه المسائل الأساسية حول الطبيعة وحول طبيعة الإنسان، شكّلت الهمّ الأوّل للمفكّرين، ونقطة انطلاق للعلم والسيكولوجيا وعلم السياسة وغيرها من العلوم الإنسانية.

بدأت الفلسفة الحقيقية، من نواحٍ كثيرة، مع أفلاطون. فجمهوريّته هي الكتاب الأوّل في التحليل الفلسفي الذي وصل إلينا. وكان أفلاطون تلميذ سقراط، ومنه استمد

(467) Ibid. p. 253.
(468) Ibid.

أساسيات أهم أفكاره. فقد تبنّى أفلاطون المنهج السقراطي كنظام لتحليل الأفكار، وأقنعه سقراط أنه من أجل الوصول إلى المعرفة يجب استخدام مبادئ محدّدة. وقد أولى سقراط أهميّة كبيرة للتحديدات والتعاريف، معتبراً أنه لكي نعرف شيئاً ما، ليس كافياً أن نسمّيه بل يجب أن نحدّده بمقولات دقيقة وأن نستخدم المعاني بشكل متناسق ومنسجم، أثناء النقاشات[469]. ويعتبر سقراط أنه، فقط انطلاقاً من التحديدات الواضحة والمتميّزة، ومن اتّباع قواعد تحدّد وتخصّص المعنى عبر توحيد قياسي، يمكن التفكير بصورة منطقية، بدءاً من المقدمّات وحتّى الخواتيم، لكي نصل إلى الحقيقة. ولا تزال هذه المبادئ سارية المفعول حتّى اليوم في علم المنطق.

إن مسألة التقابل بين العقل والواقع، وكيف أن الأوّل يعرف الثاني، تقع في مركز الوجود الإنساني. وتتضمّن مشكلة المعرفة ثلاث مسائل قاعدية[470]:

الأولى هي مشكلة تقسيم العالم الذي نحتكّ به عبر حواسنا، إلى مقاطع عقلية قابلة للتعامل، وإعطاء مسمّيات لكلّ منها. والمشكلة الثانية الوثيقة الارتباط بالأولى، تتجسّد من خلال القيام بعملية اصطفاء في ذاكرتنا، تخزّن جملة تجارب داخلية خاصة نستطيع تسميتها والتعرّف، فيما بعد، على كيفية ربط المعنى بهذه التسمية. انطلاقاً من هذه التجارب المسمّاة تشتقّ التحديدات الشخصية المقابلة لشيء ما خاص، أو لشرط ما أو حالة ما للأشياء في البيئة الفيزيائية والاجتماعية. وتمثّل كلمة مفهوم الحصيلة الإجمالية الناجمة عن عنصري التسمية والمعنى، وتلك هي المسألة الثالثة.

ويجسّد خطوة غاية في الأهميّة بالنسبة لتطوّر المفاهيم، الاتّفاق على قواعد يتم من خلالها قرن تسمية معيّنة بتحديد خاص يحتوي معنى المفهوم. ولا يتعلّق هذا الأمر بسلوك فردي فحسب، بل بنوع من العقد الاجتماعي. من هذه القواعد تشتقّ مصطلحاتنا حول المعاني والتحديدات، عبر توحيد قياسي للروابط القائمة بين الكلمات التي تصف الأوجه العديدة للبيئة وبين تجاربنا الذاتية للمعنى الذي تنقله تلك الكلمات.

إن ما نملكه من معرفة حول بعض أوجه بيئتنا يشكّل قاعدة طريقتنا في الفعل تجاه هذه الأوجه. هذا يعني أن مشكلة النتائج مفهومة في المسألة القديمة المتّصلة بالعلاقة بين العقل والواقع.

إن المشكلات الثلاث لصنع المفاهيم والمصطلحات والتأثيرات على السلوك، تقع في مركز اهتمام تحليل المعرفة والشروط الاجتماعية للإنسان. وتمثّل هذه المشكلات أيضاً أساس العلاقة بين اللغة وبين السلوك.

(469) Ibid. p. 254.
(470)Ibid.

• أساسيات المعرفة

واجه أفلاطون المشكلة الأكثر أساسية للمعرفة، أي الطريقة التي نحدّد فيها ونفهم الأشياء الموجودة خارج تجربتنا الذاتية، مؤكّداً أن المعرفة الإنسانية تتطوّر على أساس شموليات، أو أفكار عامة تتعلّق بالخصائص الرئيسة لكل فئة من الأشياء يستطيع الإنسان أن يفكّر بها. وقد سمّى أفلاطون هذه الأفكار العامة أشكالاً، وكان يعتقد أن الواقع نفسه مركّب منها. لم يكن الأمر يتعلّق، بالضرورة، بأشياء ملموسة، ولكن أيضاً بمجرّدات[٤٧١]. وكان أفلاطون يرى أنه، من خلال معرفة الخصائص الجوهرية لفئة معيّنة من الأشياء، الملموسة أو المجرّدة، يمكن التعرّف بسهولة على مثال خاص من تلك الفئة ويمكن فهمه ومناقشته[٤٧٢]. لذلك، فإن معنى شيء ما يكمن في شكله، أي في صورة الخواص الجوهرية التي تميّز فئة من الأشياء عن فئة أخرى[٤٧٣].

فالمفاهيم، إذن، هي أساسات المعرفة ونقطة الانطلاق لنظرية حول الاتصال الإنساني، لأن هذه المفاهيم تمثّل طريقتنا في إقامة علاقة مع الواقع عبر تجاربنا الذاتية والداخلية للأشياء، للظروف، وللعلاقات الموجودة في بيئتنا الطبيعية والاجتماعية[٤٧٤].

كلّ ذلك يعني أنه، منذ زمن أفلاطون، كانت واضحة تماماً أهميّة الطابع الاصطلاحي للمعنى. فمعرفة العالم الذي نعيش فيه ترتبط، ليس فقط بما ندركه شخصيّاً بحواسنا، وإنّما أيضاً بما نتفق عليه مع الآخرين حول المعاني المشتركة المتّصلة بالعالم الخارجي. واستناداً إلى هذه الفكرة، يطرح الباحثون المعاصرون مفهوم البناء الاجتماعي للواقع، أو، بكلمات أخرى، الاتفاق الاجتماعي حول المعاني[٤٧٥].

إن رؤية أفلاطون لدور الاصطلاحات في بناء المعاني تبدو جليّة في كيفه، وأناس اليوم يشبهون رجال ذلك الكهف الأفلاطوني، فالمعلومات التي يقرؤونها في الصحافة ويشاهدونها في التلفزة، ما هي سوى ظلال مرتسمة، تحملهم على بناء معانٍ مشتركة للعالم الواقعي، ليس لها نظائر فعلية في ذلك العالم .

(471) Platone, " Repubblica, in Dialoghi Politici e Lettere ", in F. Adorno, 2 voll, vol. I, Ed. UTET, Torino, 1970.
(472) Ibid.
(473) Ibid.
(474) J. A. Stewart, " The Philosophy of Plato ", Oxford University Press, New York, 1909, in M. DeFleur & Ball-Rokeach, cit p. 255.
(475) Ibid.

ثمة أسباب كثيرة للاعتقاد بأن الإنسان يشيّد معاني اصطلاحية للواقع انطلاقاً من الرسائل الإعلامية التي يتلقّاها. وتولي الدراسات الحديثة أهمّية بالغة للربط بين التسميات والمعاني، والذي يتحقّق من خلال المصطلحات الاجتماعية. أما المصطلحات اللغوية فهي القواعد المتّفق عليها اجتماعياً لتفسير الكلمات الموجودة داخل جماعة لغوية. وللكلمات معانٍ يمكن أن تكون مشتركة، بفضل قواعد ومصطلحات تربط فيما بينها.

وتتعلّق مصطلحات المعنى، ليس بكلمات تصاغ سمعياً فحسب، بل بأنواع أخرى عديدة من الرموز. هذا يعني أن اللغة تتجاوز التعبيرات السمعية، لتشمل التعبيرات والحركات والرموز غير الكلامية التي تضطلع بوظيفة اتصالية.

هناك مبادئ للمعرفة تتجلى في أن المفاهيم والاصطلاحات ليست مرتبطة، حتمياً، بالحقيقة. فالإنسان يستطيع، عملياً، أن يربط بشكل انسجامي، أية كلمة بأي معنى ليطوّر مفهوماً، بقطع النظر عن مسألة أن يكون هذا الربط تمثّلاً صحيحاً للعالم الواقعي[٤٧٦].

عندما يقرأ الإنسان الصحيفة أو يستمع إلى الراديو أو يشاهد التلفزة، فإن وسائل الإعلام هذه تستخدم رموزاً وأنظمة تفسير خاصة بها، تحثّ من يتلقّى الرسائل على ربط هذه الرموز والأنظمة بمعانٍ معيّنة. هذا يعني، عملياً، أن جوهر الاتصال الإنساني هو شيء ما يثير عند الآخرين معاني محدّدة، وترتكز هذه السيرورة على مبدأين مهمّين:

الأول أن المفاهيم (التسميات ومعانيها) هي أساسات المعرفة الإنسانية الشخصية للواقع (وأحياناً لأشياء غير واقعية)، والثاني أن باستطاعة الإنسان أن يحقّق اتصالاً لأنه يطوّر قواعد اجتماعية، أي اصطلاحات لغوية تتطلّب ارتباطات انسجامية بين التسميات ومعانيها[٤٧٧].

هناك نقطة أخرى مكمّلة لهذه المفاهيم تتعلّق بموضوع أن المعرفة تشرط الفعل، أي أن إحدى أهم نتائج المعرفة هي الاختيار بين أشكال مختلفة من السلوك. والواقع أن آليات الربط بين المعرفة والسلوك تبقى مسألة قائمة على الدوام، فالقناعات التي يتبنّاها الناس حول طبيعة الواقع تمثّل منطلقاً لقراراتهم حول ما يجب عمله، إذ تعطي هذه القناعات شكلاً لسلوكياتهم الظاهرية ولأفكارهم، أي لمعرفتهم الذاتية المشكّلة من اصطلاحات المعنى التي يشاركون فيها الآخرين، وليس الواقع بحدّ ذاته[٤٧٨].

(476) DeFleur & Ball-Rokeach, cit. p. 256-266.
(477) Ibid.
(478) Ibid.

• الخلفيات التاريخية لمبادئ المعرفة

في جميع الأزمنة والعصور، أثارت مشكلة الطبيعة الأساسية للواقع وكيفية التعرّف عليها وماهية النتائج المترتّبة على هذه المعرفة، اهتماماً كبيراً لدى الباحثين في الشأن الإنساني.

كانت القرون الوسطى حقبة تكريس الدين المسيحي في أوروبا، وكانت الدراسات حول الوجود والإنسان تجري في الأديرة والمدارس التي اعتبرت مراكز تعليمية برز فيها فلاسفة العصر الذين أطلق عليهم اسم " المدرسيّين " أو " السكولاستيكس "، الذين كانت كتاباتهم مزيجاً من اللاهوت والفلسفة، والذين كانوا يعتقدون أن الوصول إلى المعرفة يستوجب اتباع ثلاث وسائل : الأولى تكمن في الاكتشاف وفي الإيمان، والثانية في السلطة والثالثة في تطبيق المنطق الميتافيزيقي، أي منطق لا يرتبط بمقدّمات أو تحديدات من نوع مادّي.

وكان المدرسيّون يفضلّون المنطق الميتافيزيقي على ملاحظة العالم المادّي، لسببين[٤٧٩]: أولهما أنهم لم يكونوا يهتمّون بقضايا العالم المادي، وثانيهما أنهم كانوا يشعرون بأنهم يعرفون كلّ ما تجب معرفته حول العالم المادّي، لأنهم كانوا يمتلكون تعاليم سلطة عليا.

وقد عرف المدرسيّون أرسطو الذي نقله عرب إسبانيا إلى أوروبا بعد أن كانت فقدته تماماً في حين بقيت أفكار أرسطو حيّة في أذهان العلماء العرب، لقرون طويلة. وقد أسمى المدرسيّون أرسطو المعلّم والفيلسوف، وكانوا يعتبرونه المصدر الحاسم المطلق للحقيقة في كلّ ما يتعلّق بعالم الطبيعة.

وورث المدرسيّون عن أرسطو نظاماً معقّداً من المنطق يستند إلى الجدل القياسي الذي يتضمّن مقدّمتين مع مصطلح مركزي وخاتمة تنجم بالضرورة عن المقدّمتين الأوليّتين. وقد خدم هذا المنطق المدرسيّين لإظهار وجود الله عبر المنطق وحده.

أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد ظهر فلاسفة لامعون كتوماس هوبس وجون لوك اللذين اهتما بطبيعة اللغة وبعلاقتها مع الحياة العقلية للإنسان.

وقد رأى هوبس أنه من خلال الكلمات واللغة يمكن للإنسان أن يطوّر قدرته على التفكير وعلى التذكّر.

(479) Ibid.

يقول هوبس[٤٨٠]:

إن الاستعمال العام للغة يكمن في انحلال خطاب عقلي في خطاب كلامي، أو في تحويل سلسلة الأفكار إلى سلسلة كلمات، وهذا يحدث لأسباب عدّة : أوّلاً لأن ثمة ملاءمة في قيام الإنسان بعملية تثبيت الأفكار التي يسهل نسيانها، بكلمات يستطيع تذكّرها.. فالاستعمالات الخاصة للغة هي تثبيت ما يراه الإنسان، عبر التأمّل، أنه سبب شيء في الحاضر أو الماضي، وما يراه يمكن أن يكون نتاج أشياء حاضرة أو ماضية، أي التأثير، الذي هو اكتساب وسائل. من ناحية أخرى، فإن اطلاع الآخرين على المعرفة التي تمّ التوصّل إليها، هو عبارة عن نصيحة متبادلة وتعليم ، من ناحية ثالثة، فإن تعريف الإنسان الآخرين برغباته وأهدافه يجعله قادرا على التعاون معهم.

انطلاقا من هذه الأفكار، طوّر لوك مفاهيم اللغة وأساس النظام الاجتماعي، إذ اعتبر العلاقة بين الكلمات والمعاني الداخلية ودور اللغة قاعدة للعقل والمجتمع.

يقول لوك[٤٨١] :

لقد جعل الله تعالى الإنسان مخلوقاً اجتماعياً؛ ويسّر له التعامل مع أبناء جنسه؛ مزوّداً إيّاه باللغة التي تمثّل الأداة الأهم والرابطة المشتركة للمجتمع. بهذه الطريقة، اكتسب الإنسان أعضاء ملائمة ليصوغ أصواتاً مفصلة تدعى الكلمات. ولكن ذلك لم يكن كافياً لإنتاج اللغة. وكان من الضروري أن يتمكّن هذا الإنسان من استخدام الكلمات كإشارات لمفاهيم داخلية، ولكي يجعلها إشارات لأفكار تدور في خلده، جاعلاً إيّاها معروفة للآخرين بشكل تستطيع معه الأفكار الداخلية أن تنتقل من إنسان لآخر.

إن فكرة المجتمع كجملة من المعارف المؤسّسة على التبادل الرمزي، يجمع مبدأ المعرفة القديم كمفاهيم، مع اللغة كبناء اجتماعي قائم على مصطلحات الكلمات والمعاني، ومع فكرة أن الاتصال يشكّل قاعدة النظام الاجتماعي.

وقد تمّ تطوير كلّ هذه المفاهيم في القرون اللاحقة، ففي القرن الثامن عشر كان النقاش يدور حول قيمة المعرفة المنطقية تجاه المعرفة الإمبيريقية، أي حول ما إذا كان يمكن التوصّل إلى الفهم الحقيقي للواقع الموضوعي عبر الاحتكاك الحواسي مع هذا الواقع. كان البعض يعتقد أن الحواس ليست وسيلة معرفة موثوقة، وأن الانطباعات التي تبقى في العقل قد تكون غير دقيقة وخادعة، وأنه لا يمكن تطوير أي

(480) T. Hobbes, " Il Leviatano » (1651), trad., Ed. UTET, Torino, 1965, p. 65.
(480) J. Locke, " Saggio sull'Intelletto Umano " (1690), trad. M. e N. Abbagnano, Ed. UTET, 1971, p. 471.

معرفة لحقيقة طبيعة العالم الخارجي لأن كلّ ما يعرفه الإنسان هي أفكاره القابعة في عقله. أما الفلاسفة الجدد، فقد كانوا يصرّون على فائدة الملاحظة والتجارب من أجل إعطاء انتظامية للملاحظات حول الواقع، وكانوا يعتقدون أن المنطق لا يكفي، وأنه من الضروري النظر إلى العالم بشكل موضوعي، ويجب قياس وتجريب هذا العالم[٤٨٢].

وقد تغلّبت، فيما بعد، تفسيرات الإمبيريقيين التي سيطرت على الفلسفة. فالعالم، حسب هؤلاء المادّيين، يتم إدراكه عبر الحواس، وتتطوّر الصور الداخلية والمفاهيم في العقل الإنساني، وهي صور ومفاهيم منفصلة، بطبيعة الحال، عن الواقع الموضوعي الخارجي، ولكنها تستطيع بناء تمثّلات للواقع. ويجب الانطلاق من فرضية أن المعاني واحدة بالنسبة للجميع. هذا يعني أن الوقائع الموضوعية الداخلية متشابهة بالنسبة لجميع الأشخاص، بما يمكّنهم من تحقيق التبادل فيما بينهم بالمعاني، عبر اللغة[٤٨٣].

وهكذا، أصبحت مسألة معرفة الإنسان لطبيعة العالم الموضوعي مشكلة حيوية بالنسبة لفلسفة العلم، ومارست دوراً جوهرياً في تطوّر مقاربة جديدة للفهم مبنية سواء على المنطق، سواء على الملاحظة. وكانت مهمّة العلماء الأوائل الذين استخدموا المنهج العلمي (باكون، غاليليه، كوبيرنيك، وكيبلير)، اكتشاف آليات عمل العالم المادّي.

وبعد مرور زمن طويل، اندفع العلم نحو فهم استكشاف العالم الاجتماعي والعالم السيكولوجي[٤٨٤].

غير أن السؤال الذي كان يطرح نفسه كان يدور حول معرفة المعايير التي يجب على أساسها قبول أو رفض الأجوبة المكتشفة من قبل العلم. لذلك، كان ضرورياً توافر مفاهيم إبيستمولوجية، أي نظرية للمعرفة، يستطيع العلماء من خلالها إقرار حقيقة أو زيف النتائج التي كانوا يتوصّلون إليها عبر الملاحظة الإمبيريقية[٤٨٥].

وجاء الرد الأهم على هذا التساؤل في القرن التاسع عشر، من خلال مفهوم الاحتمالية، القائلة بأنه إذا كان باستطاعة شرط ما أن يتوافر بطريق الصدفة، لا يمكن الاستنتاج بأن هذا الشرط هو نتاج عوامل سببية تجري دراستها.

لقد أدّى النقاش الفلسفي إلى التعرّف على خمسة مبادئ تتعلّق بالوجود الإنساني، يمكن إجمالها كالتالي[٤٨٦]:

(482) Ball-Rokeach &DeFleur, Ibid.
(483) Ibid.
(484) Ibid.
(485) Ibid.
(486) Ibid.

١) هناك واقع نعيش فيه يحتضن سواء العالم الموضوعي للطبيعة، سواء عالم ما وراء الطبيعة، الذي لا يوجد اتفاق عام حوله.

٢) ويطوّر البشر أشكالاً من التمثّلات التي تنتج معاني حول الواقع.

٣) في الوسط، هناك سيرورة يبني البشر من خلالها معاني ذاتية للواقع.

٤) وتقود هذه المعاني الذاتية والتفسيرات الذاتية سلوك البشر الشخصي.

٥) إن طبيعة نماذج سلوك البشرية تتطلّب نظاماً اجتماعياً يمارس رقابة عبر القواعد الناظمة الملائمة، وهذه الأخيرة تؤثّر بدورها على السلوك.

الواقع أن النقطة الأساسية التي تهم أهداف هذا البحث تتعلّق بسيرورة بناء الإنسان للمعاني حول الواقع، الذي استمدّه القدماء من المنطق، معتبرين أنه لا حاجة للاهتمام بمعرفة العالم الموضوعي، لأن الصور الموجودة داخل الإنسان هي المهمّة فعلاً. فيما بعد، بنيت المعرفة على الاحتكاك الإمبيريقي بالواقع الموضوعي، وعلى أن الصور التي يحملها الإنسان في داخله وأفكاره وتفسيراته والمعاني التي يكوّنها، تتشكّل ذاتياً من خلال انطباعات حسّية. وانتهى الأمر بوضع حسابات احتمالية للتأكّد من أن النتائج التي تمّ الحصول عليها، بواسطة هذه الانطباعات، هي نتائج صحيحة ودقيقة.

ورغم كلّ هذا التراكم العلمي لمسألة المعرفة، ما يزال العلماء لا يعرفون إلاّ القليل حول طرائق استيعاب الإنسان العادي لمعرفته وحول أساليبه في التحقّق منها. ولذلك، فقد انبثقت عن الفلسفة علوم أخرى لدراسة العلاقة بين الإنسان وآليات معرفته للواقع الموضوعي، هي العلوم الاجتماعية.

نظرية البناء الاجتماعي

في بدايات القرن العشرين نشأ علم اللسانيات الذي يهتم بدراسة بنية اللغة ودلالاتها، وفي النصف الثاني من القرن الماضي ظهرت الأنتروبولوجيا التي تدرس، عملياً، كلّ شيء، من العظام القديمة إلى أطلال الحضارات، وحتّى الثقافات البدائية المعاصرة. وقد انصرف أحد فروع الأنتروبولوجيا إلى دراسة كيف أن لغة شعوب عديدة تعطي شكلاً وحيداً وفريداً لتجاربها الذاتية حول البيئة المادّية والاجتماعية[٤٨٧].

(487) Ibid.

في بدايات القرن المنصرم أيضاً، انفصلت السوسيولوجيا عن الفلسفة لتهتم، خصوصاً، بالنماذج العامة للتنظيم الاجتماعي والتغيير الاجتماعي. وانصرفت فروع منها لدراسة الطريقة التي تنبثق من خلالها المعاني والمعارف عن التبادل الاجتماعي القائم على اللغة، والكيفية التي تكوّن فيها هذه الصيرورة، الحياة الشخصية والاجتماعية.

عبر هذه الدراسات اتضح أن ثمّة علاقة وثيقة بين تنظيم أو بنية لغة وبين الطريقة التي يستخدمها الناس لإثارة معانٍ عند الآخرين. وقد أصبحت اللسانيات اليوم تضطلع، جوهرياً، بالبحث المنتظم لثلاثة أوجه أساسية للغة، تساعد على فهم كيفية استخدام الناس لهذه اللغة من أجل نقل معانٍ. ويهتم أحد فروع علم اللسانيات بالصوتيات، وهي تعني الأصوات التي تستعمل لفهم الكلمات، وينصرف فرع آخر إلى دراسة تركيب الكلمات، أي القواعد التي من خلالها يستخدم الناس مجموعات كلامية لتحميلها معانٍ تتجاوز معاني الكلمات المفردة. وهناك أيضاً علم الدلالات الذي يدرس الروابط بين الكلمات و رموز أخرى وبين مرجعياتها التي هي أوجه الواقع الذي تحلّ هذه المرجعيات محلّه والمعاني التي توصلها الكلمات إذا كان المتكلّم يتّبع الاصطلاحات المقرّرة من قبل الجماعة اللغوية.

بدهي أن اصطفاء رمز معيّن يستخدم كمسمّى لمرجعية معيّنة (أي جانب من جوانب الواقع الماديّ أو الاجتماعي) هو عملية اعتباطية تماماً. فالمصطلحات التي يبنيها الأفراد لتحميلها معانٍ، عن طريق حركات وكلمات وأشياء، هي، ببساطة، مشيّدات. ودقّة معاني الكلمات وعملية اكتساب قواعد اللغة ترتبط فقط بالاصطلاحات التي يتشارك فيها المتكلّمون في لحظة معيّنة.

ويعرّف الأنتروبولوجيون فرعهم العلمي بأنه دراسة الإنسان وأصوله، ودراسة المجتمعات الإنسانية وثقافاتها الماضية والحاضرة.

يعتقد إدوار سابير[٤٨٨] ، أحد الباحثين الطليعيّين في مضمار اللغة والثقافة، أنه

(٤٨٨) لمزيد من المعلومات حول اللغويات الحديثة عموماً وحول اللغويات الأنتروبولوجية والسوسيولوجية، اقرأ:

- S. W. Littlejohn. " Theories of Language and Nonverbal Coding. Theories of Human Communication",Ed. Belmont, Calif. Wadsworth, 1983.
- E. Sapir, " Language : An Introduction to the Study of Speech ", Ed. Harcourt Brace, New York, 1921, trad. in Il Linguaggio. Introduzione alla Linguistica, Ed. Einaudi, Torino, 1971.
- B. Worf. " Language, Thought and Reality ", Ed. J. Wiley & Sons, New York, 1956. =

ليس فقط اللغات، ولكن أيضاً عمليات تحويل العالم الماديّ والعالم الاجتماعي إلى مفاهيم، تختلف من مجموعة إنسانية لأخرى. فالأشخاص الذين كانوا يستخدمون لغات مختلفة، كانوا يعبّرون عن وقائع شديدة الاختلاف، كما أن الكلمات والاصطلاحات اللغوية والمعاني التي كانوا يستعملونها، كانت تصنع شكلاً لبناء مشترك لمعنى الواقع، معطية كلّ مجموعة دلائل ذاتية مميّزة فيما يتعلّق بالعالم المحيط.

يعرض سابير أفكاره على النحو التالي:

اللغة هي دليل للواقع الاجتماعي.. اللغة تقيّد بقوة كل أفكارنا حول الصيرورات والمشكلات.. إن البشر لا يعيشون في عالم موضوعي ولا في عالم النشاط الاجتماعي فحسب، وإنّما هم تحت رحمة اللغة الخاصة التي أصبحت وسيلة تعبير عن مجتمعاتهم.. من الوهم التخيّل بأن أحداً يتكيّف، أساساً، مع الواقع، دون أن يستخدم اللغة، أو أن هذه اللغة هي فقط أداة صدفية لحل مشكلات معينة تتعلق بالاتصال والتفكير المنطقي.. إن معظم العالم الحقيقي مشيّد، دون وعي، على الخصائص اللغوية للمجموعة..لا توجد لغتان متشابهتان تماماً لكي نعتبرهما ممثّلتين للواقع الاجتماعي نفسه..إن العوالم التي تعيش فيها مجتمعات مختلفة هي عوالم منفصلة، وليست، ببساطة، العالم نفسه مسمّى بطرائق مختلفة.

أما وورف فقد أجرى أبحاثاً حول علاقة اللغة بالإدراك والتفكير أيضاً، و أسفرت اكتشافات الباحثين في هذه المجالات عمّا أطلق عليه فرضيات سابير - وورف أو مبدأ النسبية اللغوية.

وحسب هذا المبدأ، فإن الإنسان يعرف الواقع من خلال حواسه، وهذه التجربة الإمبيريقية تزوّده بقواعد لصياغة معانٍ تتعلّق بالبيئة الخارجية. ولكن صيرورات الاتصال، الوحيدة والفريدة، التي يشكّل الفرد جزءاً منها، ينظر إليها كمجموعة متداخلة من العوامل الإضافية، التي تعطي شكلاً وتؤثّر في الطريقة التي تمّت من خلالها تجربة الوقائع.

= - C.H. Cooley, " Human Nature and the Social Order ", Ed. Schocken Books, New York, 1964.
- G.H. Mead, " Mind, Self and Society : From the Standpoint of a Social Behaviorist ",Ed. University of Chicago Press, 1934, trad. Mente, sé e Società, Ed. Giunti-Barbera, 1972.
- M. Scheler, " Sociologia del Sapere ", Ed. Abete, Roma, 1976.
- P. L. Berger & T. Luckmann, " The Social Construction of Reality ", Ed. Doubleday, New York, 1963, trad. La Realtà come Costruzione Sociale, Ed. Il Mulino, Bologna, 1974.
- A. V. Cicourel, " Cognitive Sociology : Language and Meaning in Social Interaction ", Ed. The Free Press, New York, 1974.

انطلاقاً من فكرة أن التبادل الاجتماعي والمعاني المشتركة تشكّل قاعدة التفسيرات الفردية للعالم الموضوعي، تطوّر نوعان منفصلان من التفكير، أحدهما سوسيولوجي يرى أن الاصطلاحات اللغوية التي تربط المعاني بالكلمات تمارس نفوذاً قوياً على سلوك الأشخاص، وتشكّل أداة أساسية لتحليل الطريقة التي يتبنّى فيها الأفراد التعاريف المشتركة لإعطاء معنى للأشياء ولقواعد الحياة الاجتماعية ولأنفسهم، عبر التبادل مع الآخرين من خلال اللغة، أي من خلال التبادل الرمزي. أما التفكير الثاني فهو يرتكز على السيكولوجية الاجتماعية، التي يرى أحد باحثيها - هورتون كولي - أن الأشخاص يستطيعون بناء علاقات فيما بينهم ليس على أساس الخصائص الموضوعية في الواقع الملموس، وإنّما فقط عبر انطباعات متبادلة تعتريهم من خلال الاتصال التبادلي، أي وكما يقول كولي، من خلال الأفكار الشخصية. فالفكرة الشخصية تجاه الآخر أو تجاه فئة معيّنة من الناس، إذن، هو بناء للمعنى، وهو جملة من المميّزات المتخيّلة التي يسقطها الناس على آخرين كتفسيرات لشخصيّاتهم، على أساس أنهم يحملون هذه الصفات في الواقع.

ويعتقد كولي أنه فقط لأنّنا نستطيع أن نطوّر في عقولنا هذه النظائر للأشخاص الحقيقيين، يمكننا أن ندخل في اتصال تبادلي اجتماعي معهم. وأنّنا نستخدم الفكرة الشخصية حول كلّ شخص، كقاعدة لتوقّع سلوكه ولتوقّع سلوك أشخاص آخرين مشابهين له. بدهي أن الآخرين يفعلون ذات الشيء.

ويقول كولي:

> فيما يتعلق بدراسة العلاقات الاجتماعية الآنية، فإن الفكرة الشخصية هي الشخص الحقيقي. بمعنى أنه فقط بهذا الشكل يستطيع إنسان أن يحوز موجودة شخصية لإنسان آخر وأن يكون له حيز في عقله. الواقع الاجتماعي الآني هو العلاقة الشخصية، المجتمع إذن، في جانبه الآني، هو علاقة بين أفكار شخصية. ولكي يوجد المجتمع، من الضروري أن يلتقي الأشخاص في مكان ما، وهم يلتقون فقط كأفكار شخصية متوضعة في العقل.

ويعتبر كولي أن النظرة للذات هي أيضاً فكرة شخصية، يتم الحصول عليها بواسطة الاتصال التبادلي الاجتماعي القائم على اللغة، ويعرّف كولي معرفة الذات بأنها ذات منعكسة (looking glass self)، لأن الانطباع حول الذات يأتي عندما ينظر الشخص إلى أفعال الآخرين تجاهه، وهي نظرة إلى ضرب من المرآة الاجتماعية، حيث يستمد هذا الشخص معلوماته حول طبيعته وذاته.

إن نظرية كولي للبناء الاجتماعي تعدّ نوعاً من العضوانية النفسية التي تفهم المجموعات الإنسانية والمجتمع كنظام من الأفكار الشخصية بالإضافة إلى فكرة شخصية عن الذات، يطوّرها الإنسان كبناء للمعاني الداخلية والذاتية.

وطوّر هيربيرت ميد نظرية النتائج الشخصية والاجتماعية للاتصال التبادلي الرمزي، مستخدماً مصطلح العقل للدلالة على قدرة الإنسان على التعلّم وعلى استعمال الرموز التي يتقاسم معانيها مع الآخرين. ويعتقد ميد أنه بفضل هذه المقدرة فقط، يستطيع الإنسان أن يتّصل من خلال اللغة المستندة إلى معانٍ اصطلاحية، وأن فعل التفكير هو ردّ داخلي على الرموز الداخلية. وقد أبرز ميد أنه لكي يتّصل الإنسان بالآخرين يجب أن يمارس دورهم، أي يجب أن يتعلّم مستلزمات قيامه بكلّ أدوار الأطراف داخل المجموعة، وأن يستعمل هذه المعارف ليتوقّع الأسلوب الذي من خلاله يؤدّي الآخرون أدواراً معيّنة، رداً على أفعاله. ويطلق ميد على هذه العملية مصطلح " الآخر المعمّم ".

وهكذا، فإن العقل والذات والمجتمع هي كلّها مشيّدات، أي تقويمات شخصية وتحديدات أدوار يصوغها الإنسان من خلال الاتصال التبادلي الرمزي.

وتعدّ نظرية الموسومات (labelling theory)، امتداداً معاصراً لفكرة الاتصال التبادلي الرمزي عند كولي وميد، وهي نظرية مهمّة جداً لدراسة السلوك المنحرف.

الواقع أن هذه الموسومات يمكن أن تكون غير عادلة، لأن سلوكيات الأشخاص تجاه الإنسان الموسوم تخضع لمعانٍ يلصقونها به.

وقد تطوّرت، في المجال السوسيولوجي، نظرية مستقلّة للبناء، لمواجهة المشكلة الأوسع التي تتعلّق بالمعرفة، والتي أطلق عليها الفيلسوف الألماني ماكس شيلر سوسيولوجية المعرفة (wissenssoziologi)، وتعتبر الأطروحة الرئيسة فيها أن معرفة أي شيء يتمظهر في المجتمع، تتحقّق ضمن أشكال وحدود الثقافة السائدة في تلك اللحظة.

ويهتمّ علماء السوسيولوجيا، بصورة خاصة، بتلك الأشكال التي تضبط طبيعة المجتمع، كالأيديولوجيات والأديان والتفسيرات العلمية، لأن الطريقة التي يعامَل فيها الأشخاص داخل النظام الاجتماعي تحدّدها هذه المعرفة التي يمكن أن تمارس تأثيرات عميقة على نوعية الحياة الإنسانية.

أما من زاوية السيكولوجيا الاجتماعية[٤٨٩]، ومشكلة بناء المعاني وتأثيراتها على السلوك، فإن علماء هذا الفرع يتفادون مصطلحات كالعقل والتفكير، ويستخدمون أخرى كالمعرفة وتشكيل الانطباع وصياغة المعلومة.

ويتحرّى السيكولوجيون في العمق طبيعة الذاكرة ودورها في العلاقات الشخصية، والأهم من ذلك أنهم اكتشفوا اللغة ودورها في الاتصال التبادلي الاجتماعي.

وترتكز الفكرة التأسيسية لأطروحات السيكولوجية- الاجتماعية على مفهوم المخطَّط البياني الذي وضعه بارتلت، والذي يستند إلى البنية السيكولوجية للذاكرة الإنسانية، وإلى كيفية جعل هذه البنية الإدراك والاتصال والسلوك الاجتماعي، عمليات ممكنة.

يقول شيلي وكروكر:

إن المخطَّط البياني أو الترسيمة هي بنية معرفية مركّبة، في جزء منها. من تمثّل حقل محدّد من المثيرات، وهي تحتوي معارف عامة حول هذا الحقل وتتضمّن وصفاً للعلاقات بين خصائص هذا الحقل وأمثاله وحالاته الخاصة .. إن إحدى الوظائف الرئيسة لهذه الترسيمة هي إعطاء أجوبة على السؤال : ما هذا ؟ وتقدم الترسيمة فرضيات حول المثيرات التي يستقبلها الفرد والتي تحتضن أنظمة لتفسير وجمع معلومات متعلقة بالترسيمة. وتستطيع هذه الأخيرة أن تعطي أيضا قاعدة لتنشيط متتاليات سلوكية. أي نسخ تصف الطريقة التي يتحرك من خلالها الإنسان في حالة اجتماعية معينة.

الواقع أن الأمر يتعلّق بتنظيمات شخصية لمعانٍ ذاتية لأشياء ووضعيات وأحداث تمّ إدراكها عبر الحواس. والترسيمة هي الطريقة التي يحدّد بها السيكولوجيون أشكال المعرفة الإنسانية المختزنة في الذاكرة، أي الأجوبة الداخلية المثارة من قبل الإدراك الحسّي المباشر أو من قبل الكلمات المستخدمة للاتصال مع الآخرين حول واقع معيّن.

إن تنظيم هذه التجارب المختزنة في الذاكرة هي الترسيمة التي تتحرّك، ليس فقط عندما يدرك الإنسان بشكل حسّي شيئاً ما حقيقياً، وإنّما أيضاً عندما تذكر أمامه الكلمة التي يسمّى بها هذا الشيء، وذلك لكي يعطيها المعنى عندما يقولها شخص آخر أثناء اتصال شخصي.

(٤٨٩) لتفاصيل أخرى حول السيكولوجيا الاجتماعية وبناء الواقع، اقرأ:
- F. Bartlett, " Remembering ", Ed. Cambridge University Press, 1934, trad. " La Memoria. Studio di Psicologia Sperimentale e Sociale ", Ed. Angeli, Milano, 1990.
- E. T. Shelley & J. Crocker, " Schematic Basis of Social Information Processing, in Social Cognition", E. T. Hoggins, C. P. Herman & M. P. Zahne, Ed. Hillsdale, N. J. Erlbaum, 1976.

وتؤكّد الدراسات السيكو- سوسيولوجية المعاصرة ما قاله دوماً الفلاسفة والأنتروبولوجيون والسوسيولوجيون من أن ثمّة علاقة أساسية بين المعرفة التي يكتسبها الإنسان من التعلّم في بيئة اجتماعية وبين الطريقة التي يسلكها هذا الإنسان، في مواجهة العالم المادّي والاجتماعي. كما أن الترسيمات الشديدة الشبه بأشكال أفلاطون، تعطي تفسيراً للفعل السيكولوجي للذاكرة وللإدراك الحسّي وللتفكير وللاتصال. فالمعاني المختزنة في الذاكرة هي قاعدة المعرفة، وهي، مع موسوماتها واصطلاحاتها، قواعد الاتصال، وهذا الأخير، بدوره، هو أساس النظام الاجتماعي.

الاتصال الجماهيري وتأثيرات " الواقع الإعلامي "

بدأ الحديث عن الإعلام كباني للواقع الاجتماعي في الثمانينيات، وهو مرتبط خاصّة، بانتشار ومعرفة السوسيولوجيا الشولتزية (نسبة إلى شولتز)، وبظهور اتّجاهات في الدراسات الإعلامية، تمزج بين موضوعات اتّصالية بحتة ومقاربة السوسيولوجيا الظاهرتية. ويكمن السبب الآخر في التموضع النهائي لهذا الخط البحثي، في قربه من خط صيرورات التكيّف الاجتماعي، وتتضمّن الدراسات الإعلامية المتفرّقة في هذا المجال، محاولات وصف تمثّلات الواقع الاجتماعي التي يبنيها الإعلام الجماهيري في قطاعات وموضوعات معيّنة[٤٩٠].

من حيث المبدأ تقتضي دراسة كيفية إسهام الإعلام في البناء الاجتماعي للواقع، تسليط الضوء على الرائز الذي تمارسه التمثّلات الرمزية للإعلام في الإدراك الذاتي للواقع الاجتماعي[٤٩١].

الواقع أن للإعلام دوراً حاسماً، ليس في بثّ معلومات حول الأحداث فحسب، وإنّما أيضاً في إعطاء شكل للواقع، وفي استيعاب السياق الاجتماعي- السياسي الذي تتوضّع فيه الأحداث[٤٩٢]. ولكن ذلك لا ينفي - حسب دهرندورف - أن مشاهدة التلفزة ليست بديلاً عن العيش في مجتمع متمدّن[٤٩٣]. إن الكون الصغري (الميكرو) الذي يتجسّد في تجربة الإنسان المباشرة، ذات المغزى والمتماسكة والثابتة مع الآخرين، عبر الصلات الشخصية، والكون الكبري (الماكرو) المؤلّف من بنيات أكثر

(490) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit., p. 115.
(491) H. Adoni & S. Mane, " Media and the Social Construction of Reality ", in Wolf,cit., p. 116.
(492) J. Blumer & P. Gurevitch, " The Political Effects of Mass Communication ", Ed. M. Gurevitch-T Bennett-J. Curran-J. Woollacott, Methuen, London, 1982, pp. 236-267.
(493) R. Dahrendorf, " Reflections on the Revolution in Europe, Ed. Chatto and Windus, London, 1990, p. 117.

اتّساعاً، حيث علاقات الفرد مع الآخرين مجرّدة ومجهولة وبعيدة، كلاهما يمثّلان ضرورة للإنسان. فالكون الصغير، بكل ما يقع فيه، يكتسب معنى فقط إذا احتواه الكون الكبير، والعكس صحيح، إذ يصبح الواقع ضئيلاً إلاّ في حال تمثّله مراراً وتكراراً في اللقاءات الشخصية للكون الصغير. ففي التجربة الإنسانية، إذن، يتداخل الكونان الصغير والكبير بلا انقطاع(٤٩٤).

من المهمّ إبراز هذين الوجهين للحياة الإنسانية لتجنّب تحويل قدرة بناء الإعلام تعاريف للواقع إلى إلغاء ومحو تلك الدينامية العلائقية بين الكونين الصغري والكبري. فالإعلام يستطيع بناء التعاريف الاجتماعية لسياقات معانٍ أكثر اتّساعاً، تؤطّر فلك التجربة في مجال الحياة اليومية، ولكن الإعلام، في هذه الصيرورة، لا يعمل وحده ولا يعمل منعزلاً. لأن تنوّع وتعقّد النماذج الحديثة للمعلومات تقضي بأن يتمكّن كل مصدر على حدة، من صنع جزء محدود من المعارف التي تسمّى واقعاً اجتماعياً. ذلك أن تشكّيل الواقع هو صيرورة معقّدة والنماذج المتعلّقة به يجب أن تكون قادرة على تجسيد تلك التعقيدات(٤٩٥).

ويشدّد بعض الباحثين(٤٩٦) في هذا الموضوع على أن تأثير التلفزة في عملية بناء الواقع الاجتماعي هو صيرورة معقّدة وغير مباشرة، تعمل متفاعلة مع عناصر شديدة التنوّع ومع مؤسّسات السياق. ويمكن تحديد خمسة مستويات مترابطة بين الإعلام وتلك العناصر والمؤسّسات:

١) كفايات الأفراد في التعاطي مع المعلومات والقيود البنيوية والمعرفية.

٢) الوعي النقدي للأفراد في استهلاك التلفزة.

٣) التجربة المباشرة ومصادر أخرى تؤكّد أو تنفي الرسائل التلفزية.

٤) التأثيرات ذات الطبيعة الاجتماعية البنيوية.

٥) صيرورة الغرس المرتبطة بمضامين خاصّة وباستهلاك اصطفائي، لا استهلاك عام وروتيني للتلفزة.

(494) P. Berger & B. Berger. Sociology. A Biographical Approach. Basic Books. New York. trad Sociologia. La Dimensione sociale della Vita Quotidiana. Ed. Il Mulino. Bologna. 1977. p. 22.
(495) D. Slater & W. Elliott, " Television's Influence on Social Reality ", in Quarterly Journal of Speech. n° 68, 1982, pp. 69-79.
(496) R. Hawkins & S. Pingree, " Television's Influence on Social Reality ", Ed. E. Wartella – C. Whitney – S. Windahl, Mass Communication Review Yearbook. vol. 4. Sage Beverly Hills, 1983. pp. 53-76.

وبالابتعاد عن فكرة النقل الآلي والميكانيكي للتمثّلات الاجتماعية، من مضامين الإعلام إلى معارف الجمهور، يكتسب أهمّية متغيّر الكفاية في التعاطي مع المعلومات. بهذا المعنى، وعلى قاعدة نظريات التطوّر المعرفي، يفترض حصول تأثيرات ذات معنى للتلفزة على الأطفال الصغار، فالأطفال يعدّون أكثر هشاشة تُجاه الرسائل التلفزية، لأنهم يتقبّلونها ويعمّمون الرسائل السائدة، ولأنهم يجهلون أن رسائل قليلة فقط تخرج عن نطاق المقولبات، في حين أن البالغين والكبار يستطيعون، جزئياً، أن يوازنوا الرسائل المهيمنة، آخذين في الحسبان استثناءات ومتقبّلين إمكانية ورود رسائل أخرى. وهكذا، فإن المتلقّي يمفصل قوّة التأثير حسب اكتسابه التدرّجي للكفاية(٤٩٧).

في مستوى آخر، تصبح الاتّجاهات نحو القناة التلفزية ملائمة، وتعمل كمؤشّرات لنوع النشاط الذي يواجه المشاهد من خلاله المضامين التلفزية، فهناك المشاهد الناقد الذي يقوّم، بعقلانية، الوقائع في صياغة التمثّلات الاجتماعية لظاهرة معيّنة، وهو يختلف عن المشاهد السلبي وغير الناقد. ولذلك، من الضروري إعطاء دور استراتيجي، في صيرورة البناء الاجتماعي للواقع، للديناميّات التي تميّز لحظة استهلاك المواد التلفزية(٤٩٨).

في مستوى ثالث يتوضّح المتغيّر المتعلّق بالمصادر المباشرة للتجربة وبالروابط التي تبني مجمل العلاقات الاجتماعية للمتلقّي، فأهميّته لا تكمن فقط في الدعوة إلى تقويم متأنٍ للسياق الذي يحدث فيه استهلاك المواد الإعلامية بشكل ملموس، ولكن أيضاً في تمييز المراحل المختلفة في صيرورة البناء الاجتماعي للواقع(٤٩٩)..

ولكن، وعلى الرغم من ضرورة إجراء تقاطعات مستمرّة بين التجربة المباشرة والتجربة الإعلامية، فإنه، بالمقارنة مع التجربة المعاشة مباشرة من قبل الفرد، يلاحظ أن ما تلتقطه حواس الناس من وسائل الإعلام، بشكل عام، في الأشكال الراهنة للمجتمع وللاتّصال الإنساني، تشكّل الجزء الأعظم من الواقع الاجتماعي الذي تصاغ تمثّلاته عبر الإعلام الجماهيري(٥٠٠).

لا شك أن المتغيّرات والعوامل التي ذكرت يجب أن تؤخذ في الحسبان في أية مقاربات سيكولوجية وسوسيولوجية إعلامية، كما يجب تأطير حالات وشروط التلقّي

(497) Ibid.
(498) Ibid.
(499) Ibid.
(500) W. Lippmann, " Public Opinion ",Ed. Macmillan, New York, 1922, trad. " Opinione Pubblica ", Ed. Comunità, Milano, 1960, p. 75.

ضمن سياقات اجتماعية ومعرفية وتطوّرية من أجل احتواء الظاهرة الإعلامية وتمثّلاتها للواقع الاجتماعي داخل نطاق مشهد مجتمعي كلّي. إلاّ أن ذلك كلّه لا ينفي قوّة تأثير الإعلام الجماهيري وسطوته وحضوره الكلّي، وخاصّة في زمن أصبح فيه انتشار التلفزة الكوكبي يخولّها فرض تمثّلاتها لواقع اجتماعي يمتدّ إلى كلّ أصقاع الأرض، بحيث تتضاءل تجارب الإنسان وعلاقاته المباشرة وأنشطته وتحركاته في محيطه الاجتماعي الصغير حتّى تغدو قطرة في بحر تدفّق تلفزي غير منقطع يجوب الكرة الأرضية ويصوغ تمثّلاته ليعرضها بتكرارية لامحدودة وبدرجة عالية من الكفاية التقانية والمهنيّة.

لهذا كلّه، يمكن القول إن معاني وتفسيرات الواقع، بصورة عامّة، هي، في الحقيقة، مشيّدات اجتماعية، وتجارب الإنسان أصبحت، كما أناس كهف أفلاطون، ترتبط، بشكل متصاعد، بالعالم الإعلامي، أكثر ممّا ترتبط بالواقع الحقيقي.

ضمن نطاق هذه المفاهيم الجديدة للتأثير غير المباشر والبعيد المدى والمعقّد للإعلام الجماهيري، طوّر علماء الاتصال عدداً من النظريات، هي، في الحقيقة، مشتقّات لما يسمّى بالصيغ العامة للمعنى، وتستند إلى مبادئ المعرفة واللغة والسلوك، التي تراكمت عبر الزمن.

وتتضمّن صيغة المعنى جملة من المعطيات، مترابطة فيما بينها[501] :

١) تجعل الذاكرة الإنسانية تطوّر المعرفة ممكناً.

٢) للمعرفة شكل مفاهيم مبنيّة من معنى، موسومة ومسمّاة ومختزنة في ذاكرة الأفراد.

٣) ويستطيع الإنسان أن يصوغ معاني المفاهيم، إمّا من خلال الاحتكاك الحسّي المباشر مع أوجه عديدة للواقع، وإمّا من خلال الاتصال التبادلي الرمزي الذي يوجد في مجموعة لغوية ما.

٤) اللغة هي، جوهرياً، مجمل رموز (كلامية وغير كلامية)، تسم المعاني المتّفق عليها.

٥) المصطلحات تصنع توحيداً قياسياً للروابط القائمة بين الرمز والمعنى. جاعلة الاتصال ممكناً بين أولئك الذين ينتسبون للقواعد.

(501) DeFleur & Ball-Rokeach, cit., p. 277.

٦) الرموز ومصطلحات اللغة المتّفق عليها والمستخدمة من قبل مجموعة خاصة من الأفراد، تحدّد لهم الإدراك الحواسي والتفسيرَ والسلوك في مواجهة العالم المادّي والاجتماعي.

استناداً إلى هذه المبادئ وانطلاقاً منها، يمكن عرض تلك النظريات[502]، التي تتصدّى لمسألة كيف أن الإعلام يعطي شكلاً للمعاني، ونتائج ذلك على السلوك.

نظرية دور الصحافة في بناء المعنى

صاغ ليبمان[503] هذه النظرية في مؤلّفه " الرأي العام " الذي يتضمّن أمثلة عديدة تبيّن كيف أن لخصائص العالم الحقيقي، علاقة واهنة مع الآراء التي يحملها الأفراد حول هذا العالم نفسه.

ويبيّن ليبمان أيضاً أن التفسيرات التي تعطيها الصحافة للأحداث يمكن أن تشوّه جذرياً تفسير واقع الأشخاص ونتائج نماذج عملهم.

(٥٠٢) وهي نظريات تأثير تنقل أبحاث الاتصال الجماهيري من التأثير المباشر و لقصير الأمد والآني إلى تأثير غير مباشر وطويل الأجل. حيث يمارس الإعلام الجماهيري تأثيراته من خلال طريقة المتلقي في تنظيم صورته الذهنية حول البيئة المحيطة، وحيث يتّصف التأثير نفسه بأنه تأثير معرفي من جهة وتأثير تراكمي من جهة أخرى.
هذا يعني أن الأبحاث الإعلامية لم تعد تدرس الحالات المفردة وإنّما تغطّي تغطية متكاملة النظام الإعلامي جميعاً، مركّزة على موضوعات معيّنة يتناولها هذا النظام بأكمله، وتتّبع منهجيات متكاملة ومعقّدة، ليس من خلال الملاحظة وقياس التغيّرات في الاتجاهات والآراء والمواقف، وإنّما عبر إعادة بناء الصيرورة التي يغيّر فيها الإنسان تمثّله للواقع الاجتماعي.
ويعود هذا الاتجاه الحديث إلى عاملين أساسيين إضافيين: أوّلهما أن المقاربة السوسيولوجية أصبحت هي الغالبة في الأبحاث الإعلامية، وأن ثمّة نفوذ متصاعد لسوسيولوجية المعرفة، وثانيهما أن أبحاث الإعلام هجرت تماماً نظرية المعلومات في الاتصال الجماهيري. وتركّز نظرية المعرفة على أهمّية ودور الصيرورات الرمزية والاتصالية كفرضيات للتكيّف الاجتماعي. ما يجعل إشكالية البحث الإعلامي تخطو بشكل متواز حول موضوعات للتأثير تتطابق مع أفق صيرورات بناء الواقع.
- لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، اقرأ :
- W. Schulz, " Ausblick am Ende des Holzweges. Eine Übersicht über die Ansätze der neuen Wirkungsforschung ", Ed. Pulizistik, n°1-2, 1982, pp. 49-73, in Wolf, cit., pp. 137-140.
- D. Roberts, " The Nature of Communication Effects ", in Schramm W. Roberts Eds., 1972, pp. 349-387.
- N. Neumann, " Return to the Concept of Powerful Mass Media ", Studies of Broadcasting, vol. 9, 1973, in Wolf, cit. pp. 137-140.
(503) W. Lippmann, " Public Opinion ", op. cit. pp. 76-78.

غير أن النقطة الأهم في أطروحة ليبمان هي أن الوصف الذي كانت تقدّمه الصحافة، غالباً ما كان مزيّفاً، بمعنى أنه كان محرّفاً وكان يخلق في عقول الناس صوراً للعالم الخارجي مشوّهة أو حتّى مزيّفة تماماً.

ويعتقد ليبمان أن وسائل الإعلام لا تتعمّد مسبقاً خلق أوهام أو خداع أحد[٥٠٤]، بل على العكس من ذلك، لأن ضوابط الأخلاقية المهنية تركّز على "موضوعيّة" وتوازن وتكامل وواقعيّة المعلومات، ولكن اصطفائية وتشويه الأخبار ترتبط بعوامل خارجة عن إرادة رقابة الصحفيّين والناشرين، وعوامل أخرى مفروضة على عمليّة صناعة الأخبار.

ويرى ليبمان أن النوافذ التي تفتحها الصحافة للناس لها شكل تحدّده، جزئياً، الطبيعة الرأسمالية للمعلومات. ورغم أن الصحافة في البلدان الاشتراكية والشيوعية تخضع لعوامل اقتصادية وسياسية مختلفة، فإنها، ولأسباب مشابهة، تحرّف هي الأخرى الصور الموجودة في عقل الجمهور الإعلامي.

وقد أجرى كورت وغلاديس لانغ[٥٠٥] مقارنة محدودة بين تمثّلات التلفزة لبعض الأحداث وبين وقائعها الفعلية، ووجدا أن التلفزة كانت تقدّم تلك الأحداث من خلال "أفق فريد"، مصطفية بعناية المشاهد والزوايا لتجعلها أحداثاً مليئة بالإثارة.

---

(٥٠٤) يصف شولتز آليات الاتصال الجماهيري:
بأنها غير متماثلة وغير متساوقة، لأنه يوجد عنصر نشيط يصنع المثير وعنصر سلبي إلى حدّ ما، يصاب بهذا المثير.
وأنها فردية تستهدف، قبل كلّ شيء، أفراداً وتدرّسهم.
وأنها متعمّدة، لأن عمل المرسل في صناعة الرسائل، غائي الطابع، وله، بشكل عام، هدف ويرغب في إحداث تأثير محدّد. أنظر:
- (Schulz, Ausblick am Ende des Holzweges, op. cit., p. 52).
- لا شك أن صيرورات التأثير ليست بسيطة ومباشرة، كما كان يعتقد، وإنما هي شديدة التعقيد وغير مباشرة وطويلة الأجل. وتحتاج إلى توافر جملة من الشروط والظروف الاتصالية، وتعترضها جملة من المتغيّرات. ولكن هذا كلّه لا يعني أن تكوّن مضامين الإعلام الجماهيري بطريق الصدفة أو أن تكون غير متعمّدة بشكل كامل، فكل رسالة إعلامية لها هدف التأثير في اتجاه ما، بقطع النظر عمّا إذا تمكّنت من تحقيق الهدف أم لم تتمكّن، أو حتّى حقّقت عكسه، أو حقّقته بعد مرور فترات زمنية طويلة جداً. قد تحتوي الرسالة بعض المضامين التي يغفل عنها المرسل أحياناً، ولكن ذلك لا يعني أن الإعلام الجماهيري، بصورة عامة، نشاط غير قصدي.

(505) K. Lang & G. E. Lang, " The Unique Perspective of Television and Its Effect : A Pilot Study ", in American Sociological Review, XVII, pp. 3-12, in DeFleur, cit., pp. 280-281.

وأثبتت دراسات أخرى أن العالم الحقيقي وتمثّلات هذا العالم في الإعلام يمكن أن يتباينوا بصورة جوهرية. والحقيقة أن شعوباً بأسرها اليوم تتلقّى، عبر الفضائيات، تمثّلات لعوالم أخرى قريبة وبعيدة، تتعلّق بعادات وتقاليد وأعراف وآراء ومواقف ومفاهيم ومعتقدات وسلوكيات تحتوي الكثير من التزييف والتشويه، وتختزن تلك الشعوب هذه التمثّلات في الذاكرة الجماعية وتتصرّف على أساسها، رغم أن الوقائع الفعلية شديدة الاختلاف عن تلك التمثّلات.

نظرية الغرس (Cultivation Theory)

نشأت هذه النظرية إثر الهاجس المتصاعد في الولايات المتحدة حول تأثيرات العنف التلفزي، ومبادرة الحكومة الفيدرالية إلى توضيح الموضوع، حيث شكّل الرئيس جونسون لجنة تضطلع بمعرفة أسباب العنف وكيفية اتخاذ تدابير وقائية ضدّه[٥٠٦]، وتمّ توجيه الباحثين إلى القيام بدراسات مستفيضة حول كميّة العنف وشكله في التلفزة الأمريكية.

وعكف غيربنر[٥٠٧] ومعاونوه على وضع استراتيجية ميدانية لدراسة روائز العنف التلفزي على معتقدات الأفراد، وعلى صياغة نموذج نظري حول هذا الموضوع. استمر عمل الفريق لمدة أعوام عديدة، حيث كان ينشر تقريراً علمياً شاملاً في نهاية كلّ عام من البحث.

وقد جاء في تقارير فريق غيربنر أن الواقع الإعلامي يمكن أن يمارس تأثيراً على المعتقدات، وبالتالي، على السلوك. ووصفت التقارير هذه الآلية بـ "تشكّل تيّار مهيمن" (mainstreaming). وفيما يتعلّق بالتلفزة، فإنها "تغرس" معتقدات الناس. ولكي يعطي الفريق أدلّة عملية لهذه الدينامية، قام بوضع نظام قياس أطلق عليه اسم "فارق الغرس"، تسير إجابات العيّنة فيه ضمن اتجاه إجباري. ونجم عن ذلك تصنيف

---

(506) National Commission on the Causes and Prevention of Violence. To Establish Justice. To Instore Domestic Traquility. Ed. Award Books. New York. 1969. in DeFleur. cit.. pp. 281-284.
- Surgeon General's Advisory Committee on Television and Social Behavior. television and Growing up. the impact of televised violence. Ed. U. S. Government Printing Office. Washington. 1971. in DeFleur. cit.. pp. 281-284.

(507) G. Gerbner. " Violence in Television Drama : Trends and Symbolic Functions. in Television and Social Behavior ", vol. I, Media Content and Control. G.A. Comstock & E. A. Rubinstein. D. C., Government Printing Office. 1972. in DeFleur, pp. 281-285.
- G. Gerbner. & L. Gross. " Living with Television : The Violence Profile ". in Journal of Communication. 1976. in DeFleur. cit. 282.

لإجابات الواقع التلفزي، أي تلك الإجابات التي تبرهن على أن معتقدات المشاهد قد تمّ " غرسها " بفعل العنف الذي تبثّه التلفزة، وذلك لأن إجاباته حول الواقع (reality choice)، هي إجابات تلفزية (television answer) وليست إجابات مستمدّة من الواقع الملموس. وقد تبيّن، خلال أعوام عديدة، أن نسبة مرتفعة من إجابات العيّنة كانت تلفزية، وأن عدداً قليلاً من أفراد العيّنة قدّم إجابات من الواقع الحقيقي وليس من " الواقع التلفزي ".

لقد ركّزت هذه النظرية على أشكال خاصّة جداً من السلوك وربطتها بأشكال خاصّة جداً من المضامين الإعلامية.

وتعتبر نظرية الغرس أن التلفزة (وخاصّة الدراما والمسلسلات)، تشكّل عاملاً في التكيّف الاجتماعي، وهي الباني الرئيس للصور والتمثّلات العقلية للواقع الاجتماعي، كما تعتبر أن هذا التأثير لا يعكس فقط استهلاك كلّ فرد للتلفزة، وإنّما أيضاً وخاصّة ما تمتصّه جماعات إنسانية واسعة من الإعلام خلال فترات طويلة من الزمن(٥٠٨).

والواقع أن التلفزة تغرس صوراً من الواقع وتصوغ إنتاجاً تثقيفياً وتكرّس أنظمة معتقدات وتمثّلات عقلية واتّجاهات، ويمكن إجمال عمليات الغرس بالمراحل التالية:

١- يلاحظ مشاهدو الأفلام والمسلسلات التلفزية عالماً يختلف جوهرياً عن العالم الحقيقي، سواء من حيث مضامين الأحداث، سواء من حيث الأدوار الاجتماعية.

٢- ويخوض شديدو الاستهلاك للتلفزة (مشاهدو الشاشة الصغيرة لمدة أربع ساعات في اليوم على الأقلّ)، تجربة تزحزح للواقع، أي أنهم يتأثّرون، في إدراكهم الحسّي للواقع الاجتماعي، بالمضامين التلفزية ويعبّرون عن كمّية أكبر من الأجوبة التلفزية نسبة إلى الأشخاص الآخرين(٥٠٩) .

٣- لا يمتصّ المشاهدون الدائمون لتلك الأفلام والمسلسلات، التمثّلات الاجتماعية التلفزية، بشكل اصطفائي، فالمشاهدة بالنسبة إليهم ضرب من الطقوس اليومية(٥١٠).

(508) L. Gross & M. Morgan, " Television and Enculturation ", in J. Dominick, Ed. J. Fletcher, Boston, 1985, p.226.

(509) G. Grebner & L. Gross, " Living with Television : The Violence Profile ", in Journal of Communication, n° 26, 1976, in DeFleur, pp. 283-285.

(510) Grebner & Gross & Signorelli & Morgan & Jackson – Beeck, " The Demonstration of Power: Violence Profile ", in Journal of Communication, n° 29, 1979, in wolf, pp. 102-105.

ولا تغرس التلفزة فقط منظومة معتقدات ولكنّها تنتج أيضاً الاتّجاهات الانفعالية المتوافقة مع تلك المنظومة من المعتقدات. وترى هذه النظرية أن تلك الآلية تنشط في جميع مستويات الواقع الاجتماعي المتمثّل في العالم الرمزي التلفزي للأفلام والمسلسلات التلفزية(٥١١).

انطلاقاً من هذه المفاهيم، يرى أصحاب نظرية الغرس أن هذا النموذج البحثي يعدّ، بصورة عامة، حلاً فعّالاً لمواجهة آليات اكتساب الإنسان للمعارف التي تقود سلوكه.

لقد تعرّضت نظرية الغرس لانتقادات حادّة وأثارت نقاشات مطولة بين علماء الإعلام، وأبدى العديد منهم تحفّظاته على هذا النموذج، لأن عملية التحقّق من دقّته في سياقات اجتماعية لبلدان أخرى غير الولايات المتحدة (إنكلترا، أستراليا، السويد، وهولندة)، لم تؤكّد النتائج التي وصل إليها غربنر وفريقه. وهذا يعني أن صيرورة الغرس تتحدّد ضمن سياقات تلفزية وثقافية واجتماعية مؤطّرة بدقّة، ولا يجوز تعميمها بشكل غير تمييزي.

بالإضافة إلى ذلك، يتأسّس النموذج على تحليل الارتباطات القائمة بين عادات مشاهدة التلفزة عند العيّنة (وخاصة كمّية المشاهدة)، وعمليات الإدراك للبيئة الاجتماعية والثقافية. ومن خلال هذه الارتباطات يجري استنتاج رائز التلفزة في غرس أنظمة معتقدات ومعارف وقيم، كون التلفزة تشكّل، حسب غربنر، التيّار الرئيس في العملية التثقيفية(٥١٢).

والأساس الأهمّ في هذه الصيغة أن المشاهدين يتعلّمون نماذج المضمون ويستخرجون منها الاستدلالات الضرورية ثمّ يعمّمون هذه المعلومات على إدراكهم للواقع الحقيقي(٥١٣)، وهكذا يحدث ضرباً من حذف لحظة التلقّي، وهي مفارقة كبيرة نظراً للأهمّية التي توليها نظرية الغرس للاستهلاك التلفزي المرتفع. فالجمهور مضطرّ لإدراك ذات التمثّلات الاجتماعية التي يراها محلّلو المضمون، في النصوص التلفزية التي تمّ استهلاكها. بعبارات أخرى، يجري تناول الجمهور المستهلك للمادّة الفيلمية التلفزية، في هذه النظرية، فقط من حيث كمّية الزمن التي أمضاها أمام الشاشة الصغيرة، وليس فيما يتعلّق بالمعاني التي استنتجها هذا الجمهور من الاستهلاك التلفزي. ويبدو، حسب نظرية الغرس، وكأنه لا توجد مصادر أخرى للإدراك الحسّي

(511) Ibid.

(512) Ibid.

(513) M. Wober & B. Gunter, " Television and Social Control ", Ed. Gower, Aldershot, 1988, p. 10.

ولمعرفة الواقع الاجتماعي، من شأنها أن تكمّل أو حتّى أن تتناقض مع مضامين الاستهلاك التلفزي، وبذلك، ترى تلك النظرية أن الأجوبة التلفزية هي المسيطرة على أجوبة الجمهور.

من حيث المبدأ، لا شك أن التكيّف الاجتماعي يجري على مدى الدورة الحياتية للإنسان، وعندما يخوض الفرد تبدّلات في حالته الاجتماعية، تصبح فاعلة أدوار وقواعد وأنظمة توقّع جديدة[٥١٤]، غير أن الفرد الذي تصفه نظرية الغرس يبدو وكأنّه فاقد لأي حقل آخر من التجربة، خارج نطاق التلفزة. ولهذا، فإن الإطار الذي وضعه غريبنر يبدو مبسّطاً إلى أبعد الحدود، إذ أثبتت أبحاث أخرى ميدانية حول ذات الموضوع المرتبط بالعنف في التلفزة، أن تقويمات الفرد الذاتية، بالنسبة للخطر المحيق به وببيئته الاجتماعية القريبة، تبدو مرتبطة بالاستهلاك التلفزي أقلّ بكثير من ارتباطها بالتجربة الشخصية والمباشرة لهذا الفرد، والتي تشكّل مصدره الأساسي والأولّي للتعرّف على أية مشكلة في المجتمع الذي يعيش فيه[٥١٥].

من ناحية أخرى، يقول منتقدو هذه النظرية إن مشاهدة التلفزة لا يمكن أن تعتبر كنشاط وحيد البعد، وأن يعطيها كلّ الجمهور معنى متساوياً بشكل دائم[٥١٦].

وقد أظهرت بعض الدراسات أن درجة الواقع المنسوبة للمضامين المختلفة للتلفزة تؤثّر بعمق على روائز الرسائل التلفزية[٥١٧]، وأن وصف مضامين هذه الرسائل بأنّها واقع، يختلف من فرد لآخر، قبل احتواء تلك الرسائل في عمليّة إدراك الواقع الاجتماعي[٥١٨]، والحقيقة أن فرضية غريبنر التي تعتبر أن أي تمثّل تلفزي يجري استيعابه، كما هو ودون أن يمسّ من قبل الإدراك الحواسي للواقع الاجتماعي، ترتكب عملية انزلاق نحو الانقطاعية واللاستمرارية بين صور الأفلام والمسلسلات التلفزية وبين صور الواقع الملموس. ولذلك، ولكي يتمّ تحديد الارتباط بدقّة بين هذين العنصرين، يجب أن تدخل، ليس فقط المعطيات الكمّية حول زمن الاستهلاك التلفزي، ولكن أيضاً وخاصّة تلك المعطيات المتعلّقة بتوزّع برنامج الاستهلاك بين نوعيّات

---

(514) Gross & Morgan, Television and Enculturation, op. cit. p. 223.

(515) T. Tyler, " The Impact of Directly and Indirectly Experienced Events. The Origins of Crime-Related Judgments and Behaviors ", in Journal of Personality and social Psychology, n° 39, 1980, in Wolf, p. 103.
- Tyler & Cook, " The Mass Media and Judgements of Risk : Distinguishing Impact on Personal and Societal Level Judgements, in Journal of Personality and Social Psychology, n° 47, 1984, in Wolf, p. 103.

(516) Lull, " World Families Watch Television ", Ed. Sage, Newbury Park, 1988, p. 140.

(517) W. Potter, " Perceived Reality and the Cultivation Hypothesis ", in Journal of Broadcasting and Electronic Media, n° 30, 1986, in Wolf, pp. 103-104.

(518) A. Rubin & E. Perse & D. Taylor, " A Methodological Examination of Cultivation ", in Communication Research, vol. 15, n° 2, 1988, pp. 107-134.

عديدة من المواد التلفزية وغير التلفزية، وهو عنصر مهمّ لأنه يتيح التعرّف على الطبيعة المتباينة لتمفصل تمثّلات الواقع التي يقدّمها الإعلام، بالإضافة إلى التدرّج المتفاوت لانخراط المشاهدين، وبالتالي، لعملية تنشيط أنظمة المعتقدات المختلفة بين فرد وآخر[٥١٩].

من الأهميّة بمكان الحصول على معرفة أكثر تفصيلاً ودقّة بالنسبة للسياق الذي تتمّ المشاهدة في إطاره، من أجل إزالة المعضلة القائمة بين التأثيرات وبين عمليّات الاصطفاء التي يستخدمها البالغون خاصّة، والذين تمنحهم سياقات تجاربهم الاجتماعية صيغاً مستقرّة يستطيعون من خلالها تفسير التجارب الجديدة ألتي يخوضونها يوماً بعد يوم[٥٢٠].

إن التعارض بين اصطفائية الفرد للتجربة الإعلامية وبين اللاصطفائية لا يمكن أن تكون واقعية، ولكي يتمّ تجاوز هذا الطريق المسدود، هناك مخرج يتّجه نحو تسليط الضوء على الموضوعات اللازرسفيلدية الجديدة (التي طرحها لازرسفيلد) التي ترى أنه لدى تحليل تأثيرات التلفزة، يعدّ أمراً حاسماً أن يتموضع هذا التحليل ضمن سياق أكثر اتّساعاً للتجارب الاجتماعية المتنوّعة والمعقّدة التي يخوضها الإنسان[٥٢١].

رغم هذه الانتقادات، تبقى نظرية الغرس من أكثر النظريات صلاحيّة للكشف عن تأثيرات الإعلام غير المباشرة والطويلة الأجل، ولكن تطبيق عناصر هذه النظرية يجب ألاّ يخرج إطلاقاً عن السياقات التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والقيمية التي يعيشها مجتمع البحث، وعن جميع عناصر الفروق الفردية والتباين الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي تؤدّي إلى عمليات اصطفاء مركّبة وإلى تفسيرات متباينة للرسالة الإعلامية يقوم بها المتلقّي، وهي تخضع بدورها لجملة من المتغيّرات الديموغرافية والتعليمية والعمرية والثقافية والنوعية، كما ترتبط بآليات التلقّي وشروطه والأدوار التي يؤدّيها المتلقّي في عمليات التفاوض على المعنى، والتي من غير المحتّم أن تفضي إلى التطابق بين تفسيرات المتلقّي والتفسيرات التي يرغب المرسل في إيصالها.

نظرية الأجندة (Agenda-Setting)

من خلال دراسات قام بها عدد من علماء الاتّصال الجماهيري، اتّضح أن ثمّة توافق قوي بين كمّية الانتباه الذي يوليه الإعلام الجماهيري لموضوعات معيّنة وبين

---

(519) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, op. cit. p. 105.

(520) Wober & Gunter, Television and Social Control, op. cit. p. 19.

(521) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit. p. 111.

مستوى إيلاء الجمهور الإعلامي الذي يتعرّض لمضامين الإعلام، أهميّة لهذه الموضوعات.

وقد تمّت صياغة نظرية بهذا الخصوص، انطلاقاً من خط بحثي بدأه ليبمان وماكومبس وطوّره لانغ ونيومان وشو، أطلق عليها اسم الأجندة.

يقول شو[٥٢٢]:

إن فرضية الأجندة لا تعتقد أن الإعلام يرمي إلى الإقناع.. إن الإعلام الذي يصف ويحدد الواقع الخارجي، يقدم للجمهور قائمة حول الموضوعات التي يمكن أن يناقشها أو أن يشكل رأيا حولها.. إن السمة الأساسية لنظرية الأجندة تكمن في أن فهم الناس لجزء كبير من الواقع الاجتماعي يأتي من الإعلام.

وترتكز نظرية الأجندة إلى جملة من المفاهيم العامّة، أهمّها أن عجز المتلقّي عن التحقّق من صوابية تمثّل الواقع الاجتماعي الذي يصنعه الإعلام، عن طريق استخدام هذا المتلقّي لتوحيدات قياسية تقع خارج هذا الإعلام، يؤدّي إلى أن تصبح الصورة التي يشكّلها هذا التمثّل الإعلامي، هي الصورة التي يتبنّاها المتلقّي. و يقدّم الإعلام شيئاً أكثر بكثير من مجرّد مجموعة أخبار، فهو يصوغ فئات يستطيع الجمهور الإعلامي أن يموضعها بشكل له معنى[٥٢٣].

إن وجود " رزم " من الواقع التي لا يلتقطها المتلقّي بشكل مباشر، ولا يحدّدها، بصورة اتصال تبادلي على مستوى الحياة اليومية، تجعله " يعيش " هذا الواقع، فقط عبر وساطة رمزية يقوم بها الإعلام الجماهيري[٥٢٤].

بالتشديد على هذه التبعية المعرفية المتصاعدة للإعلام الجماهيري، تفترض نظرية الأجندة رائزاً مباشراً، وإن كان غير فوري، على المتلقّي، في مستويين :

أ- مستوى جدول الأعمال والموضوعات والإشكاليات والمشكلات التي يطرحها الإعلام.

ب- مستوى التراتبية حسب الأهمّية والأولوية التي يتمّ على أساسها ترتيب جدول الأعمال.

(522) E. Shaw, " Agenda- setting and Mass Communication Theory ", International Journal for Mass Communication Studies, vol. XXV, 1979, in DeFleur, pp. 96-105.
(523) Roberts, The Nature of Communication Effects, op. cit. p. 380.
(524) G. Grossi, " Livelli di Mediazione sombolica nell'Informazione di Massa ", in Livolsi, Sociologia dei Processi Culturali, Ed. Angeli, Milano, 1983, pp. 223-236.

إن الطريقة التراتبية للأحداث وللموضوعات العامّة المهمّة التي يتبنّاها الفرد، تشبه التقويم الذي يتّبعه الإعلام لذات الموضوعات، ولكن فقط إذا تمّ قياس الأجندة خلال فترة زمنية طويلة ، يسمح بظهور تراكمية التأثير[٥٢٥].

الواقع أن نظرية الأجندة تدخل إلى عناصر التأثير غير المباشر والطويل الأمد، عناصر أخرى ومتغيّرات تجعل التأثير عملية معقّدة ومشروطة.

يتّصف تأثير المضمون الإعلامي، حسب هذه النظرية، بأنه وساطي وغير مباشر ويخضع لطبيعة الاتّجاهات الموجودة سابقاً لدى المتلقّي[٥٢٦]، وتعترف النظرية بأن الخصائص السيكولوجية والاجتماعية للمتلقّي تحدّد هي الأخرى طرائق استخدام هذا المتلقّي للإعلام، كما تعترف بأهمّية الاتصال الشخصي في تحديد الروائز النهائية لمضامين الإعلام على الجمهور[٥٢٧].

هذا يعني أن أصحاب فرضية الأجندة يرغبون في توسيع عناصر النظرية عبر إدراج إشكاليات تقليدية حول التأثيرات، ترتبط بالإدراك الحسّي والتعرّض والتذكّر الاصطفائي للإعلام.

وترى نظرية الأجندة أن الإعلام فعّال في بناء صورة الواقع التي يشكّلها المتلقّي، وهذه الصورة عبارة عن كناية تمثّل مجمل المعلومات حول العالم، التي تعامل معها ونظّمها وخزّنها المتلقّي. ويمكن أن تشكّل توحيداً قياسياً تجري تّجاهه مقارنة المعلومة الجديدة من أجل إعطائها معناها. غير أن هذا التوحيد القياسي يخضع لشروط إطار المرجعية والحاجات والقيم والمعتقدات والتوقّعات التي تؤثّر على ما يستخلصه المتلقّي من حالة اتّصالية[٥٢٨] . ضمن هذا الإطار، إذن، تصبح تركيبة أجندة الجمهور الإعلامي نتيجة حصيلة شديدة التعقيد، وليس نتيجة تشييد بسيط لجدول أعمال يقوم به الإعلام.

بهذا الشكل، ينشأ مفهوم حول الرائز يميل إلى إبراز التأثير المعتدل الناجم عن تفعيل عوامل أخرى كالمواقف الشخصية للمتلقّي الذي يبدو أنه يتحرك لجعل أجندته الخاصة وأجندة الإعلام متكاملتين.

لا بد من التنويه، في هذا المقام، بأن تأثير الإعلام في مجال أولويات المعلومات

(525) Shaw, " Agenda- Setting ", op. cit. pp. 96-105.
(526) R. McClure & T. Patterson, " Print vs Network News ". Journal of Communication vol. 26, 1976, pp. 23-28, in Wolf, cit p.145.
(527) Shaw, Agenda-setting, cit. pp. 97-99.
(528) Roberts, The Nature of Communication Effects, cit. p. 366.



٢- ومن بين المعلومات الجديدة، يبدو أن التطوّرات الأخيرة، أي المعلومات الأكثر حداثة، هي التي تكون مفضّلة أكثر من تلك التي توسّع مساحة المعارف المختزنة، وينتج عن ذلك بروز وتصاعد ذلك الجزء من المعرفة حول العالم المكتسبة من قبل[٥٣٥].

وتتضمّن نظرية الأجندة عناصر تدفعها لمواجهة مشكلات الفهم والتخزين فيما يتعلّق برانز المعلومات الجديدة المكتسبة من الإعلام.

أحد هذه العناصر يتّصل بالانتباه، إذ أن استيعابية المتلقّي للمعلومة الجديدة تختلف حسب انتباهه للمعلومة المقدّمة، وحسب مقدرته المعرفية في معالجتها بشكل مناسب وفي فهمها وإدراجها في هيكليات المعرفة المكتسبة. وهناك عنصر آخر يتعلّق بالتأطير المعرفي، حيث أن الأشخاص الأكثر انتباهاً والأكثر اهتماماً والأكثر كفاية من الناحية المعرفية، هم أيضاً الأقلّ تقبّلاً للتأثير، بسبب امتلاكهم لنظام معرفي متشعّب ومتجذّر بصورة أفضل من الآخرين[٥٣٦].

الواقع أن الطبيعة التراكمية للتأثير المعرفي للأعلام تجعل من الصعب تحليله إذا بقي الباحث غريباً عن إشكالية الصيرورات المترابطة لعملية فهم ومعالجة وتخزين المعرفة المعمّمة من نصوص الإعلام الجماهيري.

وكما يقول ماكومبس وشو[٥٣٧]، فإن تفسير التأثيرات بتطبيق نظرية الأجندة يعتدّ به في حال الاعتماد على معطيات وروابط شاملة بين مختلف العناصر والعوامل والمتغيّرات التي أصبحت تتجاوز المفهوم الأصلي المحدود لنظرية الأجندة.

أما فيما يتعلّق بالبعد الزمني لهذه النظرية، فإنه يرتدي أهميّة حاسمة في معرفة طبيعة تأثيرات الأجندة الإعلامية في أجندة الجمهور، وفي كيفية مرور واستقرار المعلومات من جدول أعمال الأولى إلى جدول أعمال الثانية.

يمكن تمييز خمسة معايير بالنسبة للعنصر الزمني في نظرية الأجندة[٥٣٨]:

(535) S. Larsen, " Text Processing and Knowledge Updating in Memory for Radio News ", Discourse Processes, 6, 1983, in Wolf, cit., p. 168.
(536) M. Kuen & S. Coombs, " More than News, Media Power in Public Affairs ", Sage, Beverly Hills, 1981, in Wolf, p. 168.
(537) McCombs & Shaw, The Agenda-setting Function of Mass Media, op. cit. in wolf, p. 158.
(538) C. Eyal & W. De George, " The Concept of Time Frame in Agenda-setting ", Ed. Wilhoit G.,Mass Communication Review Yearbook, vol. 2, Sage, Beverly Hills, 1981, in Wolf, Teorie delle Comunicazioni di Massa, op. cit., p. 160.

١) الحيّز الزمني، أي كامل فترة جمع معطيات الأجندتين (أجندة الإعلام وأجندة الجمهور)، والامتداد الشامل للزمن الذي ينجز فيه التحقّق من التأثير.

٢) المقطع الزمني، أي الفترة بين عملية تنظيم المتغيّر المستقلّ (التغطية المعلوماتية للإعلام)، والمتغيّر التابع (أجندة الجمهور).

٣) مدّة إعداد أجندة الإعلام، أي الزمن الكامل للتغطية المعلوماتية التي يتم فيها جمع الأجندة بواسطة تحليل المضمون حول الموضوعات المختارة.

٤) مدّة إعداد أجندة الجمهور، أي الفترة التي تمّ فيها معرفة أن الجمهور لديه موضوعات ذات معنى أكثر من السابق.

٥) فترة التأثير المثالية، أي الزمن الذي يتحدّد فيه الاقتران الأقصى بين اهتمام الإعلام بموضوعات معيّنة وبين بروز هذه الموضوعات في معرفة الجمهور.

ويفترض أن تتراوح هذه الفترات والمقاطع الزمنية ما بين ستة أشهر كحدّ أدنى وعدّة أعوام، ويفضّل أن تتم معالجة موضوع واحد أو موضوعين على الأكثر، لأن تعدّد الموضوعات يجعل البحث شديد التشعّب.

وقد تبيّن من أبحاث عديدة، أن بروز موضوع معيّن في الإعلام لمدة سنوات يؤدّي إلى حدوث إشباع في ذاكرة المتلقّي، وبالتالي يمارس هذا الموضوع تأثيراً أقلّ بكثير من المرّات الأولى التي عرضته فيها وسائل الإعلام، إلاّ في حالات ظهور أمور مستجدّة وتطوّرات مهمّة، عندئذ، يعود اهتمام الجمهور إلى سابق عهده، وتتصاعد، من جديد، عمليات الاستيعاب والتخزين.

ولقد تعرّضت هذه النظرية للنقد، حيث يعتقد بعض الباحثين[٥٣٩]، أنها بحاجة إلى توسيع مرجعياتها النظرية لتشمل كامل الموضوع المطروح في الأجندة وكيفية نشوئه، ويجب، في الوقت نفسه، تحديد وتأطير عناصر البحث بشكل واضح، لأن احتضان النظرية لجميع العناصر والمتغيّرات الموجودة في منهجيات الأبحاث الإعلامية، يجعلها غير صالحة للتوصّل إلى نتائج مرضية. بالإضافة إلى ذلك، فإن عمليّة بناء أجندة يجب ألاّ تكون سطرية الطابع بل جماعية ومقترنة بدرجة معيّنة من التبادلية، نظراً لأهميّة إبراز بعض الروابط الأساسية بين المنطق الداخلي لعمل الإعلام

(539) G. Lang & K. Lang, "Watergate and Explorations of Agenda-setting Building Process ", Ed. Wilhoit Mass Communication Review Yearbook, vol. 2, Sage, Beverly Hills, 1981, in Wolf, Teorie delle Comunicazioni di Massa, cit., p. 162 .

الجماهيري وبين معايير البناء والصيرورات الرمزية التي يؤدّيها النشاط الاتصالي، والتأثيرات المعرفية التي يستطيع الإعلام ممارستها على المتلقّي، من خلال وساطات معقّدة بين المتغيّرات كافّة.

كلّ ذلك يعني أنه من الضروري تعميق البحث ومفصلته حول الديناميّة الداخلية لتأثير معرفي وتراكمي بشكل خاص، من جهة، والتحقّق بدقّة من الاستمرارية بين المنطق الإنتاجي في وسائل الإعلام وبين آليات اكتساب الجمهور للمعارف[٥٤٠].

إن الأمر الأهم في هذا الخط البحثي النظري أنه يمثّل نوعاً من العودة إلى الأصول واتّباع التقاليد التي ضربت جذورها في الأرض، فيما يتعلّق بدور الإعلام ونفوذه في الإسهام في تشكيل الحوار حول السيرورة السياسية والمشكلات التي يثيرها. وكلّما ترسّخ هذا الضرب من الدراسات الإعلامية، كلّما اتّضحت أكثر نتائج نظرية الأجندة وأهمّيتها في المسيرة العامة للعمليّة الديمقراطية في المجتمعات الراهنة، وفي تطوير العلاقة الدينامية بين الإعلام والجمهور ورجال السياسة[٥٤١].

تأثيرات الإعلام المتعلّقة بالمصطلح واللغة

إن الانتقال إلى المجتمعات الإعلامية جعل النشاط الاتصالي اليومي للناس يزداد ارتباطاً، شيئاً فشيئاً، بوسائل الإعلام الجماهيري. فرغم أن الاتصال الشخصي، وجهاً لوجه، ما يزال الطريقة الرئيسة في التواصل، شهدت كمّية الوقت التي يقضيها الإنسان مع الإعلام الجماهيري زيادة كبيرة خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، ويمكن التوقّع بأن ارتفاع الحصّة الشاملة للأنشطة الاتصالية التي يخصّ بها الفرد الإعلام الجماهيري، سيؤدّي إلى أن تمارس المنتجات الإعلامية تأثيراً متصاعداً على المواقف والسلوك، على الكلام والمعاني الاصطلاحية المقترنة بالرموز، وهذا ما يمكن تسميته وظائف الإعلام الخاصّة بالكلام واللغة[٥٤٢].

ثمّة أسلوبان يبدّل فيهما الإعلام مجمل الموسوعة التي يستخدمها الأفراد في أنشطتهم الاتصالية، أحدهما يمرّ عبر التأثير في طرائق الكلام، أي في اللكنات وقواعد اللغة وتراكيب الجمل والعبارات، والآخر يؤثّر في اللغة بشكل أعم، موسّعاً ومغيّراً المفردات اللغوية. وحتّى إذا كان أسلوب الحديث في وسائل الإعلام لم يحلّ تماماً محلّ اللكنات وقواعد اللغة وتراكيب الجمل بصورة كاملة، فإن مجموعات عديدة في المجتمعات الراهنة أصبحت أكثر تقارباً وأكثر ألفة وتعوّداً على اللهجات المحلّية المختلفة.

---

(540) Ibid.
(541)Ball-Rokeach &DeFleur, cit. p. 285.
(542) Ibid. p. 28.

لا شك أن الإعلام الجماهيري أسهم إسهاماً كبيراً في توسيع المفردات اللغوية، وخاصّة في الأوساط الشعبية، فعدد الكلمات والعبارات والاصطلاحات الجديدة التي دخلت إلى هذه الأوساط، وإلى أوساط أخرى أكثر ثقافة أيضاً، أسهم الإعلام الجماهيري في تعميمها على أوسع نطاق وخلال فترة زمنية قصيرة جداً.

ويستخدم الإعلام هذا التأثير مروّجاً كلمات جديدة مقترنة بمعانٍ مرتبطة بها، وموسّعاً مجال بعض المصطلحات الموجودة، ومهمّشاً معانٍ قديمة عبر سوق معانٍ جديدة، ومكرّساً الاصطلاحات المستخدمة للتعبير عن معاني الكلمات الموجودة في اللغة الوطنية.

بدهي أن وظائف الإعلام في تغيّير سلوك الأفراد اللغوي والرمزي، تستغرق فترات زمنية ممتدّة، وهي تعمل بشكل تسلّلي وتراكمي.

إن فهم آليات المعرفة وعلاقاتها بالسلوك استغرق قروناً من الزمن، واليوم، تشارك الأبحاث الإعلامية أيضاً في هذا الجهد المعرفي، محاولة فهم كيفية صياغة الواقع الإعلامي لقواعد عمليات بناء المعاني.

* * *





ولقد أجمعت دراسات حارس البوّابة على ضرورة تكاملية تحليل الحارس، ضمن نطاق مجمل الأدوار الإنتاجية والتنظيميّة البيروقراطيّة التي يشكّل جزءاً منها.

• الحيّز القائم بين الحارس والصانع

من الأهميّة بمكان بالنسبة لسوسيولوجية المعرفة، دراسة الظواهر الثقافية، وبما أن الإعلام الجماهيري يشكّل النواة المركزية للإنتاج الرمزي في المجتمعات الراهنة، فإنه من الضروري التعرّف، ليس فقط على منظومة القيم والتمثّلات والمخيال الجماعي الذي يقدّمه هذا الإعلام، وإنّما أيضاً على الطريقة والصيرورات والقيود والتحديدات التي تتكوّن في خضمّها تلك المنظومة والتمثّلات والمخيال الجماعي.

ولهذا، فإن البحث يجب أن يأخذ في الحسبان العوامل التنظيمية والبيروقراطية المرتبطة ببنيات الصيرورات الإنتاجية، بالإضافة إلى عناصر ذات طابع اتّصالي، أي عوامل تخصّ المادّة الأوليّة التي تخضع للتصنيع. انطلاقاً من دمج هذه العوامل كافّة، يمكن التعرّف على المرحلة المتوسّطة التي تشكّل حلقة الوصل بين حرّاس البوّابة وصنّاع الأخبار.

وقد أبرزت جميع هذه الأبحاث أن وجود منطق خاصّ للإعلام، مرتبط بالمتطلّبات الإنتاجية والتعبيرية وشبكة المصادر المستخدمة وصورة الوسيلة في أذهان الجمهور، يبني بشكل نافذ ملامح الأحداث التي تجري تغطيتها، فاصطفاء المواد الخام الرئيسة، والوقت المخصّص لإنجازها، والارتباطات القائمة فيما بينها، كلّ ذلك، يترك بصماته على الحدث، ويوجد مناخاً من التوقّعات التي تحدّد سياق تفسير للمادّة الإعلامية وللوقائع التي تكوّن الحدث نفسه[٥٥٢].

إن المتطلّبات التنظيمية- البنيوية والخصائص التقانية- التعبيرية لكل وسيلة إعلامية تشكّل عناصر غاية في الأهميّة في عملية تحديد تمثّلات الواقع الاجتماعي التي يقدّمها الإعلام الجماهيري. ويجري الحديث في جميع هذه الدراسات عن ما يطلق عليه " التشويه غير المتعمّد " (unwitting bias) أو " البنيات الاستدلالية " (inferencial structures) للتدليل على المعايير الأساسية التي تقود اصطفاء الأحداث وتقديمها. ومن بين هذه المعايير هناك تمايز أساسي، في دراسات إنتاج المعلومات، يخص صنّاع الأخبار، لا يتعلّق بتغطيتهم لحدث معيّن، وإنّما بالسيرورة العادية للتغطية الإخبارية خلال فترات ممتدّة من الزمن. وبهذا الشكل تتوسّع المشكلة من الحالة الاستثنائية إلى السيرورة الروتينية.

(552) P. Schlesinger. " Pitting Reality Together ", BBC News, Ed. Constable, London, , 1978, p. 31.

• الجوانب المنهجية في أبحاث صنّاع الأخبار

جميع الأبحاث حول صنّاع الأخبار اختارت تقانية الملاحظة المشاركة (وورنر، ١٩٧١ - إليوت، ١٩٧٢ - إبستاين، ١٩٧٣، ألتايدي، ١٩٧٦ - ليسينغر، ١٩٧٨ - توتشمان، ١٩٧٨ - ألفارادو و بونسكوم، ١٩٧٨ - غولدين وإليوت، ١٩٧٩ - غانس، ١٩٧٩ - فيشمان، ١٩٨٠ - بانتز و ماكوركل و باد، ١٩٨١).

خلافاً للدراسات حول المنتج الإعلامي، تتيح هذه التقانية الملاحظة الموجّهة نظرياً للتطبيقات الاجتماعية الفعلية التي تقود إلى الإنتاج الثقافي، فكلّ أشكال تحليل الرسائل المنتجة تجد أمامها مشكلات معقّدة فيما يخصّ الاستدلال المتعلّق بالصيرورات الإنتاجية بحدّ ذاتها، وتصطدم، بالتالي، بقصور تفسيري[٥٥٣].

المهمّ أن تكون مرحلة الملاحظة (أي وجود الباحث في المكان)، مرتبطة دوماً بفرضية البحث، وموجّهة حسب مفاهيم نظرية دقيقة، وليس حسب أفكار غير تعيّينية وصدْفية. ومرتبطة أيضاً بسلوك الملاحظ في الحيّز الاجتماعي الذي يدرسه، إذ يمكنه أن يتراوح بين مراقب سلبي، مقلّصاً إلى أدنى حدّ الاتصال التبادلي مع الأشخاص الخاضعين للملاحظة، وبين مراقب إيجابي ومشارك ، محقّقاً اندماجاً كاملاً مع المجموعة، دون أن ينسى الأهداف التي وضعها نصب عينيه. في المرحلة التالية يجمع الباحث المادّة ويصنّفها على أساس ظاهراتي، ويحولّها من كتل مفكّكة إلى كتلة واحدة تحتوي التفسيرات السوسيولوجية حول الخصائص الأساسية للعمليات الاجتماعية المدروسة.

ومن المراحل المهمّة أيضاً، تمكّن المراقب من حضور أزمات تحدث في غرفة التحرير والمكاتب الأخرى، ناجمة عن وجود أحداث غامضة وغير مؤكّدة وغير واضحة، أو عن رغبة إدارة الوسيلة في إعادة تنظيم العمل وتصحيح الخط التحريري عبر إدخال توازنات يحتاج إليها استقرار العمل. ولكن، بشكل عام، يبقى إنتاج الأخبار آلياً ويجري تصويب الروتين باستمرار وتدخل عناصره في العلاقات الجديدة[٥٥٤].

أما فيما يتعلّق بمعايير القيمة المعلومية وبالصورة التي يعطيها الإعلام للعالم ودرجة توافق هذه الصورة مع المتطلّبات اليومية لإنتاج الأخبار في التنظيم الإعلامي،

(553) P. Schlesinger, " Between Sociology and Journalism ", Sociological Review Monograph on Journalism and the Press, 1978, in Wolf, Teorie... cit., p. 187.

(554) G. Tuchman, " The Exception Proves the Rule : The Study for Routine News Practice ", Strategies for Communication Research, Sage Annual Reviews of Communication Research, vol. 6, Sage, Beverly Hills, 1977, in Wolf, Teorie... cit., p. 190.

فإن ذلك كلّه يتمفصل داخل مسارين : الثقافة المهنية للصحفيّين وتنظيم العمل والصيرورات الإنتاجية. وتشكّل العلاقات بين الوجهين النقطة المركزية لهذا الضرب من الأبحاث.

إن الهدف المعلن لأي جهاز إخباري هو تقديم خلاصة الأحداث المثيرة للاهتمام. ولكن هذا الهدف الذي يبدو واضحاً، كغيره من الظواهر البسيطة ظاهرياً، هو في حقيقته معقّد، فعالم الحياة اليومية – مصدر الأخبار – حافل بالأحداث، ويجب على الجهاز المعلوماتي أن يجري عملية اصطفاء تقتضي الاعتراف بأن مجريات ما تشكّل حدثاً وليس واقعة صدْفية لأشياء لا تستحق التسجيل. وتصبح عملية الاصطفاء أكثر صعوبة، عندما تعتبر كلّ واقعة نفسها فريدة، أي نتاج التقاء خاصّ لقوى اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو سيكولوجية، حولت واقعة إلى حدث. أما من وجهة نظر الجهاز المعلوماتي في الإعلام، فإنه من المستحيل القبول بهذا الادّعاء بالنسبة لجميع الوقائع، وكأي تنظيم معقّد، لا تستطيع وسيلة إخبارية أن تعمل على ظواهر تتّصف بهذا الطابع، لأن هذه الوسيلة يجب أن تعيد جميع الظواهر إلى تصنيفات مبنية خصّيصاً للهدف الإخباري، كما يعيد الأطباء جميع المرضى إلى جملة من الأعراض والأمراض، وتدلّ تلك المتطلّبات المرتبطة بغزارة الوقائع على أن أجهزة المعلومات، بهدف إنتاج أخبار، يجب أن تقوم بثلاث مهمّات(٥٥٥):

١) يجب أن تجعل ممكناً التعرّف على أن واقعة ما (بما فيها تلك الاستثنائية) هي حدث قابل لكي يصبح معلوميّ الطبيعة.

٢) يجب أن تعدّ طرائق لتقديم أحداث لا تكترث بمتطلّب كلّ واقعة في أن يتم التعامل معها.

٣) يجب أن تنظّم العمل زمانياً ومكانياً بشكل يتيح للأحداث ذات الطبيعة المعلومية أن تتدفّق ويتم صنعها بشكل مخطّط له. وجميع هذه المهمّات مترابطة فيما بينها.

وهكذا، تجتمع جملة من المعايير المهمّة التي تحدّد القابلية المعلومية للواقعة (newsworthiness) أي قابليتها في أن تتحول إلى حدث.

وتتألّف هذه القابلية من مجموعة الصفات المطلوبة للأحداث، من وجهة نظر بنية العمل في أجهزة المعلومات ومن وجهة نظر مهنيّة الصحفيّين، لكي تكتسب وجوداً

(555) Tuchman, " Making News by Doing Work : Routinizing the Unexpected ", American Journal of Sociology, 79, in " Le Notizie come Risultato di un Lavoro : Applicazione della Routine all'Imprevisto ", Baldi, Il Giornalismo come Professione, Ed. Il Saggiatore, Milano, 1980, pp. 159-183.

عاماً كأخبار. وكلّ ما يتعارض مع هذه الصفات تتم تصفيته، لعدم توافقه مع الروتين الإنتاجي ومع قوانين الثقافة المهنيّة.

هذا يعني أن القابلية المعلومية للواقعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع صيرورات روتنة* العمل وإنجاز توحيد قياسي للإجرائيات الإنتاجية، عبر إدخال إجراءات مستقرّة على مادّة خام (الوقائع) شديدة التبدّل وغير قابلة للتوقّع.

وبدون شيء من الروتين تتم الاستعانة به لمواجهة الأحداث غير المتوقّعة، تخفق تماماً التنظيمات الصحفيّة، كمؤسّسات عقلانية، في إنجاز عملها(٥٥٦).

إن تحديد القابلية المعلومية ترتبط بمفهوم أفق الخبر(٥٥٧) (newsperspective)، وهي الجواب الذي يعطيه الجهاز الإخباري على التساؤل المهيمن في النشاط الصحفي، أي : أية الوقائع اليومية تعدّ مهمّة ؟

انطلاقاً من هذا الأفق، فإنها ما يستحق صنعه من قبل الجهاز الإخباري، دون إحداث اختلالات وقلب الدورة الإنتاجية العادية رأساً على عقب. على جانب آخر، من الواضح أنه في حالة ظهور أحداث استثنائية، فإن الجهاز الإخباري يتمتّع بالمرونة الضرورية لكي يكيّف إجراءاته مع الوضع الناشئ.

الواقع أن الخبر هو نتاج صيرورة تنظيمية تتطلّب أفقاً عملياً حول الأحداث، بهدف تجميعها وإعطاء تقويمات بسيطة ومباشرة حول علاقاتها، والقيام بكلّ ذلك بشكل ينجح في اجتذاب الجمهور(٥٥٨).

تظهر الأبحاث حول مضامين نشرات الأخبار أن الأخيرة تتميّز بتفكيكها لصورة المجتمع، من خلال الجمع بين الأحداث – الأخبار التي يقدّم كلّ منها كخبر يتمتّع باكتفاء ذاتي، ولا يفسّر أحداثاً - أخباراً أخرى. على مستوى نشرات أخبار كاملة، لا يمكن إيجاد أي تنظيم آخر مستتر سوى ذلك التنظيم القابل للوصف كحركة تنطلق من صورة مفكّكة للمجتمع، إلى إعادة تركيب هذا المجتمع عبر تجانسية المصالح والتمثيل السياسي(٥٥٩).

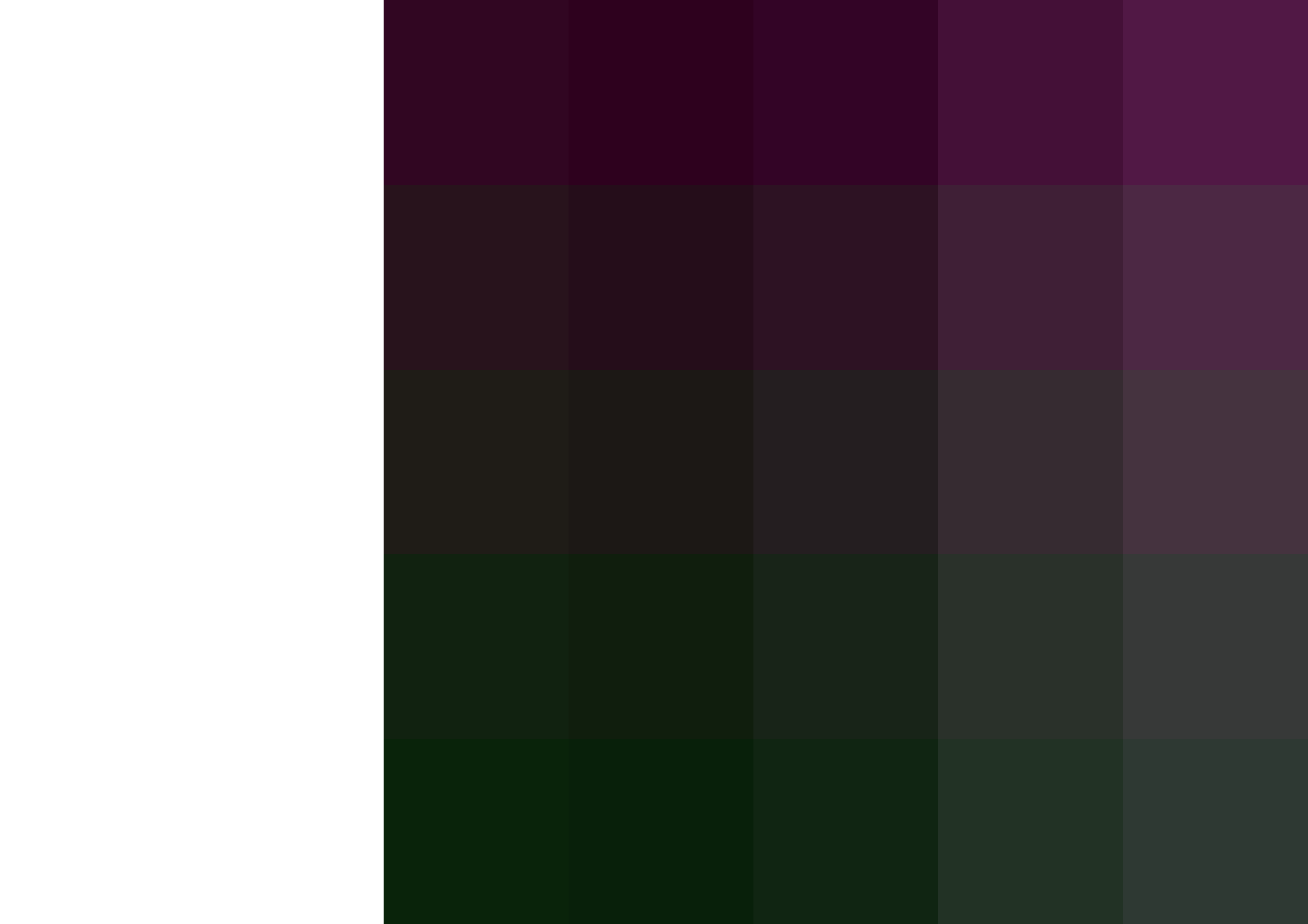
• اشتقاق من روتين.

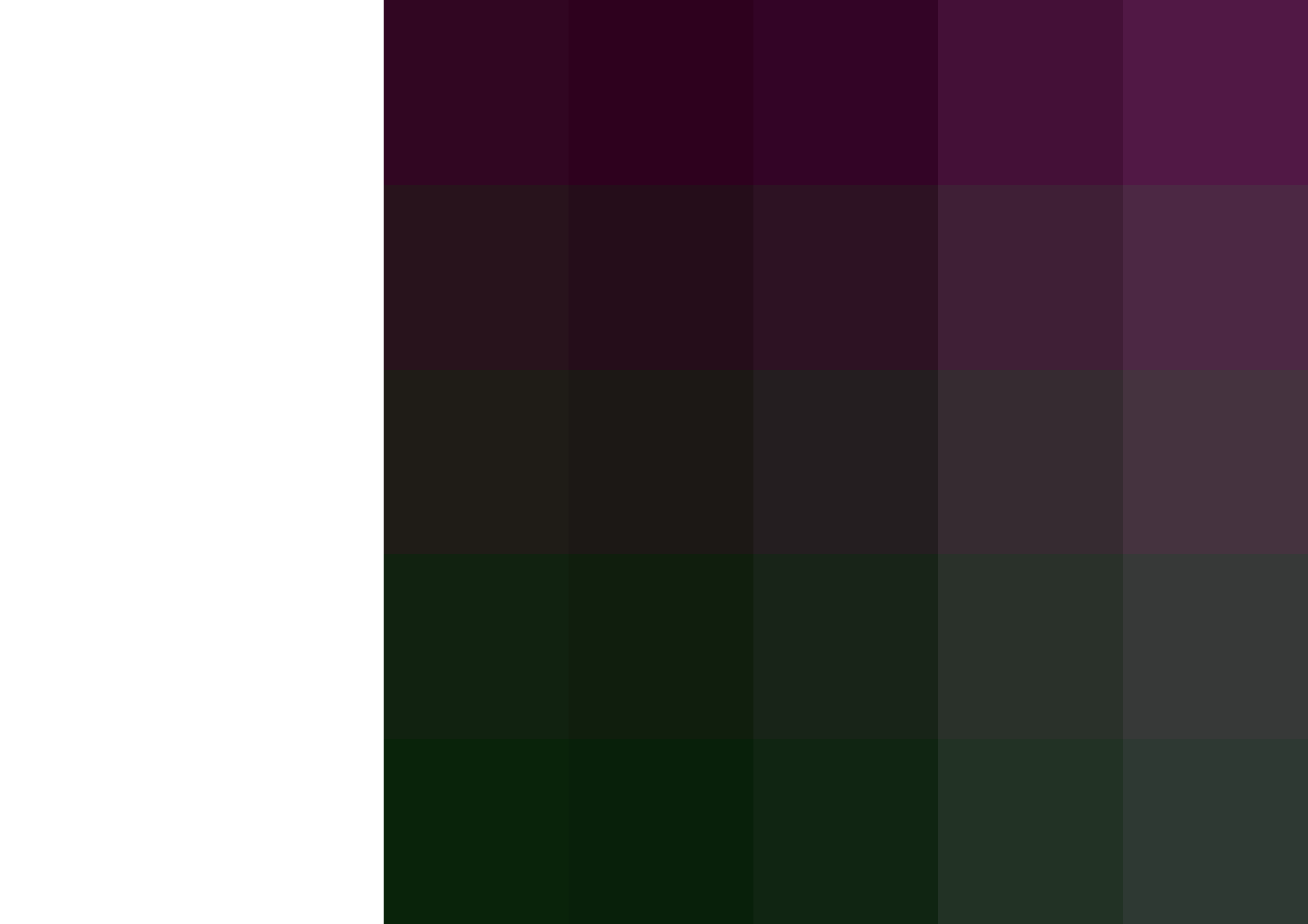
(556) D. Altheide, " Creating Reality : How TV News Distorts Events. Sage, Beverly Hills, 1976, in Wolf, Teorie... cit., p. 192.

(557) Ibid. p. 112.

(558) F. Rositi, " L'Informazione Televisiva : Frammentazione e Ricomposizione dell'Immagine della società ", Ed. ERI, Torino, 1975, pp. 5,20.

(559) P. Elliot, " The Making of a Television Series ", a Case Study in the Production of Culture, Ed. Constable, London, 1972, p. 149.





• المعايّير المرتبطة بالوسيلة الإعلامية

بشكل عام، ترتبط كمّية الزمن المخصّص لبثّ خبر بطريقة عرضه أكثر ممّا ترتبط بموضوعه، فوجود أو عدم وجود فيلم إخباري في التلفزة أو مراسل في المكان أو مقابلة مع أحد الأطراف المعنية بالحدث، أو طرائق أخرى خاصّة في تقديم الخبر، يسهم بصورة مباشرة في حجم الخبر بقطع النظر عن الموضوع المطروح[٥٧١].

في نشرة الأخبار المتلفزة، تتعلّق القابلية المعلومية للحدث بإمكانية تقديم مادّة بصرية، لا تقتصر على مشاهد ولقطات تستجيب للتوحيد القياسي التقني، وإنّما تستجيب أيضاً لمعايّير المعنى والمغزى اللذين يتضمّنهما الخبر.

إن الترابطات والتقويمات المتصالبة مع قيم الخبر الأخرى، تجعل من المعايّير الخاصّة بالوسيلة أكثر تعقيداً، حيث أن النص الكلامي جوهري مثلما هي جوهرية المشاهد، لأنه هو الذي يحتوي الخبر الحقيقي في حين أن المشاهد ترافق وتوضّح الكلام. بالإضافة إلى ذلك، فإن الأخبار الكلامية هي جزء جوّاني من النشرة، لأنها تقدّم تلك المعلومات التي لا يمكن أن ترافقها لقطات، ورغم أن التلفزة وسيلة تسيطر عليها المشاهد الفيلمية، لا بد وأن تخضع الأخيرة للمعايّير الجوهرية[٥٧٢]، وتخضع هذه القيم/ الخبر جميعاً، بشكل مباشر، لجميع معايّير القيمة الخاصّة بالجمهور.

ثمة معيار آخر مرتبط بالقابلية الخبرية فيما يتعلّق بالوسيلة، هو التواتر: كلّما كان تواتر الحدث مشابهاً لوتيرة الوسيلة، كلّما ازداد احتمال اختيار هذا الخبر بسبب توافقه مع خصائص القناة الإعلامية[٥٧٣]. ويتوافق هذا المعيار في وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزية، مع الأحداث الدقيقة في مواعيد وقوعها والفريدة والمغلقة داخل حيّز زمني قصير، ذلك أن القيم/ الخبر المتعلّقة بالحجم ترتبط بالحدود المكانية والزمانية التي تميّز المنتج المعلوماتي.

• المعايّير المتعلّقة بالجمهور

ترتبط هذه المعايّير بدور الجمهور في التأثير على عمليات الاصطفاء. غير أن هذه المعايّير يجب ألاّ تتحول إلى قيود للصحفيّين الذين يفترض أن ينصبّ اهتمامهم، بالدرجة الأولى، على إعداد برامج إخبارية عالية الجودة مهنياً وثقافياً، لا على كيفية

(571) Golding & Elliott, Making the News, op. cit. p. 138.
(572) Gans, Deciting What's News, cit. p. 160.
(573) Galtung & Ruge, The Structure of Foreign News, cit. p. 116.

إرضاء الجمهور فحسب، هذا لا يعني، بطبيعة الحال، إهمال الجمهور، لأن الاستناد إلى حاجات الجمهور ومتطلّباته والاستجابة لها يشكّلان شرطاً ثابتاً في الروتين الإنتاجي الذي يفترض إعداد أخبار حسب مقوّمات المهنيّة والخبرة والالتزام. وكما يقول شليسنغر[٥٧٤]، فإنه من الضروري الحفاظ على مصلحة الجمهور التي تعتبر، في نهاية المطاف، الحكم بالنسبة للخدمة الإخبارية، من جهة، والتمسّك بالمواقف المستقلّة للصحفيّين، من جهة أخرى.

على أية حال، ليس ثمّة تناقض البتّة بين متطلّبات الجمهور وبين استجابة الصحفيّين لهذه المتطلّبات، عبر أدائهم لعملهم بكفاية ومقدرة مهنيّة.

من بين المعايّير الأخرى المتعلّقة بعنصر الجمهور، هناك تلك المرتبطة بالبنية القصصية وبقدرة المواد الفيلمية المرافقة للأخبار في اجتذاب الجمهور، وبأهمّية الأخبار نفسها. غير أن غانس[٥٧٥] يطرح ثلاث فئات من الأخبار: إحداها هي الأخبار التي تتيح قيام الجمهور بعمليات الإسقاط، والثانية هي أخبار الخدمات، والثالثة ما يطلق عليها الأخبار الخفيفة (non-burdening stories) التي لا تقمع المتلقّي بتفاصيل مبالغ بها أو تقدّم له قصصاً إخبارية غير مهمّة ومثيرة للاكتئاب.

• المعايّير الخاصّة بالمنافسة

تؤدّي حالة المنافسة، حسب غانس[٥٧٦] إلى نشوء ثلاثة اتجاهات تنعكس بدورها على بعض القيم/الخبر السابقة، مقوّية إياها:

هناك أوّلاً وسائل إعلام متنافسة تحاول تحقيق سبق صحفي على المنافسين، غير أن هذا الأمر لم يعد فعّالاً لأن مراسلي جميع وسائل الإعلام موجودون دوماً في المكان. ولذلك، تحاول الوسيلة التنافس عن طريق إجراء مقابلات خاصّة بها وعن طريق اختراع برامج جديدة ومحاولة تحقيق السبق الصحفي عبر تقديم بعض التفاصيل غير المعروفة حول حدث ما، وهذا ما يفضي إلى تعميق التفتّت وإلى التركيز على تغطيات إخبارية حول النخبة وإلى تفعيل كلّ عوامل التحريف الإخباري الذي يأتي على حساب رؤية مفصّلة ومركّبة للواقع الاجتماعي.

ويكمن الاتّجاه الثاني في أن المنافسة تولّد توقّعات متبادلة، بمعنى أن تعمد وسيلة إعلامية ما على حذف حدث معيّن لتوقّعها بأن الوسائل المنافسة فعلت ذات الشيء.

(574) Schlesinger, Putting Reality Together, op. cit. pp. 117-119.
(575) Gans, Decinting What's News, cit. p. 162.
(576) Gans, Ibid. p. 177.

أما الاتّجاه الثالث فهو أن التوقّعات المتبادلة تتحوّل إلى ارتباط عام بالآخرين، ما يؤدّي إلى عدم تشجيع الابتكار والتجديد في عملية اصطفاء الأحداث، ويسهم في زيادة التشابه بين مختلف البرامج الإخبارية.

لا تتمتّع كلّ القيم/الخبر بذات الأهمّية وبذات الطرائق. المهم أن تعمل الوسيلة الإعلامية على تطوير أدائها ورفع مستويات جمهورها والتمسك بقيم المهنيّة والفعّالية والاستقلالية، والحرص على الاحتفاظ بمرونة كافية قابلة للاستخدام الفاعل، عندما يستوجب التطوير والتساوق مع العصر الإعلامي القائم ضرورة إحداث تغيير في " أيديولوجية الخبر " تتماشى مع مستلزمات الجودة والحرفيّة والأخلاقيّة المهنية.

الطبيعة التفاوضية لصيرورة القابلية الإخبارية

قد رأينا أن أهمّية حدث ما[٥٧٧]:

١- تحدّد وتقاس على أساس المتطلّبات التنظيمية للجهاز الإعلامي.

٢- وأن القيم/ الخبر تشكّل معايير جرى تنشيطها على شكل عنقودي وحسب تراتبيات متغيّرة.

٣- وأنه، في استخدام المصادر، يعمل أيضاً العديد من المعايير العملية والمرنة.

٤- وأن تركيبة الأخبار نفسها هي عبارة عن تسوية بين عناصر محدّدة مسبقاً وبين عناصر غير قابلة للتوقّع.

٥- وأن التبديلات الاضطرارية في سلّم الأولويات تقوّم عبر قابلية الواقعة للفعل، بالنسبة لمعايير متناقضة فيما بينها (كأهمّية الحدث، مثلاً، تجاه كلفة عملية التبديل).

٦- وأنه يجري تخفيف جمود تنظيم العمل عبر التوجّه نحو وصفات للأحداث غير المتوقّعة ولتحديث الأخبار.

ويبدو أن هذه المؤشّرات تؤكّد على الطبيعة المرنة والدينامية وغير المحدّدة بصرامة والمصوبّة، مرّة بعد مرّة، بصورة مختلفة، لصيرورة القابلية الإخبارية. ويكمن الجانب التفاوضي في أن تقويم القابلية الإخبارية هو دوماً نتيجة خليط يتمفصل بشكل مختلف في كلّ مرّة[٥٧٨].

(577) Wolf, Teorie delle Comunicazioni di Massa, cit., p. 251.
(578) Ibid.

إن العامل الذي أطلق عليه، في تحليل التفاوضية، "عدم استقرار التقويمات"، أي الطريقة التي تقوّم فيها الأطراف النتيجة الخاصة بها وتلك الخاصة بالأطراف الأخرى، ليس محدّداً البتّة ويمكن أن يتغيّر بوصفه نتيجة للتفاوض نفسه.

كما أنه ليس معياراً موضوعياً يمكن على أساسه تقويم عمليات التفاوض[٥٧٩]. ويطبع عدم الاستقرار هذا بطابعه، صيرورة التحقّق من مكانة الأخبار التي يبدو أنها تصاغ سياقياً بالنسبة لكلّ حدث، من خلال دينامية تصحيحات متبادلة بين عوامل عديدة وغير متجانسة، متورّطة في العملية. ويمكن أن يكون الحل العادل، في هذه الحالة، إمّا التطلّب المهني المشروط بالخضوع لضوابط الأخلاقية المهنية (تعدّدية، تماميّة، موضوعية)، أو مناخ الرضى الذي يخيّم في نهاية اليوم على غرف التحرير، وفي كلّ مرّة يتأثّر المحرّرون بالحصول على رضى فوري يعطيه إنتاج الأخبار، ورضى يومي مرتبط بمنتج خاص يتمتّع بمعايير دقيقة للجودة[٥٨٠].

في صيرورة القابلية الإخبارية للأحداث، تترك عملية التعرّف على العتبة التي تفصل فعلاً ما عن خبره، مساحة ضيّقة للشكوك وللخيارات الغثّة، لأن الروتين الإنتاجي، في الواقع، هو الرقيب على نفسه[٥٨١].

ولكن مغزى هذا الاتّجاه البحثي، يكمن أيضاً، في تكامل المتطلّبات الأكثر محسوسية في تلك الدراسات. فالتلاؤم السوسيولوجي لهذه المقاربة، في المقام الأول، صافٍ ويندرج في الخط العريض السائد اليوم للإعلاميا. كما أن نفوذ سوسيولوجية المعرفة محسوس بوضوح في المحاولة التي تقوم بها هذه الدراسات في إظهار جذور التشويه الذي يميّز المعلومات الجماهيرية، وفي إبراز صيرورات الوساطة الرمزية التي تخرجها تلك الدراسات إلى حيّز الوجود.

إن التكامل بين هذا البحث وبين أبحاث التأثيرات بعيدة المدى (وخاصة فرضية الأجندة)، تبدو، نظرياً، ذات أساس ومناسبة، ولكن، من زاوية أخرى، يمكن القول إن التحاليل حول صنّاع الأخبار، تصف العمل الاتّصالي للمرسل كصيرورة تحتوي في داخلها " كلّ شيء " (روتين لزج، تشويهات جوّانية، مقولبات وظيفية، سوابق مترسّبة).

والواقع أن هذا الاتّجاه البحثي يحتوي بعمق متطلّب استخدام نموذج اتّصالي أكثر تمفصلاً.

(579) F. Iklé, " Negotiation ", 1968, in Wolf, cit., p. 252.
(580) Golding & Elliott, 1979, cit., p. 90.
(581) Ibid.

في نهاية المطاف، وبما أن المعلومات الجماهيرية هي عبارة عن نشاط لا يكمن البتّة في عكس الأحداث بصورة بسيطة، فإن إنتاجها يبدو كصيرورة اتّصالية تورّط العديد من المتغيّرات غير المتجانسة. بالإضافة إلى ذلك، فإن المقاربة حول صنّاع الأخبار، في مجملها، تشكّل مثالاً مناسباً لأنها تتفادى تحديدية جامدة وآليات سهلة لتبرز التأثيرات الوساطية وغير المباشرة.

نظرية لولب الصمت (The Spiral of Silence)

أثارت نظرية لولب الصمت التي صاغتها إليزابيت نيومن ضجّة في الأوساط الإعلامية العلمية، لكونها سجّلت في التاريخ الرسمي للبحث الإعلامي بداية ردّة الفعل على هيمنة صيغ التأثيرات المحدودة.

وتعتقد نيومن أن ضرورة التخلّي عن صيغة التأثيرات الضعيفة للإعلام مرتبطة بمسألة أن التلفزة، ومن خلال انتشارها الشعيْري والكوكبي، قد أدخلت تبدّلاً جذرياً لا رجعة بعده في عمل الإعلام لأنه يتجاوز قانون الإدراك الاصطفائي الذي يتضمّنه نموذج التأثيرات المحدودة.

وتقول نيومن[٥٨٢] :

يجب إعادة النظر في قدرة الإعلام على تغيّير الاتّجاهات.. فالإعلام الجماهيري متّصل، خاصة، بالتحديد الذي طرأ على التلفزة التي تجعل الإدراك الحسي الاصطفائي الداعم للرأي الأسبق، أكثر صعوبة مما كانت تفعله الصحافة المطبوعة.. وهناك عاملان أساسيان في هذا المجال : الأول هو التراكم الناجم عن الظهور الدوري للإعلام، والثاني هو التناغم أي الإجماع على موقف ما بالنسبة لأحداث، وأشخاص ومشكلات.. ويحسب التراكم والتناغم معاً لأن خصيصتهما المشتركة هي في الوقاية من عقبات الاصطفاء .. والأطروحة القائلة بأن الإعلام لا يغيّر الاتّجاهات ولكنه يقوّيها، لم تعد مقبولة ضمن شروط التناغم والتراكم.

وتعدّ مسلّمة تحييد الاصطفائية[٥٨٣] أساسية، إذ أنها تبرّر التخلّي عن فرضية التأثيرات المحدودة، غير الملائمة للانتشار الكثيف للتلفزة.

(582) E. N. Neumann, " Mass Media and Social Change in Developed Societies " in Katz, Ed. T., Mass Media and Social Change, Sage, Beverly Hills, 1981, in Wolf, Gli Effetti.., pp. 65-68.
(583) E. Katz, " Publicity and Pluralistic Ignorance ", Notes on the Spiral of Silence, Ed. H. Baier – M. Kepplinger – K. Reumann, 1981, pp. 28-38.

الواقع أن صيرورة تشكّل الرأي العام تنجم عن التفاعل بين الاستيعاب الذي ينجزه الفرد في البيئة الاجتماعية المحيطة وبين اتجاهات وسلوكيات هذا الفرد. وبدلاً من أن تكون عملية الانسجام في المجموعات الاجتماعية، وبالتالي التوافق بين أعضائها، من قبيل تحصيل الحاصل، ترى نيومن أنه يجب إبراز كيف أن هذا التوافق هو، فعلياً، نتيجة عمل اجتماعي مستمر، و عمليات تحالف ثابتة، ينجم عنها – حسب نيومن – مفهوم تكاملي للرأي العام، الذي يستجيب لضغوط تدعوه إلى الاتّفاق مع الآخرين، والتي تعتمد على عنصر الطبع الاجتماعي للفرد الذي يدفعه إلى تجنّب الانعزال[٥٨٤] . فكل فرد متورّط، شاء أم أبى، في عمليات تشكيل الرأي العام، بما أنه مهدّد بالعزلة الاجتماعية، إذا خرج عن الضوابط والقواعد وصيرورات التكامل، أو اتّخذ موقفاً ضدّها. إذن، الرأي العام هو الرأي المسيطر الذي يرغم الأفراد على تناغم اتّجاهاتهم وسلوكهم، وبقدر ما يبدي هؤلاء الأفراد تعارضاً مع الرأي السائد، بقدر ما يتعرّضون للعزلة، ويفقد رجال السياسة منهم الدعم الشعبي[٥٨٥].

ويولي هذا المفهوم أهميّة لمسألة أن الإنسان يراقب بيئته الاجتماعية المحيطة، وينتبه لطريقة تفكير من هم حولهم ومن يدركون مسارات تغيّير الآراء، أي أن الإنسان يسجّل تلك الآراء التي تكتسح المحيط الاجتماعي وتصبح مهيمنة[٥٨٦]، ثمّ يتبنّاها ويعبّر عنها جهاراً انسجاماً مع الرأي السائد في مرحلة زمنية معيّنة.

إن هذه السيطرة على السياق الاجتماعي الذي تنسبه نيومن إلى ضرب من الكفاية شبه الإحصائية، ترتبط بمسألة أن الأفراد ينظّمون ردود أفعالهم على بيئة، وهذه البيئة مؤلّفة من أشخاص آخرين ينظّمون أيضاً ردود أفعالهم على بيئتهم التي، بدورها، تتألّف من أشخاص ينظّمون ردود أفعالهم على بيئة مشكّلة من ردود أفعال الأشخاص وهكذا..[٥٨٧] . وفي وضع جهاري من هذا القبيل، فإن ما يفعله البعض يؤثّر فيما يفعله البعض الآخر، والطريقة التي يحقّق فيها هذا البعض ما يريدون تحقيقه يرتبط بما يفعله الآخرون[٥٨٨]. وكلّ شخص هو جزء من بيئة الشخص الآخر، وجزء مهمّ من أجل أن يحدّد هذا الأخير خياراته[٥٨٩].

(584) Neumann. Mass Media and Social change in Developed Societies. op. cit. p. 139.
(585) N. Neumann. " The Spiral of Silence. A Theory of Public Opinion ", in Journal of Communication, Spring, 1974, in Wolf, Gli Effetti... cit.. pp. 68-71.
(586) Neumann. Die chweigespirale : " Offentliche Meinung – Unsere Soziale Haut " Piper Verlag, Müchen, trad. " The Spiral of silence. Public Opinion – Our Social Skin ", University of Chicago Press, Chicago, 1980. p. 44.
(587) P. Schelling, " Micromotives and Macrobehavior ", Norton, New York, 1978. trad. " La Tyrannie des Petites Décisions. Ed. P. U. F., Paris, 1980. p. 20.
(588) Ibid. p. 33.
(589) T. Schelling, " Choice and Consequence ", Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1984, p. 198.

في هذا النظام الجماعي لاتّجاه الفعل، يشكّل استيعاب كيفية توزّع الرأي العام، جزءاً مهماً من صيرورة تشكّل الرأي العام نفسه، ضمن نطاق دينامية لولبية، يمارس فيها الإعلام الجماهيري دوراً خاصاً. ولذلك، فإن نقطة الانتباه المهمّة هي طريقة تعامل الأشخاص مع المعلومات في ضوء استيعابهم لعلاقات المجموعة[٥٩٠].

لا شك أن ميل البعض إلى التكلّم بقوّة وميل البعض الآخر إلى الصمت، يحرّك عملية لولبية تكرّس، تصاعدياً، وجهة نظر من ينجح في أن يسيطر[٥٩١]. وفي تولّد صيرورة لولب الصمت، يصل الفرد إلى الاعتقاد بما يظن أن الآخرين يعتقدونه. ويؤشّر لولب الصمت إلى انزياح في الرأي، يتولّد من مسألة أن مجموعة تبدو قويّة أكثر ممّا هي في الحقيقة، في حين أن الذين يتبنّون رأياً مخالفاً يبدون أكثر ضعفاً ممّا هم في حقيقة الأمر. والنتيجة، بطبيعة الحال، نشوء وهْم بصري وسمعي فيما يتعلّق بالوضع الفعلي للأكثرية وبميزان القوّة[٥٩٢].

يخلق الإعلام الجماهيري الرأي العام لكونه يقدّم الضغط البيئي الذي يستجيب له الناس بالتعبير عن الرضى أو بالصمت، فالإعلام يعمل على اقتران عنصرين، إذ يجعل نقطة الارتكاز المؤلّفة من النزعات والميول، مرئية وذات معنى، وفي النهاية مسيطرة، و يقدّمها وكأنّها في طريقها إلى الانتشار في مناخ الرأي[٥٩٣].

وهكذا، يشكّل الإعلام أحد المصادر الرقابية المتوافرة للأشخاص، لكي يتمكّنوا من التقاط سيرورة مناخ الرأي، وهو دور لا غنى عنه لأن الإعلام يوفّر الضغط البيئي ويحدّد أنساق المناخ الاجتماعي ومناخ الرأي الذي يهتدي به الأفراد والذي يشكّلون ردود أفعالهم على أساسه، عن طريق الانضمام إليه، مصعّدين أو مقلّصين استعداداتهم للتعبير عن أنفسهم.

بالإضافة إلى ذلك، يمارس الإعلام دوراً آخر يطلق عليه (polltakers) وهو يكمن في تقديم تمثّلات غير مباشرة لأجوبة الجمهور حول قضايا معيّنة، ويؤدّي الإعلام هذا الدور بصورة شكلية أحياناً، مقدّماً معلومات حول استطلاعات رأي ، ولكنه غالباً ما يحوّل الميول إلى خصائص غير كمّية لردود الفعل العامّة[٥٩٤].

(590) V. Price & D. Roberts, " Public Opinion Processes ", in Berger, Ed. S. Chaffee, Handbook of Communication Science, Sage, Newbury Park, 1987, pp. 781-816.
(591) Neumann, " The Spiral of Silence ", op. cit. p. 44.
(592) N. Neumann, " The Spiral of Silence : Summary and Overview, European University Institute, summer School on Comparative European Politics, Florence, 1985, p. xii.
(593) Neumann, " The Spiral of Silence " , op. cit. p. 51.
(594) Price & Roberts, Public Opinion Processes. Op. cit. p. 808.

ويصنّف شولتز نموذج لولب الصمت من بين التوضيحات البيئيّة لتأثير الإعلام : أي أن الإعلام يخلق الثقافة والبيئة الرمزية والمعرفية التي يعيش الإنسان فيها، ويشكّل مصدراً يستخدمه الفرد في التفاعلات الاجتماعية ليتمكّن من موضعة أفعاله وجعلها ذات معنى[٥٩٥].

ويتدخّل الإعلام الجماهيري بطريقتين لخلق تزحزح في الرأي العام : أولهما أن أولئك الذين يمتلكون وجهة نظر تعدّ وتستوعَب على أنها وجهة نظر أقلّية، يصبحون الأكثر استعداداً للتعبير عن أنفسهم، رغم إدراكهم بأنهم يمثّلون الأقلّية، إذا حصلوا على دعم الإعلام. وإذا أعطى هذا الأخير شهرة لموقف تلك الأقلّية وسانده، من المحتمل أن يجعلها مرئيّة وأن يزحزح قطاعات من الرأي نحو هذا الموقف الذي يبرزه ويصعّده. أما الطريقة الثانية فهي ما يطلق عليها وظيفة المفصلة : فالحضور الكثيف لوجهة نظر معيّنة وتفسيرها في الإعلام يعطيان أولئك الذين يتبنّون وجهة النظر هذه الأفضلية في أن يكونوا أفضل "تسليحاً" للتعبير والدفاع عنها في تفاعلاتهم الاجتماعية. فمن خلال استخدامهم لأفكار ومصطلحات موجودة في الإعلام، يستطيع هؤلاء الأشخاص أن يوسّعوا انتشار وبروز وجهة النظر، ليس فقط عبر تقليص خطورة عزلتهم الاجتماعية، ولكن أيضاً جاعلين هذا الأفق أكثر امتداداً وأكثر قابلية للاستيعاب[٥٩٦] .

• قيمة نموذج لولب الصمت وسلبياته

من بين المواقف الضمنية لهذه النظرية، إعطاء الإعلام الجماهيري دوراً مهماً في دينامية التغيير الاجتماعي. ولكي تتّضح هذه النقطة من المفيد العودة إلى مفهوم "الجهل المعمّم" (pluralistic ignorance)[٥٩٧] الذي يصف وضعاً اجتماعياً يعتقد فيه كلّ فرد بأنه الوحيد الذي يفكّر بشيء ما بطريقة معيّنة ولا يعبّر عن رأيه خوفاً من خرق تحريم أخلاقي أو عرف مهيمن، أو خوفاً من أن يصبح غير شعبي. وعندما لا يتّفق أحد مع قاعدة، ولكنه يفكّر أن الآخرين جميعاً يتقيّدون بها، فإن النتيجة النهائية شبيهة بتلك التي تحدث إذا التزم الجميع بذات القاعدة. وإذ يحدث أن تمرّ، داخل مجموعة اجتماعية، موجة سريعة من المعرفة القابلة للملاحظة العامّة، يدرك الأشخاص من

(595) W. Schulz, " Wirkungsmodelle der Medienwirkungsforschung ", Ed. W. Schulz, Medienwirkungsforschung in der Bundesrebupublik Deutschland, VCM, 1987, in Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit. p.73.
(596) Neumann, The Spiral of Silence, Public Opinion – Our social Skin, 1980, cit. p. 50.
(597) T. Newcomb, " Social Psychology, Ed. Dryden, New York, 1950, in Wolf, Gli Effetti Sociali dei Média, cit. p. 75.

خلالها أن كثيرين آخرين يفكّرون بالأسلوب نفسه، يبدو أن الذي يقع هو تبدّل آنيّ وانقلاب غير متوقّع في مناخ الرأي وتزحزح فوري في الاتّجاه. والواقع أن الوضع النهائي يمكن ألاّ يكون نتيجة تغيّر قاعدي في الاتّجاهات وفي القناعات، بقدر ما يكون نتيجة إدراك متغيّر للأسلوب الذيّ يتوزّع فيه الرأي العام[٥٩٨]. في مثل هذا النوع من الدينامية، الشبيهة بدينامية لولب الصمت،، فإن الإعلام يمتلك المقدرة على تسريع التبدّل الاجتماعي عن طريق إيجاد تمثّلات له.

إن النقطة الأهمّ في لولب الصمت هي ملاحظة أن الإعلام لا يكتفي بتمثّل ميول الرأي العام، بل على العكس، يعطيها شكلاً ملموساً ويطوّرها[٥٩٩]. ويمكن القول إن الإعلام يخلق الرأي العام، ذلك لأن تزحزح الميول لا يتحقّق باستقلالية عن عمل الإعلام بل هو وثيق الارتباط به. ويمكن لهذه الصيرورة أن تكتسب أهمّية وأن تؤدّي إلى نتائج مختلفة كثيراً، ترتبط بعوامل شتّى، كالصراعية التي تتخثر حول الموضوعات المطروحة (إذا تعلّق الأمر بموضوعات لا يخشى الأشخاص من الوقوع في عزلة بشأنها، فإن آلية لولب الصمت لا تتحقّق)، ووجود بُعد قيمي وليس فقط معرفي بالنسبة للقضايا المتناولة، وأيضاً اختلاف الوتيرة والسيرورة (يمكن لصيرورات لولب الصمت أن تكون سريعة جداً، ولكن هناك أيضاً صيرورات تدرّجية وبطيئة مرتبطة بطبيعة الموضوع وبدرجة المواجهة التي تترتّب عليها)[٦٠٠].

الحقيقة أن نظرية لولب الصمت تلفت إلى طريقة ذات مغزى كبير بالنسبة لتأثيرات الإعلام، أما بالنسبة لبعض التشعّبات الداخلية، فإن الأمر يحتاج إلى مناقشة.

ثمة مشكلة جوهرية تتعلّق بالفرضية التي ترتكز أليها أطروحات نيومن، وهي قدرة التلفزة على إسقاط الإدراك الحسّي الاصطفائي، وبقدر ما هي قويّة تلك الفرضية، بقدر ما هي موضع نقاش. فالأمر الأكثر أهمّية من الدرجة الحقيقية لمقدرة الجمهور الاصطفائية، هو الفكرة نفسها حول التلفزة التي يرى نيومن أنها تتجاوز، عبر آلياتها الجوّانية، وساطات وفلاتر وعقبات. الحقيقة أنه لا توجد علاقة " إنسانية " مع الاتّصال الجماهيري بدون عمليات اصطفاء صارمة[٦٠١].

(598) E. Katz, " Publicity and Pluralistic Ignorance ", 1981, op. cit., pp. 28-38.
- D. Taylor, " Pluralistic Ignorance and the Spiral of Silence : A Formal Analysis ", Public Opinion Quarterly, vol. 46, 1982, in Wolf, Gli Effetti..., cit., p. 75.
(599) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media ", cit. pp. 74-75.
(600) Ibid.
(601) G. Bettetini, " Una Ricerca Multidisciplinare sulla Dimenticanza Volontaria ", in Ikon, Università Cattolica, Milano, n° 15 & n° 16, 1987, p. 4.

إن الفكرة القائلة إن قوّة الإعلام تتمكّن من خلال تحييد الاصطفائية تبدو أكثر ارتباطاً بعنصر الجدول الزمني وردّ الفعل ضدّ نموذج التأثيرات المحدودة، من المعطى المؤكّد والمدعوم إمبيريقياً. بل على العكس، إذا كان ثمّة خط توحيدي في الأبحاث الإعلامية خلال الثمانينيات، فهو بالضبط بروز اللاسطرية لعمليات استهلاك الجمهور للإعلام ولوجود تكامل تام بين هذه العمليات والشروط السياقية التي تؤطّرها[٦٠٢].

ويجري الحديث عن "عمل إدراكي " يقوم فيه المدرك بقصّ صارم ومستمر، تاركاً خارج إدراكه كلّ ما لا يهمّه أو يمكن أن يهدّده، ومحتفظاً ومصطفياً، من جهة أخرى، كلّ ما يعجبه وينال رضاه[٦٠٣].

غير إن التفسير القائم على حتمية التعارض بين القوّة التأثيرية للإعلام وبين القوّة الاصطفائية للجمهور، ليس التفسير الوحيد الممكن : يجب إيجاد صياغة إطارية ملائمة نظرياً للأخذ في الحسبان سواء العمل الاصطفائي لاستهلاك الجمهور (والذي ثبتت صحّته ميدانياً) سواء التأثير الذي يمارسه الإعلام في مستويات متعدّدة، مبطلاً، بهذا الشكل، إمكانية الكشف عن التأثيرات ذات المعنى، عبر الانطلاق فقط من تمثّلات غير واقعية للعمليات الإدراكية التي يستهلك الجمهور الإعلام من خلالها.

الحقيقة أن نموذج لولب الصمت يرتدي أهمّية لكونه يصف كيف يستطيع الإعلام الجماهيري الإسهام في جعل التبدّل الاجتماعي ممكناً (وخاصة في عنصرها المتعلّق بتبدّل النماذج الثقافية في المجتمع)، بقطع النظر عن تضخيم قوّة الإعلام. هذا يعني أنه ليس ضرورياً البتّة الاحتفاظ بفرضية إلغاء التلفزة للاصطفائية، لكي يتم الكشف عن قيام الإعلام بممارسة التأثير حسبما تراه عناصر نظرية لولب الصمت[٦٠٤]، إذ بالإمكان استخدام هذه النظرية، مع التقيّد بمفاهيم الاصطفائية التي تمتلك براهين عديدة على صحّتها.

على أية حال، يستطيع الإعلام أن يبادر إلى تحقيق عملية تمثّل الواقع الاجتماعي، متحدّياً المؤسّسات الرسمية التي تحقّق دوماً الأسبقية في تعريف الناس بالواقع الاجتماعي، حيث تعقّب على ما يقوله الإعلام حول هذا الواقع[٦٠٥]. وهذا ما يحدث

(602) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit. p. 76.
(603) A. Silj, A Est di Dallas. Telefilm USA ed Europei a confronto, Ed. ERI, Torino, VQPT, n° 84, 1988, p. 41.
(604) Wolf, cit. p. 77.
(605) P. Scglesinger, " Rethinking the sociology of Journalism : Source Strategies and the Limits of Media Centrism ", Groupe Européen sur les Medias, Paris, 1988, p. 11.

فعلياً في الصحافة المختصّة بإعداد التحقيقات الإعلامية الميدانية والموثّقة حول مشكلات حيوية بالنسبة لأغلبية الناس[٦٠٦].

نظرية الفجوات المعرفية (knowledge – gap)

وهي نموذج آخر للبحث في تأثيرات الإعلام القويّة، رغم أنها تتموضع جزئياً خارج إطار الحوار القائم حول فعّالية الإعلام الجماهيري.

ويتألّف الإطار المرجعي لنظرية الفجوات المعرفية التي صاغها دونوهوي وأوليان، من دراسات حول انتشار المعرفة وحول الحملات المعلوماتية، وبشكل أعم، من دراسة مدى انتشار الأفكار المجدّدة في مجال السياسات الاجتماعية وخاصّة في الدول النامية. ويشهد هذا النموذج حالياً نجاحاً في سياق المشكلات الناشئة عن التقانيات المعلوماتية الجديدة في مجتمع المعلوماتية.

يفسّر انتشار وسائل الاتّصال الجماهيري على نطاق واسع كمؤشّر للعصرنة وللتطوّر الاجتماعي والثقافي المرتبط بتوافر التدفّق المعلوماتي الحرّ والمتساوي. وتنسب إلى التلفزة وظيفة الربط التي تنشئ علاقة بين عناصر من تحت- مجموعات ثقافية متنوّعة، عبر عرض شامل لعالم ثقافي أكثر اتّساعاً وأكثر شعبية وامتداداً[٦٠٧]. ويعترَف أيضاً بقدرة الإعلام عموماً على بناء عالم رمزي موحّد مؤلّف من مرجعيات

---

(٦٠٦) يمكن أن تطبّق نظرية لولب الصمت بشكل فعّال في مجتمعات الجنوب حيث كان الإعلام التلفزي يؤدّي دوراً لا يستهان به لتكريس الأيديولوجية المسيطرة، مقدّماً إيّاها على أساس أنها أيديولوجية الأكثرية الساحقة من الشعب.
وغالباً ما كان يبدو أن الإعلام التلفزي يحقّق نجاحات في هذه المهمّة لفترات خاصّة وأن الجبهة المهيمنة في المجتمع كانت تحتكره لحسابها وتحظّر وجود أي إعلام معارض. غير أن ظهور الإعلام الفضائي وانتشاره السريع والكوكبي، أدخل الإعلام الوطني في البلدان النامية في أزمة، ما أضطرّ السلطة إلى التفكير في تعديل بعض مفاهيمها الإعلامية وسياساتها في مجال الحرّية والتعدّدية الإعلامية. ولكن هذه النظرية تبقى صالحة للتعرّف على مدى سطوة الإعلام التلفزي الداخلي في خلق وتكريس أفكار أحادية، وطرحها على الجمهور بتكرارية عالية على اعتبار أنها تجسّد أفكار الأكثرية، وإدانة أو نقد أفكار أخرى على أساس أنها سلبية وهدّامة ولا يؤمن بها سوى مجموعة ضئيلة ومارقة في المجتمع، وللتعرّف خاصّة على حجم واتّجاهات القوّة الاصطفائية لدى الجمهور في عصر تعدّدية إعلامية فرضت من الخارج، معطية التفاعل بين الإعلام الجماهيري والجمهور الإعلامي العريض أبعاداً غير مسبوقة وآليات اصطفائية تجري ممارستها على صعيد الكرة الأرضية بأسرها.

(607) P. Hirsch, " Television as a National Medium ", Ed. D. Street, Handbook of Contemporary Urban Life, Jossey Bass, San Francisco, 1978, pp. 389-427.

وتراكمات وتحديدات لهويّة ثقافية معيّنة. فمن خلال الأخبار والتحليلات والتعليقات تجعل مؤسّسات الإعلام الإخباري قابلة للفهم، عبر فئات أكثر عمومية، التجربة الاجتماعية للأفراد. وتعمل هذه الفئات سواء كدليل قواعد وأنظمة متمفصلة سلفاً، سواء كمفاهيم قيميّة عامّة حول ما يمكن انتظاره من الحياة الاجتماعية. بهذا الشكل، يقدّم الإعلام معلومات، ويعطي، في الوقت نفسه، البعد القواعدي الناظم للمجتمع، ويقوم بذلك كلّه بمرونة كبيرة نسبة إلى التوتّرات الاجتماعية[٦٠٨].

وإذا كانت القيم التكامليّة للعصرنة ولبلوغ حدّ الإشباع في التفاوت، المرتبطة أيضاً بسهولة الوصول إلى وسائل الإعلام، تمثّل عنصراً بارزاً بشكل عام، فإن نموذج الفجوات المعرفية يلفت إلى الوجه الآخر للعملة، إذ يرى أن الإعلام يعيد إنتاج اللامساواة الاجتماعية ويصعّدها وهو أداة للقفز فوق هذا التفاوت، وليس لتقليصه، إذ يصنع أشكالاً جديدة ونافذة من اللامساواة ومن التطوّر المتفاوت[٦٠٩].

في صياغتها الأصلية طرحت نظرية الفجوات المعرفية مسألة أنه كلّما ازداد تغلغل الإعلام المعلوماتي داخل نظام اجتماعي، يجنح قطاع الجمهور الذي يتمتّع بوضع اجتماعي- اقتصادي مرتفع، إلى اكتساب المعلومات بصورة أسرع من القطاع ذي المستوى الاجتماعي- الاقتصادي الأكثر انخفاضاً، وهكذا، فإن فجوة المعرفة بين القطاعين تميل إلى الاتّساع بدلاً من أن تتقلّص[٦١٠].

واعتبرت هذه النظرية، في بداياتها، أن ثمّة أربع فجوات للمعرفة : مستوى الرؤية والإعلان للقضايا التي ينشّطها الإعلام ضمن سياق اجتماعي معيّن، مستوى التعليم لدى الأفراد، مستوى المعارف التي يمتلكها الأشخاص حول موضوعات معيّنة، المتغيّر الزمني[٦١١].

وقد أنجزت دراسات ميدانية عديدة حول المفاهيم التي طرحتها هذه النظرية، فيما يتعلّق، خاصّة، بنوع القضايا التي تحدث فيها الفجوة وبالبنية الاجتماعية للمجموعات

---

(608) J.Alexander, " The Mass News Media in Systemic, Historical and Comparative Perspective ", Ed. Katz E. – Szcesko, Mass Media and Social Change, Sage, London, 1981, pp. 17-51.

(609) A. Gillespie & K. Robins, " Geographical Inequalities : The Spatial Bias of the New Communications Technologies ", in The Information Gap, Journal of Communications, vol. 39, n° 3, 1989, in Wolf, Gli Effetti.., cit., p. 80.

(610) P. Tichenor & G. Donohue & C. Olien, " Mass Media and Differential Growth in Knowledge ", in Public Opinion Quarterly, n° 43, 1970, in Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit. p. 80.

(611) C. Gaziano, "The Knowledge Gap. An Analytical Review of Media Effects", in Communication Research, vol. 10, n° 4, 1983, pp. 447-486.

وللجماعات التي يحلّ داخلها هذا الضرب من تأثير الإعلام، وبدرجة التورّط تجاه تلك القضايا واهتمام الأفراد باكتساب المعلومات المتّصلة بها[٦١٢].

وقادت هذه الدراسات إلى إعادة صياغة تأثير الفجوات المعرفية: إذ اتّضح أنه كلّما اكتسب نظام الإعلام أهمّية، فإن قطاع الجمهور الذي يمتلك دوافع لاكتساب المعلومات أو أن هذه المعلومات تعدّ ذات فاعلية بالنسبة إليه، يجنح نحو اكتسابها بشكل أسرع من قطاع آخر من الجمهور ليست لديه دوافع أو لا تشكّل هذه المعلومات فاعلية بالنسبة له، وهذا كلّه يؤدّي إلى زيادة الفجوة المعلوماتية بين القطاعين، بدلاً من أن يضيّقها[٦١٣].

وهناك جانب مهمّ يتعلّق بدينامية الفجوات، سواء في اتّساعها، سواء في استمرارية إعادة إنتاجها لتتراكم فوق بعضها البعض. وفيما يتّصل بالنقطة الثانية، فإن التقدّم التقاني وأساليبه في التحول إلى سلع تجارية ودخول السوق، يشكّل، بوضوح، ناقلات تعيد إنتاج فجوات معيّنة للمعرفة كانت في طريقها إلى الجسْر بالنسبة للتقانيات الاتّصالية القديمة، فانتشار التقانيات الجديدة على قاعدة ضيّقة اجتماعياً، يعيد المباعدة بين حدّي المقصّ ويطلق أنواعاً من التفاوت في اكتساب المعرفة[٦١٤].

على جانب آخر، تعدّ ذات أهمّية في تخفيض حدّة الفجوات، ما يطلق عليها " التأثيرات - العتبة "، أي الآليات التي تقود إلى الإبطاء في اتّساع الفجوات أو حتّى إلى اختفائها تماماً. فالتأثيرات - العتبة يمكن أن تكون لها أسباب عديدة، منها، مثلاً، درجة تكرار المعلومات التي يعرضها الإعلام الجماهيري أو انخفاض الدوافع في اكتساب المعلومات أو، في مستوى آخر، نوعيّة أداة تحديد وقياس الفجوات المعرفية. ولكن، من ناحية أخرى، في حين يمكن ملاحظة انغلاقات في الفجوات نتيجة التأثيرات - العتبة المرتبطة بشروط خاصّة جداً وقليلة التحقّق، فإن الأسباب التي تنتج تلك الفجوات تتمتّع، عادة، بسيرورة زمنيّة مستمرّة ودائمة[٦١٥]. ولذلك، فإن أهمّية التأثير - العتبة تكمن في كونه عاملاً إضافياً في التصالبات المعقّدة لعناصر تجعل من الإعلام عامل تشظّي اجتماعي.

(612) Y. Miyo, " The Knowledge – Gap hypothesis and Media Dependency ", Ed. R. Bostrom. Communication Yearbook, vol. 7, Sage, Beverly Hills, 1983, pp. 626-650.
(613) J. Ettema & G. Kline, " Deficits, Differences and Ceilings. Conditions for Understanding the Knowledge Gap ", in Communication Research, vol. 4, n° 2, 1977, in Wolf, cit. p. 81.
(614) Wolf, cit. p. 82.
(615) M. Wober & B. Gunter, " Television and Social Control, Gower, Aldershot, 1988, in Wolf, cit. p. 82.

وفي الوقت الحالي، يتبدّى تطوّران مختلفان في أبحاث هذه النظرية، يتكاملان في الإطار العام لفجوات المعرفة، مؤدّيان إلى تشعيبها وتحديثها : الأوّل يتعلّق بمتغيّر الكفاية في استيعاب المعلومة، إذ ثبت إمبيريقياً أن بعض الأشخاص لا يمتلكون معلومات أكثر من غيرهم فحسب، بل هناك أيضاً تفاوت كبير بين الأفراد في القدرة على تذكّر المعلومة وفهمها بالمقارنة مع قطاعات أخرى من الجمهور. ويصبح الإطار أكثر تعقيداً من خلال دراسات أخرى تبرز كيف أن لبعض الأشخاص مقدرة أكبر على اكتساب أنواع معيّنة من المعلومات، أو معلومات يتم تقديمها بطريقة معيّنة، وأن الاختلاف في الجنس والعمر ودرجة التعليم لا يعطي تفسيراً للتفاوت في القدرة على الفهم والتخزين، الذي يحتاج إلى دراسات معمّقة ليس فقط في أساليب استخدام الجمهور للإعلام وإنّما أيضاً في أساليب معالجة المعلومات المتلقّاة من الإعلام[٦١٦]. أما التطوّر الثاني فيتعلّق بالتحاليل الممتدّة والمتشعّبة لنماذج استهلاك ملموسة عبر الارتكاز إلى مسارات استهلاك لوسائل إعلام متعدّدة. ومن الواضح، مثلاً، أن التبعية الثابتة والروتينية لوسيلة إعلامية معيّنة أكثر من وسيلة إعلامية أخرى، من شأنها أن تزيد، بصورة محسوسة، تولّدعناصر تفاوت في المعرفة. إن استكمال نموذج الفجوات بتحاليل الاستهلاك لعدّة وسائل إعلامية، وبأسباب سياقية تحدّدها، يتيح التوصّل إلى أبعد من المعطى الكمّي حول حجم الاستهلاك. وفي هذا الأفق، من المفيد اتّباع الاتّجاه البحثي حول تعدّدية الوسائل الإعلامية، الذي يرمي إلى المزاوجة بين الجوانب النوعية للاستهلاك والجوانب الكمّية، لكي يتم تجاوز نهائي لمشكلة تقليص الاستهلاك إلى مجرّد الاحتكاك أو زمن التعرّض للإعلام[٦١٧].

في أبحاث الثمانينيات، تمّ التركيز على الاستهلاك وعلى النشاط الملموس لتلقّي واستخدام وفهم الإعلام، وهذا ما يؤكّد وجود إلحاح على التوحيد النسبي وعلى التكامل بين عناصر الموضوع والمقاربة النظرية التي يجري تمثيلها بالجهد المتشعّب والمتنوّع لدراسة الإعلام من ناحية الجمهور الإعلامي.

الواقع أن التقانيات الاتّصالية الجديدة أيضاً تتحرّك كعوامل خلق وتوسيع التفاوت، فمسألة عدم المساواة المعلوماتية[٦١٨] (information inequity) تكتسب أهمّية كبيرة لأن انتشار التلفزة الكابلية والفضائية والكومبيوتر ومختلف أنواع النصوص البصرية التلفزية، يؤدّي إلى تأثيرات اجتماعية خاصّة، من زاوية الانتشار غير المتساوي

(616) B. Gunter, " Poor Reception, Misunderstanding and Forgetting Broadcast News ", Ed. Erbaum, Hillsdale, 1987, p. 108.
(617) R. Porro, " Da un Modello di Consumo Tradizionale ad una Ipotesi di Fruizione Multimediale ", in M. Livolsi, Ed. F. Rositi, Roma, 1988, p.185.
(618) J. Salvaggio, " Setting the Parameters for Information Society Research, in Bryant, Ed. D. Zillmann, Erlbaum, Hillsdale, 1986, pp. 325-342.

اجتماعياً للمعرفة، ومن زاوية الأساليب والمستويات الجديدة لمحو الأمّية وللكفايات الاتّصالية. ففي تحليل حول روائز تقانيات الاتّصال الحديثة[619]، على كمّية المعلومات المتاحة لكل فرد، اتّضح أن الفائدة الأكبر تذهب إلى الأغنياء في المعرفة، الذين يتباعدون أكثر فأكثر عن فقراء المعرفة. ويمتلك أغنياء المعرفة أيضاً إمكانيات أكبر في إدارة الأدوات التقانية بنجاح، ما يتيح لهم الحماية من التعرّض لفائض معلوماتي مرهق ونافل، وهو ما يعدّ امتيازاً آخر لهم.

إن أغنياء المعرفة يتطلّبون معلومات اختصاصية تستطيع تقانيات الاتّصال الجديدة فقط أن تقدّمها[620]، وهذا الاتّجاه يعمّق الافتراق بين متلقّي الإعلام التقليدي (broadcasting) وبين متلقّي التقانيات الإعلامية الحديثة (narrowcasting)، ويمكن التقاط هذا التوجّه من خلال تآكل التلفزة العمومية لصالح قنوات متخصّصة وأشكال برامجية تستهدف قطاعات جمهور خاصّة.

ويبرز بعض الباحثين انكسار الاستمرارية بين طريقة عمل وسائل الإعلام القديمة ووسائل الاتّصال الحديثة، فالتأثيرات الاجتماعية للاتّصال الجماهيري تتحقّق من خلال متغيّر التعرّض للإعلام، في حين تتعلّق التأثيرات الاجتماعية للتقانيات المعلوماتية الجديدة بالتحوّلات التي تطرأ على المجتمع ككل.

موقع الإعلام الجماهيري

ثمّة اتّجاه للبحث يجدّد موضوع الإعلام كعامل تكيّف اجتماعي، يكمن في المقاربة التي تربط تحليل التأثيرات بسوسيولوجيا الاتّصال التبادلي[621]. فكنتيجة لوجود الإعلام الإلكتروني، يضعف ارتباط أشكال وديناميّة المعرفة الاجتماعية ببناء التجربة الملتصقة بحدود الفضاءات المحدودة اجتماعياً. وهكذا، يتغيّر التوافق بين البيئة ومسرح الاتّصال التبادلي والوصول إلى المعلومة الاجتماعية الملائمة للبيئة وللمسرح وللأدوار الاجتماعية المرتبطة بهما.

وأثبتت التجربة أن العديد من الفروق المتجذّرة والمستوعبة بين الأشخاص المنتمين إلى مجموعات اجتماعية مختلفة، في مراحل عديدة من التكيّف الاجتماعي

(619) N. Katzman, " The Impact of Communication Technology : Some Theoretical Premises and their Implications ", 1974, in Wolf, cit. p. 85.
(620) E. Rogers, " Communication Technology. New Media in Society, Ed. The Free Press. New York, 1986, p. 172.
(621) J. Meyrowitz, " No Sense of Place. The Impact of Electronic Media on Social Behavior ",Ed. Oxford University Press, New York, 1985, p.5.

وفي مستويات متباينة من السلطة، كانوا مدعومين من تقسيم الأشخاص إلى عوالم من التجارب مختلفة جذرياً[622].

ونسبة إلى هذا النوع من التقطيع الاجتماعي، فإن تأثير عميق للإعلام، وللتلفزة على وجه الخصوص، يكمن في الطريقة التي يستطيع فيها اختلاف نوعية الوصول إلى المعلومة المتعلّقة بالسلوك الاجتماعي، إعطاء شكل لكفايات الأشخاص بالمقارنة مع الأدوار الاجتماعية التقليدية. وحسب هذه المقاربة، لا تمرّ التأثيرات الطويلة الأجل والتراكمية، بشكل رئيس، من خلال استيعاب المضامين، وإنّما من خلال التبدّل الذي تحدثه التلفزة في " الجغرافية الوضعية " للحياة الاجتماعية.

بكلمات أخرى، يتأثّر، بصورة عميقة، نظام اللامساواة والفصل الذي ينضّح الحياة الاجتماعية، والحدود (الفضائية، المسرح، الحجم والوجه)، التي تقطّع الأشخاص والأدوار والسلوكيات وأنظمة المعرفة المقترنة بها. ومن خلال تبديل حدود الأوضاع الاجتماعية، لا يتيح الإعلام الإلكتروني فقط الوصول الأسرع والأكمل إلى أحداث وسلوكيات، بل يقدّم أيضاً أحداثاً جديدة وسلوكيات جديدة[623].

ويلاحظ ميروفيتس أن انصهار المعلومات يجعل التكامل الاجتماعي، ظاهرياً، أكثر قابلية للتحقّق ومرغوباً. وتتطلّب فروق الوضع الاجتماعي، عموماً، وصولاً متمايزاً إلى الأوضاع. فكلّما تقاسم عدد أكبر من الناس أنظمة معلوماتية متشابهة، كلّما ازدادت المطالبة بتجانس المعاملة الاجتماعية. غير أن انصهار أنظمة المعلومات لا يقود بالضرورة إلى التكامل والتناغم الاجتماعي. والحقيقة أن النتيجة البدنية للتكامل المعلوماتي هي ازدياد التوتّر الاجتماعي. ذلك أن التكامل المعلوماتي، بحدّ ذاته، يصعّد إدراك البعض بانفصاله الفيزيائي والاجتماعي والحقوقي عن الآخرين[624].

إن ما يطلق عليها " القرية الشاملة "، تولّد، في الحقيقة، صراعاً مستمراً مرتبطاً، بشكل جوهري، بالمنظورية القوية والجديدة التي يكتسبها النظام الاجتماعي بواسطة العلاقات الوثيقة والمستقرّة التي تنشأ وتستقرّ بين العناصر الأخرى لهذا النظام ونظام الإعلام الجماهيري.

(622) Ibid. p. 6.
(623) Ibid. p. 43.
(624) Ibid. p. 133.

أما العاقبة الأخرى لتجانسية الشبكات المعلوماتية، فهي نمو تجمّعات اجتماعية جديدة ومؤقّتة، أكثر سطحية. إنه زمن القبائل الذي يتميّز بتطوّر مجموعات مجهرية ذات تراكيب متغيّرة، تعيش حالات اجتماعية مائعة مصنوعة من تجمّعات نقطية ومتفرّقة[٦٢٥]، يصفها مينك بأنها تكوّم مزدحم لحياة واحدة ذات مسارات متعدّدة[٦٢٦].

ليس الجديد فقط تكوّن هويّات مجموعاتية مؤقّتة وغير مستقرّة وظرفيّة، وإنّما أيضاً تشكّل الرائز الاجتماعي الذي تتّخذه الظاهرة : فعلى المدى البعيد، يصبح اتّساع المجموعة التي أوجدتها المعلومات المشتركة بواسطة الإعلام، أكبر بكثير من أن يستطيع النهوض بالتجانس التقليدي للمجموعة. وتنمو المجموعات التحتية ويستمرّ وجودها على قاعدة تحتية مشتركة من التجارب المتقاسَمة، ولكن حدودها تصبح مشوّشة بسبب التقاسم الكثيف للمعلومات، عبر الإعلام الإلكتروني[٦٢٧].

إن طرح قضية تأثيرات الإعلام بهذا المفتاح، يفتح سلسلة من التساؤلات التي يبدو أنها قادرة على التقاط الارتباطات بين الفعل الاجتماعي والفعل اليومي والتراكمي للإعلام الجماهيري[٦٢٨].

ضمن هذا الإطار، حتّى دور التلفزة كعامل تكيّف اجتماعي يكتسب نبرة مختلفة: فالتلفزة تقطع صلة الأنواع المختلفة للمجموعات الاجتماعية، بالتدفّق التقليدي للمعلومات المتوافقة مع تلك المجموعات، وبذلك، تحطّم العلاقة بين الانتقال الاجتماعي من دور إلى آخر والانتقال المادّي من وضع إلى وضع. وهكذا، أخذت تتلاشى فكرة أمكنة خاصّة في مراحل خاصّة من الحياة[٦٢٩]. فعندما تصبح التقسيمات

(625) M. Maffesoli, " Le Temps des Tribus. Le Declin de L'Individualisme dans les Sociétés de Masse ", Ed. Hachette, Paris, 1988, p. 112.
(626) A. Minc, " La Machine Égalitaire ", Ed. Grasset, Paris, 1987, p. 78.
(627) Meyrowitz, No Sense of Place, op. cit. p. 135.
(٦٢٨) يقول إنياتيف: لقد أصبحت التلفزة الوسيط الرئيس بين عذابات وآلام الغرباء وبين ضمائر أولئك الذين يعيشون في المناطق القليلة الآمنة التي ما تزال موجودة في العالم.. وقد غدت هذه التلفزة، ليس فقط الوسيلة التي من خلالها يرى كلّ منّا الآخر، ولكن أيضاً الوسيلة التي من خلالها نتحمّل أقدار أخوتنا في الإنسانية.
- لمزيد من التفصيل، أنظر :
- M. Ignatieff, " L'Etica della Televisione ", Ed. Comunità, Milano, 1988, pp. 266-286.
(629) Meyrowitz, No Sense of Place, cit., p. 157.

في الأنظمة المعلوماتية الموجّهة لأناس ذوي أعمار مختلفة، غير واضحة الحدود والتحديد، يغدو التمايز بين سلوك الأطفال وسلوك البالغين، غير واضح المعالم وعاتم[٦٣٠].

وإذا كان تجوال المعارف يؤدّي إلى شحوب التمايز بين المراحل المختلفة للحياة الإنسانية ، من ناحية، فإن تقسيم المراحل الاجتماعية للدورة البيولوجية في عصر الإعلام الجماهيري، يصبح، نوعاً ما، أكثر تشعّباً وتمفصلاً وتمدّداً[٦٣١].

هذا يعني أن البناء الاجتماعي للطفولة آخذ بالتبدّل، ولكن ذلك لا يعني أن الإعلام يخلق وحده بنيات جديدة للدور الاجتماعي، بل يعني أنه يقطّع أوصال البنيات القائمة، ويقحم على النمو الفيزيولوجي والمعرفي، المرحلي والمتتابع والتدريجي، عوامل تتسبّب في انهيار المراحل المتمايزة بوضوح، اجتماعياً، بالنسبة للتعرّض للمعلومات المتعلّقة بالدور الاجتماعي، والتي يجب أن يجري تعلّمها بشكل تدرّجي[٦٣٢]. إن التلفزة تتجوّل اليوم مع الأطفال عبر العالم قبل أن يحصلوا على إذن والديهم باجتياز الشارع وحدهم[٦٣٣].

إن أهمّية تلك الاتّجاهات الجديدة في أبحاث الإعلام (بعضها بمفتاح معرفي وبعضها الآخر مرتبط بالسوسيولوجيا)، تكمن، ليس في حداثتها بالمقارنة مع المشهد الاعتيادي لدراسات الإعلام فحسب، وإنّما أيضاً لأنها تستجيب بكفاية لمتطلّب إيجاد خصائص جديدة، بمفتاح مزدوج، لمسألة الإعلام والتكيّف الاجتماعي: إذ يجب اكتشاف الإسهام الخاصّ الذي يقدّمه الإعلام للصيرورة العامّة لهذا التكيّف، من جهة. وعدم التغاضي عن الظواهر المعقّدة التي تنشأ عن الروابط القائمة بين التحرك التكاملي والصراعي للعوامل المتنوّعة للتكيّف الاجتماعي.

* * *

(630) Ibid., p. 236.
(631) Wolf, Gli Effetti sociali dei Media, cit. p. 114.
(632) Ibid.
(633) Meyrowitz, cit., p. 238.

الباب الرابع

من الآفاق السيكودينامية
إلى نظريات التبعية

الفصل الأوّل

النظريات السيكوديناميّة

مقدمة

تتيح نظريات التأثير في الإعلام الجماهيري، كما رأينا، تفسير كيف أن الأشخاص يستهلكون مضامين الإعلام بصورة اصطفائية، ويستوعبون معاني تلك المضامين ويكتسبون معارف عبر التعرّض لها، ويختزنون في ذاكراتهم ليستخدموا هذه المعارف المتراكمة والمتشعّبة، من أجل تنظيم أفعالهم وردود أفعالهم على البيئة الفيزيائية والاجتماعية المحيطة.

ثمّة صياغات نظرية ترمي إلى تفسير تأثيرات الإعلام الجماهيري الذي يستخدم، عمداً، آليات إقناعية محدّدة لدفع المتلقّي إلى اعتناق أفكار ومواقف واتّجاهات تحقّق أهداف هذا الإعلام على المدى القريب والبعيد.

لفكرة الإقناعية جذور قديمة في التاريخ الإنساني، فقبل عصر الاتّصال الجماهيري بزمن طويل، كان يشار إلى هذه الفكرة بكلمة فن الخطابة(rhetoric)، أي فن استخدام اللغة للتأثير على أحكام وسلوكيات الآخرين[٦٣٤]، في وقت كان الصوت فيه الأداة الاتّصالية الوحيدة المتاحة لإقناع الناس وتغيير آرائهم وأفعالهم.

وقد كان فن الخطابة يزداد شأناً وأهميّة بتطوّر المجتمعات وتعقّدها[٦٣٥]. ففي اليونان القديمة ومن بعدها في روما، كانت الإقناعية الخطابية تقانية مهمّة لكسب القضايا المعروضة أمام المحاكم ولتقديم مقترحات سياسية في مجالس الشيوخ أو لإقناع الناس في الساحات العامّة بقضية معيّنة[٦٣٦].

---

(634) DeFleur & Ball-Rokeach, cit., p. 291.

(٦٣٥) ورد في الفصول السابقة دور الخطابة وأهميّتها وبلاغتها عند العرب، منذ العصور الجاهلية وحتّى أيامنا هذه، إذ كرّس الإسلام الخطبة سنّة في أيام الجمعة والعيدين.

(636) DeFleur & Ball-Rokeach, cit., p. 291.

يستخدم الإعلام الجماهيري الفن الإقناعي عبر رسائله ليؤثّر في أفعال الناس وليثبّت أو يغيّر معتقداتهم وقيمهم ومواقفهم، ولا شك أنه يمكن التعرّف على فاعلية الإعلام في نشاطه الإقناعي، فقط عبر دراسة اتّجاهات الأشخاص وسلوكياتهم العلنية والظاهرة والقابلة للملاحظة، وليس تلك المستترة والداخلية التي تسجّل في المستوى السيكولوجي.

هناك، حسب دوفلور وروكيتش، سببان لوضع الإقناعية في إطار نظري صارم، أولهما أنه من الممكن تحليل وتقويم عدّة نظريات عبر المقارنة فيما بينها، والثاني أن الفعل هو العامل المهمّ في العالم البرغماتي للإعلان والدعاية السياسية، ولتسويق منتجات مالية[٦٣٧].

وقد وصف كارلينس وأبلسون كيفية ممارسة الإقناعية منذ عقود عديدة، على النحو التالي[٦٣٨]:

مورست الإقناعية كفن قروناً طويلة. أما العلم الجديد للإقناعية فهو نتاج القرن العشرين وما يزال في مراحله الطفولية.. وبناء على المعلومات المتاحة اليوم، يمكن الإجابة على سؤال: هل أوجد العلم مفاهيم للإقناعية قادرة على الإمساك بناصية السلوك الإنساني؟: بالقول إنه من المبكر جداً التأكّد من هذا الموضوع.. ومع ذلك، من المنطق الاعتقاد بأنه كلّما تحوّلت تقانيات الإقناع من فن إلى علم، ستزداد فعاليتها في الهيمنة على السلوك.

ويقول ميللر إن ثمّة جهل جماعي فيما يتعلّق بالإقناعية التي لا تزال الأبحاث في مجالها سكّة ميّتة للمعرفة[٦٣٩]. على أي حال، من المناسب طرح بعض النظريات حول الإقناعية، لأن أهميّتها تتصاعد في جميع وسائل الإعلام والاتّصال، ويجب الدخول في مقاربات ذات طبيعة استراتيجية، ترتقي بهذا الفن وتبحث عن مسالك جديدة لتناوله من خلال منظور علمي يحتضن جملة من المفاهيم الملائمة للسياقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعيشها المجتمعات الراهنة.

الاستراتيجية السيكودينامية

تتكاثف المقولات القاعدية للسيكولوجيا في معادلة (م - خ - ر)، التي تدخل بين المرسل والمتلقّي جملة من خصائص المتعضّي، تفسّر ردود الأفعال المتباينة على فئات معيّنة من المثيرات. وتمثّل هذه المعادلة تتابعية عامّة من الأحداث السيكولوجية التي يعتقد أن لها دوراً في تحديد مسارات السلوك[٦٤٠].

(637) Ibid. p. 293.
(638) M. Karlins & H. I. Abelson, " Persuasion : How Opinions and Attitudes Are Changed, in Ball-Rokeach &DeFleur, cit., p. 293.
(639) Miller, " Persuasion ", in DeFleur & Rokeach, cit., p. 294.
(640) Ibid.

وبما أن الاهتمام ينصبّ على الكائن الإنساني، يمكن إجمال العوامل التي تتدخّل بين المثير والاستجابة، كالآتي[٦٤١]:

١) جملة من الخصائص والصيرورات البيولوجية الإنسانية الوراثية.

٢) جملة أخرى من العوامل يعود جزء منها إلى عوامل بيولوجية، وجملة ثالثة من العوامل الناجمة عن التعلّم.

٣) جملة من العوامل المكتسبة والمتعلّمة تشكّل البنية المعرفية الفردية.

هذا كلّه يعني أن المعادلة (م - خ - ر)، هي بنية معقّدة من عناصر الشخصية، ذات الطابع البيولوجي والانفعالي والمعرفي، التي توجّه السلوك.

تصطفي استراتيجيات الإقناعية الخصائص ذات الطبيعة الانفعالية والمعرفية فحسب. ولكن، وعلى الرغم من أن الانفعالات تشكّل قاعدة الاستراتيجيات الإقناعية، يمكن الركون إلى عدد محدود من الأوضاع. فمن أجل وضع تصوّر لحملات الإقناعية، غالباً ما يتمّ اللجوء إلى أسلوب آخر يرمي إلى التلاعب بالعوامل المعرفية فحسب. وهي عوامل أكثرها مكتسب عبر صيرورة التكيّف الاجتماعي، وهي الهدف الأول لحملات الدعاية التي تحاول تحقيق تعلّم جديد لتغيير العوامل المعرفية حسب رغبات المرسل[٦٤٢].

أما البعد الثاني فهو أن العوامل المعرفية تمارس التأثير الأساس على السلوك الإنساني، إذ يعتقد العديد من الباحثين أن السلوك يتأثّر، جوهرياً، بالعوامل المعرفية.

بدهي أن ثمّة عوامل مختلفة تحدّد السلوك كالحاجات والمشاعر والمعتقدات والمصالح والحالة النفسية والخوف والقيم والآراء والاتّجاهات. وتقسّم هذه العوامل المحدّدة للسلوك إلى عوامل وراثية، كالحاجات الأساسية، وأخرى مكتسبة، وهي العوامل الأكثر إثارة للاهتمام.

ويسوق فيستينغر[٦٤٣] مثالاً معبراً حول شرط سيكولوجي داخلي مكتسب يؤثّر على السلوك، يتجلّى في التنافر المعرفي، حيث تعدّ الحاجة إلى تجربة عالم متناغم عاملاً دافعياً جوهرياً يحدّد سلوك الإنسان. فالكائن الإنساني الذي يشعر بوجود عدم تجانس في قناعاته واتّجاهاته وسلوكياته، يعاني انزعاجاً قوياً (التنافر المعرفي)، وهذا ما

(641) Ibid. p. 295.
(642) Ibid.
(643) L. Festinger, " A Theory of Cognitive Dissonance, Stanford, Calif, Stanford University Press, 1957, in Ball-Rokeach & DeFleur, cit., p. 296.

يدفعه إلى تغيّير سلوكه لإعادة شرط التناغم. في هذه الحالة، يشكّل التنافر، أي الحالة السيكولوجية الداخلية، عاملاً دافعياً.

وتعدّ الأسباب والدوافع مفاهيم مهمّة لفهم الإقناعية، فالحاجة مثلاً تعدّ ، بشكل جوهري، حالة من الحرمان الذي ينتج طاقة مثارة موجّهة نحو الحصول على ما يلبّي هذه الحاجة. وقد وضع علماء السيكولوجيا قائمة طويلة من الحاجات المكتسبة.

الحقيقة أن العامل السيكولوجي الذي تمّ التركيز عليه في مجال تحديد سلوكيات معقّدة، عبر الإقناعية، هو الاتّجاه الذي ترتبط به فئات عديدة من السلوك.

وتشدّد المقاربة السيكودينامية على التأثير القوي لعوامل وشروط وحالات وقوى داخلية تعتري الفرد أثناء عمليّة تحديد سلوكه. وتركّز استراتيجية الإقناعية على أن المشيّدات الداخلية النفسية هي نتاج التعلّم.

ويكمن جوهر الاستراتيجية السيكودينامية في أن رسالة فعّالة تتمتّع بقدرة على إحداث تبدّل في العمل السيكولوجي للأفراد، وأن فاعلية الإقناعية تتجسّد في التعلّم الجديد الذي يتحقّق انطلاقاً من المعلومة المقدّمة من المرسل، والتي تغيّر البنية السيكولوجية الداخلية للفرد (حاجات، خوف، اتّجاهات)، مؤدّية إلى ظهور السلوك الذي يبغيه مرسل المعلومة[٦٤٤].

مع الأخذ في الحسبان أن قائمة العوامل السيكولوجية التي تشكّل قاعدة لتحديد استراتيجيات إقناعية، لا حدود لها، يمكن تصوير الاستراتيجية السيكودينامية للإقناعية، في المعادلة الآتية[٦٤٥]:

رسالة إعلامية إقناعية ←، تنشيط أو تغيّير العامل المعرفي ←، العامل المعرفي المتبدّل يحدّد السلوك المعلن.

لقد حلّل بعض الباحثين[٦٤٦] استراتيجيات الحملات الإعلامية الرامية إلى تغيّير ملحوظ في سلوكيات ذات طابع اجتماعي، ووجدوا أن بعض الحملات كانت تحقّق أهدافها وبعضها الآخر يخفق، ولم يستطع أحد أن يعرف السبب بدقّة.

وقد اهتمّ بهذا الموضوع مؤخّراً جيرالد ميللر، حيث حلّل أبحاث الإقناعية التي تراكمت خلال عشرات السنين، سواء في مجال الاتّصال الجماهيري، سواء في

(644) Ibid.. p. 298.
(645) Ibid.
(646) E. Rogers & J. D. Storey, " Communication Campaigns. in DeFleur & Rokeach, p. 299.

سياقات أخرى، وانتهى إلى أن النتائج التي توصّل إليها الباحثون في هذا القطاع، محدودة، وحتّى إذا بقيت النظرية المعرفية تحظى بتأيّيد واسع، فإنه لا توجد براهين تثبت فعّاليتها في تحقيق تبدّل سلوكي عبر الإقناعية، وبخاصّة إذا أخذ في الحسبان المتغيّر المفتاح:

يقول ميللر[٦٤٧]:

يبدو منطقيا، من الناحية الحدسية، صنع مفاهيم للإقناعية كصيرورة يمكن للمثيرات الرمزية (أي الرسائل الإعلامية الإقناعية):أن تحرّك من خلالها الاستعدادات القيمية الداخلية (أي الاتّجاهات)، التي تخلق، في لحظة لاحقة، السلوكيات المعلنة المرغوبة (أي الاستجابة لأهداف الإقناعية).

على أية حال، فقد أصبحت نظرية استراتيجية الإقناعية، بمرور الزمن، جزءاً ممأسساً من الأبحاث الإعلامية والاتّصالية السائدة، ولكن هناك ضرورة لسوق مزيد من البراهين للتحقّق من فعّاليتها.

الاستراتيجية الاجتماعية- الثقافية

تقوم الأسس الجوهرية للسيكولوجيا على فكرة أن السيطرة على السلوك تتحقّق من داخل الإنسان. في حين أن العلوم الاجتماعية الأخرى تنطلق من فرضية أن جزءاً مهمّاً من السلوك الإنساني يتحقّق بفعل قوى تقع خارج الفرد. غير أن النظريات التي انطلقت من عوامل خارجية مارست دوراً ثانوياً في تطوّر الاستراتيجيات الإقناعية.

ليس من العسير إثبات المقدرة الفائقة للثقافة في الهيمنة على السلوك الإنساني[٦٤٨]،

(647) Miller, cit. p. 300.

(٦٤٨) إن روح التضحية بالحياة التي يشهدها عالم اليوم في جنوب لبنان وفلسطين، تعبّر أفضل تعبير عن مدى تأثير الثقافة على سلوكيات الفرد. فالإنسان الفلسطيني الذي شهد مختلف مراحل احتلال فلسطين وتشتّت بأرضه، والذي عاش عقوداً من القهر والتشرّد والاحتلال الاستيطاني والقمع والظلم، وأدرك عقم انتظار تحريره من قبل العالم العربي والمجتمع الدولي، غرس في عقول وقلوب الملايين من فلسطينيّي الداخل، جيلاً بعد جيل، ضرورة نبذ الخوف من المحتلّ واللجوء إلى المقاومة وتقديم تضحيات جسيمة، لتحرير الأرض وإقامة دولة فلسطينية سيّدة.
كذلك فعلت المنظّمات الإسلامية في جنوب لبنان، مكرّسة ثقافة التضحية بالحياة كقيمة عليا تقود الفرد إلى حياة أفضل، في الدنيا أو الآخرة. ويمكن القول، من خلال هاتين الحالتين، أن صيرورات التكيّف الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني هي التي أدّت، فيما بعد إلى ظهور؛ ـ

لذلك، فإن معادلة التعلّم ليست " تعلّمْ - اشعرْ - افعل " وإنّما هي " تعلّمْ - امتثلْ - أو ستعاقبْ ". وهذا يعني أن أوجه عديدة أخرى لسلوك الإنسان تسيطر عليها التوقّعات الاجتماعية الموجودة داخل المنظومات الاجتماعية التي يتفاعل فيها الفرد مع أفراد آخرين، وليس استعدادات الإنسان الداخلية المسبقة[٦٤٩].

إن هذه العوامل الخارجية هي التي تحدّد تصرّفات الإنسان، أي التوقّعات الاجتماعية ومطالب الآخرين، وليس فقط مشاعر الشخص الداخلية وأفضلياته واتّجاهاته.

لا ريب، إذن، أنه، سواء العوامل الاجتماعية سواء تلك الثقافية تقدّم توجّهات تحدّد السلوك الإنساني، أي أن العوامل الخارجية يمكن أن تكون قاعدة العمل الإقناعي.

إن وضع استراتيجية اجتماعية - ثقافية فعّالة للإقناعية، تتطلّب أن تحدّد الرسائل الإعلامية للفرد قواعد السلوك الاجتماعي والشروط الثقافية للتحرك، التي تحكم أفعالاً يحاول المرسل تنشيطها. وإذا كان هذا التحديد قائماً، يصبح الهدف إعادة صياغة تلك الشروط اللازمة للتحرك[٦٥٠].

وهكذا، تصبح معادلة نظرية الاستراتيجية الاجتماعية - الثقافية للإقناعية، على النحو التالي[٦٥١]:

رسالة إعلامية إقناعية

↓

تحديد أو إعادة تحديد الشروط الثقافية
أو القواعدية والمرتبطة بالأدوار والتراتبيات
وأحكام المجموعة

↓

تكوين أو تبديل محدّدات السلوك المرضي عنه
اجتماعياً في المجموعة

↓

تغيير اتّجاه السلوك المعلن

= الانتفاضة واستمراريتها وتجدّدها في كلّ مرحلة يشعر فيها الشعب الفلسطيني بالإحباط نتيجة إخفاق استراتيجية السلام في انتزاع الأرض وبناء الكيان المستقلّ، وهي التي أدّت أيضاً إلى انتصار المقاومة الإسلامية اللبنانية، على خلفية وجود استعداد قوي مسبق ليس لاحتضان فكرة الفداء فحسب، بل وممارستها على أرض الواقع.

(649) Ball-Rokeach & DeFleur, cit., p. 302.
(650) Ibid.
(651) Ibid. p. 304.

إذن، المفتاح هو أن تعطي الرسالة الإعلامية انطباعاً بوجود قبول عام في أوساط الرأي، أي يجب أن تظهر بأن التحديدات التي قدّمتها مدعومة من المجموعة، وبأن عدم الالتزام بها يشكّل سلوكاً غير مقبول.

وغالباً ما تعتمد الاستراتيجية الاجتماعية - الثقافية على التزامن والتوافق مع الضغوط الشخصية من أجل الامتثال، عبر مزج الرسائل الإعلامية باتّصالات وتفاعلات شخصية مباشرة.

الواقع أن الهدف المركزي للحملات الإقناعية هو إيجاد أنظمة أدوار مرتبطة بالمبادرة الصحّية داخل المجموعة، فهذه الأدوار (جار طيّب، مواطن جيّد، أب عطوف، مدرّس ممتاز إلخ..)، تشكّل، بصورة مصغّرة، جزءاً لا يتجزّأ من نظام السيطرة الاجتماعية المتبادلة.

ويستخدم الإعلان التلفزي نظرية الاستراتيجية الاجتماعية - الثقافية للإقناعية، حيث تكثر في الأفلام الإعلانية مشاهد ولقطات لأناس سعداء ومبتسمين، يؤدّون تمثّلات صغيرة لمنتجات وسلع شتّى. وتحدّد هذه الإعلانات قواعد ترضى أو لا ترضى عنها المجموعة، وسلوكيات أدوار مقبولة وطرائق للحصول أو للاحتفاظ بحالة اجتماعية مرموقة، وتظهر الأفلام الإعلانية أية تأثيرات للهيمنة الاجتماعية يمكن أن تؤذي من ينحرف عن النظام.

استراتيجية بناء المعنى

تتعلّق المقاربة الثالثة للإقناعية بعمليّات التلاعب بالمعاني، وهي تقانية موغلة في القدم عبر التاريخ الإنساني. فخلال قرون طويلة من الوجود البشري، تكوّنت المعرفة - أي معاني العالم الواقعي الموضوعي - بواسطة صيرورات تكيّف اجتماعي، يستند، بشكل مطلق، على التواصل الشفهي.

كانت مقولة أن المعرفة تحدّد الفعل، تجسّد المسلّمة الكبرى لما يطلق عليه اليوم علم السلوك، وهي تعود إلى عصور قديمة، ربّما سابقة على نشوء الفلسفة. ففي زمن أفلاطون وأرسطو، كانت العلاقة بين المعاني الذاتية والسلوك تعدّ حجر الزاوية، وكان تحليل الطبيعة الإنسانية يعترف بها. وقد ظلّ الارتباط بين المعرفة والسلوك في مركز دراسة التصرّف الإنساني، خلال حقبة المدرسيّين (السكولاستيك)، والنهضة الأوروبية، حتّى العصور الحديثة[٦٥٢].

(652) Ibid., p. 310.

واكتشف الأنتروبولوجيون أن المعاني مرتبطة باللغة وأن كلّ لغة تمثّل نظاماً فريداً ووحيداً للفهم وللفعل في العالم الخارجي. واكتشف السوسيولوجيون أن المفاهيم الداخلية للإنسان، في معرفة المنظومة الاجتماعية، تقدّم محدّدات للحالة، وأنه إذا اعتقد المرء أن حالة ما هي حقيقيّة، فإنه يتحرك على أساسها وكأنها حقيقيّة. واكتشف السيكولوجيون أيضاً المبدأ القديم القائل بأن الفعل تحدّده المعرفة، وحوّلوا هذا المبدأ إلى مفاهيم تتعلّق بمعاني الواقع، على شكل ترسيمات[٦٥٣].

وقد ضمّن باحثو الاتّصال الجماهيري هذا المبدأ القديم في صياغاتهم، ليفسّروا كيف يمارس مضمون الاتّصال الجماهيري تأثيراته على سلوك الجمهور.

الواقع أن الإعلام يغرس قناعات الإنسان حول العالم الواقعي ويؤثّر في سلوكياته، من خلال تحديد وتضخيم وتبديل وتكريس معانٍ حول العالم موجودة في اللغة، وتؤثّر هذه التغيّرات في المعاني، على الأجوبة التي يعطيها هذا المرء للأشياء وللمشكلات المعنونة بصورة معيّنة.

إن سلوك قطاعات الجمهور الإعلامي المختلفة يمكن أن يتأثّر دون أن تكون هناك نيّة مسبقة. وهذا يعني أن أولئك الذين يجمعون ويكتبون ويوزّعون الأخبار، لا يفعلون ذلك وفي أذهانهم مخطّط لخلق تمثّلات عقلية أو لتنظيم أجندة المتلقّي الشخصية.

إلاّ أن ثمّة عناصر تدعم اعتبار استراتيجية بناء المعنى، وسيلة للتأثير، عمداً، على السلوك. ويفترض أن تكون المعلومات التي تعمّمها وسائل الإعلام، وسيلة قادرة، كغيرها، على إحداث تبديل في المعاني التي ينسب الناس إليها أشياء ومنتجات وأسباب وموضوعات معيّنة[٦٥٤].

وتعدّ مسألة أن المعرفة تؤثّر على السلوك، فكرة بسيطة بحدّ ذاتها. ولكن الأمر غير البسيط هو إيجاد فرضيات مفصّلة حول الاستعدادات والصيرورات الداخلية للإنسان، كتغيّير الاتّجاه والتنافر المعرفي والجوانب الاجتماعية أو الثقافية المعقّدة.

لعلّ هذه الاستراتيجية تتلخّص في مقولة " تعلّمْ - افعلْ "، المتضاربة مع المقاربات الأخرى (اشعرْ - افعلْ) أو (تعلّمْ - امتثلْ).

ويتساءل روكيتش ودوفلور فيما إذا كانت مقولة - تعلّمْ / افعلْ - فعّالة، ويقولان إن اختصاصيّي العلوم الاجتماعية ما زالوا يقدّمون، حتّى الآن، إجابات قليلة، وأنه على الرغم من الجذور القديمة لهذه المقولة، فإن الأبحاث حول استراتيجيات الإقناعية قليلة.

(653) Ibid.
(654) Ibid., p. 311.

من الواضح أن الاستراتيجية السيكودينامية للإقناعيّة تقع في بؤرة اهتمام العمل الإعلاني والمعلوماتي والحملات الاجتماعية والسياسية وأشكال أخرى من الإقناعية، غير أنها تثير تساؤلات جدّية حول طبيعة النتائج التي تحقّقها. أما الاستراتيجية الاجتماعية - الثقافية، فهي تتمتّع بمساندة واسعة في الأوساط العلمية، إذ تعدّ قادرة على تنشيط الأبحاث الإعلامية، وعلى رفع أداء النشاط الإعلاني وأشكال أخرى من الإقناعية الإعلامية. وقد أثبتت التجارب أن تلك الاستراتيجية يمكن أن تكون شديدة الفعّالية، إذا رافقت الإقناعية الشخصية المباشرة معلومات إعلامية[٦٥٥].

نظريات التبعية لنظام الإعلام الجماهيري

تمهيد

لا شك أن كثرة نظريات التأثير في الإعلام الجماهيري على مدى القرن العشرين، نجمت عن الدور الحيوي الذي تمارسه وسائل الإعلام والاتّصال في مجتمعات متغيّرة شهدت تناقضات وصراعات من كل نوع، داخلية وخارجية، ناجمة عن اختلاف الأنظمة الفكرية والجيوسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية، وتعارض المصالح الاستراتيجية والحيوية بين الدول. غير أن هذه المجتمعات عرفت، أيضاً، وبدرجات متفاوتة، بل شديدة التفاوت، مراحل تطوّر عديدة، تميّزت بتقدّم تدرّجي حيناً، وبطفرات وقفزات نوعية حيناً، نقلت العالم بأسره إلى آفاق متجدّدة في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

ولعلّ من أهم الطفرات التي أنجزها العقل الإنساني تتجسّد في الثورات العلمية والثورات الاتّصالية والإعلامية التي غيّرت ملامح المجتمعات المتطوّرة والنامية، محقّقة انتصارات حاسمة على عقبات الزمان والمكان، ومؤدّية، في الوقت نفسه، إلى تفاقم مشكلات قديمة ونشوء إشكاليات جديدة تتمثّل في وقائع العولمة الجارية والتي يؤدّي الاتّصال فيها أدواراً لا غنى عنها.

لذلك، اهتمّ الباحثون في مجالات العلوم الإنسانية كافّة، بابتكار طرائق وأساليب ومناهج للتعرّف على تأثيرات الإعلام والاتّصال الجماهيري، وصاغوا نظريات يستند معظمها إلى دراسات إمبيريقية في مجتمعات عديدة ومتنوّعة، ما أدّى إلى ظهور

(655) Ibid., p. 314.

وانتشار حصيلة نظرية غنية في كلّ مرحلة من مراحل التطوّر الإعلامي في سياق التطوّر الاجتماعي العام، وأدّى أيضاً إلى تزامن وتداخل وتقابل العديد من هذه النظريات التي تنافست وتكاملت عبر نقاشات وحوارات وجدل في مختلف الفروع العلمية، مخلّفة تراثاً علمياً مهمّاً لجميع الباحثين الإعلاميّين في العالم.

ولكن، وعلى الرغم من أن معظم المقاربات النظرية والميدانية، قدّمت تفسيرات قيّمة للعديد من أنواع التأثير، فإنها لم تتوصّل إلى تحاليل كاملة تشمل جميع أشكال هذا التأثير في مجال الاتّصال والإعلام الجماهيري. فكلّ أفق جديد يفتح حقولاً جديدة من الدراسات، لافتاً إلى فئات جديدة من المتغيّرات المستقلّة والتابعة.

تعدّ نظريات التبعية للإعلام الجماهيري من المقاربات المهمّة والمعقّدة، لأنها تحاول ربط عناصر من النظريات التي تم عرضها، في هيكليّة واحدة تغطّي جوانب رحبة من آليات التأثير.

قد رأينا أن النظريات التي تؤيّد وجود تأثيرات قويّة للإعلام، تستند إلى ثلاث صياغات نظرية عامّة:

البنيوية ـ الوظيفية ونظرية الصراع ونظرية التطوّر الاجتماعي التدرّجي. ويستخدم السوسيولوجيون هذه النظريات كأطر مفهومية للتحاليل المجتمعاتية الكلّية، أي لدراسة النظم الاجتماعية ذات الأبعاد الكبيرة. وقد جرى استخدام تلك النظريات لتقديم المحاولات الأولى الرامية إلى تطوير التفسيرات النظرية لتأثيرات الإعلام، من خلال تحاليل مجتمعية لطبيعة وأصول المجتمع الجماهيري، ترتكز إلى مفاهيم مختلفة للبنيات الاجتماعية ولصيرورات التغيير الاجتماعي– الثقافي التي تقدّم التجسيد الكبير للشروط الاجتماعية التي كان يعتقد أن الإعلام الجماهيري يمارس داخلها سلطة مطلقة[٦٥٦].

واستمد الباحثون أولى نظرياتهم من منطق دوركهايم، حيث صاغوا مفاهيم حول أن التمازج بين التعقيد الاجتماعي والقبول المحدود وغياب القواعد والضوابط والتشويش الشخصي والاغتراب السيكولوجي والعزلة، كل هذه العوامل جعلت الإعلام الجماهيري وسائل تأثير قويّة. وكان يعتقد أنه ضمن هذه الشروط للجموع المنعزلة، يمكن للأشخاص أن يتأثّروا ببساطة وسهولة بوسائل الإعلام المختلفة[٦٥٧].

وهناك مستوى محدود من التحاليل (ميكرو) اهتمّ بعناصر شديدة الخصوصيّة تتطابق في العلوم الاجتماعية مع البعد الفردي. ففي حين ركّز السوسيولوجيون على

(656) DeFleur &Rokeach, cit. p. 32.
(657) Ibid.

مجموعات اجتماعية ومجتمعات كاملة، تموضعت النظريات السيكولوجية للإعلام في مستويات مجهرية وسلّطت الضوء على المتغيّرات والصيرورات الخاصّة التي تمارس تأثيراتها على الأفراد، وتغاضت عن التجسيد الكبير للمجتمع وتجاهلت مسألة أن الطريقة التي تتحرك فيها القوى الاجتماعية، على المدى الطويل وعلى نطاق واسع، تستطيع أن تفعل فعلها في احتمالات أن يتأثّر الأفراد بالإعلام الجماهيري.

غير أن نظريات التأثير الإعلامي المتمخّضة عن السيكولوجية الاجتماعية، استقت جوانب معيّنة من عناصر العلاقات الاجتماعية التي تؤثّر على الأفراد، واستندت إلى نظريات التأثير الاصطفائي والتأثير غير المباشر والاستراتيجيات الإقناعية في عمليات بناء المعنى التي يصنعها الإعلام، ما جعلها تميل إلى مزج عناصر الصيغ المعرفية مع بعض أوجه الصيغة البنيوية ـ الوظيفية[٦٥٨]. وبذلك، تتشابك في نظريات تأثير الإعلام السيكولوجية آليات التعرّض والاستيعاب والتخزين الاصطفائية، وتركّز البنيوية - الوظيفية على الانضباط والاستقرار.

وتضع النظريات السيكولوجية فرضية أن الأفراد يعيشون في محيط علاقات شخصية مستقرّة، وليس في بيئات اجتماعية غير مستقرّة كما المجتمع الجماهيري. وخلافاً للمجتمع المتشظّي، ترى تلك النظريات أن هناك شبكات من العلاقات الشخصية وروابط المجموعة، تعطي الأفراد قواعد وأنظمة ثابتة وقناعات تحجبهم عن التأثيرات الاعتباطية للإعلام[٦٥٩]. بالإضافة إلى ذلك، يتم فحص اتّجاهات خاصّة وأشكال سلوكية، في محاولة لإثبات أن تلك الاتّجاهات والسلوكيات ناجمة عن تأثير الصلات الشخصية وليس عن تأثير الإعلام. أيضاً نموذج الاستراتيجية الاجتماعية ـ الثقافية يستند إلى شكل من التفكير المشابه[٦٦٠].

لقد أصبحت نظريات بناء المعنى، المرتبطة عضوياً بصيغة الاتّصال التبادلي الرمزي، نماذج مركزية في دراسات تأثيرات الإعلام الجماهيري، وهي تنسب إلى الإعلام الجماهيري قوّة تأثيرية ونفوذاً وسلطة، أكثر بكثير من النظريات الاصطفائية، وإن كانت تعتبر أن هذه القوّة التأثيرية غير مباشرة وطويلة الأجل[٦٦١].

انطلاقاً من هذه المفاهيم في نظريات بناء المعنى، يبرز بعض المنظّرين الناقدين مسألة أن استخدام الإعلام لتحديد المعاني التي يتقاسمها الأفراد، يعدّ استراتيجية شديدة الفاعلية للحصول وللاحتفاظ بالسيطرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[٦٦٢].

(658) Ibid. p. 321.
(659) Ibid.
(660) Ibid.
(661) Ibid.
(662) Ibid.

الواقع أن الإمساك بناصية الوسائل الاقتصادية والإنتاجية للإعلام، يستوجب أيضاً السيطرة على وسائل الإنتاج الفكري، لكي يتمكّن الإعلام من أن ينقش في عقول الناس معاني تدعم الحفاظ على استمرارية ممارسة السلطة المهيمنة على وسائل الاتّصال الجماهيري. على أية حال، تبقى السيطرة على وسائل الإعلام مهمّة، إلى جانب الهيمنة على المعلومات في التعليم والحياة الأسرية والدين والسياسة بشكل خاص.

إن نظريات الاتّصال الجماهيري المعاصرة تهتمّ، بصورة رئيسة، بالمستوى المجهري (الميكرو) ولا تكترث بالتبعيّة في المستوى المجتمعي (الماكرو)(٦٦٣)، وهي نظريات فعّالة ولكنها تهمل تحليل الكيفيات التي ترتبط من خلالها العناصر المتنوّعة للبنية الاجتماعية الكلّية بحضور نظام إعلامي ممأسس بعمق داخل المجتمع.

مَفْهَمة علاقات التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري

إن أحد الأهداف الرئيسة لنظريات التبعيّة تجاه النظام الإعلامي، يكمن في تفسير أسباب وجود تأثيرات قويّة ومباشرة لوسائل الإعلام حيناً، وأسباب وجود تأثيرات

(٦٦٣) يشكو الباحثان الأمريكيان روكيتش ودوفلور من غزارة الدراسات في مستويات وقطاعات مجهرية في المجتمع، ومن ندرة الأبحاث التي تتناول النظام الإعلامي برمّته في علاقاته وتفاعلاته وتبادله التأثير مع المؤسّسات الاجتماعية الأخرى، داخل نطاق المجتمع الكلّي. والواقع أن معظم الدراسات الإعلامية الأمريكية، بصورة عامة، تنصبّ على تحليل وضع قطاعات صغيرة جداً في المجتمع الأمريكي مع تأثيرات وسائل الإعلام ولا تهتمّ بربط هذا القطاع بقطاعات أخرى وظواهر أخرى، قد تمارس تأثيرات حاسمة على اتّجاهات ومعتقدات وسلوكيات ذلك القطاع. وما تزال الأبحاث الإعلامية الأمريكية تعاني حتّى اليوم من تبعثر التحاليل على مستويات ميكروية، في غياب سياقاتٍ اجتماعية قادرة على تأطير تلك التحاليل لاستخراج مفاهيم عامّة من شأنها أن تجعل الرؤية أكثر وضوحاً وأن تجعل الحلول أكثر فعّالية. وممّا لا ريب فيه أن مختلف الدراسات الأوروبية استطاعت أن تتجاوز عقبات المكروية وأن تدخل تحليلها في موضوع تأثيرات الإعلام ضمن إطار السياقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقيمية للمجتمع الكلّي، غير أنها لم تهمل، في الوقت نفسه، البحث في مجموعات الانتماء وفي القطاعات الاجتماعية الصغَرية، وذلك لكي تنطلق من المجهري إلى الكلّي، ولكي تصوغ مفاهيم عامّة يمكن أن تشكّل مرجعيات علمية قيّمة للباحثين في مجال الاتّصال الجماهيري في المجتمعات المتقدّمة والنامية، داخل نطاق الخصوصيات المجتمعية ومستويات التطوّر والتقدّم.
غير أن ذلك كلّه لا ينفي أن علماء إعلاميا أمريكيّين مهمّين على الصعيد العالمي، استطاعوا أن ينتقلوا في أبحاثهم من المستويات الصغَرية إلى المستويات المتوسّطة في المجتمع، وأن يقدّموا بعض أهم المفاهيم النظرية في حقل العلوم الإعلامية والاتّصالية.

ضعيفة وغير مباشرة حيناً. وتلتقط هذه النظرية الموضوعات المركزية للنماذج الخمسة العامة التي جرى عرضها آنفاً، وهي:

اهتمام البنيوية- الوظيفية بالاستقرار الاجتماعي، والتركيز على التغيّير في نموذج النظريات الصراعية، والتشديد على السيرورة الاجتماعية في نموذج التطوّر التدرّجي، وتسليط الضوء على بناء المعنى في أفق التواصل التبادلي الرمزي، وعلى العوامل الفردية (الدوافع والقيم والاتّجاهات والسلوك) المستقاة من النموذج المعرفي.

تعدّ نظرية التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري، نظرية بيئية صحيّة، لأنها تركّز على العلاقات بين أنظمة مصغّرة ومتوسّطة وكبيرة مع مختلف عناصرها.

وتنظر هذه النظرية البيئية الصحيّة إلى المجتمع كبنية عضوية، وتحلّل الطريقة التي ترتبط فيها عناصر المنظومات الاجتماعية الصغرية (الميكروية) والكبَرية (الماكروية) فيما بينها، محاولة تفسير سلوك الأطراف المعنيّة، بالاستناد إلى هذه العلاقات.

وتنطلق نظرية من هذا النوع من مسلّمة أن النظام الإعلامي يمثّل جزءاً مهماً من نسيج المجتمعات العصرية، ويوطّد علاقات مع الأفراد والمجموعات والتنظيمات والمنظومات الاجتماعية الأخرى. ومن المحتمل أن تكون هذه العلاقات صراعية أو تعاونية وديناميكية ومتغيّرة، أو منظّمة وسكونية، ويمكن أن تتموضع على درجات متفاوتة من الشدّة والكثافة، إذ قد تكون قويّة ومباشرة، وقد تصبح ضعيفة وغير مباشرة. ولكنها، مع ذلك تبقى دائماً علاقات، وهذا ما ينهض بالتفسيرات جميعاً.

إن العلاقة المفتاح التي يرتكز إليها منطق هذه المقاربة، هي التبعيّة، ويمكن أن تقام علاقات التبعيّة مع النظام الإعلامي بمجمله أو مع أجزاء منه، كالصناعة التلفزية والإذاعية والصحف والمجلاّت والدوريات.

وتتضمّن علاقات التبعيّة أهدافاً من جهة، وموارد من جهة أخرى، فالعيش في مجتمع ما يتطلّب أيضاً أن يلجأ الأفراد والمجموعات والتنظيمات الكبرى إلى مصادر خاضعة لأفراد آخرين ومجموعات ومنظومات أخرى. وحسب هذه النظرية، فإن النظام الإعلامي هو نظام معلومات(٦٦٤) يسيطر على ثلاثة أنواع من المصادر المعلوميّة التي تولّد تبعيّة لما يجب أن يصل إليه الآخرون ليتمكّنوا من تحقيق أهدافهم:

(٦٦٤) المقصود بالمعلومات جميع الأنواع الإعلامية الخبرية والتعليقية والتحليلية والتحقيقيّة، ومختلف أشكال الدراما والأفلام والبرامج والخدمات.

المصدر الأول هو جمع وصناعة المعلومات، والمصدر الثاني هو معالجة هذه المعلومات، أي تحويل المعلومات المصنوعة أو التي تمّ جمعها، أما المصدر الثالث الذي يهيمن عليه الإعلام، فهو توزيع المعلومات، أي القدرة على نشر وتعميم معلومات على جمهور عريض.

وتحدّد علاقة التبعيّة التي تربط بين المصادر والأهداف، درجة سلطة الإعلام في حالة معيّنة، وهو المتغيّر المفتاح في تحديد ما إذا كان الأمر يتعلّق بوحدات اجتماعية كبيرة (ماكرو) أو صغيرة (ميكرو).

غير أن علاقة التبعيّة هذه ليست ذات اتّجاه وحيد، فدرجة المعادلة لا تتعلّق فقط بتبعيّة الآخرين لمصادر الإعلام للوصول إلى أهدافهم، وإنّما أيضاً بتبعيّة النظام الإعلامي لمصادر يهيمن عليها آخرون. فللإعلام أيضاً أهداف يحتاج، لكي يحقّقها، إلى الوصول إلى مصادر تقع خارج نطاق سيطرته. ولذلك، فإن الإعلام يعدّ جملة من العلاقات بين مختلف أجزائه.

ومن أجل توضيح الطبيعة المزدوجة لعلاقات التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري، يمكن تحديد العلاقة بين النظام الإعلامي وأي نظام اجتماعي(سياسي أو اقتصادي أو ثقافي إلخ..)، كعلاقة تبعيّة بنيوية لأنها تتّصل بنماذج ترددية من التبعيّة المتبادلة بين موضوعات شتّى للتحليل على مستوى ماكرو، أي على مستوى المنظومات الاجتماعية.

ولكي يصل النظام الإعلامي إلى أهدافه، لا بد من حصوله على بعض المصادر التي يسيطر عليها النظام السياسي. فالهدف الذي يتمتّع بأولوية في النظام الإعلامي للمجتمعات الليبرالية، هو الربح، والهدف الآخر المهمّ هو شرعية استعداد جهات أخرى لضمان حريّات حقوقية للإعلام، كحريّة الصحافة وحق القيام بأدوار اجتماعية معيّنة وحق الرقابة والتحرّي. وهناك هدف ثالث يتمثّل في الاستقرار الاقتصادي للنظام الإعلامي.

• علاقات التبعيّة بين الأفراد والأنظمة الإعلامية

يطوّر الأفراد علاقات تبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري[٦٦٥] لتحقيق أهداف يتطلّب

(٦٦٥) تمّ تناول نظريات بناء المعنى ونظريات التبعيّة من المراجع التالية:
- Ball-Rokeach & DeFleur , " Theories of Mass Communication ", op. cit.
- DeFleur & Ball-Rokeach, "A Dependency Model of Mass Media Effects ", Communication Research, n° 3, New York, 1976, in DeFleur, Theories.., cit. =

بعضها الوصول إلى مصادر يسيطر عليها هذا الإعلام، وانطلاقاً من أن البقاء والنمو هما دافعان إنسانيان أساسيان، فإن الأفراد يسعون لتحقيق ثلاثة أهداف : الفهم والتوجيه والترفيه.

من البدهي أن للإنسان أسباباً خاصّة تدفعه نحو فهم ذاته ومحيطه الاجتماعي، وهو يستخدم المعارف المكتسبة لتوجيه أفعاله وللتفاعل مع الآخرين، ويعدّ الترفيه هدفاً أساسياً للأفراد، وهو لا يقتصر على لحظات من الترويح عن النفس أو الاسترخاء، بل يجسّد أسلوباً يصبح الأفراد من خلاله اجتماعيّين، ويتعلّمون الأدوار والأنظمة والقواعد والقيم، بالإضافة إلى أن الترفيه يدخل الإنسان في تجارب مع نفسه ومع ثقافته.

ويمكن تنميط علاقات تبعيّة الأفراد للنظام الإعلامي على الشكل التالي:

تتطوّر التبعيّة في موضوع الفهم الاجتماعي عندما يستخدم الأفراد المصادر المعلوماتية للإعلام لفهم وتفسير أشخاص وثقافات وأحداث من الماضي والحاضر والمستقبل. وهناك الحاجة إلى فهم الذات، وهي تتّصل بالعلاقات مع الإعلام الذي يوسّع أو يحافظ على قدرات الفرد في تفسير قناعاته وسلوكه واستيعابه لذاته وشخصيّته.

- S. J. Ball-Rokeach & M. Rokeach & J. W. Grube, " The Grat American Values Test : Influencing Behavior and Belief Through Television ", Ed. Free Press, New York, 1984.
- S. J. Rokeach, " The Origins of Individual Media System Dependency : Sociological Framework, in Communication Research, n° 12, New York, 1985.
- " Audience and Social Structure ", in S. J. Ball-Rokeach & M. G. Cantor, Beverly Hills, Calif, Sage, 1986.
- G. Richeri, " La TV che Conta ", Ed. Baskerville, Bologna, 1993.
- G. Losito, " Il Potere dei Media ", Ed. NIS, Roma, 1994.
- M. Morcellini, " Passaggio al Futuro. La Socializzazione nell'Età dei Mass Media, Ed. Angeli, Milano, 1992.
- R. N. Bostrom, " La Persuasione ", Ed. Nuova ERI, Torino, 1990.
- J. N. Kapferer, " Le Vie della Persuasione. L'Influenza dei Media e della Pubblicità sul Comportamento ", Ed. ERI, Torino, 1982.
- D. Lyon, " La Società dell'Informazione ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1991.
- J. Mc Leod & J. Blumer, " The Macrosocial Level of Communication Science ", Ed. Berger & Chaffee, Handbook of Communication, Sage, Newbury Park, 1987.
- J. Lull, " World Families Watch Television ", Ed. Sage, London, Newbury Park, 1988.
- O. De Leonardis, " Il Terzo Escluso. Le Istituzioni come Vincoli e come Risorse ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1990.
- Y. Winkin, " La Nouvelle Communication ", Ed. Seuil, Paris, 1981.
- G. O'Keefe & K. Reid-Nash, " Socialising Functions ", Ed. Berger & Chaffee, Hanbook of Communication Science, Sage, Newbury Park, 1987.

إن مسائل المعنى والمعرفة أساسية لفهم سواء التبعيّات المعرفية حيث موضوع البحث يقع خارج الفرد، سواء التبعيّات حيث موضوع البحث يقع داخل الفرد أي فهم الذات.

وفيما يرتبط بتبعية التوجيه تعدّ المسائل المتعلّقة بالسلوك، مركزية. فالتوجيه نحو الفعل ، يتعلّق بأشكال لا حصر لها من الطرائق التي يقيم الأفراد من خلالها علاقات تبعيّة مع الإعلام للحصول على إرشادات خاصة بالسلوك.

وتتضمّن التبعيّة في التوجيه نحو الاتّصال التبادلي، أن يكون موضوع الفعل شخصاً أو اكثر. ويظهر الأفراد تبعيّة في التوجيه في مجال الاتّصال التبادلي عندما يستقون من الإعلام معلومات مرتبطة بالسلوكيات الملائمة أو الفعّالة في مجال علاقاتهم الشخصية أو مع من يشغل مناصب اجتماعية أو مهنية. وعندما يتوجّه الأفراد للإعلام ليتعلّموا طرائق التعامل مع الأشخاص الموجودين خارج دائرة مجموعاتهم، فإنهم يمارسون شكلاً آخر من أشكال التبعيّة للإعلام.

من المؤكّد أن الإعلام الجماهيري يسيطر على معلومات ثمينة في المجتمعات العصرية، ولكن يجب ألاّ يبالغ بأهمّية وسائل الإعلام، فهي تيسّر الوصول إلى أهداف الفهم والتوجّه والترفيه، غير أنها ليست الوسائل الوحيدة لتحقيق هذه الأهداف، إذ أن الأفراد مرتبطون بشبكات علاقات شخصية عائلية وتعليمية وسياسية ودينية تساعدهم في بلوغ أهدافهم. ولهذا، لا تتّفق نظرية التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري مع مفاهيم نظرية المجتمع الجماهيري التي ترى أن للإعلام سلطة لأن الأفراد معزولون ومفتقرون إلى روابط مجموعاتية، بل تجد أن سلطة الإعلام تكمن في السيطرة على تلك المصادر المعلوميّة التي يحتاج إليها الأفراد لتحقيق أهدافهم الشخصية. بالإضافة إلى ذلك، من البدهي أنه كلّما ازدادت المجتمعات تعقيداً، كلّما اتّسعت الأهداف الشخصية التي تستوجب الوصول إلى مصادر المعلومات التي يوفّرها الإعلام الجماهيري.

على جانب آخر، لا يجوز التفكير بأن جميع الوسائل الإعلامية تنتج نوعاً واحداً

من علاقات التبعيّة، غير أن روكيتش وبول - روكيتش وغروب اكتشفوا أن للتلفزة صلة بجميع أنواع التبعيّة، من الفهم الاجتماعي وفهم الذات إلى الترفيه.

من الممكن أيضاً تنميط العلاقات التي تقيمها قطاعات الجمهور مع منتجات إعلامية محدّدة، ذلك أن الأفراد ينظّمون مزيجاً شخصياً من منتجات وسائل الإعلام المختلفة، وهم يتباينون، ليس فقط في طرائق إعداد هذا المزيج، وإنّما أيضاً في طبيعة علاقات التبعيّة التي يقيمونها مع كلّ وسيلة إعلامية على حدة. وهكذا، فإن الأفراد يبنون أنظمة إعلامية متفاوتة لأن لديهم أهدافاً ومصالح مختلفة، ولكن، في الوقت نفسه. فإن الخصائص التنظيمية والمضمونية والتقانية لوسائل الإعلام المختلفة، تحدّ من خيارات الأفراد، كما أنه، من ناحية أخرى، وحتّى إذا كان للأفراد أهداف شخصية متباينة، فإنهم يميلون إلى تقاسم تلك الأهداف، وهذا ما يسهم في جعل أنظمة الإعلام المعدّة من قبل الناس، متشابهة.

الصياغات العامة ونظريات التبعيّة تجاه الإعلام

توفّر بعض طرائق الصيغة المعرفية والاتّصال التبادلي الرمزي والنظرية الصراعية والبنيوية الوظيفية، افاقاً مفيدة لتفسير نماذج التبعيّة بين الأفراد والإعلام والمجتمع.

- نظرية المعرفة وطرائق التبعيّة

إن إسهام علاقات التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري في تفسير تأثيرات التعرّض للرسائل الإعلامية، على الآراء وعلى السلوك الفردي، يشكّل أولوية بالنسبة للمقاربة المعرفية، من أجل تفسير تأثيرات الإعلام على مختلف قطاعات الجمهور.

ذلك أن مفتاح تفسير متى ولماذا يتعرّض الأفراد للإعلام وتأثيرات هذا التعرّض على آرائهم وسلوكياتهم، هو الطرائق التي من خلالها يستخدم الأشخاص مصادر الإعلام للوصول إلى أهدافهم الشخصية. فإذا شاهد شخصان البرنامج التلفزي نفسه،

أحدهما من أجل التوصل إلى أهداف تتعلّق بالفهم والآخر من أجل الترويح عن نفسه، فإن كلاً منهما يستخرج من ذات البرنامج أشياء مختلفة عن الآخر، وبالتالي، يفترض أن تكون طريقة تأثّر الأول مختلفة عن طريقة تأثّر الثاني.

وقد اكتشف بول روكيتش وزملاؤه أن الأفراد يتعرّضون للإعلام بشكل اصطفائي حسب نوعية علاقات التبعيّة التي يقيمونها مع التلفزة، وأن المشاهد الذي يقيم علاقة تبعيّة من نوع معيّن، يتأثّر بصورة مغايرة عن آخر لا يقيم مثل هذه العلاقة.

وتفترض نظرية التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري صيرورة سيكولوجية معرفية ترفع احتمال أن يتأثّر شخص بمضامين إعلامية خاصّة. وتتمثّل هذه الصيرورة في أن يستعرض فرد ما وسائل الإعلام المختلفة وأن يقرّر بإيجابية ماذا يريد أن يقرأ أو إلى ماذا يريد أن يستمع أو ماذا يريد أن يشاهد، وفي أن يتعرّض فرد آخر، بطريق الصدفة، لمضامين إعلامية.

في البداية، يتعرّض الاصطفائيون الإيجابيون لمضمون الإعلام الذي يعتقدون أنه سيساعدهم على بلوغ هدف أو أكثر في مجالات الفهم والتوجّه والترفيه. وتستند توقّعاتهم إلى:

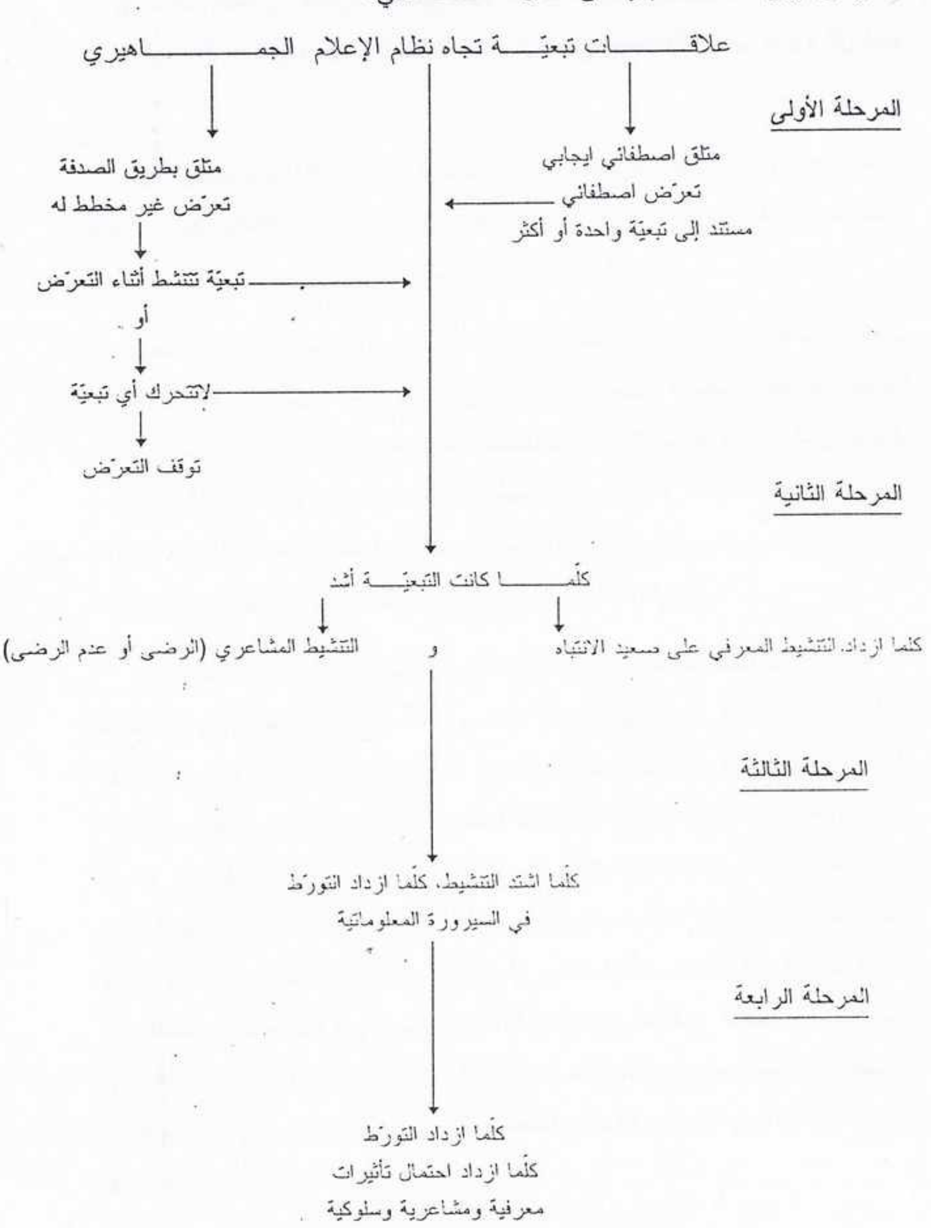
١- تجاربهم السابقة.

٢- محادثاتهم الشخصية المباشرة (مع أصدقاء وزملاء في العمل).

٣- إرشادات حصلوا عليها من المصادر الإعلامية (إعلانات أو محاضرات أو حوارات).

أما المتلقّون بطريق الصدفة، فيحتكّون بمضامين إعلامية دون أن تكون لديهم توقّعات مسبقة. وهناك أفراد تنشط لديهم تبعيّة واحدة للإعلام أو أكثر ويستمرّون في التلقّي، كما أن هناك أشخاص ليس لديهم أي نوع من التبعيّة.

يمكن تبيان علاقات التبعيّة من خلال المخطّط الآتي:



- مخطّط بياني حول صيرورة التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري -

غير أن معظم الأشخاص يعدّون اصطفائيّين في معظم أوقاتهم وملاحظين في جزء من أوقاتهم.

إن درجة التبعيّة التي تتطوّر في أعقاب التعرّض، ليست دائماً متساوية، فتغيّرات شدّة التبعيّات الفردية تجاه الإعلام، تتمايز حسب شروط معيّنة أهمّها:

١- الأهداف الشخصية.

٢- البيئة الشخصية والاجتماعية.

٣- التوقّعات فيما يتعلّق بالفائدة المحتملة من مضامين الإعلام.

٤- سهولة الوصول إلى هذه المضامين.

وتعدّ تغيّرات الأهداف الفردية، في الغالب، انعكاساً لتغيّرات البيئة الشخصية. ويمكن أن تتغيّر أيضاً توقّعات الأشخاص بالنسبة لفائدة المضامين، من حالة إلى أخرى. فللاصطفائي النشيط توقّعات أكبر من الملاحظ الصدفي.

وترتبط التغيّرات أيضاً بنتائج التجارب السابقة. فكلّما ازداد توقّع الأفراد في تلقّي معلومات مفيدة، كلّما ارتفعت شدّة تبعيّتهم، على الأقلّ إلى أن تصاب هذه التوقّعات بخيبة أمل. وهناك إعلام ليس في متناول اليد بالنسبة للجميع، رغم سهولة الوصول إليه.

وبقطع النظر عن أسباب التغيّرات في شدّة التبعيّة، يمكن افتراض أنه كلّما ازدادت هذه الشدّة، كلّما ارتفعت درجة التنشيط المعرفي والانفعالي.

ويعدّ التورّط المفتاح الثالث للتبعيّة، وهو يعني شيئاً أكثر من التنشّط البسيط، إذ يستند إلى المشاركة الإيجابية في السيرورة المعلوماتية. فالأشخاص المنشّطون معرفياً وانفعالياً ينخرطون في عملية معالجة دقيقة للمعلومات، تتيح لهم تذكّر تلك المعلومات بعد التعرّض.

أما المرحلة الأخيرة من صيرورة التبعيّة، فتتجلّى في أن الأشخاص الأكثر تورّطاً في عمليّة معالجة المعلومات، يصبحون أكثر استعداداً للتأثّر جرّاء التعرّض لمضمون الإعلام.

وقد أنجزت معظم أبحاث التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري، حول التأثيرات المعرفية، أي التأثيرات في مجالات الاستيعاب والاتّجاهات والمعارف والقيم، أما دراسات التأثيرات الانفعالية فهي قليلة، غير أنه من الصعب التميّيز تماماً بين هذين

البعدين، في حين أن الربط بين بُعْد التأثيرات المعرفية و تأثيرات السلوك، أقل وضوحاً. وقد استطاع بول روكيتش وزملاؤه أن يبيّنوا أن قوّة التبعيّة تجاه الإعلام تزيد احتمالات تحقيق تأثيرات على المدى الطويل. ولكي تؤخذ في الحسبان التأثيرات الأكثر تعقيداً، كالتعرّض المتراكم لأشكال عديدة من مضامين الإعلام، أو التأثيرات المتعلّقة بالتنظيمات والنظم والمجتمع الكلّي، يجب تجاوز الصيغة السيكولوجية، والاقتراب من صيغ الفكر الاجتماعي.

• التبعيّة وصيغة الاتّصال التبادلي الرمزي

يتمتّع نموذج بناء المعنى الذي يمثّل الموضوع الرئيس في الاتّصال التبادلي الرمزي، بموقع مركزي في نظرية التبعيّة تجاه الإعلام الجماهيري. وتعدّ النقطة الأهم في هذا المزيج من النظريتين، الطريقة التي يؤثّر فيها العالم الذي يصنعه الإعلام على الأساليب التي يفسّر الأفراد والمجموعات بموجبها عوالمهم الشخصية والاجتماعية، حيث أن شبكات الاتّصال الشخصي المؤلّفة من أصدقاء وأقارب وزملاء عمل، تتبع هي الأخرى لمصادر المعلومات في الإعلام.

إن ما تراه نظرية الاتّصال التبادلي الرمزي من أن العالم الاجتماعي الذي تتجمّع تشكّلاته القائمة على التفسيرات الذاتية الهشّة للواقع، يترجم في نظرية التبعيّة عبر الأهمّية الخاصّة التي توليها هذه النظرية لعوامل الغموض والتهديد والتغيّر الاجتماعي. والنظرة القاعدية هي أنه عندما تكون البيئة الاجتماعية غامضة أو تهديدية أو سائرة نحو تغيّر سريع، تتقوّى تبعيّة الأفراد والمجموعات تجاه الإعلام الجماهيري.

ويكمن الغموض في عدم القدرة على تحديد حالة واختيار واحدة من التعريفات الممكنة: فضمن هذه الشروط يصبح تفسير الواقع إشكالية، بسبب أن الغموض يمثّل، في هذه الحالة، مشكلة معلومات. وعندما لا يستطيع الأفراد ولا قادة الرأي خوض تجربة مباشرة أو مراقبة الأحداث شخصياً، يصبح الإعلام النظام المعلوماتي الأساسي الذي يمتلك المصادر الضرورية لصنع معانٍ.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الطبيعة المتغيّرة للعوالم الاجتماعية والمادّية، في المجتمعات الراهنة، تخلق شرط الغموض المستمر والمرهق، وبما أن نظام الإعلام هو أيضاً النظام المعلوماتي الذي يحتلّ الوضع الأفضل لجمع وصناعة وتحويل وتوزيع المعلومات الجوهرية، من الطبيعي أن يطوّر الأفراد معه علاقات تبعيّة، في محاولة فردية وجماعية لحلّ الغموض المزمن للحياة اليومية.

وإذا عُدّ النظام الإعلامي حاملاً جوهرياً للفهم، فإنه يكتسب سلطة تأثير على أفكار الناس وعواطفهم وأفعالهم. وتشبه سلطة الإعلام سلطات أخرى قائمة على المعلومات، كسلطة الوالدين على الأبناء وسلطة المعلّمين على الطلاّب.

وفي نهاية المطاف، يتعلّق الأمر بخلق المعرفة والسيطرة عليها، فنظرية الغرس التي ترى أن الإعلام يوجد ثقافة، ونظرية التأثيرات غير المباشرة التي تعدّ الإعلام عامل تكيّف اجتماعي للأفراد، تستندان إلى الفكرة الأساسية القائلة بأن الإعلام يشكّل كياناً نشيطاً في عملية خلق المعرفة المتقاسمة. ويموضع منظّرو التأثير غير المباشر، الذين يؤيّدون نظرية الاتّصال التبادلي الرمزي، أصل سلطة الإعلام في الصيرورات اللغوية والمعرفية المنشّطة من النصوص الإعلامية. إلاّ أن نظرية الغرس والنظرية النقدية، بشكل عام، يعيدون أصل سلطة الإعلام إلى الهيمنة التي تمارسها النخبة على وسائل الإنتاج الفكري.

وتحتضن نظرية التبعيّة هذه التفسيرات فيما يرتبط بسلطة بناء المعرفة التي يمارسها الإعلام، بل أكثر من ذلك، إذ أنها ترى أيضاً أن عواقب علاقات التبعيّة تنشأ من السيطرة التي يمارسها النظام الإعلامي على مصادر معلوماتية ثمينة لأنها ضئيلة. وتحتوي علاقات التبعيّة هذه المستوى الفردي أي الميكروي والشبكات الشخصية الصغيرة، والأسلوب الذي تتحدّد بموجبه علاقات التبعيّة التي يقيمها الإعلام الجماهيري مع الأطراف الأكثر اتّساعاً من النسيج الاجتماعي، أي علاقات التبعيّة ذات الطبيعة البنيوية.

ثمة نقطة صحيّة مركزية في نظرية التبعيّة تتجلّى في أنه لا يمكن فهم علاقات التبعيّة الميكروية للأفراد والمجموعات، إذا لم تفهم علاقات التبعيّة الماكروية أي البنيوية. فالأفراد والمجموعات لا يختارون بإرادتهم أن يكونوا تابعين للإعلام للتعرّف على أنفسهم وعلى عالمهم. ومن أجل تفسير سبب تطوير الأفراد والمجموعات علاقات تبعيّة مع الإعلام، من الحيوي النظر إلى أدوار ووظائف النظام الإعلامي في الجسم الاجتماعي بأكمله. وترى نظرية التبعيّة أنه حتّى شبكات الاتّصال الشخصية تقيم علاقات تبعيّة مع النظام الإعلامي.

هناك، على الأقلّ، ثلاثة أشكال من التبعيّة يمكن أن تتحقّق لدى هذا النوع من المجموعات:

١- التأثير غير المباشر كالتكيّف السياسي الناجم عن التعرّض التراكمي لفترات طويلة من الزمن.

٢- التأثير غير المباشر الذي يمارس في التدفّق عبر مرحلتين، حيث يتأثّر قادة الرأي بالإعلام ثم ينقلون تفسيراتهم لرسائل الإعلام إلى أعضاء المجموعة الآخرين.

٣- التأثير المباشر للإعلام على أعضاء المجموعة.

ولكي تؤخذ في الحسبان هذه الأنواع من التأثيرات الماكروية، يجب النظر إلى أوجه نظرية التبعيّة التي تضرب جذورها في الفكر الاجتماعي للنظرية الصراعية وللنظرية البنيوية - الوظيفية ونظرية التطوّر التدرّجي.

• نظرية التبعيّة والنموذجان الصراعي والبنيوي - الوظيفي

إن علاقات التبعيّة بين الأهداف والمصادر والتي تشكّل أهميّة قصوى في الإطار التفسيري لنظرية التبعيّة، هي سلاح ذو حدّين، إذ أنها تمثّل، من جهة، جزءاً من علاقة صراعية، ومن جهة أخرى علاقة تبعيّة وظيفية متبادلة، فنظرية التبعيّة تجاه الإعلام تركّز سواء على التغيّير في النظرية الصراعية، سواء على الاستقرار في النظرية البنيوية - الوظيفية. غير أن هذه التكاملية لا تقتضي تبنّي جميع عناصر النظريتين.

انسجاماً مع التحليل البنيوي - الوظيفي، تفترض نظرية التبعيّة أن للمجتمع بنية عضوية يمكن أن تفهم بصورة أفضل في ضوء التبعيّة المتبادلة بين أجزائها. ويشكّل الإعلام عنصراً ضرورياً من عناصر المجتمعات العصرية.

إن علاقة التبعيّة تجاه الإعلام هي، تعريفاً، علاقة تبعيّة متبادلة. فالإعلام والأنظمة الاجتماعية الأخرى تشكّل أجزاء يحتاج بعضها البعض الآخر من أجل البقاء والازدهار. إلاّ أن علاقات التبعيّة المتبادلة بين مختلف الأجزاء تنتج تعاوناً كما تنتج صراعاً. فحسب النظرية البنيوية - الوظيفية، فإن هذا الضرب من المساندة العضوية بين الأجزاء يخلق تبادلية مصالح تضمن استقرار الجسم الاجتماعي، في حين أن النظرية الصراعية تسلّط الضوء على نتائج التبعيّة التبادلية التي تنتج توتّراً وتضارباً بين الأجزاء. وتمثّل نظرية التبعيّة وجهتي النظر، ومع ذلك، فإن النظام الإعلامي يسيطر على موارد معلوماتية ثمينة وضئيلة ترغب جهات أخرى في الاستيلاء عليها لتقليص أو إلغاء تبعيّتها للإعلام، وقد يبقى هذا النزاع على الموارد مستتراً لفترات طويلة من الزمن، ليظهر في اللحظة المناسبة، ذلك لأن لجميع المجموعات، بما فيها الشبكات الشخصية والتنظيمات والأنظمة، دوافع ليس فقط للاحتفاظ بوجودها، بل لتقوية نفسها، فهي، بكلمات أخرى، مجموعات مصالح.

إن مَن عدّ النظام الإعلامي سلطة رابعة، لاحظ الصراع القائم بين مجموعات المصالح المختلفة، وتوقّع أن تعمل السلطات الأخرى، التشريعية والتنفيذية والقضائية، ليس على الاستيلاء على سلطة الآخرين من خلال اكتساب الهيمنة على المصادر فحسب، بل أيضاً من خلال محاولة امتلاك مصادر النظام الإعلامي. فالفكرة الثورية حول إقامة نظام إعلامي مستقلّ يمتلك مصادره المعلوماتية الخاصّة، ويضمنه الدستور، لا تنفي التبعيّة التبادلية بين الإعلام والأنظمة الاجتماعيةُ الأخرى. فهي تقوم على أن الصراع ينشأ عندما يتوجّب على الإعلام والنظام السياسي، لكي يحافظا على بقائهما، الوصول إلى المصادر التي يسيطر عليها الآخر.

وقد كشفت بعض الأبحاث وجود مناطق عدم توافق بين نظرية التبعيّة والصيغ الخالصة للصراعية والوظيفية.

إذ ثمة احتمال في أن تنتج علاقات التبعيّة تجاه الإعلام ذات الطابع غير التماثلي، صراعاً، وتلك ذات الطابع التماثلي، تعاوناً. وتعني التماثلية واللاتماثلية، في هذا المقام، سلطة الإعلام بالمقارنة مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى.

إن التساوي النسبي للموارد ولمستوى التبعيّة يسهم في زيادة إمكانية التعاون، في حين أنه، عندما يسيطر نظام ما على موارد أقلّ من حاجته، حينئذ يتطوّر اللاتماثل واللاتناظر، وعندما يحاول أحد الأطراف تصعيد سيطرته على موارد المعلومات، ويحاول الطرف الآخر استعادة تلك الموارد، حينئذ ينفجر الصراع.

ولا يتّفق معظم منظّري النظرية الصراعية مع هذا التحليل، فالإعلام، بالنسبة لهم، ليس نظاماً اجتماعياً بكل معنى الكلمة، ولكنه أداة تستخدم من قبل النخب الحكومية لترويج مصالحها.

ويرفض محلّلو البنيوية ـ الوظيفية أيضاً طريقة تفكير النظرية الصراعية، إذ لا يعترفون بالوجود الدائم لعناصر الصراع، وهم يتجاهلون التحليل الصراعي ويعدّون الصراع مروقاً وانحرافاً يهدّد استقرار المنظومة الاجتماعية. والحقيقة أن الصراع لا يعدّ شرطاً عادياً للأشياء فحسب، بل أيضاً قوّة جوهرية في تحقيق التغيّير الاجتماعي، وبصورة خاصة، في تحوّلات علاقات التبعيّة تجاه النظام الإعلامي.

التغيّير في علاقات التبعيّة تجاه الإعلام

من المعتقد أن ثمة منابع أساسية للتغيّير في طبيعة علاقات التبعيّة تجاه الإعلام، ويتمثّل أحد هذه المنابع في الصراع وآخر في التأقلم. فالإعلام يبحث دوماً عن طرائق لتصعيد السيطرة على الموارد وتقليص تبعيّته للأنظمة الأخرى، أو بالأحرى، لإقامة علاقات غير تناظرية، وتحاول أنظمة اجتماعية أخرى عمل الشيء نفسه.

ولهذا النوع من المبادرات الصراعية ثمن، فالرغبة في إبطاء حركة التبعيّة وتسريع حركة تقوية السلطة شيء، والمقدرة على القيام بذلك، مع الحفاظ على علاقات التعاون، شيء آخر.

يعدّ التكيّف منبعاً آخر من منابع التغيّير، فعلاقات التبعيّة التبادلية بين الإعلام والأجزاء الأخرى في المتعضّي الاجتماعي، يجب أن تخضع لتغيّيرات لكي تتمكّن المجتمعات من البقاء في بيئات تحول مستمر. ومن البدهي أن هذه التغيّرات التكيّفية بطيئة وغير مخطّط لها أحياناً وصعبة الاستيعاب في لحظة حدوثها.

التأثير الموجي للتغيّير

تستطيع الجهات العامة والتنظيمات المختلفة أن تصدر بيانات صحفية حول أوضاعها ومواقفها، ولكنها تخضع للتبعيّة تجاه الإعلام لكي تتمكّن من إدخال مضامين بياناتها في الأجندة العامة، وتبقى، في جميع الأحوال، المسألة البنيوية لتبعيّتها الجوهرية للمصادر المعلوماتية الإعلامية.

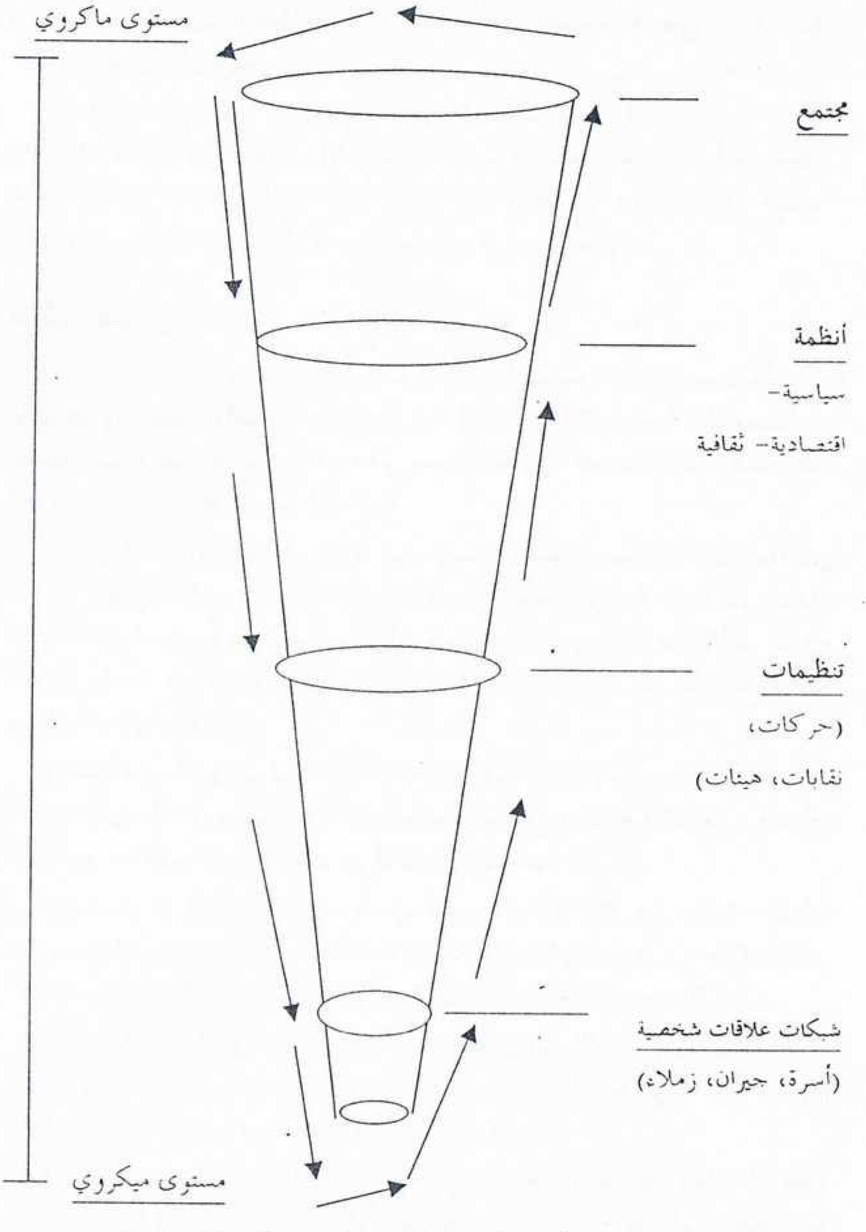
غير أن النظام الإعلامي ليس قوياً إلى درجة أن يتحرك بصورة اعتباطية، في مواجهة النظام السياسي وتنظيماته، فتبعيّة الإعلام للمصادر المعلوماتية التي يهيمن عليها النظام السياسي، هي أيضاً تبعيّة ذات طبيعة بنيوية، ويحدث هذا الأمر بدوره تأثيرات راجعة على مؤسّسات الإعلام، من شأنها أن تؤثّر بعمق على ما يفعله الإعلام وبخاصة، على ما لا يفعله.

وهكذا، فإن التغيّرات في علاقات التبعيّة تجاه الإعلام تنتج تأثيرات موجية (ripple effects) تنطلق من الذروة حيث يتموضع المجتمع والنظام الإعلامي، وينزلق لولبياً عبر علاقات التبعيّة للإعلام مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى.

من البدهي أن التغيّرات التي تحدث في المستويات العليا تؤثّر في علاقات التبعيّة في جميع المستويات الأدنى. ولذلك، فإن التغيّرات التي تجري في مجال الدور الاجتماعي للنظام الإعلامي تنعكس في مستويات الفعل الاجتماعي جميعاً.

وحتّى إذا كانت التغيّرات التي تحدث من الأعلى إلى الأسفل (من الماكرو إلى الميكرو)، تسير بسرعة أكبر، يمكن أن تحدث تغيّرات أيضاً في علاقات التبعيّة الميكروية التي تستطيع، مع الزمن، أن تنتشر نحو الأعلى.

إن إعادة تحديد الأفراد لعلاقة التبعيّة تجاه الإعلام، عبر الانتقال من حقبة كان الفهم الاجتماعي فيها هدفاً كافياً بحدّ ذاته، إلى حقبة يجب أن يقترن فيه هذا الهدف مع البعد الترفيهي، قد ينعكس في مستوى التنظيمات، وفي النهاية، في مستوى المجتمع ككل.



- رسم بياني حول التأثيرات في علاقات التبعيّة تجاه أنظمة الإعلام الجماهيري -

مفاهيم عامة حول التبعية وأنواعها

تشدّد نظرية التبعية على الطبيعة الثابتة والمنتظمة لتأثيرات الإعلام الجماهيري الحاملة لأعمق المعاني. وتكمن النقطة القاعدية في هذا الموضوع في الأشكال المعاصرة للمجتمعات، حيث حيّز التجربة المعاشة مباشرة من قبل الفرد محدودة بالمقارنة مع ذلك الجزء من الواقع الاجتماعي الذي يتعرّف عليه هذا الفرد فقط عبر وساطة الإعلام والاتصال الجماهيري.

من خلال التدقيق في الارتباطات التي تتوضّع بين نظام اجتماعي ونظام إعلامي، ترغب نظرية التبعية باكتشاف الشروط التي تسمح بظهور تلك التأثيرات. وتتجسّد المسألة في تأطير العوامل الاجتماعية التي تحدّد اتّساع ونوعية تأثيرات الإعلام.

يقول لازرسفيلد[٦٦٦] أنه في مجال الاتّجاهات والآراء، يجنح الإعلام إلى تشكيل صورة العالم البعيد الذي ليس للمرء أي اتّصال مباشر وشخصي معه، ولذلك، فإن لهذا الإعلام تأثيرات ذات معنى. ويعتقد بارك[٦٦٧] أن العالم بيئة يحدّدها تجوال الأخبار، أكثر ممّا يحدّدها العالم الذي يدخل الإنسان في احتكاك فوري معه، فمعظم أعمال البشر الجماعية، من حروب وثورات وحكومات وطنية، تتبع للعالم الذي يصنعه الإعلام.

انطلاقاً من هذه الفرضية المشتركة، يؤكّد نموذج بال روكيتش ودوفلور[٦٦٨] الطبيعة المنتظمة لتأثيرات الإعلام، بمعنى أن التأثيرات الناجمة عن شرط التبعيّة هي تأثيرات بنيوية مرتبطة بحالة العلاقات بين الأطراف التي تؤلّف النظام الاجتماعي.

إن اتّساع وشدّة التأثيرات الإعلامية مرتبطة بدرجة التبعيّة، وهذا الشرط هو نتيجة التقاطع بين متغيّرات ذات طبيعة بنيوية وسياقية وشخصية وفردية.

وتتعلّق العوامل الإعلامية الخاصة بنوعية ونماذج عمل النظام الاتصالي في صياغة وتحديد نفعية رسائله بالنسبة للمتلقّي.

من خلال تبيان الصلات القائمة بين النظام الاجتماعي والنظام الإعلامي، تسعى نظرية التبعيّة للكشف عن الشروط التي تتيح تشكّل التأثيرات، وهذا ما يجعل البحث

(666) P. Lazarsfeld, " Communication Research and the Social Psychologist ", Ed. W. Denis, Pittsburgh, 1951, p. 255.
(667) R. Park, " Society, Collective Behavior, News and Opinion, Sociology and Modern Soc Ed. The Free Press, New York, 1955, p. 138.
(668) S. Ball-Rokeach & M. DeFleur, " A Dependency Model of Mass Media Effects ", in Communication Research, voll. 11, n° 3, 1976, in DeFleur, Theories.., cit., p. 88.

الإعلاميّ يتجاوز التعارض القائم بين نموذج تأثيرات قويّة وبين نموذج تأثيرات محدودة، لمواجهة مسألة التعمّق في دراسة العوامل الاجتماعية التي تحدّد اتّساع ونوعية تأثيرات الإعلام الجماهيري[٦٦٩].

إن الصورة المهيمنة في إشكالية التأثيرات هي تلك المتعلّقة بالتقانيات الاتّصالية كشبكة ريّ من المعاني تصبّ في عقول وقلوب الأشخاص. ولكن التوافق بين الوعي الفردي والوعي الجماعي ليس آلياً بهذه الصورة، فالإفراد يبنون معنى ما يستهلكونه داخل وخارج أنظمتهم المرتبطة بالواقع الاجتماعي[٦٧٠].

وتتعلّق العوامل المتصلّة بالإعلام بنمط ونوعية عمل النظام الاتّصالي في تحديد وصياغة نفعية رسائله بالنسبة للمتلقّي. وهناك عناقيد من المتغيّرات السوسيولوجية والسيكولوجية التي تتفاعل وتتبادل التأثير لخلق نوع وشدّة تبعيّة شخص ما للنظام الإعلامي.

وانطلاقاً من واقع أن العلاقات بين النظام الإعلامي والنظام الاجتماعي تتغيّر من حالة إلى حالة، فإن نوعيات التبعيّة للإعلام تتمفصل على النحو التالي[٦٧١]:

١- تبعيّة معرفية (وتتميّز بين فهم اجتماعي وفهم الذات).

٢- تبعيّة الاتّجاه (وهي مقسّمة بين اتّجاه الفعل واتّجاه التفاعل).

٣- تبعيّة النشاط الترفيهي (على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي).

وتتأثّر التبعيّة المعرفية المتّصلة بالفهم الاجتماعي بالطريقة التي تستقرّ فيها، على المستوى البنيوي، علاقات التبعيّة المتبادلة بين مختلف الأنظمة. وفيما يتعلّق بتبعيّة الاتّجاه، من السهل ملاحظة أنه من أجل تحقيق تفاعل تبادلي اجتماعي، فإن الإعلام أيضاً (كما العادات وشبكات العلاقات الشخصية وتجارب الناس المباشرة)، يجب أن يكون مركزياً، وخير مثال على ذلك التلفزة الجديدة (new-television) التي تعيد للحياة اليومية صورة تلك السلوكيات التي تصبح اعتيادية في النشاط الاتّصالي العادي. أما

(669) F. Fejes, " Critical Mass Communication Research and Media Effects ", Media, Culture and Society, n° 6, 1984,p. 228.
(670) O. De Leonardis, " Il Terzo Escluso, Le Istituzioni come Vincoli e come Risorse ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1990, p. 29.
(671) S. Ball – Rokeach & M. Rokeach & J. Grube, The Grat American Values Test, op. cit., 1984, p. 92.

فئة التبعية للإعلام في النشاط الترفيهي، فقد وضع لول[٦٧٢] بعض الملاحظات حول الاستعمالات الاجتماعية للتلفزة، حيث يعتقد أن استهلاك التلفزة في البيئة الأسرية، عندما تهدف إلى استخدامات علائقية، يمكن أن يحدث حسب أربعة نماذج متميّزة:

أ - يمنح الاستهلاك عوناً للاتّصال.

ب- يخدم في تحقيق أهداف الانخراط / التجنّب.

جـ - يهدف إلى التعلّم الاجتماعي.

د - يشكّل أداة لإظهار الكفاية / السيطرة.

ويمكن وصف كلّ حقل من حقول التبعيّة، حسب مفتاحي قراءة: الأول يركّز على خصوصية العناصر التي تشكّل العلاقة بين المضامين الإعلامية والجمهور. والثاني يركّز على الوزن الذي تتمتّع به العوامل المرتبطة بالسياق (الاقتصادي، الثقافي، الشخصي إلخ..).

ويعدّ المفتاح الثاني جوهرياً لموضعة مشكلة التأثيرات في إطار أكثر اتّساعاً وأكثر مغزى، للتمكّن من إقامة علاقة بين متغيّرات ذات طبيعة اتّصالية وجوانب ذات نوعية ماكرواجتماعية.

غير أن علاقة التبعيّة نفسها تتضمّن عناصر المرونة، وهي قابلة للتفاوض وظرفية، على الأقلّ في شدّتها إن لم يكن في وجودها[٦٧٣].

إذا كان الإعلام، من جهة، مفيداً للفرد في بلوغ أهدافه في مساحات متنوّعة للفعل الاجتماعي، فإن مرامي ومضامين النظام الإعلامي، من جهة أخرى، ليست بتصرّف هذا الفرد، بل هي نتاج علاقات تبعيّة متبادلة بين نظام الإعلام والأنظمة الاجتماعية الأخرى[٦٧٤].

وفي حين أن كلّ إنسان يمكن أن يتمتّع باستقلالية كبيرة في رسم تعرّضه للإعلام، فإنه، في جميع الأحوال، مقيّد بالتحرك داخل حدود البيئة الإعلامية التي تحدّد، بالاشتراك مع عوامل أخرى، مدى إمكانية الوصول إلى الإعلام نفسه. ولكن، ضمن

(672) J. Lull, " Family Communication Patterns and the Social Uses of Television ", in Communication Research, n° 7, 1980, in Wolf, " Gli Effetti sociali dei Media ", op. cit. p. 93.
(673) M. Wolf, " Gli Effetti sociali dei Media ", op. cit. p. 95.
(674) Ball-Rokeach & Grube & Rokeach, The Great American Values Test, op. cit. p. 94.

نطاق هذا المعطى الأساسي، يستمر دور علاقات التبعيّة في أن يكـون، نظريـاً، وجهـاً على جانب كبير من الأهمّيـة فـي تشـيّيد هيـاكل التـأثيرات : ورغـمَ أن الفـرد يسـتطيع تشكيل شروط التعرّض وشروط ما بعد التعرّض، فإنه لا يمتلـك مناعـة تجـاه تـأثيرات الإعلام الجماهيري[٦٧٥].

علـى أيـة حـال، فـإن فعّاليـة الإعـلام الجمـاهيري لا تـؤدّي إلـى افـتراض نهايـة الاصطفائية، ومن جهة أخرى، فإن وجـود الاصطفائيـة لا يعنـي عدم الاعـتراف بـأن الإعلام يمتلك إمكانية تأثيرات مهمّة[٦٧٦].

*   *   *

(675) Ibid.
(676) Ibid.

الفصل الثاني

نظريات التأثير والبحث الإعلامي

مدخل

إنّ إعادة تحديد النظرة الجديدة (new look) للأبحـاث الإعلاميـة، منْ خـلال عـودة بروز الاهتمام التقليدي، أو اللازرسفيلدية الجديدة (neolazarsfeldism)، حـول مشـكلات معيّنة، يمكن أن يفضي إلى تموضع أكثر تمفصلاً وأكثر شمولية للموضوع الإعلامي.

غير أن حالة التقدّم التي وصلت إليها تلك المشكلات، ليست متساوية، ولـم تخضـع بعد للبحث الإمبيريقي أو للصياغة النظرية أو للمناقشة، مع أن النقاط الأكثر أهمّية في التجديد قد دخلت حيّز الوجود.

معيار الزمن

لا ريب أن المشكلة الأولى التي تضع تغيّير الصياغات النظرية على المحكّ؛ فيما يتعلّق بالبحث الإعلامي، هي ضرورة التعامل بجدّية مع تحديد التـأثيرات الطويلـة الأجل، مـع الأخذ في الحسبان ما هو ضمني في المرجعية الجديدة للبعد الزمني. ما هو الإطار الزمنـي الأمثـل الذي يمكن ملاحظـة التـأثيرات فـي نطاقـه ؟[٦٧٧]. ويكمن الجواب فـي أن تطـوّر الدراسات الإعلاميـة يرتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالسياق المؤسّسـي والاجتمـاعي- الاقتصـادي والثقافي الذي تطوّرت الأبحاث الإعلامية من خلاله، وبالمنهجيات التي نجمت عنها.

إنّ تغيّير الإطار الزمني يبرز وجهين أساسيين من أوجه ديناميـة التـأثيرات : الطـابع الصيروري للاتّصال، والتبعيّة المتبادلة الثابتة بين مختلف العوامل المشكّلة للتأثير[٦٧٨].

(677) Lang &Lang, " Methods as Master or Mastery over Method ", Ed. M. Gurevitch & M. Levy, Sage, Beverly Hills, 1985, pp. 49-63.
(678) W. Schulz, " Ausblick am Ende Holzweges. Eine Ubersicht über die Ansätze der neuen Wirkungsforschung, in Publizistik, vol. 27, in Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit., p.138.

فالانتقال إلى التأثيرات بعيدة المدى، إذن، خطوة ضرورية لاستعادة البعد الصيروري الضمني للاستهلاك الاتّصالي. ومن المؤكّد أنه بتوسيع القوس الزمني الذي يجري البحث خلاله عن نوعية وقوّة التأثيرات، تتبدّل أيضاً، عبر الارتباط بالامتداد الزمني، طبيعة العلاقة السببية(٦٧٩).

لم يعد الزمن عنصراً تتحرك على خلفيته سببية الإعلام، بل أصبح مصدراً بنيوياً يتيح الفعل المتبادل لقوى اجتماعية مختلفة، بما فيها التعرّض للإعلام(٦٨٠).

من الواضح أن العلاقة الوثيقة بين امتداد العامل الزمني ودرجة السببية المنسوبة إلى الإعلام تضع في المقدّمة مفهوم التبعيّة المتبادلة. فضرورة تشعيب الارتباطات السببية، تؤدّي إلى التقاط هذه العوامل المركّبة، أي الاتّصال التبادلي بين ظواهر بعيدة ومنفصلة ظاهرياً(٦٨١).

ويقتضي مفهوم التبعيّة المتبادلة عنصرين هما الحساسية المتبادلة للعناصر المعنية في علاقة التبعيّة المتبادلة، والطبيعة الأساسية غير المتناظرة الخاصة بهذا النوع من العلاقات.

فيما يتعلّق بالإعلام، يظهر العنصر الأوّل في الحضور المتنامي الذي يكتسبه الفلك الاجتماعي داخل الإعلام عبر القابلية الإخبارية لعدد متزايد من أوجه ومشكلات هذا الفلك، من جهة، وفي أن العديد من الأنظمة الاجتماعية التحتية تعدّ عدّتها بصورة ملائمة لكي تحظى بحضور في وسائل الإعلام، متّبعة المنطق نفسه بالنسبة للحضور والقابلية الإخبارية، من جهة أخرى.

(679) Ibid.
(680) M. Blok, " Time Allocation in Mass Communication Research ", Ed. G. Hanneman, Norwood, 1979, p. 31.
- استخدم الزمن في الأدبيات السوسيولوجية بطرائق متنوّعة. فتدفّق الزمن يمكن أن يستعمل كعامل اجتماعي في تفسير التبدّل، أو كعنصر سببي بين متغيّرات أخرى. ويؤثّر الزمن، كعامل اجتماعي في الاتّصال التبادلي الاجتماعي، سواء كمصدر سواء كمعنى مشترك اجتماعياً. والمقصود بالمصدر الزمن الذي يخصّص ويحجز للقيام بأنشطة متنوّعة، وهو يدخل في استعمال المتغيّر " الزمن " في الأبحاث حول ميزانيات الزمن (time-Budget) أي أن توزيع الزمن كمنبع محدود يغدو مؤشّراً على نمط الحياة، أما الزمن الذي يتضمّن معنى، فهو زمن المناسبات والأعياد المختلفة.
وقد عرف البحث الإعلامي المتغيّر الزّمني في اتّجاهين : الأوّل كمتغيّر مستقل في دراسات صيرورات انتشار التجديدات، والثاني كوحدة قياس في تحليل استهلاك الجمهور للإعلام.
- لمزيد، أنظر : Blok, Ibid. -
(681) J. Sasson, " Dipendenza e Interdipendenza nel Sistema Internazionale. Un Esame dei Modelli Teorici ", Quaderni di Sociologia, n° 3, 1978, pp. 367-392.

ويتعلّق العنصر الثاني في أن صعوبة علاقات التبعيّة في تحديد العلاقة كلفة/ مكتسبات بشكل مسبق، تكمن في أن وزن التأثيرات التي يمارسها الإعلام على الأنظمة الاجتماعية التحتية، لا يمكن تجسيده مسبقاً. فمن جهة، لا يمكن تجنّب خصوصية تلك العلاقات بين أنظمة عديدة في بلدان وثقافات مختلفة، ومن جهة أخرى، تنفتح، ضمن هذا الإطار، مساحة واسعة لوجود ما يسمّى بالتأثيرات المنحرفة، أي النتائج المهمّة وغير المتوقّعة، غير القصدية والسلبية اجتماعياً، والناجمة عن حصيلة سلوكيات فردية مشروعة، مرضية ولها ذات المرامي(٦٨٢).

إن العلاقة بين الإعلام وموضوعات تأثيراته (الفرد، المجموعة الأسرية، النظام الثقافي، النظام التعليمي، النظام السياسي، النظام الاجتماعي وصيرورات التبدّل)، ليست سطرية، وليست وحيدة الاتّجاه. ومن الأفضل افتراض أن التمدّد في الحيّز الزمني وتشعّب الدينامية السببية الناجم عنه ، ينشّط نظاماً من الدفع والدفع المضاد، حيث تتشابك عوامل التأثير ، وحيث تنشأ صراعات وتقويات بين أطراف مختلفة في النظام الاجتماعي، يمكن أن تنجم عنها تأثيرات متراكمة منحرفة أو نتائج متناقضة أو ارتدادية (rebound effects)(٦٨٣).

لا شك أن التحدث عن التأثيرات بعيدة المدى يعني التخلّي عن أفق التأثير الإعلامي وحيد المنحى والشدّة، وتبنّي مقاربة قادرة على اكتشاف أسباب معيّنة وحتى اتّجاهات متناقضة، ففي الصيرورة الإعلامية تتحرك قوى كثيرة تتبادل التنافر فيما بينها(٦٨٤).

إن دراسة التأثيرات التراكمية للإعلام تعني البحث عن خصوصية إسهامات هذا الإعلام. لأن تأثيراته الطويلة الأجل تتميّز باللاسطرية، وهذا الجانب يجب أن يتيح تجاوز التعارض بين التأثيرات المحدودة والتأثيرات القوية.

التلاؤم العلائقي المعرفي

يتعلّق الجانب الآخر حول إمكانية إحداث تجديد في موضوع التأثيرات، بالآفاق الحديثة لهذه التأثيرات التي يقال إنها ملحوظة في النوع المعرفي، حيث ينشّط الإعلام أنظمة الإنسان المعرفية.

(682) R. Boudon, " Effets Pervers et Ordre Sicial, Ed. P. U. F., Paris, 1977, p. 140.
(683) A. Giddens, " The Constitution of Society ", Ed. Polity Press, Cambridge, 1984.
(684) J. Blumer & M. Gurevitch, " The Personal and the Public. Observations on Agendas in Mass Communication Research, Ed. Gurevitch & Levy, Newbury Park, 1987, pp. 16-21.

فالاعتقاد بأن الإعلام عامل تكيّف اجتماعي وهو يبني صور الواقع التي يختزنها الفرد، أو أنه يجب تحليل تأثيراته من الناحية البيئية الصحيّة للاتّصال، يعني إبراز العلاقة القائمة مع أنظمة المعرفة لهذا الفرد.

ويمكن القول إن التلفزة تمثّل الشكل الأكثر أهميّة لمعرفة العالم قبل سن المراهقة[٦٨٥]، أو الجزم بأن الإعلام الجماهيري هو عبارة عن طرائق تنقل عبرها المعرفة الذاتية للمجتمع إلى جميع أعضائه[٦٨٦]، ولكن يجب أن يتجاوز البحث حول التأثيرات طويلة الأجل، هذه التأكيدات، ليواجه مسألة مدى ملاءمة نموذج معرفي للتأثيرات وأية مؤشّرات يمكن أن تنجم عنه.

يتعلّق هذا الأمر باكتشاف وضعية مقاربة معرفية بالنسبة لظواهر تبدل في الجغرافيا العقلية[٦٨٧] التي تمثّل وسائل الإعلام فيها عنصراً ذا مغزى. فإذا افترض أن التأثيرات بعيدة المدى هي في الأغلب، معرفية، يصبح من الضروري أن تتحاور نظريات الإعلام مع نموذج تحليلي يتعلّق بالنشاط المعرفي للأشخاص وبدينامية تلقيهم وتخزينهم للمعرفة، وخاصة، تلك المعرفة المستوعبة من التدفق الإعلامي.

وحول دور التلفزة في بناء معارف الإنسان عن العالم وتمثّلات الواقع الاجتماعي، بيّنت دراسات إعلامية أن هناك ما يسمّى بذاكرة الأخبار، وأن مخزن الذاكرة الرئيس يمكن أن يكون الذاكرة الدلالية[٦٨٨].

غير أن ثمة مشكلة تكتسي أهمية كبيرة، وهي معرفة " المقرّ " المناسب من بين قدرات الفرد في أن يحاكم المعلومات، حيث يمكن العثور على رانز الإعلام الجماهيري، وبالتالي، الجزم بحدوث التأثير المعرفي[٦٨٩].

ولذلك، يجب أن تكون هناك إمكانية في التحرّي عن تأثيرات إعلام معيّن على الذاكرة الدلالية، ولكن البحث، حينئذ، يصبح عسيراً جداً في هذا المستوى[٦٩٠]، فالتمييز يجب أن يتم بين الذاكرة الدورية والذاكرة الدلالية التي تحيل بدورها إلى التمييز بين ذاكرة العمل والذاكرة البعيدة المدى.

(685) L. Cancrini, " La Morte Apparente ", Ed. Eri, Torino, 1989. p. 11.
(686) G. Vattimo, " La Società Trasparente ", Ed. Garzanti, Milano, 1989, p. 34.
(687) D. Parisi, " La Guerra dei Mondi. Appunti sulla Planetarizzazione ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1988, p. 740.
(688) B. Gunter, " Poor Reception. Misunderstanding and Forgetting Broadcast News ", Ed. Erlbaum, Hillsdale, 1987, p. 326.
(689) Wolf, Gli Effetti dei Media, cit., p. 148.
(690) R. Hawkins & J. Daly, " Cognition and Connunication ", Ed. Wienamm & Pingree, Sage, Newbury, 1988. p. 200.

الذاكرة نظام تكمن وظيفته في حفظ نتائج الإعدادات الأكثر عمقاً، وتتحرك ذاكرة العمل كفلتر يقرّر ما هي المعلومات التي من الضروري إعدادها بعمق تمهيداً لحفظها، وما هي المعلومات التي يمكن إسقاطها من الذاكرة[٦٩١]. هذا يعني أن ذاكرة العمل تشرف على عمليات تنجز على المثيرات الداخلة وعلى الحفظ المؤقت للمعلومات الواردة في النص.

أما الذاكرة بعيدة المدى، فهي منظّمة في نظامين تحتيين يختلفان فيما بينهما من عدة جوانب ويتمثّلان في مخزنين تتم فيهما أرشفة منتجات الإعدادات التي أنجزتها ذاكرة العمل، وهما الذاكرة الدورية والذاكرة الدلالية، الأولى تمثّل ذاكرة الإنسان المرتبطة بسيرة حياته، وهي تتّصل بالتجارب الشخصية، وتكمن طريقة تنظيمها الداخلي، أي كيفية تخزينها وترتيبها للمعلومات[٦٩٢]:

١- في أن المعلومات فيها متتابعة، أي أن الذواكر حديثة إلى حدّ ما.

٢- وفي أنها محدّدة المكان والزمان، لأن كلّ ذاكرة تتموضع ضمن سياق زمني ومكاني معيّن.

٣- وفي أنها اقترانية الطابع ومزاجية، وليست منطقية وسببية، لأنه على أساس اقترانات واهية، يستطيع أثر أن يبني قرينة لاستعادة أثر آخر.

أما الذاكرة الدلالية، فهي مؤلّفة من شبكة معقّدة من الترابطات بين مفاهيم وأفكار وخواص الأشياء، وتمثّل الموسوعة العقلية للأنظمة المعرفية، ويمكن فهمها كمعرفة سبقية الوجود يطبّقها الفرد في فهم موقف أو حالة[٦٩٣].

هذا يعني أن الذاكرة الدلالية هي منظومة منسّقة من المعارف التي تُقبع تحت، وتجعل ممكناً، استخدام اللغة، فهي ذاكرة مفهومية لأنها تحتوي التمثّلات المرتبطة بالمفاهيم وبالعلاقات المنطقية والسببية لهذه المفاهيم، كما هي مرتبطة بالتجارب والأحداث والأوضاع التي يتعرّف عليها الإنسان بوصفها ترداديّة وقابلة للتعميم ومشتركة ومستقرّة واصطلاحية[٦٩٤].

وحتّى إذا كانت هناك تكاملات مستمرّة بين الذاكرة الدورية والذاكرة الدلالية، ثمة

(691) M. Levorato, " Racconti, Storie e Narrazioni. I Processi di Comprensione dei Testi ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1988. p. 99.
(692) Ibid. p. 103.
(693) W. Woodall & S. Davis & H. Sahin, " From the Boob Tube to the Black Box : Television News from an Information Processing Perspective ", 1983, in Wolf, p.149.
(694) Levorato, op. cit., p. 104.

فرق مهمّ يتعلّق بطرائق العمل : فالذاكرة الدورية تستطيع تخزين مواد عبر الاستعمال الإرادي لاستراتيجيات من أجل اكتساب المعلومات، وهي تتطلّب أيضاً بحثاً قصدياً في استعادتها، على عكس الذاكرة الدلالية التي تعمل بشكل آلي، سواء في مرحلة الفهم، سواء في مرحلة الاسترجاع[٦٩٥].

إن هذه المفاهيم تتيح التشديد على جانبين، الأول هي الضرورة في أن توجّه الدراسات الإعلامية بشكل مختلف الأبحاث الإمبيريقية حول التذكّر وحول الذاكرة التلفزية، بمعنى أن تكتشف وتستخدم تحرّيات ملائمة لصيرورات معالجة وإعداد نصوص يقوم بها الأفراد. والجانب الثاني يتّصل بتلاؤم ومشروعية هذه المَفْهَمات التي تشكّل مرحلة عبور أساسية، إذ أنه من الصعب افتراض تأثير استيعابي لتمثّلات اجتماعية للواقع، لا يمرّ من خلال دينامية الفهم والتخزين في الذاكرة[٦٩٦].

هناك، إذن، مشكلة تحديد تلاؤم النموذج المعرفي لتحاليل تأثيرات الإعلام. ويمكن، في هذا المجال، اتّباع استراتيجيتين : إعادة قراءة بعض نتائج البحث الإمبيريقي حول التأثيرات، في ضوء مفصلة مفهومية مرضية للصيرورات المعرفية، من جهة، ومحاولة اكتشاف العناصر التي تسهم، في دينامية الصيرورات المعرفية، بإعطاء شكل لتأثيرات الإعلام الجماهيري[٦٩٧].

• المعارف التعدّدية

باتّباع هذا الأفق، يتمثّل التفكيك النظري الأول في وضع التحرّك المتشابك بين ثلاثة عناصر، كعنصر مؤسّس لصيرورات الفهم، وهي : النص ومنظومات المعرفة والواقع[٦٩٨]. فتحليل صيرورة الفهم تدخل في اللعبة أشياء أكثر تعقيداً من مجرّد العلاقة بين مشاهد/ نص إعلامي. ولا تترسّب التأثيرات فقط على قاعدة التراكمية لمضامين الإعلام، بل تتبلور أيضاً من خلال تكاملها مع المعارف والتجارب السابقة، في عمل تفاوضي مستمر من التصويبات بين مختلف هذه العناصر.

ويجري التفكير بالاستهلاك التلفزي كظاهرة نشيطة معرفياً ، يفسّر الجمهور خلالها ويقوّم البرامج على أساس فهمه لقواعد معيّنة للحجم وللمضمون التلفزي، ومن

(695) Ibid., p. 105.
(696) Wolf, cit.. p. 150.
(697) Ibid.
(698) Levorato, cit. p. 106.

خلال المقارنة بين ما يشاهده على الشاشة الصغيرة وبين ما يمكن أن يعرفه، عبر التجربة المباشرة، للعالم الذي يعيش فيه الإنسان[٦٩٩].

وقد شدّدت أبحاث إعلامية حول هذا الموضوع[٧٠٠]، على دور المعارف السابقة المكتسبة عبر التجربة، وبيّنت النتائج بالنسبة لفرضية تأثير تلفزي على مسارات استيعاب الزمن والمكان والأشخاص، بشكل خاص، أن المشاهدين يجرون تمييزاً واضحاً بين المسارات المطبّقة على الاستيعاب الإعلامي وتلك المطبّقة على البيئة الشخصية الذاتية. ولذلك، يعتقد الباحثون أنه من المناسب التمييز بين ثلاثة قطاعات في الموسوعة المعرفية للإنسان، هي موسوعة المعارف الشخصية- الواقعية وموسوعة المعارف الإعلامية- الواقعية وموسوعة المعارف الإعلامية- الخيالية المستندة إلى واقع إعلامي وهمي، ويعتقد أنه بين هذه الأنظمة التحتية توجد مناطق متوسّطة ومؤقّتة. بالإضافة إلى ذلك، لا يجري تنشيط معارف قطاع واحد بل قطاعات معارف مختلطة[٧٠١] : (kognitionen- mix).

في كثير من الأحيان لا تأخذ الدراسات الإعلامية في الحسبان هذه العناصر المتمايزة، ويبدو أن المفهوم المفتاح في مسألة التأثيرات المعرفية للإعلام هو طريقة المخطّط الذي يتألّف من بنية تنظّم جملة مفاهيم وتمثّلات عقلية جرى إعدادها خلال التجارب السابقة[٧٠٢].

المخطّط، إذن، هو عنصر تشكيلي لإمكانية تنظيم التجربة، وهو عامل غاية في الأهمّية لمواجهة التدفّق غير المنقطع للمثيرات الحواسية وللمعلومات، بهدف اختيار تلك المعلومات التي تنسجم مع التوقّعات التي تمّ إعدادها على قاعدة ذلك المخطّط. أيضاً التأثير المعرفي المنسوب إلى الإعلام يتحقّق بالضرورة عبر فلاتر المخطّطات. لهذا كلّه، من المناسب وضع فرضية أن للإعلام تأثيرات معرفية، ولكن يجب مفصلة نوعيات عمله، ليس كتأثير فوري ومباشر ومستوعب من المتلقّي بشكل سلبي، وإنّما كتأثير يتحقّق عبر الصيرورة غير القابلة للإلغاء والمتمثّلة في بناء وإعادة إعداد المخطّطات.

تعدّ المعارف الموجود سابقاً جزءاً أساسياً من المخطّط، وكذلك وجود مخطّطات سابقة واستراتيجيات تستخدم لتطبيق تلك المخطّطات.

(699) B. Gunter, " The Perspective Audience ", Ed. Anderson , Communication Yearbook, vol. 11. Sage, Newbury Park, 1988, pp. 22-50.
(700) P. Witerhoff-Spurk, " Fernsehen und Weltwissen, in Westdeutscher Verlag, Opladen, 1989, in Wolf, cit., p. 151.
(701) Ibid.
(702) Levorato, cit., p. 182.

ويشكّل وجود مخطّطات سابقة شرطاً لا غنى عنه لكي ينسب إلى المعلومة الجديدة معنى ولكي يتم بناء تمثّل عقلي. وهذا يفضي إلى أن العوامل التي تقع خارج إطار الإعلام تؤدّي، هي الأخرى، دورها في عملية بناء المخطّطات السابقة(٧٠٣).

وتلاحظ الأبحاث الإعلامية، من ناحية أخرى، أنه على الأقل في سياقات معيّنة، تقدّم التلفزة للأطفال المعلومات الأولى حول العديد من الأمكنة ونوعيات الأشخاص والتفاعل التبادلي، ما يعني أن التلفزة تمارس دوراً مركزياً في التطوير الأولي لمخطّطات عديدة يعدّها الفرد، وأن المعلومات التي يستقيها الطفل، فيما بعد، ستخضع لمحاكمات تمرّ عبر تلك المخطّطات التي جرى تعلّمها من التلفزة(٧٠٤). ويتقارب هذا الطرح مع نظرية الغرس ومع كون التلفزة عامل تكيّف اجتماعي. ويمكن لصيرورة فهم نص أو حديث أن ترمي لتحقيق هدفين : فهم النص أو الحديث بحدّ ذاته، وفهمهما لتحديث المعارف أيضاً، وتسود، في الحياة الواقعية، نوعية الفهم الثانية التي تجعل المعلومات الموجودة في النص، لأسباب متنوّعة يحدّدها السياق، تتفاعل مع المخطّطات بما يؤدّي أيضاً إلى إحداث تغيّيرات فيها(٧٠٥).

من المحتّم، إذن، إدخال عناصر متشابكة ذات طبيعة إشكالية، ومعالجة عوامل غير إعلامية بحتة، تحيل إلى مجمل المعارف والتوجّهات المرتبطة بمجال التجربة المباشرة، في مشهد اجتماعي يتميّز بالوساطة الرمزية لوسائل الإعلام الجماهيري(٧٠٦). ومن الضروري أيضاً تحويل الصورة البسيطة لوظيفة الإعلام المعرفية، إلى تحليل أكثر تكاملاً للصيرورة التي تعطي معنى لهذه الوظيفة، لكي يتم تجاوز المعضلة المزيّفة المتمثّلة في التعارض بين التأثيرات المحدودة والتأثيرات القوية(٧٠٧).

إن خصائص التنظيم المعرفي لا ترتبط فقط بنوعية المصدر الذي تعدّ المخطّطات على أساسه، ولكن أيضاً بنوعية الإعداد الذي يجري على أساس التجربة، من خلال القدرة على جعل المعلومات الجديدة تتكامل في البنيات المخطّطية السابقة، ومن خلال درجة إعادة التنظيم التي تخضع لها تلك البنيات بحضور معايير جديدة لتحديد الواقع(٧٠٨).

---

(703) Ibid., p. 192.
(704) F. Williams, " The Impact of Television ", Ed. Academic Press, London, 1986, p. 406.
(705) Levorato, cit., p. 215.
(706) Wolf, cit., p. 155.
(707) Ibid.
(708) Levorato, cit,. p. 216.

• المتلقّي " النشيط "

ويستدعي اتّجاه الدراسات الإعلامية حول التأثيرات المعرفية أيضاً، مشكلة أنشطة المتلقّين، فخلال سنوات عديدة أبرز نشاط المتلقّين جوانب مختلفة كالاصطفائية والقصدية والنفعية والتصدّي للتلاعب الإعلامي، وقد يكمن المخرج الحالي في ربط فكرة الجمهور النشيط بإجرائيات محاكمة المعلومات. ويبدو أن هذا الأفق مثير للاهتمام إذ أن تحديد المتلقّي النشيط يمثّل البعد الأساسي لتبدّل الأنظمة الإعلامية ونماذج استهلاك مضامين الإعلام(٧٠٩).

إن دراسة سلوك متلقٍ يجلس أمام الشاشة الصغيرة، وتصنيف معاني ضغطه المستمر على أزرار تغيّير القنوات، ومحاولة دراسة تأثير هذه التنقّلات من قناة لأخرى، كلّ ذلك يعني الإمساك بناصية فكرة الفهم كتأثير ضروري للإعلام، ويعني أيضاً إدراك وضع واقعي يحتضن انكسارات نصيّة لصالح استيعاب جديد متقطّع ومفتّت، يصبح فيه المعنى الكامل مساوياً للصفر من خلال ابتعاد (رفض المعنى)، أو على العكس، من خلال اقتراب مبالغ به (اكتساب معانٍ متفرّقة كثيرة)(٧١٠).

يعدّ هذا العنصر مؤشّراً مهمّاً للبحث لأنه يصهر مع النصيّة أيضاً كفاية التأثيرات المعرفية، وهو مفيد لأنه، بتقطيع تلك التأثيرات يجعلها أكثر انفلاتاً وأكثر قابلية للتغيّر مع أسلوب التدفّق التلفزي، مستدعياً ضرورة البعد التجديدي.

وهكذا، تخطو دراسات التأثير الإعلامي خطوة أخرى لمفصلة موضوعات المقاربة المعرفية : ففي مرحلة أولى يجب العمل على تطوير تحليل صيرورة الفهم بربطها مع فرضيات التأثيرات المعرفية، وفي مرحلة ثانية، يجب كشف خصوصيات تعلّم المعارف عبر استهلاك المتلقّي للإعلام ونوعية التمثّلات العقلية الناجمة عنها. ولا يجزّأ هذا العنصر على مضامين الإعلام ولكن على طرائق تداخلاته مع الجغرافية المعرفية للإنسان(٧١١).

البعد الماكرواجتماعي

تكمن الخطوة الثالثة في عملية التغيّير العميق لصيغ المقاربات، في البعد الماكرواجتماعي للتأثيرات بعيدة المدى. فكلّما اكتسب الإعلام، شيئاً فشيئاً، خصائص

---

(709) wolf, cit., p. 156.
(710) G. Bettetini, " Dall'Occhio alla Mente. Strategie Interpretative e Sistemi Testuali ", in Problemi dell'Informazione, n° 3, Milano, 1988, pp. 311-319.
(711) Wolf, cit., p. 157.

منظومة[٧١٢]، يصبح من الضروري التحرّي أيضاً عن العلاقات والارتباطات والتأثيرات التي تحدث في مستوى الماكرواجتماعي، على الثقافة وعلى الهويّة الجماعية، وبصورة أعم، على العناصر الأخرى للنظام الاجتماعي الكلّي.

كما هو معروف، فإن إحدى النتائج الاجتماعية لوجود الإعلام – حسب لازرسفيلد وميرتون[٧١٣] – تكمن في أنه من بين تعدّدية الموضوعات والأشخاص والتنظيمات والميول القائمة في المجتمع، يجري تسليط الضوء، بشكل خاص، على بعضها لأنها غدت موضوع الانتباه العام، بفعل النشاط الإعلامي[٧١٤]. إن إعطاء هذا العمل صفة حالة، شبيه بفرضية الأجندة، حتّى وإن كانت الأخيرة قد قلّصت أفقها إلى مجال معرفي ومعلوماتي بحت.

إن الانعطاف الذي حقّقته هذه النظرة الجديدة (new look) يعيد طرح الاستمرارية، مؤكّداً مدى ضرورة تجنّب التفسيرات التاريخية لدراسات الإعلام التي تركّز على الانقطاعية المؤدّية إلى فقدان الجذور والمشروطيات المرتبطة بأهمّية بعض الموضوعات.

لا ريب أن هذا الأفق التفاوضي[٧١٥]، السابق على المنظور الذي ينسب إلى الإعلام دور السير الذي يلحق عامة الناس بالقيم المهيمنة وبالطبقات المسيطرة (نظريات التآمر)، يمكن أن يشكّل خطوة أولى نحو تحليل تعقيدات التأثيرات في المستوى الماكرواجتماعي، واضعاً في مركز التحليل التفاعل والتداخل التبادليّين والتأثيرات بين نظام الإعلام والأنظمة السياسية والاقتصادية والثقافية. ثمة ضرورة ملحّة لمَفْهَمة التأثيرات بواسطة علاقات معقّدة وتبعيات متبادلة.

إن الانتباه المطلوب للتداخل التدريجي بين منطقيات عمل الأنظمة التحتيّة المختلفة، يؤدّي إلى تشكّل عمليات تأقلم متبادل لا تمثّل درجة عمقها معطى ثابتاً في جميع الحالات، إذ أنها ليست جامدة بل تتغيّر حسب أطراف اللعبة[٧١٦].

في إطار من هذا النوع، تتنشّط تأثيرات قوية من عنصر إلى آخر والإعلام هو

(712) A. Pilati, " L'Industria dei Media ", in il Goirnale " Il Sole 24 Ore ", Milano, 1990, and P. Glisenti & R. Pesenti, " Persuasori e Persuasi. I Mass Media degli Anni novanta ", Ed. Laterza, Bari, 1990, pp. 137-170.

(713) Lazarsfeld & Merton, " Mass Communication, Popular Taste and Organized Social Action ", Ed. Bryson, Cooper Square Publisher, new York, 1948, trad. " Mezzi di Comunicazione di Massa, gusti popolari e Azione sociale Organizzata ", in V. Capecchi, Roma, 1967, pp. 829-856.

(714) Schulz, Ausblick am Ende des Holzweges, cit., pp. 49-73.

(715) Blumer – Gurevitch, op. cit., pp. 236-267.

(716) Wolf, cit., p. 163.

جزء متكامل مع دينامية التبدّل والتأقلم هذه، بين مختلف أطراف المنظومة الاجتماعية. ولكن من الواضح أيضاً أنه بالنسبة للإعلام نفسه، ضمن هذا الأفق، تتداخل محدوديات مرتبطة بالحضور التشاركي لآليات اجتماعية أخرى، فنفوذ التلفزة يفضي بالضرورة، إلى الاعتراف بسلطات أخرى تتفاعل معها[٧١٧].

• تبعيّة متبادلة ورؤية

هناك عنصر آخر يمكن أن يخدم في تبيان البعد الماكرواجتماعي للتأثيرات الإعلامية، وهو اللاتزامنية في الأنشطة، أي نمو عدم التجانسية في الأنشطة التي يقوم بها الإنسان خلال اليوم على مدار أربع وعشرين ساعة[٧١٨]. ويرتبط هذا الاتّجاه بتبدّلات اجتماعية أكثر عمقاً أخرجت إلى حيّز الوجود جوانب عدّة كالانتماء المتعدّد الأطراف للأشخاص ولأدوارهم المهنيّة ومجالاتهم الاجتماعية، ومن المشروع الاعتقاد بأن اللاتزامنية في الأنشطة وانتشار نموذج استعمال الوقت حسب معايير تتابعية، بدلاً عن المعايير المتزامنة، ستؤدّي إلى حاجة متنامية للتكامل الاجتماعي يستند إلى المشاركة في أحداث ذات مغزى متّجهة نحو البحث عن مشاعر انتماء مشترك، في مجتمع معقّد حيث لم يعد التنظيم الزمني يقوم بمهمّته التكاملية والمتعلّقة بالهويّة الاجتماعية[٧١٩].

إن الأدوار التي يمكن للإعلام أن يمارسها من خلال صناعة ونشر الأحداث الإعلامية، واضحة في هذا المجال، وواضح أيضاً أن الدور الذي تمنحه هذه الأحداث يمكن أن يكون سواء نتيجة لنزعات اجتماعية عائدة إلى اللاتزامنية، سواء مسرّع لهذه النزعات التي تغدو متنامية، أو نتيجة الأمرين معاً.

وبالعودة إلى فكرة التبعيّة المتبادلة كإطار مفهومي لدراسة التأثيرات طويلة الأجل، يلاحظ، من جهة، أن صيرورة تدويل السلوكيات الجماعية، والامتداد عبر الوطني للشبكة التي صنعها نظام وسائل الإعلام الجماهيري، من جهة أخرى، يكتسيان أهمّية متزايدة[٧٢٠].

ويرتبط المستويان (تدويل السلوكيات الجماعية وشبكات الاتّصال عبر الوطنية)،

(717) G. Bechelloni, " L'Immaginario Quotidiano. Televisione e Cultura di Massa ", Ed. ERI, Torino, 1984, pp. 68-72.

(718) A. Chiesi, " Sincronismi Sociali. L'Organizzazione Temporale della Società come Problema Sistemico e Negoziale ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1989, p. 43.

(719) Ibid., p. 244.

(720) M. Ferguson, " Electronic Media and the Redefining of Time and Space ", Ed. Ferguson, Public Communication, Sage, London, 1990, pp. 152-172.

ارتباطاً عضوياً، لأن الإعلام يسهّل، بصورة كبيرة، انتشار السلوكيات الجماعية خارج حدود المجتمع الواحد. غير أن هذه العناصر تتبادل التأثير أيضاً مع متغيّرات اقتصادية وسياسية واستراتيجية[٧٢١].

إن التأثير التبادلي الناجم عن الإعلام يتّخذ أشكالاً متنوّعة، وهو غنيّ بتأثيرات يمارسها، عبر إنتاج ونشر الرسائل الأيديولوجية واتّجاهات الأنظمة الثقافية والخيارات الاقتصادية والسياسية[٧٢٢]. ومن خلال الارتباط بتدويل السلوكيات الجماعية، تعمل في المنحى نفسه وتعطي نتائج ملموسة، عوامل أخرى كثيرة وشروط وعناصر ومتغيّرات تشكّل الظاهرة الإعلامية فيها، فقط شرطاً مسبقاً بالنسبة للسلوكيات الجماعية.

وهناك جانب آخر يفيد في ترسيم تأثيرات الإعلام الجماهيري في المستوى الماكرواجتماعي، هو ما يتعلّق بالمساحة المرئية التي يكتسبها النظام الاجتماعي، من خلال عمل الإعلام، من أجل الأفراد. غير أن اتّساع تلك المساحة لا يعني إطلاقاً شفافية، بل على العكس، قد يرافقه تحريف وتعتيم[٧٢٣].

إن الروايات حول العالم[٧٢٤] المرتبطة بالاتّصال المعمّم، يمكن أن تؤدّي إلى تسليط الضوء على العديد من الآليات ومن الأدوات الداخلية لبناء الثقافة الوطنية، ولكنها يمكن أيضاً أن تلتصق بعامل آخر، وهو لا يكمن في كشف النقاب عن تاريخية أنظمة القيم، جاعلاً محاولة الهيمنة عليه نسبية، وإنّما في جعل مناطق عديدة من العالم وصيرورات التغيّير مرئية، مرّة بعد مرّة، حسب منطق إيراد آخر الأحداث والوقائع والحاضر الذي يصبح عبر رواية تطوّراته وسيروراته، تاريخاً، وكلّ ذلك من أجل خلق ازدحام على شرف القابلية الإخبارية لتلك الأحداث[٧٢٥]. وأكثر ممّا أن يرى مجتمع تآكل حتّى مبدئه المرتبط بالواقع، هناك تغذية فائقة ومستمرّة لما يسمّيه دوركهايم إحساس مجتمع ما تجاه ذاته[٧٢٦].

وهكذا، يلفت الإعلام باستمرار إلى موضوعات يجعلها تطفو على السطح ويرسّبها في الإدراك الجماعي ويخزّنها في مخازن المعرفة التي تتألف من ثقافة الاجتماعي داخل رقائق الزمن. ويضع الإعلام جوانب جديدة من الواقع في مركز الانتباه الآني،

(721) Ibid.
(722) J. Sassoon, " Dipendenza e Interdipendenzqa nel Sistema Ibternazionale. Un Esame dei Modelli Teorici ", in Quaderni di sociologia, n° 3, 1980, pp. 367-392.
(723) Wolf, cit., p. 166.
(724) G. Vattimo, " La Società Trasparente ", Ed. Garzanti, Milano, 1989, p. 38.
(725) Ibid. p. 40.
(726) Ibid.

لتصبح قضايا ينظّم حولها النقاش العام ونقاط المرجعية، مشكّلاً على الدوام، مناخات رأي. إن تجزئة الإعلام لقضايا الساعة وعمله الدؤوب كمرسي ومرفأ جماعي لقطاعات الرأي العام، يسرّع مسار تفتيت الواقع الذي تموت الأيديولوجيات الشمولية في مواجهته[٧٢٧].

في هذا الأفق، يمكن أن تكمن إحدى طرائق تأثير الإعلام على النظام الثقافي والاجتماعي، في تنظيمه المستمر لمشهد القيم التي تتمفصل حولها المواجهة العامة حول قضايا الساعة[٧٢٨].

بهذا الشكل، يصبح الإعلام جزءاً لا يتجزّأ من مجمل المؤسّسات التي تسهم في تكوين الآراء الأخلاقية للأشخاص، والحقيقة أنه من النادر جداً أن يختار شخص ما موقفاً أخلاقياً على أسس أخلاقية فردية[٧٢٩].

إن الرؤية التي يصنعها الإعلام تكمن في أن تطفو على السطح أجزاء من النظام الاجتماعي، مشكلات، توتّرات، جماعات، ولكنه طفو مؤقّت وآني، يفرض حتمية أن تنظّم جماعات ومؤسّسات أخرى حول هذه الأجزاء والمشكلات والمجموعات حلولاً، ولكن هذا الطفو الذي يقوم به الإعلام يبقى على الدوام حركة تختزن مصالح وتنظّم آفاق مواجهة وصراع، تدور حول قيم متناقضة[٧٣٠]. إن الرؤية الأكبر للاجتماعي تبلور إعادة طرح متنامٍ للصراع وللفروق الاجتماعية. هذا يعني أن الإعلام يمكنه أن يشكّل حافزاً لتجمّعات مؤقّتة مركّزة حول تعارض في القيم، فيما يخص موضوعات ومشكلات تؤدّي دائماً وبصورة متزايدة، إلى تآكل الجزء الخفي وغير المرئي من المجتمع[٧٣١].

ضمن هذا الأفق من الصعب الاعتقاد بأن الإعلام يتحرك فقط كعامل استقراري وأن عمله يكمن فقط في تجميع القبول العام، فالحروب لم تنته إطلاقاً بل انتقلت من مكان إلى آخر بل وأصبحت أكثر شراسة، ولم تعد الحلول الوسط ممكنة[٧٣٢].

وكلّما نشر ودعم هذا المستوى من الصراعية حول المبادئ من قبل الإعلام، كلّما نمّى هذا الإعلام نفسه، بشكل انعكاسي، هذه الاتّجاهات والميول، ذلك لأنه يعمل أيضاً كأداة تعكس التنقّل المكاني في هذا الضرب من الصراعات، عبر الاستعمال الكثيف لاستطلاعات الرأي والتحقيقات والإحصائيات الأخرى.

(727) A. Minc, La Machine Égalitaire , 1987, cit., p. 165.
(728) Wolf, cit., p. 167.
(729) M. Douglas, " How Institutions Think ", Ed. Syracuse University Press, Syracuse, 1986, p. 178.
(730) Minc, op., cit., p. 129.
(731) Wolf, cit., p. 167
(732) Minc, cit., p. 129.

إن التساؤل حول مسألة حيّز الرؤية الذي ينشّطه الإعلام، يفضي إلى كشف نوعين من التأثير[٧٣٣]: أحدهما عبارة عن نوع من الحمّى المستمرة التي ينشرها الإعلام ويدعمها، مقدّماً موضوعات تتطلّب دوماً تحالفات وتجمّعات حولها، والنوع الآخر هو عبارة عن قيام الإعلام بعمليات استقلابية للقضايا وللمشكلات وللمهمّشات الاجتماعية التي تتقدّم، شيئاً فشيئاً، لتصبح في مركز الانتباه ولتدخل في التراث المعرفي والوجداني للمجتمع، بقطع النظر عن أن تجد تلك القضايا والمشكلات حلولاً لها أو أن تكون قد خضعت لتغيّرات جوهرية[٧٣٤].

لا شك أن اللاتزامنية بين الإدراك والمعرفة وقيادة الاجتماعي تبدو اليوم موضوعاً ذا أهمّية كبرى. من هذه الزاوية، يبرز نمو مساحة الرؤية المتزايد الميل نحو تزوّد بسيط ويومي من الإعلام، ونحو اكتشاف أقلّيات جديدة ومجموعات اجتماعية تعيش شروطاً وأوضاعاً مهمّشة ومتباينة. إن تمدّد هوامش الاجتماعي المتعرّف عليه، أي السلوكيات والمجموعات والمشكلات التي اكتسبت شرعية فرض نفسها كأفعال ووقائع اجتماعية، ونمو مساحة رؤية المجتمع الذي يجري تفسيره كظاهرة معقّدة، والحركة الدائبة في امتصاص صراعات وفي توليد أخرى، كلّ ذلك، يبدو أنه يمثّل اتّجاهات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومترابطة مع عمل الإعلام، بدءاً من قطاع المعلومات، ولكن أيضاً من العمل الشامل للنظام الإعلامي[٧٣٥].

على جانب آخر، يلاحظ أن الرسائل الإعلامية المحتوية على جميع قطاعات المعرفة يسهل الوصول إليها بشكل أكثر مساواة بالنسبة لكلّ الأشخاص. وغالباً ما تقدّم تلك الرسائل إدراكاً أكثر ممّا تقدّم فهماً[٧٣٦]. ويشكّل هذا العنصر أهمّية من أجل تحديد أكثر تشعّباً لفكرة اتّساع رؤية الاجتماعي المتنامية للعمل الإعلامي. إن ما يشار إليه دائماً هو بروز جوانب لم تكن مرئية، حتّى للإعلام نفسه، وكأن حزمة ضوئية تحرّك مواقعها باستمرار، مسلّطة الضوء على أجزاء جديدة من الخريطة تبقى، مع ذلك، غير محدّدة تماماً. غير أن تأثير الرؤية ليس مطلقاً وليس منفلتاً من عوامل ظرفية، بل هو مقيّد بشرطين على الأقل: الأول يكمن في نوعية العلاقات التي تنشأ، ضمن سياقات مختلفة، بصورة متشعّبة، بين نظام الإعلام والعناصر الأخرى للنظام الاجتماعي. ويتجلّى الشرط الثاني في أن التأثير ملتصق بقوّة، بقواعد القابلية

(733) Wolf, cit., p. 168.
(734) Ibid.
(735) Ibid.p. 169.
(736) J. Meyrowitz, No Sense of Place, cit., p. 327.

الإخبارية للإعلام المعلوماتي، الذي يضمّ ذات المنطق المرتبط بالرؤية، إلى معايير الأهمّية الخاصة به والثابتة والمترسّبة في بنيته، ولكن القابلة أيضاً للتغيّر[٧٣٧].

هناك جانب إضافي يظهر تأثيرات الإعلام في المستوى الماكرواجتماعي، وهو ما يطلق عليه التأثيرات الإنزياحية (dislpacement effects)، حيث تقلّ أو تضمحل بعض أنواع الأنشطة بسبب استهلاك الإعلام، وبخاصة التلفزة، مؤدّية إلى تغيّرات حقيقية في النماذج الثقافية في مجتمع ما وخلال حقبة تاريخية معيّنة[٧٣٨]. وأفضل مثال على ذلك يتّصل بالعلاقة بين التلفزة والسينما، وبين التلفزة وقراءة الكتب على مستوى الاستهلاك، والتفسير الذي أورده الباحثون حول هذه المسألة ينسجم مع فرضيات نظرية الاستخدامات والإشباعات.

ثمة أوجه اجتماعية مهمّة ترتبط بتأثير التلفزة[٧٣٩]، نجمت عن تحليل مقارن لحالات تمّ فيها إدخال التلفزة في أوقات مختلفة. ويرى الباحثون أن سهولة مشاهدة التلفزة تقلّص عملية الاختيار، وهذا ما يشكّل التأثير السلبي الرئيس للتلفزة[٧٤٠]، ولا يستطيع معظم الناس أن يعترفوا بأن في قرارهم مشاهدة التلفزة تكمن خيارات وقيمة إضافية موجودة داخل التأثيرات الإنزياحية على المستوى الماكرواجتماعي، حيث يسهم استهلاك التلفزة في تخفيف أو اضمحلال نماذج اتّصال تبادلي أخرى وأنشطة وثقافة[٧٤١].

الجوانب المنهجية

إن اتّجاه البحث حول التأثيرات الطويلة الأجل والتراكمية، تقتضي ضرورة إعادة تفكير عميقة في المستوى المنهجي. فملاءمة تقانيات الملاحظة وتجميع المعطيات مع طبيعة المشكلات، تشكّل خطوة لا غنى عنها نحو مسارات لم تنجز بعد. وإذا كان يجري التشديد، من ناحية، على تبدّل في الأفق حول موضوع التأثيرات، لم يبذل، من ناحية أخرى، الجهد المطلوب لإعادة توجيه المنهجية بما يخدم الأهداف الجديدة التي تمّ التعرّف عليها وتحديدها.

(737) Wolf. Cit., p. 170.
(738) J. Mc Leod & B. Reeves, " On the Nature of Mass Media Effects ", Ed. Whitey-Abeles, Television and Social Behavior, Erlbaum, Hillsdale, 1980, p. 34.
(739) F. Williams, The Impact of Television, Ed. Academic Press, London, 1986, p. 9.
(740) E. Medrich, " The Serious Business of Growing Up ", Ed. University of California Press, in Wolf, cit., p. 173.
(741) Williams, op. cit.

ويلاحظ بعض الباحثين[٧٤٢] أن النتائج الناجمة عن غياب التأثيرات الإعلامية (نموذج التأثيرات المحدودة الذي جمّد البحث خلال فترة معيّنة)، تتعلّق بمنطق البقاء نفسه. ويمكن قول ذات الشيء حول تحليل المضمون، وخاصة فيما يتّصل باستخدامه استناداً إلى تأثيرات مفترضة من النوع التراكمي.

في دراسة التأثيرات الإعلامية الماكرواجتماعية، أي تلك المرتبطة بصيرورات ممتدّة في الزمان والمكان، وبالتنظيمات والمؤسّسات كالدولة والطبقة والثقافة والتنظيم والتغيّير الاجتماعي، يمكن لاستخدام المؤشّرات التي ترجع إلى معارف واتّجاهات وسلوكيات فردية، أن تمثّل وساطة ضرورية وغير قابلة للإلغاء، ولكنها تثير بعض مشكلات تتعلّق بالتجانسية بالنسبة لتعريف التأثير الماكرواجتماعي نفسه[٧٤٣]. وإذا تمّ الابتعاد عن التأثيرات البسيطة لالتقاط تلك المتبادلة بين النظام الإعلامي والأنظمة الأخرى، يصبح من الضروري إيجاد مؤشّرات مناسبة لظواهر ذات طبيعة ممتدّة ومعقّدة.

وكلّما اتّجه البحث نحو دراسة التأثيرات البعيدة المدى ذات الطابع الماكرواجتماعي، يتفاقم حدّ موضوعي متمثّل في الصعوبات الحقيقية التي تنشأ في مجال تقانيات البحث: فإهمال الأفق التاريخي ليس ناجماً عن عدم اهتمام أو عن عدم اعتراف بأهمّية التأثيرات الطويلة الأمد، بل عن القناعة بأن تلك الدراسات تتطلّب معطيات لا يمكن الحصول عليها.

من الضروري التشديد، بشكل عام، على أن اختيار الاستمارة بدلاً عن المقابلة أو الملاحظة التشاركية، لا قيمة له بحدّ ذاته، ولكنه يكتسب معنى فقط داخل سياق معيّن للبحث وحسب درجة التلاؤم مع النظرية أو الفرضية التي ستنجم عنها[٧٤٤].

- **سببية وتأثيرات بعيدة المدى**

من المستحيل عملياً تحليل التأثيرات الطويلة الأجل بشكل منتظم، لأن كلاً من المعايّير القاعدية التي يمكن تحليلها مرتبط بجملة من الظواهر الإضافية[٧٤٥]. مع ذلك، يمكن الإشارة، بصورة إجمالية، إلى المسار الضروري لبناء دينامية التأثيرات التراكمية، على الشكل التالي[٧٤٦]:

(742) Lang & Lang, Methods as Master or Mastery over Method, op. cit., pp. 49-63.
(743) L. Bovone & G. Rovati, " Sociologie Micro, Sociologie Macro ", Ed. Vita & Pensiero, Milano, 1988, p.8.
(744) A. De Lillo, " Cenni Metodologici e schemi Interpretativi della Sociologia ", in Livolsi, Ed. Teti, Milano, 1980, p. 66
(745) R. Bauer & A. Bauer, «America, Mass Society and Mass Media ", in the Journal of Social Issues, 1960, in Wolf, cit., p. 176.
(746) McLeod & Reeves, On the Nature of Mass Media effects, op. cit., p. 40.

١- اعتبار مضامين الإعلام متّصلة بشكل له معنى بأنماط الاستهلاك الإعلامي التعدّدي من جهة، وبتحليل السياقات وصيرورات الاستهلاك، من جهة أخرى. هذا يعني أنه من الضروري تحرير هذه المرحلة من الدراسة البسيطة والبحتة للمضامين، بهدف إدخالها في السياقات ضمن المنطق الملموس لصيرورات الاستهلاك.

٢- النظر في نوعية الاستهلاك، أي استدعاء تلك المتغيّرات التي تشير إلى طرائق صيرورات تعلّم واستيعاب المضامين الإعلامية، ضمن نطاق دينامية اتّصالية هي، بطبيعتها، تراكمية. بكلمات أخرى، تعدّ مقاييس التعرّض مؤشّرات فقيرة لمعرفة قوّة العلاقة بين التعرّض والتأثير.

٣- وضع فرضيات لنوعيات من التأثيرات التي يمكن أن تقترن بالاستهلاك الإعلامي التعدّدي.

٤- معرفة الصيرورات المختلفة التي تتدخّل في علاقة الموضوع المبحوث، والتي يمكن جعلها عملية وقابلة للتطبيق على شكل متغيّرات شرطية ومتغيّرات ظرفية (المتغيّرات الأولى تسبق المتغيّر المستقلّ للاستهلاك الإعلامي التعدّدي، وتتحرك الثانية بين المتغيّر المستقلّ والمتغيّر التابع).

إن إدخال شروط ظرفية يجب أن يتم تحديدها بشكل دقيق، عبر تحديد علاقاتها مع التعرّض للإعلام ومع التأثيرات، ويجب إعادة بناء مختلف حلقات السلسلة السببية لكي يصبح ممكناً تفسير صيرورة التأثير بدقّة أكبر.

وهناك مثال يحقّق جزئياً وبشكل تدريجي هذه الشروط، يتجلّى في الميل إلى تحديد عبر - ثقافي لشروط وجود تأثير فعلي للإعلام، عن طريق تحديد المتغيّرات البنيوية والاجتماعية - الثقافية التي تقيّد دينامية التأثيرات بالسياق[٧٤٧].

أيضاً الاتّجاه اللازرسفيلدي الجديد، الذي يرمي إلى استعادة سياق الاستهلاك الإعلامي، بكلّ أبعاده المتعدّدة، في تحليل التأثيرات التراكمية، يندرج ضمن إطار الجهد المبذول في عدم التعامل مع هذه التأثيرات وكأنها نتائج شاملة مستقلّة عن طبيعة المجتمع ومستقلّة عن عامل الزمن[٧٤٨]. من المهمّ، إذن، أن يتم التشديد، في عمليات تحديد وتطبيق البحث حول التأثيرات بعيدة المدى، على المبدأ القائل إن نموذجاً يربط القيم التي أسفر عنها متغيّر بقيم نجمت عن متغيّر آخر، معيداً كلّ التأثيرات الأخرى

(747) Wolf, cit., p. 176.
(748) Wolf, cit., p. 177.

إلى مجرّد تشويشات، يعدّ بعيداً جداً عن واقع الظواهر المدروسة، وهو لا يقدّم أية فائدة تذكر[٧٤٩]. ولذلك، يصبح من الضروري الأخذ في الحسبان تعدّدية أبعاد العامل السببي المبحوث (عمل الإعلام)، بمعنى أنه كلّما كان هذا العامل متقبّلاً للتعقيدات الاتّصالية التفاعلية، كلّما استدعى الأمر التخلّي عن عناصر سطرية الطابع[٧٥٠].

ومن الأهميّة بمكان الاستعانة بإجراءات تحليلية تضع إلى جانب المتغيّر المستقلّ متغيّرات أخرى تعدّ عوامل ممكنة لسببية تشاركية، وعناصر ملائمة بالنسبة للظاهرة التي يجري تفسيرها (وخاصة في مجال نظرية اعتبار الإعلام عامل تكيّف اجتماعي)، لإفساح المجال أمام تكامل جميع المصادر (التجربة المباشرة على وجه الخصوص) التي تقوم ببناء التمثّلات الاجتماعية والاحتفاظ بها[٧٥١].

بالتعارض مع التفسيرات التي تجعل من كمّية ومضامين الاستهلاك الإعلامي، العوامل الوحيدة التي يجب ربطها بتبدّلات عميقة يحدثها الإعلام، فإن المسار الذي يجب أن يسلكه الباحث هو عقد علاقة بين عوامل مختلفة وغير متجانسة. ففي تحليل رانز الإعلام الجماهيري على الأسرة مثلاً يجب الأخذ في الحسبان الشروط الاقتصادية الوطنية ودرجة التطوّر والعصرنة ونماذج اجتماعية أخرى تتعلّق بوضع الأسرة داخل المجتمع، بالإضافة إلى الطرائق التي يتفاعل من خلالها الإعلام، بأشكاله المختلفة من بلد إلى آخر، مع جميع هذه العوامل في عملية تأثيره على الحياة اليومية[٧٥٢]. قد يكون الهدف طموحاً وقائمة الظواهر غير متجانسة بتاتاً، والمسار صعب، ولكن تحديد التأثيرات التراكمية والطويلة الأمد تحتاج، بالضرورة، إلى تصويبات منهجية في هذا الاتّجاه.

• تأثيرات بعيدة المدى وأبحاث طويلة الأجل

إن تراكمية التأثيرات والإطار الزمني الممتدّ الذي تحدث هذه التأثيرات في نطاقه، تتطلّب استخدام تقانيات بحثية طويلة الأمد، بدلاً من تلك المتقاطعة التي تستطيع أن تحدّد، في لحظة معيّنة، ترابطات بين متغيّرات كاستخدام الجمهور للإعلام ومستوى معارف العيّنة المبحوثة، ولكنها ليست قادرة على تجسيد السيرورة الزمنية لبعض

(749) A. Marradi, " concetti e Metodi per la Ricerca Sociale ", Ed. Giuntina, Firenze, 1980, p. 81.
(750) L. Perrone, " Metodi Quantitativi della Ricerca Sociale ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1989, p. 106.
(751) D. Slater & W. Elliott, "" Television's Influence on social Reality ", in Quarterly Journal of Speech, n° 68, 1982, pp. 69-79.
(752) J. Lull, " World Families Watch Television ", 1988, op. cit., p. 243.

المتغيّرات وتأثير الإعلام فيها. ولهذا، فإن دراسة التأثيرات التراكمية يجعل عملية استخدام الجداول التي تسمح بتحديد سيرورة المتغيّرات، في مقاطع زمنية ثابتة، أكثر ملاءمة، لأنه من الواضح أن الدراسات ذات الطابع التقاطعي ليست مناسبة مع خصائص التأثير الطويل الأجل[٧٥٣]. ولكن الدراسات الممتدّة في الزمن ليست خالية من التناقضات، إذ يمكن أن ينسب سبب التأثير إلى تطوّر ونضوج الأشخاص، وإلى تأثيرات المتغيّرات المستخدمة الأخرى، أي يمكن أن يمارس تأثيراً حضور عوامل سببية مرتبطة بالزمن وغير قابلة للرصد. إلاّ أن منطق الجدول والجمع الطويل الأجل للمعطيات، يبقيان منسجمين مع فكرة التراكمية للتأثيرات البعيدة المدى[٧٥٤].

هناك إذن، مشكلة مرتبطة بطبيعة التأثيرات التراكمية ومنطق الجدول، وهي تتجلّى في صعوبة معرفة وتحديد مصدر التأثير، فيما يتعلّق بالتعرّض للإعلام وبحدوده وبحجمه. من الضروري مجابهة تلك الصعوبات بشكل مختلف عن المنهجيات التقليدية التي يتم من خلالها، تحديد رسالة إعلامية أو مجموعة من الرسائل، على وجه الدقّة، كسبب للتأثير. في الدراسات الممتدّة يكتسب تجسيد المتغيّر " التعرّض للإعلام " أبعاداً أكثر تعقيداً من الدراسات التقاطعية، ما يؤدّي إلى جعل عملية الرصد ذات إشكالية[٧٥٥]. فكلّما طال زمن الرصد في تحليل التأثيرات، كلّما اضطرّ الباحث إلى الاعتماد على أجوبة أفراد العيّنة حول تعرّضهم وعاداتهم في الاستهلاك الإعلامي. وبازدياد المقطع الزمني، تصبح بعض مقاييس التعرّض المستخدمة كمتغيّر مستقلّ، موضع شكوك قويّة، وترتبط صلاحيّتها بمدى دقّة التذكّر الذي قد يخطئ، ولكن، وعلى الرغم من كلّ هذه الإشكاليات، ليس بمقدور أحد أن يستغني عن هذه المؤشّرات[٧٥٦].

وترتدي مسألة الدقّة القياسية للاستهلاك أهمّية كبيرة وتفرض الجمع بين التقانيات العادية للقياس، التي تعتمد على المقابلات والمذكّرات اليومية والاستمارات، وبين منهجيات أخرى. وهذا ما يحدث اليوم، إذ بدأ الباحثون يعتمدون، بصورة بطيئة، على الملاحظة في سياقات طبيعية وواقعية، وتتيح هذه التقانية التقاطاً أعمق لعناصر وعوامل غنية تعطي شكلاً لاستهلاك الإعلام الجماهيري[٧٥٧].

(753) Wolf, cit., p. 178.
(754) Ibid.
(755) Ibid. p. 179.
(756) Lang & Lang, Methods as Master or Mastery over Method, op. cit., p. 55.
(757) S.Lindlof & J.Lull, " Media Audience as Interpretive Communities", Ed. Anderson, Communication Yearbook, vol. 11, Sage, Newbury Park, 1988, pp. 81-107.

هناك اتّجاه آخر يصلح لحلّ مشكلة قياس الاستهلاك، وهو محاولة إعداد نماذج قادرة على إعادة بناء نظام الاستهلاك ومسارات الاستهلاك التعدّدي لوسائل الإعلام. ويكمن المعنى الشامل لهذا الاتّجاه البحثي في إدراك أنه من أجل دراسة التأثيرات التراكمية والطويلة الأمد، يجب الانتقال من التعرّض لمضمون خاص، إلى التعرّض لنوعية معيّنة من البيئة الرمزية، الذي يتشكّل خلال فترات طويلة من الزمن(٧٥٨). ويعدّ هذا الجانب مرئياً بوضوح كبير في نماذج البحث التي تتصدّى لدور الإعلام في صيرورات التكيّف الاجتماعي، وفي قدرته على بناء صور اجتماعية من الواقع وفي دراسات التأثيرات الإعلامية على الأنظمة الاجتماعية الأخرى. ففي كلّ من هذه المجالات، لا يمكن تحديد مصدر الرائز الإعلامي عبر المنهج الكمّي لاستهلاك الرسائل فحسب، ولكنه يقتضي أيضاً مقاربة أكثر تشعّباً وامتداداً لوجود الاستهلاك كمعطى ثابت للحياة اليومية(٧٥٩).

• منهجيات البحث النوعي

تتعلّق هذه النقطة باتّجاه أصبح مهمّاً على المستوى المنهجي في الدراسات الإعلامية، وهو وجود مقاربات نوعية متميّزة، ولكن غير متعارضة، مع تلك الكمّية.

إن الدراسات العرقية حول سلوك الجمهور الإعلامي تقضي إلى أن يعيش المحلّل لفترة من الزمن في البيئة الطبيعية التي يتم فيها استهلاك الإعلام(٧٦٠)، مستخدماً الملاحظة والمقابلات العميقة، لإتاحة التقاط معنى الاستهلاك الإعلامي والتحرك الفعلي الاتّصالي، عبر تحليل التلقّي والمعاني المتقاسمة والنشاط والتفاعل الاتّصالي للأشخاص المبحوثين(٧٦١).

(758) Lang & Lang, Methods as Master or Mastery over Method, 1985, cit., p. 57.
(759) Wolf, cit., p. 180.
(760) J.Lull, " Ethnographic Studies of Broadcast Media Audience ", Ed. Dominick & Fletcher, Boston, 1985, pp. 80-88.
(٧٦١) يقترح لول سبعة أيام من الملاحظة داخل البيئة الطبيعية للاستهلاك الإعلامي، قابلة للتقسيم إلى ثلاثة مراحل.
الأولى ترمي إلى معرفة الخلفية الأسرية والبيئة المادّية ومعطيات أساسية وسياقية. والمرحلة الثانية يجب التركيز على التابعية الاتّصالية المتفاعلة وعلى الروتين الأسري والنماذج الاتّصالية واستعمال الإعلام ومستويات أعمق من المعلومات على الجوانب التفصيلية. المرحلة الأخيرة تخصّص لمراقبات وتحقّقات حول ملاحظات خاصة وقواعد السلوك والأسس النظرية التي تربط بين المعطيات وفرضية العمل. من المناسب أيضاً إجراء مقابلات منفصلة لكل فرد من أفراد العائلة.

لا شك أن الخروج من التحليل الكمّي، يتيح إمكانية التقاط أفضل لاختلاف طبيعة التأثيرات على المدى الطويل، لأن تسليط الضوء على ما يمكن قياسه بصورة دقيقة يخلي مكانه للانتباه إلى التأثيرات التراكمية، المتبادلة والتسلسلية(٧٦٢).

إن إعطاء مساحات أكبر لهذه المقاربات " الطبيعية "، يجب ألاّ تطرح تعارضاً بين الكمّي والكيفي، كما حدث بالنسبة للتعارض بين البحث الإداري والاتّجاه النقدي، فالأمر الإيجابي يكمن في قرن مَفْهَمة مختلفة للتأثيرات مع مفصلة أكثر تلاؤماً لأدوات جمع المعطيات(٧٦٣).

ويدل على هذا التبدّل في مجال اللاتعارضية، الوضوح الذي يرتسم من خلاله الارتباط بين موضوعات تدعمها اللازرسفيلدية الجديدة من جهة، وبروز بعض المنهجيات النوعية من جهة أخرى. وهي تهدف جميعاً إلى دراسة الصيرورات التي يقوم الأفراد من خلالها بتضمين التقانيات الاتّصالية في خطط عملهم وأهدافهم ودوافعهم المتغيّرة.

هذا يعني التحقيق الفعلي للتفاعلات اليومية مع الإعلام. وبالتالي، تتم دراسة منتظمة لسياقات تعبّر عن حالات معيّنة يجري فيها استهلاك واستعمال الإعلام(٧٦٤).

وخلافاً لنموذج الاستخدامات والإشباعات الذي كان يربط بشكل مباشر، دينامية التأثير بتنميط الاستعمالات وبالأسباب الكامنة خلفها، فإن الأفق المعرفي المفتوح من قبل المقاربات النوعية موجّه نحو الواقع الأكثر تعقيداً والذي يعود إلى صيرورات تكيّف اجتماعي وعمليات بناء تمثّلات اجتماعية. إن فكرة دراسة " الجمهور الإعلامي الطبيعي " عبر منهجيات نوعية ترمي إلى تحليل كيف أن اتّصال الإعلام الجماهيري، منظّم كنشاط عملي داخل سياقات الثقافات المحلّية، أو كيف يجري تحديد وبناء الكفاية في فك رموز مضامين الإعلام، أو كيف تتطوّر الشخصية الإنسانية عبر الاستعمال الاصطفائي، وليس الاعتباطي، لوسائل الإعلام الجماهيري(٧٦٥).

وهكذا، تصبح المقاربة النوعية أداة لا غنى عنها من أجل بناء أكثر غنى وتشعّباً للصيرورة التي يتحول فيها الإعلام إلى أساليب وأدوات ومناسبات ومصادر، تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الحياة اليومية، ومن آفاقها المعرفية ومن تجاربها التي يكسبها الإعلام بالمعنى(٧٦٦).

(762) Lull, 1985, cit.
(763) Wolf, cit., p. 181.
(764) Lindlof, " Natural Audiences. Qualitative Research of Media Uses and Effects ", Ed. Ablex, Norwood, 1987, p. 1.
(765) Ibid., p. 2.
(766) Wolf, cit., p. 182.

وإذا كانت هذه الموضوعات تحدّد جزءاً من التأثيرات الطويلة الأجل، من الجلي، إذن، أن التوافق والتحالف بين المنهجيات النوعية وتلك الموضوعات، ترتدي أهمّية كبيرة. ذلك أن الأمر لم يعد مجرّد استهلاك في جوانبه الكمّية والمضمونية، ولكنه الاستهلاك بمعناه المتنوّع والمفهومي، وهو ما يمثّل حقل تطبيق المنهجيات الكيفية. داخل هذا الإطار، يصبح من الممكن التحرّي عن كيفية استخدام الأفراد لأشكال ومضامين الإعلام من أجل صياغة قرارات واستخلاص استدلالات حول طبيعة عالمهم، وهذا حقل يمكن توظيفه بشكل مثمر من خلال إطار ذي طابع تفسيري[٧٦٧].

من المؤكّد أن الصعوبات الداخلية لمنهج الملاحظة الطبيعية، كعدم إمكانية سحب وتعميم النتائج، أو خطورة حرف أو تشويه الظواهر المراقبة بسبب حضور الباحث، تشكّل عقبات صعبة التجاوز والتي توضّح، جزئياً، ضآلة نجاح هذه المنهجيات في الدراسات الاتّصالية. ولكن يبقى صحيحاً أن المؤشّرات القويّة الناجمة عن هذه المحاولات، تدفع إلى التفكير بالإعلام كحوامل معنى في عقول وقلوب الجمهور الإعلامي، ومن المفيد تفسيرها كأجزاء من نماذج بنيوية ودينامية للسلوك والقيم والأنشطة الاجتماعية البحتة المزوّدة بالمعنى والمنظّمة والمتكاملة، داخل سياقات أكثر اتّساعاً[٧٦٨].

ويندرج جزئياً في ذات الخط أيضاً منهج " السيَر الحياتية الإعلامية "[٧٦٩]، الذي يهدف إلى فهم العلاقة بين التجربة اليومية للأفراد واستخدام الإعلام ونماذج التفسيرات التي يطبّقها هؤلاء الأفراد على الإعلام. كما أن اللجوء إلى حوارات في العمق، يسمح بالوصول إلى عوالم معنى تتموضع في الأعماق، عبر ما يطلق عليه كوبلر " المقابلة القصصيّة ". وتعاني هذه التقانية من محدوديّات كبيرة في مجال القابلية للتطبيق الممتدّ وللتعميم، ولكنها تتمتّع، مع ذلك، بالقدرة على توفير معطيات ذات مغزى حول عوامل التكامل بين الحياة الاجتماعية واستهلاك الإعلام، فيما يتعلّق أيضاً بمسألة أن السير الحياتية الإعلامية تستطيع تسليط الضوء على صيرورات تحدث خلال مقاطع زمنية مطوّلة[٧٧٠].

إن المعطى المهمّ الذي يبرز من مؤشّرات تلك الاتّجاهات، هو الجهد المبذول لجعل تقانيات القياس متعدّدة عبر تنسيقها في تكاملية منهجية، وهو اتّجاه يسير جنباً إلى جنب مع اكتشاف الجوانب المختلفة التي تدخل على الخط، فيما يتعلّق بمشكلة

(767) Linlof, 1987, cit., p. 13.
(768) Wolf, cit.
(769) H. D. Kubler, " Medien und Lebensgeschichte ", 1982, in Wolf, cit.
(770) M. Kaase & W. Langenbucher, " Medienwirkungen auf Gesellschaft und Politik ", 1987, in Wolf, cit.

التأثيرات التراكمية. ففي الأبحاث المرتبطة بالتأثيرات الإعلامية يجب افتراض نظام معقّد من العلاقات بين متغيّرات موجودة داخل كلّ نظام، وبين أنظمة متباينة، لا يمكن تمثيلها من خلال التصاميم المعتادة للعلوم الاجتماعية[٧٧١].

وتدخل ضمن هذا الخط أيضاً استراتيجية تطبيق أكثر اتّساعاً ممّا جرى استخدامه حتّى اليوم في دراسات الإعلام، وهي تحليل الحالات[٧٧٢]. من الواضح أن هذا الإجراء يجب أن يقاد من قبل أفق نظري ملائم.

لا يكمن الهدف الجوهري للنظرية، في هذا السياق، في توليد فرضيات ذات قابلية كبيرة للتعميم، ولكن في توضيح صيرورات تمارس تأثيراتها على النتائج النهائية[٧٧٣]. إن تحليل الحالات يطرح منهجاً ذا طبيعة تشخيصية بشكل جوهري، حيث يجري فحص حالة يتم فيها اكتشاف صيرورات أو جوانب تطوّرية قابلة بصورة كبيرة للتوثيق والتفسير كتأثيرات للإعلام أو كنتائج لتلك التأثيرات. وهناك ناحية إيجابية لهذه الاستراتيجية وهي أنها تسمح بملاحظة عدد كبير من المتغيّرات ومن التأثيرات التي تعمل في مستويات متباينة، عبر ارتباطات متبادلة[٧٧٤]. بهذه الطريقة، من المفترض أن يكون بالإمكان تسليط الضوء على تلك التبعيّات التبادلية التي اتّضحت أهمّيتها من أجل التعرّف على دينامية التأثيرات البعيدة المدى.

ولكن ثمة صعوبات أيضاً بالنسبة لتحليل الحالات، منها، على سبيل المثال، إمكانية تحديد طبيعة الحالة المدروسة، أي معرفة فيما إذا كانت الظاهرة دورية أو ظرفية فقط. وهناك مشكلة أخرى تتعلّق بمدى القدرة على إعادة بناء التدفّقات الاتّصالية المناسبة في مستوياتها المختلفة، وعلى اصطفاء أهمّها، من بين مواد عديدة غير متجانسة، من أجل إعادة بناء الحالة. وتكمن صعوبة أخرى في مَفْهَمة الحالة الخاضعة للتحليل بصورة ملائمة ومفصلة قدر الإمكان، بالإضافة إلى محدودية إمكانية التوصّل إلى تعميمات مرضية، انطلاقاً من أحداث وحالات خاصة، غير أنه تمّ تذليل هذه الصعوبة الأخيرة من خلال النقد الموجّه إلى جعل اللامفهمة مطلقة في فرضيات التأثير الإعلامي.

على أي حال، من الضروري التشديد على أن اقتراح استخدام أكبر لتحليل الحالات، يندرج في الاتّجاه الرامي إلى استكمال الخيارات المنهجية بالتوازي مع

(771) Lang & Lang, 1985, cit. p. 63.
(772) Ibid.
(773) Ibid.
(774) Ibid. p. 62.

تنامي المتغيّرات التي تؤخذ في الحسبان. ويعدّ ذلك معطى إيجابياً ومؤشّراً على النمو والزيادة التي تمّ التوصّل إليها في دراسات الإعلام الجماهيري، ولكن، وفي الوقت نفسه، إذا تمّت استعادة بعض السوابق التي أهملت وهمّشت أو تبدّدت، فإن ما يشار إليه على أنه جديد تماماً في حقل مشكلات التأثيرات، غالباً ما يحتضن تراثاً يعود إلى عشرات السنين[٧٧٥].

* * *

(775) Schulz, 1982, in Wolf, cit., p. 184.

الفصل الثالث

آفاق نظريات التأثير في الإعلام الجماهيري

حصيلة

لا شك أن عرض حصيلة للمراحل التي مرّت بها الدراسات الإعلامية، ولأهم المشكلات التي تعرّضت لها، وعملية ربط تلك الحصيلة بفرضية تفسيرية حول التطوّر الذي طرأ على البحث الإعلامي، قد يؤدّي إلى تقديم إطار تبدو فيه الروابط والعلاقات بين مختلف اتّجاهات البحث، وكأنها متينة ومتناسقة أكثر ممّا هي عليه في الحقيقة، وهذا ما يقلّل من حقيقة التفتّت وعدم التجانس الذي تعاني منه الدراسات الإعلامية، حيث توجد أكوام منها في جميع أنحاء مؤسّسات البحث العلمي والجامعات ومراكز البحث المنتشرة في جميع أنحاء العالم، ولكنها أكوام غير منظّمة ومتداخلة ومكرورة ومعزول بعضها عن البعض الأخر، ويرجع ذلك إلى عدم وجود تواصل منتظم بين مواقع البحث المختلفة وإلى اختلاف شديد في الأولويات والاهتمامات الناجم عن تنوّع المشكلات والمعضلات المرتبطة بالاتّصال الإنساني، وعن التفاوت القائم بين المجتمعات الإنسانية في درجة التطوّر وفي العلاقات بين الظاهرة الإعلامية والظواهر الاجتماعية الأخرى، وفي موقع الإعلام الجماهيري ومكانته وأدواره، وفي طبيعة حاجات الجمهور الإعلامي ومتطلّباته، وفي آليات التبعيات التبادلية بين هذا الجمهور ووسائل الاتّصال بمختلف أنواعها وأشكالها.

غير أن الوضع البحثي الحالي يتجلّى، بصورة عامة، في وجود مؤشّرات حول أن البحث الإعلامي آخذ بالتماسك تحت وطأة دفع قوي للمقاربة السوسيولوجية التي تضع

في مركز المسألة العلاقات القائمة بين البنية الاجتماعية وأنظمة السلطة ونماذج القيم السائدة في كلّ مجتمع.

وتكمن وظيفة الاتّصال الجماهيري داخل تلك العلاقات والروابط، في بناء خريطة عملية للعالم من أجل الجمهور المتلقّي، وفي إعداد موسوعة من المعارف والاتّجاهات والكفايات. وتشكّل دراسة تركيبة هذه الموسوعة الإعلامية ومضامينها، وتحليل الثقافة الإعلامية وتموضعاتها، أي تحليل العلاقة الثلاثية القطبية بين الإعلام والشروط الاجتماعية والأفق الذي يتمتّع به الفرد في المجتمع، المسارات الرئيسة الأكثر وضوحاً في عملية إعادة التنظيم السوسيولوجي لهذا الحقل من الأبحاث[٧٧٦].

ويرافق هذا كلّه إدراك أن نظاماً إعلامياً يتّجه نحو التعقّد المستمر، يستوجب، لكي يجري تحليله بصورة ملائمة في جوانبه العديدة، نظرية (أي هيكلية تحليل وتفسير) أكثر تفصيلاً ممّا هو متوفّر اليوم[٧٧٧].

وفي الاتّجاه الموسوم بهذا الإدراك، تتموضع وتصبح ملائمة الدراسات التي تشكّل جزءاً من " الروح الاتّصالية " للبحث الإعلامي، أي تلك الدراسات التي تتجاوز الخطوة الفاصلة بين نظرية فيزيائية لظواهر الانتشار وبين نظريّة حقيقية للاتّصال[٧٧٨].

لا ريب أن الموضوع يتعلّق بحقل غير متجانس البتّة من حيث الفروع العلمية ذات الشأن، وهو مثقل بالصعوبات في التطبيق المنهجي للنماذج النظرية، ولكن لا غنى عنه في أبحاث الإعلام الجماهيري لأنه يربط تحليل تلك الظواهر الاتّصالية بشروطها القابلة للتطبيق على أرض الواقع[٧٧٩].

وإذا كانت العدائية والتناقض اللذان بقيا فترة طويلة يميّزان التطوّرات المتعارضة (بين الأبحاث الإدارية والنظرية النقدية، وبين المقاربة السوسيولوجية والمقاربة الاتّصالية)، أخضعا حقل الدراسات الإعلامية لشروطهما، فإن الوضع الحالي يبدو مؤهّلاً لتجاوزها: إذ لم تعد خطوط التلاقي أفقاً مستقبلياً ولم تعد المواجهات الحقلية خالية من المعنى.

(776) J. Halloran, " Introduction and Background, in Communication in the Community : An International Study on the Role of the Mass Media in Seven Communities ", Reports and Papers on Mass Media Communications, Unesco, Paris, 1982.

(777) R. Porro & M. Livolsi, " Le Agenzie di Socializzazione : I Mass Media ", in Livolsi, La Sociologia. Problemi e Metodi, Ed. Teti, Milano, 1981, pp. 269-281.

(778) F. Jacques, " Le Schéma Jakobsonien de la Communication est-il devenu un Obstacle Épistémologique ? ", Ed. Langages, Connaissance et Pratique, Université de Lille 3, 1982, pp. 157-184.

(779) P. Fabbri, Le Communicazioni di Massa : Sguardo Semiotico e Malocchio della Sociologia ", Ed. Versus, 1973, pp. 57-109.

وتسمح النماذج النظرية باكتشاف تكاملات جزئية خاضعة للتحقّق عبر رسوم وفرضيات بحث تدرّجية، ولكن الأمر الأهم هو أن هذه التطوّرات تحقّقت خارج الإطار التعارضي وبمعزل عنه، متجاوزة في أعمال التحرّي، الاختلاف بين المقاربات، لإظهار إمكانية إعطاء معنى لتعدّدية الفروع العلمية المعنية بأبحاث الاتّصال الجماهيري[٧٨٠].

آفاق البحث الإعلامي

بعد استعراض مشكلة التأثيرات الطويلة الأجل، عبر تحليل تطوّراتها التاريخية والاتّجاهات السائدة حالياً، من الضروري موضعة مسألة تأثيرات الإعلام الجماهيري في سياق آخر.

كما هو معروف، فإن وتيرة التحول في نظام الإعلام مرتفعة إلى حدّ كبير، والتبدّلات التقانية تحمل إلى المسرح وسائل اتّصال جديدة[٧٨١]. ويؤدّي ذلك كلّه إلى تحوّلات تنعكس في نماذج استعمال واستهلاك التقانيات الاتّصالية، ولكن طريقة تحديد العلاقة بين الإعلام والمجتمع أيضاً، يجب أن تأخذ في الحسبان هذا الاتّجاه نحو التبدّل.

(780) Wolf, Teorie delle Comunicazione di Massa, cit., p. 256.

(٧٨١) إن وسائل الإعلام الجديدة ومجتمعات المعلوماتية، مصطلحان مترافقان في أغلب الأحيان. كما أن القطاعات التي يحتويها هذا الحقل، بصورة عامة، هي تلك المتعلّقة بالبحث والتطوّر التقاني والقطاع التربوي وإعلام الاتّصال والتقانيات التي تعالج معلومات، والخدمات التي توزّع معلومات. وغالباً ما اقترن مجتمع المعلومات بالمجتمع بعد الصناعي، أي بنوعية مجتمع يتجه فيه الإنتاج نحو منتجات لامادّية كالخدمات والقطاعات التي ذكرت آنفاً.

والحقيقة أنه يبدو أكثر واقعية والتصاقاً بالشروط الراهنة التحدّث عن مجتمع صناعي جديد يتميّز بظهور التقانيات الجديدة التي تتمتّع بالخصائص التالية : إنها متحرّكة في جميع قطاعات الإنتاج وتملك القدرة على إنتاج وحفظ وبثّ معلومات، وعلى إثارة تحوّلات ملحوظة في عوامل الإنتاج، إذ ترفع حجم الاستثمارات في البحث والتطوير، مبدّلة كلفة النقل ومتيحة حرّية خيارات أوسع بين تدويل وإظهار مراحل وعوامل إنتاجية. وبهذه الطريقة، تزيد تلك التقانيات الجديدة، في المجتمعات الصناعية الجديدة، نسبة الخدمات، وهي ليست مستقلّة ولكنها ملتحمة بإنتاج سلع صناعية ما تزال تقوم بدور مركزي يزداد أهمّية، كما هو مبيّن في الارتفاع النسبي للطلب النهائي العائد إليها.

– لمزيد من التفصيل، أنظر :

- G. Sapelli, " Conflitti, Sviluppo, Dissociazione dagli Anni 50° ad Oggi ", Ed. Marsilio, Venezia, 1989, p. 75.

إن مقاربة مشكلات التأثيرات لا يمكن ألاّ تتأثر بهذه التحوّلات، نظراً لأن النظام الإعلامي الراهن نفسه، لديه عناصر مشتركة قليلة مع وسائل الاتّصال الجماهيري في سنواته الذهبية المرتبطة بمسألة التأثيرات.

ولذلك، يصبح من المهم البحث عن معرفة كيفية التغيّير فيّ المستقبل بالنسبة لموضوع التأثيرات بالارتباط مع التبدّلات البنيوية الجارية في نظام الإعلام الجماهيري.

وتتجلّى إحدى هذه التبدّلات، على سبيل المثال، فيما إذا وبأي شكل، ستؤثّر عولمة التدفّقات الاتّصالية، وبالتالي نماذج المعرفة والسلوكيات الجماعية، على ديناميـة تأثيرات الإعلام. وهناك مسألة أخرى هي معرفة ما إذا كانت تقانية كالأقمار الصناعية التي تقوم ببثّ مباشر (يتيح تخيّل مشهد حيث يستطيع الجميع أن يروا كلّ شيء، من أي موقع على الأرض وفي أي وقت)، ما تزال تسمح بصياغة مشكلة التأثيرات التراكمية بالأساليب التي تجري اليوم.

ويمكن أن يكون من الضروري معرفة ما إذا كانت الحالات المتواترة والدرامية أحياناً للفيضان المعلوماتي، تدفع إلى افتراض ديناميات جديدة لتأثيرات الأنظمة المعلوماتية، على الكتلة الاجتماعية بشموليتها.

بالعودة إلى الموضوع الأساسي، أي كيف تطرح التبدّلات في المشاهد الاتّصالية موضوعات مختلفة، على بحث التأثيرات، يمكن ملاحظة أنه من المناسب تفسير التطوّرات التقانية، ليس كانتشار سطري متنامٍ فحسب، لأن اتّساع الطلب الاجتماعي للخدمات المتكاملة والمعقّدة التي تسمح بها التقانيات الجديدة، ترتبط ارتباطاً مصيرياً بالمستويات التي لا تزال مرتفعة للكلفة[٧٨٢].

ويطرح باحثون في هذا المجال[٧٨٣]، ثلاثة آفاق متباينة تطرح مقاربات متنوّعة لمسائل مجتمع المعلومات : إن الاختلافات بين الاتّجاهات الاستمرارية وتلك التجديدية والبنيوية تكمن في الثقل والرانز المنسوبين لتقانيات المعلومات كعامل تبدّل اجتماعي. فحسب الأفق الاستمراري، تبدو قدرة التغلغل والتجديد التي يمارسها الإعلام الجديد، بطيئة أكثر وأصعب ممّا يتوقّع أحياناً، خاصة وأن التبدّل مرتبط، ليس فقط بعوامل تقانية فحسب، بل أيضاً بعوامل ذات طبيعة اجتماعية وسياسية، على وجه الخصوص.

(782) Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, cit., p. 186.
(783) I. Miles & H. Rush & K. Turner & J. Bessant, " Information Horisons. The Long Term Social Implications of New Technologies ", Ed. Elgar, Aldershot, 1988, p. 125.

فيما يتعلّق بالأفق التجديدي، فإن تطوّر التقانيات التي تتعامل مع المعلومات انعكس في قفزة نوعية وحقبية (كالانتقال من المجتمعات الزراعية إلى المجتمعات الصناعية)، أخذت تبدّل أساسات البنية الاجتماعية وبنية السلطة. ويضع الأفق البنيوي نفسه في موقع وساطة بين الأفقين الآخرين، معترفاً بالعواقب التجديدية القويّة التي أثارتها وسائل الإعلام الجديدة في أفلاك كثيرة من الحياة الاجتماعية، ومعترفاً أيضاً أن الانتشار غير المتساوي لهذه الوسائل ورانزها تخضع لفلترة عوامل أخرى خارجة عن نطاق تطوّر التقانيات الاتّصالية. من المستحسن عدم المبالغة وعدم التقليل من أهميّة موضوع التأثير الاجتماعي الفوري للإعلام الجديد، لأنّ ذلك يتناغم مع مسألة أنه حتّى مع وجود وتيرة تغلغل بطيئة أكثر من المتوقّع، فإن الاتّجاه الغالب يسير، من جهة، نحو ضرب من الاقتران والتشابك الشامل (المستند إلى الميكروإليكترونيات لإدارة المعلومات على الألياف البصرية من أجل تحريكها، وعلى السوفتوير لربط خدمات متعدّدة)، ومن جهة أخرى، نحو تفتّت على المستوى الفردي للإعلام الجماهيري التقليدي.

إن الجنوح نحو التفتّت واضح ويسفر عن نموذج استعمال " الفيديو حسب الطلب " وعبر البطاقة، حيث يستطيع الناس أن يختاروا فيلماً أو أي برنامج تلفزي آخر، أو أن يقرّروا استدعاء البرنامج المرغوب في الوقت الذي يريدون فيه استهلاكه. ومن الواضح أن نموذجاً من هذا النوع يطرح بعض المشكلات، بالإضافة إلى تلك المرتبطة بالنماذج البحثية التقليدية حول التأثيرات.

يمكن الاعتقاد، إذن، أن حقل الموضوعات حول التأثيرات مفتوح على جبهتين : إحداهما جبهة التطوّر التدرّجي الداخلي للنماذج النظرية ولتكيّف تقانيات البحث معها، وجبهة ضرورة إحداث التغيّير بالتوازي، مع التحوّلات البنيوية التي تمرّ عبر القطاع الاتّصالي، عن طريق طرح تساؤلات معرفية مناسبة حول الحقل الذي تعمل فيه تلك التقانيات الاتّصالية. وإذا لم يحدث تطوّر في هذين المستويين، ثمة مخاطرة في الاستمرار بتهميش البحث، وفي ترك الساحة مفتوحة، فقط للمشاهد التي تصنعها القطاعات الإنتاجية للصناعة الإعلامية، غير المكترثة، عادة، بلزوجة الاجتماعي في عمليات امتصاص المستجدّات التقانية[٧٨٤].

ثمة جانب يبرز الفرق بين الإعلام الجديد ووسائل الإعلام الجماهيري، يتجلّى في أن التقانيات الجديدة تجعل قابلة للاكتساب، مواداً أكثر تنوّعاً في مضامينها، بشكل أقلّ تقيّداً من منطق أجهزة التوزيع العادية، لأن هذه التقانيات تنحو باتّجاه فردية

(784) Wolf, cit., 187.

المستهلك. وعلى أساس هذا الفرق، تكمن الخصائص التجديدية الرئيسة لمستقبل الإعلام، في غزارة الإنتاج والعرض، في حرّية الاختيار، في الاتّصال التبادلي، في التخصّص وفي اللامركزية. كلّ هذه الملامح تتيح أن يتقلّص الأختلال التقليدي في العلاقة بين المرسل والمتلقّي، لصالح الأخير[٧٨٥].

ولكن، من ناحية أخرى، وخاصة في المستوى المؤسّسي، ترتسم ملامح اتّجاهات تتراءى من خلالها أوجه مختلفة : فالتدفّقات الاتّصالية التي تتجاوز حدود الدولة مثلاً، والتي تتركّز على عبرالوطنية، تطرح مشكلات متعلّقة بنوع الرقابة التي تستطيع أن تمارسها المؤسّسات الوطنية على الرسائل التي تغرقها، مصعّدة مسألة أي أدوات يجب استخدامها من أجل احترام السياسات الاتّصالية التي صاغتها تلك المؤسّسات[٧٨٦].

وهكذا، أخذت تتغيّر الحدود نفسها التي احتوت تحديد مشكلة التأثيرات، أي، من جهة، الفعل الفردي الموجّه من قبل الإعلام، ومن جهة أخرى، القدرة على الرقابة الاجتماعية التي يمارسها الإعلام نفسه : فالنظريات الإعلامية المتعلّقة بالسلطة تطوّرت، بصورة أساسية، عبر الصلة التي تربطها بالرأي العام وبالفلك العام للسياسة، واليوم، يفرض الإعلام الجديد تحدّياً ملحوظاً تجاه هذين المعقلين[٧٨٧].

ويبدو أن معالم المشكلة آخذة في التبدّل، حيث أصبحت فعّالية الإعلام تتطوّر داخل جمهور لم يعد بالإمكان تجسيده حسب أحواض التلقّي المحدّد وطنياً وثقافياً فحسب، وإنّما تتطوّر أيضاً داخل تجمّعات مقطعية من الجمهور، مقسّمة تبعاً للمصالح والدوافع وأساليب الحياة والقدرة الشرائية وإمكانية استهلاك إعلام شديد الفردية.

إذن، هناك فردية تتنامى، مدفوعة نحو التشظّي الاجتماعي، وضعف العلاقات المباشرة، وتبدّل طرائق الاتّصال التبادلي الشخصي. تلك هي الظواهر التي يبدو أنها ستحدّد ملامح التأثيرات القادمة للإعلام الجديد.

داخل هذه الآثار من التوجّهات، تكتسب أهمّية الفكرة القائلة[٧٨٨] إن كلّ وسيلة إعلامية جديدة هي أفضل من سابقاتها، بمعنى أنها تقترب نحو إعادة إنتاج ملينة للاتّصال التبادلي الإنساني، فإضافة الصوت إلى البرق والأفلام الصامتة، أو إضافة اللون إلى التلفزة، يمكن أن يفسّر كتحسين وإتقان، لأن المفارقة الكبرى، تكمن في أن

(785) D. Mc Quail, " Is Media Theory Adequate to the Challenge of New Communication Technologies ? ", Ed. Gurevitch & Levy, Mass communication Review Yearbook, vol. 6, Sage, Newbury Park, 1987, pp. 536-552.
(786) Ibid.
(787) Ibid.
(788) P. Levinson, " Human Replay. A Theory of the Evolution of Media ", Dissertation, Mew York University, 1979, in Wolf, cit., p. 188.

كلّ خطوة تقانية إلى الأمام تؤدّي إلى إضعاف طابع الوساطة التقانية وتزداد شبهاً بالاتّصال التبادلي الطبيعي. وكأنه، عبر استعمال التقانيات الاتّصالية الجديدة، يولد من جديد اقتراب متنامٍ للنموذج الإنسان، فشروط اتّصال " واقعي" تقترب، شيئاً فشيئاً، كلّما تمّ تجاوز المحدوديات المرتبطة بالتقانيات السابقة. إن الوضع المثالي للاتّصال التبادلي يمثّل معنى هذا الاقتراب التدريجي للإعلام من المحادثة الطبيعية.

ويشدّد هذا الأفق أيضاً، على كيفية أن حدود وحواشي مشكلة التأثيرات، يجب إعادة تحديدها، انطلاقاً من البعد الماكرواجتماعي.

وإذا كانت القطبية الثقافية للحقبة الراهنة تمثّل " أرابيسك الميل إلى الاجتماع "[٧٨٩]، وتشكّل طريقة تبدّي صيرورة تعدّدية عوامل التجمّع، وإذا كان النشاط الاتّصالي المحموم يجسّد أرضية للقبلية، فإن الفعل الاجتماعي للإعلام في بناء النواة الملتحمة للمجتمع، يصبح، من جهة، أكثر تبعثراً وصعب اللملمة، ولكنه، في الوقت نفسه، من جهة أخرى، يغدو الإعلام فائق الأهمّية، ويصبح دوره أكثر تشظّياً ولكن أكثر نفوذاً من التأثير الذي مارسته وكالات التجمّع الاجتماعي في أزمنة سابقة[٧٩٠].

إن عدم الاستقرار الظاهري للقبائل[٧٩١]، أي منطق شكل التجمّع الذي يبدو وكأنه يميّز المجتمع المعاصر في الحقبة المعلوماتية، يستوجب صياغة مختلفة لأدوار الإعلام داخل هذه الآلية الاجتماعية.

إن معادل الانتماء ليس مطلقاً، وكلّ فرد يستطيع المشاركة في مجموعات عديدة، مستثمراً في كلّ منها جزءاً لا يستهان به من ذاته.

ولا شك أن هذه الطيران الشبيه بطيران الفراشة يمثّل إحدى الخصائص الأساسية للتنظيم الاجتماعي الذي بدأت خطوطه ترتسم داخل المجتمعات الراهنة. والمفارقة أن هذا الطيران يتيح صيغة وجود قطبين هما الجماهير والقبائل، من جهة، ويتيح إمكانية إعادة النظر فيهما، من جهة أخرى، وهذا ما يجسّد تحرك دائب بين الساكن والدينامي[٧٩٢].

(789) M. Meffesoli, " Le Temps des Tribus, 1988, op. cit., p. 111.
(790) Ibid. p. 188.
(791) Ibid. 200.
(792) Ibid.

البحث الإعلامي العربي

لا توجد أية نظريات أو صياغات متكاملة ومستقلّة، ناجمة عن أبحاث إعلامية عربية، مستمدة، بصورة مباشرة من واقع التطوّر في المجتمعات العربية ومن موقع المؤسّسة الإعلامية فيها ومن علاقاتها بالأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فالباحثون العرب يستعينون بالنظريات والمقاربات التي تمّت صياغتها في مجالات البحث الإعلامي داخل المجتمعات الغربية التي تعدّ الأكثر تطوّراً والأكثر تشعّباً في العالم.

غير أن ذلك لا ينفي وجود اجتهادات عديدة ومتنوّعة في مجال الدراسات الإعلامية، تحتوي آلاف الأبحاث الميدانية والمفهومية حول الاتّصال الجماهيري؛ وتعدّ مراكز البحث والجامعات والمؤسّسات البحثية المختلفة في مصر ولبنان طليعية في هذا المجال، نظراً لعراقة الإعلام الأكاديمي في مصر وكثافة التواصل مع المستجدّات العلمية الإعلامية والاتّصالية العالمية في لبنان.

ومع ذلك، لا بد من القول إن البحث العلمي الجادّ في الحقول الإعلامية والاتّصالية العربية تعاني من معضلات ومعوقات ذاتية وموضوعية، لعلّ أهمها ما يلي :

١) ما تزال الأبحاث الإعلامية العربية مبعثرة ومفتّتة ومكرورة بسبب ضعف التواصل بين المواقع العلمية، وغياب شبكات معلوماتية ذات أفق عربي تتيح نوعاً من التكامل والتشارك والتنسيق الذي من شأنه أن يختصر النفقات وأن يستثمر مخصّصات البحث العلمي بشكل رشيد ومثمر.

٢) لم تفلح الدراسات الإعلامية العربية حتّى الآن في أن تفسح مجالاً خاصاً بها كفرع علمي يتمتّع بكيان مستقلّ واضح الحدود. يفترض أن يتموضع على مفترق طرق بين فروع علمية مختلفة تعنى بالسيكولوجيا والاقتصاد والثقافة والتربية والسياسة، تجتمع وتصب جميعاً في حقل سوسيولوجيا الإعلام الأوسع. وهذا يعود إلى أن الإعلام ظلّ فترات طويلة من الزمن نشاطاً فطرياً واعتباطياً، يقوم على الاستعداد والموهبة والالتزام بقضايا الوطن الكبرى، وإلى الاعتقاد السائد بأن الإعلام يدخل في مجال الإبداع فحسب، ويجب ألاّ يقيّد بمفاهيم جامدة. ولم تتبدّل هذه النظرة الرومانسية للنشاط الإعلامي إلاّ مؤخّراً، وفي بلدان عربية قليلة، حيث أخذ المسار العلمي والبحثي يشق طريقه عبر معوقات كثيرة، وتحت وطأة التطوّر المذهل الذي عرفته وسائل الإعلام والاتّصال، حيث لم يعد من الممكن

الاعتداد بميول فطرية ومواهب فردية وقدرات إبداعية، ذلك أن الإعلام تحوّل إلى صناعة حقيقية وغدا الإنتاج الإعلامي يحتاج إلى جملة من المعطيات التقانية والفنية التي تضمن الاستخدام الأفضل للوسيلة الإعلامية، والتي تستطيع بلورة منتج فكري يتمتّع بخصوصية، ويبنى على أسس علمية راسخة.

٣) إن تحوّل الإعلام في حقبات الاستقلال المتتالية، إلى بيروقراطيات قائمة على روتين مزمن ومعايير غير موضوعية وغير علمية، تقوم على الولاء والتبعية والمحسوبية والتراتبية الصارمة، بقطع النظر عن الكفايات والقدرات والمؤهّلات العلمية وقيم الخبرة، جعل القائمين على الإعلام غير مكترثين بالتعرّف على مقاربات علمية مهمّة من شأنها أن ترتقي بالإعلام الجماهيري، مضموناً وشكلاً وأداءً وتواصلاً مع الجمهور الإعلامي العربي.

٤) تشكّل الأبحاث الإعلامية العربية من جهة، ومؤسّسات الإعلام الجماهيري من جهة أخرى، جزراً معزولة كلّياً أو جزئياً في أفضل الأحوال، بسبب التفاوت الشديد القائم بين العقليات المحافظة، المهيمنة في مجال الممارسة الإعلامية وبين الآفاق العلمية الأكاديمية والبحثية المفتوحة بطبيعتها على المستجدّ والمتطوّر..

٥) تعدّ المؤسّسة السياسية الإعلام الجماهيري جهازاً مركزياً يقع في حقول أمنية بالغة الحساسية، ينبغي أن يؤدّي دوراً جوهرياً في الحفاظ على استقرار النظام السياسي القائم واستمراريته، وأن يسهم في تثبيت مشروعية هذا النظام وأن يمكّن السلطة السياسية من القبض على المقدّرات الإعلامية كافة. وهذا ما يفضي، بالضرورة، إلى وجود تعارض موضوعي بين الإعلام الواقعي والإعلام العلمي الذي يعدّ الظاهرة الإعلامية طرفاً مستقلاً تتجلّى مهمّته في تحقيق وساطة جوهرية بين مختلف الظواهر الاجتماعية الأخرى، بما يؤمّن تواصلاً أفقياً صحّياً بين جميع أطراف المجتمع، لا يمرّ بشكل حتمي، عبر قمّة السلطة.

٦) تبدو الأغلبية الساحقة من الدراسات الإعلامية العربية مقطّعة الأوصال ومكرورة، ومقتصرة على مستويات دنيا ميكرواجتماعية تعاني حالة تشرزم قصوى، ليس لأن الباحثين في الحقل الإعلامي يعتنقون مفاهيم المدرسة الأمريكية، ولكن لأن ملامسة مستويات ماكرو اجتماعية لا بد وأن

تمسّ هيبة النظام السياسي الحاكم أو أن تعرّضه للمساءلة أو أن تتدخّل في وضع معايير لقراراته على الصعيد الإعلامي وغير الإعلامي، وهو ما يقع في أوّل سلم المحرّمات. ولذلك، فإن البحث الإعلامي العربي هو دوماً بحث مقطوع الرأس.

٧) تعدّ الدول العربية، بصورة عامة، في مقدّمة الأمم التي تتميّز بأدنى معدّلات إنفاق في مجالات البحث العلمي، ولهذا، لا يمكن أن تكون مخصّصات البحث الإعلامي ملحوظة أو مرئية حتّى بالمجهر في ميزانيات البلدان العربية.

٨) لا يتمتّع المتلقّي العربي بوعي كافٍ في علاقته بالمجالات البحثية الإعلامية، ولذلك، فإنه لا يأخذ الاستطلاعات والسبور والدراسات على محمل الجدّ، وهذا يعود أيضاً إلى عدم ثقته بالقائمين على البحث و بالمؤسّسات التي يمثّلونها، إذ يعتبرها تابعة للسلطة المركزية، ولكن الأمر الأخطر أنه يخشى التعبير عن قناعاته الحقيقية، وثمة تعارض، في أحيان كثيرة، بين سريرته وما يجهر به، لاعتقاده الراسخ بأن المعلومات التي يدلي بها قد تستخدم ضدّه أو تتسبّب في أذيّته وأهله. ويمكن أن يتصوّر الإنسان مدى الصعوبات التي يلاقيها الباحث لاجتياز تلك العقبات الناجمة عن طبيعة العمل الإعلامي العربي من جهة، وعن حالة المتلقّي العربي من جهة أخرى.

٩) يتوجّس العرب عموماً من الدقة في الأرقام والمعطيات والمعلومات والمفاهيم، لأنهم يعتقدون أن هذه الدقة تكشف العورات، وهو أمر محرّم بطبيعة الحال. ولذلك، عادة ما يلجأ الباحثون إلى إحصائيات وأرقام توصّلت إليها مؤسّسات إقليمية أو دولية بطرائقها الخاصة، للتعرّف على ما يجري داخل بلدانهم، وليستعينوا ببعض تلك المعطيات المسموح بتداولها في دراساتهم الميكروية.

١٠) تعاني المجتمعات العربية من غياب كامل للمجتمع المدني النخبوي الذي يمارس أدواراً مهمّة في البلدان الديمقراطية التي تزدحم بتنظيمات وهيئات ومؤسّسات رقابية على مختلف المواد الإعلامية، تتمتّع بمكانة ونفوذ كبيرين، وتستجيب لها المؤسّسات الإعلامية بموجب القانون بالإضافة إلى تقاليد وأعراف درجت عليها تلك المجتمعات التي تسودها حرّية التعبير ولامركزية القرار.

١١) ثمة هوّة تفصل بين القوانين الإعلامية والممارسة الواقعية في الدول العربية، علماً بأن هذه القوانين قديمة ولا تلحظ التقدّم النوعي الذي طرأ على وسائل الإعلام الإلكتروني.

١٢) إن احتكار النظام السياسي الحاكم لمجمل الإنتاج الفكري، وممارساته العدائية تجاه أي مسألة تطرح بمعايير اختلافية، تشكّل عقبة كأداء أمام البحث العلمي المفتوح الآفاق، وتضيّق نطاق المبادرة الحرّة والإبداع في مجال التفكير الإعلامي.

١٣) تعدّ الكوادر الإعلامية في البلدان العربية من بين الكوادر النازفة، حيث تهاجر خيرة الكفايات إلى مجتمعات تستطيع أن تمارس فيها عملاً مهنياً يحظى بالاحترام والمصداقية، وحيث تهمّش كفايات أخرى وتخضع لأشكال متنوّعة من العزلة والإحباط.

١٤) لا تدخل الأخلاقيات المهنية الإعلامية في منظومة القيم السائدة في المجتمعات العربية، لأن الافتقار إلى المهنة بحدّ ذاتها يؤدّي إلى لا مكان لهذا الضرب من الأخلاقيات، ويدخل العمل الإعلامي، نتيجة ذلك، في حلقة مفرغة، تحلّ أثناء دورانها المستمر عقليات انتهازية ومقدرات فكرية ضحلة محلّ المبادئ والقيم الاجتماعية العليا.

لا شك أن معاناة البحث الإعلامي تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من المعاناة العامة في مجال الأبحاث العلمية في جميع الفروع الأخرى، والحلول المطلوبة لا بد وأن تشمل قضية العلم كمعضلة غدت مزمنة في العالم العربي، وتحتاج إلى حلول حقيقية تطال البنيات والوظائف الأساسية.

نظريات التأثير والعلوم الإعلامية العربية

تعدّ نظريات التأثير في الإعلام الجماهيري تراثاً علمياً وفكرياً، خرج من نطاق سياقاته الأصلية ليتحوّل إلى مرجعيات موضوعية شاملة، ينهل منها باحثو الإعلام في جميع مواقع العلم في العالم، ومن بينهم، بطبيعة الحال الباحثون العرب الذين يفترض أن يحقّقوا قفزة نوعية في مجال الأبحاث الإعلامية والاتّصالية، في زمن تقع فيه الصناعات الاتّصالية في مركز طفرة أخرى حقّقتها الإنسانية، محدثة تبدّلات غير مسبوقة، ليس فقط في المجتمعات ما بعد الصناعية، وإنّما في المجتمعات النامية أيضاً.

ينبغي أن يفيد العلم الإعلامي العربي من النتائج العامة التي أسفرت عنها مئات الأبحاث التي تراكمت عبر القرن العشرين، لكي يتم تأسيس علوم إعلامية حول التأثير تواكب الحقبة الراهنة وتدخل في سياقاته، دون المرور بمراحل طوتها الدراسات التحقّقية، لأن استرجاع ذات المسارات يعني الإخفاق في تحقيق تواصل مفقود مع مستجدّات عصر المعلوماتية، تمسّ الحاجة إلى التقاطه في زمن الطفرات المستمرّة للعلوم الاتّصالية.

لذلك كلّه، لا بد من تجاوز تلك النظريات أو المفاهيم حول تأثيرات الإعلام الجماهيري، والتي لم تعد تتلاءم مع وقائع الآليات الاتّصالية الحالية.

بدهي أن استخدام نظريات التأثير التي تشكّلت وتبلورت في مجتمعات وسياقات حضارية مختلفة عن طبيعة الاتّصال الجماهيري في المجتمعات العربية، لا يعني التقيّد الحرفي بتطبيقات تلك النظريات، وإنّما يعني استثمار نتائجها ومناهجها للتعرّف على مشكلات ومعضلات تعاني منها بنيات الاتّصال والإعلام في العالم العربي بصورة عامة.

كان يمكن لنظرية الرصاصة السحرية أن تشكّل مرجعية لدراسات إعلامية عربية في عصر الاحتكار السلطوي الكامل لوسائل الإعلام، وخاصة الإلكترونية منها، غير أن الكسر القسري لهذا الاحتكار من خلال ظهور وانتشار الإعلام الفضائي، حيث أدّت تعدّدية المصادر الإعلامية وتنوّع انتماءاتها الفكرية والسياسية، إلى دخول الإعلام الوطني العربي في تنافس موضوعي مع تلك المصادر، أخذ يجعل التأثير الفوري والمباشر والبسيط مسألة تجاوزها الزمن والتطوّر.

أما النظريات المتعلّقة بتحليل المضمون، والتي تطبّقها الدراسات الإعلامية العربية بشكل كثيف ومكرور، وتعتبرها الأهم في المرجعيات البحثية، فإنها غير ملائمة البتّة للتحاليل التأثيرية، لأن الخلل البنيوي والوظيفي الذي تعاني منه النصوص الإعلامية العربية، وانتشار لغة الخشب في جميع أنواع تراكيبها، يؤدّيان، بالضرورة، إلى الخروج بنتائج غير علمية وغير دقيقة واستنتاجات مضلّلة، فالألفاظ والكلمات والجمل والنعوت والأنماط اللغوية في الإعلام العربي، أفرغت تماماً من مغزاها، على مدى عصور الاستقلال، ولم تعد تحمل أية دلالات أصيلة، إذ دخلت لتشكّل جملة من المقولبات والكليشهات والصيغ التقليدية التي يخرجها الإعلام العربي من جوفه، ليجترّها، حسب الحالات والأحداث التي تقع في مراحل معيّنة.

لا شك أن النظريات الاصطفائية تشكّل أساساً نظرياً راسخاً للتعرّف على التأثيرات، ففي جميع المجتمعات الإنسانية، وفي جميع مراحل التطوّر، ثمة فروق فردية وتباين اجتماعي وعلاقات اجتماعية تتداخل بين المرسل ونصّه الإعلامي وجمهور المتلقّين، وتشكّل الفروق الفردية في مجتمعاتنا النامية، متغيّراً على درجة كبيرة من الأهميّة، لأن نسب الأميّة مرتفعة والتدرّج العلمي والثقافي شديد التشعّب. وفيما يتّصل بالتباين الاجتماعي، فهو متغيّر لا غنى عنه في الدراسات الإعلامية العربية، حيث توجد أنماط مختلفة من التباين الاجتماعي، تفوق ما هو قائم في مجتمعات متقدّمة حيث التجانس أكثر رسوخاً واستقراراً.

وترتدي العلاقات الاجتماعية في البيئات العربية أهميّة خاصة، لأن العلاقات الأوّلية والشخصية والمباشرة لا تزال قوية ومنتشرة ومؤثّرة، ولأن الروابط العائلية والاجتماعية والانتمائية متينة، وثمّة أدوار حاسمة لقادة الرأي في مجتمعات تتّسم بتجانسية ضعيفة في مستويات التعليم والثقافة والوعي الاجتماعي. ويشكّل تفاقم الإعلام الممركز الرسمي في معظم الدول العربية، إلى ازدهار غير عادي في شبكات الاتّصال الشخصي والمباشر، التي تعدّ عاملاً تعويضياً مهمّاً، يسدّ ثغرات الفقر المعلوماتي والفكري في الإعلام الوطني العمودي. ينبغي أن ينصبّ الجهد البحثي الإعلامي على هذه العوامل الاصطفائية، لتبيان طبيعة العلاقة بين الإعلام البيروقراطي و الإعلام الأهلي المزدهر.

غير أن تلك المتغيّرات ذات الطابع الاصطفائي لا تكفي لاستكمال المشهد الاتّصالي العام، وهي تحتاج إلى القيام بعمليات اقتران جوهرية بينها وبين متغيّرات أخرى، يمكن للباحث أن يستمدّها من نظريات التأثيرات القوية التي تمارس مفعولاتها عبر مسارات معقّدة ومتشابكة وشائكة في أغلب البنيات الاجتماعية العربية.

لا شك أن نظريات الأجندة وحرّاس البوّابة وصنّاع الأخبار، تشكّل مرجعية غاية في الأهميّة، ليس للتعرّف على أولويات أحداث أجندة الإعلام العربي الرسمي، واكتشاف طبيعة حارس البوّابة الإعلامية العربي والاطّلاع على تركيبة صنّاع الأخبار فحسب، بل أيضاً وخاصة، لكشف الطبيعة الفريدة لأجندة الإعلام العربي ومنطلقاتها الفكرية وآلياتها غير التقليدية والتي تجعل منها مثالاً حياً شديد الأهميّة لمفاهيم تصوغ أجندة انقرضت منذ زمن بعيد في البلدان المتقدّمة، وتسير بخطى حثيثة نحو الانقراض في العديد من الدول النامية. ومن مهمّات الباحث العربي، إجراء دراسات ميدانية مطوّلة وشاملة، ليتمكّن من تحديد طبيعة العلاقة بين الأجندة وبين حرّاس البوّابات وصنّاع الأخبار الذين يتّصفون بخصائص تميّزهم عن حرّاس وصنّاع آخرين في

مجتمعات أخرى، تشبه تركيبة المجتمعات العربية. ولا شك أن الدراسات المقارنة بين الأجندات الإعلامية العربية والأجندات في بلدان أخرى، تشكّل فائدة كبيرة للتعرّف على موقع الإعلام العربي، محلّياً وإقليمياً ودولياً، وعلى أدواره في التداول المعلوماتي على الصعيد الكوكبي.

لعلّه من الضروري المبادرة إلى مقاربات تقرن بين نظرية الأجندة ونظرية الغرس التي تساعد، بصورة جوهرية، على اكتشاف تجذّر تركيبة الأجندات الإعلامية العربية وتحجّرها حول مفاهيم معيّنة، خلال عقود طويلة من الزمن.

وتجسّد نظرية لولب الصمت بداية مقاربات نظرية، منطلقة من أبحاث إمبيريقية، ليس لكشف كيفيات تأقلم الفرد مع بيئته الحيوية ومجموعاته الانتمائية، وخشيته من العزلة في حال طرحه إشكاليات اختلافية، كما يحدث في البلدان المتطوّرة، وإنّما لكشف النقاب عن لوالب صمتٍ حديدية، تلف المجتمعات العربية، نتيجة هيمنة اللون الواحد والاتّجاه الواحد والمسار الواحد، المفروض قسراً على الشعوب العربية، في غياب أي شكل حقيقي من أشكال التعدّدية والاختلافية السياسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية.

لا ريب أن الامتثالية موجودة في جميع المجتمعات الإنسانية، وخاصّة في أوساط الشعب الصغير، غير أن الامتثالية التي يصوغها ويفرضها النظام السياسي العربي، ليست امتثالية عادية ناجمة عن ميل الأكثرية إلى التجانس والتناغم والتقاعس عن المبادرة، وإنّما عن انسحاق المجتمع المدني النخبوي الذي يعدّ المحرّك الأساسي للتطوّر والإبداع في أي مجتمع إنساني، وفي جميع حقبات الحياة البشرية.

من المفيد، في هذه المرحلة، اقتران نظرية لولب الصمت بنظريات الأجندة والغرس، بالإضافة إلى الحرّاس والصنّاع، وذلك لتوسيع نطاق الرؤية البحثية والتمكّن من اكتشاف العلاقات القائمة بين هذه العوامل المختلفة التي تشكّل سمات الإعلام العربي.

ترتدي نظرية الإعلام كعامل أساسي من عوامل التكيّف الاجتماعي، أهمّية كبيرة في هذه المرحلة من تطوّر المجتمعات العربية، فهي تستطيع أن تكشف عن جوانب عديدة من آليات هذا التكيّف الذي يؤدّيه الإعلام، وعن تعرية مواطن خلل لا بد وأن يفضي إصلاحها وتقويمها إلى سدّ العديد من الثغرات في الأداء الإعلامي العربي.

يلاحظ أن أبحاث الإعلام في إطار العلاقات التبادلية بين النظام الإعلامي العربي والأنظمة الاجتماعية الأخرى، تكاد تكون معدومة، وهي على ندرتها، لا ترتقي إطلاقاً

إلى مستويات عليا في علاقات النظام الإعلامي بالنظام السياسي على وجه الخصوص، ذلك لأن تلك المستويات تقع في منطقة المحرّمات.

قد آن الأوان لإعادة الرأس إلى جسد الأبحاث الإعلامية العربية، عن طريق استخدام موضوعي وعلمي لنظريات الأنظمة وارتباطاتها داخل النسيج الاجتماعي للمجتمعات العربية، وخاصة في مستوى العلاقة بين الإعلام وبين قمّة المؤسّسة السياسية[٧٩٣] التي تحتلّ مواقع في القرار الإعلامي يحتاج إلى تحاليل مستفيضة، وإلى حلول وآفاق تطوير تعيد الترابط بين الظاهرة الإعلامية والظاهرة السياسية إلى حالة فيزيولوجية قابلة للارتقاء بالإعلام الجماهيري وقادرة على جعل العلاقة بين الظاهرتين تبادلية في طابعها وتفاعلية في آليات نشاطها.

إن دراسة مضامين وأشكال الثقافة الجماهيرية وأدوار الإعلام في عمليات التكيّف الاجتماعي، يمكنها أن تخرج بنتائج قيّمة، في حال تموضعها ضمن نطاق العلاقة بين النظام الإعلامي والنظام الثقافي السائد في المجتمعات العربية، داخل سياقات المجتمع الكلّي، للتعرّف على مدى التأثير الذي تمارسه طبيعة الصلات بين الإعلامي والسياسي، في تشكيل وتكريس ثقافات جماهيرية تتّصف بخصائص معيّنة، تؤثّر بدورها على النظام الاجتماعي برمّته.

ثمة دراسات عربية قليلة تتناول العلاقة بين القطاع الاقتصادي والقطاع الإعلامي، رغم أنّ هذا الجانب أصبح على درجة كبيرة من الأهمّية في زمن التقانيات الاتّصالية المتطوّرة، حيث يحتلّ المنتج الاتّصالي اللامادّي مكاناً مركزياً في الإنتاج المجتمعي المادّي، وحيث يطبع بطابعه الحقبة ما بعد الصناعية، أي الحقبة المعلوماتية. إن الجوانب الاقتصادية والمالية لصناعة المنتج الإعلامي يحتاج إلى دراسات تُسهم في ترشيد كلفة المواد الإعلامية وفي رفع إنتاجيتها، عبر استخدام أمثل لتقانيات المعلوماتية.

لا شك أن ظهور وانتشار الإعلام الفضائي العربي قد فتح آفاقاً جديدة للبحث الإعلامي، ولذلك، ينبغي التركيز على دراسات التلفزة الفضائية التي يفترض التعرّف بشكل عميق وشامل على طبيعة تأثيراتها، في المجالات المعرفية والنفسية والقيمية ومن حيث عمليات التكيّف الاجتماعي، ضمن سياقات مختلفة للمجتمعات العربية في عناصرها التشابهية والاختلافية ومن جوانبها البيئية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن المهمّ إنجاز دراسات عربية مشتركة، بتمويل عربي، تشرف عليها مؤسّسات الجامعة العربية الإعلامية والثقافية.

---

(٧٩٣) أنظر العلاقة بين الإعلام والسلطة السياسية في العالم العربي في الفصل الثاني من الباب الأوّل.

ولا بد من أن يدخل العلم الإعلامي والاتّصالي في مجال ثقافات العولمة وتداعياتها، نظراً للدور المركزي الذي يؤدّيه الإعلام التلفزي في حقول متنوّعة من التكيّف العربي مع مستجدّات الحقبة التكنومعلوماتية التي من شأنها أن تفتح فروعاً جديدة للبحث الإعلامي، ضمن نطاق سوسيولوجيا الإعلام الجماهيري.

لقد انصبّ الاهتمام البحثي الإعلامي، خلال عقود طويلة، على تحليل كيفيات إسهام الإعلام في تثبيت أركان النظام السياسي العربي والمحافظة على استقرار النظام الاجتماعي العربي. وتمسّ الحاجة اليوم إلى التعرّف على آليات إسهام هذا الإعلام في صيرورات التغيّير الآمن وآليات تحقيق قفزة نوعية للحاق بركب حضارة متسارعة وحتمية وكوكبية الأبعاد.

ويمثّل الجانب البحثي الإعلامي عنصراً أساسياً في وضع استراتيجيات قائمة على معطيات علمية وموضوعية، بهدف إدخال الإعلام العربي في أفلاك الإعلام الإقليمي والدولي، ضمن علاقة تبادلية ندّية ومتفاعلة، ذلك لأن استمرار عزلة الإعلام العربي وتقوقعه، يزيد من احتمالات حدوث تباطؤ في صيرورات التغيّير أو وقوع انهيارات فجائية خطيرة أو اتّساع فجوات معرفية بصورة كبيرة، بين بعض قطاعات المجتمع، إذ أن كبريات الشبكات التلفزية العالمية أخذت تبثّ تدفّقها الإعلامي الكثيف باللغة العربية.

نحو نظريات تأثير عربية

من المفترض أن تقتصر الدراسات الإعلامية لطبيعة تأثيرات الإعلام الأرضي والمحلّي العربي على قضايا ترتبط بالتنمية الاجتماعية والإصلاحات البنيوية والوظيفية التي يسهم الإعلام في تحديد مساراتها وفي حشد القوى الاجتماعية داخل كلّ بلد عربي لتغدو أدوات فاعلة في تحقيقها وتسريع وتيرتها. أما المسائل العامة المتعلّقة بالنظام السياسي والاقتصادي والقيمي والثقافي، فينبغي أن ينصبّ البحث الإعلامي على اكتشاف مدى ونوعية التأثير الذي يمارسه الإعلام الفضائي العربي برمّته، على جمهور إعلامي عربي يتجاوز حدود الدولة الواحدة، ليندمج في أطر مجموعات لها صفة التكامل والشمولية، انطلاقاً من خصائص عامة ومميّزات ترتبط بمتغيّرات مستقلّة وتابعة تخصّ مجمل الجمهور الإعلامي العربي في كلّ أنحاء العالم.

من ناحية أخرى، تفترض الخصوصيات التي تتميّز بها المجتمعات العربية في المرحلة الراهنة، التركيز على وجود جملة من المفاهيم النظرية الإطار التي يمكنها أن تشكّل قاعدة للتحليل، وخاصة في مستوى العلاقات بين النظام الإعلامي العربي والأنظمة الاجتماعية الأخرى، في مقدّمها، بطبيعة الحال، النظام السياسي العربي.

وبما أن الإعلام الفضائي العربي أصبح يؤدّي الدور الأهم في عمليات تشكيل الوعي، ونظراً لأن هذه العمليات يضطلع بها إعلام فضائي يسيطر الإعلام العربي الرسمي على أغلبيته المطلقة[٧٩٤]، فإنه من الضروري تركيز البحث الإعلامي على المفاهيم العامة والمعتقدات التي تحاول تلك الفضائيات غرسها، في زمن الانتشار المتسارع للعولمة.

من خلال المتابعة المطولة والملاحظة المنتظمة[٧٩٥]، يمكن القول إن مقاربة الفضائيات العربية لإشكاليات العولمة تستند إلى جملة من المفاهيم العامة، أهمّها:

١) **مفهوم الغزو**: يهيمن هاجس الغزو القادم من الغرب على الأغلبية الساحقة من الإنتاج الثقافي للفضائيات العربية، وقد تفاقمت الأطروحات حول الآثار الكارثية لهذا الغزو، على المنطقة العربية، في السنوات الماضية، نتيجة انهيار المنظومة الشيوعية وسيطرة قطب واحد تربطه بالعدو التاريخي للعرب صلات حميمة.

لا شك أن فكرة الغزو ليست جديدة في الأدبيات العقائدية والسياسية العربية، غير أن اللافت في هذه المسألة:

---

(٧٩٤) تمثّل مجموعة الفضائيات العربية الرسمية التابعة: جهاراً، لحكومات وأنظمة سياسية عربية، قرابة (٧٤٪) من البث الفضائي. تليها مجموعة الفضائيات المملوكة لقطاع خاص عربي، غير تابعة، جهاراً، لحكومات عربية، وهي ترسل من خارج الأوطان، وتحتلّ حوالي (١٦٪) من البث الفضائي العربي. وهناك فضائيات مملوكة لقطاع خاص تبث باللغة العربية من الداخل وتشغل (١٠٪) من بث الفضائي العربي.
من هذه الإحصائيات، يتضح أن الفضائيات العربية الرسمية تسيطر على حجم البث الفضائي العربي، وأن الفضائيات المستقلّة التي تبث من على أرض الوطن لا تتجاوز عشر البث، وإذا أضيفت الفضائيات الخاصة التي تبث من الخارج، والتي تنتمي، على الأقل، فكرياً وقيمياً، لدول عربية، يمكن القول إن الأنظمة العربية تهيمن على (٩٠٪) من الإنتاج التلفزي الفضائي، ما يسمح بتعميم السمات العامة التي يتميّز بها البث الفضائي العربي جميعاً. ولا بد من التنويه، في هذا المجال، أن القنوات الفضائية العربية بمجملها تحتوي في موادها جزءاً كبيراً من الإعلام العربي المشترك. (قنص، العامر، حوذية، بندقجي، " السلوك الاتّصالي للجمهور الإعلامي العربي تجاه الصحون اللاقطة - ١٩٩٩، مصدر سابق).

(٧٩٥) فريال مهنا، " الإعلام الفضائي العربي ووقائع العولمة " ، المجلّة المصرية لبحوث الإعلام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد السابع، يناير - يوليه ٢٠٠٠.

أ- حرص الفضائيات العربية، بكل اتّجاهاتها وأطيافها، على خلق توحّد اعتباطي بين فكرة الغزو القديمة وبين ظاهرة العولمة الجارية.

ب- حرص تلك الفضائيات على إبقاء الغزو فكرة غائمة وعمومية، لأن الدخول في تفاصيل هذا الغزو من شأنه أن يخلخل هذا التوحّد العشوائي مع معطيات العولمة.

جـ- إصرار هذه الفضائيات على محاولة تثبيت قناعة راسخة بأن العولمة هي مجرّد شكل جديد من أشكال الغزو الاستعماري وأن كلّ مساراتها مرسومة مسبقاً ولا سبيل لتبديل أو تعديل.

وممّا يسهّل على الإعلام الفضائي العربي مهمّته أن العولمة خرجت إلى حيّز الوجود وأخذت تتبدّى وتتأكّد في مجتمعات ودول استخدمت وسائل مختلفة للهيمنة المباشرة وغير المباشرة على مقدّرات العالم العربي وعمدت إلى احتلاله وتجزئته ودعمت استعماراً استيطانياً في بقعة جغرافية حيوية من أرضه.

٢) **مفهوم السيادة:** يدعم أغلب الإعلام الفضائي العربي مواقفه المعادية للعولمة بالنقر على وتر السيادة التي جاهدت أجيال عديدة، منذ قرون طويلة، لانتزاعها من براثن المستعمر، وخاضت الشعوب العربية، عقب الاستقلال، معارك صعبة وقدّمت تضحيات جسيمة لتثبيت جميع الأركان المتعارف عليها للسيادة.

٣) **مفهوم الهويّة:** تزخر مواد الفضائيات العربية بمصطلحات شتّى حول الهويّة القومية والخصوصية الاجتماعية والتراثية والأخلاقية والقيمية، التي تشكّل العولمة تهديداً مباشراً لها، لأن الرأسمال العولمي يسعى إلى إلغاء كلّ التراث وكلّ الثقافات وكلّ الحضارات المتراكمة عبر آلاف السنين، ليتمكّن من تسليع كلّ شيء وتنميط كلّ شيء، وصولاً إلى تحقيق أقصى مستويات الربح على صعيد كوكبي.

٤) **مفهوم التعارض الموضوعي بين الإسلام والعولمة:** تخصّص أكثر الفضائيات العربية مساحات واسعة لترسيخ تناقضات جذرية بين الإسلام ومنطلقاته وتعاليمه وبين ظواهر العولمة، موحية بأن أي اقتراب من هذه الأخيرة يشكّل، بحدّ ذاته، تهديداً مباشراً للعقيدة الإسلامية.

٥) **مفهوم تهويد العولمة:** ثمة العديد من الفضائيات العربية التي تكرّس ندواتها الفكرية والثقافية لإحداث ربط مباشر بين العولمة وإسرائيل، حتّى ليبدو وكأن الدولة العبرية هي التي أطلقت العولمة لتخرّب أخلاقيات الأمة العربية ولتدمّر تراثها وتاريخها وحضارتها ولتهيمن عليها اقتصادياً وفكرياً وثقافياً.

٦) **مفهوم الأمركة:** وهي فكرة تتمتّع بحضور قوي في ثقافات الفضائيات العربية، ويجري الترويج لها انطلاقاً من أن العولمة هي هيمنة أمريكية مستديمة، وبالتالي، فإن العولمة هي الحليف الاستراتيجي لإسرائيل، ما يتوجّب العمل على محاربتها وإبقائها خارج أسوار العالم العربي والعالم الإسلامي.

٧) **مفهوم التنمية المستحيلة:** وتطرح بعض الفضائيات فكرة استحالة تحقيق تنمية في ظلّ العولمة، ما يعني عدم جدوى التعاطي مع الأخيرة، أو البحث عن وسائل تهمّش بعض مساوئها، في سبيل استنهاض بعض مقوّمات هذه التنمية، التي، وإن حقّقت بعض الإنجازات الجزئية والمحدودة، فقد شهدت إخفاقات استراتيجية على مدى العقود الأخيرة.

هناك العديد من المفاهيم الجانبية والفرعية التي تروّج لها الفضائيات العربية في تناولها للعولمة، إلاّ أن أكثرها يصبّ في تلك المفاهيم الرئيسة أو ينجم عنها أو يخدم توجّهاتها العامة.

وهكذا، وفي المحصّلة النهائية، تصبح العولمة في الفضائيات العربية مجرّد مرادف لكل ما يجسّد، في ذاكرة الشعوب العربية، أخطاراً وتهديدات على مصير الأمّة العربية ومستقبل العالم الإسلامي.

واضح أن هذه الرؤية الإطلاقية والتعميمية والمبسّطة تقدّم تمثّلاً للعولمة يتّصف بالتجانس ويهدف إلى حجب ملامح أشدّ تعقيداً وصور تتمرفز* بسرعات غير مألوفة، تواكب العولمة، تنمو معها، وهي التي تشكّل، على ما يبدو، خطورة حقيقية على من يمتلك ناصية هذه الفضائيات.

• استخدام للكلمة الأجنبية كما هي (metamorphose)،التي تجمع المعاني التالية : تغيّر، تبدّل بشدّة، تحوّل، استحال، تلوّن إلخ..، وأخضعت للصرف، حيث يأتي الفعل : تمرفز- يتمرفز، متمرفز إلخ..

من الأهمّية بمكان التعرّف على طبيعة النشاط الاصطفائي الذي يقوم به الجمهور الإعلامي العربي، بمختلف شرائحه، تجاه تلك المفاهيم المرتبطة بوقائع العولمة التي غدت سمة أساسية وجوهرية من سمات حقبة التطوّر الإنساني، وذلك ضمن إطار تأثيرات عقائدية وفكرية ذات طبيعة تراكمية وبعيدة المدى، تعمل في سياقات ثقافية سائدة في العالم العربي، ضمن السياق العام للمجتمع الكلّي. إنّ معرفة نوعية وشدّة تأثير تلك المفاهيم على الجمهور العربي، تحدّد شروط تكيّف العالم العربي مع مستجدّات العولمة وبالتالي، مع صورة المستقبل العربي برمّته.

وترتبط بهذه العناصر، معطيات أخرى تستحقّ التأكّد من اتّجاهاتها وأشكالها، تكمن في آلية الربط بين ترويج تلك المفاهيم حول العولمة وبين تبعية النظام الإعلامي العربي للنظام السياسي القائم في البلدان العربية.

لا شك أن أبحاثاً من هذا النوع تتطلّب تعاوناً وثيقاً بين مختلف المراكز البحثية الإعلامية العربية، لاستخلاص عناصر التشابه والتطابق وعناصر الاختلاف، بين مجتمع عربي وآخر، فيما يتعلّق بفهم الجمهور العربي وطرائق استيعابه وتفسيراته للمفاهيم التي تروّج لها الفضائيات في حقل العولمة بمختلف أوجهها، وفيما يتصل بمدى التأثير الذي تمارسه شبكات الاتّصال الشخصي المعقّدة والمتشابكة، وأثر ذلك على فعّالية الإعلام الفضائي.

إن الأبحاث التفصيلية التي يمكن أن تشتقّ عن هذه الدراسات الشاملة، لا حصر لها وهي تنطلق من طبيعة العلاقة بين النظام الإعلامي العربي والنظام المجتمعي، لتبحث في تأثيرات الإعلام الجماهيري في مجمل قضايا التنمية والتكيّف الاجتماعي العربي مع معطيات تنموية جديدة أفرزتها وقائع العولمة، أدّت إلى قلب مفاهيم ومعتقدات اقتصادية وفكرية عديدة وإلى ضرورة إعادة النظر في مسارات وأشكال التنمية المستدامة في العالم العربي.

بدهي أن هذه الأبحاث الشمولية الطابع تحتاج إلى أخرى تفصيلية تتعلّق بعناصر تمايز عديدة بين المجتمعات العربية، فيما يخصّ الفروق الفردية والتباين الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى الشروط النفسية الذاتية والاجتماعية الموضوعية القائمة في كلّ مجتمع على حدة.

وبدهي أيضاً أن المتغيّرات المستقلّة والتابعة يجب أن يتم اختيارها بدقّة متناهية لتحقيق أهداف محدّدة للبحث، دون الوقوع في عموميات غير قادرة على الإجابة عن التساؤلات المطروحة.

لا شك أن هذه الأنواع من الأبحاث الإعلامية تفتح آفاقاً جديدة في النشاط البحثي العربي، من شأنها، أن تصوغ نظريات تأثير إعلامي عربية، مستندة إلى تراث غني لدراسات الاتّصال، تراكمت عبر أكثر من قرن، ومنطلقة من شروط تطوّر المجتمعات العربية النامية، في عناصرها المتميّزة عن بقية المجتمعات المتقدّمة والنامية، وفي عناصر تشابهها وتطابقها مع مختلف المجتمعات الإنسانية وسلوكياتها الاتّصالية، في ضوء المتغيّرات البنيوية على الصعيد الكوكبي.

* * *

الباب الخامس

تقانيات الاتصال
المعلوماتية والمجتمع

الفصل الأوّل

الأنساق الحديثة لأنظمة الاتّصال

مدخل

إن تقانيات المعلومات التي غدت تشكّل جزءاً من أنظمة الإعلام الجديدة، هي التلفزة الكابلية والفضائية وتلفزة الاتّصال التبادلي والحاسوب، وتمثّل جميع هذه التقانيات التطوّر الأكثر ثورية فيما يتعلّق بالاتّصال التبادلي، ويمكن أن تستخدم، ليس من قبل تنظيمات كبيرة فحسب، بل أيضاً من قبل الناس العاديّين في حياتهم اليومية[٧٩٦].

وكما أن أنظمة الإعلام والاتّصال المعاصرة هي نتاج قوى اجتماعية قامت بتحديد التقانيات التي يجب أن تستمر وتنمو، أيضاً التقانيات الحديثة هي نتاج قوى سياسية وحقوقية وقوى اجتماعية أخرى.

يمكن عرض التقانيات الجديدة، بصورة مختصرة، على النحو التالي:

التلفزة الكابلية

إن تطوير التلفزة الكابلية كان عملية تقانية بسيطة وقليلة التكاليف، جاءت كحلّ لتحسين استقبال بعض المناطق الريفية التي كانت تعاني من مشكلات طوبوغرافية وجغرافية في استقبال التلفزة الموْجية. ولكن، رغم مزايا هذا النوع من التلفزة

---

(٧٩٦) لتفاصيل أدق حول التقانيات الاتّصالية الحديثة، اقرأ :

- M L. DeFleur & E. Dennis, " The Continuing Revolution in Technology ", in Understanding Mass Communication, Boston, Houghton Mifflin, 1988.

الأرضية، لم يسجّل ارتفاع كبير في الطلب. وذلك لأن بعض مجموعات المصالح التي شعرت بأن التلفزة الجديدة تهدّد مصالحها، استطاعت أن تضع عراقيل سياسية وقانونية وحقوقية في طريق تطوّر هذا الضرب من البثّ التلفزي الكابلي. فهذا الأخير كان يجسّد تهديداً للرفاه الاقتصادي الذي تتمتّع به ثلاث شبكات رئيسة للتلفزات الخاصة في الولايات المتحدة. وكان العديد من الناس يحاولون جعل التلفزة الكابلية حاملة برامجية لصالح الجماعات المحلية، مقدّمين لأعضائها الوصول المجّاني إلى بنيات الإنتاج. والأمر الذي جعل الشبكات الخاصة التي تعرّضت لضغوط من أجل تقديم برامجها في بيئات محلية، تشعر بقلق أكبر، هو تزايد منافسة التلفزات الكابلية فيما يتعلّق بحجم المشاهدة، ما أدّى إلى محاولتها الحدّ من انتشارها. وقد تم، فيما بعد، تجاوز هذا العامل وغيره من العوامل الاجتماعية التي أسهمت في إبطاء انتشار التلفزة الكابلية، نتيجة ظهور تطوّرين جديدين في السنوات الأخيرة : أولهما ظهور التلفزة الكابلية المشفّرة مدفوعة الثمن (pay-tv) عام ١٩٧٢، واقتران تقانية الاتّصال الفضائي بتقانية الكابل عام ١٩٧٥[٧٩٧].

التلفزة الفضائية

كما قدّمت الأقمار الصناعية مزايا لشبكات التلفزة الأرضية والكابلية، أضفت مزايا أهم للبثّ التلفزي الفضائي المباشر (DBS). وتكمن المزيّة الرئيسة للتلفزة الفضائية في أن الوصول المباشر إلى البثّ الفضائي يضع بتصرّف المتلقّي عدداً هائلاً من القنوات[٧٩٨].

بالنظر إلى قنوات الاتّصال بدءاً من أبعادها الأوسع، أو من الربط على مسافات طويلة، فإن الأداة التي حسمت التغيّرات الكبرى هو القمر الصناعي الجيومراوح، أي القمر المتوضّع على مسافة من الأرض يستطيع معها أن يحتفظ دوماً بالمكان نفسه بالنسبة للأرض[٧٩٩].

إن استخدام الأقمار الصناعية لا يشكّل تجديداً حديثاً، بل يعود إلى الخمسينيات. في بداية الستينيات امتدّ استعمال الأقمار إلى بثّ برامج تلفزية أو اتّصالات هاتفية من مراكز أرضية إلى أخرى.

في العام ١٩٦٢ استخدم القمر تيلستار لأوّل مرّة لبثّ برامج تلفزية مباشرة بين

(797) Ball-Rokeach & DeFleur, Theories of Mass Communication, cit., p. 361.
(798) Ibid., p. 364.
(799) N. Vittadini, " Comunicare con I New Media ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, p. 115.

الولايات المتحدة وأوروبا، وفي العام ١٩٦٥، أطلق القمر الصناعي إيرلي بيرد (Early Bird) للاتّصالات الهاتفية بين القارات[٨٠٠].

إن شبكة الترابط عن طريق القمر تتميّز، إذن، بتعقيد تقاني واضح، ناجم عن استخدام التقانية الفضائية لبثّ معلومات، تقابله بساطة متناهية من الناحية البنائية[٨٠١]. بالإضافة إلى ذلك، فإن شبكة الترابط الفضائي تتميّز أيضاً بوجود قنوات غير مرئية تسافر عبرها المعلومات، وهي لا تحتاج إلى أية بنيات تحتية، فيما عدا القمر والهوائي. والواقع أن الصحون اللاقطة فقط هي المرئية أثناء المرور[٨٠٢].

لا بد من الإشارة إلى أنه من الممكن، بواسطة القمر، وصل الدول التي كانت مستبعدة بسبب شروطها الاقتصادية، بالشبكة الاتّصالية[٨٠٣].

بهذا الشكل، ينتج تأثير جعل فرص الاستهلاك المتوافرة للمتلقّي، تجانسية الطابع، ويمكن بثّ برامج تمتاز صورها بنوعية عالية، كتلك التي تظهر في التلفزة عالية الدقّة.

للاتّصال عبر الأقمار الصناعية، خصوصيتان على درجة من الأهمّية[٨٠٤]:

فبواسطة قناة فضائية يمكن توفير، ليس فقط خدمات للمتلقّي ذات طابع انتشاري وحيد الاتّجاه، وإنّما أيضاً خدمات تتطلّب اتّصالاً ثنائي الاتّجاه. وهناك خدمات فيديو-مؤتمرات تتيح تفاعلاً حوارياً بين مشتركين موجودين في أماكن بعيدة ومختلفة.

هذا يعني أن القمر يسهم بشكل كبير، بالإضافة إلى بناء قنوات اتّصالية تشكّل حلقة وصل بين عدد هائل من الأمكنة في العالم، في إتاحة حوار تفاعلي عبر معدّات تقانية تزداد غنى بما تحتويه من أنظمة كودية شفهية وكتابية، وبما تقوم به من توريط لحواس مختلفة، من السمع إلى البصر، وتزداد غنى أيضاً بخواص متميّزة بما توفره من حوار يتحقّق بقطع النظر عن التموضع المكاني والزماني للمتحادثين. وقد أصبح هذا النوع من الحوار متاحاً أيضاً عبر القناة الهاتفية التي تسمح به بفضل تدخل الشبكة المعولمة.

ثمة خاصيّة أخرى للاتّصال الفضائي، تتجلّى في إمكانية تعيّين وقياس الاتّصال الانتشاري والتفاعلي، حسب حاجات المشترك، ليس فيما يتعلّق فقط بالمضمون، ولكن

(800) Ibid. p. 120.
(801) Ibid.
(802) Ibid.
(803) F. Carassa, " Il Contesto Tecnologico della Vita Contemporanea ", Ed. Vita & Pensiero, Milano, 1987, p. 40.
(804) N. Vittadini, " Comunicare con I New Media ", 1998, cit., p. 124.

أيضاً بالتوضّع المكاني[٨٠٥]. هذا بالإضافة إلى أن القمر يتيح تحقيق ترابطات ، ليس مع محطّات أرضية ثابتة فحسب، وإنّما أيضاً مع وسائل متحركة كالسفن والطائرات والمحطّات المحمولة[٨٠٦] .

وتعدّ نظرية التطوّر التدرّجي مفيدة في دراسة جميع هذه الظواهر التقانية الحديثة التي أحدثت ثورة في مجال الاتّصال الإنساني من خلال طفرات واستمراريات في الوقت نفسه.. ويرى بعض الباحثين أن النظرية الصراعية يمكن أن تطبّق على مدى تعارض المصالح بين الاستقبال المجّاني للقنوات الفضائية من قبل كلّ من يقتني الصحن اللاقط، وبين من تشكّل برامج هذه القنوات المجّانية تهديداً حقيقياً لمصالحه الاقتصادية، ما قد تنجم عنه بعض التبدّلات في الصناعة التلفزية[٨٠٧].

أنظمة الاتّصال التبادلية

يقصد بمصطلح الاتّصال التبادلي صيرورات الاتّصال التي تكتسب بعض خصائص الاتّصال الشخصي الذي يتبادل فيه المرسل والمتلقّي دور من يقوم بالاتّصال، ويستقبل الاثنان ردوداً فورية وكاملة على شكل رسائل شفهية وغير شفهية. من المعروف أن وسائل الإعلام التقليدية ليست تبادلية الاتّصال لأن التدفّق الاتّصالي في اتّجاه واحد لا يسمح للجمهور المتلقّي بأن يعطي أو للمرسل بأن يستقبل ردوداً آنية وكاملة. ولا يعرف المرسل ماذا يفعل المتلقّي وما هي ردود أفعاله، وهذا ما يميّز، بصورة رئيسة، الاتّصال الجماهيري. في حين أن أنظمة الاتّصال التبادلية تعني أيضاً رقابة متبادلة لمضامين التدفّق الاتّصالي. ولكن هذه الاختلافات بين النظامين التبادلي والوحيد الاتّجاه قد أخذت تتبدّد شيئاً فشيئاً[٨٠٨] .

---

(805) Ibid., p. 126.
(806) Ibid.
(٨٠٧) تستمد تلك الشبكات التلفزية الفضائية أرباحها من الإعلان الذي غدا يشكّل مصادر ربح هائل على صعيد كوكبي لوسائل الاتّصال الحديثة بجميع أنواعها.
(٨٠٨) من أجل الاطّلاع على تفاصيل حول هذه الأشكال الجديدة من الاتّصال التي يطلق عليها المؤلّفون في هذا المجال، مصطلح الشكل الاتّصالي التبادلي عن بعد (telelogic) مقابل الشكل الحواري(dialogic) في الاتّصال الشخصي والشكل الوحيد الاتّجاه(monologic) في وسائل الاتّصال الجماهيري التقليدية، اقرأ :
- Ball-Rokeach & K. Reardon, " Telelogic, Dialogic and Monologic Communication. A Comparison of Forms, in Rethinking Communication Research, Ed. P. Hawkins, S. Pingree & M. Wieman, Beverly Hills, Calif. Sage, 1988.

• الأنظمة الاتّصالية القائمة على الهاتف

هناك تقانيات عديدة قائمة على الهاتف تتيح الحوار بين طرفين يرى كلّ منهما الآخر. كما أن هناك طريقة أخرى لربط الأفراد بعضهم بالبعض الآخر، وذلك عبر تبادل رسائل في اتّجاهين يرقّمها الطرفان على مراكز حواسيب رئيسة. وتعدّ هذه التقانيات خطوة أخرى نحو الأمام بالنسبة للهاتف التقليدي، لأنها تتيح لشخصين أو أكثر موجودين في مكانين مختلفين أو أكثر، في أن يجروا اتّصالات فيما بينهم.

وفي حين أن هاتف الاجتماعات السمعية يتطلّب أن يكون جميع المتّصلين موجودين في لحظة الاتّصال، فإنه عبر هاتف الاجتماع الحاسوبي، يمكن للمتّصلين أن يرسلوا رسائل دون أن يكون جميع المشاركين موجودين في ذات اللحظة في مواقع الاتّصال.

أما الاجتماع الهاتفي البصري، فإنه يتيح، بطبيعة الحال، لمتّصلين أو أكثر أن يسمع وأن يرى بعضهم البعض الآخر.

وتربط الخطوط الهاتفية الأشخاص في اجتماع هاتفي تلفزي، وتربط هذه الخطوط نفسها، الموصولة بالحاسوب، المشتركين في اجتماع هاتفي مرني (telematic). ويعدّ الاجتماع الهاتفي المرني عملية أكثر تعقيداً. إذ يتطلّب وجود غرفة مرتبطة عبر الكابلات ومجهّزة على غرار استوديو تلفزي مع مونيتور وميكروفونات وكاميرات فيديو.

• الاتّصال التبادلي القائم على التلفزة

من بين وسائل الاتّصال التبادلية التي يمكن مقارنة جمهورها بجمهور وسائل الإعلام التقليدية، التلفزة الكابلية ذات الاتّجاهين، وتكمن الخصيصة الأهم في هذا الشكل الاتّصالي، في إمكانية استخدام استطلاع قادر على تحديد البرامج التي يتابعها المشتركون في منازلهم. وقد أثار هذا النوع من الإحصاء قلقاً في أوساط عديدة، لأنه يخترق الحياة الخاصة للناس. واعتبره السوسيولوجيون المهتمّون بالنتائج السياسية والاجتماعية للتقانيات الجديدة، خطوة أولى نحو طريق استعمال تقانيات اتّصالية لجمع معلومات قد يرغب المشتركون في عدم الكشف عنها. في حين خشي ناقدوه من العواقب السياسية لمبادرات من هذا النوع، لأنها تضعف قوى اجتماعية لدرجة أن تلك التقانيات يمكن أن تستخدم من قبل الأجهزة الأمنية والحكومة أو هيئات أخرى

للحصول على معلومات حول الأفراد والعائلات من أجل السيطرة على سلوكهم. ورغم هذه الجوانب المقلقة، يبدو من المؤكّد حدوث شكل من أشكال البيئة الاتّصالية المنزلية عن طريق الكابل.

• الشريط التلفزي

وهو عبارة عن تمازج بين عدّة تقانيات، أدّت إلى تركيب نظام إلكتروني يتّصف باتّصال تبادلي، يتيح للمشتركين إرسال واستقبال معطيات من حاسوب أو من مشتركين آخرين بواسطة محطّة مركزية قادرة على إظهار نصوص وصور(٨٠٩).

ويقدّم الشريط التلفزي تدفّقاً معلوماتياً باتّجاهين، حيث يستطيع المشترك أن يحصل، عبر وجبة، على خدمات يوفّرها إداري. ويصبح المشتركون في هذه الحالة مستخدمي حاسوب في وقت- مشترك.

ولكي يتم تجاوز مشكلة الكلفة العالية للاشتراك، يمكن تقديم أجهزة الاستقبال مجّاناً، كما فعلت الحكومة الفرنسية التي حقّق نظام الشريط التلفزي أو بالفرنسية (teletel)المملوك للدولة نجاحاً، إذ نشّط الفرنسيون الاستعمال العام لهذا النظام، أيضاً من خلال تحويل دليل الهاتف إلى خدمة شريط تلفزي.

وقد أخفقت هذه التجربة في الولايات المتحدة وبريطانيا بسبب غياب دعم اقتصادي للمشتركين، ما يعني أن أحد العوامل الاجتماعية الحاسمة لتطوّر الشريط التلفزي هو حساسية الحكومات تجاه أنظمة اتّصالية جديدة.

ويعاني هذا النظام أيضاً من مشكلات فنية، فلكي يتمكّن المشتركون من طلب واستقبال معلومات، يجب أن يبقوا أمام الجهاز المستقبل، بالإضافة إلى ذلك، هناك مشكلة الحدود القائمة بين المعلومة العمومية والمعلومة الخصوصية. غير أنه من المتعذّر وجود خدمات معلوماتية متخصّصة إذا لم يتوافر عدد كافٍ من الأشخاص المستعدّين لدفع ثمنها، ويمثّل أولئك الذين يحتاجون إلى نوع خاص من المعلومات عدداً قليلاً لدرجة أن إقامة هذا النظام تصبح غير اقتصادية.

(٨٠٩) لمزيد من التفاصيل، أنظر :
- M. Mayer, " The French Videotex System ", Family and Consumer Studies, University of Utah, 1986.

• من التقانيات الاتّصالية التبادلية إلى أنظمة اتّصال جماهيري

من الواضح أن تحوّل التقانيات الأكثر حداثة إلى أنظمة ذات انتشار واسع، يرتبط باستعدادات الأسرة والنظامين السياسي والتعليمي وبمتطلّبات الجيش وباعتبارات اقتصادية(٨١٠). وللرد على السؤال حول رائز مجتمع ما على وسائله الإعلامية، يمكن القول إن الأمر يحتاج إلى دراسات معمّقة في البيئة الاجتماعية لمعرفة الأساليب التي تؤدّي إلى توقّع نوعية التقانيات التي يحتمل أن تتحوّل إلى أنظمة اتّصال جماهيري بكل معنى الكلمة.

في أفق بنيوي – وظيفي، يمكن القول إن التقانيات التي تستطيع الاستمرار والازدهار كأنظمة اتّصال جماهيري، هي تلك التي تلبّي حاجات الاستقرار والتكامل والفعّالية الإنتاجية للمجتمع، والتي تيسّر التعاون بين مختلف أجزاء المجتمع وتسهم في مراقبة العوامل التي تهدّد الاستقرار والتوازن.

أمّا في أفق نظرية التطوّر التدرّجي، فإن التقانيات الجديدة التي يمكنها أن تتحوّل إلى أنظمة اتّصال جماهيري، هي تلك التي تلبّي الحاجة إلى التكيّف في المجتمع. فالمجتمعات الراهنة تصبح، يوماً بعد يوم، أكثر تعقيداً وأكثر صعوبة في إمكانية تحقيق توافق أساليبها مع تلك التقليدية، الشخصية والجماهيرية. ولذلك، يجب تطوير أنظمة اتّصالية جديدة تملأ هذا الفراغ وتؤمّن الاستمرارية. وتستطيع أنظمة الاتّصال الجماهيري الجديدة أن تحقّق نجاحات، إذا أسهمت في حلّ مشكلات أوجدتها المرحلة الانتقالية الجوهرية نحو اقتصاد خدمات معلوماتية، وإذا يسّرت أكثر من غيرها قدرة الإنسان على التأقلم مع البيئة الاجتماعية المتغيّرة، الوطنية والعالمية، وإذا استطاعت تقديم أنظمة اتّصال وتبادل دولية، ضرورية لرفاه عالم يسير نحو مزيد من التعقيد، حيث استمرار الجنس البشري أصبح موضع شك بسبب السلاح النووي وقلّة الموارد الطبيعية وتقلّص الاتّصال بين الشعوب. من جهة أخرى لا بد لوسائل الإعلام القديمة من أن تواجه مشكلات تكيّف، ففي كلّ مرّة تصبح فيها وسائل الإعلام الجديدة قديمة، ترتبط استمراريتها بقدرتها على استنباط طرائق جديدة في تقديم خدمات يدفع الجمهور ثمنها أو تموّلها الحكومات(٨١١).

أيضاً نظرية الاتّصال التبادلي تدفع الباحثين إلى التفكير بمسألة التغيير، ولكن، في هذه الحالة، ينصبّ الاهتمام على الأفراد أكثر من الجوانب الاجتماعية والشاملة التي يهتم بها منظّرو النظرية التدرّجية. ويعدّ أحد أهم الاعتبارات الرئيسة بالنسبة لأصحاب

(810) Ball-Rokeach & DeFleur, Theories of Mass Communication, cit., p. 355.
(811) DeFleur & Ball-Rokeach, cit., p. 372.

نظرية الاتّصال التبادلي الرمزي، كيفية مساعدة التقانيات الاتّصالية الجديدة الأفراد في أن يعطوا معنى لعالم غامض ومتغيّر[٨١٢].

ويطوّر الأفراد علاقات التبعيّة الأكثر قوّة مع وسائل الإعلام الجديدة التي بمقدورها أن تساعدهم على متابعة المجريات بشكل أفضل، والتعرّف على الأهم وفهم معناه. هذا يعني أن احتمالات النجاح الأقوى تحظى بها أنظمة اتّصال فعّالة لتمتين علاقات التبعيّة المعرفية للأفراد، وقادرة على خلق معانٍ متقاسمة وثقافات رمزية مشتركة، في إطار نظام عالمي جديد للمعلومات[٨١٣].

ويتبنّى العديد من مؤيّدي نظرية الصراع، أفق الاتّصال التبادلي الرمزي، إذ يبرزون مسألة أن الثقافات الرمزية العالمية والوقائع الاجتماعية التي يمكن لهذه التقانيات الاتّصالية الجديدة أن تبنيها وتعمّمها، يمكن أن تصبح أكثر أهمّية من القوّة العسكرية[٨١٤].

أما النموذج المعرفي، فإنه يلفت إلى تأثيرات الأنظمة الإعلامية الجديدة على آراء الأفراد ومشاعرهم وسلوكهم. والتقانيات التي تزداد احتمالات تحوّلها إلى أنظمة اتّصال جماهيري، هي تلك التي تمارس تأثيرات مرغوب فيها.

في البلدان التي تمتلك فيها الدولة وسائل الإعلام الجماهيري، يمكن أن يتجلّى العامل الحاسم في التأثيرات التي تمارسها وسائل الاتّصال الجماهيري على آراء الأفراد وأحاسيسهم وسلوكهم تجاه الدولة.

الحقيقة أن التحدّي القادم يكمن في إرساء عمل بحثي يتمتّع بأساسات نظرية راسخة، للتعرّف بدقّة على العوامل الاجتماعية التي تؤثّر على احتمالات تطوّر تقانية معيّنة إلى نظام اتّصال جماهيري.

الأنساق الجديدة للتقانيات الاتّصالية

• خلفية

لا ريب أن الكون الاتّصالي بأكمله قد تأثّر، بشكل محسوس، في السنوات القليلة الماضية، بظهور وانتشار أجيال جديدة من التقانيات الاتّصالية التي ثوّرت الخصائص سواء فيما يرتبط بطرائق العمل التطبيقي، سواء فيما يتعلّق بالقيم والجوانب الثقافية.

(812) Ball-Rokeach & DeFleur, cit., p. 375.
(813) Ibid.
(814) Ibid. p. 376

ولعلّ الاختراع الأساسي والأهم الذي نجمت عنه نتائج ملفتة، سواء في مجال الانتشار والتوزيع، سواء في مجال بناء الإشارات والرموز التي دخلت في لغات عديدة وفي رسائل شتّى، هو تحويل شكل الإشارة من النموذج التشابهي التقليدي (analogic) إلى النموذج الرقمي (digital)، حيث تمّ الاستغناء عن التغيّرات المتشابهة للأحجام المتفاوتة، واعتماد القياس الكمّي الرقمي، ما أتاح، من جهة، إلى حمل إشارات أكثر بكثير من السابق، بصورة آنية، وعلى ذات القناة، وإمكانية نقل إشارات غير متجانسة فيما بينها، أيضاً على ذات القناة، وهي إشارات أصبحت متشابهة وقابلة للتعايش فيما بينها بفضل تحويلها إلى كيانات رقمية[٨١٥].

وقد أضيف إلى هذه التحوّلات الجذرية، اختراع الألياف البصرية والأقمار الصناعية التي رفعت الإمكانية الكمّية لانتشار الإشارات، حيث تمّ تعليب العالم ضمن شبكة من القنوات ومن المسارات الاتّصالية التي تزداد كثافة، وفي الوقت نفسه، تزداد غنى في الرسائل وفي الوحدات المعلوماتية[٨١٦].

وقد انتشرت على أثر ذلك جملة من الاكتشافات، بدءاً بالنص الأبجدي التلفزي (teletext) والصور المتلفزة (videotex)، مروراً بالتيليفاكس(telefax) والفيديو البطيء والتلفزة مدفوعة الثمن (pay-tv) والفيديو الهاتفي (videophone)، انتهاءً بالقرص المدمّج أو الليزري (compact-disc) وأجهزة الاتّصال التعدّدية (multimedia) والهاتف المحمول وجملة من الأجهزة والمعدّات الأخرى التي تزداد تعقيداً والتي تتعايش مع الإنسان بشكل يومي.

من المؤكّد أن هذه التقانيات الاتّصالية تتمتّع بمزايا كبيرة من جهة، وتثير سلسلة من الإشكاليات من جهة أخرى. لعلّ إحدى أهم المشكلات الناجمة عن هذا التقدّم التقاني، هي مسألة الاتّصال التبادلي الإنساني والاتّصال التبادلي الآلي، التي فرضت تقانيات الاتّصال الجديدة ضرورة التفريق بينهما وما يترتّب على ذلك من انعكاسات على حياة الإنسان. فالاتّصال التبادلي الإنساني هو عبارة عن شكل خاص من أشكال الفعل الاجتماعي يقوم به أشخاص في علاقاتهم مع أشخاص آخرين، أو في علاقاتهم مع نصوص أو مع آلة[٨١٧]. أما الاتّصال التبادلي الآلي، فإنه يكمن في تقليد نظام آلي أو إلكتروني للاتّصال التبادلي الإنساني، بهدف احتواء وظيفة اتّصالية مع متلقٍ أو أكثر[٨١٨].

(815) G. Bettetini & F. Colombo, " Le Nuove Tecnologie della Comunicazione ", Ed. Bompiani, 1998, p. 14.
(816) Ibid.
(817) Ibid. p. 15.
(818) Ibid.

وتقيم وسائل الاتّصال التبادلية تبادلاً اتّصالياً صورياً فحسب، ولقد بدأ مصطلح الاتّصال التبادلي يصبح منتشراً ومركزياً في مساحات الاتّصال التقاني، بسبب قابليته للتطبيق في مزاوجة عدّة أجهزة، يؤدّي تجميعها أو تركيبها إلى ولادة وسائل اتّصال جديدة، تتميّز بأنها أكثر سرعة، وتتميّز خاصّة، بأشكال حوارية مع المتلقّي جديدة تماماً(٨١٩).

وتقدّم الأدبيات التقنية حول هذه الوسائل، تعاريف مختلفة للاتّصال التبادلي الذي تتجلّى خصائصه الرئيسة بما يلي :

١- تعدّدية الاتّجاه في سيرورة المعلومات.

٢- الدور النشيط للمتلقّي في اصطفاء المعلومات المطلوبة.

٣- الوتيرة الخاصة للاتّصال والتي تحدّد الأدبيات التقنية كميّتها بـ (٢")، وهي تعتبر كالزمن الواقعي(٨٢٠).

أما من الناحية السوسيولوجية، فإن الاتّصال التبادلي الآلي هو عبارة عن حوار بين إنسان وآلة، يجعل ممكناً إنتاج نصوص جديدة، غير متوقّعة سلفاً(٨٢١).

في هذا الأفق، من الصعب الاحتفاظ بمصطلح الإعلام الجماهيري، ففي تطوّر الغرافيك الحاسوبي والواقع الافتراضي، على سبيل المثال، يرى بعض الباحثين بذور صيرورة مضادّة للجماهيرية غير محدّدة الأطر بعد.

خلال عقد السبعينيات، اعتبرت الحواسيب أدوات حسابية، ولكنها أصبحت، فيما بعد، أدوات قادرة على تحويل أي نوع من المعلومات النصّية والغرافيكية المكوّدة، ما استوجب تغيير المصطلح من حاسوب إلكتروني إلى معدّ إلكتروني(٨٢٢).

يمكن القول، بشكل عام، إن معيار تموضع جميع هذه الأدوات داخل " خريطة الصناعة المعلوماتية " التي أعدّها ماكلولين(٨٢٣)، هو اقتراب كلّ وسيلة اتّصالية جديدة من البعد الإنتاجي أو الخدمي، ومن بروز أهمّية الحامل بالنسبة للمضمون. من خلال هذه الوسيلة يمكن إبراز كيف أن وسائل الاتّصال الجديدة (new media) تتموضع في موقع مركزي، يقع بين الطبقات المتفاوتة للصناعات التي تنتج أدوات حاملة للاتّصال.

(819) Ibid.
(820) F. Kretz, " Dialogue, service, Interactivité et leurs Composants : Aspects de Conception et d'Évacuation ", in Bulletin IDATE, 1983, p. 3.
(821) Bettetini & Colombo, op. cit.
(822) L. Dadda, " La Tecnologia dell'Informazione alle Soglie del Terzo Millennio ", in Media Duemila, 8, 1992, pp. 2-14.
(823) J. McLaughlin, " Mapping the Information Business ", University of Harward, in Bettetini & Colombo, cit., p.24.

بهذا الشكل، يصبح من المستحيل تطبيق التقسيمات التقليدية بين الصحافة المطبوعة والإذاعة والتلفزة والسينما والهاتف، على تلك الوسائل الاتّصالية الجديدة، وبما أن الأخيرة تتموضع في موقع مركزي بالنسبة للخريطة، فهذا يعني أنها تنتمي إلى بعد وسطي بين المنتج والخدمة. فوسائل الاتّصال الحديثة تحاول تقديم شيء ما قابل للبيع يملأ الحيّز القائم بين الشكل والجوهر، أي بين حامل المعلومة ومضمونها(٨٢٤).

وتتيح خريطة ماكلولين فهم أن تحليل التقانيات الجديدة كأدوات جديدة للاتّصال، لا تقتصر على تقانيات الاتّصال الجديدة المختلفة عن تلك التقليدية، بل يجب أن تتضمّن أيضاً انعكاسات هذه التقانيات على الأدوات التقليدية للاتّصال.

ويمكن تقسيم الوسائل الجديدة إلى اتّصال جديد مباشر(on line) وغير مباشر(off line)، حيث يتطلّب الأوّل وجود شبكة توصل موقعاً مركزياً بمصدر معلومات أو بموقع مركزي آخر، في حين أن الثاني مؤلّف من مواقع عمل مستقلّة تحتوي في داخلها مصدر المعلومات أو البرنامج الذي يراد استخدامه، أو يمكن أن تدرج فيه حوامل بصرية للذاكرة تحتوي بنوك معطيات أو دورات اتّصال متبادل(٨٢٥).

في مجال وسائل الاتّصال الجديدة التي يمكن استخدامها مباشرة (on line)، يمكن التمييز بين وسائل تربط عدّة مواقع مركزية بنظام مركزي، ووسائل تربط مواقع تلقّي مفردة فيما بينها، وداخل هذه الأخيرة يمكن تقسيم الوسائل الجديدة إلى وسائل تسمح بتبادل ثنائي الاتّجاه للرسائل ووسائل وحيدة الاتّجاه(٨٢٦).

فيما يتعلّق بنوعية الخدمات التي تقدّمها الوسائل الجديدة، يمكن التمييز، في مجال التبادل الثنائي، الخدمات الهاتفية (خدمات الراديو النقّال والفاكس والفيديوتيكس، وخدمات التبادل السلعي (teleshopping) وخدمات الاستشارة (بنوك المعلومات) وخدمات الألعاب المجهّزة بأنظمة الواقع الافتراضي، حيث تجري أشكال من الاتّصال الشخصي الجماعي، أما في مجال الخدمات وحيدة الاتّجاه، يمكن التنويه بخدمات الرفع والإنذار(٨٢٧).

وفي مستوى آخر من التمييز، هناك حضور مشترك لأنظمة تجبر المتلقّي على التحرّك نحو مكان ما لكي يتمكّن من استعمالها، وأنظمة تستبعد ضرورة أي تحرّك

(824) E. Carità & C. Donat-Cattin, " La Galassia dei Nuovi Media ", in Mass Media Anni 90, Gutenberg 2000, Torino, 1988, pp. 193-265.
(825) Ibid.
(826) Ibid.
(827) Ibid.

للمتلقّي، وهناك أيضاً أنظمة تثمّن التحرك، وهي مصنوعة بطريقة تؤمّن للمتلقّي إمكانية الحركة[٨٢٨].

وهناك وسائل تجنح نحو نقل أكبر كمّية ممكنة من المعلومات إلى المتلقّي كالفيدو التلفزي واسطوانات الفيديو والقرص المدمّج (Cd-I) / (Cd-Rom).

ويقابل عدم تحرك المتلقّي في هذه الوسائل الجديدة التي تدخل العالم في موقع المتلقّي، اتّجاه عكسي حيث تميل تلك الوسائل إلى إدخال موقع المتلقّي إلى العالم، جاعلة هذا الموقع متحرّكاً وقابلاً للانتقال، ما يتيح للمتلقّي، ليس القيام بنشاط اتّصالي من منزله أو من مكتبه، ولكن إمكانية العمل والاتّصال والردّ أثناء تحرّكاته، وينتمي إلى هذا النوع كلّ الأجهزة النقّالة كالهاتف المحمول والمكاتب النقّالة المؤلّفة من هواتف وحواسيب وفاكس[٨٢٩].

على أية حال، يمكن تصنيف تلك الوسائل الجديدة حسب معايير مختلفة، كتاريخها مثلاً أو بنياتها أو وظائفها أو حسب السياقات المندرجة فيها أو القيم الثقافية التي تحرّكها تبعاً لعلاقاتها واختلافاتها مع وسائل الإعلام التقليدية.

ثمة تصنيف مهمّ ، يرتكز إلى الهدف الرئيس لعمل تلك الوسائل، وبالتالي إلى الخصائص الأساسية لطرائق إنتاجها، وهو تصنيف يتفرّع إلى ثلاثة مجالات : التمثّل والاتّصال والمعرفة.

تقانيات الاتّصال والتمثّل

يقصد بالتمثّل، في هذا المجال، الوظيفة الجوهرية لكلّ لغة ولكلّ حالة تعبيرية، وبالتالي لكلّ جهاز يرمي، تقانياً، إلى تحقيق هذا الهدف الذي يجنح إلى التدخّل، قدر الإمكان، عبر إعادة الإنتاج، بالمقارنة مع الواقع[٨٣٠].

من هذه الزاوية، يلاحظ أن تاريخ التعبير الإنساني (المباشر والوساطي)، انقسم دوماً بين مشروعين أساسيين : أحدهما يكمن في إعادة إنتاج الشيء نفسه الذي يراد تمثّله، عبر إشارات مختلفة مادّياً عن هذا الشيء، والثاني يكمن في إمكانية استقلالية الإشارات واللغات التي تبنى، لإنتاج معانٍ مستقلّة عن الأشياء[٨٣١].

(828) Ibid.
(829) M. Marchand, " La Communication à Domocile ", in L'Ordre Communicationnel, La Documentation Française, Paris, 1989, pp. 219-228.
(830) Bettetini, cit., p. 30.
(831) Ibid.

مهما كانت المادّة أو الأداة التي يتم اللجوء إليها للتعبير عن أفكار أو لصياغة خطاب من أنواع مختلفة، ينتهي الأمر دائماً بنسْب عناصر امتيازية للوظيفة المرجعية وللوظيفة الشعرية للغة. وفي حال استخدام إشارات إيقونية (صورة، لوحة، سينما، رسمة، غرافيك حاسوبي إلخ..)، فإن لحظة إعادة الإنتاج تتشابك، تلقائياً، مع الإشكاليات المؤسّسة للجهاز التعبيري الذي تمّ تشغيله ومع البنية العملية للأداة، إلى أن تتّخذ أدواراً وظيفية يستحيل انفصامها عن العمل الوظيفي لوسائل الاتّصال التي تستخدمها[٨٣٢].

ويتحدّث فلوك[٨٣٣] عن اللغات التمثيلية واللغات البنائية، وبقطع النظر عن التطورات التي حدثت في السينما وفي التلفزة خاصة (في الصورة الإلكترونية وبثّها واستخدامها) والتي نجمت عن إدخال المستجدّات التقانية، يبدو أن أحد الاستخدامات الأكثر إثارة للاهتمام من الناحية التمثّلية، هو الغرافيك الحاسوبي الذي يتألّف، بشكل أساسي، من البناء التركيبي للصور، ففي أجهزته، تصبح الصورة نتاج لعبة من التجريد الشكلي ومن وساطة نماذج، وتتولّد الصورة، حسابياً، وتبدو أنها ملتقطة في أساسها وفي المشروع الموضوع لها، من لغة مجرّدة ومشكّلة[٨٣٤].

ويمكن لصورة الغرافيك الحاسوبي أن تستغني عن أية علاقة مع مرجعية وجودية، حيث تستطيع أن تجد دوافعها الأصلية في حسابات رياضية، ضمن نموذج مجرّد لدرجة أنه يمكن أن تتم محاكاته بمساعدة حاسوب[٨٣٥]. ورغم الطبيعة الرقمية لولادتها ولإجراءات إنتاجها، فإن هذه الصورة ترتبط بأدوات إعادة إنتاج وتمثّل، مضيفة آفاقاً وموضوعاً للمناقشة حول العلاقة بين التفكير المنطقي- العقلاني وبين التفكير التشابهي- الصوري. إن هذين العالمين ليسا منفصلين تماماً، إذ يمكن أن تتراءى من خلالهما نقاط احتكاك، ولكنهما عالمان مختلفان وغير تراكميين، وهما يشكّلان فرصة للعودة النقدية والاستشرافية إلى طرائق عمل ما يطلق عليه التفكير المرني[٨٣٦].

إن أنظمة الغرافيك الحاسوبي تتيح إمكانية الاتّصال التبادلي، سواء من قبل المهني أو المهنيّين العاملين (علاقة إنسان - آلة)، سواء في مواجهة أجهزة أو وسائل اتّصال أخرى كالسينما والتلفزة؛ ويمدّ هذا الاستعداد للاتّصال التبادلي حدوده إلى المشكلات

(832) Ibid.
(833) M. Floch, " Sémiotique, Marketing et Communication. Sous les Signes, les Stratégies ",Ed. Presses Universitaires de France, Paris, 1990, p. 65.
(834) P. Quéau, "Éloge de la Simulation ", Ed. du Champ Vallon, Paris, 1986, pp. 25-30.
(835) Bettetini, cit., p. 31.
(836) Ibid.

الحسّاسة المتعلّقة بزوال الجماهيرية وببروز الشخصانية في التبادل الاتّصالي وفي الهويّات الثقافية[٨٣٧].

ولكن أيضاً في الغرافيك الحاسوبي، كما في جميع الأنظمة التبادلية الأخرى، ترتبط قيمة التبادلية الرامية إلى تنمية الاستقلالية الإبداعية وردّ الفعلية للفرد الذي يتعامل مع هذه الأنظمة، بكفاية هذا الفرد ومعرفته، في مواجهة تحديدات مسبقة واشتراطات معنى يمكن أن تسفر عن حالات أكثر تعقيداً من أيّ من أجهزة الاتّصال الكبرى المعروفة.

بذات المنطق، يمكن التعامل مع الواقع الخلّبي*، مع محاولة رفع مستوى المتعة التقانية، وفي الوقت نفسه، رفع مستوى الحذر في الأحكام والمسؤولية النقدية[٨٣٨].

بفضل معدّات أكثر تعقيداً كالألبسة الخاصة (data suits) والقفازات (data gloves) المجهّزين بأدوات حواسية خاصة، وبفضل مرئيات خاصة، يورّط الواقع الافتراضي، بتجهيزاته المتقنة، حواساً أخرى، بالإضافة إلى الحاسّتين البصرية والسمعية، كاللمس وما يسمّى " الإحساس بالجسد ". وهكذا، يتم الانتقال من وضع " امتداد الواقعي في الافتراضي عبر التماسّ " (الغرافيك الحاسوبي)، إلى وضع " حقن الواقعي في الافتراضي "[٨٣٩]. وتنفتح العوالم المعدّة والمدرجة في الجهاز للمتلقّي الذي يدخلها رمزياً ولكن عبر شعور بتأثير واقعي عالي المستوى، بفضل تجسيد افتراضي جعل ماديّاً وتوصيلات إضافية للجسم بأكمله.

لا بد من التنويه، في مجال التمثّل الذي تنجزه وسائل الاتّصال الحديثة، بظاهرة على جانب كبير من الأهميّة، هي التحديد شديد الدقّة (HDTV)، وهو عبارة عن إجراءات وسلسلة من الاختراعات التي أتاحت نمواً هائلاً في عدد النقاط التي تشكّل الصورة على الشاشة الإلكترونية - التلفزية، لدرجة أنها غدت تضاهي الصورة الفوتوغرافية قياس ٣٥ مم.

لقد وجدت الوظيفة الاجتماعية للتمثّلية دائماً في التقانيات حلفاء مخلصين. فمن الآلات المشهدية إلى التقانيات المرئية الأولى (الصورة، والصورة السينمائية والصورة

(837) Ibid., p. 33.

* يمكن إطلاق مصطلحات أخرى كالواقع الافتراضي أو الواقع الاصطناعي. ولعل مصطلح الواقع الخلّبي هو الأقرب إلى المعنى الأكثر دقّة واشتمالاً.

(838) Ibid.

(839) J. Weissberg, " Espaces Virtuels ", in Imaginaire Numérique, 1, Paris, 1987, pp. 67-71.

التلفزية)، فرضت الحاجة إلى إعادة إنتاج وإظهار المتشابه نفسه كمتطلّب مركزي. ويمكن لبعض التقانيات الحديثة أن تتشابه في وظيفتها مع وسائل الاتّصال التمثّلية[٨٤٠].

كان المخرج الألماني ويم يندرس[٨٤١] يقول إن الفيديو بالنسبة إليه لم يكن يعني أنه يرى، بل يعني أنه لا يرى، أو على الأقل لا يرى جيّداً. في البداية، كان ويندرس يصف اقترابه المرتاب من تقانيات إعادة الإنتاج الإلكترونية للصورة، بأنه وقوع لا خلاص منه في استحالة التوصّل إلى مستوى نوعي شبيه بمستوى الصورة السينمائية. وقد تراجع المخرج الألماني، فيما بعد، عن هذا الرأي بصورة جذرية، كما أعلن هو نفسه، وكما يظهر فيلمه " حتّى نهاية العالم "، حيث التقاط المشاهد ومعالجة الصور بتقانية التحديد العالي (HDTV) ، يغطّيان دوراً جوهرياً.

انطلاقاً من تجربة ويندرس، يمكن تحليل المستجدّات الرئيسة في التقانيات الإلكترونية التي تتيح الآن الحصول على نوعية صوَرية لا تختلف عن الصورة السينمائية.

يطلق الباحثون على عقد التسعينيات بأنه العقد الرقمي، أي المدّة التي عرف فيها استخدام التقانيات المرئية الرقمية اتّساعاً كبيراً في الأنظمة التلفزية، سواء فيما يتعلّق بالتلقّي، سواء فيما يتّصل بإرسال الإشارة[٨٤٢].

لا شك أن ترقيم الإشارة من جهة، وتطوّر الكاميرات التلفزية التي أصبحت اقتصادية وأكثر بساطة في الاستعمال، من جهة أخرى، تجد انعكاساتها في النوعيّة وفي الرائز الاجتماعي للصور المنتجة[٨٤٣].

• بناء العوالم في الواقع الخلّبي (virtual reality)

إذا كان الغرافيك الحاسوبي يتيح رؤية صورةٍ مزوّدة بقواعد سلوك خاصة بها وباستقلالية تجعلها شبيهة ، من جوانب عديدة، بشيء حقيقي، فإن أدوات بناء واستكشاف العوالم الافتراضية تتيح تفاعلاً تبادلياً طبيعياً وفورياً، مع هذه " الصورة - الشيء "[٨٤٤].

(840) S. Garassini & B. Gasparini, " Rappresentare con I New Media ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, p. 43.

(841) W. Wenders, " The Act of Seeing, Verlag der Autoren ", trad. " L'Atto di Vedere ", Ed. Ubulibri, Milano, 1992, p. 65.

(842) F. Ghersel, " La Televisione a Colori degli Anni Novanta ", Ed. Tecniche Nuove, Milano, 1990, p. 1.

(843) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 44.

(844) Ibid., p. 76.

يتجسّد الواقع الخلّبي، إذن، كأداة تقانية مثالية لاستهلاك ملائم، ثلاثي الأبعاد للصورة الصناعية التي تتّصف طبيعتها بكيان افتراضي، أي باستعدادها لأن تتحوّل هي نفسها من صورة إلى شيء، مكتسبة بعض الخصائص التي تنتمي إلى عناصر العالم الحقيقي[٨٤٥].

إن ما يميّز الواقع الخلّبي بالمقارنة مع الغرافيك الحاسوبي التفاعلي ليس جوهر الصور التي تتألّف من المادّة الإلكترونية نفسها، وإنمّا هي الطبيعة الأصيلة لهذا الكون البديل، الذي يعدّ مكاناً حقيقياً للاستكشاف[٨٤٦]. وليس من قبيل الصدفة أن الاستعارات المستخدمة في وصف الواقع الخلّبي تتحدّث عن الغوص والإبحار اللذين يصفان، بشكل ملائم، وضع المشترك المتموضع في بيئة خاصة، والمزوّد بقواعد سلوك وبفضاء خاص[٨٤٧].

إن استعارة مصطلح الغوص توحي بمسألة أخرى تتعلّق بالخصيصة الأساسية للعالم الذي تمثّله تقانية الواقع الافتراضي، وهي فكرة أن الفضاء الخلّبي يكتسب قواماً غير مسبوق وكثافة محسوسة شبيهة بكثافة كتلة هائلة من الماء، كما أن الاستمرارية بين الفضاء الفيزيائي الذي يتواجد فيه الملاحظ، والفضاء الخلّبي الذي أوجده الحاسوب، جاعلاً من المستحيل الوصول إلى تمييز قاطع بين " الداخل " و " الخارج "، بالنسبة للصورة، يشكّلان الجانب الأساسي والأكثر غنى لجهة التطوّرات النظرية والتطبيقية والاتّصالية للتقانية الجديدة، أي الواقع الخلّبي.

هناك أبحاث تقانية تميّز بين الواقع الخلّبي الذي يتطلّب معدّات خاصة للتفاعل مع العالم المحاكى أو المنتحل، وبين الواقع الذي لا يحتاج فيه المشترك إلى أية تجهيزات، إذ يكفي أن يتحرك داخل فضاء صنعه الحاسوب وأن يلاحظ على شاشة صورته وهي تتفاعل مع أشخاص مجرّدين أو مع مشتركين آخرين خلّبيّين[٨٤٨].

غير أن كلاً من الواقع الخلّبي وواقع المحاكاة أو الانتحال يتميّزان بقدرتهما على خلق تورّط للمشترك تتعدّى الحواس ودفع إحساسه، بهذا الشكل، إلى أن يجد نفسه فعلياً داخل المشهد المصمّم. وتأتي أجوبة الحاسوب، في هذه الحالة، بفضل تدخّل تقانيات تعيد إلى المشترك الأحاسيس المتوافقة مع حركاته[٨٤٩].

ثمة أمثلة عديدة لبناء الواقع الخلّبي، تستخدم لمعرفة ردود أفعال الجمهور أو

(845) F. Colombo, " Ombre Sintetiche ", Ed. Liguori, Napoli, 1990, p. 47.
(846) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 77.
(847) Ibid.
(848) M. Krueger, " Artificial Reality II ", Ed. Addison Wesley, London, 1991, p. 74.
(849) Ibid.

للتعليم، لعلّ أضخمها إعادة بناء مدينة سياتل الأمريكية بكاملها، حيث تمكّن الأفراد من الطيران بين ناطحات السحاب وتغيّير زوايا الرؤية، وتغيّير مواقعهم بين البحر واليابسة[٨٥٠].

بالإضافة إلى هذا النوع من الواقع الخلّبي المتّجهة نحو انتحال ما هو موجود، هناك حالات تتّجه فيها المحاكاة نحو جوانب غير ملموسة عادة، كتصوير بنيات خلايا خاصة حسب فرضيات علمية معيّنة، أو صنع تدفّق رياح داخل نفق إلخ..

ولكن هناك أيضاً تقانيات تستخدم في بناء عوالم متخيّلة تماماً أو مستوحاة من روايات وقصص خيالية، حيث تتعرّض قوانين الواقع المتعارف عليها للتلاعب بصورة أو بأخرى[٨٥١].

• المعطى النظري: بزوغ الانتحال أو المحاكاة (simulation)، والتخيّل

في الصور – الأشياء التي يصنعها الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلّبي تتساكن عناصر تنتمي إلى التمثّل التقاني وعناصر تعود إلى تاريخ الرسوم التشكيلية. وتدعو الوظيفة المزدوجة للصور والنماذج التي ترتديها هذه الإيقونات الجديدة، إلى تحليلها من وجهة نظر خاصة : هي وجهة صيرورة الانتحال التي تبنى.

ويتعلّق هذا الأمر بمقاربة تسمح بإبراز التصدّعات والاستمراريات بين التقانيات التقليدية لإنتاج الصور (صور فوتوغرافية، سينما، تلفزة)، ومنتجات الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلّبي. وبتحليل خصائص الأشكال الأكثر تعقيداً للإنتاج الإيقوني، بصورة خاصة، بدءاً بتقانية الدقّة المتناهية إلى التركيب الحاسوبي، يمكن إبراز التشابك بين فئتي العناصر الجوهرية لكلّ إشارة : أي المرجعية تجاه الشيء الممثّل واستقلالية اللغة المستعملة في عملية التمثّل[٨٥٢].

إن الحديث عن انتحال (محاكاة) أي إنتاج إشاري يعني تسليط الضوء على التعايش القائم بين هذين الجانبين، وهو تعايش يتم كشف النقاب عنه، بشكل نهائي، في الصور التي يولّدها الحاسوب[٨٥٣].

من المعروف أن مصطلح انتحال يوحي بدلالات متناقضة، فهو قد يعني خداع وتضليل، كما يعني أيضاً إعادة إنتاج أو تقليد، وهذا التناقض الثنائي في المعنى

(850) W. Bricken, " Virtual Reality : directions of Growth ", in Virtual Reality 91, London, 1991, pp. 1-6.
(851) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 85.
(852) Ibid., p. 90.
(853) Ibid.

موجود في كلّ إشارة، لدرجة أن أمبيرتو إيكو يعرّف الإشارة بأنها كلّ ما يمكن أن يستخدم لممارسة الكذب[854]. الحقيقة أن كلّ لغة تقوم بعمليات انتحال، أي تبني نموذجاً للواقع الذي تريد التحدّث عنه، والذي ترجع إليه. ولأن كلّ لغة، ومن أجل أن تصف الواقع، يجب أن تستقلّ عنه وأن تقوم بانتحاله، يمكن أن يحدث الخداع والكذب، اللذين يحتمل ألاّ يرتسما في أفق تحديدي شامل أو في مرجعية مغتصبة[855].

غير أن التأمّل الأهم في هذا التحليل يستند إلى مجال خاص، هو مجال الانتحال الحواسي، حيث النيّة تنصبّ على إنتاج حامل مادّي للمعنى يستطيع أن يحيل إلى مشروع أو إلى نموذج أو إلى إيقونة قادرة على تحريض روائز التقاطية شبيهة بتلك التي تنتجها أشكال مرجعية، أوتكون، على أية حال، ذات مصداقية وقابلة للاستخدام بفضل تشابهها وملاءمتها للعنصر الذي يعدّ أصل استخراج منتج خاص للمعنى[856].

في حالة الانتحال الإيقوني، ينبغي تحليل الآليات الأساسية التي تنظّم إعادة إنتاج فعّالة للواقع أو قراءة إبداعية ومستقلّة تماماً عن المرجعية. ولكنّها، في جميع الأحوال، ملائمة للسياق الذي تندرج فيه. ويتداخل الحدّان الأدنى والأقصى للاستقلالية والمرجعية، في جميع أشكال الإنتاج الرسومي والتصويري[857].

إن نقطة الانطلاق لهذه الإجراءات جميعاً هي الواقع الذي يعاد إنتاجه بصورة حيادية ظاهرياً. غير أنه، وفي جميع هذه الحالات، يتم إخفاء التدخّل البنائي للمؤلّف بشكل أكثر سهولة، من خلال عرض مزعوم "لأشياء جليّة"، يثير في المتلقّي مساندة عفوية إليها وضرباً من اليقين، تعجز اللوحة العادية الأكثر واقعية عن إثارته[858]. وترتكز اللغة السمعبصرية إلى وضع أقنعة على أعمالها النقاشية وعلى تمجيد خصائصها الجليّة، ولكنها، في الحقيقة، خصائص "جليّة" مزيّفة تجعل عملية نزع القناع عن الانتحال الذي تقوم به الصور أكثر صعوبة[859].

إن نتيجة عمليات من هذا النوع تتمتّع باستقلالية أكبر تجاه المرجعية ويمكن، بالتالي، أن تتوجّه نحو إتقان إبداعي كامل، فتدخّل الحاسوب، الذي يجعل الترسيم الرقمي للصورة شاملاً، والذي يمكنه أن يخضع هذه الصورة لأي نوع من إعادة الصياغة والمعالجة، يبرز أكثر أن الواقعية هي واحدة من الاتّجاهات الممكنة في

(854) U. Eco, . " Trattato di Semiotica Generale ", cit., p. 238.
(855) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 91.
(856) Bettetini, " La Simulazione Visiva ", Ed. Bompiani, Milano, 1991, p. 45.
(857) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit.
(858) Bettetini, " L'Occhio in Vendita ", Ed. Marsilio, Venezia, 1985, p. 35.
(859) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit.

استعمال الفيديو. وهكذا، فإن التقدّم التقاني قد أفقد الصورة أيضاً أصالتها التقليدية[860].

ويعتقد بعض الباحثين[861] في هذا المجال أن الصورة الصناعية المركّبة تجسّد، بهذا الشكل، تصدّعاً معرفياً حقيقياً في تاريخ الإنتاج الإيقوني وتنبئ بالانتقال النهائي من مجال التمثّل المستمد، كلّياً أو جزئياً، من الواقع إلى مجال الاصطناع الكامل المستقلّ تماماً عن الواقع.

هذا يعني أن الصورة لم تعد تمثّل شاهداً مباشراً على الواقع، وإنّما انعكاساً لتفسير لهذا الواقع تمّت صياغته وفلترته عبر اللغة. ويعني أيضاً أن الصورة البصرية قد أصبحت شكلاً من أشكال تفسير الواقع، ولكن التفسير أوالتأويل الذي تقدّمه الصورة الصناعية المركّبة، يحاول أن يتجاوز الواقع التظاهري أو الواقع المنحول، لكي يصل إلى أصوله وإلى التشابكات القابعة خلفه، ليس من أجل انتحاله وإنّما من أجل أن يصبح بديلاً عنه[862].

لا شك أن هذه النظرية مثيرة للاهتمام، والحقيقة أن الباحثين الفرنسيين يقدّمون تحاليل رفيعة المستوى حول الصور الصناعية المركّبة، متجاوزين الاستعمال التقاني البحت ليدرسوا مباشرة الخصائص الجمالية للإيقونات الجديدة. ولكن ثمة مبالغة غير مبرّرة في بعض جوانب هذا النوع من النظريات، بالنسبة لإنتاج الغرافيك الحاسوبي الذي لا يؤدّي دائماً إلى إحداث تصدّع كامل بين الواقعي والاصطناعي، إذ أن الانتقال من الشيء إلى تمثّله عبر نماذج منطقية ورقمية، تنشأ عنه مساحة تحوّل متوسّطة قادرة على اكتساب استقلالية معيّنة يعرّفها بعض الباحثين بأنها فارق رقمي للتمثّل[863]. ولكن اصطناع واقع خلّبي، يمكنه أن يعكس واقعاً مزيّفاً، متخيّلاً، مركّباً وسريالياً، حيث كلّ شيء يمكن أن يكون متمثّلاً دون اللجوء إلى خدع أو عمليات مونتاج كما في السينما والتلفزة، وتتمتّع الصورة الإيقونية، في هذه الحالة، باستقلالية كاملة، ويجري تنظيمها بموجب قوانين خاصة بها ومستقلّة تماماً عن قوانين الواقع، ويجري التلاعب فقط بتخيّلات ليس لها أي مرجعية في الواقع الحقيقي.

لهذا كلّه، فإن الأمر لا يتعلّق بانتحال شيء فحسب، بل باتّباع قواعد وأنظمة تخرق كلّياً القواعد والأنظمة التي تحكم العالم الواقعي.

(860) B. Laurel, " Computers as Theatre ", Ed. Addison Wesley, London, 1991, p. 125.
(861) P. Quéau, " Nœuds Virtuels ",Relation : Meeting " Labyrinthes Virtuels ", Polytechnique de Milan, Mars, 1992.
(862) E. Couchot, " Images. De L'Optique au Numérique. Les Arts Visuels et L'Evolution des Technologies, Ed. Hermes, Paris, 1988, pp. 90-100.
(863) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 99.

وتتّجه تقانية الانتحال اليوم نحو أفق أكثر عمقاً، أي نحو امتلاك ومعرفة الشيء من داخله وليس فقط السعي إلى تقليد مظهره الخارجي[٨٦٤]. وهكذا، فإن منطق التمثّل قد تمّ تجاوزه نهائياً، إذ يجري صنع نسخة من الشيء وإنتاجه، فقط اعتباراً من صيرورة داخلية للآلة نفسها، ولكن لا تجري إعادة تقديمه بل إعادة خلقه، بعد أن يتم الكشف عن خصائصه الحميمة وقواعد سلوكه. وتندرج هذه الإجراءات بصورة تامّة، في منطق يميّز تاريخ التعبير البصري جميعاً.

يقول ويسبيرغ[٨٦٥] إن رسوم الحيوانات المنقوشة على جدران كهوف ما قبل التاريخ، لم تكن صوراً بالمعنى المعاصر للكلمة، فسكان هذه الكهوف كانوا ينقلون الحيوان بلحمه وشحمه على السطح الصخري، مدشّنين، بهذا الشكل، تاريخ التمثّل من خلال المحاكاة.

• انتحال وخلّبية

الانتحال هي خصيصة كلّ صيرورة محاكاتية وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع أي إجراء تشكّلي. فصفة خلّبي لا تعني، في هذا المقام، نقيض الواقعي بل تعني الحالي، وتتّصف بافتراض واقع موجود في حالة مفهومية، وهي ضرب من الواقع الخيالي الموجود وغير الموجود، والخلّبي هو واقعي بكلّ فعّالياته العملية، غير أنه ليس في الحقيقة كما يبدو[٨٦٦].

ولعلّ السبيل الأفضل لتحديد هذا المفهوم هو في القول إن أداة انتحالية تحلّ محلّ الأشياء باستخدام قواعد الأشياء، وإن الكيان الخلّبي هو منتج أصيل للانتحال (simulation)، أي هو صورة أو ظلّ خيالي(simulacrum)[٨٦٧].

ويتم الانتقال من الواقعي إلى الخلّبي بفضل فلتر التشكيل الذي يسمح ببناء شيء أو صورة، على أساس نظرية؛ وبالتالي، يجري إدخال عنصر مجرّد وشكلي، في عالم التجربة. وتحلّ محلّ الشيء الواقعي دعامة افتراضية قادرة على إنتاج ذات التأثيرات ويتم استيعاب خصائصها وتفسيرها كنظائر للكيانات الواقعية المقابلة لها[٨٦٨]. ولا

(864) P. Quéau, " Éloge de la Simulation ", op. cit.
(865) Weissberg, "Le Compact Réel / Virtuel ",in Weissberg et alii, Les chemins du Virtuel, Centre Pompidou, Paris, 1989, pp. 7-28.
(866) G. Youngblood, " Cinema Elettronico e Simulacro Digitale. Un'Epistemologia dello Spazio Virtuale ", Ed. Albertini & Lischi, Metamorfosi della Visione, ETS, Pisa, 1986, pp. 31-41.
(867) Ibid.
(868) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 101.

يرجع الخلّبي إلى ما هو عليه الشيء الواقعي، وإنّما إلى ما يعرف عنه. وهكذا، يتم الانتقال من تأثير للواقعي يسهل نزع القناع عنه، كما في النماذج الإيقونية الأولى التي تكشف بوضوح عن خصيصتها المعادة الإنتاج، إلى إجراءات أكثر تعقيداً حيث المعارف المحيطة بالشيء أكثر عمقاً وتتجسّد في تمثّلات تزداد، شيئاً شيئاً، شبهاً بالشيء الواقعي، ليس فقط في الملامح الخارجية، بل أيضاً في طرائق العمل الداخلية للكيان الذي تمّت محاكاته، كما في النماذج الدينامية التي تنتحل في الحاسوب عمل القوى الموجودة في نظام ما، أو في خلق فنون جينيّة[٨٦٩].

إن الانتحال المعلوماتي بالذات، هو الذي يعطي الخلّبي سماكة جديدة تماماً في كثافة الإشارات الناجمة مباشرة عن لعبة قواعد، لتجريد شكلي[٨٧٠]. ويحكم الكون الخلّبي من المشروعات والاصطلاحات، كلّ الإنتاج الإيقوني، الذي يترجم إلى صور مزوّدة باستقلاليتها الرمزية. كما أن صنع نسخ أو إنتاج شيء جديد، يتم خارج نطاق نظام التمثّل[٨٧١].

ضمن هذه الرؤية، تكون الصورة هي الشيء نفسه وتمتلك خواصه. فعبر الانتحال المعلوماتي، يمكن رؤية الخلّبي الذي يقف حتى الآن عند حدود الصور الغرافيكية والرسوم والمخطّطات المعقدّة، قادراً على إعطاء شكل مؤقّت للمشروعات.

إن ما يعرف عن الشيء يولّد ما يراه المرء، جاعلاً، بشكل نهائي، العلاقة النشيطة بين المعرفة والبصر، شكلية، كما هو الأمر بالنسبة لأي إنتاج إيقوني. هذا يعني أنه يمكن تعريف الخلّبي، كما يوصي نيلسون[٨٧٢]، كبنية تظاهرية، وكإحساس مفهومي بما تمّ خلقه. إن النظر إلى نظام على أنه خلّبي، يعني فصله تماماً عن واقعه وعن عمله الملموس، فقط من أجل تحليل المناخ المفهومي الذي يعاد فيه إنتاجه[٨٧٣].

إذا جرى التمحيص في صيرورة البناء والتفاعل مع العوالم الاصطناعية، فإن مفهوم الخلّبية يجب أن يمتدّ ليس فقط ليطال الأشياء الموجودة في تلك العوالم، بل أيضاً وخاصة ليحتوي تجربة صانع الواقع الخلّبي. وفي عمليات بناء وقائع خلّبية أو اصطناعية، لا يتوجّه العنصر الخلّبي نحو أساليب صنع أشياء مفردة فحسب، ولكنه يرمي إلى إعادة إنتاج خصائص التجربة في العالم الواقعي. وعبر التورّط الحواسي

(869) Ibid.
(870) Quéau, " Éloge de la Simulation ", 1986, cit., p. 25-30.
(871) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit.
(872) H. Rheingold, " Virtual Reality ", Ed. Secker & Warburg Limited, London, 1991, p. 177.
(873) S. Garassini & B. Gasparini, Rappresentare con I New Media, op. cit., p. 103.

التعدّي للمشترك، تتم إزاحة الحاجز الذي يفصل، في العادة، بين المتلقّي والصورة التي غدت تغزو الحيّز الالتقاطي الذي كانت الأشياء والأوضاع الواقعية تحتلّه[٨٧٤].

من الواضح إذن، أن العنصر الخلّبي قد ركّز دائماً، ليس على إعادة إنتاج أشياء بسيطة فحسب، وإنّما أيضاً على خلق تجربة شبيهة بتجربة العالم الواقعي. ولكن بظهور وانتشار الحاسوب فقط، أحرز المفهوم الخلّبي الذي اتّجه نحو بناء فضاءات بديلة أصيلة، نتائجه ذات المغزى الأعمق، مقدّماً للمتلقّي إمكانية التفاعل الاتّصالي الحقيقي مع الصور.

ولذلك، يمكن اعتبار الحاسوب، ضمن هذه الرؤية، مولّد وقائع[٨٧٥]، لعوالم ممكنة، تمتاز بتناغمية داخلية خاصّة بها وباستقلالية سلوكية.

إن الأشياء التي تحيط بالمتحادثين الخلّبيّين مزوّدة بذاكرة، وتقوم بوظائف معالجة المعلومة وتتمتّع باستقلالية تنظّمها البرامج الخاصة بها، وتجتاز العوالم الاصطناعية شكلاً غير عادي من الحياة الاصطناعية[٨٧٦].

في نهاية المطاف، يبقى هدف الواقع الخلّبي ليس تفسير ما يجري على أنه واقع، وإنّما تعليق حالة الانفصال الذي يتم الاحتفاظ بها، تقليدياً، عندما يجد المرء نفسه أمام صور ولوحات.

• وضعية العالم المتمثّل

إن تاريخ التمثّل يتبدّى كتطوّر تدريجي نحو استقلالية أكبر للإشارات، ففي الكثافة الجديدة للصور التي تكتسب خصائص أشياء الواقع، يتحقّق الهدف الأوّل الأزلي للإشارة، وهو السيطرة على الظواهر بدلاً من مجرّد تقليدها[٨٧٧]. ولكنها، في الحقيقة، استقلالية من نوع خاص، فإذا كان صحيحاً أن الإيقونة الاصطناعية تميل إلى فقدان الصلة المرجعية التي كانت دوماً تربطها بالشيء الممثّل، فإنه صحيح أيضاً أن يرافق هذه الصيرورة خلق علاقة تبعية تزداد توطّداً مع المراقب، المتضمّن في المشهد، والذي يمارس تفاعلاً عالياً مع الإيقونة الاصطناعية الجديدة، حتّى يصل إلى التورّط الكامل الذي تتيحه العوالم الخلبية.

(874) Ibid
(875) Bricken, " Virtual Reality, 1991, cit.
(876) Quéau, " Les Métaphores du Virtuel ", in Imagina, Meeting, INA, VI, Paris, 1992, pp. 24-34.
(877) F. Colombo, " Ombre Sintetiche ", Ed. Liguori, Napoli, 1990, p. 83.

ويفرض هذان الجانبان، أي استقلالية الإشارات والعلاقة التشاركية العضوية، المطلوبة من المراقب، النظر في وضعية الممثّل الذي يكتسب خصائص مختلفة بعمق عن تلك التي تتّصف بها الصور عادة. فإشارات الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلّبي تمتلك، كمرجعية فورية، النموذج الرياضي الذي ولّدهما، ولذلك، فهما مزوّدين باستقلاليتهما وتناغميتهما الداخلية التي تجعل منهما أشباه أشياء، أي كيانات تشكّل، بكامل الحقوق، جزءاً من فيديو الواقع الذي يظهر على شاشة التلفزة، وتحصل على مثالها الكامل[٨٧٨]. ولكن الجوهر الحميمي لهذا الواقع الجديد من الإشارات وتراكيبها، التي فقدت وظيفتها الوساطية نحو عالم خارجي، لتكتسب خواصاً كأشياء من بين الأشياء، هو في الحقيقة، معلومات ونسيج من القواعد والحسابات والاصطلاحات، وهو بنية فسيفسائية من العلاقات الرياضية القادرة على توليد أشكال رائعة الجمال، تجسّد تقليداً متقناً للعالم الواقعي، أو لعالم غير موجود.

وهكذا، يمكن القول إن هذا الواقع يشتقّ من تحويل كون مجرّد بحدّ ذاته، كالكون الرياضي، إلى كون ملموس، أو إلى كون من الأحلام والحكايات والأساطير التي تشكّل تراثاً للمخيال الجماعي، من ناحية، و تشتقّ، من ناحية أخرى، من إزالة تدرّجية لمادّية العالم الواقعي[٨٧٩].

ويشير ويسبيرغ أن صور هذا العالم الخلّبي تتّصف بخصيصة الأشياء المتوارية والمدفونة في ذاكرة حاسوب إلى أن تأتي طاقة وقوّة مشاهد- ممثّل لتوقظها وتظهرها على الشاشة[٨٨٠].

• الفضاء الخلّبي

إن الوهم الذي ينشأ عبر تقانيات الواقع الخلّبي يستند، عادة، إلى خدع بصرية ويتّجه نحو توليد فضاء بديل[٨٨١]، وتعدّ تحاليل خصائص هذا الفضاء حبلى بتطوّرات هائلة. ويندرج الفضاء الخلّبي، كجميع المعطيات الأخرى المتعلّقة بالصور، في اللوحة

(878) Ibid.
(879) M. Benedikt, " Cyberspace. First Steps ", Ed. The Mit Press, Cambridge, 1991, in Bettetini & Colombo, 1998, cit., p. 106.
(880) Weissberg, " Le Compact Réel / Virtuel, 1989, cit., pp. 68-73.
(881) Brody, 1991, in S. Garassini & B. Gasparini, 1998, cit., p. 107.

الرقمية المخزنة في ذاكرة الحاسوب. هذا يعني أنه لا يوجد تميـيز مسبق بين الشـيء والقاع الذي يتمثّل فوقه هذا الشيء، ولكي يتم الحصول على هذا التميّز ينبغي انتحالـه عبر عمليات لوغاريتمية مناسبة. بمعنى آخر، لم يعد الفضاء، في العوالم الخلّبية، يفهم بالمعنى الكانطي كشكل مسبق، وكشرط لإمكانية التجربـة، بل غدا هو نفسه صـورة ينبغي تشكيلها كالكيانات والأشياء التي يحتويها، فالتجربة هي التي تشرط الفضاء[882]. هذا يعني أن الأمر يتعلّق بكيان مجرّد كلّياً وشكلي، يمكن أن يعاد تشـكيل علاقاتـه مـع الصور الأخرى، ليس بالضرورة حسب قوانين الهندسـة الإقليدية، ولكـن أيضـاً عبر افتراض أوضاع متناقضة تحتوي العديد من المفارقات.

إن هذا الفضاء الذي تمّت شكلنته بصورة كاملة، وأخضع لسيطرة المتلقّي الكاملـة، وخلقته تقانيات الواقع الخلّبـي، أطلق عليـه مصطلـح الفضـاء السّبراني (cyberspace) الذي يمكن التحكّم به تماماً وتحريكه من قبل بنّاء العوالم الخلّبية والمبرمج. ويمكـن أن يعرّف هذا الفضاء كمملكة للأحاسيس[883]، وتأتي كثافته فقط مـن حضـور مشـترك أو أكثر، تتحول الكيانات الرياضية للفضاء الخلّبي، من أجلهم، إلـى قرائن لوجـود أشياء واقعية.

وبما أن الفضاء السّبراني ولد لكي يتقاسمه عدة مشتركين متّصليـن بالشبكة، فـإن بينيديكت[884] يعدّه تطوّراً لما يطلق عليه بوبر (Popper) " العالم ٣ "، أو عـالم البنيـات الاجتماعية والمصطلحات التي تجعل التعايش بين النـاس ممكنـاً. بهـذا المعنـى، يمكن القول إن هذا الفضاء يمتلك وسائل حياته المستقلّة عن المشترك المفرد. ولكونه مشكلناً تماماً، ونظريـاً بحتـاً، فـإن الفضـاء السّبراني يمكـن أن يبنـى علـى شـاكلة النمـوذج الفيزيائي. بالإضافة إلى ذلك، يعتمد مفهوم الواقـع الاصطنـاعي كـأداة اتّصاليـة، علـى فكرة مجرّدة حول الفضاء، تتلاقـى مـع المعلومـة الموجـودة، فـي ذات اللحظـة، تحـت تصرّف المشتركين[885].

ممّا لا شك فيه، إذن، أن الاتّصال مع الفضاء السّبراني يمكن أن يحرّف الأسـاليب الالتقاطية التي تقود الإنسان في الواقع الفيزيائي.

(882) Quéau, " Nœuds Virtuels, 1992, cit., pp. 92-98.
(883) B. Sterling, in Novak, 1991, in S. Garassini & B. Gasparini, 1998, cit. p. 109.
(884) Benedikt, " Cyberspace. First Steps ", 1991, in Bettetini & Colombo, cit., p. 110.
(885) Krueger, " Artificial Reality II ", 1991, cit. p. 80.

• تقانيات وتمثّل: آفاق جديدة

لقد أثارت تقانيات التمثّل جدلاً في مجتمعات عديدة، وهو جدل سيستمر فترة طويلة من الزمن، لأن الانعكاسـات الاجتماعيـة والفلسفية للواقـع الخلّبـي، تكتسب باستمرار مزيداً من الأهمّية. وهناك من يدعو إلـى إعـادة تفكير حـول الفئـات التقليديـة للواقعيـة وحول مفهوم الواقع نفسه[886]، كما حصل تماماً فـي الجدل الـذي أثير حـول مفهـوم الذكاء إثر انتشار التقانيات المعلوماتية المتعلّقة بالذكاء الاصطناعي. لهذا، فـإن الواقـع الخلّبي هو عبـارة عـن مختبـر معلومـاتي توضـع، فـي داخلـه، علـى المحكّ، مختلـف القناعات حول وضع الواقع نفسه[887].

وهكذا، يتجسّد حلم لم يغب أبداً عن تاريخ الإنتـاج الفكـري، وهـو تكثيـف المعرفـة لتصبـح تنسـيقات لأفكـار مجـرّدة واسـتنتاجية، وإزالـة المواجهـة الضروريـة مـع التجربة[888]. وبهذه المناسبة، يمكن الحديث عن " الوهم التناسقي "، أي الرغبة بشـكل مقاربة من الواقع عبر أحكام مسبقة تماماً، أو الاستجابة لإغـراء النظريـة الكارتيزيـة، التي تقول بإمكانية الحصول على معرفة واضحة ومتميّزة، متّجهة فقـط نحـو الأفكـار، وغير مصابة بعدوى التجربة الحسّية التي تشكّل مصدراً للتشوّش والأخطاء[889].

ويبدو أن الواقع الخلّبي يلبّي هذه الرغبة، إذ يقدّم نفسه كعالم اصطناعي حيـث كـلّ شيء فيـه متوقّـع، بشكل مـا، ومسيطر عليـه مـن قبـل الإنسـان الـذي يعـرف قوانينـه وطرائق عمله في أدقّ آلياته. وليس لدى العالم الخلّبي أيـة أسـرار، فكـلّ شـيء يحمـل على كاهله قواعد تشكيله، والتظاهر هو تأثير لعلم[890].

على أية حال، يبقى هذا العالم الخلّبي فضاءات وهمية تنظّم وتنظّـم نفسـها دون أن تخرج قط من مجال القيود الصارمة التي أرساها برنامج الإعداد الإلكتروني[891].

إنّ العوالم الخلّبية التي بناها الإنسان بكاملها، تتوجّه بصورة أساسية لا انفصام فيهـا نحـو هـذا الإنسـان. وإذا كـان صحيحـاً أن الفضـاء الخلّبـي يكتسـب خصـائص خاصّـة تجعله، بشكل نوعي، مختلفاً عن الفضاء الفيزيائي، فإن الجسم الذي يجد نفسه غاطسـاً

(886) Benedikt. " Cyberspace. First Steps ", 1991, cit, p. 111.
(887) Ibid.
(888) S. Garassini & B. Gasparini, 1998, p. 110.
(889) Ibid.
(890) Weissberg, " Espaces Virtuels ", in Imaginaire Numérique, 1, Paris,1987, pp. 67-71.
(891) T. Maldonado, " Reale e Virtuale ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1992, p. 70.

في هذا الفضاء الخلّبي يحتفظ بخصوصيّته كما هي[٨٩٢]. فهذا الجسم بالذات، مع حواسه الخمس وخواصه الالتقاطية الطبيعية، ومع قدرته على توحيد تركيبي للتجربة، هو الأفق غير القابل للتصرّف، الذي يندرج في إطاره الواقع الخلّبي.

إن السيكولوجيا، حسب بريكن[٨٩٣] هي فيزياء الواقع الخلّبي، أي أن القوانين التي تحكم العوالم الاصطناعية تصير إلى التلاقي مع تلك التي تنظّم السيرورة المعرفية التي بفضلها يمكن بناء تأثير شبيه ملائم.

وأخيراً، فإن نتيجة الملاحظة ليست فقط قياساً، ليست فقط تمثّلاً، ليست فقط تجريداً، إنها إدراك حسّي للواقعي أثناء إعادة بنائه، لقد حقّق الإنسان الواقع الاصطناعي، بحيث جعل الإدراك الحسّي عملية غير منفكّة عن الصورة[٨٩٤].

لقد دفع التورّط الانفعالي للإنسان في العوالم الخلّبية، بعض الباحثين إلى اعتبارها مخدّر إلكتروني، ووصفها بعض آخر أنها فرصة سانحة للخلاص من سجن القسر الجسدي والارتفاع فوق العالم[٨٩٥].

هناك من يتوقّع قدوم اتّصال بَعْد- رمزي يمكن أن يتحقّق عبر تقسيمات متشعّبة للفضاء الخلّبي نفسه، حيث تنتفي الحاجة إلى وصف أشياء وحالات، إذ يكفي خلقها[٨٩٦]. غير أن آخرين[٨٩٧] يعترضون على هذه النظرية، إذ يعتقدون أن اللغة ليست مستخدمة لوصف العالم المادّي فحسب، وأنه يجب التأكيد على الطبيعة اللغوية والرمزية الداخلية للواقع الخلّبي، الناجمة عن تقاطع نماذج رياضية مندرجة في برمجيات الحاسوب. هذا يعني أن الواقع الخلّبي نفسه لغة ولا يستطيع أن يكون بديلاً للعلاقة المباشرة مع أشياء وأوضاع وأحاسيس.

* * *

(892) Quéau, " Nœuds Virtuels, 1992, cit. pp. 92-98.
(893) Bricken, " Virtual Reality. Direction of Growth ", in Imagia 92, Meeting,.Paris, 1992, pp. 23-40.
(894) G. Degli Antoni, Realtà Artificiale : Una Silenziosa Rivoluzione cognitiva ", Università degli Studi di Milano, Dipartimento di Scienze dell'Informazione, Ed. Tecnos, Milano, 1990, p. 5.
(895) E. Zolla, " Uscite dal Mondo", Ed. Adelphi, Milano, 1992, pp. 53-59.
(896) J. Lanier, in S. Garassini & B. Gasparini, 1998, cit, p. 113.
(897) Laurel, " Computers as Theatre ", 1991, cit, pp. 46-52.

الفصل الثاني

التقانيات الجديدة والاتّصال

مدخل

تمّت الإشارة آنفاً أن التصنيف المرتكز إلى الهدف الرئيس لعمل تلك التقانيات، وبالتالي إلى الخصائص الأساسية لطرائق إنتاجها، يتفرّع إلى ثلاثة مجالات : التمثّل والاتّصال والمعرفة. وقد تم عرض موضوع التمثّل، ولا بد من إيجاز بعض الأفكار الرئيسة حول طبيعة العلاقة التي تربط تلك التقانيات الجديدة وعنصر يعد جوهرياً في هذا السياق، وهو الاتّصال.

الاتّصال

يعدّ التبادل الاتّصالي منطقة أساسية بالنسبة لوسائل الاتّصال الحديثة. فالاتّصال، يتميّز ، قبل كلّ شيء، بسعيه إلى تحقيق المساواة بين الأطراف التي تتواصل فيما بينها.

ولكي تصل ظاهرة علاقات اتّصالية تبادلية إلى مستوى اتّصال حقيقي، يجب أن تلبّي عدة خصائص[٨٩٨]:

١) أن تمتلك شكلاً مفتوحاً للتبادل ثنائي الاتّجاه، أو تعدّدي الاتّجاه.

٢) أن تتمتّع بإمكانية قلب الأدوار بين المرسل والمتلقّي.

٣) أن تثمّن النشاط التشاركي للمتلقّي حتّى في حالة قيامه بدور استقبالي بسيط.

(898) Bettetini, cit., p. 35.

٤) الانتباه إلى تأثيرات العمل الاتّصالي.

٥) الميل إلى الاستعداد لاعتبار العلاقة الاتّصالية كنشاط تبادلي نـدّي ومتساوٍ، وبالتالي كشكل من المحادثة التي يمكن أن تتحقّق.

وتقود هذه الخصائص إلى مشكلة النشاط التبادلي لوسائل الاتّصال الحديثة. ففي هذه الحالة، يمكن للنشاط التبادلي أن يفهم كقدرة النظام الجديد على أن يستقبل طلبات المشترك وأن يلبّيها، وهو جانب يتعارض كلّياً مع طرائق عمل وسائل الإعلام التقليدية[٨٩٩].

إن النصّية التي تنتجها التقانيات المعلوماتية لا يمكن أن تعدّ كنظام إشارات مغلق، وإنّما كعمل متّصل. فالنشاط التبادلي الإنسان – الآلة في الغرافيك الحاسوبي يتموضع في منطقة وسطى بين المحادثة النصّية ذات الطبيعة الرمزية – التي يتّصف بها أي نصّ والتي تتوضّع في العلاقة بين كائنين رمزيين: المتحدّث والمتحدّث إليه – وبين تبادل اتّصالي ملموس[٩٠٠]. وتحتفظ العلاقة " مشترك – نظام "، بالطبيعة الرمزية للمحادثة النصّية من جهة، ومن جهة أخرى، تبني إمكانية فعلية لتدخّل المشترك الذي يسهم بشكل نشيط في صيرورة إنتاج معنى النصّ. ففي حالة النصوص والإعلام التقليدي، يتوافق معنى النصّ مع معرفة ومع جملة من الطرائق البنائية المخزّنة بصورة نهائية في النصّ، في حين أنه في حالة صور الغرافيك الحاسوبي، فإن هذه المعرفة وهذه الطرائق مبنية بشكل جزئي فقط، إذ أن الاستراتيجيات الاحتمالية والمتوقّعة كخيارات ممكنة من الذاكرة المرنة (software) للآلة، تكون الغلبة لها ويتم استخدامها عبر خيارات تدخّلية للمشترك[٩٠١]. ولا يتولّد هذا النشاط التبادلي للمحادثة من خلال جملة عناصر ذات نوعية معرفية فحسب، بل أيضاً من خلال نشاط حقيقي وفعلي. فالمشترك يتبادل الفعل وردّ الفعل مع النظام حسب إمكانيات مرتّبة ومحدّدة

---

(٨٩٩) تطوّرت تقانيات الاتّصال، كشكل كامل للتفاعل بين أشخاص يتقاسمون مكاناً- زمناً ولغة، في اتجاهين متوازيين أساسيين: أحدهما يبدأ باختراع الكتابة، ثمّ الطباعة وجميع العوامل التي يمكن أن تخزّن في الذاكرة، بصورة مستقرّة، رسائل، وقد شهد هذا المسار مستحدثات تقانية ترمي إلى إتاحة اتّصال ممتدّ في المكان والزمان. ويتجلّى المسار الآخر في محاولة فصل تقسيم مكاني وزمني عن إمكانية تحقيق بثّ آني لرسائل بين المتحادثين.

(900) G. Bettetini, " La Conversazione Audiovisiva ", Ed. Bompiani, Milano, 1984, p. 93.

(901) G. Bettetini, " La Simulazione Visiva ", Ed. Bompiani, Milano, 1991, p. 53.

مسبقاً، ورغم ذلك، فإن نتيجة النشاط التبادلي ليست متوقّعة مسبقاً بكامل جوانبها: لأن خيارات المشترك تولّد منتجاً جديداً، أي تخرج إلى حيّز الوجود حالة ليست مكوّنة تماماً بصورة مسبقة. وهكذا، فإن التقانيات الجديدة تلعب على الجدلية بين الإمكانيات التي يتيحها النظام وبين التكامل الإبداعي للمشترك[٩٠٢].

بالإضافة إلى ذلك كلّه، تجعل التقانيات الجديدة ممكناً أيضاً النشاط التبادلي بين المشتركين أنفسهم، عبر الوسائل. لا يتعلّق هذا الأمر، بطبيعة الحال، بعمل تبادلي طبيعي، وإنّما بضرب من النشاط التبادلي الإنساني بواسطة آلات ذات اتّصال تبادلي، وهو نشاط تبادلي يصطنع النصّية، مطالباً المشترك دوماً بإسهام إبداعي، في وقت يبدو فيه وكأنه يقترح على المشترك تمريناً بسيطاً في القراءة[٩٠٣].

• البعد النظري: بزوغ الاتّصال التبادلي

إن إحدى الخصائص التجديدية الرئيسة في الاتّصال الجديد تتجلّى في إرساء أسلوب اتّصالي لا يتيحه الإعلام التقليدي، ألا وهو الاتّصال التبادلي.

ويتجسّد البناء التقاني للاتّصال الجديد في تجاوز إحدى خواص الاتّصال الوحيد الاتّجاه والانتشاري للإعلام التقليدي أي غياب رجع الصدى الفوري والمتزامن مع البثّ، الذي يرسله المتلقّي على القناة نفسها التي يستخدمها المرسل[٩٠٤].

يمكن تعريف الاتّصال التبادلي، إذن، كاختلاف أو كتطوّر بالنسبة للإعلام وحيد الاتّجاه، حيث يتحوّل التلقّي السلبي إلى استخدام إيجابي للوسيلة. ويتأسّس هذا الاختلاف على التشابه بينه وبين الاتّصال الشخصي الذي يجري بين أفراد، في علاقة حوارية يكيّف فيها كلّ طرف الحوار، باستمرار، حسب ضرورات الآخر[٩٠٥]. إنه شكل اتّصالي متوسّط ونوع خاص من التفاعل الاتّصالي يمكن تحديده عبر الكشف عن علاقات عديدة مع أشكال أخرى للاتّصال.

وحسب تعريفه التقليدي، فإن مفهوم التفاعل موجود في أي حقل للمعرفة، من المعادلات الرياضية المتعلّقة بالدراسات الفيزيائية حول دينامية الأجسام، إلى دراسات الاتّصال، وهو طريقة عمل خاصة تورّط عدة أطراف.

---

(902) Ibid.

(903) Ibid.

(904) Vittadini, " Comunicare con I New Media, 1998, cit., p. 170.

(905) A. Lippman, " Lippman on Interactivity ", Ed. Penguin Books, 1988, p. 59.

وفي جميع هذه الحالات، يتميّز الاتّصال التبادلي بقدرة كلّ طرف على الفعل الذي يجب أن يشكّل توطئة للأفعال التي يقوم بها الآخرون في وقت لاحق. ويتحقّق الاتّصال التبادلي أيضاً، على قاعدة سلسلة من الضوابط، وبمقدوره أن يُدخل تغيّرات في السياق[906].

كلّ ذلك يعني أن الاتّصال التبادلي هو عبارة عن صيرورة دائرية تحدّد فيها أفعال أحد الأطراف رجع صدى الآخرين المعنيّين بالاتّصال، وهو نوع من الفعل الراجع إلى أحد الأطراف المتحاورة الذي قام بالفعل[907].

فيما يتعلّق بالاتّصال الشخصي بين أفراد يجدون أنفسهم في مستوى تحادثي متساوٍ، يضاف إلى الخصائص التي ذكرت، حضور شحنة قويّة من التخطيطية والترتيبية للوصول إلى هدف. ويبني كلّ طرف صورة عن مُحاوره، وينسج كلّ فعل من أفعاله حسب الأفعال التي يتوقّعها كردّ عليه[908]. فالأفعال التي يقوم بها الآخرون، إذن، تظهر كعناصر جديدة تفرض على كلّ طرف إعادة تشكيل تحرّكه الآتي، سواء تأكّدت الصورة المتكوّنة مسبقاً عن الطرف الآخر، سواء كانت غير صحيحة.

ويتقبّل البُعد القواعدي لاتّصال تبادلي يحمل بنية من هذا النوع، إعادة التفاوض عليه بشكل مستمر، لأن تلك البنية تتبع، قبل كلّ شيء، للاتّفاق حول تحديد الحالة الاتّصالية، وللتفاهم القائم داخل مجموعة اجتماعية[909].

هناك، إذن، اتّفاق مزدوج يتبع خلف التفاعل الاتّصالي التبادلي التي يجري في العالم الواقعي: وهو حلف عملي متعلّق بأساليب التفاعل واتّفاق مرتبط بنقطة تلاقي مشتركة، لهدف يمكن التعرّف عليه من خلال التوافق الحاصل، ولو أنه يمكن أن تتقاطع معه، في التطبيقات الظرفية، أهداف أخرى[910].

ولكن هذا لا يحول دون قيام حالة اتّصال تبادلي، أيضاً في مستوى غير متوازن من ناحية توزيع السلطة بين الأطراف المتّصلة. وهو شرط يتبع للأدوار الاجتماعية وللكفاية ولحالة الأطراف التي تحدّد حرّية أكثر أو أقلّ للفعل في مجال الاتّصال التبادلي[911].

(906) Vittadini, 1998, cit.
(907) J. Greimas & C. Courtés, " Sémiotique. Dictionnaire Raisonné de la Théorie du Langage, Ed. Hachette, vol. 2. 1986, p.65.
(908) Vittadini, 1998, cit.
(909) Ibid. p. 171.
(910) Ibid. p. 172.
(911) Ibid.

هناك مجالان يتشابه فيهما الاتّصال مع الحالة التبادلية المباشرة بين الأفراد. الأول يتعلّق بوجود ردّ فعلية[912]، أي قدرة على إثارة ردود فعل لدى المشاهدين، موجودة أيضاً في النصوص التلفزية، وهي تتقاطع مع إرادة المرسل في أن ينتج نصوصاً ملائمة لمتطلّبات الجمهور. ولكن ذلك يعدّ نوعاً من التأثير المتبادل الذي لا يرتبط بتبادلية اتّصالية فردية، حيث السلطة الاتّصالية ليست موزّعة بشكل عادل بين المتحاورين. ويرتبط المجال الثاني بمفهوم الاتّصال التبادلي القابل للتطبيق على محادثة نصّية تتحقّق بين نصّ مرئي ومتلقّيه. ويجري هذا الاتّصال التبادلي بين متحاورين يمتلكون طبيعة افتراضية، يتقابلون مع متحاور ناطق ومع منطوق يتبادلان الفعل في الفضاء الرمزي للنصّ في زمن يتوافق بصرامة مع زمن النطق[913].

وهكذا، فإن المشترك في نظام اتّصال تبادلي لم يعد يجد نفسه أمام صور ونصوص مرئية على الشاشة، وإنّما أمام وجه آخر يتحاور معه، أو بالأحرى يقيم نوعاً من العلاقات معه يستطيع جسده المادّي، من خلالها، أن يبدّل التمفصل المكاني-الزماني لحوامل المعنى المرئية على الشاشة عبر حركة يديه على الشاشة نفسها وعلى الماوس (mouse) ولوحة المفاتيح[914].

من كلّ ما سبق، يمكن القول إن الاتّصال التبادلي هو خصوصية تمتاز بها بعض أنواع الأنظمة المعلوماتية التي تسمح بأفعال متبادلة، على شكل حوار، مع مشتركين آخرين أو مع أجهزة، في زمن واقعي[915]. بهذا الشكل، يتم إرساء نوع من الاتّصال يغطّي فيه كلّ من الطرفين المعنيّين في الاتّصال التبادلي، أثناء التبادل الاتّصالي، دوري المرسل والمتلقّي. ولذلك، فإن الخصيصة الأولى للاتّصال التبادلي تُخرج إلى حيّز الوجود اكتساب المشترك لدور جديد، وهو دور نشيط يتميّز كعامل أو كعنصر قادر على بدء أفعال واقعية وإكمالها، بشكل يوجّه سريان الاتّصال التبادلي بما يتلاءم مع ضروراته وأهدافه[916].

وهكذا، لم تعد تظهر على شاشات وسائل الاتّصال التبادلية الجديدة صور ناجمة عن إشعاعات إشارات ممفصلة عن بعد، وإنّما صور (يمكن أن تكون عبارة عن نصّ مكتوب) مطلوبة أو على أي حال، محتفظ بها على سطح الشاشة من قبل المشترك الذي يستطيع اصطفاء المعلومة المرغوبة واستخدامها في الوقت الذي يريده[917].

(912) F. Kretz, " Dialogue, Service, Interactivité et leurs Composants, in Vittadini, " Comunicare con I New Media, 1998, cit.
(913) Bettetini, " La Conversazione Audiovisiva ", 1984, cit.
(914) Couchot, " Images. De L'Optique au Numérique, 1988, cit. p. 191.
(915) F. Holtz – Bonneau, " L'Image et L'Ordinateur, Ed. Aubier Ina, Paris, 1986, p. 88.
(916) Laurel, " Computers as Theatre ", 1991, cit.
(917) Bettetini, " Il Segno dell'Informatica ", Ed. Bompiani, Milano, 1987, p. 28.

ويكتسب هذا الجانب أهمّية خاصة إذ يسهم في تمييّز الاتّصال التبادلي الحقيقي عن وسائل اتّصال تبادلي تظاهري فقط كالشريط التلفزي الذي هو في حقيقته وحيد الاتّجاه لأن المعلومات التي يمكن استقبالها يجري بثّها بشكل دوري، وبصورة مستمرّة، ويستطيع المشترك فقط أن يتصيّد الخبر المرغوب في ذاكرة الجهاز التلفزي، من بين أخبار عديدة تبثّ في تلك اللحظة[918]. في حين أن الاتّصال التبادلي الحقيقي يتيح للمشترك تحديد بثّ المعلومات، مرحلة بعد مرحلة، أو من أجل الاطّلاع على أي وحدة معلوماتية يريدها، وهذا ما يجعله قادراً، ليس فقط على اصطفاء المعلومات، ولكن أيضاً على تحديد تتابعها في مجال التبادل الاتّصالي[919]. وهكذا، يتحقّق خرق عنصر من عناصر الصرامة في الاتّصال وحيد الاتّجاه، وهو استحالة الاستهلاك غير السطري والمستقلّ عن التسلسل الذي يحدّده النص في الوحدات المعلوماتية المفردة.

بهذه الطريقة، يستطيع المشترك أن ينجز، داخل نطاق المعلومات، مساراً شخصياً مختلفاً عن الآخر، والأهم من ذلك، أنه مختلف أيضاً بالنسبة لكلّ فعل اتّصال تبادلي يقوده ذات الشخص، لأنه يتم تصويب وتغيير العملية الاتّصالية على أساس المتطلّبات التي تحركه[920].

بالإضافة إلى البثّ والتسلسل، هناك مجال آخر يتورّط فيه المشترك بشكل نشيط، وهو تحديد أزمنة الاتّصال التبادلي، فالمشترك قادر على تحديد بداية ونهاية الاتصال التفاعلي. أي أن بمقدوره، خلال اليوم، أن يستهلك الوسيلة تبعاً لمتطلّباته وليس في أوقات يحدّدها مسبقاً جهاز البثّ[921].

• اختلاف مؤسّس على تشابه

إن هذا الدور الإيجابي والنشيط للمشترك، يسلّط الضوء على جانب أساسي من جوانب الاتّصال التبادلي. فالتبادلية تضع نفسها في أفق يخرق الصرامة التتابعية والزمنية التي يفرضها الاتّصال وحيد الاتّجاه. إن إضافة هذا العنصر إلى الدور النشيط للمشترك في عمليات التبادل وفي تقاطع الأسئلة والأجوبة التي تشكّل الحوار التفاعلي، يبرّر تشابهاً مع الاتّصال التبادلي المباشر بين الأفراد. من جهة أخرى، يبدي الاتّصال التفاعلي الذي تتيحه تقانيات الاتّصال الجديدة، خصائص تجعله مختلفاً بعمق عن الاتّصال التبادلي بين الأفراد أو مع البيئة، ومرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع

(918) Vittadini, cit. p. 178.
(919) Ibid.
(920) Ibid.
(921) Ibid.

وسائل الاتّصال التقليدي التي تتوضّع هذه التبادلية ضمن خطّها التطوّري. وبمقارنة سريعة مع بعض خصائص الاتّصال التبادلي بين أفراد حقيقيّين، تتكشّف مسألة أنه في التبادلية التقانية تغيب بعض أوجه دينامية الاتّصال التبادلي، كقدرة طرفي الحوار على إعادة النظر في تصميم المحاورة تبعاً لصيرورة العملية الاتّصالية، أو تمكّنه من إعادة النظر في التفاوض حول القواعد التي تحكم الفعل التبادلي[922].

ولكي يتم الكشف عن العناصر التي تربط الاتّصال التبادلي بتلك التي تسمح بها وسائل الإعلام وحيدة الاتّجاه، من الضروري العودة خطوة إلى الخلف واستعادة تطبيق مفهوم التبادلية في مجال الاتّصال الذي يسمح به الإعلام الانتشاري كالتلفزة. إن هذا التطبيق، الذي يدخل ضمن مجال مقاربة سيميولوجية - براغماتية، من الاتّصال، ينطلق من مفهوم النص كنتاج لنشاط من ينتجه من جهة، ومن يستخدمه من جهة أخرى، للوصول إلى قبول تبادلية تجري بشكل كامل على النص، بقطع النظر عن اللحظتين الملموستين للإنتاج والتلقّي الإمبيريقيين : فالنص يحتوي في داخله على جملة من الآثار التي تكشف عنصرين مجرّدين، أي الناطق والمنطوق، اللذين ينظّمان النصّ بشكل يجعله يبرز تمثّلاً لتبادل حواري[923].

وإذا كانت طريقة التبادل الاتّصالي مستبعدة من الإعلام الجماهيري على المستوى الفنّي، فإنه تتم استعادتها في بعد داخلي ورمزي للنصّ، على شكل مخطّط قراءة تقارن نفسها، فيما بعد، مع الوضع الملموس للاستخدام[924].

في الاتّصال التبادلي يمكن إيجاد نقاط التقاء مع التبادلية الرمزية التي تتحقّق في الإعلام التقليدي. الواقع أن الاتّصال التبادلي أيضاً لا يحدث بين طرفين حقيقيّين حاضرين في حيّز فيزيائي مشترك. فالحيّز الذي يجري فيه الاتّصال التبادلي يمكن إيجاده ضمن مساحة مشتركة ذات طبيعة رمزية تظهر على الشاشة، حيث يمكن العثور على آثار عمل طرف ناطق وعلى منطوق[925].

هذا يعني أنه إذا وجد طرف إمبيريقي يصطفي وينظّم المعلومات ويحدّد طرائق استعمال النظام، فهذا الطرف لا يتدخّل في عملية الاتّصال التبادلي التي يقوم بها المشترك، ولكنه يترك الساحة لظلّ خيالي، الناطق، الذي يتجلّى كجهاز ثقافي يعدّ ثمرة عناصر تنظيمية وتصميميّة للتبادل الاتّصالي.

(922) Ibid. p. 180.
(923) Ibid., p. 181.
(924) B. Gaspsrini, " Analisi Storico-Critica dell'Evoluzione della Computer Grafica come Tecnica Comunicativa ", 1987, in Vittadini, cit.
(925) Vittadini, cit.

من ناحية أخرى، يتحرّك المشترك بصورة ملموسة في مجال التبادل، ولكنه يتفاعل مع حوامل معنى مرئية على الشاشة، ولكي يستطيع إنجاز عمله، فإنه مضطر إلى القيام بنشاط يزيل الصفة المادّية ويدخل في رداء ظلّ خيالي. ولذلك، على هذا المشترك أن يمدّ أعضاءه الحواسية ليتمكّن من التفاعل. ويقوم على خدمة المشترك للقيام بهذا النشاط في الاتّصال التبادلي أدوات ومعدّات التواجه بين طرفين، وهي عبارة عن وصلات واستطالات اصطناعية تسمح للمشترك بالوصول إلى أمكنة لا يمكن بلوغها بدونها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن النشاط الوصلي والاستطالي للمشترك تثمّن وتنشط باكتسابه جسماً ظلّ – خيالياً يصبح مادّياً عبر تمظهره على شكل ايقونة مرئية على الشاشة.

انطلاقاً من هذه المقاربة يمكن تعميق تحليل الاتّصال التبادلي والكشف عن خصيصة أخرى تجديدية، وهي أن النتيجة النهائية للتفاعل، أي النصّ الاتّصالي القابل لإعادة البناء لاحقاً، والذي يحمل آثار أنشطة الأطراف الظلّ خيالية المتفاعلة، ليس قابلاً للتوقّع بشكل مسبق[٩٢٦].

هناك عنصر تخطيطي قوي يتوضّع على قاعدة التبادلية، يتعلّق سواء بالمعرفة التي يتفاعل المشترك على أساسها، سواء بتنظيمها، سواء بقواعد التفاعلية التي تحدّدها المواجهة بين الطرفين، وقواعد المسار المرتبطة بطريقة البحث وبأعمال ممكنة في الحوار مع النظام. ويمكن تفسير هذا العنصر التخطيطي كحاوية نصّية على قاعدة تحديد النصّ كبرنامج سيميولوجي لاتّصال يتحقّق في الظرف الملموس حيث تغلق الدارة الاتّصالية ويتم استهلاك النص نفسه[٩٢٧].

إن فتح مسارات يجري اتّباعها وتحدث لدى كلّ خطوة في التبادلية، يمكن أن تفهم كإظهار لهذه التصاميم. على أية حال، يعدّ هذا المخطّط أو التصميم في الاتّصال التبادلي، شرطاً ضرورياً ولكن غير كافٍ لتحقيق التصميم حتّى بشكل ضمني. وإذا لم يستكمل باصطفاءات دقيقة وموجّهة نحو هدف، فإن تصميم الناطق لا يمتلك أية إمكانية في أن ينجز، وفي أن يغلق المعنى. ذلك أن المعنى لم يعد يأتي من قراءة ولكنه ينجم عن الاتّصال التبادلي[٩٢٨].

يتبدّى النموذج النصّي في حقيقته، إذن، كحاوية، بمعنى أنه يعطي الشكل النهائي

(926) Ibid.
(927) Bettetini, " La Conversazione Audiovisiva ", 1984, cit., p. 71.
(928) Couchot, Images. De L'Optique au Numérique, 1988, cit., p. 201.

لصيرورة إنتاجية، ولكنه يستوجب إسهام عنصر آخر، هو أيضاً جوهري، يستمد منه شكلاً ويغلق الصيرورة بتحقيق شيء فريد مؤلّف من كليهما.

وهكذا، فإن الموضوع يتعلّق بنوع من الاتّصال المتّجه بقوّة نحو المشترك الذي يحدّد – من خلال إدارة الإمكانيات المقدّمة له من قبل النظام – نتائج الاتّصال. وفي الوقت نفسه، يكشف الاتّصال التبادلي جانباً جامداً وغير متوازن من ناحية السلطة الاتّصالية بين الأطراف، لصالح النظام. ولهذا، يجد المشترك نفسه خاضعاً لشرط قبوله قواعد التبادلية المحدّدة سلفاً والتي لا يستطيع، في معظم الحالات، أن يغيّرها. إذن، سواء الاتّفاق الذي يحكم التبادلات الاتّصالية التي تجري بين أشخاص، سواء إعادة التصميم التي يقوم بها المُحاور تبعاً لسريان التبادلي، ينتهيان بقبول و بإعادة تصميم وحيدة الجانب وإجبارية من قبل المشترك.

ويحدّد هذا الجمود في النظام ضرورة وضع تصميم مسبق أيضاً لنموذج مشترك أو عدة مشتركين محتملين، يتّصفون بخصائص كفاية معلوماتية وكفاية متعلّقة بالمضمون وبأهداف ممكنة، في استخدام الأنظمة[٩٢٩].

يمكن القول إذن، إن النظام يحتوي تصميماً مشتركاً يحمل هوية ثقافية محدّدة، غير أنه مزود بألوان طيف متعدّدة يحقّقها الفرد، مسهماً في تحديدها بشكل أكثر دقّة.

ورغم صلابة هذا النظام، فإن الهويّة الثقافية النهائية للمشترك تتحدّد عبر الفعل التبادلي. غير أن هذه الصلابة تتطلّب تصميم النظام على قاعدة نموذج المُحاور المعلوماتي والمحادثة التي يفترض أنها موجودة لدى المشترك، والتي يتم تفسيرها، بصورة عامة، كنموذج مُحاور واقعي ومحادثة وتفاعلية مع البيئة شبيهة، قدر الإمكان، بتلك الواقعية.

• اتّصال تبادلي وانتحال

قد رأينا أن وسائل الاتّصال التبادلية تنتحل اتّصالات تبادلية، أو بالأحرى، تقلّد الفعل التبادلي من خلال نظام ميكانيكي وإلكتروني.

ويتدخّل الانتحال في مجال الفعل التبادلي، أيضاً مع خصائص انتحال سلوكي[٩٣٠] من قبل النظام المعلوماتي، على غرار طرائق سلوكية لمُحاورٍ واقعي أو لبيئة يستطيع الفرد فيها أن يتحرك. وتتطوّر طرائق تخطيط النظام المعلوماتي هذه، بدءاً من تحوّل

(929) Vittadini, 1998, cit., p. 183.
(930) Colombo, " La Telefonia via Radio Traguardo degli Anni Novanta " in Media Duemila, 3, Milano, 1991, pp. 96-99.

مفهوم الحاسوب، من نظام مفهومي صالح لمعالجة المعلومات تحديداً، إلى نظام اتّصالي أيضاً.

وقد مهّد هذا التحول في عمليات تخطيط الأنظمة المعلوماتية لأن يحتلّ المشترك موقعاً مركزياً، ولأن تصبح قابلية استخدام الحاسوب وملاءمته لتوقّعات وكفايات المشترك، معيار تقويم نوعي.

ومن بين نتائج هذا الاتّجاه تحقيق سلسلة من " تأثيرات الواقع " مرتبطة بالفعل التبادلي، أو بالأحرى، إسدال الستار على النشاط الوساطي للوسيلة التي تبدي اختلافاً وتباعداً بالنسبة للواقعي.

ضمن هذا النطاق، يدخل تطوّر أنظمة الوجه لوجه التي يتّجه خط تطوّرها نحو أنظمة تتطلّب من المشترك كفايات تزداد اقتراباً من تلك التي يستخدمها في الاتّصال التبادلي الواقعي مع شخص آخر أو مع بيئة أخرى[٩٣١].

ويمكن القول إن عمليات الإدخال تمضي نحو مزيد من التشابه مع الواقع، كما هو الحال بالنسبة للوحة المفاتيح والماوس والشاشات اللمسية.

في نهاية هذا الخط البحثي تقع تقانيات الوجه لوجه المستخدمة في أنظمة الواقع الخلّبي، التي توفّر تطبيعاً كبيراً للحركات التي يجب القيام بها للتحرّك ولرؤية العوالم المركّبة، والوجه لوجه الصوتي الذي يتيح الاتّصال مع النظام بأساليب شبيهة بتلك المتّبعة في الاتّصال التبادلي بين الأشخاص الواقعيّين.

وفي مجال إخفاء الفارق القائم بين النظام والمحاور الواقعي، يمكن وضع ما أطلق عليه آليات الانتحال السلوكية. وهي استكمال قواعد سلوكية للنظام تضعه في حالة حوار مع المشترك، ملبّياً بشكل صحيح، طلبات هذا الأخير، ومكمّلاً إيّاها، بمستوى معيّن من الاستقلالية وضمن أزمنة شبيهة بتلك التي تستغرقها محادثة شخصية[٩٣٢]، أو بشكل يحلّ محل الوضع غير التناظري القائم بين شخص ونظام معلوماتي[٩٣٣].

وتتضمّن تلك الآليات، بشكل خاص، انتحال الفهم وتفسير أسئلة المشترك والتزوّد بقواعد أجوبة تعيد إنتاج تأثيرات هذا الفهم، وهي متناغمة منطقياً مع الأسئلة المطروحة ومصاغة بشكل يجعلها شبيهة بأجوبة محاور واقعي. وهناك أيضاً انتحال لدينامية تبادل الأدوار ومعها القدرة على إخراج سقوط أو أخطاء محتملة من السياق

(931) Gasparini, 1987, in Vittadini, cit., p. 185.
(932) Colombo, La Telefonia via Radio Traguardo degli Anni Novanta, 1991, cit., p. 26.
(933) G. Mantovani, " La Qualità dell'Interazione Uomo-Computer ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1991, p. 105.

الشامل للاتّصال. وفي هذا المنحى، تتحرك الأنشطة اللاانقطاعية للنظام من جانب المشترك، والحبيبيّة[٩٣٤] التي يتحدّث عنها ليبمان كإمكانية من قبل المشترك في قطع النظام في أية لحظة واستعادة أخطاء فهم محتملة[٩٣٥]. ويمكن أيضاً بناء كيان لانهائي تظاهري من الأسئلة المحالة على النظام. في هذه الحالة يتعلّق الأمر بانتحال حرّية حوارية لا يسمح بها النظام فعلياً. فكمّية ونوع الأسئلة التي يمكن أن يطرحها المشترك، فعلياً، محدّدة سلفاً ولا يمكن التلاعب بها عندما يبدأ الفعل التبادلي. ومع ذلك، يمكن أن تزاح هذه المحدودية من عينيّ المشترك، عبر بناء أنظمة تتضمّن عدداً كبيراً من الأسئلة وإمكانيات اقترانية لتتابعها، بشكل لا يستوعب فيه هذا المشترك مسألة أن النظام، في جميع الأحوال، يتوقّف عند عدد أقصى من الإمكانيات. وهذا ما يسمّى " تأثير حرّية " مكوّناً خصّيصاً لكي يتم استيعاب الاتّصال التبادلي كاتّصال شبيه بالشخصي[٩٣٦].

وفي مجال البحث دوماً عن تشابه أكبر بين التبادلية التقانية والتبادلية الشخصية الواقعية، تطرح مشكلة تصميم أنظمة اتّصال تبادلية تتحقّق فيها تناظرية، أيضاً فيما يرتبط بنوع الأدوات المستخدمة، يجيب فيها النظام، إذا استعمل المشترك الوجه لوجه الصوتي، من خلال استخدام الصوت.

إن الانتقال من نموذج المحادثة الشخصية التي تعمل في مجال الانتحال السلوكي، إلى العمل على البيئة، يمرّ من تحقيق حالات وجه لوجه يتم التلاعب فيها بشكل مباشر. وهذا النوع من الوجه لوجه يسمح للمشترك - من خلال الماوس مثلاً - أن يحرّك إيقونات تجسّد أشياء على الشاشة في بيئة خلّبية تمثّل، في معظمها، مكتباً. من الواضح كيف أن التحقيق الأقصى لهذا النوع من الوجه لوجه هو بناء أنظمة واقع افتراضي تمثّل فيه بيئات تقوم بردّ أفعال متناغمة على الأفعال التي ينجزها المشترك. فإذا تحرّك الأخير يتم الإمساك بشيء يشعر المشترك بصلابته وهكذا ..

وفي حقل المحاكاة السلوكية لردود أفعال بيئة على أفعال شخص، فإنه يتم تحريكها عبر آليات تخفي النشاط الوساطي للنظام بالنسبة للأفعال التي قام بها المشترك على حوامل المعنى المرئية على الشاشة.

في بيئة انتحال اتّصال تبادلي لشخص مع البيئة يعاد طرح أساليب العمل المباشرة

(٩٣٤) يعني ليبمان بكلمة حبيبيّة النواة التي تشكّل السؤال والجواب اللذين يطرحهما تباعاً كلّ من المشترك والنظام.

(935) Lippman on Interactivity, 1988, cit., p. 86.
(936) Ibid.

على الأشياء التي تميّز الفعل في البيئة الواقعية. وبالنسبة لهذا الهدف، فإن تمثّل حوار يؤطّر، بشكل مرئي ومفهومي، العمل على الصور، ويتألّف من تعاقب القائمة والاصطفاءات التي يحرّكها المشترك، أو أساليب أخرى تستدعي الاتّصال التبادلي بين أشخاص، يمكن أن تشكّل عقبة أمام عملية بناء ما يسمّيها لوريل[937] " الاستمرارية المرجعية ".

ويتجلّى الهدف في التوصّل إلى شفافية النظام بالنسبة لأفعال المشترك، وإلى مقابلة المُحاور من خلال الوجه لوجه العائد للبرمجيات فقط كبيئة يتم التحرّك فيها. أيضاً حالات الوجه لوجه العائدة للبرمجيات، تميل إلى أن تصبح شفّافة، بمعنى أنها تجنح نحو الاختفاء من حقل رؤية الشخص والتقاطه الحواسي.

في عملية تحقيق أنظمة الاتّصال التبادلي يلاحظ، من جهة، التطبيع الأقصى مع هذه الأنظمة وهو تطبيع ناجم عن تطوّر الوجه لوجه الذي يرمي إلى ألاّ يضطر المشترك إلى القيام بعمليات عقلية ذات طبيعة معقّدة لكي يترجم ويحدّد نواياه بلغة وساطية تقانية. إن طبيعيّة الوجه لوجه يمكن أن تفسّر، في هذه الحالة، أيضاً كالسيرورة نحو توافقيّة كاملة بين المشترك والنظام، تستوجب دراية لم يتعلّمها المشترك ولكنه يعرفها.

من جهة أخرى، يتم تحقيق محاكاة سلوكية من قبل النظام الذي يشهد على تسنّمه دوراً مركزياً في تصميم الأنظمة ونموذج التبادلية الإنسانية، سواء تعلّق الأمر بانتحال اتّصال تبادلي بين أشخاص، سواء كان انتحال تجربة خاضتها التبادلية الإنسانية في بيئة.

• مستويات الفعل التبادلي

يمكن طرح عدة مستويات للاتّصال التبادلي. من أهمّها مستوى العنصر الزمني، فوجود أجوبة شبه - فورية أو في " زمن واقعي " من قبل النظام يعدّ معياراً حاسماً بالنسبة لإمكانية إقامة اتصال تبادلي. وكلّما كان وقت جواب النظام على طلبات المشترك، سريعاً، كلّما كانت نوعية الحوار التبادلي عالية.

بطبيعة الحال، ليس "للزمن الواقعي" أية مرجعية واقعية. فهو زمن محدّد اصطلاحياً بثانيتين لا يعدّ الاتصال بعد مرورهما دون وصول الإجابة، تبادلياً. من ناحية أخرى، تؤدّي الشبه آنية لردود النظام، وظيفة المحافظة على التواصل مع المشترك وعلى تأكيد وجود علاقة تتابعية بين عمل الشخص وبين ردّ فعل النظام.

(937) Laurel, . Computers as Theatre, 1991, cit.

إن الزمن الواقعي في الاتّصال التبادلي الحواري بين مشترك ونظام لا يحاكي، إذن، أزمنة التفاعل الواقعي.

ويختلف الأمر في مجال الاتّصال التبادلي مع بيئة، لأن فورية ردّ النظام على أفعال المشترك، في هذه الحالة، تعود إلى طرح فورية الالتقاط الحواسي وردود أفعال البيئة على أفعال الشخص. وتعدّ السرعة والشبه - فورية عناصر تميّز الإعداد المعلوماتي وتفيد النشاط الإنساني ويمكن أن تمارس تأثيراً على الأهمّية التي يرتديها "الزمن الواقعي" لردّ النظام.

فيما يتّصل بهذا الموضوع، يمكن طرح مستويين من التبادلية هما الاصطفاء والمضمون[938]. في الأول يمارس التدخّل النشيط للمشترك من خلال سلسلة من الاصطفاءات والبحث على طول المسار، ومن خلال قيامه بعمليات أخرى. و نتيجة لهذه التداخلات النشيطة في الاتّصال التبادلي، يتشكّل الجانب غير المتوقّع مسبقاً بشكل كامل لأفعاله، من المسار الذي ينجزه ومن الاقترانات الجديدة لأهداف مختلفة في مجال الاستشارة، التي يجري تركيبها تباعاً لرسم مسار معرفة أو وحدة معرفية ذات معنى خارج إطار البعد الاتّصالي التبادلي. وكمثال على هذه الآلية الاتّصالية، يمكن إيراد استشارة بنك معلومات، حيث يستطيع المشترك الاطّلاع على وحدات معلوماتية مختلفة وغير مترابطة. وفي مستوى أعلى يمكن للمشترك أن ينشّط سلسلة من إمكانيات العمل المتوقّعة من قبل النظام، للوصول إلى تحقيق منتج.

إن الجانب غير المتوقّع، بصورة كاملة، لعمل المشترك يتمثّل، في هذه الحالة، من اقتران خيارات ممكنة مصمّمة من قبل النظام يتم تحقيقها. يمكن أن يتعلّق الأمر بصورة أو بنصّ أو بمقطع متحرك يتحقّق، على أية حال، في مجال التبادلية ويشكّل جزءاً منه. وتظهر الصور التي تمّ تصميمها في الاتّصال التبادلي الإبداعي، في مختلف مراحل تحقيقها وفي أبعادها النهائية داخل نطاق الحيّز المواجهي. وتتشكّل هذه الحالة للمستوى الثاني، من التبادلية الإبداعية الخاصة بأنظمة الغرافيك الحاسوبي.

أما بالنسبة للمستوى الثالث وهو تعقّد الحوار، فيمكن أن يقوّم عبر عقد مقارنة وتقويم المحادثة الشخصية فيما يتّصل بقدرة النظام على محاكاة سلوك مُحاور واقعي، وبقدرته، خاصة، على أن يأخذ في الحسبان المراحل السابقة.

(938) Holtz – Bonneau, L'Image et L'Ordinateur, 1986, cit., p. 94.

ويتموضع النوع الأول من الأنظمة التبادلية، والذي يسمح بتبادلية الاصطفاء، في مستوى الأكثر تدنّياً لجهة التعقيد. فالأمر يتعلّق بحوارات تبادلية الطابع حيث يأخذ النظام في الحسبان أفعال المشترك فقط كتمهيد فوري للردّ الذي يقدّمه. ولا يمتصّ النظام المعلومات المعطاة من المشترك من خلال فعله، ولا يدرجها في معرفته.

في مستوى أعلى، تتوضّع الحوارات التبادلية، حيث يأخذ النظام في الحسبان المراحل الوسطية للمحادثة، أو كما في حالة الغرافيك الحاسوبي، التصاميم الوسطية لأشياء، لطرح مزيد من الأسئلة. في هذه الحالة يتم امتصاص المعلومات التي قدّمها المشترك عبر الفعل الذي قام به، من قبل النظام الذي يدرجه في معرفته بطريقة تحسب حساب توقّع طرح أسئلة أخرى. وفي هذا المستوى، يمكن وضع تصاميم الواقع الخلّبي حيث يأخذ النظام في الحسبان العمليات التي أنجزها المشترك على البيئة في عملية طرح أسئلة لاحقة أو في ردّ أفعاله على أفعال المشترك.

في وضعية متوسّطة بين هذين المستويين، تتموضع إمكانيات الاتّصال بين مشتركين تسمح به أنظمة التبادلية كالهاتف المرئي. في هذه الحالة، يتفاعل الشخص مع النظام بشكل إبداعي محقّقاً نصاً مرئياً في الشاشة المواجهة. ويبدو هذا النوع من التفاعل، للوهلة الأولى، وكأنه يتوضّع في مستوى أعلى، أي في مستوى التبادلية الإبداعية، ويمكن للنظام أن يأخذ في الحسبان النصوص المعدّة من قبل المشتركين في عملية طرح أسئلة جديدة[939].

في الحقيقة إن الوضع الذي يتحقّق مختلف. فالمشترك يتفاعل مع النظام عبر نشاط اصطفائي من خيارات ممكنة. هذا يعني أنه يتّبع مساراً مختلفاً في كلّ مرّة، كما في المستوى الأوّل. بالإضافة إلى ذلك، فإن النصوص التي يعدّها المشترك، بالنسبة للاتّصال التبادلي مع النظام، يمكن تسميتها " كتل من الحروف " معدّة للبثّ وللإظهار، وهي لا تتداخل بأي شكل آخر، مع عمليات التفاعل. حتّى أنه، في بعض الحالات لا يستطيع المشترك أن يجري أي تغيير على الرسالة التي يكتبها، وإذا أراد تصحيحها، فإنه يضطرّ إلى إلغائها وكتابتها من جديد[940].

(939) Vittadini, 1998, cit., pp. 189-201.
(940) Ibid.

ولا تتم ممارسة التعاون - التفاعل بين المشترك والنظام - حول خلق النص، وإنّما فقط على تنشيط مسارات شخصية لاستهلاك الخدمة.

إن ديناميّة الاتّصال التفاعلي بين مشتركيْن عبر نظام الهاتف المرئي، إذن، يمكن أن يفكّر بها كاتّصال تفاعلي مزدوج داخل إطار، حيث يتفاعل كلّ مشترك مع النظام مديراً بثّ واستقبال الرسائل حسب إمكانيات قائمة مسبقاً، وفي مجال هذا التفاعل، يتفاعل مشتركيْن أو أكثر فيما بينهم مظهرين الرسائل والردود التي تبادلوها[941].

فقط من أجل هؤلاء المتحادثين الواقعيّين، يكتسب أهميّة مضمون الرسائل، ويجري امتصاص المعلومات التي تحملها وإدراجها في معرفة من يتلقّاها، وهذا الأخير يحسب حسابها في صياغة ردّه.

إن التفاعل بين مشتركين ونظام، يتموضع، إذن، بين التفاعل الإبداعي الذي يحتفظ، ضمن نطاق الحدود التي ذكرت، بإسهام المشترك الإبداعي، وبين التفاعل الاصطفائي والمساري الذي تتألّف منه جملة أفعال المشترك في مجال يقع خارج إطار الاتّصال التفاعلي[942].

• إشكاليات مفتوحة على الاتّصال التفاعلي

يثير الاتّصال التفاعلي سلسلة من المشكلات أو يعيد إثارة مشكلات قديمة بشكل جديد.

قبل كلّ شيء، تطرح أنظمة الاتّصال التبادلية مشكلة التفسير الصحيح لقواها الكامنة. إذ تجنح " مؤثّرات الواقعية" التي يجري تشغيلها من خلال التطبيع التدريجي للوجه لوجه والانتحال السلوكي لمحاور واقعي أو لبيئة، إلى إخفاء الاختلافات القائمة بين الاتّصال التفاعلي الواقعي والاتّصال التبادلي الآلي، وإلى استيعاب هذه الأنظمة كأمكنة حرّية اتّصالية، خالية من مشروطيات متعلّقة بالمسارات وبالقوى الكامنة.

وتبدو هذه المشكلة واضحة خاصة عندما يتم توجيه الأنظمة نحو الجمهور العريض: أي نحو استعمال من قبل مشتركين لا يتميّزون بكفايات معلوماتية خاصة. في هذه الحالة، تؤدّي الشفافية الظاهرية للنظام والناجمة عن بساطة استعماله وعن فهم المشترك لطرائق الحوار - بسبب رجوعه إلى نماذج معروفة لديه - إلى غموض النظام بالنسبة لقواه الحقيقية، وخاصة بالنسبة لحدوده.

(941) Ibid.
(942) Ibid.

إن الأنظمة الاتّصالية التفاعلية ليست أمكنة لتبادل اتّصال حرّ. ففي المقام الأول، وبما أنه توجد لدى المشترك فكرة مسبقة في مجال النظام تتعلّق بردود أفعاله وأساليب إدراكه الحواسي (أزمنة ردود الأفعال بدلاً من طرائق الإدراك الحسّي لبيئة ثلاثية البعد في أنظمة الواقع الخلّبي)، كما تتعلّق بأهدافه الممكنة وكفاياته المرتبطة سواء بالمضمون سواء بطرائق استعمال التقانية.

وترتبط راهنية الاتّصال التفاعلي بتحقّق الانسجام بين نموذج المشترك المصمَّم من قبل النظام، والشخص الحقيقي، مثلاً، في مستوى العتبة الدنيا من الكفاية والمعارف المطلوبة للقيام بالتبادل الاتّصالي(٩٤٣).

هناك، إذن، سلسلة من إمكانيات إخفاق الاتّصال التفاعلي الناتج عن وجود فوارق بين الكفايات والأهداف الممكنة التي يصمّمها النظام وتلك التي تخصّ المشترك نفسه. وعندما يحدث عدم الانسجام، كصلابة النظام مثلاً، يصبح الاتّصال التفاعلي مستحيلاً - في حالة وجود عدم انسجام مرتبط بالكفايات - أو غير مفيد إذا كانت المشكلة مرتبطة بالأهداف.

ويمكن أن يغدو الاتّصال مسبّباً للإحباط إذا كانت طرائق المسارات الممكنة شديدة البطء أو معيّرة على كفاية مرتبطة بالمضمون الأدنى لذلك الذي يتمتّع به المشترك. أي إذا كان المشترك في الاتّصال التفاعلي مضطراً مثلاً إلى متابعة مسارات طويلة من الخيارات ليصل إلى معلومة كان قد تعرّف عليها(٩٤٤).

بالإضافة إلى ذلك، وفيما يتّصل بتصميم الأهداف والمسارات الممكنة المعمول بها داخل النظام، فإن الحرّية التي يستطيع المشترك أن يمارسها في اتّصال تفاعلي هي، جوهرياً، حرّية ذات طبيعة مركّبة واقترانية تؤدّي إلى تفاعلات متباينة في كلّ مرّة، ولكن في مجال الإمكانيات والقوّى الكامنة التي يحدّدها النظام سلفاً.

يمكن التأكيد أنه إذا كان الاتّصال وحيد الاتّجاه، والذي يعدّ اتّصالاً قسرياً أكثر من التفاعلي، يترك للشخص، على أية حال، إمكانية استخدام النصّ الآخر وغير المتوقّع بالنسبة للفرضيات المصاغة لحظة تحقيقها، فإن الاتّصال التفاعلي يعطي الشخص، بالمقابل، دوراً في عملية التأليف، لتحقيق نتائج اتّصالية في الاتّصال التفاعلي، ولكنه لا يتيح القيام بأنشطة واتّباع مسارات غير متوقّعة. فهو يمتلك فقط إمكانية عدم الاستخدام، وعدم التدخّل في الاتّصال التفاعلي.

(943) Ibid.
(944) Ibid.

من ناحية ثانية، يمكن إيجاد بعض المؤشّرات الراجعة على الشخص ناجمة عن استخدام وسائل اتّصال تفاعلية.

فكون النظام يجنح نحو القيام بردّ فعل على أفعال المشترك في " وقت واقعي " مثلاً، فإنه يهدف أيضاً إلى تشكيل مثير مستمر لردّ فعل المشترك(٩٤٥). وتبيّن هذه الملاحظة كيف أن الزمن السريع لردّ النظام يمكن أن تدفع المشترك إلى امتصاص مفهوم جديد للسرعة(٩٤٦) خاص بإعدادات الحاسوب، وإلى إعطاء تعليمات جديدة للنظام، متّبعاً الوتائر نفسها وأزمنة ردّ الفعل شبه - الفورية نفسها التي يبدو أن مُحاوره المعلوماتي يتّبعها.

بالإضافة إلى ذلك، فإن امتصاص مفهوم جديد للسرعة يمكن أن يفهم أيضاً كدفع من قبل الأنظمة الرسائلية لبثّ رسائل قصيرة ومختصرة ناجمة عن فرض حدّ لكمّية الكلمات التي يستطيع النظام أن يبعث بها للمُحاور.

ويمكن التنويه أيضاً بوجود " مؤشّرات راجعة " أخرى مرتبطة باستعمال أنظمة تبادلية لتحقيق اتّصال بين مشتركين.

إن الطبيعة الوساطية للاتّصال الذي يقام بين أشخاص بواسطة وسائل الاتّصال الجديدة، ومسألة أن الشخص ينظّم ردود أفعال عبر تمثّلات إيقونية خاصة بمُحاوره، أو يدرك حواسياً هذا المُحاور فقط كمرسل إمبيريقي لرسالة مكتوبة تصله في نطاق الحوار مع النظام، كلّ هذه الأمور، يتم التعرّف عليها كأسباب أو كضياع مرجعية الاتّصال أو كانخفاض إدراك المُحاور.

هناك من يجد في أشكال الاتّصال بواسطة الوسائل الجديدة، ضياعاً للمرجعية(٩٤٧)، ويؤكّد أنه في هذه الوسائل لم يعد يُعرف من يبدأ ومن ينهي الاتّصال، ويرى، انطلاقاً من هذه الخصيصة، ولادة شكل اتّصالي مقلّص إلى سيرورة بحتة لعمليات تخصّه.

أما في مجال أفق ذي طبيعة سيكولوجية، فيرى البعض، انطلاقاً من الملاحظات نفسها، ولادة أشكال اتّصالية يجد الأفراد فيها أنفسهم مدفوعين، بسبب الإدراك المنخفض لمُحاورهم، إلى تبنّي سلوكيات أكثر ثقة بالنفس بالمقارنة مع العلاقات الشخصية المباشرة، وهي سلوكيات أقلّ تأثّراً بخصائص المصدر(٩٤٨).

(945) P. Heckel, " The Elements of Frienndly software Design ", 1982, in Vittadini, cit., p. 196.
(946) Colombo, " Gli Archivi Imperfetti ", Ed. Vita & Pensiero, Milano, 1986, p. 63.
(947) J. Baudrillard, " La Difficulté de Parler de la Communication ", in L'Ordre Communicationnel, La Documentation Fraçaise, Paris, 1989, pp. 35-40.
(948) Mantovani, La Qualità dell'Interazione Uomo-Computer, 1991, cit., p.31.

أيضاً فيما يتعلّق بالتفاعلية مع النظام، طرحت فرضية "مؤثّر راجع" على المُحاور. إن إمكانيات أنظمة الاتّصال التفاعلية، فيما يتّصل بالسرعة ودقّة الإجابة والإعداد، وفيما يرتبط بالقدرة على إدارة عدد كبير من المعطيات، يمكن أن تكوّن عناصر تدفع نحو توجّه منزوع الشخصنة من قبل المشترك. كما أن طرائق التفاعل تدفع المشترك إلى عدم الانتباه لنفسه ولدوره، ما يؤدّي إلى تحريك سلوكيات أقلّ مسؤولية وأقرب إلى بُعْد يصفو فيه الذهن ويتحرّر، ويغدو أكثر استعداداً لاستكشاف النظام، ولكنه يؤدّي أيضاً إلى تغيّير مستمر للرأي، وبالتالي، أقل استحقاقاً للثقة عندما تشكّل التفاعلية مع النظام مقدّمة عمل أو قرار تنجم عنه نتائج مهمّة في العالم الواقعي(٩٤٩).

إن مشكلة نزع مسؤولية المشترك تفرض نفسها بالنسبة للموضوع المتعلّق بالميل إلى تسليم المعدّات المبرمجة عملية اصطفاء المعلومات التي ترد إلى المشترك، لكي تعيّرها بموجب تصميم معرفي واتّصالي شخصي.

وباستخدام أنظمة تصطفي المعلومات بشكل مسبق، يسلّم المشترك مسؤولية الخيار لجهاز، لآلة تعمل من خلال معايّير صارمة، ليست قادرة على التأقلم مع تغيّرات محتملة للسياق أو لتصميم المشترك، حتّى ولو كان الأخير قد فرضها، إلاّ خلال أزمنة طويلة يعاد فيها إعداد التصاميم.

ويمكن اعتبارها مؤثّرات راجعة إلى الشخص، أيضاً الطرائق الجديدة التي يستطيع الأخير من خلالها أن يعيش تجارب معروفة. وأفضل مثال على ذلك يمكن أن يكون التعلّم. إن إقامة علاقة مع نظام تفاعلي، لأهداف تعلّمية أو بالأحرى لأهداف التحقّق من التعلّم عبر ممارسة تمارين، ينطوي على جملة من الفوائد التي يشير إليها السيكولوجيون، والمرتبطة بإمكانية الحصول على تحقّق فوري من علاقة مع الآلة لا تتطلّب حُكماً، بل تتيح ارتكاب أخطاء واستخدامها لفهم تفصيل غير واضح، بشكل أفضل.

وتؤدّي هذه الإمكانية إلى تحول طرائق التحقّق التقليدية المتّبعة في المدارس، متيحة، بالتالي، عملاً رجعياً للاتّصال التفاعلي حول الوظيفة التي يقوم بها. وهناك أمثلة عديدة حول هذا الجانب، تتميّز بملمح ثابت قوامه تقلّص ومحو بعض العوامل الإنسانية في مجال التعلّم، كعنصر الحُكم من قبل المدرّس أو التدخّل في تقويم الوظيفة، أو المعايّير التي تعفى من النظر في صحتها أو خطئها.

(949) Ibid. p. 35.

إن إمكانية اتّصال تفاعلي وانتشاره الواسع مع حامل شبكات البثّ للمعطيات ثنائية الاتّجاه، تطرح، هي الأخرى، مشكلات متعلّقة بتأثيرات في الحقل الاجتماعي.

حيث يعتقد من ناحية، أن هذا النوع من الاتّصال التفاعلي يمكن أن يكون حاملاً لتحوّل جذري في طرائق تداول المعلومات. فبفضل انتشار الاتّصال التفاعلي، يرتسم المشترك كمحطّة نشيطة في شبكة(٩٥٠) ويصبح من الممكن، بالتالي، الانتقال من مسار عامودي للاتّصال إلى مسار أفقي، ومن مردود معمّم إلى تزويد بالطاقة مركز(٩٥١).

بهذه الطريقة، يتم إرساء توازن جديد للاتّصال لم يعد مرتبطاً بمراكز كبرى للبثّ وبأقطاب تلقّي فقط، وإنّما مرتبط بعدّة مراكز تتّصف بقوّة اتّصالية مشابهة، متّصلة فيما بينها بشكل مباشر.

في سياق مشابه، ترتدي أهميّة حاسمة إمكانية الوصول إلى شبكة تربط بين مختلف المحطّات، وهي إمكانية تتوضّع مسبقاً، بطبيعة الحال، سواء بمعنى تسلسلي سواء فيما يتّصل بتحديد سلّم تراتبي، بالنسبة لإمكانية الاتّصال مع أحد الأشخاص بصورة خاصة(٩٥٢).

ولكن فيما يتعلّق بهذا الأفق، من الضروري النظر في الشروط الواقعية للتبادلية، أيضاً وخاصة الشروط التقانية.

ويوجد حالياً تفاوت فعلي - من ناحية القدرة النقلية للشبكات - في القوّة الاتّصالية بين مشترك نهائي ومصادر معلومات، وهو تفاوت يمكن تجاوزه فقط من قبل قنوات نقل للمعلومات التي تسمح بإرسال ذات الكمّية من المعطيات، سواء في الدخول أم في الخروج من محطّة المشترك الواحد. ومع ذلك، عندما سيتم تجاوز هذه المحدودية أيضاً، فإن المشترك، لكي يصبح المهيمن على هذا التزويد اللامركزي، يجب أن يمتلك محطّة مرتبطة بالشبكة وأن يسدّد نفقاتها، وأن يتمتّع أيضاً بحد أدنى من الكفايات المعلوماتية التي تسمح له باستعمال الوسيلة أو معرفة وفهم مبادئ هذا الاستخدام على الأفق.

وهكذا، يتم وضع قواعد لخلق اختلال ممكن ذي طبيعة اجتماعية بين أولئك الذين يتمتّعون بهذه المميّزات وبين الذين لا يمتلكونها، ما يعرّضهم لخطورة البقاء خارج هذه الدارة الاتّصالية الجديدة.

(950) Couchot, Images. De L'Optique au Numérique, 1988, cit., p. 204.
(951) G. Youngblood, " Cinema Elettronico e Simulacro Digitale. Un' Epistemologia dello Spazio Virtuale ", Ed. Albertini & Lischi, ETS, Pisa, 1986, pp. 31-41.
(952) Couchot, Images. De L'Optique au Numérique, 1988, cit.

ثمة أشكال أخرى من التفاوت بين أشخاص يقتربون من الوسائل التبادلية. منها، على سبيل المثال، الانكسار الحاصل بين جيل من الشباب يشعر بألفة كبيرة مع التقانيات الجديدة ويتميّز بحساسية التقاطية خاصة تجاه الصور، التي تشكّل أداة حوار مفضّلة بين المشترِك والنظام التبادلي، وهو قادر، عبر التجربة، على تعلّم تجريب الأنظمة، وجيل من الكبار تشكّل، ليس اجتماعياً فحسب، عبر أشكال اتّصالية سطرية مرتبطة بالكلمة المكتوبة وبالقراءة، ويجد صعوبات كبيرة في تعلّم نظام، عبر التجربة، لا يعرف مسبقاً قواعد تشغيله، وفي تقبّل سرعة ردّ تنجزها الأنظمة التبادلية.

في سياق تتمتّع فيه الآلات بحضور متصاعد، فإن نوعية التفاعل بين الإنسان والآلة ستكون أساسية بالنسبة لنوعية الحياة، ولذلك، من الأهمّية بمكان اكتساب هؤلاء الكبار فهم صحيح لتلك الآلة[٩٥٣].

* * *

(953) Mantovani, La Qualità dell'Interazione Uomo-Computer, 1991, cit.

الفصل الثالث

التقانيات التبادلية والمعرفة

خلفية

بالإضافة إلى التمثّل والاتّصال، تعدّ المعرفة الوظيفة الثالثة التي تبدي فيها الوسائل الجديدة أنها تتفاعل مع أشكال أخرى من التجربة، أيضاً قبل- تقانية، دخلت دائرة الضوء عبر عودة الكتابة والمؤسّسات الأرشيفية إلى البروز. وبذلك، يصبح التعلّم، كاتّصال معرفة وتخزين في الذاكرة ونسيان، موضوعاً تفسيرياً قوياً لشبكات وبنوك معلومات.

بمعنى آخر، تمثّل المعرفة الجانب المتعلّق بالسعي نحو وسائل الاتّصال الجديدة لتعلّم شيء ما واكتساب معلومات ومعارف بشكل عام، وتخزينها واستدعائها عند الحاجة.

داخل هذا الخط تتموضع، سواء الشبكات التي تتيح الاتّصال عن بعد (الفيديو التلفزي، الفيديو الهاتفي ووظيفته كبنك معطيات)، سواء الشبكات التي تستوجب قرباً بين المشترك ومقرّ المعطيات (بنوك المعلومات المنزلية، الأقراص المدمّجة والواقع الخلبي).

وقد تمّ تصميم بعض وسائل الاتّصال الحديثة خصّيصاً للمحادثة المؤلّفة من معرفة، وللتساؤل - الاستجواب الذي يقوم به المشترك.

إن موضوع المعرفة يُدخل في اللعبة أيضاً أدوات لا تنتمي بحدّ ذاتها إلى عالم التمثّل أو الاتّصال. فعلى الجبهة الأولى، يمكن ملاحظة العوالم التي يولّدها الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلبي الذي يتيح تطبيقات فعّالة ومثيرة للاهتمام في مجال التصميمات الهندسية والهندسة المعمارية والأزياء، وفي مجال العلوم، حيث توجد

قدرة على اصطناع ديناميات ظواهر وتشكيلات نووية وتصويبات وتحسين صور غير رقمية، وفي مجال الطب، حيث يجري توضيح عناصر لا غنى عنها للتشخيص كالأشعّة الرقمية والإيكو والأمواج فوق الصوتية والمقارنة بين الكروموزومات، وفي مجالا الطيران حيث يمكن اصطناع رحلة جوّية لأهداف عسكرية أو مدنية إلخ..

بالإضافة إلى ذلك كلّه، هناك الأبحاث المتعلّقة بالذكاء الاصطناعي، وما يمكن أن تعنيه بالنسبة للمعرفة الإنسانية.

فالنقاش حول الذكاء الاصطناعي وقيمه وخصائصه وتطوّراته، متشابك وغني، وأنظمته تتطلّب العمل على قاعدة عضوية من المعطيات التي تطبّق على أساسها إجراءات موضوعية مفصّلة ودقيقة ومنطقية تقاد عبر محاولات على أساس فرضيات[٩٥٤]. إن اللجوء إلى الشبكات العصبيّة التي يتم استيحاؤها من النظام العصبي للإنسان، يتقلّص إلى مجال الاستدلال الاستنتاجي ولا يستطيع إدخال مشكلات تعلّم ذاتي. ومع ذلك، لا شك أن تطوّر مصطنعات الذكاء حيث القدرة على الاتّصال مع المشترك تشكّل عنصراً أساسياً، قد فرض تفكيراً أكثر وضوحاً وتشعّباً حول الإجراءات الإنسانية المرتبطة بالتفكير والمحاكمة الإنسانية[٩٥٥].

الشبكات

إن الالتحام بين عالم الاتّصال وعالم التيليماتيك يدفع نحو التشديد على مفهوم البثّ. وإذا كان انتشار المعرفة يعدّ معطى مركزياً في الاتّصال بالمعنى التقليدي، فإنه يغدو أكثر مركزية في اللحظة التي يجري التعامل فيها مع المستجدّات التقانية المنصبّة على محاولة توسيع إمكانيات البثّ[٩٥٦].

من المعروف أن ثمة أبحاث تتعلّق بتقوية القنوات من أجل نقل إشارات أكبر عدداً وأكثر تعقيداً. وتعدّ هذه القنوات الشرط التقني الذي لا غنى عنه من أجل سلسلة من الوسائل تتميّز، ليس بمضمون دقيق فحسب (كما في حالة الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلّبي)، وإنّما أيضاً وخاصة ببنيات معيّنة.

(954) Bettetini, Le Nuove Tecnologie della Comunicazione, cit., p. 39.
(955) Ibid.
(956) p. Aroldi, " Conoscere con I New Media ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, pp. 203-250.

هذا يعني أن تلك الوسائل لا تقدّم " أشياء " جديدة – الإيقونات الافتراضية أو حتّى التفاعل نفسه بين شخص والفضاء الذي يتّصل به – بل على العكس، تطرح نفسها كحوامل للوصول إلى بُعْد أوسع وأكثر امتداداً للاتّصال[٩٥٧].

إن المفهوم الذي يبدو أن هذه الفئة من وسائل الاتّصال الجديدة تعرضه في الساحة هو الحركة : فمعلومات من كلّ نوع تنتقل، تصل إلى المشترك من أمكنة بعيدة جداً كانت مغلقة تقليدياً، كدور الأرشيف الكبرى. وتتيح هذه الحركة للإنسان، ليس فقط تلقّي معطيات قادمة من أي مكان، بل تسمح له أيضاً أن يكون موجوداً في مواقع مختلفة، دون أن ينتقل مادّياً إلى أي مكان[٩٥٨].

بهذا المعنى، يضع بعض الباحثين[٩٥٩]، في موقع يتعارض مع شرط " البداوة " لإنسان ما بعد الحداثة المرغم على أسفار مستمرّة، إمكانية " الحضور " بمعنى خاص للكلمة، بفضل تقوية شبكات الاتّصال. إن البقاء في المنزل يفترض ألاّ يكون النتيجة الأكثر إثارة للاهتمام لتوافر شبكات أفضل. فالنقطة التي غالباً ما تهمل هي أنه غدا من الممكن اليوم التنقّل بحرّية لأن الإنسان يمتلك أنظمة أفضل للبقاء على صلة مع قاعدة عملياته. وهذا الإنسان الذي يبرمج شبكات المستقبل، يجب ألاّ يهتم بعدد البايت (hit)– ثانية الضروري لتقليص أسفاره المعتادة، بل باستطاعة الإعداد وبمصادر الاتّصال عن بُعْد، الضرورية لجعله أكثر استقلالية عن الزمان وعن المكان. إن استقلال الإنسان عن الزمان والمكان يجسّد الخدمة والمنتج الأكثر ثراء، الذي تستطيع المعلوماتية أن تقدّمه للإنسانية.

لا شك أن الحركة التي أثارها بثّ المعطيات عن بُعْد، تصبح مساراً يمشي الإنسان فيه وهو موجود في المكان المادّي نفسه. إنه سفر يمكن تقسيمه إلى خطوات، يتم الوصول إلى كلّ منها عبر تساؤلات لاحقة : في نهاية المطاف، لا تكمن المعرفة التي اكتسبها الإنسان في مضمون فحسب، ولكنها تحتضن سلسلة من الكفايات الأوسع التي تتعلّق أيضاً باكتساب القدرة على " الإبحار " وعلى الوصول إلى المكان المنشود[٩٦٠].

إن التعلّم الذي يمنحه استعمال وسائل الاتّصال الجديدة، يتبدّى كبناء مكوّن من معرفة ليست علمية فحسب بل عملية أيضاً.

(957) Ibid.
(958) Ibid.
(959) N. Negroponte, " Prodotti e Servizi per le Reti Informatiche ", in Le Scienze, 279, Novembre, 1991, pp. 59-60.
(960) Aroldi, 1998, cit., p. 205.

فكلّ اتّصال تفاعلي بين الإنسان والآلة يتضمّن أيضاً عنصراً نشيطاً يتطلّب " معرفة التحرك " إلى جانب "معرفة الوجود" و "ومعرفة العمل"[٩٦١].

وبمعنى أكثر اتّساعاً، يمكن لوسائل الاتّصال التفاعلي الجديدة أن تستخدم في المجال التربوي، ليس لنقل مضامين خاصة فحسب، ولكن أيضاً للدخول في صلة مع رؤية جديدة للعالم.

إن مفهوم شبكة يهرب سريعاً من مجال تقني بحت، ليصل إلى إعطاء معنى كون يرتبط فيه كلّ شئ، ويستمد قيمته من إرساء ارتباط وعلاقة. فالشبكات تلغي المسافات بين المشترك والأرشيف وتلغي التميّز بين مختلف المعطيات[٩٦٢].

وتستطيع الشبكات المحلّية أن توصل أطرافها بألياف بصرية، في حين أنه بالنسبة للمسافات البعيدة، من الضروري اللجوء إلى الأقمار الصناعية. وفي حالة شبكات معقّدة تربط بين مراكز عديدة على مسافات طويلة، تستعمل معدّات الوجه لوجه بين كلّ معدّ والشبكة، كالجبهة والمعالج (" front and processor, " FEP) الذي يهدف إلى تنظيم سير الرسائل، من خلال تخزينها في الذواكر وأرشفتها وتنظيمها حسب تراتبيات معيّنة.

المطالبة بالحصول على معرفة

إن الاتّصال التبادلي بين الإنسان والآلة يمكن أن يهدف إلى الردّ على فراغ معلوماتي، ولكن يمكن أيضاً أن يهدف، في حالة أنظمة مستندة إلى استخدام حامل معلوماتي، إلى تحقيق انتقالات حقيقية : فالردّ على سؤال المشترك سيكون أكثر من مجرّد معلومة[٩٦٣].

وتدخل في تنميط " المطالبة بالحصول على معرفة " بنوك المعلومات بشكل عام، وهي تتكوّن من أنظمة اتّصال تعدّدي للأرشفة.

إن إنشاء شبكات اتّصال عن بُعد أتاحت إعادة بناء للمناهج التقليدية في جمع وتخزين المعطيات. وتعدّ الخصيصة المشتركة التي تربط مختلف مظاهر الأرشفة الإلكترونية، سهولة الوصول والحصول على معطيات، وإمكانية إعادة إعداد المعلومة بصورة مباشرة، من خلال عقد مقارنات ومواجهات واستدعاءات واصطفاءات،

(961) Bettetini, La Simulazione Visiva, 1991, cit.
(962) M. Gambaro, " Informazione Mass Media e Telematica ", Ed. Clup, Milano, 1985, pp. 201-211.
(963) Aroldi, Conoscere con I New Media, 1998, cit.

توصل، في نهاية المطاف، إلى استخدام أكثر حرّية وفائدة للمواد التي دخلت حقل معرفة الإنسان.

يمكن القول باختصار إن وسائل الاتّصال التبادلي، باقترانها مع استخدام الذواكر البصرية الجديدة، تستعمل لتكوين دور أرشيف، يؤدّي الدور الحاسم فيها، ليس التخزين وجمع المعطيات فحسب، ولكن أيضاً وخاصة إمكانية استدعاء تلك المعطيات، من خلال إظهار اقترانات معيّنة.

وتعدّ هذه الأنظمة فعّالة بشكل خاص في حالات استخدام مسارات تعلّم منظمّة بموجب استمارات ومستويات متفاوتة، قابلة لتحقّق موضوعي. وتتيح تقويماً مشابهاً عمليات بناء الاستخدام ضمن مسارات منظّمة تجري عبرها تجارب الأخطاء وإعادة المحاولة.

الحصول على معرفة

أيضاً عندما يتعلّق الأمر بالحصول على معلومة، فإن التفاعل بين الإنسان والآلة يتجسّد كعمل بكل معنى الكلمة. وتجد هذه الخاصيّة بُعداً أعمق في التطبيقات المستخدمة لإنجاز تنقّلات وتأدية خدمات[٩٦٤].

وهناك أنظمة تستند إلى ذات المنطق، حتّى وإن كانت في بعض الحالات غير متعدّدة الوسائل، كالأجهزة التي تتيح، بواسطة الارتباط بمُعدّ، أتمتة مهمّات روتينية، كدفع الفواتير وسحب مبالغ من المال من البنوك. إلخ..

المعطى النظري: بزوغ الأرشفة الإلكترونية

إن تطوّر وانتشار بنوك المعلومات تمثّل ثورة في الممارسة الوثائقية التي شهدت قائمين عليها، مرّة بعد مرّة، وفي مراحل مختلفة، الأجهزة العسكرية وهيئات البحث الفضائي والصناعات الكبرى والمؤسسات الاقتصادية العملاقة، وأجهزة المعلومات الإعلامية في الأونة الأخيرة، من أرشيف الصحف إلى مخازن هيئات الإذاعة والتلفزة.

وبالتوازي مع هذا التطوّر، أثير نقاش عام حول معلّمة* التوثيق، وبشكل أعمّ، حول الهيمنة الاجتماعية للحاسوب[٩٦٥]. وبالإضافة إلى الشروط البنيوية المرتبطة

(964) Ibid.

* اشتقاق من معلومات.

(965) Bettetini, Il Segno dell'Informatica, 1987, cit.. p. 38.

بالتدعيم والانتشار الشعيْري للسوق المعلوماتية خلال الثمانينيات، فقد قادت هذا النقاش في العقد الأخير من القرن الماضي، مناسبات خاصة كمركزية مرحلة المَعْلَمة في أجهزة الإعلام، التي تبدو، من الناحية الاجتماعية، واضحة للعيان أكثر من سابقاتها، وولادة قائمين جدد على التقانيات المعلوماتية.

ويتركّز هذا النقاش، بصورة جوهرية، حول موضوعين أساسيين، الأول يتّصل بالعلاقة بين السلطة والديمقراطية والمعلومات : ففي مجتمع شهد نمواً سريعاً لقيمة الخبر التقليدية المعبَّر عنها في التساوي بين المعرفة والسلطة، من المحتّم التساؤل حول أساليب إدارة هذه الثروة المعلوماتية، أيضاً من الناحية السياسية. ويشدّد البعض على مخاطر إدارة استبدادية، أو مسيطرة، أو غير قابلة للرقابة وغير تمييزية للمعرفة الوثائقية وغير الوثائقية، من المحتمل تحقيقها بسبب نعومة التقانيات المعلوماتية، ويؤكّد البعض الآخر أن هذه التقانيات بالذات يمكن أن تسمح بانتشار أكبر للمعرفة، التي يصبح من السهل الوصول إليها بالنسبة لأي شخص، ما يعني أنها تقانيات تدفع، بصورة جوهرية، نحو الدمقرطة.

ويتّجه الموضوع الثاني حول إتقان أنظمة الأرشفة المعلوماتية وحول أمن بنوك المعلومات، سواء من ناحية الخصوصية وعدم قابلية التلاعب الخارجي، سواء من ناحية ضمان عدم النسيان، الإرادي أو غير المتعمّد. ولقد أثار البعض مسألة عدم إتقان تلك الأنظمة وبالتالي، عدم موثوقيّتها بالمقارنة مع الأنظمة التقليدية، في حين ركّز البعض الآخر على قدراتها الذاكرية والإعدادية، طارحين فرضية خطورة عكسية مرتبطة بضرب من نمو ذاكرة فائقة يمكن أن تحكم بالشلل على الجديد وأن تؤدّي إلى زوال الواقع خلف مخازن إشارات تلك التقانيات، وبالتالي، فقد أعلن هذا الفريق ضرورة الحفاظ على حق النسيان.

مؤكّد أنه جدل مثمر تتجاوز أهميّته حدود مَعْلَمة التوثيق، وتلامس مسألة بناء المعرفة والذاكرة الاجتماعية والرقابة عليهما.

يبدو جلياً أن التصدّي للنواحي العملية والنظرية في قضية معْلَمة الأرشفة التوثيقية، يعني الاقتراب من نظام معقّد، من الضروري إبراز مستويَين متباينين فيه[٩٦٦]: الأول تقاني بحت، يتعلّق بالبرمجيات والتجهيزات التي تحفظ المعطيات. والمستوى الثاني إداري الطابع ويرتبط بالأجهزة والعاملين عليها، بالإضافة إلى المعايير وسياسات الاصطفاء والحفظ والاستشارات المعتمدة. ويمكن تخيّل المستويَين كأنظمة تحتية يكمّل بعضها البعض الآخر، وفي هذا الأفق من الملائم القيام بتحاليل متكاملة.

(966) Aroldi, Conoscere con I New Media, 1998, cit.

قراءة إجمالية

حسب الفرضية المشار إليها آنفا حول تقسيم الظاهرة إلى مستويَين، مستوى معلوماتي وآخر إداري، يمكن اعتبار هذين المستويَين نظامين تحتيَين مندرجيْن أحدهما في الآخر، ومتكامليْن، كالذاكرة الطويلة الأجل والذاكرة القصيرة الأمد. إن الأجهزة التوثيقية من أي طبيعة كانت، والعاملين عليها وخياراتهم السياسية وروتين إنتاجهم ومعاييرهم المهنية والاقتصادية والإدارية، تشكّل الذاكرة القصيرة الأجل المكلّفة باستقبال المعلومات " الحواسية " وتفسيرها وشكلنتها وإرسالها إلى المخزن حيث تستطيع هذه الذاكرة، في وقت لاحق، استدعاء المعلومات وإعدادها وتحويلها لتسليمها من جديد إلى الحياة الاجتماعية. أما الذاكرة البعيدة المدى فتتألّف من النظام المعلوماتي، ومخزن التجميع الذي يجري في داخله البحث عن المعلومة حسب المعايير التي تمت معالجتها بها.

يشار أن قاعدة المعطيات المعلوماتية، كلعبة العلب الصينية، تمتلك ذاكرة قصيرة وذاكرة طويلة، وأنه، في بعض الأحيان، يشكّل الأرشيف الإذاعي والتلفزي والوثائق التي تمّ الحصول عليها على قاعدة معطيات معلوماتية، أنظمة تحتية للتذكّر (الإيقونات التقانية) التي يمكن تنشيطها بصورة صحيحة.

وهكذا، فإن المشروطيات والتناقضات في المستويات المختلفة للنظام تمارس تأثيرات متبادلة فيما بينها، مضاعفة التأثيرات ومشكّلة شبكة رقابة على مخزون المعرفة، ولذلك، فإن هذه الرقابة تُعَدّ غير متقنة وغير مطلقة، ومن الصعب إعادتها إلى جهة واحدة.

إن تكاملية المهنيات المعنية المختلفة وتفاوت مستويات النظام المتعدّدة؛ بالإضافة إلى وجود مسامات في الأجهزة المعلوماتية، وفي رؤية شاملة أكثر اتّساعاً، التبعية المتبادلة للهيئات التوثيقية والإدارية في مجال المعلومات، كلّ ذلك يدفع ممارسات بنوك المعلومات نحو تقاليد تنوّعية أكثر ممّا هي استقلالية وتكاملية، أكثر ممّا هي إطلاقية وتبادلية وعلائقية، أكثر ممّا هي احتكارية.

وللعودة إلى الموضوعات الرئيسة المتعلّقة بالنقاش حول تنظيم وإدارة المعرفة والذاكرة الاجتماعية، يمكن القول إن تعقيد النظام بالذات يشكّل ضمانة ضد إساءة استخدامه أو التحكّم به من قبل جهة واحدة، كما أن عدم إتقانه، من ناحية أخرى، يسهم في حمايته من مخاطر نمو غير طبيعي وفيْلي. وإذا انتهت المعرفة إلى أن تتشكّل حسب طرائق تخزين المعلومات، فإن هذه الطرائق يجب أن تخضع، حسب

بعض الباحثين(٩٦٧) لاعتبارات وتبدّلات، ليس فقط في المستوى المعلوماتي بل أيضاً في مستوى أعمّ يرتبط بخلق وإدارة بنوك المعلومات، وبالتّالي بسياسات هذه البنوك، أو بالأحرى بالسياسة الثقافية الشاملة. أيضاً في حقل معالجة المعلومات، يحلّ التقدّم التقاني بعض المشكلات ولكنه يخلق أخرى، ويسرّع بعض الروتين غير أنه يعقّد نوعاً آخر من الروتين، وكلّ ذلك يندرج في مجال حرّية الخيار الإنساني، معيداً رسم حدوده دون أن يلغيها. وتنتهي العادات اليومية إلى تقليص الجانب الأسطوري الذي يرافق قدوم التقانيات الجديدة، مبعدة إيّاه انطلاقاً من إرساء وتطوير قواعد أكثر صحّة لإدارتها.

تقانيات جديدة ومسألة التفسير

إذا كان من السهل ملاحظة توافق التقانيات الجديدة فيما بينها ووحدة الرائز الذي تمارسه، بعمق، على التجربة الفردية والاجتماعية، فإنه من العسير تقديم إطار تفسيري يظهر المعطى الأخير لهذه الوحدة، أي للدواعي العميقة لوجودها.

الحقيقة أن المعلّمة التي تجسّد الخصيصة الأبرز في جميع تلك التقانيات، تقول الكثير حول طبيعتها ولكن ما تقوله غير كافٍ. وذلك لأن تحويل الإشارة إلى إشارة رقمية وعددية وبناء الوجه لوجه واللغات المختلفة، وتطوّر الاتّصال التفاعلي، كلّ هذا يشكّل قرائن مهمّة من المفيد مناقشتها، ولكنها مؤشّرات وصفية أكثر ممّا هي تفسيرية، أي أنها فعّالة وظيفياً في تصنيف العرض التقاني، وقليلة الفعّالية في توضيح كيفية التقاء هذا العرض مع المُعاش الفردي والاجتماعي(٩٦٨).

ولكن قبل الدخول في حيثيات هذه المقاربة، لا بد من الإشارة إلى ظهور وتطوّر الأداة التي أحدثت هذا الانقلاب العميق في الاتّصال الإنساني، ألا وهي الحاسوب الذي تجري عبره عمليات التمثّل والاتّصال والمعرفة، والذي يشكّل الوسيط الأهم في البعد التفسيري لتلك التقانيات.

الحاسوب والاتّصال

إن التطوّر المطّرد والمتسارع لتقانيات الأنظمة الجديدة للاتّصال هو عنوان العصر الراهن. وإذا كان الزمن قد سجّل ثلاثة قرون بين اختراع الطباعة وبين

(967) S. Nora & A. Minc, " Rapport sur L'Information de la Siciété ", La Documentation Française, Paris, 1978, p. 63.
(968) F. Colombo, " La Comunicazione Sintetica ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, p. 266.

المرحلة التي أصبحت فيها الصحيفة وسيلة إعلام مهمّة، فقد مرّ ثلاثة وثلاثون عاماً فقط (من عام ١٨٨٨ وحتى عام ١٩٢١) بين اكتشاف موجات الراديو الهرتزية وبدء البثّ الإذاعي المنتظم. وحدث شيء مماثل بالنسبة للحاسوب الشخصي الذي غدا يشكّل عنصراً أساسياً من عناصر التقانيات الاتّصالية الراهنة.

لقد استمرّ الحاسوب الرئيس الضخم(mainframe) الذي يعمل بالصمّامات، فترة قصيرة، فالتقدّم السريع الذي تحقّق في عمليات تصغير حجمه ودخول النماذج الجديدة الحقل التجاري، قلّص، بشكل مدهش، كمّية المساحة والنفقات الضرورية للحصول على جهاز حاسوب. وقد يسّر نظام البرمجيات (software) استخدام الحاسوب الشخصي.

وبالتغلغل السريع للحاسوب الميكروي، تحقّق نمو كبير في قدرته الذاكرية. من ناحية أخرى، أدّى ترسّخ سوق جماهيرية للحاسوب الشخصي إلى تخفيض كلفته بالنسبة لوحدة قياس الذاكرة. ويعدّ تقليد نماذج الحواسيب الشخصية الأصلية عاملاً مهمّاً، لأنه يوفّر انتشاراً سريعاً للحواسيب في البلدان النامية التي أصبحت تصنّع داخلياً نماذج مطابقة لأفضل أنواعه.

لقد أصبحت المجتمعات الراهنة تسمّى مجتمعات المعلوماتية، وهو مصطلح يدلّ على تحوّل مجتمع ما من اقتصاد صناعي يتميّز بإنتاج جماهيري لسلع ملموسة، كالسيارات والحديد والصلب، إلى مجتمع يستند اقتصاده على إنتاج وتوزيع خدمات معلوماتية غير مادّية وغير ملموسة(٩٦٩). وقد مارست الأنظمة القائمة على الحاسوب دوراً مهمّاً في تطوير اقتصاد الخدمات المعلوماتية.

إن الاتّصال اليومي بأنظمة الاتّصال الجماهيري ليس له ذات الخصائص التقليدية في بثّ الأخبار والبرامج باتّجاه واحد، ولكنه اتّصال جماهيري بمعنى أنه يورّط عدداً هائلاً من الأشخاص الذين يبثّون ويستقبلون أنواعاً شتّى من المعلومات المتعلّقة بالعالم وبالخدمات المختلفة. ولا شك أن الانتشار السريع لهذا الضرب من العلاقات غير المباشرة مع نماذج متنوّعة من الحواسيب الصغيرة والمتوسّطة والكبيرة يشكّل التبدّل الرئيس في صيرورات الاتّصال التي تجري عبرها إدارة الأنشطة اليومية. ويعيش اليوم أفراد وتنظيمات ومجتمعات كاملة حالة تبعية لأفراد آخرين يتبعون بدورهم لشبكات مركزية وحواسيب يعملون عليها.

إن هذه التطوّرات المذهلة في نمو شبكات المعلومات الحاسوبية، لإرسال

(969) Ibid.

واستقبال وأرشفة معلومات، لا تمثّل اتّصالاً جماهيرياً بالمعنى التقليدي، إذ أنها عبارة عن بدائل إلكترونية لأشكال أخرى من البثّ.

فشبكات المعلومات الجديدة هي جزء من أنظمة الاتّصال الإنساني وتستحق اهتماماً غير عادي من قبل الدارسين والباحثين.

ويمارس تحول أنظمة الاتّصال الاجتماعي تأثيراً، سواء على الأفراد سواء على المجتمع بكلّيته. ويرتبط أهم عناصر هذه التغيّرات المهمّة في طريقة إعداد وصياغة المعلومات في المجتمعات الراهنة، بتركيبة قوى العمل. وحتّى إذا بدا تأثير التغيّير الحاصل غير فوري، فإنه يمثّل نتيجة واضحة لهذا التغيّير الجاري. ولعلّ أهم عوامل هذا التأثير يتجلّى في البطالة البنيوية، أي البطالة الناجمة عن الإغلاق النهائي لصناعات وما يرافقه من ضياع أمكنة العمل. وفي هذه الحالة، لا يترك العمّال في منازلهم بانتظار انتعاش اقتصادي قادم، بل تختفي أمكنة عملهم تماماً وبشكل نهائي. ومن المحتّم أن تؤدّي هذه التبدّلات الاقتصادية، بصورة غير مباشرة، إلى التأثير على قطاعات عديدة من النظام الاجتماعي[(٩٧٠)].

إن فقدان الدخل الاعتيادي الذي كان متوافراً، لم يخلق طبقة من الأفراد غير القابلين لإعادة التوظيف فحسب، بل وضع في حالة صعبة القطاعات الصناعية التي كانت تلبّي من قبل حاجاتهم وأذواقهم.

أما الوجه الآخر للعملة فهو تطوّر اختصاصات مهنية أخرى حول الإدارة والإعداد الحاسوبيّيْن لعمليات مرتبطة بالأعمال وبالصناعة والتجارة وأرشفة المعطيات. ويولّد هذا التطوّر بدوره تأثيرات غير مباشرة على الأعمال، ملامساً أيضاً تنظيمات الإعلام الجماهيري[(٩٧١)].

قد تكون هذه التأثيرات أقل وضوحاً في المستوى الاجتماعي، ولذلك، ومن أجل فهم تلك التأثيرات، من الضروري أن يعدّ الباحث في مجال الاتّصال المجتمع كنظام اجتماعي انتقالي، ولكي يفعل ذلك، من المفيد أن يستخدم نظريات التأثير غير المباشر داخل إطار مفهومي من النوع البنيوي – الوظيفي.

من جهة أخرى، يجب تقويم طبيعة الانحرافات التي تنجم عادة عن التطوّر التقاني الذي تحقّقه المجتمعات الإنسانية، فقراصنة الإنترنت اليوم، والذين يتمتّعون بثقافة معلوماتية متقدّمة، استطاعوا أن يخترقوا أكثر من أرشيف إلكتروني لأهداف مختلفة، ما أوجد حاجة ملحّة لسنّ قوانين جديدة رادعة.

(970) DeFleur & Ball-Rokeach, Theories of Mass Communication, cit., p. 357.
(971) Ibid. p. 358.

لا يكفي الاستخدام المنزلي للحاسوب لكي يتحقّق استعمال واسع النطاق في المجتمع لأنظمة معلومات تعتمد على الحاسوب، لأنه من أجل إيجاد نظام جديد للاتّصال الجماهيري، يجب أن يمتلك الناس سواء التجهيزات (hardware)، سواء القدرة على استخدام الحاسوب بشكل يومي، كما تستخدم وسائل الإعلام الأخرى. وحتّى إذا أصبح محو الأمّية المعلوماتية شاملاً، وإذا كانت كلّ أسرة تمتلك حاسوباً ومودم (modem) خاصاً بها للتواصل مع الشبكات الكبرى، من الصعب تخيّل تطوّر نظام اتّصال جماهيري جديد مبني فقط على هذا الأساس. فجوهر الاتّصال الجماهيري يكمن في أن اتّصاليّين مهنيّين يديرون الإعلام، بهدف الربح، موزّعين، بنوع من الاستمرارية، مضامين معيّنة لجمهور واسع وغير متجانس. أما وجود شبكة حاسوبية يتبادل عبرها الأفراد رسائل، فهو عملية من نوع آخر تماماً، كما أن دفع الناس إلى أن يتبادلوا رسائل عبر حواسيبهم الشخصية، يشكّل فوائد قليلة بالمقارنة مع الشبكة الهاتفية المتوافرة[(٩٧٢)].

الواقع أن وسائل الإعلام الحديثة تشهد، في الوقت الراهن، تطوّراً يكمن في مزاوجة الحاسوب مع المتغيّر الحديث للتلفزة الكابلية.

الحاسوب كوسيط تفسيري

من الضروري الانطلاق من مركزية المعلوماتية في صيرورة تطوّر وسائل الاتّصال الجديدة، من أجل التعرّف، بصورة أفضل، على الدور الذي يؤدّيه الحاسوب وخصائصه كوسيط لفهم الرائز الذي يمارسه على الوسائل الأخرى.

ولكي يتم إبراز أهمّية الحاسوب من الناحية الاتّصالية وآليات عمله، من المفيد استخدام مصطلح أخذ ينتشر بسرعة، وهو الوسيط الخلفي (metamedium). إنّ إيجابية هذا المصطلح تكمن في غموضه الجوهري: فمن جهة، يصف المصطلح قدرة الحاسوب على نقل العدوى لأدوات تقانية أخرى، ومن جهة ثانية يشير إلى تجاوزيته لتلك الأدوات ووجوده، بشكل أو بآخر، ما وراء وسائل الاتّصال الأخرى، وبالتالي، أيضاً قدرته على إبراز العناصر الخاصّة من موقع امتيازيّ[(٩٧٣)].

بالنسبة للجانب الأول يكفي التشديد على كيفية أن الروبوتية والروبوتية عن بعد تتكوّنان كتقانيات تتأسّس فيهما الإدارة المعلوماتية والعملياتية الميكانيكية، في ممارسة تبدّل جذرياً فكرة العمل نفسها، على الأقلّ فيما يتعلّق بأهدافها، ووصف خلفياتها

(972) Ibid., p. 359.
(973) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit..

المعرفية وحتّى هوية الكائن العميل، القابلة للتعرّف عليها انطلاقاً من عملها[٩٧٤]. لا شك أن علم الروبوتية يحتاج إلى تحاليل مطوّلة بدءاً من آليات تفكيك القدرات القصوى الكامنة للعمل الإنساني، ولكن لا يمكن التفكير بأي أداة أخرى قادرة على نقل عدواها بشكل عملي واكتشافي كما فعل الحاسوب مع الميكانيك التقليدي، ما أدّى إلى توليد شئ شديد الاختلاف بالمقارنة مع المعارف والتأمّلات السابقة.

أما بالنسبة للجانب الثاني المتعلّق بتجاوزية الحاسوب وبموقعه التاريخي- النظري الامتيازي، يكفي التذكير كيف انقلبت رأساً على عقب جميع تحاليل الصيرورات المعرفية والحواسية إثر دخول الوسيلة الجديدة إلى مسرح الاتّصال، والقلق الذي أحدثته قدراته في البداية[٩٧٥].

كلّ ذلك يعني أن تعريف الوسيط التفسيري الذي يتلاءم مع خواص الحاسوب، يقدّم نقاطاً مهمّة للتفكير ويمكن أن يشكّل منطلقاً لأبحاث نظرية.

ولكن المميّزات الخاصة التي تضفي على الحاسوب صفة الوسيط التفسيري والخلفي ليست ناجمة عن قدرته على نقل عدواه وعلى تجاوزيته، ذلك لأن هذين العنصرين يمثّلان، في الحقيقة، نتائج مبسّطة لمرتسمات خاصة.

من المهمّ في هذا المجال التوقّف عند التمييز الخاص بين البرمجيات(software) والتجهيزات(hardware) التي حدسها البريطاني تورينغ. ذلك أنه انطلاقاً من التمييز بين هذين العنصرين، يستطيع الحاسوب استثمار البحث المنطقي- الرياضي وفعّالية عمل الكود المتوازي[٩٧٦].

بمقدور الحاسوب إذن، أن ينقل عدواه إلى أدوات تقانية أخرى. ومع ذلك، فإن المهمّ، في هذا المقام، هو تفاعل الحاسوب التبادلي مع وسائل الاتّصال، الذي تسبّب في تحريك صيرورة تبدّلية حقيقيّة في عالم الاتّصال التقاني والذي يدفع نحو التفكير بالوضع الاتّصالي للحاسوب كآلة حسابية قابلة للبرمجة وقابلة لتشكيل الوجه لوجه مع مشترك ما.

(974) J. Weissberg, " Le Geste, La Connaissance, La Décision ", in Weissberg & Alii, Les Chemins du Virtuel, Centre Pompidou, Paris, 1989, pp. 138-140.
(975) S. Turkle, " The Second self ", trad. " Il Secondo Io ", Ed. Frassinelli, Milano, 1985, pp. 53-59.
(976) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit., pp. 268-297.

مفصّلة اللغة المعلوماتية

معروف أن النظام المكوّد الذي تستند إليه إمكانية إعطاء تعليمات للحواسيب، يسمّى اللغة الثنائية، وفكرة أن هذه اللغة هي خطاب لغوي ترتكز إلى نماذج المنطق المركّب[٩٧٧].

ويُعدّ الكود الثنائي نظاماً وصفياً لجملة من الحالات الفيزيائية التي تتطلّب إشارتين هما الصفر والواحد. هذا يعني أن تلك الحالات التي تسمح باشتغال الحاسوب هي حالات قبل- لغوية[٩٧٨]. وتتأسّس التقانيات المعلوماتية على جعل الكود الثنائي اصطلاحياً، يتيح، من جهة، وصف تلك الحالات البسيطة، ويجعل ممكناً، من جهة أخرى، إملاء لغات أخرى قادرة على تسريع إجراءات تحويل ووصف الحالات الفيزيائية قبل- اللغوية[٩٧٩]. وبذلك، تتركّب التقانية المعلوماتية عبر إمكانية تحويل الحالات الفيزيائية للآلة إلى لغة، ما يعني أن التقانية يمكن أن يفكّر بها لغوياً، فقط ضمن نطاق رؤية معيّنة للغة، التي تبدو بدورها قابلة للتفكير بها داخل تقانية معيّنة[٩٨٠].

كما يلاحظ، فإن الحالات الفيزيائية مقترنة بعناصر من اللغة الثنائية، وتؤدّي هذه العناصر دور المرجعيات لتصميمات اللغات المصنّفة، التي يكتسب تعقيدها الشديد معنى قابلاً للاستخدام السهل من قبل المشترك.

بكلمات أخرى، يُعدّ الكود الثنائي بسيطاً (في اشتغاله) ولكنه ليس سهل الاستخدام. في حين أن اللغات المصنّفة، كما تلك المبرمجة، ليست بسيطة غير أنها سهلة الاستعمال. هذا يعني أن التصميم الذي أنجزه المنطقيون يستند إلى تعقيد شديد في مقاربة أولى وصفية بحتة للحالات الفيزيائية.

إن هذه العلاقة المتناسبة عكساً بين تعقيد بناء البرمجيات وسهولة استعمالها، تمثّل معطى ثابتاً في التقانيات العصرية. أي أن عقدة المشكلة تكمن في عدم أهمّية فهم آليات عمل آلة بالمقارنة مع سهولة استعمالها، وهي مسألة تحكم العلاقة بين الاستعمال والمعرفة، بين الإنسان والتقانيات.

كان عصر غوته يلتقط الأصل الإنساني للتقانيات، ولكنه كان يمثّل الآلة كشيء

(977) Ibid.
(978) Ibid.
(979) Ibid.
(980) Ibid.

آخر بعيد ومنفصل. وقد جعل ماركس من هذا الشيء الآخر قضية درامية اتّخذت شكل الاغتراب القائم على الفصل بين الإنسان ونتاج جهده[٩٨١].

منذ ذلك الوقت، يمكن القول إن الأصل الإنساني للتقنية كان يغدو باستمرار أقلّ وضوحاً، ففي التقانية تصبح مسألة تحقيق شيء ما هامشيّة تماماً بالنسبة إلى خواصه التشغيلية.

وهكذا، فإنه في كلّ التقانيات التي ترافق حياة الإنسان، تجعل الآلة من نفسها شفّافة تجاه العالم الذي يريد هذا الإنسان التلاعب به.

إن التقانيات البرقية والهاتفية والسينمائية والتلفزية والتيليماتيكية تجعل ممكناً، في تعقيدات متصاعدة، أحد أكثر الأنشطة طبيعية للإنسان، ألا وهو الاتّصال. غير أن صعوبة فهم بنية الأجهزة وغموضها لا تحول دون سهولة استعمالها، بل على العكس، ترفع قدرات هذا الاستعمال، إذ تخفي الجهد المبذول.

ولكن الأهم من ذلك كلّه، أن رائز الحاسوب يحقّق قفزة حاسمة لأن التعقيدات الميكانيكية للبرمجيات تترك مكانها، شيئاً فشيئاً، لمفارقة بساطة اللغة الثنائية. وتشكّل هذه المفارقة معطى بارزاً وعميقاً في كل وسيط جديد.

مسائل مرتبطة بالتمثّل

يمكن استخراج مستوى آخر لعمل الحاسوب كوسيط تفسيري، وهو أن الحاسوب قد أسهم في دفع ضرورة إعادة التفكير في النماذج النظرية للتمثّل بشكل عام، وللتمثّل الإيقوني بشكل خاص. قد رأينا كيف أن إمكانية إنتاج صور تركيبية اصطناعية من خلال إعطاء تعليمات بسيطة للحاسوب، أي بقطع النظر عن استدعاء أشياء خارجية إلى داخل آلية إعادة الإنتاج، أرغمت على إثارة معايير تفسيرية منفصلة ومستقلّة تماماً عن الإيقونية كدافع استيعابي للإشارة- الصورة التقانية.

هذا يعني أن ظهور الغرافيك الحاسوبي أنتج اتّجاهين للتفكير النظري، غالباً ما يتقاطعان بشكل مثمر[٩٨٢]: الأول يتّجه إلى تبيان حداثة الوسيلة، وبالتالي، تجاوزيتها الأساسية للتقانيات التقليدية[٩٨٣]، والاتجاه الثاني يركّز على الاستمرارية بالنسبة للتقانيات التشابهية وحتّى بالنسبة لتقانيات الرسم[٩٨٤].

(981) Ibid.
(982) Ibid.
(983) Youngblood, " Cinema Elettronico e Simulacro Digitale, 1986, cit.
(984) Couchot, Images. De l'Optique au Numérique, 1988, cit. & colombo, Ombre sintetiche, 1990, cit.

ويقود الخط النظري الأول إلى مواقف ترى في الحاسوب عودة إلى جذور الإدراك الحواسي للصور، وتضع موضع نقاش مركزية الرؤية نفسها بالنسبة للقدرات العقلية في تنظيم الأحاسيس. في حين أن الخط النظري الثاني يعيد التفكير في كامل تاريخ التمثّل التصويري بمفتاح بناء هندسي للمرئي يجد في الحاسوب تطوّره النهائي[٩٨٥].

على أي حال، تبرز في الاتّجاهين المركزية المعطاة للرقمية المتكاملة للمعلومات، وهذا يعني نهاية تشابهية العناصر التي تسمح للمبرمج بتحقيق أنظمة كاملة شبه- كونية ثلاثية أو متعدّدة الأبعاد تحتوي قوانين مستقلّة غير مرتبطة البتة بالقوانين الفيزيائية والسيكولوجية للكون الإنساني.

وبشكل التمثّل، من هذه الناحية، مثالاً ممتازاً لموضوع نظري قابل لأن يتصدّى له الباحث من خلال أحد المواقف التي تمّ التطرّق إليها: فمؤيّدو أخروية التمثّل الحاسوبي يشيرون بوضوح إلى حداثة الإيقونة الحاسوبية (القادرة وحدها على توليد أحجام من النوع نفسه)، أما مؤيّدو الاستمرارية مع الصورة التقانية التقليدية، فإنهم يعتقدون أن الصور الحاسوبية لا تفعل شيئاً سوى إظهار القدرة المعهودة للصورة الانعكاسية في أن تحاكي، عبر اصطناع خارجي أو سيكولوجي للواقع[٩٨٦].

إن التعارض بين الاتّجاهين التفسيريين يجب ألاّ يوصل إلى خداع: فنقاط الالتقاء بينهما كثيرة، وخاصة، كثيرة هي القناعات المشتركة في تعريف الوسيلة الحاسوبية- الصورية. ويبدو أن المعطى البارز ينجم عن ضرورة التمييز بين المفصلة الأولى للتمثّل وهي تلك التي تحوّل أداة إشارية معيّنة إلى عناصر مدركة حسياً، والمفصلة الثانية التي تمتلك مجمل الأدوات الإشارية لتحقيق خطاب شامل.

في حالة التقانيات التقليدية، ورغم تطبيق أداة تقانية شديدة التراتبية، تنتهي إلى حالة من " الانطباع "، أو إلى ردّ للاستخدام التقاني على النبضات الخارجية. هكذا يتم الأمر بالنسبة للفيلم الفوتوغرافي، وهكذا يتم أيضاً، وإن بطريقة مختلفة جداً، التفكيك الذي تقوم به اللوحة الإلكترونية للكاميرا التلفزية، التي تدين بشيء ما لخارجية الشيء المصوّر.

وفيما يتعلّق بالغرافيك الحاسوبي، تنجز المفصلة الأولى عبر صيرورة ذاتية بحتة للآلة التي تولّد أشكالاً على قاعدة نماذج، دون أن تستجيب بالضرورة، لمثيرات خارجية[٩٨٧].

(985) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit.
(986) O. Calabrese, " L'Età Neobarocca ", Ed. Laterza, Bari, 1987, pp. 243-250
(987) Bettetini, La Simulazione Visiva, 1991, cit.

أما في مستوى المفصلة الثانية، فإن تركيبة الصورة تجري حسب معايّير شبيهة تماماً بالتقانيات التقليدية وبتلك الحاسوبية، ما ينجم عنها بناء انعكاسي شبيه جوهرياً. بهذا المعنى بالذات، فإن تمثّلاً مركباً بكامله كالبناء الحاسوبي يسترجع إيقونيّته.

أيضا فيما يتّصل بالاستخدام التمثيلي، يغدو معنى الحاسوب كوسيط تفسيري خلفي، مفيداً لتوصيف قدرة الوسيلة على أن تعيد إلى التأمّل بوسائل الاتّصال الأخرى (وخاصة الإذاعية والتلفزية)، من جهة، وعلى أن تنجز، من جهة أخرى، خلاصة مع الوسائل نفسها التي من المحتمل أن تكون وضعيّتها قد تبدّلت جذرياً بسبب تكاملها مع المعلوماتية، في هذه الحالة، بسبب التحوّل المتصاعد إلى رقمية الإشارة. إن الاندماج المتزايد بين التقانيات الرقمية والسينما تذهب أبعد بكثير من مجرّد المؤشّرات الخاصة التقليدية، وبالنسبة للتلفزة، فإن إمكانية ترقيم النبضات تفتح آفاقاً واسعة للاتّصال التفاعلي وللانصهار بين التقانيات التقليدية والرقمية.

• ما وراء اللغة التفسيرية

ممّا سبق، ظهرت بوضوح، قابلية تطبيق صيغة الوسيط التفسيري على الحاسوب كوسيط اتّصالي : فغموض التعريف الذي يصف، من جهة، قدرة الحاسوب على نقل عدواه لوسائل اتّصال تقانية أخرى، وفعّاليته في إظهار العناصر الخصوصية للوسائل الأخرى، بفضل وضعه الامتيازي، من جهة أخرى، يعمل سواء في مستوى المفصلة اللغوية، سواء في مستوى البناء التمثّلي، سواء في حقل النصّية الفائقة : ففي جميع هذه الحالات يثير الحاسوب (فيما يتّصل بكوداته والتمثّل الإيقوني والنصّ) عناصر نقد تتنقّل على كامل مساره وضعية الاتّصال الإعلامي التي يمكن ويجب أن يعاد التفكير فيها.

في العمق، تعرض أيضاً مسألة الوسيط بحدّ ذاته كموضوع نظري : أي فيما إذا كانت وسيلة إعلامية ما تستطيع أن تشكّل موضوعاً للتفكير فيها كلغة فقط ، أم أن الوظيفة البيئية المكتسبة لوسائل الاتّصال تستطيع أن تقدّم إسهامات مفيدة في عملية تحديد حالة الاتّصال التقاني وتموضعاته.

• الحاسوب كبيئة تفسيرية

في التفكير التقليدي حول وسائل الإعلام، مثّلت مشكلة الحالة اللغوية لوسائل الاتّصال حقلاً قوياً حتّى أنها كانت تتحول، من وقت لآخر، إلى مشكلة مركزية.

لقد وصل بعض الباحثين إلى حدّ تقليص وسائل الإعلام إلى قنوات مجهّزة بمفصلات كودية خاصة، من الضروري التعرّف على حالتها الاتّصالية.

وقد وضعت النظرة البيولوجية- النظاماتية، بشكل نهائي، موضع نقاش هذا المفهوم الذي كان يفسّر سبب اللغة (أي جذورها الأنتروبولوجية) بمفصلاتها[٩٨٨]: إن النظرة البيولوجية- النظاماتية في الحقيقة، هي التي بيّنت بوضوح أن اللغة ليست سوى شكل من الإرساء البيئي، التي لا يمكن التفكير بطبيعتها الدينامية بصورة ساكنة، لأنها منهمكة باستمرار في عمليات تأقلم على شروط تجربة العالم والتفاعل الاجتماعي.

الواقع أن السينما والتلفزة اللتين تعدّان قريبتين جداً من ناحية اللغة السّمعية - المرئية، تتباعدان بشدّة بفضل قوّة رائزهما البيئي، أي بقوّة طريقتيهما المختلفتين في بناء ذاتيهما بالنسبة للمُعاش الإنساني وفي بناء شروط جديدة من التجربة[٩٨٩].

وحسب هذه الطريقة في وصف وسائل الإعلام، ينهض الحاسوب أيضاً بدور بيئة تفسيرية، فهو يقرن قدراته الاستثنائية في تغيّير شروط الحياة والمعرفة من خلال استعداده الحربائي (المتلوّن) لنقل عدواه إلى الوسائل الأخرى، مسرّباً، عبر مساماته، خواصه إلى الهاتف والراديو والأشكال المختلفة للتمثّل الإلكتروني، بالإضافة إلى تكامله مع أشكال تقانية أخرى، وإسهاماته تجاه تلك الوسائل الأصيلة الجديدة التي هي أنظمة الواقع الخلْبي. من الشبكة إلى الفيديو ومن الأجهزة التشخيصية إلى المعدّات الموسيقية، يمارس الحاسوب اليوم دور محرّك معلوماتي جوهري لا غنى عنه[٩٩٠].

وحتّى في ما وراء التقانيات، تخضع تقنية العمل نفسها لتحوّلات. فالكتابة التي يحوّلها استعمال معالج الكلمات، بشكل أكثر جذرية يوماً بعد يوم، من آلية كتابة نصّ ينفصل بصورة متصاعدة وفورية عمّن يكتبه (لأنه بالإضافة إلى الرعب الذي تسبّبه الصفحة البيضاء، يوجد رعب الصفحة المليئة، واحترام قدسي لذاك الذي يصبح مادّياً في الكتابة بخط اليد وعلى الآلة الكاتبة) إلى صيرورة دينامية في عملية بناء كتل من الخلائط تنمو بلا توقّف بدءاً من السليّم إلى الطبعات المتنوّعة الجزئية والكاملة: فنصّ ما تكسبه الطباعة على الورق صيرورة من الموضوعية والسكونية النابضة، ولكنه يبقى، مع ذلك، في ذاكرة الجماهير كشيء قابل لإعادة الكتابة والصياغة إلى ما لا نهاية[٩٩١].

(988) H. Maturana & F. Valera. " Autopoiesis and Cognition. The Realization of Living ", trad. " Autopoiesi e cognizione. La Realizzazione del Vivente ". Ed. Marsilio, Venezia, 1985, pp. 119-121.
(989) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit.
(990) Ibid.
(991) Ibid.

إن بعض عناصر الحاسوب كوسيط، إذن، ترشح الحياة اليومية لدول متقدّمة : وهي عناصر برمجيات أحياناً وتجهيزات أحياناً أخرى، وهناك بعض عناصر أخرى ترشح طرائق اتّصالية. على أي حال، فقد أخذت هذه العناصر تشيّد عالماً شديد الاختلاف عن عالم ما قبل الحاسوب.

ثمة عنصر آخر يتألّف من نوع من الوجه لوجه- البرمجي المستخدم، أخذ يكتسب شيئاً فشيئاً، خصائص خليط كلامي- إيقوني خاص شديد الخصوصية، يجري تكويده داخل ممارسات اجتماعية واسعة.

إن هذا النوع من الاستخدام الإشاري يرتدي أهمّية خاصة بفضل الحوسبة المتعاظمة للتقانيات، التي يمكن قيادتها أو تنشيطها بدءاً من معرفة منتشرة بشكل كافٍ[٩٩٢].

وحتّى تفصيل اللون الذي درس بمناسبة الفرق بين الإلكتروني والمطبوع، يصبح بارزاً، لأنه يخلق، بكل معنى الكلمة، ذوقاً منسجماً مع جمالية تزداد امتداداً نحو وسائل إعلام أخرى، وبشكل عام، نحو الإدراك الحواسي الشامل للبيئة.

باختصار، يفضي انتشار الحاسوب كوسيط بيئي إلى إحداث تبدّلات جوهرية في مفهوم الوسيط نفسه وفي مفهوم البيئة. وفي هذا المجال، يكفي التفكير بالدور الأساسي الذي مارسه الحاسوب في انتشار، كما بقعة الزيت، لما يطلق عليه أتالي[٩٩٣] " الأشياء المرتحلة " التي تتعاون بالتأكيد (مع القمر الصناعي والألياف البصرية، وإن بأدوار متعارضة في بعض جوانبها) لتحقيق هدف نهاية الفراغ الذي يحتلّ حيّزاً كبيراً في الإدراك الحسّي الراهن للفضاء.

بهذا المعنى إذن، يطبّق مفهوم البيئة التفسيرية على الحاسوب، بالضبط بمعنى تجاوز الوسائل التقليدية، أو بالأحرى بتمظهر نهائي لبعض المعاني الكامنة التي كانت التقانيات التقليدية تحملها في طيّاتها[٩٩٤].

وهكذا، فإن الحاسوب اليوم موجود مع الإنسان في كلّ مكان وغير موجود في أي مكان، لأنه يتمظهر بشكل امتيازي، في كلّ تقانية.

إن مفهوم البيئة التفسيرية هو إذن، الأكثر ملاءمة للحاسوب لأنه يسلّط الضوء على دور التجربة التقانية المعاصرة كتجربة لغة وتمثّل واتّصال، ولكنها، على الأخص، تجربة حياة ومعرفة وأحاسيس[٩٩٥].

(992) I. Portnoff, " L'Ordinateur Épouse le Téléphone et la Vidéo ", Ed. Flammarion, Paris, 1992, pp. 23-35.
(993) J. Attali, " Lignes d'Orizon ", Ed. Fayard, Paris, 1990, pp. 40-42.
(994) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit.
(995) Ibid.

فكرة الاتّصال الصنعي

إن مفهوم الحاسوب كوسيط تفسيري، وخاصة في دوره كبيئة تفسيرية، يشكّل الخطوة الأولى نحو صياغة فرضية تفسيرية شاملة، تحرك النقاش حول معاني أداء المعلوماتية لدور موحّد فيما يتّصل بتحديد خصائص جملة من الأدوات التقانية.

يعتقد كولومبو[٩٩٦] أن عملية التوحيد النظرية هذه ممكنة، وبالتالي، لا بد من تدشينها باصطلاح يحتضن تعقيد الظواهر التي تريد الفرضية توحيدها من الناحية المفهومية: ويقترح كولومبو مصطلح " الاتّصال الصنعي" ويرتكز هذا التعريف[٩٩٧] على المشهد الإجمالي المؤلّف، بشكل توحيدي، من الوسائل ومن لغاتها، من الحضور ومن الفراغات، من العرض والطلب.

ويعني مصطلح " الاتّصال الصنعي"، ضمن هذا النطاق، الممرّ الاجتماعي أو القناة الاجتماعية التي تسهم عبرها الوسائل الجديدة في تشكيل بيئة ثقافية، تتوضّع تلك الوسائل داخلها، لاحقاً، مواجهة مصير تبدّل مستمرّ ليس تقانياً فحسب.

لمصطلح "الاتّصال الصنعي" أبعاد متعدّدة ويوجّه نحو مفاتيح تفسيرية مختلفة. فالمعنى الأول يستدعي الجوهرية وبالتالي السرعة. وتبدو الوسائل الجديدة، بحق، قادرة على إعادة توجيه مسارات معقدّة ظاهرياً إلى جذورها المكثّفة. وتتيح صيرورة تقليص الصورة الإلكترونية إلى حاوية رقمية إمكانية معالجة فائقة التفوّق، ولكنها تحتضن أيضاً الجانب البنائي للأفق، متيحة إدارة مجرّدة صرفة من عمليات فيزيائية أوّلاً وبالتالي جهدية.

أما فيما يتعلّق بالسرعة، لا شك أن الوسائل الجديدة تعمل داخل صيغة تفرض السرعة كقيمة. إن المرجعيات التي يرتكز إليها مفهوم الاتّصال التفاعلي، حيث يجري البحث عن التشابه مع التفاعل الإنساني فيما يرتبط بالتساوي الزمني، مفيدة لتوضيح هذه النقطة: فهي تفترض استقراراً في زمنية الاتّصال الشخصي، في حين أنه من الواضح أن التعوّد على التقانيات يؤدّي إلى تغيير قدرة الانتظار أمام ذاك الذي يتمّ إدراكه كتردّد من قبل الآلة.

إن تسريع الصيرورات الاتّصالية، إذن، يؤدّي إلى " إحساس بالتفاعل " مختلف من المحتمل أن يكون قادراً على تبديل أفعال وانفعالات، كالسفر وبعث رسالة والبعد

(996) Ibid.
(٩٩٧) يمكن ترجمة المصطلح أيضاً: الاتّصال التركيبي أو الاتّصال الاصطناعي.

والحنين. فإذا كان كلّ شيء يتم بسرعة أكبر، يخضع الزمن الاجتماعي المُعاش لمفارقة صيرورة الانكماش- التمدّد : الانكماش بفضل تقليص الفترات الزمنية اللازمة لإنهاء " أفعال اتّصالية "، والتمدّد بسبب مقاومة فترات غير تقانية تصرّ على البقاء، غير أنها تبدو متمدّدة بصورة مطّاطية أمام تصغير فترات أخرى مقارنة. إن صيرورة تسريع الاجتماعي بالنسبة للمجتمع العصري ككلّ يجد في " صنعيّة " الاتّصال لوحة عبّاد شمس مرفقة بحفّاذ[٩٩٨].

وهناك بعد آخر مفيد لمصطلح " الصنعي "، وهو بعد توازن الأخلاط المنظّم والتمازج المتناغم. ويطبّق هذا المعنى سواء على ظواهر مادّية (التركيب الكيميائي)، سواء على ظواهر سيميولوجية (اللغات الصنعية، حيث يشار إلى التراكيب التعبيرية بواسطة وسائل تشكّلية، بدلاً من كلمات مرافقة أو أفعال مساعدة كما في اللغات التحليلية).

على الجانب الأول، تجنح وسائل الاتّصال الجديدة إلى القيام بعملية ربط فيما بينها وإلى ربط الوسائط. وهكذا، فإن استراتيجيات التمثّل والاتّصال والاستجواب تجد نفسها، بشكل متزايد، متعايشة داخل ذات المجموعة من الأدوات، " والحكومة " الإلكترونية للوسائل التقليدية تسمح أيضاً بوضع صيرورات على شكل تتابع تسلسلي، كانت فيما مضى متميّزة كثيراً فيما بينها.

على الجانب الآخر، المتعلّق بالموضوع اللغوي، لا ريب أن لغات الوسائل الجديدة تنجز إجراءاتها عبر استراتيجية شديدة الشبه (على الأقل من الناحية الاستعارية)، باستراتيجية اللغات التركيبية الصنعية. والمثال الأكثر وضوحاً يتجلّى في تجاوز التمييز التقليدي بين تمثّل مكتوب ومسموع ومرئي، من خلال شكل تعبيري يقوم بصياغة توازن الأخلاط المنظّم. إن شاشة العرض التي تبثّ معاً، نصّاً مرئياً وسلسلة من المؤشّرات الغرافيكية التي تتيح تنشيط وظائف أخرى للقرص المدمّج[٩٩٩] تعمل شيئاً أكثر من مجرّد إرفاق ظاهرتين تعبيريتين مختلفتين، إذ تخلق ظاهرة جديدة تحتوي الوظائف السابقة ولكن لا يمكن إعادتها إلى مجموع جزأين أو أجزاء ولا يمكن تقسيمها للرجوع إلى ذات الأجزاء. من هذه الناحية، تحقّق الوسائل الجديدة شيئاً مختلفاً عن السينما والتلفزة. في الوضع الأول من هذه الحالات كان الهدف يتجسّد في تحويل الاتّصال إلى بيئة، وفي الوضع الثاني، يكمن التأثير في بناء لغة الإضافة. وهو أمر لا

(998) P. Virilio, " L'Orizon Négatif. Essai de Dromoscopie ", Ed. Galilée, Paris, 1984, pp. 58-62.

(٩٩٩) أو القرص الليزري.

علاقة له البتة مع تنفيذ عملية استقلابية للغة صنعية حيث يستطيع كلّ كود التخلّي عن شيء ما بفضل ظاهرة التوازن الخلائطي الناجمة عن النصّ الممنهل. وهذا يعني أن الطبيعة الصنعية للغة الوسائل الجديدة متأتّية من إمكانية الإبحار التي توفّرها النصوص الممنهلة، وبالتالي، من الوظيفة الخاصة التي يكلّف بها المشترك.

ثمة حالة ثالثة لمصطلح الصنعي، تستحق انتباهاً خاصاً، وهي التي تضع هذا المصطلح، كمرادف "للاصطناعي"، في وضعية متعارضة مع " الطبيعي " [١٠٠٠].

من زاوية معيّنة، لا تطرح تقانيات وسائل الاتّصال الجديدة. مشكلات مختلفة عن تلك التي طرحتها التقانيات الأكثر تقليدية. فجميع الوسائل مثّلت استطالات ووصلات اصطناعية للقدرات الإنسانية. ومع ذلك، فإن اصطناعية الوسائل المعلوماتية تفضي إلى ما وراء النقاش الحاصل حالياً، بسبب قدرتها في تجذير المسألة. وهناك جانب يتعلّق بالمواد الاصطناعية، يكمن في تقليد سطحي للمواد الطبيعية. ولا يقتصر التقليد على الحلول الوظيفي محل الطبيعي، بل يندفع نحو جوانب تشابهية متّصلة بالإدراك الحواسي. بكلمات أخرى، لا يقتصر النسيج الاصطناعي على القيام بذات الوظيفة التي يؤدّيها نسيج عادي مع مواد طبيعية، ولكن يجب أن يكتسب أيضاً مظهر النسيج الطبيعي، على الأقلّ فيما يرتبط ببعض الجوانب والقدرات. وهكذا، فإن الاصطناعي يقوم بوظيفة إشارية بالنسبة للطبيعي عبر الحلول محلّه مرّة بعد مرّة. ضمن نطاق هذا المعنى الخاص، يمكن اعتبار الوسائل الجديدة فعلاً اصطناعية بالمقارنة مع عمليات الاتّصال المقلّدة. أيضاً الوسائل القديمة تستدعي شيئاً من الاصطناعية، فالصحافة المطبوعة يمكن أن تعدّ كتابة اصطناعية، والسينما - حسب الملاحظات الشهيرة لسادول - يمكن أن تعدّ مسرحاً اصطناعياً. ومع ذلك، فإن وسائل الاتّصال الجديدة تضيف إلى هذه الخصائص دواعي أخرى : فهي تدفع، في الحقيقة، نحو محاكاة أو انتحال، ليس تأثيرات الإدراك الحسّي " السلبية " للتجربة فحسب، وإنّما أيضاً تلك " الإيجابية "، واضعة شروط التفاعل مع أنظمة ذات طبيعة مختلفة، محقّقة بعض أنواع النتائج. إن الاتّصال التفاعلي، بهذا المعنى، يقدّم، فعلياً، شيئاً أساسياً لوسائل الاتّصال الجديدة، لأنه يحملها على تركيب وصنع نوع من التجربة التجاوزية بالمقارنة مع تلك التي أطلق عليها " السلبية "[١٠٠١].

ومع ذلك، فإن البُعد الذي يكتسبه الاصطناعي أو الصنعي لا يقف عند هذا الحدّ. فثمة خصيصة أخرى للإنتاج الاصطناعي تكمن في مدّ قوّة الاستعمال الكامنة لبعض

(1000) Colombo, La Comunicazione Sintetica, 1998, cit.
(1001) Ibid.

أنواع العناصر. بهذا الشكل، فإن وجود مجوهرات اصطناعية يتيح استخدام مواد في الصيرورات الصناعية، تصبح عالية الكلفة وبالتالي محدودة في حال عدم استخدامها.

وتؤدّي الوسائل الجديدة وظيفة مشابهة بفضل انتشارها الهائل. إذ يكفي التفكير كيف تتيح الكلفة المنخفضة وعمليات التصغير واستطاعة البرمجيات المتنامية للهواتف الخليوية وللأجهزة المحمولة الأخرى (فاكس وغيره)، في أن تبدّل مفهوم الفضاء الاتّصالي، محرّكة ارتباطها بسلسلة من المواقع الثابتة. إن مرونة الاتّصال هذه ترجع إلى تعقيد المصطلح " تركيبي " كما " اصطناعي "، لأن هذه المرونة تحاكي، من زاوية معيّنة، حالة طبيعية، وتوسّع، من زاوية أخرى، إمكانية التفاعل الإنساني، مضاعفة استعدادها لتحقيق هذا التفاعل[1002].

إن تطبيق المصطلح " صنعي " على الاتّصال التقاني للوسائل الجديدة، قادر، إذن، على إعطاء شيء إضافي من مجرّد مصطلح- مظلّة، وقادر على أن يشير إلى التعقيد دون اختزاله. بل على العكس من ذلك، فإنه يبرز بعض الجوانب اللافتة للكون الاتّصالي المنشّط حول الوسائل الجديدة.

المجتمع الصنعي

إن الملاحظات التي وردت آنفاً يمكن أن تتيح القيام بعملية وصف للمُعاش الاجتماعي الذي يبنى حول وسائل الاتّصال الجديدة، عبر إزاحة الأحكام المسبقة التي ازدحم بها النقاش حول التحذيديّة التقانية[1003].

لقد طرح رانز التقانيات على الشرط الإنساني، بشكل أساسي، من خلال منتاحين تفسيريّين : أولهما نسب إلى التقانيات القدرة على إحداث تحوّل، لا رجوع فيه، في الوعي والثقافة، على عكس المفتاح الثاني الذي اعتبر أن هذه المنحة التي قدّمتها التقانيات هي فرصة بسيطة لتحوّل اجتماعي، يمكن ألاّ يتم اغتنامها.

الواقع أن المسألة لا يمكن أن تطرح بهذا الشكل : فالتقانيات والثقافة لا تتعارضان، لأن الأولى تعدّ " موازية " للثانية، على الأقلّ، بقدر ما تسفر الثانية عن إصابتها بعدوى الأولى[1004]؛ ويجسّد مثالاً مناسباً لهذه الآلية، بحث الواقع الخلّبي الذي ولد كتجربة تقانية، وسرعان ما أعيدت قراءته من قبل الفنّانين الذين قدّموا آفاقاً

(1002) Ibid.
(1003) Ibid.
(1004) Ibid.

إيحائية للأدب. ومن عمل أدبي بالذات، يبحث في الخيال العلمي حول القوى الكامنة للواقع الخلّبي بدأه غيبسون[1005] بالـ(Neuromante)، انطلقَ خط تفسيري تمّ إسقاطه بقوّة على البحث المباشر حول السّبرانية[1006]. وهناك الآن أبحاث منشورة تتمتّع بصرامة علمية كبيرة، تعالج موضوع التيليماتيك والحضور عن بُعْد والواقع الخلّبي أو الاصطناعي، في ضوء الوصف الافتراضي الذي قام به غيبسون. إن مصطلح السّبرانية يلقّح أكثر بكثير من صورة مجرّدة. بل إنه على العكس، يحمل شحنة من موسوعة كاملة للمعنى، يتعلّق بعضه بطبيعة التقانية الإلكترونية، وبعضه الآخر بتطوّر المجتمعات الغربية في حقبة " إنسان تورينغ "[1007].

وفي موضوع منح هويّة اجتماعية لحقبة التقانيات التفاعلية، يعتقد البعض[1008] أن هذه الهويّة تتوافق مع التبدّلات الجارية في المجتمعات المتقدّمة : فالمجموعات والوحدات الصغرية تتراجع، تاركة مساحة لتفتّت فرديّ الطابع، يتعرّض التوافق في داخله للخطر، إذ يصبح سلبياً وتراجعياً.

بقطع النظر عن تفاصيل هذا الرأي، من المهمّ التشديد - حسب كولومبو[1009] - على الانزلاق من قراءة فرضية الخيال العلمي إلى فرضية الواقع المنخرط في تقانيات الاتّصال. وهذا ما يؤكّد أن تلك التقانيات قد اندرجت في ضرب من " الحساء التفسيري " الذي يجنح نحو تشريط القراءة. وهناك تأكيد آخر يأتي من قراءة مؤلّف لدافيد توماس " طقوس قديمة من أجل فضاء جديد : طقوس انتقاليّة والنموذج الثقافي للسّبرانية لويليام غيبسون "[1010]، حيث يبذل الكاتب جهداً، انطلاقاً من اختراعات غيبسون، في وضع فرضيات تفسيرية حول صيرورات التكيّف الاجتماعي، أو من مؤلّف لمكاييل هييم " ميتافيزيقية الواقع الافتراضي "[1011]، حيث يحاول، انطلاقاً من مفهوم السّبرانية، تبيان كيف أن مفاهيم الواقع واللاواقع يجب أن يتم تجاوزها تماماً.

(1005) W. Gibson, " Neuromancer ", trad. " Neuromante " , 2° Ed. Nord, Milano, 1991.
(1006) F. Biocca, " Communication within Virtual Reality ", in Journal of Communication, vol. 42, 4, 1992, pp. 5-22.
(1007) D. Bolter, " Turing's Man ", trad. " L'Uomo di Turing. La Cultura Occidentale nell'Età del Computer "; Ed. Pratiche, Parma, 1985.
(1008) K. Hayles, " Terminal Identities and Redistributed Subjectivities : Bernard Wole's Limbo as Cibernetic Narrative ", in Colombo, 1998, cit. pp. 290-291.
(1009) Colombo, 1998, cit.
(1010) D. Tomas, Old Rituals for New Space : Rites de Passage and William Gibson's Cultural Model of Cyberspace ", in Benedikt M. Cyberspace. First Steps, Ed. The Mit Press, Cambridge, 1991, pp. 31-47.
(1011) M. Heim, " The Metapgysics of Virtual Reality ", in Helsel & Roth, Virtual Reality. Theory, Practice and Promise, Ed. Meckler, London, 1991, pp. 27-34.

ومن جديد، تعاد قراءة الواقع الخلّبي، في هذه الحالات، داخل مفهوم يخرج عن وضعيته التقانية البحتة. وهنا أيضاً مفهوم جمالي للواقع الخلّبي يتّجه نحو ربط استعمالاته بذلك الفن الاتّصالي الذي عبّرت عنه الطلائع.

ثمة مفهوم جمالي آخر لذات التقانية، تجد استمراريتها مع تجارب الهذيان ، وهي ممثّلة تماماً في مداخلات تيموتي ليري وفي مداخلات جارون لانييه، ذات الطابع التقاني[١٠١٢].

باختصار، يمكن القول إن فكرة المُعاش التقاني التي أطلق عليها " اتّصال صنعي"، يجب سبرها دون التمييّز بصرامة بين التقانيات واستخدامها الاجتماعي.

• الفضاء الصنعي

يتميّز الاتّصال التقاني بالسرعة، بل بالتسريع، ولهذا الأمر إسقاط قوي، أيضاً في العلاقة مع الإدراك الحسّي للفضاء الذي يغدو، بشكل ما، " مكثّفاً"، كما حدث، بفضل تقانيات النقل والتقانيات الاتّصالية التقليدية.

إن الفضاء الاتّصالي هو الفضاء الذي يتم إدراكه، مرّة بعد مرّة، كمكان للاتّصال، والذي يتّصف بصيرورات متعدّدة. فمن جهة، يعمل التطوّر التقاني من أجل بناء شبكة شاملة لنقاط التقاء، أو من أجل توزيع محطّات مرتبطة بشبكة. ومن جهة أخرى، يعمل التطوّر نفسه في اتّجاه عكسي، أي من أجل أن يجعل تلك المحطّات نقّالة، لجعل المشترك مستقلاً عن الشبكة بالمعنى الفيزيائي- السكوني. أما بالنسبة للشبكة، يجب ملاحظة الفرق الجوهري بين محطّات مترابطة ومحطّات استماع. وهناك فرق جوهري أيضاً بين الاتّصال الكابلي والاتّصال الموجي، فالأوّل يستوجب اتّجاهاً قبل أن يتطلّب معنى بثّياً، في حين أن الثاني ينبئ عن بنية اتّصالية متعارضة تماماً، أي بنية تفيض، بشكل ما، عن الاتّجاه بالمعنى الهندسي.

وهناك جانب آخر يعبّر عن تعقّد العرض التقاني، وهو يكمن في أن التقانيات، المحمولة والثابتة، ليست لديها وظيفة وحيدة تتمثّل في بناء ارتباطات، إذ يمكن تصميمها واستعمالها لتحقيق أهداف عكسية. فالهاتف النقّال مثلاً يقوم بوظيفتين متعارضتين، هما الحفاظ على وضع الاتّصال المستمر مع المجموعة المتّصلة، وفي ذات الوقت، ضمان عزل كامل عن البيئة الفيزيائية المحيطة.

(1012) Colombo, 1998, cit.

إن تعقّد إعادة البناء الفضائي التي يقوم بها الاتّصال الصنعي يفرض إعادة النظر في بعض المعايير التفسيرية، وخاصة تلك المتعلّقة بمفهوم الاتّصال كعملية بثّ.

وحتّى في النماذج الأكثر تعقيداً، كالمتاهة والريزوما، فإن فكرة شبكة اتّصالية، تستدعي دوماً نموذجاً ميكانيكياً، حيث يتم تمثّل الفضاء الاتّصالي كمسار ثنائي البعد، بشكل أساسي، مخطّط بخطوط هندسية. وسواء تمّ التوزيع الموجي أو التمديد الكثيف للمحطّات، فإن الاثنين يميلان إلى فائدة نموذج طاقة تمثّلية، مستوحاة من المغناطيسية والجاذبية.

إن الاتّصال الصنعي هو شيء أكثر من ظاهرة بثّية وبالتّالي، من شبكة قنوات تتحرّك عليها رسائل. الاتّصال يعني، بالأحرى، الانخراط في تدفّق، والمشاركة في عدوى اجتماعية. وتدخل حتّى العزلة الظاهرية للمتحدّث الهاتفي المتحرك، من هذه الناحية، في سياق احتواني أكثر اتّساعاً، حيث تتمازج استيهلاكات من جهات عديدة، وحيث يتحرّك البثّ أيضاً كضجّة خلفية، وكفرقة موسيقية واستعداد للاتّصال التفاعلي[١٠١٣]. إن هذه الضجّة التي ترافق الحياة تسهم بقوّة في فكرة الفضائية المستمرّة المعلنة والقابلة للإدراك الحسّي كتتابع لفرص مختلفة، وكتأثير لطاقات اتّصالية متباينة.

• الزمن الصنعي

يخضع الزمن لصيرورة انكماشية ناجمة عن التسارع الذي تفرضه التقانيات الجديدة. ويغيّر هذا التسارع فكرة الإنسان حول الفترات الزمنية، ليس فقط تلك المتعلّقة بالاتّصال ولكن أيضاً تلك المرتبطة بالتجربة. على جانب آخر، لقد لعبت الفورية دائماً - في الوسائل التقليدية أيضاً كالهاتف والراديو والتلفزة - ليس فقط في تحريك الإدراك الحسّي للمسافات، وإنّما أيضاً في قابلية استعمالية أكبر لساعات الترقّب.

لا يتطلّب الأمر تحليلاً معقّداً لإدراك أن توزيع الشبكة الاتّصالية وقابلية تنقّل الأجهزة تزيد إمكانية استخدام عدد أكبر من الفرص لتحقيق أهداف اتّصالية. هذا يعني أن توزيع العمليات يجنح نحو التعقّد في نطاق تراكم مستويات (يمكن التحرك من مكان إلى آخر وفي الوقت نفسه القيام ببعض الأعمال الإجرائية، كما يمكن إرسال فاكس أثناء النوم بفضل البرمجة إلخ..). إذن، يؤدّي التسارع ليس إلى انكماش

(1013) A. Abruzzese, " Estetiche del Wolkman ", Ed. Flavio Pagano, Napoli, 1990, pp. 23-26.

الفترات الزمنية فحسب، ولكن أيضاً إلى إدراك حسّي مختلف للحظات الاتّصال نفسه، ما يعني الشروع في جعل الاتّصال يعمل ليلاً نهاراً، سبعة أيام في الأسبوع، دون أن يتوقّف بتاتاً، أي، بكلمات أخرى، تقليص الاتّصال إلى " ضجّة بيضاء " ومرافق لكلّ لحظة في اليوم(١٠١٤).

وفيما يتعلّق بالفضاء، إذا لوحظ أن الفعل الاتّصالي موجود في كلّ مكان، يجب الاعتراف، بالنسبة للفضاء، بأن هذا الفعل الاتّصالي ممكن بشكل دائم، من خلال استعداد كامل للتبادل الاتّصالي، أو على الأقلّ، من خلال وصول إشارات من الخارج. بهذا الشكل، يلاحظ أن البيئة التقانية تقترب باستمرار من طبيعة جديدة احتوائية واختراقية.

• الكائن الصنعي

إن تبدّل الإدراك الحسّي بالفضاء والزمن، ينعكس أيضاً على بناء الهويّات. وقد أشار يانغبلاد(١٠١٥)، في معرض حديثه عن الثورة التي أحدثتها التقانيات التفاعلية، إلى " مجموعات الرغبة "، ليصف التكوّمات المتحرّكة لكائنات إنسانية اجتماعية حول فعل اتّصالي.

الواقع أنه في حالة يمكن فيها للإنسان أن يستخدم التقانيات، في ذات الوقت وبمفارقة مدهشة، من أجل عزل نفسه عن قريبين وإقامة اتّصال مع بعيدين، من أجل تسليم ذاته لضجّة هي وحدة موحشة، ولأخرى شبيهة بها تماماً ظاهرياً، بينما هي في الحقيقة علاقة، فإن فكرة المجموعات والتجمّعات تميل إلى التبدّل. وتتبدّل هذه الفكرة، بالضبط، حول العناصر المكانية- الزمانية.

إن من يهاتف عبر المحمول لم يعد يسأل هل فلان موجود؟ بل يسأل أين أنت؟ إن هويّة المتكلّم مرتسمة من خلال الشخصنة التقانية، ولكن ليس من المعروف فيما إذا كانت الحالة الزمانية- المكانية خارج النطاق الاتّصالي تستطيع أن تتطابق مع الحالة الاتّصالية. بهذا المعنى، يمكن لتقانيات الاتّصال الصنعي أن تتمثّل كأبواب يتم الوصول من خلالها إلى الاتّصال الصنعي نفسه.

وبهذا الشكل، يمكن فهم كيف أن المقارنة مع الأشياء التي تسبّب الهذيان يمكن أن يتم التوجيه نحوها عن طريق انصهار عشوائي بين أخروية البعد الاتّصالي، وأخروية

(1014) Colombo, 1998, cit.
(1015) G. Youngblood, " Il Mito Utopistico della Rivoluzione Comunicativa ", in Comunicazioni Sociali, 2-3, in Colombo, 1992, pp. 197-199.

البعد الاصطناعي، ومن وظيفة الممر المفتوح بالذات، بين عوالم متطابقة سطحياً، ولكنها في واقع الأمر، يفيض كلّ منها عن الآخر.

كلّ ذلك يعني أن الاتّصال الصنعي يستند إلى بناء هويّات اجتماعية متوازية، ترتكز من الناحية المكانية- الزمانية إلى ضرب من التوازن البُعْدي، وإلى خصائص بنيوية قائمة على نظام قواعد اتّصالية صرفة، وعلى تمثّل للاتّصال التقاني كتدفّق، وعلى حركية وتنوّعية التكوّمات(١٠١٦).

بهذا المعنى، تشكّل الهويّة الاجتماعية الحلقة الأخيرة لظاهرة "الاتّصال الصنعي : فمن ناحية، يجري بناء هذه الهويّة من قبل الاتّصال (الجماعة المتّصلة هي تلك التي تتموضع اليوم داخل التدفّق نفسه)، ومن ناحية أخرى، تبني هي هذا الاتّصال (لأن المشاركة في التدفّق أصبحت ممكنة بسبب إدراك واستيعاب قواعد خاصة للاتّصال تنظّم علاقاته مع بقيّة الحياة).

من الواضح، إذن، أن الاتّصال الصنعي لا يمكن وصفه انطلاقاً من تقانيات بسيطة تميّزه بشكل ظواهري، وإنّما انطلاقاً من كونه خليطاً من تقانيات وصيرورات تكيّف اجتماعي، حيث دور الأولى تبدّل، باستمرار، دور الثانية والعكس صحيح.

* * *

(1016) Colombo, 1998, cit.

الفصل الرابع

الاتّصال والتجربة في التقنيات الجديدة

مدخل

يقول بول فالوري :

لقد بدأ الإنسان يصبح الآخر، ويرد على نفسه ليعود فيصبح هو نفسه.

إن تجاوز المعضلة الفلسفية حول ماهية التجربة، قد تكون طريقة للبدء في رحلة داخل فضاء. هو ذلك الفضاء الذي رسمته تقانيات الاتّصال الجديدة، التي تتبخّر داخلها، في جميع الأحوال، الفكرة التقليدية للتجربة، لتعود فتتكثّف في مكان آخر وبشكل آخر[١٠١٧].

ما هي التجربة التي يتمّ إعلانها للإنسان اليوم؟ أية تجربة يمكن أن يخوضها هذا الإنسان عبر اتّصال تفاعلي جزيني وعبر عمليات نحت صوتي وتسارع زمني؟ إن وسائل الاتّصال الجديدة تعمل على نوعية التجربة الإنسانية الاتّصالية نفسها، معطية إيّاها فرصاً لم تكن واردة في الأذهان، ولكن طالبة منها، كتبادل سلعي، تعويم أنظمة مرجعية تقليدية. ولذا، فإن فئات وسيميولوجيات واستراتيجيات مستخدمة للحديث عن الاتّصال المعاصر، تتعرّض للسير حثيثاً نحو الانحطاط. ويعدّ هذا التغيّر عدم يقينية مرتبط بلاتجانسية وسائل الاتّصال البازغة نفسها.

(1017) P. Vidali, " Esperienza e Comunicazione nei New Media ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, pp. 229-330.

الواقع أن إمكانية الحديث عن الوسائل الجديدة تثير وهم عناصر مشتركة، في حين أنها في الحقيقة متلاصقة. ففي الغرافيك الحاسوبي والواقع الخلّبي والدقّة العالية والتلفزة الفضائية والذواكر البصرية والأقراص الليزرية وبنوك المعلومات وبطاقات الدخول المغناطيسية والهواتف المحمولة والشبكات عن طريق المودم والفاكس والهاتف المرئي والفيديو التلفزي، باختصار، في كلّ من هذه التقانيات يتشكّل مفهوم للعالم الاتّصالي، ليس دائماً متناغماً مع الوسائل الأخرى، وغالباً ما يكون غافلاً أو موجّهاً اهتمامه لأمور أخرى.

ويبقى، كعنصر مشترك، فقط تحوّل ثابت وعريض للصيرورات الاتّصالية وللإنسان داخل هذه الصيرورات. فعبر أشكال متباينة وبطريقة مفكّكة، أخذ يتغيّر مفهوم وممارسة تجربة الإنسان الاتّصالية، ويتبدّل معها جسم الإنسان وعقله[١٠١٨].

كان ماكلوهان[١٠١٩] قد استبق، في حقبة إعلام جماهيري، فرضية ارتباط مباشر بين شكل إدراكي حسّي ووسيلة اتّصالية، وتجسّد، حتّى اليوم، بعض مقاطع من تحليله، راهنية مدهشة : فالاتّساع الجسدي واللمسي والتخديري وتعدّد الفضاء المرئي، واستيعاب الأنظمة العصبية، هي مصطلحات استخدمت لقراءة التسارع بمعنى افتراضي للواقع الاتّصالي الجديد.

ومع ذلك، فإن الرائز الإدراكي الحسّي والمعرفي، وفي نهاية المطاف، الثقافي، لتقانيات الاتّصال الجديدة يمكن تخيّلها فحسب، حتّى وإن كانت هناك عناصر مرجعية تصلح للتأكّد. وخلافاً لوسائل الاتّصال التقليدية، كالإذاعة والتلفزة والسينما، تحدث الوسائل الجديدة تبعثراً شخصانياً في عملية استخدامها : وحتّى إذا كانت تأثيراتها الاجتماعية قوية، فإنه من غير الممكن ربط هذه التأثيرات بتلك الناجمة عن الوسائل التقليدية[١٠٢٠]، التي تشكّل، مع ذلك، مقدّمات لها.

الحقيقة أن خصوصية الوسائل الجديدة لا تكمن في درجة انتشارها، وإنّما في بنيتها وفي كونها مؤلّفة من الاندماج بين رقمية المؤشّر والمعالجة المعلوماتية للإشارة. فبعد فقدان مرجعية التقانية التشابهية وتجاوز سلبية التلقّي فقط، وازدياد كفاية وقدرة المعالجة المعلوماتية، تتميّز وسائل الاتّصال الجديدة بتعدّدية الوظائف وتنوّعية الاستخدام وتفاعلية الاتّصال. ويصبح المشترك في الوسائل الجديدة مسافراً رقمياً

(1018) Vidali, 1998, cit.

(١٠١٩) من أجل إعادة قراءة ماكلوهان ضمن نطاق هذا الأفق الجديد، أنظر :

- De Derckhove 1990 & De Derckhove & Iannucci, 1983.

(١٠٢٠) حول هذا الموضوع، أنظر :

- Wolf, Gli Effetti Sociali dei Media, op. cit.,1995.

وملاّحاً إلكترونياً مدركاً لآليات سفره. إلاّ أنه قد لا يكون مدركاً للتغيّر الذي اعتراه، أثناء السفر، وهو ليس مدركاً، بشكل دائم، أنه، في تلك الرحلات تتبدّل بعمق، البنيات المعرفية والمرجعيات الثقافية وفكرة الاتّصال.

البيئة الدنيوية

يعدّ الواقع الخلّبي (VR) التقانية الأكثر إيحائية بين وسائل الاتّصال الجديدة، ففيها يبرز الاقتران بين الصورة والحاسوب، بين مخيال الوسائل القديمة والتلاعب التفاعلي للتقانيات المعلوماتية الجديدة.

في الواقع الخلّبي يجتمع الأفضل في التقانية والتجربة على الأشكال التجديدية للاتّصال، حيث تتلاقى التطوّرات الأكثر تقدّماً في البحث حول تقانيات البثّ (الليزر، الألياف البصرية، الاسطوانات البصرية التفاعلية)، وحول البرمجة المعلوماتية (الخليويات المستقلّة، الهندسات المعمارية المتوازية، التشكيلات، الأبعاد الثلاثية المزدوجة)، وحول الوجه لوجه الإنسان– الآلة (تعليمات صوتية، نقاط بصرية، إيقونيّة المشترك)، وحول التفاعلية البيئة– المشترك. ومن الناحية التطبيقية يعدّ الواقع الخلّبي استراتيجية متقدّمة في قطاعات مختلفة، من التصاميم المعمارية إلى الرسم، من التشكيل العلمي إلى الصورة السينمائية، من الحضور التلفزي إلى المحاكاة الجراحية والتخطيط المديني.

يعدّ الواقع الخلّبي، إذن، عقدة غاية في الأهمّية لملاحظة تكامل استراتيجيات مختلفة للاتّصال المعاصر. ومع ذلك، فإن اختيار الواقع الخلّبي كمدخل امتيازي لتجربة وسائل الاتّصال الجديدة، هو مفارقة بحتة، لأن التجارب العملية حول هذه الظاهرة الاتّصالية قليلة، كما يقول بريكن[١٠٢١] الذي يعدّ الباحث الأهم حول التأثيرات التقانية والثقافية للواقع الخلّبي.

رغم ذلك كلّه، توجد استمرارية وطيدة بين التجربة المنتشرة والمشبعة لوسائل الاتّصال التقليدية، كالتلفزة، وهذا التطوّر الطليعي والبازغ والنخبوي الذي أُطلق عليه الواقع الخلّبي. وهناك وشائج براغماتية ونظرية أيضاً بين الواقع الخلّبي والتلفزة، وهي وشائج مرتبطة بالفضاء وبتحويله إلى مسألة دنيوية.

ويتساءل فيدالي[١٠٢٢] عن العناصر التي ميّزت الانتقال من الوسيلة السينمائية إلى

(1021) W. Bricken, " Virtual Reality : Direction of Growth ", in Imagina 92, Ina, I, 1992, pp. 23-40.
(1022) Vidali, 1998, cit.

الوسيلة التلفزية في "الجعبة المعرفية " لرأس الإنسان وسكنه أيضاً؟ ويجيب أن مشاهدة فيلم سينمائي، بغضّ النظر عن الوتيرة البصرية، ليست أبداً تجربة يوم عمل. فالذهاب إلى السينما يعني التعرّف على فضاء محدّد، منفصل عن الفضاء اليومي، حيث يتم الدخول إليه عبر عتبة تفصل وتميّز الداخل والخارج، والوجود الذي لا لبس فيه، في الداخل أو في الخارج. بالإضافة إلى ذلك، فإن التقانية السينمائية الإسقاطية عبر ضوء انعكاسي تفرض تعتيماً يصبح انتباهاً وإدراكاً حواسياً موجَّهاً، لأن النظر لا يستطيع التوجّه إلاّ نحو الجدار الحيّ الوحيد لعالم محيط مظلم. هذا بالإضافة إلى أن نصيّة الأفلام تتّصف بأنها مقيّدة، مع بداية ونهاية متميّزة من الناحية السردية، ومع انتماء نوعي نظامي ومحدّد يمكن التعرّف عليه. وتتطلّب السينما حالة خاصة وقراراً وما قبل وما بعد، فهي حدث محدّد في المكان والزمان اليومي للإنسان. باختصار، لا يمكن أن تعدّ السينما يوم عمل، بل هي دائماً يوم عطلة.

أما التلفزة فهي يوم عمل، إذ لا تحتاج إلى مكان محجوز لأنها تسكن، بلا حرج، كلّ غرفة في المنزل، لا تنتظر انتباهاً بل ترضى بنظرات مشتّتة، لا تريد محيطاً عاتماً لأنها تتأقلم مع الغرف المضاءة، ولا تريد وقتاً لأنها تشغل أوقات النهار والليل جميعاً، ولا ترغب حتّى بخيار نصّي محدّد، لأن الأنواع والنصوص تتشابك وتختلط في تدفّق مشترك. إذن، تعدّ التلفزة يوم عمل وليس يوم عطلة[١٠٢٣].

الكلّ يتذكر الاستعارة القديمة التي تصف التلفزة بأنها نافذة على العالم. الحقيقة أن التلفزة هي عالم، يملي حدود لغة الإنسان وغالباً ما يملي خطابه، وفي كلّ الأحوال يملي عليه الفئات المنطقية والإدراكية. التلفزة ليست نظرة وليست مرآة، إنها بيئة الإنسان. التلفزة هي البيئة المحيطة وهي سكن تجربة الإنسان.

لقد أنيطت بالتلفزة، وخاصة التلفزة الجديدة (new-television)، مهمّة تحويل إدراك وسيلة تمثّل، إلى إدراك غير محسوس وإلى الإحساس بيوم عمل. وأنيطت بالتلفزة أيضاً مهمّة الدخول إلى البيوت كطابور سمعبصري يومي، كمشهد منزلي، كضجّة خلفية. كمكان – زمان بيتي، وكشيء غير مدرك وغير مميّز، ومع ذلك حاضر في الأزمنة وفي الأفكار. لقد أنجزت التلفزة اللاتميّيز بين الواقع والتمثّل، بين العالم واللغة، وجعلت فضاء التمثّل دنيوياً في العمق، مدشّنة مفهوماً غير متمايز للواقع والتمثّل، للخبر والحكاية، للمعلومة والخيال.

(١٠٢٣) لمزيد من التفصيل حول التعارض بين يوم العمل والعطلة في الاتّصال الجماهيري، أنظر:
- Bettetini, " La Conversazione Audiovisiva ", Ed. Bompiani, Milano, 1984, pp. 173 & ss.

في هذا الفضاء الجديد للواقع الاتّصالي، من السهل التعرّف على تجذير الصيرورة، أي اختفاء الوسيط أيضاً. إن ارتداء بزّة ووضع قفّازات وخوض تجربة الاتّصال التفاعلي في بيئة خلّبية يعني الوصول إلى النتائج الأكثر انسجاماً مع صيرورة " البيتية " للوسيط، لدرجة انحلاله، عبر تصفية مفهوم الوسيط نفسه، أو بالأحرى، عبر إعطائه من جديد المعنى الأصلي كعالم، كمكان سكني وكبيئة. إن الواقع الخلّبي لا يقتصر، كما تفعل التلفزة، على تدجين الواقع، أي على جعله من سكّان البيوت، بل يصل إلى تجسيد العالم، ملغياً الوسيلة (الجهاز) وعاكساً الوسيط عكساً داخلياً (عالم).

من خلال هذا الطريق، ورغم الفروق الشاسعة في عمليتي الاستخدام والنشر، تظهر استمرارية وثيقة بين البعد التغييري للوسيلة التلفزية والبعد الانقلابي للوسيلة الخلّبية. فالبعد الأول يستعمر أي فضاء للتجربة المشتركة إلى أن يمحو أو يكاد، التباين بين البيئة اليومية والبيئة التلفزية. أما البعد الثاني، فإنه يعطي التغيير النقلة الأخيرة، أي هويّة عالم وبيئة مرئية داخلية.

مع التلفزة الجديدة، يصبح الوسيط عالماً، ومع الواقع الخلّبي يصبح العالم وسيطاً. ونحو هذه الهويّة الأخيرة، تتّجه ظاهرة الاتّصال الجماهيري الراهن.

كما ورد آنفاً، يسهم في توليد الواقع الخلّبي المخيال الإعلامي الجماهيري والثقافية المعلوماتية. أيضاً انطلاقاً من هذه الأخيرة يطرح الواقع الخلّبي نفسه كتطوّر منسجم يلامس الحدّ الأقصى للبحث المعلوماتي نفسه، بالإضافة إلى أنه تطوّر استراتيجي لوسائل الاتّصال الجديدة جميعاً. ففي الواقع الخلّبي لم تعد تبثّ رسائل بسيطة، وإنما أصبحت تبثّ عوالم، وقد تحقّق ذلك بسبب الاستيلاء على الواقع الذي رقّاه وأنتجه الغرافيك الحاسوبي.

منذ السبعينيات، انصبّ قياس البحث المعلوماتي أكثر على عالم الصورة التركيبية، وبالتركيز على هذا الاتّجاه، تطلّب الفن الإيقوني معرفة متزايدة دوماً للواقع، الضروري لتشكيل هذا الفن وتنفيذه، من أجل أن يعمل على محو الواقع، ليحلّ النموذج محلّه، وبشكل عام، اللغة المعلوماتية. خلف الصورة التركيبية لا توجد أي مرجعية، ولا يوجد أي واقع مأخوذ، فالصورة التركيبية تولّد آلياً من اللغة[١٠٢٤]. ومن هنا، من هذا التوتّر بين النمو المعرفي والتضاؤل الأنطولوجي (علم الكائن)، تحرّك الواقع الخلّبي، فانحلال المرجع اقترن بالانتقال، من مرجعية الشيء إلى التفاعلية بين البيئة والإنسان.

(1024) Couchot. Images. De l'Optique au Numérique, 1988, cit. p. 150.

من خلال وجود هذين الخطّين التفكيريّين، الأول مرتبط بتحويل الواقع إلى اتّصال، والثاني مرتبط بالتشكيل المعلوماتي لهذا الواقع، يبدو مبرّراً خيار قراءة، في الواقع الخلّبي، يتعلّق بالتعبير الأكثر حدّة للتبدّلات الحاصلة في التجربة الاتّصالية التي تنتجها وسائل الاتّصال الجديدة. إن الكون الرقمي لبنوك المعلومات والقرّاء البصريّين ومحطّات عن طريق المودم، تغزو وتحلّ محلّ الاتّصال التقليدي المتركّز على الصوت (الإذاعة والهاتف)، وعلى النصّ (الصحف) وعلى الصورة (الصورة، السينما، التلفزة). والحقيقة أن الواقع الخلّبي هو وسيط لم يعد يتميّز عن العالم، لأنه يشارك هذا العالم " طبيعته " الصنعية.

من جهة أخرى، يمثّل الواقع الخلّبي أيضاً وسيطاً يدخل في البنية الدقيقة للواقع، متيحاً الحركة والعمل في واقع متكيّف مع إدراك الإنسان، لأنه يتم التحرّي والبحث عنه بشكل تركيبي.

إن الواقع الخلّبي تقانية فهمت قبل غيرها وبشكل صريح ومبرمج، أن التجربة ليست تجربة الواقع، وإنّما هي تجربة مع الواقع. وتكمن حداثة هذه التقانية في أنها أول وسيط لا يبثّ رسائل بل يبثّ إدراكات حسّية حول العالم.

التجربة الخلّبية

في الثقافة قبل- الحداثية كانت نهاية التجربة نضجها، أي الإنجاز الكامل للتجربة التي كان يتم التفكير فيها كتجربة منتهية[١٠٢٥]. وبسبب هذه الانتهائية كانت التجربة شيئاً يمكن امتلاكه وليس فقط شيئاً يمكن عمله.

لقد فقد الإنسان الحديث فكرة التجربة المنجزة، لذلك، فهو لم يعد يمتلك تجربة. وفي اللحظة التي أصبحت فيها التجربة تنتسب إلى العنصر العلمي الذي لا يستطيع أن يصل إلى مرحلة النضوج، ولكنه يستطيع تنمية معارفه، تغدو التجربة كشيء لانهائي في جوهره، كشيء لا يمكن عمله ولا يمكن امتلاكه. إن تغذية إمكانيات الروابط والوجه لوجه والاستجواب والالتقاء، هي فقط أشكال كلامية يجري فيها، في الاتّصال المعاصر، إعراب تلك الصيغة للتجربة اللانهائية.

ولكن هناك فرق غير بسيط بين الوسائل القديمة والجديدة، فالأولى تشكّل فرصاً اتّصالية جماهيرية الطابع، حيث يتقلّص فضاء شخصنة التجربة - التلفزية على سبيل المثال - إلى خيار بسيط للقنوات والبرامج، وحيث تبحث فرادة التجربة غير القابلة

(1025) G. Agamben, " Infanzia e Storia. Distribuzione dell'Esperienza e Origine della Storia ",Ed. Einaudi, Torino, 1978, p.17.

للإلغاء عن السياق الجماهيري، ولكنها تعاني منه أيضاً : إذ أن كلّ مشترك يعيش الإدراك بأنه منظور في عينيه، ولكنه لا يملك وجهاً.

في الوسائل الجديدة، يبقى كلّ ذلك في الخلفية، لأن الاتّصال يتشخصن في الوصول المباشر، في صيرورة الكودات، في التعليمات الصوتية، وبكلمة واحدة، في شخصنة التجربة الاتّصالية، عبر خصوصية المتطلّبات وتخصّصية المشتركين وضرورة تعيّن العروض وتنظيم المنتجات، من خلال توسيع هذا الميل المتطوّر ذاتياً في الوسائل الجديدة. أيضاً في الوسيلة التلفزية الجماهيرية، فإن القمر الصناعي الذي يوسّع إمكانية الانتقاء، أو التلفزة الكابلية التي تحوّل البرامج إلى قطاعات، تظهر انتباهاً أكثر دقّة لفرادة متطلّبات المشترك.

وبمعنى أكثر اتّساعاً، يمكن القول إن الاتّصال التفاعلي الذي يميّز تطوّر الوسائل الجديدة، ليس سوى الجانب الأكثر بروزاً لهذا الميل إلى خصوصية الاستخدام الاتّصالي. فعبر الاتّصال التفاعلي تتبدّل وتتأقلم الوسيلة حسب المتطلّبات الفردية، مستولية عليها ومشخصنة إيّاها، بحثاً عن تعرّف مباشر للوسيلة وللمشترك فيها.

إن الانتقال إلى الوسائل الجديدة يشهد، إذن، هامشاً في الصيرورة الاتّصالية: فالوسائل التقليدية تعمّم التجربة، والوسائل الجديدة تخصّصها.

يلاحظ أن الواقع الخلّبي مشخصن ومفصّل على القياس ومتغيّر حسب الطلب. ولكن، وفي هذا الإعداد الصنعي للواقع، تظهر ثلاثة جوانب جديدة تماماً ومثيرة للاهتمام، لمتابعة تطوّر الإدراك الإنساني العام للتجربة الاتّصالية : الواقع المستقلّ وإدراك الإدراك والخيال الجسدي.

• الواقع المستقلّ

لا يكتفي الواقع الخلّبي بشخصنة الإدراك الحسّي للواقع، بل إنه يشخصن الواقع نفسه. فحسب كروغر[١٠٢٦]، تكمن مهمّة من يبرمج الواقع الخلّبي في إضفاء شخصية خاصة على الواقع نفسه، ما يؤدّي إلى الاعتراف للواقع الخلّبي بمقدرة إدراكية، وباستقلالية تصبح، في بعض الأحيان، استقلالاً كاملاً حتّى في البرمجة. وحتّى في مستوى الغرافيك الحاسوبي، يتيح استخدام ارتباط الآلة، بناء قطاعات من العناصر المستقلّة في الفضاء- الزمان للسلوكيات الخاصة بها في اتّصال تفاعلي، قادرة على التعرّف على بعضها البعض وتجنّب بعضها البعض.

(1026) M. Krueger, Artificial Reality II, 1991, cit. pp. 87-102.

إن هذه الصور هي تطبيق لنظرية الآليات الذاتية الخليوية[١٠٢٧]، أي تلك النماذج الرياضية الخاصة بأنظمة معقّدة تحتوي عدداً كبيراً من عناصر متطابقة في اتّصال تفاعلي متبادل، يمثّل ارتسامها النهائي نتاج تغيّر آني لقيمتها. ويمكن لهذه الاقترانات الخليوية أن تتطوّر كمتعضّيات تعيد إنتاج نفسها، وهي قادرة على توليد وتبديل بيئتها. وفي مستويات معيّنة، يتحرّر الواقع الخلّبي متجاوزاً من أنتجه.

غير أن هذه الاستقلالية للواقع الخلّبي ليست الشكل الوحيد الذي تظهر فيه الفرادة في أفقه.

• إدراك الإدراك

في الفيديو المكاني(videoplace) ، تتجلّى إحدى أهم التطبيقات التي أجراها كروغر، في أن المشترك يشعر أنه غائص في فضاء مرئي حيث يعيد نظام كاميرات تلفزية وحاسوب إنتاج ظلّه على الشاشة داخل نطاق اتّصال تفاعلي مع بيئات وأشخاص ورسوم وأشياء. وفي الفيديو المكتبي (videodesk) الذي يوسّع خصائص الفيديو المكاني، تظهر ظلال يديّ المشترك على الشاشة وهي تتفاعل مع نصوص وأشياء وطاولة مكتب. في هذا التطبيق تظهر الخصيصة الرئيسة لجميع تجارب الواقع الخلّبي : وهي أن ما يدركه المشترك ليس عالماً ولكن اتّصاله التفاعلي مع عالم. إن جسم المشترك الذي يتحرّك في فضاء اصطناعي بفيزيائية متغيّرة تفاقم وتبرز ما يحدث بطريقة غير إدراكية في التفاعل العادي. إن الإنسان، في تعامله مع الواقع الخلّبي، لا يلتقي أبداً عالماً، وإنما يلتقي علاقة مع العالم. وتجربته ليست تجربة للأشياء ولكنها تجربة مع الأشياء. إن اعتيادية تجربة الإنسان تعتّم على هذه العلاقة، وتجعلها مستقرّة إلى أن تصهرها في الشيء.

يجب خرق القوانين الفيزيائية التي تنمّط العالم، لكي يسلّط الضوء من جديد على العلاقة التي يقيمها الإنسان مع هذا العالم. الحقيقة أن الواقع الخلّبي يظهر ما لم يعد بمقدور الواقع العادي أن يظهره أي الطبيعة البنائية للتجربة الإنسانية للعالم. إن المسار الذي يصل إلى الواقع الخلّبي الملتصق مع هذه العقدة الجوهرية للتفكير المعاصر، هو مسار إجباري. قبل كلّ شيء، لأن الشيء الإنفوغرافي هو شيء خلّبي، ما يعني أن مادّيته أيضاً يجب أن يتم بناؤها وانتحالها. ولكن هذا يتطلّب سواء معرفة قيود التجربة الإدراكية الإنسانية أو التخلّي عنها. فمع الإنفوغرافية تحدّد أبعاد الصورة

(1027) D. Farmer & T. Toffoli & S. Wolfram, " Cellular Automata, Interdisciplinary Workshop, in Vidali,1998, p. 309.

ومركز الإدراك الحسّي على أي سلّم، من المستوى الجزيئي إلى المستوى الكوكبي، ويتم تجاوز وتحوّل جميع الحدود التي ترسم موقع الإنسان المعتاد في الفضاء الواقعي، وهي حدود بيئية وعناصر زمانية- مكانية ومرونة وميكانيكية وديناميكية وبنيات إدراكية حسّية. إنها حدود ترسم كلّ ما يطلق عليه واقع، وتميّزه عن مخيال بدون حقيقة. ويعتقد كويو[١٠٢٨] أنه ، عبر التعميم، يمكن تشكيل أكوان صغرية مسكونة من جملة من " الكائنات " مع سلسلة من القوانين تحت تصرّفها (تناظر، حافظة، سهم الزمن..) بهذا الشكل يمكن محاكاة سواء ظواهر فيزيائية سواء عوالم تولد من قوانين خيالية.

بهذه الطريقة، تمحو الصورة التركيبية قيوداً كان الإدراك الإنساني الاعتيادي قد فقد الإحساس بوجودها، ولكن تجاوزها أدّى إلى إبرازها. إن طرح هذا الشكل من الإدراك في الساحة، يساعد المرء في أن يدرك إدراكه الحسّي، فالصور التركيبية لا تظهر فقط الشيء المدرَك، بل أيضاً عملية الإدراك نفسها.

• خيال جسماني

يقول كروغر[١٠٢٩] إن المتعرّف هو الجسم الإنساني، والحقيقة أنه خلف غموض هذا التعبير تقبع إمكانية جوهرية للواقع الخلّبي، ألا وهي أن الجسم هو الذي يتعرّف.

إن جميع أشكال المحاكاة والانتحال في مجالات استعمال الواقع الخلّبي تستجيب لفهم البيئة الصنعية جسمياً، أكثر ممّا تستجيب ذهنياً. ليس فقط العينان، بل أيضاً اليدان والقدمان والثقل والحركة، كلّ ذلك يستخدم كحواس رئيسة للوصول إلى هدف غير معرفي وإنّما بيني. إن الاقتراح الذي يطرحه الواقع الخلّبي هو سبر بيني، غير أنه لا يستبعد ذكاء العالم الخلّبي الذي يبحر فيه الإنسان، بل يرفقه بالإدراك الحسّي كرديف هامشي.

يبدأ التفكير في الواقع الخلّبي فقط بعد الخروج منه، في وقت لاحق. إن جسمانية الإدراك الحسّي هذه هي عنصر آخر، ثالث، في شخصنة التجربة الخلّبية. ويتيح تكويد خاص فقط الاحتفاظ باتّصالية الشيء المفكَر به. ولكن لا يوجد في الإدراك الجسماني كود بثّ بين المشاركين. فالإدراك هو، قبل كلّ شيء، فرادة، والإدراك الخلّبي لا يسلم من هذه الخاصيّة. من جهة أخرى، يظهر الاهتمام الكبير بالواقع الخلّبي والغرافيك الحاسوبي في العالم الفني بوضوح كيف يتّم التعرّف فيهما على القيم الإبداعية بشكل

(1028) P. Quéau, " Metaxu. Théorie de L'Art Intérmediaire ", Ed. du Champ Vallon, Paris, 1989, p. 242.
(1029) Krueger, Artificial Reality II, 1991, cit., p. 103.

خاص، وعلى القوّة الاحتمالية الخيالية وعلى إمكانية الإتقان، التي جعلت من الواقع الخلّبي عملاً فنّياً كاملاً.

ولكن هذا التفكير يعود بالإنسان إلى البداية، إلى مشكلة التجربة ومشكلة فقدانها المعاصر.

إن خلّبية الاصطناعي تعيد إلى النقاش " فرادة " التجربة وخصوصية الإحساس الجسماني غير القابلة للإلغاء.

عبر انجذابه نحو تقوية الإدراك وتوسيع الحواس، وعبر اندفاعه الناجم عن التشكيل الرياضي وعن التشكلن النظري للشيء، يعيد الواقع الخلّبي الاعتبار، من خلال استعمال أداة قديمة، إلى تلك النقطة الوسطية بين الإحساسية والذهنية، التي كان فلاسفة القرن الثامن عشر يسمّونها " التخيّل ". ففي موسوعته يخصّص فولتير للتخيّل مقالة يعترف له فيها بدور جوهري في الفعل المعرفي، لأنه من خلال تمثّل بصري تشارك فيه كلّ الحواس، يصبح من الممكن التفكير وفهم الأفكار المجرّدة[١٠٣٠].

لقد عانى التخيّل من وضع غير راسخ في الفكر الحديث، باحثاً عن ضمانة في المستوى المعرفي، تكلّف الحواس بوظيفة ليست فقط وصولية، ولكن أيضاً إعدادية. ومع ذلك، فإن العلاقة بين الشعورية والعقلية مثّلت، في جميع الأحوال، عقدة لم تحلّ بعد في الثقافة الإنسانية الحديثة. هل تتوافر، بشكل ما، إمكانية إعادة وضعهما في الاتّصال؟ يعتقد أغامبين[١٠٣١] أن هذه الإمكانية كانت موجودة في العصور القديمة، فالتخيّل الذي ينبثق اليوم من المعرفة كعنصر غير واقعي، كان بالنسبة للقدماء الوسيط الأمثل للمعرفة. غير أنه بعيداً عن أن يكون شيئاً غير واقعي، فإن العالم الخيالي (mundus imaginabilis) يمتلك واقعه بامتلاء، بين العالم الشعوري (mundus sensibilis) والعالم العقلي (mundus intelligibilis)، بل إنه يعدّ شرطاً للاتّصال فيما بينهما، أي شرطاً للمعرفة[١٠٣٢].

ثمّة انطباع أن دور التخيّل نفسه قد أخذ يكتسب، في ثقافة الوسائل الجديدة، مكانة كان فقدها أو نسيها داخل الفنون المرئية فقط. في الواقع الخلّبي، يلاحظ أن التقاطع بين التقانيات الطليعية وجسمانية الإدراك، بين رقمية الصورة وإبداعية تحوّلها، بين العقل (logos) والشعور (ludus) يمثّل إعادة اعتبار للتخيّل كوسيط بين العقل والحواس وكأرضية مشتركة بين المعرفة والتجربة الجسمانية الفريدة والخاصة.

(1030) Voltaire, " L'Encyclopédie ", 1765.
(1031) Agamben, Infanzia e Storia, 1978, cit., p. 18.
(1032) Vidali, 1998, cit.

مع الواقع الخلّبي قد تتوافر إمكانية تجربة قديمة متخيّلة فريدة، شخصية وفي العمق، غير قابلة للتواصل، بينما يتحقّق فيها بالذات الغريزة اللانهائية للتجربة الحديثة.

فضاء واتّصال

يقول فيدالي[١٠٣٣] إن التجربة ليست تطبيقاً عملياً فحسب، بل هي أيضاً مكان. إن حدس فون فويرستير[١٠٣٤] البعيد جداً والشبيه، يوجد في إدراك تطابق بين الفضاء والتجربة الاتّصالية التي منها تنطلق ابحاث كروغر.

يفكّر الراشدون في الاتّصال عادة كبثّ لمعلومات من نقطة إلى أخرى، في حين يعتقد الصغار أنهم إذا استطاعوا التحدّث إلى أحد، يجب أن يكونوا في ذات المكان. بكلمات أخرى، يستند مفهوم الإنسان للمكان على المقدرة الاتّصالية. ويحدّد المكان من قبل المعلومة المتوافرة آنياً لشخصين في حالة اتّصال[١٠٣٥].

هذا يعني أن الفضاء ليس المسافة التي يقفز الاتّصال فوقها ويمحوها، وإنما هو المكان الذي يبنيه الاتّصال ويحطّمه. فالاتّصال يبني الفضاء. ولكن، ولكي يحدث ذلك، يجب أن يكون الإنسان قد ثبّط انتظاره الاتّصالي من جهة، وضاعفه من جهة أخرى.

ويمكن التفكير في الاتّصال كفضاء فقط لأنه، من أجل الاتّصال مع آخرين، يقتصر الإنسان على الصوت وخط الحروف والهاتف المرئي وعلى تسلسل " البيت " (bit) التي تصل إلى المودم : إنها فكرة مثبّطة للاتّصال، لأنها مشبعة بمعطيات عدم قدرتها على تشكيل نفسها من خلال صمت النظرة وشمولية الحركة بكامل الجسم الذي يتكلّم ويجيب ويصمت.

ويمكن التفكير بالاتّصال كفضاء، فقط لأن المرء يفكّر في الاتّصال بدون زمن: فهو ينظّم الحياة الاتّصالية منتبهاً فقط إلى الحاضر البثّي، دون الاهتمام بمستقبل الاستعادة. ومن أجل أن يتّصل، يضخ الإنسان معطيات ويجمع تدفّقاً، مغرقاً، في ضرب من التسلية التقانية، خشية أن يعدّ بنفسه المضمون الذي يبثّ.

ولكن يمكن التفكير في الاتّصال كفضاء، لأن الإنسان يتقاسم مع الآخرين فكرة اتّصال مقوّى بصورة استثنائية: لا أحد، في أي لحظة من الماضي، كان متقاطعاً بهذه

(1033) Ibid.
(1034) H. Von Foerster, " Observing Systems, Seaside, trad. " Sistemi che Osservano " in B. Draghi, Ed. Ubaldini, Roma, 1982, pp. 120-124.
(1035) Krueger, Artificial Reality II, 1991, cit., p. 5.

الكثافة مع كائن آخر متّصل. ليس فقط الكمّية، ولكن أيضاً نوعية الأفعال الاتّصالية الممكنة، تسفر عن تنوّع في الفرص، تعوّض بشكل كبير، التجزئة التي يقسّم فيها الاتّصال نفسه إلى مقاطع.

بهذا التسلّح، وبهذا الإفقار للاتّصال الغني وبهذا الإثراء للاتّصال الفقير، يلتقي الإنسان بإمكانية التطابق بين الفضاء والاتّصال. ويقع هذا الأمر لأن فترات انتظار المرء قد انخفضت، ولكن المشكلة تبقى غاية في الأهمّية.

• من القراءة إلى الإبحار

في ضرب من الثورة ذات المفعول الرجعي يجد المسافر الخلّبي نفسه يعيش عالماً يدور حوله دون أن يتحرّك هو من مكانه. إنه يمثّل مركزاً مؤقّتاً فقط، لا تظهره أي خريطة، ولا يضمن أي نقطة استناد. والواقع أنه بتبدّل البيئة، تتبدّل أيضاً كفايات المشترك، إذ عندما يتغيّر العالم يتغيّر أيضاً بانيه. مَن ينتقل من بنك معلومات إلى محطّة اتّصال تفاعلي، من محاكاة إلى موسوعة للاتّصال التعدّدي، من رؤية إنفوغرافيكية إلى إدراك حسّي خلّبي، يخضع، لدى كلّ مرور، لانتقال سكني استثنائي. فاللغة والتعليمات والوظائف والأهداف ونتائج عمله، كلّ ذلك يتغيّر ويتغيّر معه، في كلّ مرّة، مركزه المنظّم، أي هويّة من يقوم بالفعل في ذاك الفضاء الاتّصالي.

ويصبح من الصعب، في هذه الحالة، عيش التمركز كاستقرار. بل على العكس، فإن الأسئلة التي يرغم تغيّير المشهد المشترك عليها هي الأكثر إثارة للقلق : أين أنا؟ مَن أنا؟ مع مَن أنا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنها ثورة بدون وحدوية للعالم، وبالتالي، بدون "مكان طبيعي".

ولكي يتحرّك المرء في هذا الكون يجب أن يتزوّد، ليس بمنطق مختلف بل بأدوات معرفية جديدة.

إن استبدال مفهوم الإبحار بالقراءة تشكّل مثالاً على ذلك. وقد نشأ المصطلح إثر ظهور تقانيات النصوص الفائقة التي أخذت تنتشر، ليس فقط في عمليات النشر بل في المجال التربوي للقراءة أيضاً.

• من البثّ إلى الاتّصال التفاعلي

ثمّة انتقال آخر يتعلّق بمفردات اللغة وبالمعرفة، وهو يقدّم نفسه كشيء ضروري لمن يريد أن يبحر في فضاء الاتّصال المعاصر : إنه يكمن في استبدال الاتّصال التفاعلي بمفهوم البثّ.

لقد تعوّد الإنسان على تعريف الاتّصال بأنه بثّ معطيات، تبادل معلومات، ولكنه تعريف ينطوي على خطورة. بالنسبة لويفير(١٠٣٦)، وبالنسبة لشانون أحد مؤسّسي النظرية الرياضية للاتّصال، لا يعني مصطلح " معلومة " في نظرية الاتّصال، ما يقال فعلياً، بقدر ما يعني ما يحتمل أن يقال. أي أن المعلومة هي مقياس حريّة الاختيار التي يمتلكها المرء عندما يختار رسالة. فالمعلومة، إذن، ليست رسالة، ولكن صيرورة، ويحدّد تقديرها الكمّي بمعايير تقليص اللايقينية حول جملة من الأحداث المحتملة، المقترنة باحتمالاتها.

غالباً ما يجري صهر أو خلط معنى المعلومة بمعنى الرسالة، وهذا يساوي الخلط بين عملية وشيء. فتلك المعلومة البائسة، على حدّ تعبير فون فويستر(١٠٣٧)، يجري إعدادها وتخزينها واستعادتها وضغطها وكأنها قطعة لحم مهروسة. ويشار فقط إلى أنظمة تخزين المعلومات واستعادتها، كبعض أنظمة البحث والاستعادة البيبليوغرافية، والأنظمة القائمة على الحاسوب إلخ.. إن هذه المجموعات من الوثائق، أي أنظمة لتخزين واستعادة المعلومات، تساوي، بوضوح، تسمية موقف وسائط نقل بنظام لتخزين واستعادة النقل. فبعملية الخلط بين وسائط نقل تحمل معلومات محتملة، مع المعلومات نفسها، تتم موضعة مشكلة المعرفة، من جديد، في النقطة العمياء لرؤية الإنسان الفكرية، وتختفي المشكلة نفسها.

إن المطابقة السائدة والخاطئة بين رسالة ومعلومة تخلق وهماً حول إمكانية معرفة قائمة على بثّ معلومات، والحقيقة أن الأمر يتعلّق ببثّ معطيات بسيطة يجب أن تبدأ، انطلاقاً منها، عملية تقليص اللايقينية التي تسمّى معلومة.

عبر هذا المسار، وفي صيغتها الأصلية، تفتح نظرية المعلومات، الطريق لمفهوم غير بثّي وغير إشاري للغة، وما دامت اللغة تعدّ إشارية، من الضروري اعتبارها كوسيلة لبثّ المعلومات، وكأن شيئاً قد تمّ بثّه من متعضيّ إلى آخر، بشكل يصبح فيه مجال اللايقينية لدى المتلقّي منكمشاً حسب تخصيصات المرسل. ومع ذلك، عندما يتمّ الاعتراف بأن اللغة مفهومية (تتضمّن معاني إضافية) وليست إشارية، وأن وظيفتها هي توجيه الموجّه داخل حقلها المعرفي، بقطع النظر عن الحقل المعرفي للموجَّه، يصبح جلياً أن ليس هناك أي بثّ لمعلومات عبر اللغة. بمعنى محدود، إذن، لا يوجد

(1036) Shanno & Weaver, " The Mathematical Theory of Communication ", University of Illinois Press, 1949, in Vidali, 1998, cit.
(1037) Von Foerster, Observing Systems, 1982, cit, pp. 136-137.

أي نقل للفكر من المتكلّم إلى المتلقّي، فالمستمع يخلق معلومة مقلّصاً لايقينيته عبر اتّصاله التفاعلي ضمن نطاق حقله المعرفي(١٠٣٨).

لماذا يتقاسم الناس، إذن، الوهم بأن الاتّصال هو عبارة عن نقل مفاهيم؟ وإذا كان مقبولاً الكلام عن بثّ معلومات في الحديث العادي، فإن ذلك يحدث لأن مَن يتكلّم يفترض، ضمنياً، أن مَن يسمعه مطابق له وأن لديه، بالتالي، الحقل المعرفي نفسه، لهذا، فإنه يستغرب عندما ينشأ " سوء تفاهم "(١٠٣٩). الواقع أن الاتّصال يعني القيام بإعادة توجيه مستمرّة للعالم الذاتي، وإنجاز عملية إعادة تنظيم معرفية، وإعادة إنتاج علاقات تشكّل الحقل المعرفي للفرد، أي عالمه وبيئته التي تحيط به، والتي، رغم ذلك، تتلاقى مع انغلاقه.

لهذا كلّه، فإن الاتّصال التفاعلي يعدّ إحدى أكثر الاستراتيجيات تميّزاً في تطوّر الوسائل الجديدة. فعندما يتفاعل المتحدّث في اتّصال شخصي عن طريق الهاتف المرئي أو في موقع للواقع الخلْبي، لا أحد يضمن إطلاقاً أن يتحقّق بثّ : إن ما يحدث هو التشويش الصادر عن الوسيلة، على شكل مؤشّرات تظهر على الشاشة، ويتم تلقّي هذا التشويش ومعالجته داخل نظام معلوماتي، من خلال تقليص التنوّع الممكن حسب التشويشات التي يتم التعرّف عليها كمؤشّرات، وتجري قراءتها عبر كود أو لوغاريتم متوافر. وينتج هذا التقليص تبدّلاً في الخلفية المعرفية - للمشترك والموقع - ومن ثمّ ينتج هذا التغيير المعالَج تشويشاً في الوسيلة وهكذا.

ويمكن اعتبار الاتّصال التفاعلي عندئذ، عملية تكيّف مستمر مع الوسيلة، يجري عبر التعرّف على التشويشات كرسائل، من خلال استعمال استراتيجيات تقليص تنوّعية الرسائل، عن طريق إنتاج تشويشات أخرى في الوسيلة.

هذا يعني أن الاتّصال التبادلي ليس خصيصة ممكنة للاتّصال، ولكنه بنية الاتّصال نفسه. ولا تفعل الوسائل الجديدة سوى إبراز هذه البنية.

ثمة سبب آخر يفسّر الاتّصال التفاعلي كتطوّر لمفهوم البثّ، وهو فقدان المرجعية، ويكشف الواقع الخلْبي عريّ المرجع، أي استبداله الانتحالي وبناءه المعرفي وتشكيله الرياضي والتغيير الذي يطرأ عليه من الناحية الاتّصالية. هذا لا يعني التحرك في الفراغ، فالانتحال لا يمحو الواقع، ولكنه يعرضه في علاقة المرء معه، وهو يظهر علاقات المشترك الممكنة مع الشيء وليس الشيء. وهكذا، فإن المحاكاة تفتح الفضاء

(1038) Maturana & Valcra, Autopoiesis and Cognition. The Realization of Living, op. cit. p. 79.
(1039) Ibid., p. 81.

للتفاعل، أي لتفسير العلاقات المختلفة مع العالم، جاعلة تلك العلاقات، وليس عالماً معيّناً مفترضاً، الشيء الحقيقي للاتّصال. إن التحرّر من هاجس المرجعية يسمح ويتطلّب البحث عن قبول اتّصالي، وللاتّصال التفاعلي هذا المعنى بصورة رئيسة.

وهناك سبب ثالث يفسّر أولوية الاتّصال التفاعلي القائم على الوسائل الجديدة. الحقيقة أن الصورة التفاعلية لا تُقرأ، وإنّما تُستجوب ويتلاعب المشترك بها ويتحاور معها[١٠٤٠]. إن الصورة الرقمية لا توجد إلاّ بقدر ما يتم استدعاؤها من جديد، واستجوابها وإعادة بنائها ومعالجتها من قبل الملاحظ[١٠٤١].

قد رأينا أن ثمة شخصنة للواقع الاتّصالي الجديد، غير أن كوشو[١٠٤٢] يتجاوز هذه الشخصنة معتبراً أن الشخص الذي يستخدم الوسائل الجديدة هو السيّد الحقيقي للصورة الرقمية. وهذا صحيح، لأن الصورة الرقمية، وبسبب استجابتها للعمليات التحولية عن طريق المعلوماتية، تتكاثر وتتباين حسب المتطلّبات والتبدّلات الضرورية والرغبات التي بلغت الإدراك. إن الصورة الرقمية قد صنعت من خلال الاتّصال التفاعلي.

• من الإ دراك الحسّي إلى الاحتواء

إن الواقع الخلّبي ليس مكاناً، إنه فضاء يتّصل، إنه فعل وتجربة. وبمعنى معيّن الواقع الخلّبي هو فضاء يجيب ويتبادل الاتّصال بشكل محسوس وإبداعي مع التشويشات الاتّصالية التي يتلقّاها. الفضاء لم يعد مشهداً أخرس تسقط عليه ظلال ممثّلي الاتّصال، ولكنه محاور للأفعال التي ينجزها المسافر الخلّبي.

إن الواقع الخلّبي يموضع المشاركين داخل المعلومة، فالإحساس بمشاهدة صورة يصبح إحساساً بالوجود في مُكان. ويرافق هذا الانتقال إجابة انفعالية. ويبدو أن توحيد الصيرورات الرمزية يخلق شعوراً بالكلّية وبازدياد القوّة. ويتم الانتقال من مشتركين خارجيّين (يمارسون حقوقاً) إلى مشتركين داخليّين (يمارسون مسؤوليات)، ومن ملاحظين إلى ممارسين للتجربة، ومن الوجه لوجه مع شاشة إلى السكن في بيئة[١٠٤٣].

أن يكون المشارك مكاناً، هذا هو معنى الاحتواء الذي وصفه بريكن[١٠٤٤]. إن الإدراك الحواسي بالمعنى التقليدي لم يوصل أبداً إلى هذه النقطة الانخراط والتطابق مع الشيء والانتماء التشاركي كملاحِظ وملاحَظ.

(1040) Couchot, Images. De L'Optique au Numérique, 1988, cit., p. 204.
(1041) Ibid., p. 230.
(1042) Ibid.
(1043) Bricken, Virtual Reality : Direction of Growth, 1992, cit., pp. 28-29.
(1044) Ibid.

لا يمكن التفكير في الاحتواء بدون تحقّق المستوى العالي للاتّصال التفاعلي الذي تنتجه البيئة الخلّبية. إن التواصل مع البيئة الخلّبية هو الذي يحدّد القرب والتطابق نفسه.

لم يكن من الممكن الانتقال من الإدراك إلى الاحتواء لو لم تتم تجربة التطابق بين الوسيط والعالم، عبر إجراءات وسائل الاتّصال وامتداد الاتّصال الجديد.

غير أن الاحتواء لا يمثّل فقط غوص الملاحِظ في العالم الخلّبي، وإنّما يمثّل أيضاً امتداد الملاحظ إلى العالم الخلّبي. إن الخلّبي هو الانعكاس الخارجي لمشاهد الملاحظ الداخلية، ويكاد يكون لباساً يتيح ارتداءً خارجياً لعالم الملاحِظ الداخلي[١٠٤٥].

إن تقوية " المكان الخلّبي " تعيد بعمق ترسيم البنيات المعهودة المفكّر عبرها بالداخلي والتطابقي والعلاقة مع الخارج، إذا أبقى الإدراك على حدود بين المدرِك والمدرَك، فإن الاحتواء يزيلها، منتجاً صورة السكن أكثر من إنتاجه لصورة الإحساس، وصورة الوجود أكثر من صورة المعرفة.

إن التغيّرات الأبرز الناجمة عن " تخصّص " الاتّصال في الوسائل الجديدة، يمكن ملاحظتها سواء من الناحية العملية سواء من الناحية السردية لتجارب الإنسان الاتّصالية، مع تغيّر في المفردات، حيث يعطي مؤشّراً ويحدّد انتقالاً ثقافياً.

نظرية مغلقة للاتّصال

في بيئة الوسائل الجديدة، يعدّ الاتّصال التفاعلي بين الإنسان والآلة الأكثر انتشاراً، فالتمييز بين اللغة والعالم يسير نحو الانقراض، ويخلي المفهوم البثّي للغة المكان لرؤية بنائية للوسيط، ويصبح الواقع الاتّصالي مخصخصاً. ويحاكم الإنسان معلومة فقط لأنه يقلّص توقّعات موجودة سلفاً في الرسائل التي يتلقّاها. من هذه القائمة الهزيلة، يخرج الاتّصال منهكاً، وحيداً ومغلقاً ومتخيّلاً وبنائياً، غير قابل للاقتراب وغير قابل للتواصل. وكأن المرء يسمع بيرانديللو[١٠٤٦] وهو يقول:

مهما عملتم، فإنكم ستعطونني دائماً واقعاً على طريقتكم، حتّى وأنتم تعتقدون، بنيّة صافية، أنه واقع على طريقتي، قد يكون، ولكن بطريقتي التي لا أعرف ولن أعرف أبداً، والتي تعرفونها فقط أنتم الذين ترونني من الخارج. إذن، هي طريقتي بالنسبة لكم وليست طريقتي بالنسبة لي.

(1045) D. Harlow, " Sperimentare Realtà Virtuale ", in Mondi virtuali, Fondazione Fortuny, 1990, in Vidali, 1998, cit.
(1046) L. Pirandello, " Uno, Nessuno, Centomila ", 1927, in tutti I romanzi, Ed. Mondadori, Milano, 1975, pp. 47-48.

فيَ هذا المقطع تختبئ إمكانية، هي إعادة بناء عالم " محلّي " داخل كلّ نظام، أي عالم متأثّر بتاريخ عملياته التميّزية والمغلقة[١٠٤٧].

تعدّدية العوالم وانغلاق اتّصالي : ذلك هو رقم الاتّصال المعاصر، الذي فتح على مصراعيه باب بنائية الوسيط نحو آفاق غير مفكّر بها، ولكنه فعل هذا على حساب التميّيز بين اللغة والواقع، بين الوسيط والعالم. إن اللغة، حتّى تلك المعلوماتية، تستخدم لصنع عوالم " محلّية "، أي مشيّدات ضمن نطاق خصوصية التوقّعات والكفايات التي يتمتّع بها القائم على الاتّصال والتي تبدو ظلالية : فمقدرة الإنسان على معرفة بنائها يمر عبر بناء اتّصالي آخر ومختلف، وإذا وجدت فقط أنظمة مغلقة أو بالأحرى أنظمة تنغلق، كيف يمكن تحقيق عملية الاتّصال؟

لعلّ الوسائل الجديدة تبسّط أكثر من أي بناء اجتماعي آخر، محاولة إرساء اتّصال قائم على الانغلاق بدلاً من الانفتاح.

إذا تمّ قبول أن البناء الاتّصالي يقبع داخل النظام ولديه قائم واحد علىٰ الاتّصال نشيط، يمكن طرح الفرضية التالية[١٠٤٨]:

يمكن اعتباره نظاماً اتّصالياً، ذلك النظام الذي يميّز فيه القائم على الاتّصال بنفسه صنيعة ويعترف لها بالقدرة على إنتاج إشارات وعلى بناء محاكي لذاتها. أي أن الاتّصال يجري ليس عندما يتم التبادل، ولكن عندما يتم الاعتراف بالكفاية الاتّصالية للمحاور وللجهاز التي يقام الاتّصال عبره[١٠٤٩].

إن النتائج المترتّبة على هذا النوع من الاتّصال هي التالية :

١) لا توجد أنظمة تقانية ذات طبيعة اتّصالية أو غير اتّصالية بحدّ ذاتها. فلا

(١٠٤٧) يجري التحدّث عن انغلاق النظام لأنه يجري قبول وجود شخص واحد نشيط بالنسبة لكلّ نظام، ، ولأنه، بالنسبة للنظام، لا يمكن تمييز المستوى المعرفي من مستوى الاتّصال التفاعلي البيني.

(1048) Vidali, 1998, cit.

(١٠٤٩) بتعابير أكثر شكلية، يمكن القول إن هناك اتّصالاً عندما يحدّد القائم على الاتّصال (س ك)، في نظام، الصنيعة (ع ن) كقادرة على أن تصبح هي الأخرى قائمة على الاتّصال، في نظام يعترف فيه (ك) بالصنيعة (ن) كقائمة على الاتّصال. وهناك نظام اتّصالي عندما يميّز القائم على الاتّصال (س ك)، في الوسيط- البيئة، قائماً على الاتّصال (ع ن)، بانياً إيّاه بشكل يستطيع فيه أن يقيم صلة معه، عبر علاقة عكسية : فـ (س ك) في النظام يقابلها (ك) في النظام التحتي، و (ع ن) في النظام يقابلها (ن) في النظام التحتي.

شيء يتّصل بحدّ ذاته. وترتبط الاتّصالية بكيف وبأي قدر، في التميّيز القائم، يفترض القائم على الاتّصال كفاية اتّصالية في الصنيعة.

إن هذا النموذج يتيح أيضاً تفسير صيرورة اتّصالية من ناحية الجهاز. فإذا كان الجهاز يميّز في بيئته قائماً على الاتّصال، أنا على سبيل المثال، يجب أن أبني لنفسي صنيعة قادرة على التفاعل مع محاكي لها. أي يجب أن تفهم تميّيزاً رمزياً – من أي نوع – وأن تفهمه في المستوى الثاني. يمكن القول إذن، إن المحك الحقيقي لتورينغ[١٠٥٠] ليس في التعرّف فيما إذا كان حاسوب أو إنسان هو الذي يردّ على الأسئلة المرسلة من قبل المؤشّر. بل على العكس تماماً : في هذه الهيكلية، نحصل على ذكاء اصطناعي فقط عندما يستطيع حاسوب أن يعرف فيما إذا كان مَن يتفاعل معه، إنساناً أو حاسوباً آخر.

٢) يرتبط الاتّصال بقرار، بالمعنى المزدوج للكلمة، فلكي يتّصل الإنسان يجب إقرار أن شيئاً ما، لسبب ما، يمكن أن يمتلك الكفاية التي يتمتّع بها هذا الإنسان، وأن يبني محاكياً له، ويقرّه ويرغبه ويفرضه. إن اتّخاذ قرار يعني أيضاً التميّيز، داخل نظام، بين ما يعمل ولا يعمل : فالدخول في الواقع الخلّبي والتفاعل فيه هو ثمرة قرار/ تميّيز المشارك، والإبحار في نصّ فائق والتفاعل معه هو ثمرة قرار/ تميّيز للقارئ الفائق.

٣) من الممكن تمثّل اتّصال (الاتّصال التقاني للوسائل الجديدة) كبناء مغلق، أي لا يمكن مراقبة فيما إذا كان " البثّ " ملائماً. في هذا الانغلاق (الذي يعني إقفالاً " closure " وليس إغلاقاً محكماً " closeness ") يكمن السبب الأكثر عمقاً لنموذج اتّصالي جديد، محلّي وتعدّدي ومشخصن لا يجد خارج النظام شروط اتّفاق، ولكنه يستطيع ويجب عليه بناء هذه الشروط عن طريق براغماتي، عبر اتّصال تفاعلي يتلاءم مع التوقّعات التي يمتلكها كلّ محاور حولها[١٠٥١].

(١٠٥٠) وهي العملية التي اقترحها آلان تورينغ للتعرّف على وجود ذكاء اصطناعي. ويعتقد تورينغ أن آلة تستطيع أن تقلّد، بصورة ممتازة، سلوك إنسان لدرجة أن إنساناً آخر يتفاعل معها اتّصالياً لا يقدر على معرفة أن محاوره آلة.

– أنظر : (Turing, 1950, pp. 157-158).

(1051) Luhmiann, 1988, p. 134.

إن السلاسة والطاعة التي يتّصف بها الواقع الخلّبي الذي يقول عنه ديركهوف[١٠٥٢] إنه يستجيب ككلب لإشارة أو لنظرة، لا تفعل سوى جعل ذلك الإغلاق البنائي مرئياً : إن الوسيط الذي يوجد فيه المشارك يمكن أن يطيع أو أن يترافع ولكنه وفي جميع الأحوال يستجيب من خلال العلاقة مع أوامر المشارك. كلّ هذا لا يولّد قوّة لا تقاوم، كما قد يظن البعض بصورة مسطّحة، بل يولّد العكس تماماً، فالضعف الذي يعتري الانغلاق يحول دون إمكانية اعتقاد المشارك بأنه " يمتلك " الآخر اتّصالياً.

٤) هناك طريقة لمعرفة فيما إذا كان شريك اتّصالي قد تلقّى الرسائل المرسلة إليه؟ كلاّ. إن أية محاولة ستكون فقط إعادة بناء داخلية لنموذج التلقّي الذي يعتبر مثالياً.

٥) إن الاتّصال ليس متناظراً. يمكن أن يكون قد اتّصل أحد الشركاء الاتّصاليين والآخر لم يتّصل. وهو اتّصال ليس أسوأ من ذلك الاتّصال الذي يجري عندما يعتقد الشريكان بأنهما قد اتّصلا بصورة فعّالة. في قراءة من ناحية وسائل الاتّصال، هذا يعني إمكانية التعرّف على درجة عالية من التنوّع في السلوك الاتّصالي : إن وضوح المؤشّر وتزيين القناة وتكرار المعطى وسحر الرسالة ليست هي العوامل التي تضمن الاتّصال، وإنّما قرار، ليس مدركاً دائما، ببناء صنيعة يوجد فيها القائم على الاتّصال كمحاكي. وهذا ما يجعل من تجربة معيّنة اتّصالاً.

بالانطلاق من هذه الفكرة حول نظام اتّصالي، فإن مفهوم الاتّصال نفسه هو الذي يحار ويتذبذب وفي النهاية يتوقّف.

إن فكرة بثّية، سائلة ومائية للاتّصال لم يعد لها مكان إذا اعتبر، ليس وجود أطراف في علاقة، ولكن وجود أنظمة تولّد إغلاقها الذاتي من خلال تميّيزات عملية حول ذواتها.

(1052) Derekhove, " Rileggere McLuhan nell'Era del Virtuale ", in fondazione Fortuny, Venezia, 1990, in Vidali, cit.

إن التفكير في اتّصال لا يتطلّب في الوسائل الجديدة مرجعية خارجية، بل يتطلّب فقدان مركزية تصبّ في تواضع إغلاق النظام، ويتطلّب استبدال تصميم بنائي اتّصالي بفكرة البثّية، ويستوجب قبول ظلّية جوهرية للفعل الاتّصالي. ويتطلّب التفكير في الذات كأنظمة اتّصالية فكرة مختلفة عن اللغة، تفهم كعالم وليس كأداة، ويستدعي تعاوناً، وبالتالي مسؤولية مشتركة فعلية في بناء المنتجات الاتّصالية، ويتطلّب الاستعداد للقبول بتغيّير الذات، أيضاً وضد الإرادة الذاتية الواعية، لأن للعبة الاتّصالية رجعات غير مفكّر بها وتنتج تبدّلات غير مشكوك فيها، وتتطلّب، في النهاية، الفكرة الملتزمة بأن النظام يسلك كشريك للاتّصال.

إن أكثر عملية بثّيّة ادّعاءً لا تقرّر البتة نتيجة اتّصال : فقط تغيّير النظام يشهد بحصول الفعل الاتّصالي بشكل عملي. وهذا كلّ ما يتبقّى من الاتّصال : تغيّير يصبح وسيطاً، بيئة معرفية موجّهة بشكل مختلف، تنوّع أكثر ثراء لصياغات ممكنة، إمكانية رسائل مختلفة.

بهذا المعنى، تعمل الوسائل الجديدة بشكل رائع، معدّة بيئات معرفية لا تخطر على بال، مغيّرة بيئتنا بسرعة مدهشة.

ولكن، أيضا هنا لا يتّصل مَن يبثّ، على الأقل لا يتّصل بطريقة إبداعية. يتّصل فقط مَن تغيّر ومَن يقبل أن يغيّره الاتّصال التفاعلي، ومَن خاض تجربة الاتّصال.

وكما يقول فون فويستر[١٠٥٣]: المعلومة هي فقط الطريقة التي تغيّر الإنسان بعد أن ينخرط مع آخر.

نحو نظرية للاتّصال التقاني

من كل ما سبق، تنشأ بوضوح ضرورة حركة مزدوجة : إن تفسير تقانيات بهذه الدرجة من التعقيد والتوزّع من ناحية، شديدة التشابك والتنظيم من ناحية أخرى، يستدعي، بالدرجة الأولى، وصفاً منطقياً ومساراً تعرّفياً وتميّيزياً، قادراً على صياغة تنميط نظري. إن التميّيز بين وسائل التمثّل والاتّصال والمعرفة التي وردت آنفاً، يعني، قبل كلّ شيء، الخروج من القيود التقانية البحتة، بحيث يجري تقسيم وتقطيع

(1053) Von Foerster, 1982, in Ceruti, 1992, pp. 443-458.

الأدوات على أساس الخصائص الجوّانية للبرمجيات والتجهيزات (الأنفورماتيك والتيليماتيك والتلفزة والراديو والهاتف). ويعني تذكّر أن التقانيات تتطوّر كوصلات للفعل الإنساني بمعناه الأوسع[١٠٥٤].

رغم عمومية المصطلحات، فإن التمثّل والاتّصال والمعرفة هي جوانب للفعل التبادلي بين الإنسان وعالمه : وقد يكون من المفيد تبيان أن هذه العلاقة بالذات يتم تطويرها وتوسيعها وتغيّيرها من خلال الوسائل التقانية.

وهناك حركة أخرى تفسيرية، هي تلك التي تعيد التميّيز النمطي إلى الوحدة الاجتماعية التي تعمل فيها هذه التقانيات[١٠٥٥].

الواقع أن المجتمع التقاني يجنح إلى منح نفسه ككلّ متجانس، وكبنية غير متناقضة. يجب فهم كيف يحتمل أن يكون ذلك ممكناً، وأية فرضيات نظرية يمكن أن تبنى على هذه القاعدة.

* * *

(1054) Bettetini, " Tecnologia e Informazione ", Ed. Bompiani, Milano, 1998, 39.
(1055) Ibid. p. 40.

الفصل الخامس

الواقع الخلّبي والمجتمع الإنساني

تمهيد

للواقع الخلّبي، في الحقيقة، وضعه الغامض من حيث المعنى، الذي يمثّل، في ذات الوقت، شيئاً خيالياً، مصمّماً ومنتحلاً، أو إدراكاً حسّياً واقعياً تمّ الحصول عليه بطرائق اصطناعية، أو علاقة بين أطراف بعيدة لها هويّات اصطناعية، أو أشياء أخرى كثيرة في سياقات تقانية وسيكولوجية وفنّية شديدة الاختلاف. والحقيقة أن الواقع الخلّبي هو فائض أو إضافة في كلّ شيء[١٠٥٦].

لا شك أن هذا الموضوع لا يتعلّق بزيارة سياحية ترفيهية في متاهات الخلّبي، وإنّما في طرح تساؤل فيما إذا كان الواقع الخلّبي يغني الواقعي أو يمتزج فيه أو يطرح نفسه كبديل له أو يعلن عن أزمته.

لا يوجد أي شيء حيادي فيما يعمله ويخترعه ويجرّبه الإنسان! لا شيء يمكن أن يترك الأمور كما هي. ولذلك، فإن الإنسان المعاصر يجب ألاّ يتخلّى عن إصدار حكمه حول ما إذا كان هذا الأمر مفيداً أو غير مفيد، وحول ما إذا كان من الضروري تصعيده أو تحديده، و ما إذا كان على الإنسان أن يستسلمْ له أو أن يمارس تجاهه كلّ نقديته، مهيّئاً دفاعاته جميعاً[١٠٥٧].

(1056) J. Jacobelli, " La Realtà del Virtuale " , Ed. Laterza, Roma – Bari, 1998, p. VII.
(1057) Ibid.

حالة الخلّبي

الواقع الخلّبي، كما سبق ذكره، هو جملة من المعدّات والتقانات التي تسمح للمستخدِم في أن يعمل بشكل تفاعلي وبزمن واقعي داخل بيئة خلّبية أوجدها الحاسوب.

إن التطبيقات الأكثر إثارة للاهتمام للواقع الخلّبي تتطلّب توزيعاً آنياً على عدّة مستخدِمين، يتفاعلون فيما بينهم في زمن واقعي، رغم وجودهم في مناطق جغرافية مختلفة[١٠٥٨]. فخدمات الاتّصال التعدّدي التفاعلي عبر الأقمار، تتيح إمكانية تبادل، في زمن واقعي وحسب الطلب، كمّيات هائلة من المعطيات والصور عبر قنوات متّسعة الأشرطة. وتجري أهم خدمة تعدّدية الاتّصال ومتاحة من خلال تقانيات الأقمار، داخل شبكة الإنترنت التي تسمح، بتطبيقات قاتلة، تسفح دماؤها على مذبح الانتشار التجاري للواقع الخلّبي[١٠٥٩].

هناك تطبيق آخر مهمّ، ذو طابع مهني، يتجلّى في الإنترانت(intranet) عبر الأقمار. وتطرح هذه الخدمة نفسها كبناء هيكلي مرجعي لنظام المعلومات الكامل في الشركات، على أساس علاقة بين داخل وخارج. ويمكن اعتبار الإنترانت كشبكات خاصة/ خلّبية[١٠٦٠].

تطوّر تقانيات الخلّبي

إن التطوّر التقاني وتسريع صيرورة العولمة في السنوات القليلة الماضي، نتيجة تطوّر أنظمة وشبكات الاتّصال الرقمي، أخذا يبدّلان، جذرياً، حياة الإنسان، إذ يمارسان تأثيرات عميقة على إدراكه للعالم الذي يحيط به. ذلك أن إدخال تقانية جديدة يجري إسقاطها في عالم اصطناعي وافتراضي هو، في الحقيقة، إسقاط الواقع في بُعد جديد لم يكن معروفاً من قبل[١٠٦١].

عبر انتشار التقانيات الرقمية للاتّصال التعدّدي، سواء من خلال الإنترنت أو الأقمار الاصطناعية أو أي حامل آخر يسمح بتعميم مضامين اتّصال تعدّدي تفاعلي، يخوض الإنسان تجربة جديدة للخلّبي تفتح آفاقه نحو تطوّر للواقع، يمكن أن يميّز تأثيراته السلبية وتلك الإيجابية.

(1058) G. Berretta, " Lo Stato del Virtuale ", Ed. Laterza, Roma- Bari, 1998, p. 9.
(1059) Ibid.
(1060) Ibid., p. 12.
(1061) A. Arcidiacono, " Una Pericolosa Accelerazione ", Ed. Laterza, Roma, 1998, p. 3.

ثمة ثلاثة عناصر تمايز بين ظواهر حالية تتطوّر وظواهر مرتبطة بمستجدّات كبيرة سابقة[١٠٦٢]:

العنصر الأوّل يكمن في أن الأبعاد التجديدية للظاهرة أصبحت تهمّ ملايين بل مليارات الناس في ذات الوقت. ولكن لا بد من التشديد، في هذا المقام، على طابعها غير العالمي، ذلك لأن هناك جماعات إنسانية تفيد من هذه التقانيات بشكل فوري، في حين أن جماعات أخرى في مناطق أخرى من العالم لم تلامسها الظاهرة إطلاقاً حتّى الآن[١٠٦٣]. ويتجلّى العنصر الثاني في وجود هذه العوامل التجديثية التي تسهم في تسريع تطوّر من الصعب توقّع حدوده في المستقبل المنظور. إنها أدوات الاتّصال والمعرفة نفسها التي تسمح لعناصر تجديدية وإبداعية، عبر تموضعها داخل ارتباطات كوكبية، بأن تدعم هذا التطوّر وتغنيه في زمن واقعي. غير أنه، وعلى جانب آخر، يجب ألاّ يتمّ تنظيم هذه التقانيات من قبل جهات هدفها الوحيد تثبيت شروط هيمنتها الاقتصادية.

أمّا العنصر الثالث فيكمن في صعوبة تحديد الحاجز الذي يفصل الواقع عن الخلّبي، أو بالأحرى صعوبة تمييز الواقع عن عمليات إسقاطه الخلّبي ظاهرياً. على أية حال، بدأت تصبح عادة التحقّق من الواقع عبر الاستعانة بالخلّبي، جزءاً لا يتجزّأ من تجارب الإنسان اليومية.

في سياق آخر، يمكن القول إن الدعوة إلى التفكير في الواقع الخلّبي. تجد استجابة لها من خلال مستويين مفهوميين[١٠٦٤]: يتعلّق أولهما بالرائز الاجتماعي الحقيقي على التقانيات الخلّبية، وبالتالي، التساؤل حول الأهمّية السوسيولوجية الحالية لمعدّات وإجرائيات تطرح نفسها بقوّة، أيضاً على أساس إمكاناتها المستقبلية وتطوّرها التخطيطي وأسواقها الخيالية (fictionmarketing) وطوباويتها. ويتّصل المستوى المفهومي الثاني بالعلاقة الجدلية بين عوالم وتجارب حقيقية ونظائرها الخلّبية التي أنشأتها التقانيات.

إن الشبكة التي تعدّ مكاناً امتيازياً للسوق الخيالية، هي، في الحقيقة التقانية الخلّبية الأكثر واقعية، ذلك أن إلقاء نظرة متحرّرة من الافتراضية، على الخلّبي، من المحتّم أن تفضي إلى التقارن مع الإنترنت كبيئة أساسية للتجربة المعاصرة في مجال الخلّبي.

(1062) Ibid., p. 4.
(1063) Ibid.
(1064) Bettetini, " Internet ", Ed. Laterza, Roma, 1998, pp. 16-21.

تعدّ الجدلية بين الواقعي والخلّبي، إذن، مسألة مركزية، إذ إنها ترتبط ببناء فضاءات افتراضية وبتشابك علاقات شبه- اجتماعية، وبإدارة تدفّقات من المعلومات والسلع تمتلك طبيعة مادّية ورمزية معاً، وتستوجب مقدرة مستمرّة على الدخول والخروج من هذين البُعدين.

لا شك أن نجاح الإنترنت يكمن في الضغط الذي تمارسه، مجتمعة، عناصر مختلفة تجنح نحو تصعيد التبعية المتبادلة بين عالم واقعي وعالم خلّبي.

هذا يعني أنه بدلاً من الدفع في اتّجاه عالم آخر قائم على عوامل منطقية مستقلّة وقوانين خاصة به، حيث كلّ شيء ممكن ومتاح، عالم يقطنه سكّان يتمتّعون بوجود تركيبي مليء بملايين العقد والأنسجة الصناعية التي تتألّف منها الشبكة، من الأفضل أن تتطوّر الشبكة، بنيوياً وإدراكياً، كخريطة رقمية كبيرة للعالم الواقعي، حيث يتمّ تصميم نسخ عن الأشخاص والمؤسّسات والقوانين والمصالح والتفاعلات الواقعية، تشكّل محاكياً خاصاً بها يجري وضعه على الطرق المعلوماتية السريعة[١٠٦٥].

بهذا الشكل، تكتسب أهمّية الرؤية الخلّبية، أي الرؤية داخل سيرورات محرّكات البحث، داخل السلاسل الارتباطية في الهيكل المعماري للموقع.

من هذه الناحية، يتعلّق الأمر بخريطة لا تعكس الأحجام الواقعية. فالدمقرطة التي تبنيها الشبكة هي، قبل كلّ شيء، شكلاً لديمقراطية الفضاءات : فموقع مؤسّسة حكومية مهمّة يحتلّ ذات الوزن الخلّبي لأقلّ مؤسّسة في آخر قرية.

إن التحرّك الاستراتيجي للمؤسّسات في العالم الواقعي على شكل إدارة فضاءات، يقابله التحرّك التكتيكي ذو الطابع الزمني، للأفراد والجماعات، في عالم إنترنت الافتراضي. ويترجم عدم التمايز الزمني في تساوي إمكانية كلّ طرف في بناء وتأثيث فضاءاته، بقطع النظر عن شروطه الواقعية من حيث الأدوار والسلطة والنفوذ.

من جهة أخرى، تهدف هذه القابلية للرؤية إلى ترجمة الاتّصال التفاعلي في العالم الخلّبي إلى اتّصال تفاعلي واقعي، ولذلك، ليس المهمّ خوض تجربة انتحال مطلق بشكّل غاية في حدّ ذاتها، بل المهمّ جنوح الشبكة، أكثر فأكثر، إلى تيسير الاتّصالات التفاعلية الواقعية، عبر حلولها محلّ أو عبر تكاملها مع وسائل الاتّصال التقليدية.

أما من ناحية مصطلح الوسيط، الذي يحيل، حسب بيتيتيني[١٠٦٦]، سواء على

(1065) Ibid.
(1066) Ibid.

طبيعة البيئة، سواء على طبيعة القناة، فإنه يلائم تماماً الإنترنت باعتبارها خريطة تعدّدية الأبعاد، أو ضرباً من الأحواض المائية التي تنعكس داخلها آلاف الأطراف المتحرّكة خارجها، والتي تنتهي، عبر إتاحة الاتّصال التفاعلي بين صورها المنحرفة، إلى التفاعل فيما بينها. إن خلّبية الشبكة تكمن، إذن، في قدرتها على تقديم نفسها كمرآة محرّفة للواقع.

أما فيما يتّصل بالقوّة الديمقراطية للشبكة، فإنه حول هذا الموضوع بالذات يتمظهر، بصورة ملينة، هذا الغموض. فمن جهة، تقدّم الشبكة فرصة خلق نسخة خلّبية للأشخاص الذين يختارون طريق الرؤية عبر الإنترنت، وتمتاز هذه الازدواجية بجميع خصائص ما يطلق عليه روجيه كالوا التنكّر بثياب مختلفة، يؤدّي إلى فكرة تشويه الهويّة الأصلية، وخلق هويّة مستقلّة ومنتحلة. من جهة أخرى، تستجيب هذه الظاهرة لصيرورية أكثر عمومية لتفتّت الذات، التي تنتمي إلى السياق الاجتماعي الذي تتطوّر فيه الشبكة وترتسم كشكل من الأشكال التي تتحقّق من خلالها العلاقات الاجتماعية، إذن، لا ترتسم الشبكة كجماعة خلّبية، ذات مرجعية ذاتية مفتقدة لأي صلة مع الواقع، ولكنها ترتسم كفرصة لتطوّر تدفّقات اتّصالية وعلاقات عميقة التشابك مع النسيج الواقعي الذي تتموضع داخله[١٠٦٧].

لهذا كلّه، فإن استخدام الشبكة يعني استعمال وسيلة أكثر فعّالية وأكثر مرونة وأكثر اقتصادية، وأحياناً أكثر سرعة من وسائل الاتّصال التقليدية.

إن الشبكة التي تعدّ وسيطاً مرتكزاً إلى الفضاء، يبرز ارتكاسات بُعده الخلّبي عبر نشوء مجتمعات وفرديات ومجموعات موجودة في الواقع، غير أنها تجد مبرّر وجودها في الحضور الخلّبي أي في المرئي داخل الشبكة[١٠٦٨]. وبهذا الشكل، فإن الواقعي والخلّبي يتمظهران، أكثر فأكثر، كبعدين يتبادلان التفاعل وليس كبعدين متصارعين[١٠٦٩].

كلّ ذلك يعني أن الخلّبية ليست أبداً عالماً مزيّفاً وخيالياً، وإنما هي، على العكس، دينامية العالم العادي الذي يتقاسم الإنسان، بفضله ومن خلاله، واقعاً معيّناً مع الآخر[١٠٧٠]. وكما النمل والسمك الذي لا يعرف حقيقة أو زيفاً بل آثاراً فحسب، فإن الخلّبي لا يحتوي إطلاقاً البعد المزيّف، بل هو بالضبط شكل الوجود الذي تولد منه سواء الحقيقة سواء الخيال[١٠٧١] .

(1067) Ibid.
(1068) Ibid.
(1069) P. Lévy, " Il Virtuale ", Ed. Bompiani, Milano, 1997, p. 140.
(1070) Ibid.
(1071) N. Candalino, La Realtà del Virtuale, " Indosseremo il Computer "., 1998, pp. 23-27.

أمام الصورة الرقمية، يجد الإنسان نفسه على عتبة تشابه خلّبي مفارق، إذ لكي تصبح الصورة الرقمية راهنة وبالتالي حقيقيّة بصرياً، يجب أن تكون قبل كلّ شيء حقيقيّة بالنسبة لعقل من يراها، لذلك، فإن العين، في هذه الحالة، تغدو ثانوية بالمقارنة مع العقل[١٠٧٢]. وهذا كلّه لأن للصورة بعداً تبادلياً يتطلّب، بالإضافة إلى الرؤية، أيضاً اللمس والتحريك. وبهذا الشكل، فإن الصورة الرقمية قادرة على الإجابة على من ينظر إليها، وهي في حالة حوار مع المشترك الذي يتلاعب بها[١٠٧٣].

جميع هذه الصور والأصوات تمتاز بأشكال متغيّرة ومتحركة، إنها أشكال خلّبية ولكن التشابهية تضفي عليها لمساتها. والحقيقة أنها خلّبيات اتّخذت طريق التركيبيّة الواقعية حيث المؤثّرات الخاصة تبدو دوماً أكثر استتاراً، خفيّة وشبيهة بأشكال الواقع. وهكذا، يجري اللعب بين التشابهية والرقمية عبر رهان الوجه لوجه[١٠٧٤].

مَفْهَمَة الواقع الخلّبي

ثمة إنتاج فكري غني، في العديد من المجتمعات المتقدّمة، يتضمّن مفاهيم نظرية عامة، اجتماعية وفلسفية، حول الحضور المتصاعد للواقع الخلّبي وآليات تأثيراته على الحياة الماديّة والعقلية للإنسان المعاصر، وهي تنصبّ جميعاً على محاولة رسم ملامح ومعالم لمستقبل هذا الإنسان في خضم تشابك وتمازج، لا هوادة فيه ولا انقطاع، بين " حقائق" واقعية و" حقائق " خلّبية غدت جزءاً لا يتجزّأ من الحياة الإنسانية اليومية.

وكما هو طبيعي ومتوقّع، فإن عملية مفهمة تأثيرات الواقع الخلّبي على تلك المجتمعات، تنطلق من قناعات فكرية وسياسية وعقائدية متعارضة، وتتناول الظاهرة الاتّصالية الجديدة من جوانب مختلفة، مبرزة جوانب سلبية وأخرى إيجابية وثالثة تجمع بين الإيجابية والسلبية، في مرحلة تخوض فيها البشرية انعطافاً حاسماً وغير مسبوق نحو حقبة جديدة لتقانيات الاتّصال الإنساني: .

في مقاربة تستخدم موسوعات معرفية تقليدية، يقول رينغولد[١٠٧٥] إن واقعيّة متلقّي الخلّبية تمعن في تثبيت فكرة السيطرة على الشيء، منتزعة منه إمكانية أن يكون مختلفاً عمّا هو عليه، معطية، في المقابل، الوهم بأن إبراز الاصطناعي من شأنه أن يحلّ محل التوق إلى الانعتاق من الواقع القسري. إن الواقعيّة الساذجة لممارسيّ الواقع الخلّبي، تروّج، من موقع تبعيّة، لأخبث أنواع الواقعيّة التي تتبنّاها

(1072) Ibid.
(1073) Ibid.
(1074) Ibid.
(1075) H. Rheingold, " Virtual Reality ", New York, 1992, 48-50.

تلك الشركات التي تسعى، من خلال استثماراتها في مختبرات البحث حول الواقع الخلّبي، إلى تثبيت هيمنتها على عالم الاقتصاد، ومن خلاله، على عالم الأشياء.

وضمن ذات الموسوعة المعرفية يرى ريفيللي[١٠٧٦] أن الواقع الخلّبي قد أدخل، مجدّداً إلى الواقع، التوق إلى واقع آخر، ولكن على شكل انتحال ومحاكاة ساخرة، فمع الواقع الخلّبي يوضع من جديد، داخل الواقع، ذلك البُعد المخادع الذي تمّ تركه على هوامش العمليّة الإنتاجية الفوردية (نسبة إلى فورد الأمريكية)، لكي يصبح، بالضبط كما العلاقات غير الشكلية للوقت الحرّ التي دخلت حقل الإنتاج، تابعاً هو الآخر لهيمنة الإنتاج، إضافة إلى التأثير الذي يمارسه الإدراك الحسّي في إمكانية خلق " عالم جديد " خلف ذلك العالم المتقاسَم بصورة قسرية.

وفي السياق نفسه، يعتقد بودريار[١٠٧٧] أنه إذا كان الواقع قد استسلم أمام التلفزة، فإن الوجه لوجه أمام الحاسوب، والذي يستخدم ليس فقط لتوليد أمكنة خلّبية وإنما أيضاً لتزويد الجسم الإنساني باستطالات معطياً إيّاه امتدادات رقمية يدخل عبرها إلى الشبكات الإلكترونية، قد خلق عالماً موازياً حيث يدخل هذا الإنسان ويخرج دون أن يلاحظ انقطاعاً. وأنه إذا كان الفضاء الواقعي لمكان كان قد قطعه بالأمس فضاء شاشة التلفزة التي كانت تمتص كلّ الانتباه السلبي للمشاهد، فإن الفضاء السّبراني الذي تتواجه من خلاله مونيتورات الحاسوب، ينتظر المشترك بكلمات عبوره التي بفضلها، ودون أن يدرك، يترك جسمه أمام شاشة الحاسوب ويشرع في اختراق الشبكة بهويّة جديدة تماماً مرسومة حسب متطلّبات الحياة على الهواء (on-line) .

ومن المنطلق نفسه، يرى دي كارلي أن التقانيات الجديدة أخذت تنتج، ليس تمثّلاً رقمياً للعالم فحسب، بل عالماً موازياً أيضاً[١٠٧٨].

أما ديريدا[١٠٧٩] صاحب النظرية التفكيكية، فإنه يرى أن الإنسانية تعيش حقبة الأشباح، بل حقبة الأشباح من الدرجة الثانية أي أولئك الأشباح الذين يستدعون أشباحاً آخرين يعيشون داخل الشبكات الإلكترونية الكوكبية، وأن المستقبل ينتمي إلى هؤلاء الأشباح على اختلاف أنواعهم وأشكالهم.

وفي مقاربة نظرية مشابهة، يعتقد فيراروتي[١٠٨٠] أن الاتّصال الإلكتروني

(1076) M. Revelli, " La Sinistra Sociale. Oltre la Civiltà del Lavoro ", Ed. Eri, Torino, 1997. p. 15.
(1077) J. Baudrillard, " Le Crime Parfait ", Ed. Ed. Flammarion, Paris, 1995.
(1078) Ibid.
(1079) J. Derrida, " Ecografia della Televisione, Ed. Bompiani, Milano, 1997, p. 66.
(1080) F. Ferrarotti, " Addio Uomo ". Ed. Laterza, Roma, 1998, pp. 65-70.

الخدمي، في أشكاله التلفزية وفي أشكال أخرى من بينها الواقع الخلّبي، يستدعي مشاهد ومخاطر جسيمة، لأن مفهوم الفرد ككيان مستقلّ نسبياً أصبح في مهبّ الريح، ولأن مفهوم المسؤولية الفردية كتجربة شخصية معاشة بصورة متناغمة، قد أصيب في مقتل بفعل التقانيات الاتّصالية الجديدة التي تسعى نحو هدف وحيد هو استعادة المرسل لحريّة القرار الفردي من المتلقّي، وذلك عبر إدارة شخصية للبرامج والدورات البرامجية يقوم بها المرسل، ولكن ليس بشكل أحادي وتسلّطي كما التلفزة المعمّمة القديمة أو التلفزة الموضوعاتية، وإنّما بصورة شخصانية تجعل المتلقّي يعتقد، بشكل وهمي وغير واعٍ بأنه يتّخذ القرار بنفسه مرّة بعد مرّة، معطياً إشارة البدء لصيرورة يطلق عليها المستقبليون القائمون على خدمة أسياد وسائل الاتّصال، الظاهرة الصحية " لنزع صفة الجماهيرية عن المجتمع الجماهيري ".

ويعبّر فيراروتي عن قلقه من نهاية الفرد العقلاني والواعي نسبياً[(١٠٨١)]، لأن الخلط، بصورة منتظمة، بين الواقع الخلّبي والواقع الواقعي، يفضي إلى ذوبان الوعي وعدم قدرته على التمييز بين " الداخل " و " الخارج " بين " الأعلى " و " الأسفل "، بين الوجود الفعلي والوجود غير الموجود، بعبارة واحدة، بين الحدود وفقدان الحدود أو اللاحدود. ويرى فيراروتي أن هذه الصيرورة تؤدّي إلى تفتيت الشخصيّة الإنسانية تحت ذريعة إغنائها، وهو إغناء لن يلبث أن يسفر عن كونه اصطناعياً ووهمياً، لأن تقانيات الاتّصال الجديدة التي يعلن عنها اليوم بصيحات انتصار عارمة، لن تمرّ بشكل مجّاني وبدون ألم سوى بالنسبة لصنّاع حواملها التقنية. ويتساءل فيراروتي في نهاية تحليله : هل نحن مستعدّون لاستبدال الإنسان الحسّي (homo sentiens) بالإنسان العاقل (homo sapiens)؟

في نظرية المشعرات الاجتماعية (social cues) التي صاغاها، يقول سبزول وكيسلر[(١٠٨٢)] إن الاتّصال عبر الحاسوب يؤدي إلى غياب أو إلى تقليص " الإشارات الاجتماعية " إلى أدنى حدّ، وهي إشارات تحدّد السياق الذي يجري الاتّصال في إطاره، وهذا ما يجعل الاتّصال الإلكتروني يجري في فراغ اجتماعي، ولذلك، فإن الاتّصال الإلكتروني هو اتّصال يحدث في بيئة مجرّدة من السياق، وهو أمر له جانب إيجابي يتجلّى في زوال الارتباك، ولكنه يحمل في طيّاته جانباً سلبياً مهمّاً يتبدّى في عدم المسؤولية.

(1081) F. Ferrarotti, " Homo Sentiens ", Ed. Liguori, Napoli, 1995.
(1082) L. Sproull & S. Kiesler, " Connections ", The Mit Press, Cambridge, Mass, 1991, p. 104.

ولقد أوردت أبحاث عديدة[(١٠٨٣)] أن الفضاء السبّراني يفتقر إلى السياق الاجتماعي بأنظمته وقواعده، حيث يسكن الإنسان عتبة بين الواقعي والخلّبي، غير واثق أين يضع قدميه، مرغم على الاختراع والاستنباط أثناء الإبحار في الواقع الخلّبي.

وفي إطار مقاربات أكثر اعتدالاً وموضوعية، يبرز لانغ كمحلّل راصد وملاحظ متعمّق، إذ يقول[(١٠٨٤)] إن المستقبل، لا محالة، سيؤسّس على عولمة السوق، وفي الوقت نفسه، على ازدياد الخصوصية والتميّز في أسلوب الحياة، أي التوجّه نحو قيم مثالية معيّنة في جميع الشرائح العمرية، لأن المتطلّبات الفردية لمختلف المجموعات الاجتماعية تذهب في اتّجاه التنوّع الذي يفضي إلى مزيد من تفتّت العلاقات الشخصية. ولذلك فإن الصيرورة - حسب لانغ - لا تتّجه فقط نحو العولمة بل نحو المحليّة القائمة على اختلافية أسلوب الحياة الناجمة عن تباين حاجات المجتمعات الراهنة. ويطلق لانغ على هذه التناقضية التساكنية مجتمعات العولمحليّة (Global-Local).

في ذات الاتّجاه، يعتقد فاريلا[(١٠٨٥)] أن خوض تجربة ما يسمّى الواقع الخلّبي، يؤدّي إلى تعلّم الإنسان أن جسده ليس شيئاً يتحرّك، إلى الأبد، في فضاء محدّد، وإنّما هو جسد يولّد بذاته الإدراك الحواسي للفضاء على قاعدة تاريخه الداخلي.

ويعتقد فاريلا[(١٠٨٦)] أن الألفة مع الواقع الخلّبي تبيّن بجلاء حقيقة أن الواقع ليس هناك، خارج الإنسان، وليس قابلاً للتعرّف عليه مباشرة، وإنّما هو الحامل الذي لم يتم أبداً تحديده لصيرورة مستمرّة من الاتّصال التبادلي بين ما هو معروف من قبل وما هو جديد، بين ما يرد عبر الحواس والفئات المعرفية المكوّنة مسبقاً.

أيضاً ديكيركهوف[(١٠٨٧)] يعتقد أنه على الرغم من أن الواقع الخلّبي يبدو للبعض طريقاً للهروب من شرط يتحكّم به الآخرون، فإن هذا الخلّبي يعدّ تسلسلاً حدثياً يمكن التسامح معه اجتماعياً في سبيل تحقيق التطلّع الواقعي نحو شرط إنساني متحرّر من مسارات المتطابق، كما هو الحال في مجتمع عروض المشاهدة.

(1083) E. Wynn, J. Katz, " Hyperboleover Cyberspace ", in The Information Society, n° 13, 1997, pp. 297-328.
(1084) B. P. Lange, " Local / Global ", in Technology Review, n° 99-100, 1997, in Gamaleri, Ed. Laterza, Roma, 1998, p. 77.
(1085) F. Varela, " The Embodied Mind. Cognitive Science and Human Experience, Boston, 1991, in " La Via di Mezzo della Conoscenza, Ed. Bompiani, Milano, 1992, p. 50.
(1086) F. Varela, " Un Know-how per l'Etica ", Ed. Laterza, Roma-Bari, 1992, p. 69.
(1087) P. De Kerckhove, " The Skin of Culture ", Toronto, 1995.

ومن المنطلق الفكري نفسه، يرى دي كارلي[١٠٨٨] أن الفضاء السّبراني هو نصّ وأن وجود الإنسان هو نصوص من بين النصوص الأخرى. ويشبّه دي كارلي الإنترنت بفلك لوتمان[١٠٨٩] السيميولوجي، وهو ذلك المكان ذو الخصائص الإنسانية والذي تتم التشكيلات الثقافية في إطاره، حيث يغوص الإنسان في فضاء سيميولوجي ويصبح هو نفسه جزءاً منه، ذلك لأن فصل الإنسان من فضاءات اللغات والعلامات والرموز هو أمر مستحيل كما عملية سلخ جلده عن جسده.

إن الفلك السيميولوجي الذي يحيط بالإنسان هو الذي يسمح له بالتفكير في الواقعي والخلّبي بطريقة غير متعارضة[١٠٩٠]. ويكرّس دي كارلي اعترافه، مع باختين وبارتز، بالطبيعة النصّية لوعي الإنسان، إذ يقول إنه عبر الإبحار على الهواء في الإنترنت أيضاً، حيث الوجود نصّي فحسب، تبزغ ذاتية الإنسان من خلال تفاعل نصوص مع نصوص أخرى، وإنه إذا كان الوجود الإنساني في الفضاء السّبراني. حيث يخترق الخلّبي الواقعي الذي يمتصّه بدوره لكي لا يتيح إمكانية التفكير به بشكل مختلف عمّا هو عليه، يتمتّع بخصيصة الاصطناعي في الشخصيات الروائية، فإنه من السذاجة بمكان الاعتقاد بأن عملية إغلاق الحاسوب تكفي للعودة إلى أن يكون الإنسان مختلفاً، ذلك لأن التجربة التي خاضها على الهواء تخترقه بعمق يساوي عمق اختراق المُعاش الواقعي.

ويتناول توفلير[١٠٩١] بعداً مهمّاً من تداعيات الواقع الخلّبي. موضّحاً أن ثمة ازدواجية في تقانيات الاتّصال الجديدة، هي ازدواجية المستهلك/ المشارك (consumer-prosumer) ذلك أنه إذا كانت المسيرة المعرفية حتى المرحلة الحالية للإنسانية تكمن في التموّن بالمعلومات، حسب المنطق القديم للإنسان الصيّاد للفريسة أو للمعرفة، فإن التأمّل والفعل يكمنان اليوم في القدرة على طرح الأسئلة الصحيحة، الملائمة لحاجات الإنسان ومصالحه الفعلية، على بيئة خلّبية تتضمّن جميع الأجوبة المتراكمة من خلال تجارب كلّ البشر في كلّ الأزمنة. ويؤكّد توفلير أن التحدّي لا يكمن في صنع أجوبة، بل في طرح الأسئلة الصحيحة، وفي إعادة بناء مراحل ماضٍ تمّت قراءته عبر تصالب نماذج مختلفة للاتّصال الإنساني، مع الثقافات المتباينة التي نجمت عن كلّ

(1088) L. De Carli, " Internet, Memoria e Oblio ", Torino, 1997.
(1089) J. Lotman, " La semiosfera. L'Asimmetria e il dialogo nelle Strutture Pensanti ", Venezia, 1985, in De Carli, " Il Senso della Possibilità ", Ed. Laterza, Roma, 1998, pp. 46-54.
(1090) J. Lotman, " Cercare la Strada. Modelli della Cultura ", Venezia, 1994, in De Carli, Ibid.
(1091) A. Toffler, in Gamaleri G., Le Ambivalenze d'Oggi, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1998, p. 80.

نموذج. غير أن ذلك يتطلّب - حسب توفلير - تغيّراً في العقلية، لأن المستهلك يفقد خواصه السلبية البحتة ليصبح، شيئاً فشيئاً، عنصراً فاعلاً في النظام، أي أنه، بتعبير آخر، يتحول من مستهلك إلى مشارك تربطه علاقة منفعة شخصية مع وسائل الاتّصال التي يتعامل معها.

في الستينيات، أكّد العديد من المفكّرين في الغرب الأوروبي أن التلفزة قد حقّقت التوحيد اللغوي للدولة الوطنية، وهو هدف فشلت في تحقيقه الوحدة السياسية - الإدارية، ويعتقد غاماليري[١٠٩٢] أن هذه الوحدة تتحقّق الآن على صعيد كوكبي، من خلال تحرك صيرورة تناقضية هي الصيرورة الاختلافية، التي تتزايد تدريجياً، ليس عن طريق عمليات الأدلجة الإعلامية وإنّما عن طريق الحوار الاتّصالي التفاعلي. وتجسّد تلك الصيرورة المتسارعة تعايشاً بين منطق التطابقية ومنطق الاختلافية، حيث يغدو كلّ منهما جزءاً من النظام.

أما جاكوبيللي[١٠٩٣] فإنه يوسّع إطار المَفْهَمة في مقاربة نظرية لا تشوبها انفعالية، حيث يقول إن التأمّل في الواقع الخلّبي يجب أن يترافق مع التأمّل في الواقع الحالي، بمعنى ضرورة تمثّل وتفسير الخلّبي كأسلوب جدلي خاص للواقع الذي نعرفه. ويعتقد جاكوبيللي أن الجهد المعرفي الحقيقي أي ذاك الذي يقود إلى جذور المعرفة، لا يكمن في التجذرية بل في النسبوية. ولكي يحدث ذلك، فإن انتقال الخاصيّة الدلالية الأصلية يجب أن يتم تناوله وأن يوضّح في صيرورة الخلّبي نفسه.

انطلاقاً من هذا التأسيس المفهومي، يرى جاكوبيللي في الخلّبي ذلك الجزء من الواقع الذي يخضع لوساطة إضافية بالمقارنة مع الوساطات التي سبقته، وأن هذه الوساطة الإضافية بالذات هي التي توقع الإنسان في وهم أن هذا الجزء من الواقع يتموضع خارج الواقع.

ويؤكّد جاكوبيللي أن الواقع الخلّبي أضاف مكاناً جديداً إلى مائدة الاتّصال، متيحاً أسلوباً جديداً في التمثّل، يتجلّى ليس في تمثّل الواقع، وإنّما في تمثّل التمثّلات السابقة. ولذلك، فإن الواقع الخلّبي يتجسّد فقط عندما يحتوي لا عندما يستبعد الواقع الآخر.

ويستكمل كارليني[١٠٩٤] هذا التحليل، إذ يقول غالباً ما يشار إلى الخلّبي كشيء مزيّف وغير مادّي، وبالتالي كشيء مخادع وخطير، والواقع أن هذا الموقف ليس مرائياً فحسب، بل هو سطحي أيضاً إذ يعود إلى التعارض التقليدي بين الحماس غير

(1092) Gamaleri, Ibid. p. 82.
(1093) G. Jacobelli, " Una Mediazione in Più ", Ed. Laterza, Roma, 1998, pp. 91-97.
(1094) F. Carlini, " Un Plus di Realtà ", Ed. Laterza, Roma, 1998, pp. 34-39.

النقدي والخوف غير التأمّلي أمام التقانيات الجديدة، وهو في الحقيقة، ذلك الجدل المعروف بين الحداثة وما بعد الحداثة. في الحالة الأولى يلاحظ وجود اتّجاهات عقلية قليلة الفائدة، لأن التفاؤل والتشاؤم يستنكفان، نتيجة المقاربة السطحية، عن ممارسة الفكر النقدي. وفي الحالة الثانية تجري محاولة إخفاء حقيقة أنه في هذا الضرب من عولمة الخطاب واللغات، تنهار الحدود، ويغدو الدفاع عن الدور المركزي للكلمة (logos) كمضاد للفكر البصري والخيالي، إساءة سواء إلى الكلمة سواء إلى الصورة. والواقع أن الغوص الكامل الذي تتيحه تجهيزات الواقع الخلّبي هو حقيقي وفيزيائي بكل معنى الكلمة : إذ تصل معلومات صوتية وبصرية إلى حواس الإنسان الذي يحيلها إلى قشرته الدماغية ليتعامل معها كما يتعامل مع أية معلومات تصله عبر أدوات أخرى.

ويشير كارليني أن نمو ما يسمّى خلّبي داخل ما يسمّى العالم الواقعي يستوجب، بالأحرى، معرفة ما إذا كانت هذه الصيرورة الافتراضية تعمل داخل إطار استمرارية أم أنها تتسبّب في حدوث انكسارات وخطوط أزمات يجب مواجهتها بأدوات مفهومية جديدة[١٠٩٥].

وينبّه كارليني في النهاية إلى أن هذا الخلّبي الشديد الواقعيّة، والذي يمتلك تأثيرات هائلة على الحياة وعلى السلطات القائمة، قد أصبح، عنصر أزمة صحيّة يطلب ويحرك جوهرياً إعادة نظر للهويّة في العلاقة مع الآخرين. إنه، باختصار، صيرورة مؤلمة ومحرجة، تحدث تغيّراً علنياً متفاقماً داخل فضاء جديد للرأي العام يمدّ الرأي العام التقليدي ويضيف إليه. إن السبب العميق لردود أفعال سلبية محافظة تّجاه الخلّبي وتجاه الشبكة ليست الجرائم المعلوماتية أو المواد المخلّة بالفضيلة، وإنّما تلك الهزّة القوية التي أحدثها الخلّبي حيث أخذ يهدّد أدواراً وسلطات[١٠٩٦].

وتندرج مقاربة كاروتينوتو[١٠٩٧] ضمن ذات الإطار، إذ يقول إنه عبر التبادلية والتفاعلية بين التشابهي والخلّبي، تسقط تقانيات الواقع الافتراضي الجديدة، أطروحة أولئك الذين أقنعتهم الحياة بعدم أهميّتهم. ففي كلّ مرّة يستسلم فيها الإنسان إلى ترك الآخرين يعيشون بدلاً عنه، وكأن الأشياء يمكن أن تقع بمعزل عن إرادته، فإنه يتخلّى عن المشاركة في معنى، والمفارقة أن وجوده، في لحظة تخلّيه هذه بالذات، يصبح خلّبياً وغير واقعي ومنسلخ عن الواقع. إن الواقعي هو فقط ذلك الذي يغيّر شكله وينزع عنه حجاب الاصطناعي ليصل إلى الجوهري وإلى الحقيقي. ضمن هذا

(1095) Ibid.
(1096) Ibid.
(1097) A. Carotenuto, " Realtà e Verità ", Ed. Laterza, Milano, 1998, pp. 40-45.

الإطار، يعدّ الخلّبي أكثر حقيقيّة من الواقع. وفي مقارنة بين ما ينتمي، بشكل لاشخصاني، لأشياء الواقع، وبين ما يخترق حجاب الظاهر ليحمل إلى السطح صوراً جديدة " للواقع" الخلّبي، يجد الإنسان نفسه أكثر ميلاً للاعتقاد بضرورة تعاقب الحقائق بدلاً من ثبات واستمرار حقيقة وحيدة وغير قابلة للنقاش.

الواقع الخلّبي والتفكير العربي

على الرغم من أن استخدامات الواقع الخلّبي تحديداً لم تدخل بعد في عمق المجتمعات العربية، فإن معظم التفكير العربي يتناول معطيات التقانيات الاتّصالية الجديدة مستنداً إلى جعبات موسوعية غير محدّثة ومستخدماً أدوات معرفية لا ترقى إلى تفنيد وتحليل المتغيّرات الاجتماعية والسياسية والتقانية التي وقعت خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين. ولذلك، فإن الفكر العربي حول تلك المستجدّات يتّسم، بصورة عامة، بالتقوقع والانسحابية والتخوّف والإدانة. ويزدحم بإنشائيّات ومقولبات وخطاب شعاري يفوق الفكر الغربي المناوئ حدّية، وهو يتركّز، في جانبه المحافظ، على التهديد الذي يمكن أن تشكّله تلك التقانيات على الخصوصيّة والهويّة والتراث والقيم، وينصبّ، في منطلقاته الثورية والطبقية والاجتماعية، على الغزو والهيمنة الإمبريالية وتهديد سيادة الدولة الوطنية وتهميش الجمهور العريض وطغيان أحادية القطبية.

الحقيقة أن المقاربة النظرية العربية للواقع الخلّبي تحمل في ثناياها إشكاليات عديدة، منها ما يرتبط بالإنسان العربي ومنها ما يتعلّق بخصوصيّة المجتمعات العربية في هذه المرحلة من التطوّر. إلاّ أنه، وضمن إطار هذه الإشكاليات، لا بد من تناول الظاهرة بأدوات معرفية منسجمة مع سياقات التطوّر، وقادرة على وضع الظاهرة في حيّزها الواقعي، بقطع النظر عن العوامل الانفعالية والذاتية التي ترافق دوماً انتشار وتعميم ظواهر علمية وتقانية غربية المنشأ.

الحقيقة أن الواقع الخلّبي ليس اكتشافاً جديداً من حيث الجوهر، فلقد عرفت الإنسانية في جميع حقبات تطوّرها واقعاً خلّبياً يتجلّى عبر فكر العصر وأدواته المعرفية وتقانياته. ولعلّ العودة إلى حوارات أفلاطون[١٠٩٨] في "السيمبوزيوم" - على سبيل المثال لا الحصر - حيث يبرز أشهرها كلعبة معقدّة من الأقنعة تمثّل ثقافة تلك العصور في جميع أشكالها، تبيّن بوضوح أن الحوارات الدراميّة الأفلاطونية، من خلال تلك الأقنعة، تجسّد ممارسة للخلّبي، عبر تمثّل تفصيلي وشامل في ذات الوقت،

(1098) G. Reale, " Eros dèmone mediatore ", Ed. Bompiani, Milano, 1997, p. 28.

للواقع الثقافي السابق والقادم في مجتمع أفلاطون ومعاصريه. وتكمن تجلّيات خلّبي أفلاطون في تأكيد أن الحقيقة ليست تلك التي يعبّر عنها وينطق بها كلّ واحد من تلك الأقنعة، وإنما هي الأقنعة نفسها.

لا شك أن الواقع الخلّبي يدخل الزمان والمكان التقليدين في أزمة، إلاّ أن ذلك لا يعني عدم وجود الخلّبي، بل يعني أن كلّ وسيلة اتّصال جديدة تخلق دارات كهربائية مستمرّة وغير متوقّعة مع الوسائل الأخرى، محتوية إيّاها في داخلها ومحرّكة، في الوقت نفسه، نوعاً من الحوار التعدّدي، حيث كلّ منها، كما شخصيات سيمبوزيوم أفلاطون، تلعب دورها وتقدّم تمثّلاً للواقع كان يرد من قبل أو يمكن أن يرد فيما بعد، وصولاً إلى اتّصال أكثر حيويّة وأكثر كثافة، أي اتّصال قادر على تغيير القبْلي والبَعْدي معاً لكي يبزغ فضاء جديد للاتّصال.

لقد بنت التلفزة خلال عقود طويلة، صروحاً من التمثّلات للواقع، تحتوي الكثير من العناصر الخيالية والوهمية، مقدّمة إيّاها على أنها نقل نقيّ لمجريات الواقع القائم، وفرضت تلك التمثّلات بصورة أحادية وعمودية، مرغمة المتلقّي على تقبّلها كواقع حقيقي، في غياب أو استحالة استخدامه أيّة وسيلة تحقّق فعّالة تكشف النقاب عن طبيعة العلاقة التي تقيمها التلفزة مع الواقع. ولقد أثار هذا التمثّل التلفزي للواقع ردود فعل سلبية ومتخوّفة في بدايات انتشار الوسيلة الجديدة، ما أدّى إلى ظهور مفاهيم عفوية وغير مدروسة تبلورت في نظرية الرصاصة السحرية، حيث ساد اعتقاد بأن للشاشة الصغيرة قدرات غير عادية على التأثير المباشر والقوي والفوري في الجمهور التلفزي بكل شرائحه. غير أنه اتّضح، بعد زوال الاندهاش الأوّلي، أن تأثيرات التلفزة ترتبط بشروط ذاتية وموضوعية ومجتمعية وسياقية، زمنية ومكانية، تجعلها ذات إشكالية ومعقّدة، وتحتاج إلى دراسات أكثر عقلانية وعلمية. وبمرور الزمن، ورغم كلّ التحذيرات والتحفّظات، غدت التلفزة جزءاً لا غنى عنه من الحياة اليومية للإنسان المعاصر. والحقيقة أن المشكلة ليست في التعاطي أو عدم التعاطي مع التلفزة، فهذا الأمر تمّ تجاوزه على أرض الواقع، بل في كيفية التعاطي مع هذه الوسيلة الإعلامية وأهمّية الارتقاء بالوعي الاجتماعي داخل صفوف الجمهور بكلّ فئاته وأنواعه.

الواقع الخلّبي ليس، كما يقول بعض المفكّرين، شيئاً غير موجود، إنه واقع موجود ولكن بشكل مختلف عن الواقع القائم وعن الواقع التمثّلي في وسائل الإعلام التقليدية، ولعلّ هذا الاختلاف يتجلّى، خاصّة، في أن الخلّبي هو واقع آخر، إضافي، جديد، ينشأ عن تمثّل التمثّل، متيحاً اتّصالاً أفقياً تفاعلياً، يتحوّل معه المتلقّي السلبي إلى مشارك إيجابي، من شأنه أن يؤدّي دوراً فاعلاً ومؤثّراً.

لا يفتقر الواقع الخلّبي إلى السياق الاجتماعي، كما يعتقد البعض، فهذا السياق موجود بقوّة وحاضر بكل جوانبه في الاتّصال الإلكتروني، غير أنه يتمظهر ليس عبر وساطة عناصر انفعالية كما الاتّصال الشخصي والمباشر، وإنّما عبر وساطة رمزية في معظمها، وغنية في تقسيماتها الفئوية ونمطيّاتها. والحقيقة أن السياق لا يتشكّل فقط من خلال تبادل معلومات بين أشخاص موجودين في بيئة فيزيائية واحدة، بل يتشكّل أيضاً وخاصة عبر مرجعيات ومصادر معرفية وثقافية تسمح للأفراد بأن يتفاهموا فيما بينهم، على الأقل ضمن الخطوط العريضة، حول المغزى الذي يعطونه للمواقف التي يعيشونها وحول المعنى الذي يضفونه على المعلومات التي يتبادلونها، ذلك أن الاتّصال ليس مجرّد تمرير معلومات بين أشخاص منعزلين[(١٠٩٩)]، وإنّما يكمن في بناء فضاء متقاسَم أو أرضية مشتركة (common ground) من المعتقدات والتوقّعات والقيم، تسمح للأفراد بفهم النوايا المتبادلة وتفسير الأوضاع بصورة معترف بها ومكوّدة اجتماعياً. هذا كلّه يعني أن الاتّصال الخلّبي يحتوي سياقات معرفية وثقافية وكفايات مميّزة لمجتمع ما، وأن الواقع الذي يوجده ليس مخادعاً، ولكنه واقع آخر مختلف يدخل حقبة الاتّصال الإلكتروني، مؤثّراً ومتأثّراً بجميع وسائل الاتّصال التي سبقته.

الحقيقة أن التجارب التي يجري خوضها في الإنترنت يمكن أن تفهم فقط كجزء من سياق ثقافي أوسع هو، كما يرى تركل[(١١٠٠)]، تاريخ تآكل الحدود بين الواقعي والخلّبي، بين المتحرّك والجامد، بين أحادية وتعدّدية الذات.

وهو تاريخ يتطوّر، سواء في البحث العلمي المتقدّم، سواء في نماذج الحياة اليومية. فمن العلماء الذين يحاولون خلق حياة اصطناعية، إلى الأطفال الذين يغيّرون

(١٠٩٩) يتدخل في الاتّصال عبر الإنترنت، المصادر الرمزية والكفايات الخاصة لأعضاء مجموعة إنسانية معيّنة. ولذلك، وبمجرّد انتقال الاتّصال التبادلي من الأمور السطحية والبسيطة إلى موضوعات تحدّد الهويّة الشخصية والاجتماعية للمتحادثين، لا يعود ثمة مكان للخداع أو الانتحال. وتلعب المؤشّرات الأكثر تلميحاً دوراً كبيراً في هذا التحديد.
وكما يقول وول فإن عنوانه الإلكتروني الذي يبيّن انتماءه إلى الجماعات الأكاديمية الأمريكية (edu.) يتمتّع بوزن أكبر من عنوانه غير الأكاديمي. لهذا كلّه فإن أسطورة الحوار بين مجهولين في وسائل الاتّصال الجديدة، والتي يروّج لها البعض هي فقط نتيجة رؤية ضيّقة تقتصر على البعد الاتّصالي الشخصي لمفهوم السياق الاجتماعي.
- لمزيد من التفاصيل، أنظر :
- L. Wall, " Distance Leads Enchantment : a Review of city of bits ". in Information Society, n° 12, 1996. pp. 340-341.

(1100) S. Turkle, " Life on the Screen : Identity in the Age of Internet ", Ed. The Free Press, New York, 1995.

أشكالهم عبر سلسلة من الشخصيات الخلّبية، هناك تمظهرات جليّة للانزياحات الجارية وللطرائق التي يخلق الإنسان من خلالها ويجرّب الهويّة الإنسانية.

وفي النهاية، هل الواقع الخلّبي هو واقع اللاواقع ؟ وهل نحن متأكّدون أن الواقع هو واقع وليس افتراضاً ؟ وفي جميع الأحوال هل تتطابق حقيقة أحدهم مع حقيقة الآخر ؟ وإذا كانت تتطابق، كيف يمكن أن نعرف ذلك(١١٠١)؟

بعيداً عن صيحات النصر بأن للتقانيات المعلوماتية الجديدة ومنها الواقع الخلّبي، قدرات تحريرية وديمقراطية خارقة(١١٠٢)، وبعيداً عن سذاجة الاعتقاد بأن تلك التقانيات ستؤدّي إلى انفجار الهويّة الفردية وتفتّتها إلى قطع متناثرة وشخصيات روائية وأقنعة اجتماعية متحرّرة من السياق، وبعيداً عن تلك الأطروحات(١١٠٣) حول تآكل الحواجز بين الخلّبي والواقعي، بين عالم الإنتاج والعالم الخيالي للتقانيات وعالم الواقع اليومي، وحول نهاية حقبة وبزوغ سموات جديدة وأرض جديدة، فإن الواقع الخلّبي الذي يشكّل في الوقت نفسه، استمرارية وطفرة في الاتّصال الإنساني والذي يعدّ واقعاً آخر يضاف إلى ما سبقه، لن يلبث أن يصبح جزءاً من الحياة الاتّصالية اليومية للإنسان العربي أيضاً، ولذلك، فإنه من الضروري البحث في أفضل الوسائل للتعامل مع تقانياته بعقلانية وتؤدة، ودراسة أكثر تطبيقاته واستخداماته منفعة، لكي لا يقع المتعاطي العربي معه في مطبّاته وهو مجرّد من أية جعبة معرفية ومرجعية ثقافية ملائمة، ولكي لا تصبح قدراته الاتّصالية والخدمية الفائقة عنصراً سلبياً ومؤذياً في المجتمعات العربية.

ولعلّ أهم ما يمكن التفكير به لاستيعاب الواقع الخلّبي داخل النظام الاتّصالي العربي، والإفادة من إمكانياته التطويرية، يكمن في جملة من الأمور الأساسية، منها:

- التخلّص من أوهام البحث في الواقع الموجود والواقع غير الموجود واللاواقع وسياقات الواقع، والتحرّر من عقليات تحلل معطيات المستجدّ

(1101) Platone " Parmenide ", 132 A-B & Aristotele, " Metafisica ", I, 9, 990.

(١١٠٢) لا يشكّل الاتّصال الحاسوبي، في أي ظرف، عاملاً آلياً لدمقرطة المجتمعات وإشاعة حرّية التعبير الفردي والعام، وإنّما يعدّ فرصة سانحة لتطوّر صيرورات اجتماعية تكرّس التشاركية في التنظيمات الاجتماعية المختلفة. ولقد أثبتت تجربة وسائل الإعلام التقليدية وخاصة التلفزة، أن القدرات التقانية لأي وسيلة اتّصالية يمكن أن تشكّل عاملاً ملائماً لفتح آفاق حرّيات فردية وعامة، وتوسيع أطر ديمقراطية، كما يمكن أن تتحوّل إلى عامل قوي وحاسم لتكريس ثقافات عمودية وتقليص هوامش الحرّية والحياة الديمقراطية.

(1103) R. Stone, " The War of Desire and Technology at the End of the Mechanical Age ", The Mit Press, Cambridge, 1996.

بمفاهيم سادت خلال عصور ما قبل الثورات المعلوماتية وطفرات الاتّصال الإلكتروني، والانطلاق نحو آفاق رحبة تدخل العرب العصر الرقمي وتحوّل المجتمعات العربية إلى مجتمعات تكنومعلوماتية من شأنها أن تضيّق الفجوة بينها وبين البلدان المتقدّمة بخطوات متسارعة، وتحول دون حدوث انقطاع يؤدّي إلى خروج نهائي للمنطقة العربية من وقائع الحقبة الإلكترونية.

- معرفة المشاركة في لعبة الواقع الخلّبي، شريطة ألاّ يختلط الواقعي القائم والواقعي الخلّبي في ذهن اللاعب، وشريطة أن يكون هذا اللاعب قادراً على الانخراط في عمليات وساطة إضافية، في الوقت المناسب، هي التي تحمله، عقب بناء الواقع الخلّبي، نحو تحديد واقع جديد، غير قائم على الأرض وغير افتراضي، وإنما، ببساطة وبشكل عام، مختلف وجديد.
- الدفع باتّجاه الإفادة من الخلّبي في استخدامات علمية مختلفة من شأنها أن ترتقي بعلوم طبّية وهندسية وكيميائية وفضائية وتجارية واجتماعية وتربوية الخ.. تحقّق للمجتمعات العربية النقلة النوعية المطلوبة.
- العمل على دفع الفرد العادي إلى التآلف مع التقانيات الجديدة التي تتيح له الحصول على معلومات بطرائق تتمتّع بكفايات عالية، تضع المجتمع بأسره على تماسّ مباشر مع مصادر المعلومات الإلكترونية.
- ولوج حقل صناعة المعلومات وتقانياتها للحفاظ على حدّ أدنى من الندّية النسبية، والعمل على إحداث تغيّرات مؤسّسية جذرية داخل بنيات المجتمع بمختلف مستوياته.
- الاطّلاع على تجارب مجتمعات أخرى تنتمي إلى عوالم الجنوب(١١٠٤)، استطاعت أن تنجز القفزة النوعية المطلوبة في مجال التحوّل إلى مجتمع المعلومات.

* * *

(١١٠٤) تعدّ الهند، على سبيل المثال، في مجال إنتاج تقانيات المعلومات، تجربة رائدة من المفيد التعرّف عليها ودراسة نقاط قوّتها وأسباب نجاحها، دون الوقوع في سلبيات التقليد والمحاكاة غير الخلاّقة. للاطّلاع على التجربة الهندية بشكل مفصّل، اقرأ:
بشار عباس، " التجربة الهندية خلق قطاع وطني لتكنولوجيا المعلومات : بناء الهند بأيدي الهنود "، مجلّة المعلوماتي، العدد ٩٤، خريف ٢٠٠٠، ص. ١٠٠- ١١٥.

الباب السادس

الفكر الممنهل
والمجتمعات الرقمية

الفصل الأول

تقانيات الاتّصال الإلكترونية

تمهيد

عندما طرح الكندي ماكلوهان في كتابه " مجرّة غوتنبيرغ "، مسألة أن تطوّر العمليات العليا للإنسان وتمظهراتها تخضع للأدوات والتقانيات الثقافية التي تنتجها المجتمعات في كلّ حقبة (القناة هي الرسالة)[1105]، تعرّض لهجوم شديد من قبل العديد من مفكّري الستّينيات والسبعينيات، الذين وجدوا في أطروحاته تركيزاً على التأثيرات التي يمكن أن تمارسها وسائل تقانية على طرائق التفكير الإنساني وعلى الوعي، بمعزل عن المضمون، وتجاهلاً لتلك العوامل الإنتاجية والاقتصادية والاجتماعية التي تشكّل البنيات التحتية القادرة وحدها على تبديل جميع البنيات الفوقية ومنها التفكير والوعي والعقلية والسلوك.

إن التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعقائدية والنفسية التي تحدثها تقانيات الاتّصال في عصر المعلوماتية، على المستويين الفردي والمجتمعي، تعيد مفاهيم الباحث الكندي إلى الصدارة، مكرّسة مقولة أن أدوات الاتّصال ووسائله من شأنها أن تحدّد، في كلّ مرّة، كتقانيات مميّزة للعصر، جوهر ومقوّمات العلاقة التي تقوم بين الإنسان والطبيعة[1106]، ذلك لأن وسائل الاتّصال التكنومعلوماتية التي حقّقت انتشاراً كوكبياً وفضائياً، خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، أخذت تمارس تأثيرات حاسمة على مضامين وأشكال البنيات الاقتصادية والإنتاجية والسياسية والاجتماعية والفكرية للمجتمعات الراهنة، بما فيها تلك الأقلّ تقدّماً والتي ما تزال في موقع المشارك الاستهلاكي للتقانيات الجديدة.

(1105) McLuhan, The Gutenberg Galaxy, 1962, op. cit.
(1106) J. Bolter, Turing's Man, op. cit., p. 36.

ولكن، وعلى الرغم من عمق التأثيرات التي أحدثتها وتحدثها تلك الطفرات الاتصالية في مختلف جوانب الحياة الإنسانية ، فيجب ألاّ ينظر إلى تطوّر التقانيات الاتّصالية عبر بُعد تسلسلي يقتصر على تجميع سيرة التقدّم التقاني بشكل أفقي، ضمن إطار التاريخ الإنساني، وإنّما تحليل التأثيرات المتداخلة التي أنتجتها تلك التقانيات في مجال الوظائف السيكولوجية الفردية والاجتماعية. هذا يعني أن تناول التقانيات الاتّصالية من منظور تاريخي يجب أن يتم، ليس بشكل تتابعي منفصل في الزمان والمكان، بل ضمن أفق ترابطي وتزامني، إذ أن أي تقانية جديدة، وإن أصبحت في لحظة تاريخية معيّنة مميّزة للعصر الذي ظهرت وانتشرت فيه، فإنها لا تلغي أبداً سابقاتها وإنّما تتفاعل معها، منتجة، في المشهد العام لكل حقبة، تقانيات اتصالية ذات خصائص مختلفة. فالكتابة لم تحلّ محلّ تقانية الكلمة الشفهية التي استمرّت بصورة موازية لأشكال الكتابة[١١٠٧]، ذلك لأنه على الرغم من أن اللغة المكتوبة للنص المطبوع، خلافاً للنص الشفهي، تتميّز في أنها جهاريّة، متحرّرة من السياق ولها صفة الديمومة، فإنها، في الوقت نفسه، تفتقر إلى تلك الخصائص التي يتميّز بها التعبير الشفهي (نبرة الصوت، حركات الوجه، حركات الجسم وتموضعه) الذي يقدّم معلومات مفيدة لا غنى عنها للاتّصال الاجتماعي[١١٠٨].

على جانب آخر، فأن هذا التعايش بين عدّة تقانيات، لم يشكّل عائقاً أمام انتشار غير مسبوق للكتاب، عقب القرن السابع عشر، أدّى إلى بروزه كتقانية مميّزة للعصر، استطاعت، عبر بحثها عن الإتقان وعبر صياغة مفاهيم قادرة على مناوءة وتثوير العرف العام والمعارف السابقة[١١٠٩]، تحديد أولية القراءة الصامتة والإسهام في انتشار الفردية البرجوازية وتعميم المنطق العقلاني والعلمي[١١١٠].

(1107) M. Orsolini, " Oralità e Scrittura nella Costruzione del Testo ", Ed. La Nuova Italia, Firenze, 1991, pp. 13-28.

(١١٠٨) لمزيد من التفاصيل حول التعبير الشفهي، اقرأ :

- A. Haveloch, " Preface to Plato " Ed. Harvard univ. Press, Cambridge, MA, 1963.
- W.J. Ong, " La Presenza della Parola ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1970.
- W. J. Ong, - Ong J., " Orality and Literacy : The Technologizing of the Word ", Ed. Methuen, London, 1982, trad. " Oralità e Scrittura ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1986.
- C. Levinson, " Pragmatics ", Ed. Cambridge Univ. Press, 1983.

(١١٠٩) لمزيد من التفاصيل، اقرأ :

- M. McLuhan, " Understanding Media ", 1964, Ed. Il Saggiatore, Milano, 1967.
- W.J. Ong, Orality and Literacy, 1982, cit.

(١١١٠) لمزيد من التفاصيل، اقرأ :

- G. Graff, " Storia dell'Alfabetizzazione Occidentale ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1989.
- E. Eisenstein, " The Printing Revolution in Early Modern Europe ", Ed. Cambridge Univ. Press, 1983.

بذات الطريقة، تسعى الوسيلة الإلكترونية الجديدة إلى إعادة تحديد خصائص الكتابة، من خلال عملية دمج بين الشكل المنطقي- السطري والشكل غير السطري للنص، مقدّمة أشكالاً جديدة للنصيّة، تقرّب الكتابة من العقل إذ تيسّر ربطاً آنياً بين أفكار من يكتب وبين مساحة الكتابة المؤلّفة من سطح شاشة الحاسوب، مشيّدة جسراً بين العقل والآلة، خلافاً للكتابة التقليدية، وخاصة تلك المطبوعة، التي كرّست، لقرون طويلة من الزمن، فجوة زمانية ومكانية بين الفكر والكلمة.

وإذا كان النص المطبوع لا يزال يحافظ على أوّليته، فإن العصر الحالي الذي يتميّز باجتياح كوني للتقانيات الإلكترونية، يحمل في طيّاته طرائق جديدة للكتابة والاتّصال، من شأنها أن تغدو، خلال فترة قصيرة نسبياً، تقانيات مميّزة لهذه الحقبة من التطوّر الإنساني، دون أن يؤدّي ذلك إلى إلغاء أو اختفاء التقانيات الاتّصالية الأخرى.

وكما التعبير الشفهي في البدء، والكتابة والطباعة فيما بعد، أيضاً التقانية الإلكترونية الصغرية لا يمكن إلاّ أن تمارس تأثيراتها على طرائق الإدراك الحسّي للمضامين وعلى عمل الصيرورات العقلية، عبر إعادة تنظيمها لحواس الإنسان.

الكتابة الإلكترونية

في بداية تناوله لتاريخ الكتابة، يورد بولتر مقطعاً ذا مغزى من مؤلّف فيكتور هوجو[١١١١] "نوتردام دو باري":

عندما فتح نويفذة زنزانته، طالعه هيكل نوتردام الهائل، الذي كان يرتسم، ببرجيه التوأمين وجدرانه الإسمنتية وقبّته المخيفة، ظلاً أسود في مواجهة السماء المزدحمة بالنجوم، وكأنه عنقاء رابضة وسط المدينة.

وراقب الكاهن بصمت، لحظات،الصرح العملاق، ثم وضع يمناه على الكتاب المطبوع الذي كان مفتوحاً وقابعاً فوق الطاولة، وأشار بيسراه إلى كاتدرائية نوتردام، ومرّر نظره، بحزن، من الكتاب إلى الكنيسة، وفكّر : وأسفاه، سينتهي هذا إلى تدميرها.

في سرد هوجو، كان الكاهن يشكو من أن الكتاب سيؤدي إلى تدمير الكنيسة، ولكنه لم يكن يعني أن الطباعة والأدب سيدكّان سلطة الكنيسة فحسب، وإنّما أيضاً أن الروح الإنسانية ستغيّر أسلوب تعبيرها، وأن الكتاب الحجري، الصلد والدائم، سيخلي مكانه لكتاب ورقي، أكثر صلابة وديمومة[١١١٢].

(1111) V. Hugo, " Nötre Dame de Paris " (1482).
(1112) Ibid.

وكما تقول ايزنشتاين[1113]، فإن الطباعة قد يسّرت اختفاء التنظيم الاجتماعي والفكري للقرون الوسطى، وغدت الأداة الأكثر أهمّية، ربّما، للمفكّر الحديث.

الواقع أن الكتابة الإلكترونية، التي تحتوي دقة وميكانيكية الطباعة وعضوية وقابلية التغيّير في الكتابة اليدوية، والقدرة المرئية للهيروغليفية وللكتابة الصورية[1114]، مجسّدة أداة ثورية وتقليدية في الوقت نفسه، توفّر مساحة جديدة وتقانيات جديدة لتنظيم الكتابة، حيث يحلّ الحاسوب، ببرمجياته وأوراقه الإلكترونية، محلّ الطباعة، دافعاً الكتاب المطبوع، بلا هوادة، نحو هوامش الثقافة، مقدّماً نفسه، في هذه الحقبة من التطوّر، كتقانية محدّدة لتنظيم عمليّات إنتاج الفكر وتعميمه على أوسع نطاق عرفته الإنسانية.

• بنيات الكتابة الإلكترونية

يتميّز فضاء الكتابة بأنه لعبة متبادلة بين المعدّات وتقانيات استخدامها[1115]، حيث تحدّد المعدّات وحدات بنيوية وعلاقات ناتئة صعبة التغيّير. في حقبة الطباعة، شكّلت الصفحة وحجم الورقة المحاكة والملصقة والمحبوكة، البنيات الرئيسة (القرص الصلب). بالإضافة إلى الصفحات الأولى، مثّل الكتاب نفسه الوحدة النصيّة الرئيسة للمعنى. وفي جميع تقانيات الكتابة منذ نشوئها، كانت هناك بنيات متشابهة: الألواح الحجرية أو الجصّية أو الشمعية ولفافة المخطوط. أما في التقانيات الكتابية الجديدة، فإن المعدّات الحاسوبية (hardware) هي التي تمثّل الخواص الملموسة لمواد الكتابة[1116]، في حين أن بنيات البرمجيات (software) هي تلك الوحدات والعلاقات المحدّدة بصرياً والمكتوبة فوق أو داخل بنيات المعدّات، والتي تحوّل مساحة أداة الكتابة إلى فضاء ممفصل[1117].

يمكن لثقافة ما أن تبدّل بنيات معدّاتها محتفظة ببنيات برمجياتها. فوحدة البرمجيات الأساسية للعالم القديم كانت الأبجدية التي استمرّ الإنسان في استخدامها على الحجر والشمع واللفافة القروسطية والكتب المنسوخة ثم المطبوعة. ولكن في الغالب، تتغيّر بنيات البرمجيات أيضاً بتغيّر المعدّات، فالكود القروسطي كان يسمح بتموّجات كبيرة

(1113) E. Eisenstein, " The Printing Press as an Agent of Change ", Ed. Cambridge Univ. Press, vol. 2, 1979. pp. 520 ss.
(1114) J. Bolter, " Writing Space. The Cumputer, Hypertext, and the History of Writing ", Ed. LEA, Lawrence Erlbaum Associates Ltd., Hillsdale, Hove and London, 1991.
(1115) Bolter, Writing Space, 1991, cit. p. 53.
(1116) Ibid.
(1117) Ibid.

في طرائق التقديم البصري للنص، بفضل ابتداع أشكال حروف جديدة والتطوير التدريجي للتنقيط والهوامش والتنظيم. وتمتلك تقانية الطباعة الحالية جملة من بنيات برمجية (التنقيط، تقسيم المقاطع، تقسيم الفصول) راحت تتطوّر عبر مئات السنين[1118]. أما التقانية الإلكترونية، فهي تقدّم جملة جديدة من بنيات المعدّات الحاسوبية تحدّدها المعدّات الحاسوبية للآلة، حيث يجري تخزين النص أو تحريره أو استعادته أو قراءته من خلال سلسلة من الأدوات الإلكترونية والأدوات الكهرميكانيكية والبصرية. ويقبع النص في الذاكرة الإلكترونية حيث يربط مباشرة بالوحدة المركزية للسلسلة أو يتم نقله إلى اسطوانة مغناطيسية أو شريط في حال التخزين الطويل الأجل[1119]. ويخزّن النص بواسطة هذه الأدوات على شكل خانات (bits).

وتتيح شاشة الحاسوب فضاءً جديداً للكتابة مزوّداً بمميّزات خاصة، إذ تستطيع أن تغيّر بسرعة كبيرة مضامينها وأن تشكّل فضاء للكتابة يتبدّل حسب رغبة المستخدم. كما تستطيع الجمع بين كلمات وصوَر في ذات الفضاء النصّي. ولعلّ هذه المعدّات الحاسوبية في مجملها تمثّل التغيّر التقاني الأكبر في تاريخ الكتابة، وخاصة فيما يتعلّق بالسرعة والاستقلالية العملية التي تتمتّع بها[1120].

غير أن الخاصيّة الأهم لهذه البنيات الإلكترونية الجديدة (hardware) تكمن في أنها ليست متاحة مباشرة، لا لمن يكتب ولا لمن يقرأ، فالخانات (bits) التي يتألّف منها النص تقع على سلّم مختلف عن السلّم الإنساني، والتقانية الإلكترونية تقبض على النص وتحجبه عن الكاتب والقارئ اللذين، إذا سلّطا الضوء على اسطوانة بصرية أو مغناطيسية،لا يريان سوى آثار دائرية تنظّم المعطيات داخلها، ولكنها آثار لا تحمل أي معنى بالنسبة للعين البشرية[1121].

من خواص الكتابة بشكل عام أنها تنتزع كلمات وأفكاراً من مواقعها الزمنية الأصلية وتخزّنها إلى أن يحين استعمالها من جديد. إلاّ أن الطباعة وميكانيكية الكتابة تقومان بعملية الإيداع هذه بمعنى آخر، إذ يكفّ المؤلّف عن الكتابة على الصفحة، ويتوجّب عليه العمل من خلال تقانية رقابية تمر عبر عدد من الوسطاء كالمعلن والناشر والطابع. ومع ذلك، فإن المنتَج المطبوع يتيح للإنسان قراءة محتواه دون أن تكون ثمة حاجة إلى خدمات تقانية إضافية. في حين أن النص المكوّد في الأداة الإلكترونية مفصول عمّن يكتبه ويقرؤه ويتطلّب ظهوره تقانية معقّدة وممفصلة على

(1118) Ibid. p. 54.
(1119) Ibid.
(1120) Ibid. p. 55
(1121) Ibid. p. 56.

أكثر من مستوى. كما أن الطبيعة الهشّة للنص الإلكتروني تستوجب طرائق جديدة لتنظيمه وجعله مرئياً[١١٢٢] .

في سياق آخر، لابد من الإشارة أن الحاسوب قد أخذ يهدّد ويدكّ اقتصادية الكتابة، إذ يرغم على إعادة النظر في هوامش الكتابة التي وضعت الأبجدية أسسها منذ اختراع الورق والقلم والطباعة. فالكتابة الإلكترونية تحتضن الكتابة الصوَرية التي بقيت مهمّشة آلاف السنين منذ أن اخترعت بلاد ما بين الرافدين ومصر الأنظمة اللغوية الصوتية[١١٢٣]، والتي لم يفكّر بها قط كجزء لا يتجزأ من النص، وإنّما كحوامل بصرية للنص المكتوب أو النص الرياضي. وهكذا، وبعد حقبات ممتدّة في التاريخ اللغوي الإنساني ، تعيد الكتابة الإلكترونية الصورة إلى مركز القراءة والكتابة.

وإذا كانت الطباعة تعطي للكلمات حياة مديدة تمتاز بالديمومة والثبات، خلافاً للكتابة المؤقّتة والقابلة للمحو التي تسطّر على الألواح والورق، فإن الأداة الإلكترونية تجمع بين خواص المطبوع وخواص اللوح والورقة، إذ تستطيع المحافظة طويلاً على نسخ متقنة من النصوص، معطية المؤلّف والقارئ، في الوقت نفسه، إمكانية تغييرها كما يحلو له. ولذلك، فإن الكتابة العابرة في سياق الكتابة الإلكترونية، لم تعد هامشية، فالديمومة توفّر، ببساطة، بعداً آخر يمكن قياس النص عليه. ويمكن لنص يتغيّر بصورة متكرّرة، لكي يتلاءم مع تبدّل الظروف، أن يكون ناجزاً كما نص آخر يصرّ على البقاء مطابقاً لذاته عبر السنين والقرون[١١٢٤].

وتستدعي هذه الخصائص المركّبة للنص الإلكتروني، مساحة أصلية أخرى للكتابة هي الذاكرة الإنسانية، حيث يتغيّر النص بسرعة وسهولة تبدّد، بحدّ ذاتها، إدراك الإنسان للنص.

لقد مارس قدماء اليونان نظام الكتابة عبر الصوَر الذهنية، التي لم تكن تتطلّب أوراقاً أو أية مساحات مادّية أخرى، حيث برعوا في فن استخدام الذاكرة كرقعة كتابية غير مادّية، عن طريق تحويل العقل نفسه إلى مساحة كتابية تنقش عليها رسالة مكوّدة بشكل تصويري[١١٢٥]. و كانت هذه الذاكرة تتكامل مع الكتابة الأبجدية بصورة عصيانية وتمرّدية غريبة، إذ كانت تحوّل الأبجدي المكتوب إلى كتابة بالصوَر. وكما فن الذاكرة القديم، فإن الكتابة الإلكترونية المعاصرة تجسّد فناً يحتضن الأفكار ويقوم بتوزيعها داخل فضاء كتابي، حيث تصبح ذاكرة الكاتب الإلكتروني منبعاً (continuum)

(1122) Ibid. p. 60.
(1123) Ibid. p. 70.
(1124) Ibid. p. 71.
(1125) Ibid.

يتعامل معه فضاء الكتابة الحاسوبية[١١٢٦]، وحيث يصبح الإبحار في فضاء هذه الكتابة مسألة تثير جملة من التساؤلات حول القدرات العقلية الإنسانية، من شأنها أن تفتح، بصورة حتمية، رؤية جديدة للذاكرة نفسها.

لكي يتم فهم الكتابة الإلكترونية، من المهم معرفة طبيعة التعارض القائم بين النصوص الشفهية وتلك المدوّنة، لأن التقانية الجديدة، خلافاً للمطبوع والمكتوب، تقترب بشدّة، في حالات كثيرة، من الخطاب الشفهي[١١٢٧]. وقد اقتفى الشعر الهوميري[١١٢٨] القائم على تكرار صيَغي، مسار الكتابة الطوبوغرافية التي يتم بناؤها في الفضاء الإلكتروني، إذ كان الشاعر يكتب كتلاً من الصيغ، وكان جمهوره يقرأ تلك الكتل مستخدماً ذات المفتاح. أيضاً الكاتب والقارئ والمبرمج والمشترك المعلوماتي في العصر الإلكتروني يفعلون ذات الشيء، وكما الشعر والحكايا الشفهية، فإن الكتابة الإلكترونية هي صيرورة تشابكية تماماً، حيث يعدّ نموذج التشبيك الذي يجمع العناصر المكتوبة جزءاً لا يتجزأ من النص[١١٢٩].

كلّ ذلك يعني أن النص الإلكتروني يتمتّع، كما الشفهي، بطبيعة دينامية، وأن مؤلّف النص وقارءه الإلكتروني يتقاسمان حيّزاً كتابياً واحداً، أي أن القارئ يسهم في استدعاء النص وتحديده عند كلّ قراءة.

وهكذا، فإن فورية و مرونة التقديم الشفهي، واللتين بقيتا هامشيتين أكثر من ألفي عام، تبزغان من جديد كعاملين محدّدين للنص الحاسوبي.

على أية حال، لا يستطيع أي نظام لغوي عام أن يبقى صوتياً أو أبجدياً فحسب، فالأبجدية الرومانية، على سبيل المثال، احتوت في طيّاتها رموزاً من أهمّها الأرقام العربية[١١٣٠]. ومع ذلك، تسعى الكتابة الأبجدية باستمرار نحو التبسيط من خلال الاستبعاد، في حين أن الكتابة الإلكترونية ترنو نحو الاحتواء والاحتضان، مستدعية

(1126) Ibid. p. 73.
(1127) J. Noblitt, " Writing, Technology and Secondary Orality ", Academic Computing, n° 2 & 5, 1988, pp. 34-35 & 56-57.
(١١٢٨) بذات الآلية كان الشعراء والخطباء العرب يشكّلون نصوصهم الشفوية التي كان الناس يختزنونها في الذاكرة على شكل كتل تشابكية، أي كتل غير مسطّحة، تمتاز ببعد فضائي. وقد اعتمد العرب اللغة الشفهية، مئات السنين، لتناقل تاريخهم وتراثهم الديني، ولم يبدأ تدوين هذا التراث إلاّ في العصر العباسي، أي في القرن الثاني الهجري.
- لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع اقرأ :
(1129) Bolter, Writing Space, cit., p. 75.
(1130) Ibid. p. 77.

الأشكال الأكثر قدماً للكتابة، كتلك الإيقونية والشفهية والذاكرية، ومهمّشة بعض خواص النص المطبوع كالثباتية والصرْحية والامتناع على التغيّير وإنتاج آلاف النسخ المتطابقة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الكتابة الإلكترونية ليست احتضانية فحسب، وإنّما هي تشيديّة أيضاً[١١٣١]، إذ تسمح للمؤلّف في أن يصوغ عناصر جديدة انطلاقاً من تلك الموجودة، مستخدماً قدرة الحاسوب على رسمنة أية وحدة نصيّة كعنصر جديد في مفردات إشارات تتوسّع، عبر تشبيك مقاطع أو فصول نصيّة عديدة، يكتسب فيها المقطع أو الفصل الثاني معنى اتّجاهياً، حيث تحول التشابكية الإشارتين إلى جملة جديدة تدلّ على أن المقطع أو الفصل الأول يقود إلى الثاني والثالث إلخ..

وهكذا، فإن قدرات الحاسوب الخاصة تستطيع إحياء النص من خلال تشبيك عناصر إيقونية وأبجدية ورياضية داخل كتلة نصيّة واحدة دينامية الطابع؛ تضع الأبجدية التقليدية في رحاب فضاء هندسة تحليلية[١١٣٢]، تؤذن بانتشار عصر الكتابة الرياضية والرقمية.

• الصفحة الإلكترونية

كانت الصفحة القروسطية تسمح بحرّية أكبر في الكتابة والرسم، فمؤلّفو ذاك العصر كانوا يطوّرون إجزاءات بصرية عديدة كالرسائل مختلفة الأسلوب والبعد، والحبر المتباين وأرقام المقاطع، وأيضاً الهوامش الجانبية المحيطة بالنص الأساسي. وقد ألغت الطباعة هذه الإجراءات النصيّة محوّلة النص إلى وحدة قياسية وحيدة، إذ نظّفت الصفحة من كلّ مادة تفسيرية مرفقة، مزيحة الهوامش إلى أسفل الصفحة في البداية ثم إلى الصفحات الأخيرة، ما أدّى إلى التضحية سواء بفورية الإحالات سواء بالسياق البصري والمفهومي الذي كان يقدّم للقارئ القروسطي. وكان على الإنسانية أن تنتظر قروناً طويلة قبل أن تأتي الكتابة الإلكترونية لتعيد إلى المؤلّف والقارئ تلك الفورية وذلك السياق، ولتضيف إليهما وحدات نصيّة أوسع تحتوي صوراً ورموزاً بصرية أخرى، عبر تقانية النّوافذ الإلكترونية التي يمكن تنظيمها في مقاطع رقائقية متراكمة أو متحاذية حيث يستطيع المؤلّف والقارئ أن يرى على شاشة الحاسوب طوابق نصيّة عديدة.

(1131) M. Joyce, " Siren Shapes : Exploratory and Constructive Hypertexts, Academic Computing ",n° 3,4, 1988, pp. 10-14 & 37-42.
(1132) B. Liebermann, " Type and Typefaces ", Ed. Myriade Press, New Rochelle N. Y., 1978, p. 41.

وتكتسب النوافذ، في هذا النطاق، معنى بنيوياً، حيث تتوافر داخلها روابط عملياتية بين الوحدات النصيّة، بمعنى أن كلّ قطعة من النص المطلّ من نافذة معيّنة بإمكانها أن ترتبط، عبر فضاء تعدّدي الاتّجاه، بقطعة ثانية وثالثة إلخ.. ويمكن أن يفضي تنفيذ إحدى هذه الروابط إلى ظهور أو اختفاء نصّي أو إلى اقتران نص أبجدي بآخر صوَري أو إلى إعادة تنظيم النوافذ، وهي كلّها تقانيات تجعل من الدينامية والحيوية جزءاً لا يتجزّأ من النصّ الإلكتروني.

بالإضافة إلى ذلك، يتّصف النص الحاسوبي بأن هياكله النصيّة هذه ليست ثابتة وليست جامدة وإنّما هي متغيّرة ومتحرّكة على الدوام. ومن البدهي أن هذه الحركية في النص الإلكتروني، خلافاً للنص المطبوع الذي يتطلّب تحريك البصر فقط، فوق مساحة ثابتة، تؤدّي إلى تحرك سواء بصر القارئ سواء مساحة الكتابة، ويمكن لهذا " الإحياء الإلكتروني " أن يرتدي أشكالاً مختلفة، كالصور المبرمجة والصور المتتابعة التي تعطي انطباعاً بوجود استمرارية، كما يمكن " إحياء " النص ورسمنته الإلكترونية عبر تمكينه من محرّك عضوي مستقلّ، حيث يبدو متحركاً ضمن تطوّر معيّن وحسب منطق وزمن خاصّين به. ويمكن للنصوص الأبجدية أيضاً أن تبدو متموضعة بصورة متنوّعة على الشاشة وأن تظهر وتختفي أو تتغيّر في لحظات زمنية محدّدة، ويؤدّي هذا " الإحياء " الأبجدي إلى اتّباع تقانية خاصة للقراءة، ذلك أن النص هو الذي يتحرك أمام البصر وليس العكس[١١٣٣].

وهكذا، فإن الشاشة الحاسوبية تتطلّب انتباهاً للنص واللقطات الصوَرية والعلاقات التي تربط بينهما. ولا شك أن هذه الخصائص التي تتّصف بها الصفحة الإلكترونية تدفع القارئ إلى تعلّم طرائق تجمع بين القراءة الأبجدية وتلك الإيقونية.

• الفضاء الترسيمي التخطيطي

الرسم التخطيطي نوع من الكتابة عرف تطوّراً بعد اكتشاف الكتابة الصوتية، وازدهر في القرون الوسطى، وهو عبارة عن صورة مكوّدة لكل عنصر فيها مرجعية معيّنة. إنه كتابة كلامية تضاف إليها عناصر إيقونية[١١٣٤].

لقد أعاد الحاسوب هذا الضرب من الكتابة إلى الصدارة، غير أن الرسوم التخطيطية في النصوص المكتوبة ومن ثمّ في النصوص المطبوعة، والتي كانت،

(1133) Y. Nishimura & S. Keiichi, " Dynamic Information Display, in Visible Language, n° 2 & 19, pp. 251-271.
(1134) Bolter, Writing Space, cit., 1991, p. 95.

بطبيعة الحال، تمثّلات جامدة، تحوّلت في التقانية الإلكترونية إلى نصوص سائلة ورسوم تخطيطية حيّة تظهر الطبيعة الخاصة للكتابة الإلكترونية حيث يمكن لعناصر بعيدة عن بعضها البعض أن ترتبط بروابط مفهومية نشيطة.

الواقع أن الورقة الإلكترونية تقع في منتصف المسافة بين النص الكلامي والنص الرسمي التخطيطي، الرياضي أو الغرافيكي. وفي هذا الأخير يصبح الفضاء النصّي نفسه رقمياً، وهو أمر طبيعي لأن خصائص الحاسوب تجعله يشكّل فضاءً مثالياً للرسم والتحليل الغرافيكي[١١٣٥].

إن هذه الإمكانيات التي يتمتّع بها الحاسوب تعود إلى فعّاليته في أن يتيح إعادة صياغة سريعة للفضاء. وعلى الرغم من أن النص الغرافيكي ما يزال يشكّل بديلاً للنص الكلامي، فإن تطوّر الغرافيك الرقمي لم ينفصل أبداً، بصورة كاملة، عن تطوّر الفضاء النصّي للكتابة. ويبيّن تاريخ الرسم الغرافيكي والطباعي أن الفضاء الرقمي والفضاء الكلامي لا يتعايشان فحسب، بل ويتداخلان أيضاً، ويعتقد خبير الغرافيك المعاصر تافت[١١٣٦] أن الرسوم الغرافيكية يجب أن تطعّم بكلمات وصور وأرقام، وأن الرسوم الغرافيكية الرقمية تشكّل تعليقات على المعطيات ويجب التعامل معها على هذا الأساس. هذا يعني أن الرسوم الغرافيكية يجب أن تتكامل مع النص بشكل يستطيع فيه بصر القارئ أن يتحرّك بسهولة من مقطع نثري إلى رسم غرافيكي ومنه إلى الكلمات.

ولقد أصبح بمقدور خبراء الغرافيك الإلكتروني أن يولّدوا، حسابياً، أي شكل قابل للتعرّف عليه وأن يعطوه ملمحاً ثلاثي الأبعاد، ويكمن هدفهم في جعل الآلة قادرة على خلق صور تبدو قادمة من العالم المدرَك. وتظهر هذه الرسوم الغرافيكية الإلكترونية، بشكل عام، قدرة الحاسوب في جعل الفضاء رياضياً وحسابياً، من خلال الجمع بين الفضاء الرقمي والفضاء الإيقوني، والربط بين التعبير الإيقوني والغرافيك العلمي.

• الموسوعة الإلكترونية

دون إلغاء فكرة الكتاب، تذهب التقانية الإلكترونية في اتّجاه مناوئ للانغلاق الذي غذّته الكتابة والطباعة. لقد تبدّد نهائياً الحضور الطاغي للكتاب التقليدي، فبدلاً من أوراق مترابطة يمكن الإمساك بها وتقليبها بشكل ملموس، أصبح الحاسوب يستخدم

(1135) L. Robyn, " Quantitative Graphics in Statistics : A Brief History ", Robyn &R. Beniger,1978, in Bolter, 1991, p. 97.

(1136) E. Tufte, " The Visual Display of Quantitative Information ", Graphics Press, Cheshire, CT, 1983, p. 181.

طرائق لتخزين المعلومات، بعيداً عن الإدراك الحواسي المباشر، داخل عناصر كهرميكانيكية معقّدة، لا تقدّم للقارئ أية إشارة حواسية تنبئ ببداية نص أو بنهايته.

يقول بولتر[١١٣٧] إن أي ثقافة تحلم في أن تدوّن مجمل أفكارها في كتاب كبير، ولقد تقاسم اليونانيون والرومان وكتّاب المكتبة الآشورية في نينوى، هذا الحلم. وهو حلم يجنح دوماً نحو خلق موسوعة تنظّم وتحتوي جميع الكتب لتيسّر استخدامها من قبل القارئ. ولقد استطاع الإنسان أن يحقّق هذا الحلم، جزئياً، في بعض الحقبات، إذ توصّل إلى إنجاز موسوعات في القرون الوسطى وفي العصور الحديثة، وخاصة في عصر التنوير الأوروبي[١١٣٨].

ولكن، إذا كان هذا الاهتمام قد انكفأ قليلاً في عصر الطباعة، فإن التقانية الإلكترونية تعدّ في العصر الراهن، حاضنة تفوق الخيال للفكرة الموسوعية التي تتطلّع إلى إنجاز تجميع مكثّف للمعارف الإنسانية بجميع فروعها، ذلك لأن الحاسوب يستطيع أن يعيد مشروعية الترتيب حسب الموضوعات حتى بالنسبة لنصوص واسعة كالموسوعات، عبر التساكن بين المؤشّر الموضوعي والترتيب الأبجدي، بالإضافة إلى إجراءات أخرى تتبّع طريقة الموضوعات.

هذا يعني أنه بالإمكان تنظيم الموسوعات الإلكترونية بجميع الطرائق التي يمكن أن يتخيّلها المعدّ، كما أن التعامل مع هذه الموسوعات المرنة التي يتم بناؤها عبر شبكات عديدة من الإحالات وعبر تنظيم مستمر وحرّ للعناصر، تتيح للقارئ أن يقوم بتجميع المضامين والربط فيما بينها من خلال تحرّك دوراني وليس وحيد الاتّجاه، لأن البنية الإلكترونية دورانية الطابع وهي مناوئة تماماً للكتاب المطبوع الذي يتّبع تنظيماً تراتبياً وشكلاً سطرياً.

ثمّة طرائق يمكن من خلالها تحقيق التكامل بين الصور الرقمية والأصوات في موسوعة إلكترونية، حيث تحلّ محلّ النص الكلامي الصور والأصوات وإدراكات حواسية أخرى كاللمس والشمّ، ويتم التوصّل إلى تقديم تعدّدي الاتّصال يتوجّه فيها الحاسوب إلى حواس المشترك جميعاً، وحيث يصبح هذا الأخير مشاهداً وتتحول الموسوعة إلى تلفزة تبادلية أو إلى واقع خلّبي.

(1137) Bolter, 1991, cit., p. 112.

(١١٣٨) بعدَ إنجاز الطبعة الأولى لـ (L' Encyclopédie) عام ١٧٥١، العمل الموسوعي الأكثر نجاحاً بالمعنى القروسطي والموسوعة الأولى من نوعها بالمعنى الحديث. وقد تتالت، فيما بعد، الأعمال الموسوعية، بدءاً من موسوعة (Encyclopédie Metropolitain) عام ١٨٤٩، وحتى الموسوعة البريطانية عام ١٩٧٤.

إن برنامجاً إلكترونياً من هذا النوع من شأنه أن يسهم في إعطاء المعرفة بنية تترابط داخلها كلمات وصور وفيديو وأية مواد أخرى قابلة للتحوّل إلى أرقام، بحيث يتم تأليف كتاب إلكتروني قوامه شبكة عناصر يستطيع المتلقّي أن يسافر عبرها[1139].

• المكتبة الإلكترونية

تتّبع المكتبة المتعارف عليها ككتاب متّسع الأبعاد، عكس الاستراتيجية المتّبعة في تصميم الموسوعة، ففي حين أن هذه الأخيرة تعمد إلى امتصاص الكتب واستقلابها، تحاول المكتبة ممارسة سيطرة على المعرفة عبر جمع أكبر كمّية من المؤلّفات داخل بنية مادّية ومفهومية واحدة. وتعدّ المكتبة التعبير الملموس للمساحة المكتبية للكتابة في ثقافة معيّنة[1140]. أما فيما يتعلّق بخطوط تطوّر مساحة المكتبة، فهي شبيهة بتلك المعتمدة في الموسوعة. ولا تتبنّى المكتبات الحديثة أبداً ترتيباً أبجدياً بحتاً، بل تعتمد أيضاً تصنيفاً موضوعياً يتّجه تدريجياً نحو التعقيد والتخصّص.

في مكتبة إلكترونية كاملة، تخزّن الكتب إلكترونياً ولا تعود المكتبة مبنى على القارئ أن يزوره، بل تصبح محطّات مركزية ووحدات تخزين وأدوات اتّصال يجب أن تجد لها موضعاً فيزيائياً، إلاّ أن القارئ لا يحتاج إلى رؤيتها، إذ يستطيع أن يقوم بعملية بحث إلكتروني عن الكتاب الذي يريده والذي يمكن أن يجده على أكثر من رفّ.

وإذا كانت المكتبة الحقيقية تمنح القارئ متعة البحث المادّي عن كتب تهمّه، فإن المكتبة الإلكترونية تستطيع إعطاءه ذات الإمكانية من خلال شاشة إلكترونية تحتوي محاكاة لكتب مرصوفة فوق رفوف يستطيع القارئ أن يمسك بها وأن يفتحها.

إن أي مكتبة ضخمة تحتوي كتباً مطبوعة، تتعرّض للتغيّر باستمرار لدى وصول كتب جديدة، كما تتعرّض للتوسّع وإعادة الترتيب الفيزيائي للرفوف. غير أن الوضع المثالي للمكتبة لا يكمن في التغيّر بل في المحافظة. ولقد اكتسبت المكتبات مكانة مميّزة عبر العصور لأنها تحافظ على مؤلّفات وأعمال فكرية لكتّاب الماضي الذين يحظون باحترام القرّاء المعاصرين.

لا شك أن المكتبات الإلكترونية أيضاً تحافظ على معارف الماضي وإن بصورة

(١١٣٩) لمزيد من التفصيل حول الموسوعة الإلكترونية، اقرأ :
- Grolier Electronic Publishing, The Electronic Encyclopedia on CD-ROM, Grolier Electronic Publishing, Danbury, CT. 1988.

(1140) Bolter, 1991, cit., p. 126.

نقلية، ولكن الاحترام الذي تتمتّع به أي مكتبة تقليدية تحتضن أعداداً هائلة من المخطوطات والكتب المطبوعة، ينبع من أن البناء الذي يحتويها هو عبارة عن ضرب من الكتابة الصرحية ومساحة للكتابة والقراءة مصنوعة من حجر، بينما لا يوجد أي شيء صرحي في مكتبة إلكترونية تفتح أبوابها للقارئ على شكل قرص مدمّج أو كلمة سرّ (password) يجري اصطفاؤها على الشبكة الاتّصالية.

يبلغ عمر المكتبة الإلكترونية بضع عشرات من السنين، إذ ظهرت أول قواعد بيانات (database) بيبليوغرافية ونصيّة في الستينيات، وكانت كلفتها عالية فاقتصرت على القطاعات الصناعية والطبية والقضائية والعلوم الأساسية. أما اليوم فإن كلّ أنواع المعلومات تحوّل إلى قواعد بيانات، وهناك قواعد بيانات أخرى اتّجهت نحو تشييد مكتبات إلكترونية علمية.

وقد أدّى الاندفاع نحو صنع قواعد بيانات شمولية في الولايات المتحدة إلى موضعة معلومات شديدة التنوّع داخل بيئة إلكترونية واحدة أطلق عليها مشروع بيرسوس (perseus) الذي كان يرمي إلى جمع مكتبة إلكترونية لمؤلّفات حول الدراسات الكلاسيكية، بهدف وضع كلّ المواد المتوافرة في مكتبة بحثية صغيرة وإقامة ترابطات إلكترونية فيما بينها.

يقول كرين[1141] إنه بوضع أطلس وقاموس ومجموعة نصوص على قرص صلب واحد، يتم الحصول على ما هو أكثر من توافر ثلاثة عناصر من المعطيات، ذلك لأن كلّ عنصر يمارس تأثيراته على شكل العنصر الآخر.

والنتيجة التوصّل إلى مكتبة كوكبية، أي إلى فضاء جديد للكتابة والقراءة، يمكن استخدامه من قبل عدة مشتركين في وقت واحد. وقد أسقط مشروع بيرسوس أيضاً، بهذه الطريقة، التمييز بين الكتابة العامة والكتابة الخاصة، فالحاسوب يضع بتصرّف القارئ جميع الأشكال العامة للكتابة، ويتيح، في الوقت نفسه، للفرد أن يعمّم جميع أعماله.

لقد تمّ تصميم مكتبات إلكترونية كوكبية، كان أهمّها مشروع كسانادو (Xanadu) الذي طرحه تيد نيلسون، مقترحاً أن تكون مكتبة مدفوعة الخدمة، وأن تتحوّل تدريجياً إلى فضاء كوكبي للكتابة.

(١١٤١) لمزيد من التفصيل، اقرأ :
- G. Crane, " Redefining the Book : Some Preliminary Problems, Academic Computing, n° 2&5, 1988.

يقول نيلسون[١١٤٢] إن المشروع يطرح عصراً معلوماتياً جديداً وشكلاً جديداً للقراءة الفورية وعالماً كاملاً ينتظر الكشف عنه. ويبني نظام المشروع المعلومات من خلال تصميم وصلات بين نص مفرد وكلّ النصوص الأخرى، ومن خلال إيجاد روابط بين تلك الوصلات وهكذا.. وحسب صاحب المشروع فإن استخدام الروابط بين مختلف الوصلات لكتابة المعطيات الأولية وتنظيمها ولتمثّل الوصلات المكتوبة فيما بينها، تقدّم بنية كوكبية للمعطيات يمكن إضافة أي معطى آخر إليها.

غير أن مصمّمي الكسانادو يتطلّعون نحو بناء صرح أكبر بكثير من مجرّد خلق بنية معلوماتية للمعطيات، إنهم يتخيّلون فضاءً مفهومياً واحداً يعمل عليه كتّاب وقرّاء العالم بأسره. أي أنهم يخطّطون لبناء شبكة كوكبية قادرة على خدمة مئات الملايين من المشتركين بشكل فوري ومتزامن، عبر إمكانية الوصول إلى الجسم المخزّن لجميع المكتوب والغرافيكي والمعطيات المنتجة في العالم[١١٤٣].

غير أن بعض مصمّمي المشروع فضّل التركيز على الأبعاد الفردية، أي على كيف يمكن لفضاء كتابي بهذا الاتّساع أن يقدّم نفسه للكاتب والقارئ الفرد. وقد نشأ عن هذا التفكير مشروع تابلت (Tablet) الذي هو عبارة عن حاسوب بحجم دفتر العناوين والهواتف، يتمثّل النص والغرافيك والصور بوضوح يضاهي وضوح الصفحة المطبوعة، وبمقدور المشترك أن يسجّل كلمات أو أن يرسم على الشاشة بواسطة قلم إلكتروني. ويجسّد تابلت أيضاً نظاماً شمولياً محمولاً، يستطيع أي مشترك أن يقرأه أو أن يكتب عليه[١١٤٤].

لا شك أن فكرة تشييد مكتبة إلكترونية كوكبية الأبعاد ستصطدم بمعوقات سياسية واجتماعية كبيرة، غير أن مكتبة من هذا النوع مرشّحة للاستمرار والتطوّر، لتغدو سمة مميّزة للعصر الكتابي الإلكتروني.

ستبقى المكتبات القائمة لفترة من الزمن محتفظة بملامحها الهجينة التي تجمع بين مواد إلكترونية للقراءة و خدمات معلوماتية وبين مطبوعات مكتبية وصحفية عائلية. ولكن المركز أخذ يتحرك تدريجياً من العناصر الفيزيائية المادّية إلى العناصر

(١١٤٢) لمزيد من التفاصيل، اقرأ :

- T. Nelson, " The Xanadu Paradigm, Project Xanadu ", Published Broadsheet, San Antonio, TX, 1987.

(١١٤٣) لمزيد من التفاصيل، اقرأ :

- T. Nelson, " Literay Machines 90/1 ", by T. H. Nelson, 1990.

(١١٤٤) لمزيد من التفاصيل حول نظام التابلت، اقرأ :

- L. Young & Ath., " Academic Computing in the Year 2000 ", Academic Computing, vol. 20, 1989.

الإلكترونية، وستكتسب المكتبة عين الطبيعة الهشّة للتقانية الإلكترونية، حيث ستختفي الأبنية الملموسة والبنية المفهومية الثابتة، لتصبح شبكة من العناصر دائمة التطوّر.

وسيؤدّي كلّ ذلك إلى تحقيق هدف مشترك لجميع العصور الإنسانية، وهو تحويل المكتبة إلى كتاب كبير وإلى بنية أكثر اتّساعاً مؤلّفة من ذات العناصر ومفصلة في ذات الفضاء الكتابي للكتاب[١١٤٥].

• كتاب الحقبة الإلكترونية

إن نظام القراءة بطريقة الفيديو في مشروع تابلت هو محاولة لتجاوز حدود الكتاب التقليدي، ولوضع عالم الكتابة بأسره في بوتقة واحدة. غير أن التابلت يحمل أيضاً الكتاب على طرقات الكوكب الأرضي، فالمشترك حرّ في أن يذهب إلى أي مكان، وعندما يكتب أو يتحدّث مع النظام، فإن المعلومة تمر عبر شبكة لا تستطيع التميّيز بين عالم الطبيعة والعالم الرمزي للمكتبة[١١٤٦]. إن المشترك الموجود في أي مكان يبثّ معلومات يستطيع أن يستخدمها أي كاتب أو قارئ مهتمّ، هذا يعني أن العالم قد أصبح نوعاً من الكتاب العملاق يمكن طبع الآثار الإلكترونية فوقه. وكما مشروعات أخرى كثيرة، فإن التابلت هو عبارة عن تقانية للكتابة فوق العالم[١١٤٧].

إن الكناية التي تجعل من العالم كتاباً ليست تراثاً خاصاً بالعصر الإلكتروني. ففي مراحل معيّنة من تاريخ الكتابة غدا الكتاب تورية للطبيعة في مجملها واستعارة للعقل الإنساني على وجه الخصوص[١١٤٨].

(1145) Bolter, 1991, cit., p. 133.
(1146) Ibid.
(1147) Ibid.

(١١٤٨) كانت الحقبة القروسطية تحتوي العالم من خلال أعمال مفتاحية كأعمال أغوستينو وأرسطو؛ وكانت تفترض أنه من داخل هذه الأعمال تعبّر البنية الواقعية للكون عن نفسها، وبالمقابل، فإن الكون نفسه اعتبر ضرباً من كتاب كبير. وكان طموح الموسوعيّين واللاهوتيّين آنذاك يتجلّى في جمع خيوط المعرفة في نص واحد عملاق، في موسوعة أو مجمع يعكس التعاليم التاريخية والإيمانية، تماماً كما تعكس كلمة الله كتاب العالم أي الطبيعة.

الواقع أن الإنسان حاول دوماً، وفي جميع العصور، أن يستوعب في فضاء كتاب كلّ معرفة الزمن. فالثقافة العلمانية أيضاً عملت على احتواء كتاب الطبيعة في المكان والزمان، ويترجم سعي الإنسان اليوم نحو بناء موسوعات ومكتبات إلكترونية كونية هذه الرؤية وهذا التوق الأزلي داخل سياق الوسيلة الإلكترونية.

- لمزيد من التفاصيل، اقرأ:

لا شيء في الكتاب الإلكتروني يتطابق تماماً مع المؤشّر التحليلي للكتاب المطبوع. فقائمة الخيارات (menu) يمكن أن تدلّل على العلاقات المنطقية بينّ الموضوعات، ولكن ليس ثمة ترتيب محدّد أو سطري للصفحات تدل القارئ على كيفية التحرك عبر هذه التراتبية. بهذا المعنى، يعكس الكتاب الإلكتروني عالماً طبيعياً مختلفاً تميّزه وشائج متعدّدة تتّجه دوماً نحو التطوّر.

باستعادة تورية الكتاب/ العالم، يمكن القول إن الكتاب الإلكتروني يجسّد تورية للرؤى المعاصرة للطبيعة الأفضل للكتاب المطبوع. الواقع أن الطبيعة تميل إلى أن ينظر إليها اليوم كشبكة نوعية وأنظمة ذات تبعية متبادلة، وليس كتراتبية.

لقد تخلّت علوم الطبيعة عن السلسلة الكبيرة للوجود منذ أكثر من قرن، أي قبل ظهور الحاسوب بزمن طويل. وفي وقت أقرب، ولكن أيضاً قبل الحاسوب، تخلّت الفيزياء عن الرؤى السطرية للمادة وللطاقة. غير أنه بظهور الحاسوب دخل الإنسان في ملكية تقانية كتابية منسجمة مع المفهوم العلمي المعاصر للكون.

من الأهمّية بمكان إنجاز عملية ربط بين تلك الرؤية حول الطبيعة وبين تقانية الكتابة الإلكترونية، لكي يتم تحقيق قفزة علمية وتقانية غير مسبوقة في تاريخ الإنسانية.

* * *

- R. Curtius, " European Literature and the Latin Middle Ages ", Ed. Princeton University Press, Princeton, N.Y., 1973.
- M. Gellrich, " The Idea of the Book in the Middle Ages : Language Theory, Mythology and Fiction ", Ed. Cornell University Press, Ithaca, N.Y., 1985.
- Bolter, 1991, cit..

وتقدّم لنا الحضارة العربية والإسلامية أمثلة كثيرة على هذا الموضوع، فقد أمر ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بجمع آيات القرآن الكريم في كتاب واحد، وتمّ إنجاز هذا العمل في عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ولذلك أطلق على أوّل نسخة مدوّنة لكتاب الله المصحف العثماني. وجاء هذا الجهد تحقيقاً لقوله تعالى ﴿إنّا نحن أنزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾.

وقد حفل العصر العبّاسيّ بأعمال جمع وتدوين للأحاديث النبوية الشريفة، على يد نخبة من علماء المسلمين الذين أنفقوا حياتهم في التحقّق من صحّة تلك الأحاديث وأصالتها، وقد أودعوها كتباً غدت مصادر للسنّة النبوية الشريفة الرافدة لكلام الله، وهي مؤلّفات قيّمة تحظى بإجماع الذين يعتبرونها مرجعيات أساسية للسنّة النبوية، أهمّها صحيحا مسلم وبخاري وصحيح الترمذي وغيرهم.

الفصل الثاني

خصائص النصّ الإلكتروني المنهل

تمهيد

يتّضح من كلّ ما سبق أن النص المكتوب هو بنية فضائية تورّط بنية زمانية، لأن الكتابة، كما يقول بولتر [1149] تدوّر أو تخرط الزمان في فضاء. وترتبط العلاقة الخاصة التي تقام بين زمان ومكان النص بتقانية الكتابة المستخدمة، في حين أن البنية الزمانية للنص تولد من اللقاء الذي يتحقّق، لحظة بعد لحظة، بين القارئ وتلك العناصر المتنوّعة.

ضمن هذا الإطار يمكن القول إن قراءة نص ما تعني خيار اتّباع مسارٍ وحيد بين مسارات عديدة يعرضها تموضع هذا النص. وقد كانت الكتابة القديمة في أصولها، شديدة السطرية، إذ كانت عبارة عن تتابع للحروف يحوّلها القارئ إلى أصوات. وكان لبعض هذه الكتابة، كما في اليونان القديمة، أسلوب دوران ثور الساقية، حيث كان السطر يجري بشكل منتظم من اليسار إلى اليمين وكان ينعطف في نهاية السطر ليبدأ من اليمين إلى اليسار. وكانت هذه التقانية، بطبيعة الحال، تعطي النص سطرية متقنة. إلاّ أن الصحيفة الحديثة قدّمت، عبر صفحاتها وأبوابها المتنوّعة، مسارات متعدّدة. وتقع الموسوعة بين هذين النقيضين، إذ أن المقالات المفردة مصمّمة لكي تقرأ بشكل سطري، ولكن تصنيفها الأبجدي يجعلها قابلة لقراءات متعدّدة الأشكال.

أما البنية الفضائية للكتاب المطبوع، فهي تتحدّد، بشكل عام، عبر تموضع الفصول في الصفحات، وعبر قدرة المؤلّف على توجيه القارئ نحو مسارات بديلة من خلال

(1149) Bolter, 1991, cit., pp. 135-152.

تضمين نصّه إحالات وتلميحات تدفع المتلقّي إلى القفز من نقطة إلى أخرى. ويسهّل الكتاب المطبوع هذه العملية باستخدام هوامش سفلية وإحالات إلى صفحات معيّنة. ولكن، ورغم ذلك كلّه، فإن النظام الطاغي للكتاب المطبوع، والذي هيمنت تقانيته النصّية على مختلف أشكال الثقافة مئات السنين، يفرض مسار السطر بعد السطر، من البداية إلى النهاية. وهذا بالضبط ما استطاعت تقانية الكتابة الإلكترونية، منذ العقد الأخير من القرن الماضي، نقضه ودكّ أسسه، مقدّمة نصّية جديدة تعتمد نموذج نوافذ وصوَر تعرض على شاشة حاسوب.

مفهوم النصّية الإلكترونية

يقول ويتغنشتاين " إن مقاربتي المعهودة للمشكلات ليست مباشرة (س ←) وإنّما تتطلّب التفافاً (س ∩). أرنو باستمرار إلى ما وراء، ولكن من موقف دوماً أكثر قرباً "[(١١٥٠)].

أيضاً أفلاطون لم يكن يميل إلى عرض نظامه على شكل خطّي، أي عبر صيرورة سطرية حيث يمارس المؤلّف، بشكل مفتوح، سيطرته على الموضوع الذي يطرحه. ويقول بولتر إن الكتّاب الأكاديميّين المعاصرين وكتّاب المنتي سنة الأخيرة لهذه الحقبة الطباعية الناضجة، تقبّلوا على مضض أشكالاً للتعبير مختلفة عن تلك السطرية. وقد دعّمت الطباعة هذا الاتّجاه، غير أن الحاسوب عاد فوضعها موضع نقاش.

ولكن قبل ظهور الحاسوب، طرح بعض المفكّرين موضوع السطرية بمفتاح نقدي، منطلقين من إحساسهم بمحدودية البنيات التقليدية. وقد تجلّى إبداع المفكّر الفرنسي رولان بارتز[(١١٥١)] في كسر الأشكال السطرية للكتابة، إذ تميّز مؤلّفه النقدي (S/Z) حول رواية قصيرة لبلزاك، بالتشظّي وببروز عناصر قطيعة متعمّدة مع السطرية، وبوجود انقطاعات مستمرّة في النص النقدي.

وقد اعتبرت كتابة بارتز هابطة بمعنى أنها تبتعد بشكل متعمّد عن الشكل المثالي للكتابة في حقبة الطباعة. ومن الطبيعي أن تبدو نثرية الناقد الفرنسي جدلية الطابع ومتمرّدة. غير أن كتّاباً آخرين، مثل كيركيغارد ونيتشه وويتغنشتاين، هاجموا، كلّ على طريقته، فكرة تطوّر أشكال كتابية منتظمة وسطرية.

(1150) P. Baker & S. Hacker, " Understanding and Meaning ", Ed. University of Chicago Press, 1980, p. 23.

(١١٥١) مزيد من التفصيل في :

- R. Barthes, " S/Z ", Ed. Seuil, Paris, 1970, trad., Einaudi, Torino, 1973.

ولقد مارس الأستاذ الجامعي الشهير ويتغنشتاين تأثيراً كبيراً على جيل كامل من الدارسين الإنجليز لفلسفة اللغة، ويعدّ ويتغنشتاين، كما سقراط، نوعاً من مضادّ الكاتب، إذ أنه لم يتمكّن أبداً من إسقاط فكره ضمن نطاق أشكال تراتبية وسطرية، وظلّت إسهاماته الفلسفية منتشرة داخل شبكة فضائية مترابطة، تجسّد خصائص النصّية المنهلة.

وهكذا، فإن بارتز وويتغنشتاين رفضا الطرح الفكري السطري رغم اضطرارهما إلى العمل داخل الشكل الفيزيائي للكتاب المطبوع بمظهره وقوامه[(١١٥٢)].

(١١٥٢) في مطلع القرن العشرين، أي قبل بوش ونيلسون وبارتز وويتغنشتاين بعشرات السنين، مارس الروائي الأرجنتيني ج. ل. بورغس النصّية المنهلة مستخدماً خصائصها وطرائقها بأسلوب قصصي تتجلّى فيه كلّ مقوّمات الخيال الإبداعي. ففي أحد أهم مؤلّفاته : " كتاب الرمل "، تحكي إحدى شخصيات الرواية :

منذ أشهر، سمعت طرقاً على الباب، فتحت ودخل شخص مجهول، دعوته إلى الجلوس.. " أبيع أناجيل " قال لي.. خيّم صمت ثم قال : " لا أبيع فقط أناجيل. أستطيع أن أريك كتاباً مقدّساً " ووضعه على الطاولة. تفحّصته وأدهشني وزنه غير المألوف.. فتحته لا على التعيّين، الكتابة لم تكن مجهولة.. النص كان مكثّفاً ومنسّقاً في مقاطع شعرية. في الزوايا العلوية للصفحات كانت هناك أرقام عربية. وكانت هناك رسوم توضيحية كما نجد عادة في القواميس: مرساة مرسومة بقلم. عندئذ قال لي المجهول " أنظر إليها جيّداً، لن تعود إلى رؤيتها أبداً ".. أغلقت الكتاب ملاحظاً النقطة التي كنت فتحته عندها.. ثم عاودت فتحه فوراً. بلا جدوى بحثت عن رسمة المرساة.. قال لي أنه " كتاب الرمل "، لأن هذا الكتاب والرمل ليست لهما بداية ولا نهاية.. طلب مني أن أبحث عن الصفحة الأولى. بحثت عنها بإبهامي الملتصق تقريباً بالسبابة. لا فائدة. بين الغلاف واليد كانت تتدفّق دوماً صفحات جديدة.. وكأنّما كانت تنبع من الكتاب.. ليس معقولاً، ولكنه هكذا. عدد صفحات هذا الكتاب هي بالضبط لانهائية.. سجين الكتاب، لم أعد أخرج من المنزل. فحصت الغلافين الأمامي و الخلفي المهترئ للكتاب بعدسة مكبّرة.. بدأت أسجّل على دفتر أبجدي امتلأ في وقت قصير. لم تتكرّر الكلمات والصفحات أبداً.. في الليل كنت أحلم بالكتاب.. في نهاية الصيف فهمت أن الكتاب كان مرعباً.. أحسست أنه مسبّب للكوابيس، أنه شيء قبيح يسيء ويفسد الواقع.. فكّرت في النار، ولكنني خشيت أن يتحوّل حرق الكتاب اللانهائي إلى حريق لانهائي يخنق دخانه الكوكب الأرضي.. تذكّرت أنني قرأت أن المكان الأفضل لإخفاء ورقة شجر هو الغابة.. قبل أن أحال على التقاعد، كنت أعمل في المكتبة الوطنية.. تحيّنت لحظة غفلة للموظفين لإضاعة كتاب الرمل في أحد الأرفف الرطبة.. شعرت بقليل من الارتياح.

- وفي مؤلّف آخر لبورغس " مكتبة بابل " نقرأ في أحد الفصول :

ثمة مثال آخر على مضادّ الكاتب يتجلّى في مؤلّف غلاس (Glas) لجاك ديريدا[١١٥٣]، فصفحات الكتاب مقسّمة إلى عمودين : يتضمّن العمود اليساري مستخلصات تعليقية لهيغل، ويحتوي العمود اليميني نقداً للروائي الفرنسي جينيت. وتحتضن فصول المؤلّف فصولاً أخرى محاذية وهناك أشكال وأساليب مختلفة للحروف تعطي الصفحة شكلاً غير مألوف، حيث لا يوجد أي موضوع سطري يخترق الأعمدة، ما يدفع القارئ إلى التحرك عبر الصفحة بحثاً عن ارتباطات بصرية وكلامية. وتحيل كلمات ومقاطع، داخل تلك الارتباطات، القارئ باستمرار من هيجل إلى جينيت وبالعكس.

بهذا الشكل، استطاع كاتب غلاس تصميم فضاء نصّي وعمد إلى تحدّي القارئ في

" إن المكتبة المتاهية لبابل هي بناء عملاق، هي عالم حيث يولد الناس ويحيون ويموتون، ولكنها، بالأخص، مكتبة شاملة.. أرففها تسجّل كل التراكيب الممكنة للرموز الخطّية الخمسة عشر، أي كل ما يمكن التعبير عنه في جميع اللغات.. كل شيء.. عندما أعلن أن المكتبة تحتوي على جميع الكتب، الانطباع الأول كان إحساساً بسعادة استثنائية. كل الناس شعروا بأنهم أرباب كنز سرّي لم يمس.. في ذاك الوقت تم الحديث كثيراً عن الانتقامات : كتب تقريظية وتنبّؤاتية تبرّر إلى الأبد أعمال كل شخص في الكون ويبدو أنها أركان ممتازة لمستقبله. آلاف الطموحات تركت الطابق الأرضي ورمت بنفسها نحو السلالم، مدفوعة بأملها الميؤوس منه في إيجاد ثأرها.. نعرف أيضاً عن خرافة أخرى في ذاك الزمن : هي خرافة رجل الكتاب. في أحد الأرفف. قال الناس، يجب أن يوجد كتاب يكون مفتاح وخلاصة كل الكتب الأخرى : لقد قرأه أحد المكتبيّين. وهو شبيه بالإله . في لغة تلك المنطقة ما تزال محفوظة بعض آثار العبادة لهذا المكتبيّ القديم. كثيرون طافوا للبحث عنه، اندفعوا بلا جدوى في أكثر الممرّات نأياً.."

- لعلّ كتاب بورغس " حديقة المسارات التي تتشعّب " يعدّ الأكثر والأعمق تعبيراً عن مفهوم النصّية المنهلة وفلسفتها :

في أحد المقاطع، هناك الكتاب المتاهي الذي كتبه " تسوي بين "، حيث يصف ويتأمّل البنية الاستثنائية : فانغ لديه سرّ، مجهول يقرع بابه، فانغ يقرّر قتله. فانغ يستطيع أن يقتل الدخيل، الدخيل يستطيع أن يقتل فانغ، الاثنان يمكن أن ينجيا، الاثنان يمكن أن يقتلا.. في عمل تسوي بين، هذه البدائل قائمة جميعاً، وكل واحد منها هو نقطة بداية لتشعّبات أخرى "

- مزيد من التفاصيل حول مؤلّفات بورغس:

- J. L. Borges : " Libro di Sabbia " " Biblioteca di Babele " " Il Giardino dei Semtieri che si Biforcano "Ed. Mondadori, Opere complete, Milano, 1984.

(١١٥٣) لمزيد من التفصيل حول نظرية ديريدا، اقرأ :

- J. Derrida, " Glas ", Ed. Galilée, Paris, 1974.
- Derrida, " Living On ", in AA.VV., Deconstruction and Criticism: a Continuum Book " Ed. Seabury Press New York, 1979.

أن يتمكّن من تمييز مساره. من الواضح أن ديريدا كتب بطريقة طوبوغرافية أو تضاريسية وكأنه يستخدم وسيلة سائلة كتلك الإلكترونية.

بعد سنوات، تمكّن ديريدا في مؤلّف آخر[١١٥٤] من رسم خط فاصل بين الكتابة السطرية والكتابة غير السطرية، مؤكّداً أن الأولى كانت تضرب جذورها في ماضٍ من كتابة غير سطرية تعبّر عن رموزها بصورة متعدّدة الأبعاد، حيث المعنى ليس متقبّلاً للتتالي وللترتيب الزمني المنطقي ولزمنية الصوت الذي يتّصف بخاصّية اللاعودة.

وفي النهاية يعبّر ديريدا عن اعتقاده بأن ثمة إمكانية لكتابة جديدة غير سطرية من شأنها أن تؤدّي إلى إعادة قراءة للنصوص القديمة بموجب تنظيم مختلف للفضاء.

ويبشّر ديريدا بنهاية الكتابة السطرية التي تترافق مع نهاية الكتاب. غير أن بولتر يؤكّد أن الوسيلة الإلكترونية التي تجسّد إعادة تحديد للكتاب قادرة على احتواء أشكال التعبير السطرية وتلك غير السطرية معاً.

الحقيقة أن كتاب ديريدا يستفز القارئ التقليدي ويثير استياءه، إذ يعتبره نوعاً من الإهانة للكتابة المطبوعة التراثية. ذلك أن غلاس يسهم في بزوغ شبكة من العلاقات المستترة عادة تحت سطح الصفحة المطبوعة، ويطمس ذلك التقديم الترتيبي للمضامين الذي يتوقّع القارئ أن يجده في الكتاب. والواقع أن مؤلّف ديريدا ينتمي إلى الوسيلة الإلكترونية حيث تعدّ تلك الارتباطات النصّية مألوفة. ففي الكتابة الإلكترونية، كما يقول بولتر، يمكن لجميع العلاقات التي تربط عناصر النص أن تطفو على السطح.

بالإضافة إلى ذلك، فإن دعوة غلاس لقرّائه بأن يتّخذوا موقفاً نشيطاً بل وعدائياً في عملية بنائهم للنص، تمثّل وصفاً مسبقاً للكتابة الإلكترونية، لأن الأداة المعلوماتية الجديدة تشجّع المؤلّف على تدشين حوار جديد مع القارئ يحلّ محلّ المونولوج التقليدي للمؤلّف المطبوع، وهو حوار شديد الشبه بالحوار السقراطي الذي يتيح للمحادث الآخر أن يسيطر جزئياً على الموضوع المطروح للنقاش.

وفي حين أن المؤلّف التقليدي يتحدّث باسمه ويتحمّل وحده مسؤولية نصّه، فإن الحوار يتحدّث بأكثر من صوت موزّعاً المسؤولية بين الكاتب وقرّائه الذين يتحمّلون هم أيضاً جزءاً من العواقب الناجمة عن التعامل مع النص.

وهكذا، فإن الكتابة الإلكترونية تحتّم ضرورة إعادة تحديد معنى التراث التاريخي

(1154) Derrida, " Della Grammatologia ", Ed. Jaca Book, Milano, 1976.

بشكل يكشف عمّا تطلق عليه سونتاغ[١١٥٥] استحالة وعدم أهميّة إنتاج موضوعات بشكل منتظم واستمراري.

نشأة النص الإلكتروني الممنهل

كان أوّل من حقّق النص الممنهل(hypertext) على وسيلة إلكترونية*، جورج لاندو الأستاذ في جامعة جون هوبكنز في بالتيمور عام ١٩٩٢، و لم يكن يعلم حينذاك أن هذه التقانية الجديدة ستتحوّل إلى ظاهرة كوكبية الأبعاد، أو أنها ستحدث تغيّيرات جذرية في طرائق إنتاج المعرفة وبثّها وأرشفتها وتعميمها. كما لم يكن أحد يتصوّر أن شبكة إلكترونية شمولية، مؤلّفة من مئات الملايين من العقد ومسكونة بنصوص وصور وأصوات، ستنسج خيوطها خلال سنوات قليلة، موظّفة تقانيات النصوص الممنهلة داخل شبكات اتّصال ستبلغ درجة فائقة من التعقيد[١١٥٦].

(1155) S. Sontag, " A Barthes Reader ", Ed. Hill& Wang, New York, 1982, pp. XIV-XV.

• جرى استخدام بعض المصطلحات لكلمة (hypertext) باللغة العربية منها النص المفرّع والنص المتشعّب والنص التعدّدي والنص الفائق، إلاّ أن بحمل خصائص هذا النص تجعل - حسب اعتقادي - من مصطلح " النص الممنهل " الأفضل والأكمل نسبياً.

(١١٥٦) ثمة من تخيّل هذه الشبكة الكوكبية قبل أن تخرج إلى حيّز الوجود بعقود طويلة، إذ يعيد الباحثون المفهوم الأوّلي للنص الممنهل إلى مقال طليعي نشره فانيفر بوش عام ١٩٤٥ في إحدى المجلاّت العلمية، يتضمّن توقاً للكاتب إلى خلق آلات مرتبطة بأجهزة ميكانيكية قادرة على تجميع المعلومات، من أجل مواجهة ما كان يتحوّل آنذاك، إلى انفجار معلوماتي. ويقول بوش إن التجربة الإنسانية أخذت تتمدّد بمقاييس مذهلة، في حين أن الوسائل المستخدمة للوصول إلى موضوع معيّن يهمّ الباحث أو القارئ من خلال المتاهة المعرفية، ما زالت تستخدم ذات الأدوات التي كانت تستخدم في زمن القوارب الشراعية. ويعتقد بوش أن المشكلة الرئيسة هي مشكلة الاصطفاء - الوصول إلى المعلومات - وأن السبب الرئيس الذي يؤدّي إلى عدم تمكّن المحتاج إلى معلومات، من إيجادها، يكمن في عدم صلاحية أدوات تخزين المعطيات وترتيبها وتسجيلها.

ومن أجل تجاوز جمود وصعوبة الوصول، الناجمة عن وسائل إدارة المعلومات القائمة على المطبوع وعلى حوامل مادّية أخرى، من الضروري العثور على أداة ملائمة للطريقة التي يعمل بها العقل الإنساني، إذ يعتبر بوش أن عقل الإنسان لا يعمل كما الأرشفة التقليدية للمعطيات، بل يعمل بشكل اقتراني واشتباكي (associative)، ففي اللحظة التي تتوافر فيها فكرة أو فعل، يقفز العقل بصورة فورية إلى العنصر التالي الذي يخضع ، استناداً إلى نسيج من الحلبات المسجّلة في خلايا الدماغ، لتوجيه اقتران الأفكار. ولكي يتمّ التحرّر من محدودية التصنيف غير المتساوق مع التطوّر المعرفي وآليات عمل العقل الإنساني، يقترح بوش صنع جهاز أطلق عليه اسم =

قبل التسعينيات كانت شبكة الإنترنت تستطيع بثّ معلومات على شكل نصوص عادية فقط ، ولم تكن ثمة إمكانية في التحرك عبر معلومات الشبكة داخل بيئة غرافيكية، أي أنه لم يكن ممكناً الإبحار داخل المعلومات. غير أن باحثين في مؤسّسة (Cern) في جنيف اخترعوا تقانية أطلق عليها فيما بعد (//:Http) وهي تعني بروتوكول نقل النص الممنهل (Hyper Text Transfer Protocol) حيث يجري نقل المعلومات بأشكال ممنهلة من حاسوب لآخر، وحيث يمكن نقل وثائق ممنهلة والإبحار الغرافيكي بين مواقع الإنترنت.

بهذا الشكل ولد الرمز (.www) الذي يعني شبكة الاتّصال الشاملة، ونشأت معه برامج قادرة على الإبحار فيه كبرامج (Mosaic 1993) و(Netscape Navigator 1994) و (Internet Explorer 1995). وتتيح هذه البرامج تظهير الوثائق الممنهلة التي تشكّل الشبكة، أي تجعل متوافراً، من خلال الوجه لوجه والنص، صوراً وأفلاماً، وتستطيع أيضاً أن تعيد إنتاج أصوات مرقّمة.

= ميميكس (memex) ، قادر على تأليل منهج أكثر فاعلية وإنساني، لتحريك أفعال وتخيّلات، حيث يستطيع الإنسان أن يسجّل كتبه وأرشيفه ومراسلاته الشخصية على جهاز مؤلّل يمكن الرجوع إليه بسرعة ومرونة استثنائيّتين، لأنه بمثابة امتداد خاص لذاكرته الطبيعية. ويتيح ميميكس بوش أيضاً إمكانية أن يضيف القارئ إلى النص الأساسي ملاحظات هامشية وتعليقات مستخدماً الصور الجافة.

ويقول بوش إن الخصيصة الأساسية لهذه الآلة لا تكمن في قدرتها على الجمع والتسجيل فحسب، بل في قدرتها أيضاً على تنظيم إشارات اقترانية واشتباكية - وهو ما تطلق عليه الأنظمة الممنهلة اليوم الارتباطات (link) - قائمة على فكرة أن كلّ معلومة تجري موضعتها بشكل يمكن معه اصطفاء معلومة أخرى بصورة فورية وآلية.

ويصف بوش تلك الارتباطات التي تخيّلها بأنها عبارة عن حلبات لانهائية، مؤلّفة من كتل نصّية مترابطة، ويستخدم مصطلح عقدة وشبكة ليوضّح مفهومه الجديد للنصّية.

وقد مارست فكرة بوش حول الميميكس تأثيرات مباشرة على نيلسون وإنغليبرت وفان دام ومكتشفين آخرين للنص الممنهل، بمن فيهم مجموعة البحث التابعة لـ :

(Institute for Research in Information and Scholarship / Iris) في جامعة براون (Brown University) ، التي اخترعت وصمّمت وسيلة الاتّصال الترابطي (intermedia) .

- لمزيد من التفصيل حول تصوّرات بوش للنص الإلكتروني الممنهل، اقرأ :

- V. Bush," As we May Think " in Atlantic Monthly n° 176, July, 1945, in Nelson, , Literay Machines ", 1990, p. 1/49.

وفي نهايات العقد الأخير من القرن الماضي، خرج النص الإلكتروني المنهل من حرم الجامعات ومراكز الأبحاث لينتشر بسرعة مذهلة داخل مؤسّسات المجتمع الأخرى وحتى البيوت، ثم ليحقّق انتشاراً كوكبياً غير مسبوق في تاريخ الإنسانية.

خصائص النص الإلكتروني المنهل

عندما تناول مصمّمو البرمجيات صفحات المؤلّفات المطبوعة لديريدا ونيلسون وبارتز وفان دام، اصطدموا بنصوص مرقّمة وممنهلة وبرؤى تفكيكية وبَعْد - حداثية تقلب، رأساً على عقب، العديد من النظريات النصّية التقليدية في مجال العلوم والآداب.

يقول جورج لاندو[١١٥٧] إن هؤلاء الأربعة يطالبون بالتخلّي نهائياً عن الأنظمة المفهومية المستندة إلى فكرة المركز والهامش والتراتبية والسطرية، ويدعون إلى اعتماد أنظمة مفهومية تتيح تعدّدية السطرية والعقد والروابط والشبكات. والواقع أن جميع هذه العناصر المعنية بالتبدّل المفهومي الجذري للنص والتي تشكّل ثورة في الفكر الإنساني، تجد في الكتابة الإلكترونية إجابات مباشرة على إيجابيات وسلبيات الكتاب المطبوع. ولا شك أن لهذه الإجابات عواقب عميقة في مجالات العلوم والآداب والأنظمة التربوية والسياسة إلخ..

ويجيب بولتر[١١٥٨] على عنصر من عناصر تلك الإجابات إذ يؤكّد أن ما هو غير طبيعي في المطبوع يصبح طبيعياً تماماً في الوسيلة الإلكترونية وليس ثمة ضرورة في أن يعبّر عنه، لأنه من الممكن مشاهدته على شاشة الحاسوب.

ويصف بارتز[١١٥٩] النص الممنهل بأنه نص مؤلّف من كتل كلامية أو صورية مرتبطة إلكترونياً بموجب مسارات متعدّدة أو سلاسل ومسارات (trails) في نصّية مفتوحة وغير متناهية، تجمعها روابط (link) أو كما يقول بوش حلبات (pistes) أو عقد أو شبكات (network) متعدّدة تتعامل مع بعضها البعض دون أن تتمكّن أي شبكة من حجب الأخرى، ويحتوي هذا النص عوالم من حوامل المعنى وليس بنية من

(١١٥٧) لمزيد من التفاصيل حول النص الإلكتروني المنهل وتطوّراته النظرية، اقرأ:
- G. Landow, " Hypertext, The convergence of contemporary critical theory and technology ", The Johns Hopkins University Press, 1997.
- J. Nielsen, " Multimedia and Hypertext : The Internet and Beyond ", Ed. Academic Press, Boston, 1995.
- W. Hall&H. Davis&G. Hutchings, " Rethinking Hypermedia : The Microcosm Approach ", Ed. Kluwer, Boston, 1996.
(1158) Bolter, 1991, cit., p. 183.
(1159) R. Barthes, " S/Z ", cit., p. 11.

المعاني، وهو نص لا بداية له وقابل للارتداد، يمكن الوصول إليه من مداخل عديدة لا أحد يستطيع أن يؤكّد بصورة يقينية أن أحدها يشكّل مدخلاً رئيساً، ويحرّك هذا النص عدداً من الكودات المتنوّعة، وبمقدور أنظمة المعنى أن تستولي على هذا النص التعدّدي ولكن عددها ليس مغلقاً إذ تتقايس مع لانهائية اللغة.

كذلك فوكو[١١٦٠]، فإنه يرى أن النص الممنهل عبارة عن جملة من الشبكات والروابط، وأن حدوده ليست واضحة وليست محدّدة بشكل صارم، وأنه يقع ضمن نظام من الإحالات إلى نصوص أخرى وإلى مقاطع أخرى، ذلك لأن العقد الموجودة في شبكاته تحتوي آلية من الإحالات.

وكما جميع البنيويّين (structuralists) وبَعْد - البنيويّين (poststructuralists) يصف بارتز وفوكو النص، أي عالم الحروف، بسلطاته ووضعيته العلائقية، مستخدمَيْن ذات المصطلحات الواردة في دراسات النصوص الإلكترونية المنهلة. ويعني مصطلح النص الممنهل لتيد نيلسون الذي أطلق عليه هذه التسمية لأول مرّة في الستينيات، شكلاً من النص الرقمي ونوعاً جديداً تماماً من تقانية المعلومات ومن طرائق التعميم.

ويوضّح نيلسون[١١٦١] أنه يقصد بالنص الممنهل، بنية غير تتابعية، ونصاً ينساح متيحاً للقارئ الخيار في أن يستهلكه على الوجه الأفضل، أمام شاشة حاسوب تبادلي التفاعل، كما يقصد سلسلة من مقاطع نصّية تنشأ وتتحدّد فيما بينها روابط تسمح للقارئ بمسارات متباينة. بكلمات أخرى، يجد نيلسون في النص الممنهل الذي يحطّم المفهوم التقليدي للنصّية، نصاً مؤلّفاً من كتل نصّية، يطلق عليها بارتز لكسيات[١١٦٢]، ومن ارتباطات إلكترونية تجمع بين هذه الكتل، في إطار شبكة إحالات تفتّح حواف النص وحدوده، متيحة إمكانية تعدّدية التقاطعات، أو كما يقول لاندو متيحة استخداماً تعدّدياً واستمارتياً[١١٦٣]. ولا تتضمّن اللكسيات أو كتل العناصر الحاملة للمعنى أي محور تنظيمي رئيس، إذ أن النص الربطي أو التناصّ(intertext) فيها لا يمتلك أي مركز دائم[١١٦٤].

أما بولتر الذي يعتبر النص الإلكتروني الممنهل مساحة غير عادية للكتابة وكناية أخرى عن العقل الإنساني[١١٦٥] فيرى فيه سلسلة من الوحدات - مقاطع أو جمل أو

(1160) M. Foucault, " L'Archéologie du Savoir " Ed. Gallimard, Paris, 1969.
(1161) T. Nelson, " Literay Machines ", 1990, cit., p. 0/2.
(١١٦٢) اللكسية في اللغة اليونانية تعني الكلمة المفردة.
(1163) Landow, Hypertext, 1997, cit., p. 13.
(1164) Ibid. p. 63.
(1165) Bolter J. David, Degrees in Freedom, Altavista: http://w.w.w.Icc.gatech.edu/~bolter/degrees.html,1996.

كلمات – ومن روابطها، وصلات تربط بين هذه الوحدات، منظّمة على شكل مسارات، حيث يمكن لكلّ وحدة أن تشكّل جزءاً من عدّة مسارات، ولذلك، فإن معناها مرتبط بالمسار. بالإضافة إلى ذلك، يشير بولتر أن النصوص المنهلة هي بنية على شكل شجرة، حيث تستطيع المسارات أن تتحرّك في اتّجاهات متوالية، حسب نظام منطقي، أو أن تعبّر عن علاقات ثنائية بين وحدات، أي علاقات غير تراتبية، حيث تتيح الوسيلة الإلكترونية تعايشاً، ضمن نصّ واحد، بين التفكير التراتبي والتفكير التشابكي. ويرى بولتر أن النصّ المنهل لا يعني كتابة إلكترونية على مساحة معيّنة، وإنّما هو كتابة مع مساحات، أي مع وحدات مزوّدة بهويّة في الفضاء. ويعتقد بولتر أن شبكات النص المنهل يمكن أن تمتدّ، نظرياً، إلى ما لا نهاية[1166].

حول النص المنهل يقول بيير ليفي[1167] إنه فضاء الحضارة: فبعد فضاء الأرض وفضاء السلع، جاء فضاء النصّ المنهل للمعرفة.

ويعالج بيتيتيني[1168] مفهوم النص المنهل عبر اقتراب سيميولوجي، إذ يؤكّد بالنسبة لفئة المكان، أن النص الإلكتروني المنهل يتمتّع بخاصية تحديد تنظيم المضمون بواسطة الترابطية الشبكاتية التي من خلالها تتواصل العقد الفردية (النص الفردي) ضمن شبكة علاقات تمنح هذا النص المنهل معنى إضافياً يفوق معنى التجمّع العددي للنصوص الجزئية، وانطلاقاً من مفهومه هذا، يرى بيتيتيني في النص المنهل بعداً يسبق من ناحية، منطقياً وإجرائياً، الظهور المرئي للنص، ويشكّل سبباً له ويقوده، من ناحية أخرى: وهو البعد المنطقي الذي يكتسب قيمة مضمونية ويرتكز على تنظيم طوبولوجي شامل للمعاني، بأشكال لولبية، كوكبية، أو متوازية الخ..

دائما استناداً إلى فئة المكان، يبني بيتيتيني مستوى آخر، هو مستوى تقديم المضامين أو بالأحرى البعد المرئي للنص المنهل الذي يكتسب، بصورة رئيسة، بعداً تركيبياً يمكن تتبّعه، خاصة، في تقابل وجهي الإبحار داخل الإنترنت، من خلال نوع من التركيبية الداخلية التي تربط العناصر الجزئية للصفحة مع بعضها البعض، معطية إيّاها طبيعة فضائية ووظيفة اتصالية.

وأخيراً، يعرض بيتيتيني للبعد الثالث ألا وهو البعد الفاعل حيث يمتلك النص المنهل في داخله سلسلة من ديناميات الاستخدام التفاعلي، وحيث تهدف اللغة التفسيرية (metalanguage) التي تمنح خواصاً مميّزة لهذه الأشكال النصيّة، إلى نقل،

(1166) Ibid.
(1167) P. Lévy, " L'Intellectuel Collectif ", Ed. La Découverte, Paris, 1994, pp. 137-146.
(1168) G. Bettetini, " Gli Spazi dell'Ipertesto ", Ed. Bompiani, Milano, 1999, pp. 2/ 19-20.

ليس فقط معنى معيّناً، وإنما، وبشكل خاص، ضرورة تحقيق تفاعلية بين المرسل والمتلقّي.

في هذا البعد الفضائي والاتصالي، إذن، تبرز الطبيعة المنهلة للنص الرقمي كبنية قادرة على تجاوز خصائص المحدودية والثباتية للنص المكتوب، مجسّدة النص المنهل كشكل نصيّ متعدّد الاتجاهات، غير سطري، غير متتالي أو بالأحرى متعدّد التتابع، مع بدايات عديدة ونهايات عديدة[1169] حيث تتابع الكلمات المكتوبة يشكّل فقط حالة خاصة[1170] وحيث نقطة النهاية تبقى بالضرورة معلّقة[1171] والبنية تتّجه عملياً، وليس فقط افتراضياً، نحو بنيات أخرى[1172].

هذا الشكل الفريد من النصيّة، التي يتمدّد النص المنهل في داخلها[1173]، يحطّم مفهوم النص المفرد والموحّد، ويؤسّس مفهوماً جديداً أكثر سيولة وديناميـة للنص، معطياً رؤية تحتوي حقلاً من التنوّعات المبعثرة وليس كياناً مزيّف التوحّد[1174].

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا النسيج الفريد يدكّ أركان التراتبية[1175]، لأن طبيعة النص المنهل المناوئة للتراتبية والناجمة عن التعارض الأساسي للريزوما في مناوأة التراتبية، تتمثّل في تراكمات تربط الريزوما داخلها، أي نقطة مع أي نقطة أخرى، وكل واحدة من مقاطعها لا تحيل بالضرورة إلى مقاطع أخرى من ذات الطبيعة[1176].

الريزوما، إذن، ليس فعلاً أحادياً أو مسطّحاً بل فعل أبعاد تتجسّم أو بالأحرى فعل تعدّدية اتجاهية متحرّكة.

في نهاية المطاف، لا بد من التأكيد أن هذا النص الاستثنائي المبحر داخل الإنترنت التي تعدّ مكاناً طبيعياً ونظاماً حيّاً مستقلاً يتشكّل وينظّم نفسه[1177]، ليس فقط وسيلة للنص في أن يعبّر عن إمكاناته بطريقة مختلفة، موسّعاً ببساطة سلسلة الأشكال التي يمكن أن يتّخذها، وإنّما هو أداة ثورية تسهم، بصورة حاسمة، في انكماش الإنسان الطيبوغرافي ابن الطباعة في العصر الحديث، وانتشار الإنسان

(1169) Landow, Hypertext. 1997 cit.. 116.
(1170) Nelson, 1990, cit., p. 0/2.
(1171) Bolter, 1991, cit., p. 110.
(1172) Ibid., p. 8.
(1173) Nelson, 1990, cit., p. 0/2.
(1174) Landow, 1997, p.107.
(1175) Ibid., p. 67.
(١١٧٦) للتعرّف على مفهوم الريزوما في النص الإلكتروني المنهل بشكل تفصيلي، أنظر:
- G. Deleuze & F. Guatteri, " Mille Plateaux, Capitalism et Schizophrenie ", Les Editions de Minuit, Paris, 1980.
(1177) M. Mariocchi, " Ipertesti ", Ed. F. Angeli, Milano, 2000, p. 34.

الإلكتروني، مع كلّ ما ينجم عنه من تأثيرات عميقة في البنيات المادية والفكرية والروحية لمجتمعات ما بعد – الحداثة، في خضم صيرورات عولمية متسارعة.

• النصوص الخلّبية والبيئات الإلكترونية

يقول لاندو(١١٧٨) إن الرائز المعلوماتي على الفكر الإنساني يتأتى من عنصر أساسي هو أن المعلوماتية تخزّن المعطيات على شكل كودات إلكترونية وليس على شكل إشارات فيزيائية على أسطح مادّية.

منذ فجر الكتابة والطباعة، انصبّ الاهتمام على مشكلة صنع ومن ثمّ نشر تسجيلات ساكنة وثابتة للغة. وكما يؤكّد العديد من الباحثين، فإن هذه التسجيلات الساكنة تستطيع التغلّب على عنصري المكان والزمان، متيحة تقاسم معطيات مع أشخاص بعيدين مكانياً وفي أزمنة مختلفة.

وكما تقول إيزنشتاين(١١٧٩) فإن الطباعة تضيف، في هذا المجال، عنصراً غاية في الأهمّية ألا وهو إمكانية الحصول على نسخ لا حصر لها لوثيقة واحدة. إن هذا التكثير الذي يحمي النص مبعثراً نسخه، تسمح لقرّاء منفصلين مكانياً وزمانياً بأن يرجعوا إلى المعلومات نفسها، وتتيح تطوير مفاهيم جديدة للمعرفة والأصالة وحقوق التأليف.

لقد مارس النص الثابت ونسخه تأثيرات هائلة على المفاهيم الفكرية والتربوية والبحثية، ولكنه، كما يؤكّد بوش ونيلسون، طرح مشكلة يعاني منها أي نظام لجمع المعلومات قائم على جعل النص مادّياً، أي قائم على أرشفة المعلومات ضمن أداة سطرية ثابتة وتراتبية وغير قابلة للتغيّير، وهي صعوبة الوصول إلى هذه المعلومات. ولذلك، يشكّل الإعداد الإلكتروني للنص اليوم الاختراع الأهم بعد الطباعة، لأنه ينذر بممارسة تأثيرات على الثقافة والجدلية والنشاط الفكري برمّته، تفوق تلك التي مارستها حروف غوتنبيرغ المتحرّكة(١١٨٠).

إن النصوص التي تصنعها المعلوماتية النصّية هي نصوص إلكترونية وليس فيزيائية، ولا شك أن هذا الانتقال من الحبر إلى التكويد الإلكتروني، أو كما يسمّيه بودريار(١١٨١) الانتقال من اللمسي إلى الخلّبي، ينتج تقانية معلوماتية تزاوج بين

(1178) Landow, 1997, cit., p. 44.
(1179) E. Eisenstein, " The Printing Press as an Agent of Change ", Ed. Cambridge University Press, trad. " La Rivoluzione Inavvertita : La Stampa come Fattore di Mutamento ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1986, pp. 90-98.
(1180) Landow, 1997, cit., p. 44.
(1181) J. Baudrillard, " Les Stratégies Fatales, Ed. Grasset, Paris, 1983, in Landow, 1997, cit., p. 45.

الثباتية والمرونة وبين الترتيبية وسهولة الوصول إلى المعلومات، ذلك لأنه في حين يتطلّب التسجيل التناظري (analogic) إعداداً تسلسلياً وسطرياً، فإن التقانية الرقمية تلغي ضرورة التتالي متيحة الوصول مباشرة إلى معلومة معيّنة. بهذا الشكل، يستطيع التحول إلى الرقمي منع وتجميد وتجاوز السطرية والتمثّل الثنائي، واعتماد التعدّدية والتراكمية البنيوية للشبكات والتنشيط الأصيل للمتلقّي. من ناحية أخرى، بمقدور النظام الرقمي، كما يقول هايم(١١٨٢)، قصّ ونسخ وتحريك النصوص بسهولة كبيرة، ما يسمح بتكوين أشكال من الكتابة العلمية التي تحتوي كمّيات كبيرة من المعلومات، بما فيها العديد من النصوص الإضافية، والتي يسهل الوصول إليها بشكل فوري لأنها قابعة تحت السطح الإلكتروني للحاسوب. وتنبع هذه السهولة من قدرة الحاسوب على تنشيط أشرطة المعطيات بسرعة هائلة، متيحة البحث عبر كامل النص الذي يكبر ويتضخّم محقّقاً الترابط مع عالم المعلومات بأسره(١١٨٣).

بالإضافة إلى ذلك كلّه، فإن النص الخلّبي الإلكتروني، والذي يمكن تغيّير شكله وملامحه كما يحلو للقارئ، يمتلك القدرة على إضافة عنصر جديد تماماً ألا وهو الربط الإلكتروني أو الافتراضي (linkage)، الذي يخلق النص المنهل، أي ذلك الشكل من النصّية المؤلّفة من كتل وترابطات تسمح بقراءة تعدّدية المسارات.

غير أن الأهم من ذلك كلّه، أن الإعداد الإلكتروني للنصوص ينتج بالضرورة ترابطات من شأنها أن تنقل النصوص والقرّاء والمؤلّفين إلى فضاء جديد للكتابة(١١٨٤).

إن توافر عدّة مسارات للقراءة في النص الإلكتروني، يقلب التوازن التقليدي القائم بين القارئ والمؤلّف، إذ يخلق " النص المقروء " الذي يقول عنه بارتز إنه نص أقلّ استقلالية بكثير من النص المألوف نتيجة رفده بنصوص تعليقية وتفسيرية وملاحق من كلّ نوع. وهذا ما يؤدّي، ليس فقط إلى تقليص الفصل التراتبي بين النص الرئيس وملحقاته التي تتموضع هي الأخرى كنصوص وكوحدات قرائية ولكسيات مستقلّة، وإنّما أيضاً إلى تبدّد حدود النصوص المفردة.

وهكذا، فإن هذه البيئة الإلكترونية تعيد تشكيل المفاهيم السائدة حول المؤلّف وحقوق التأليف، ما من شأنه أن يمارس تأثيرات عميقة على طريقة حياة الإنسان، مؤلّفاً وسلطة تأليف ودارساً.

(1182) M. Heim, " Electric Language : A Philosophical Study of Word Processing ", Ed. Yale University Press, New Haven, 1987, pp. 10-11.
(1183) Ibid. p. 161.
(1184) Ibid.

• النص الممنهل وتبعثر المؤلّف

لا ريب أن جميع هذه الخواص للنص الممنهل تتسابق معاً لتجسيد التأثير الأكثر إثارة للاهتمام الذي تتجزه هذه الظاهرة المعلوماتية الجديدة، ألا وهو التبدّل الجذري في العلاقة القائمة بين مبدع النص والقارئ :

يقول لاندو إن عصر الطباعة اعتبر، لفترة زمنية طويلة، / الأنا / المؤلف خارج النصوص، كبرهان على وجود / أنا / موحّدة خلف النصوص وداخلها أو متضمناً فيها وأنه مع ظهور الأداة الرقمية، فإن هذه / الأنا/ المؤلّف أخذت تصبح شبكة مفكّكة[1185] وينظر إليها – حسب بارتز – كعقدة في شبكة معلومات[1186] وتعدّدية نصوص أخرى وكودات أخرى لانهائية[1187]. ويعتقد لاندو أن هذه التأثيرات التي يمارسها النص الممنهل في الإنترنت ترتدي ، أهمية كبرى لأن القارئ لم يعد أسير تنظيم وسجين تراتبية[1188]، ولأن ربط كتل من النصوص بكتل أخرى يجعل النص الممنهل الإلكتروني يبطل تماماً العزلة المادية للنص وكل السلوكيات الناجمة عن هذه العزلة، بالإضافة إلى أن أنظمة النص الممنهل تتيح سواء إمكانية متابعة نص مفرد، أو نص موصول بنصوص أخرى متقابلة أو متناقضة معه، ما يدمّر إحدى أهم خصائص النص المطبوع[1189]، لأن الروابط الإلكترونية التي تغيّر العلاقات الزمانية والمكانية لنص ما مع نصوص أخرى، كما يقول بولتر، تحدث تبدّلاً جذرياً في تجربة القراءة[1190] مانحة القارئ، أي المتلقّي، دوراً أساسياً.

أيضاً بولتر يعتبر أن اقتصادية وتقانية الطباعة تقوّي سلطة مؤلّف النص، ميسّرة تعميق الهوّة بين الكاتب والقارئ[1191]، ويرى في إعادة التحديد الجديدة لدور المؤلّف ودور المتلقّي في عصر الكتابة الإلكترونية، بروز حوار جديد، ذلك أن الأداة المعلوماتية الجديدة تشجّع المؤلّف على تدشين حوار جديد مع القارئ، حوار يحل محل مونولوج التأليف في مونوغرافية الطباعة التقليدية[1192]. يمكن القول، إذن، إن المساحة الإلكترونية الجديدة للكتابة، قادرة على تحويل القارئ من شخصية هامشية

(1185) Landow, 1997, p.129
(1186) Barthes, Ed, Einaudi, Torino, 1973, p. 15.
(1187) Ibid.
(1188) Landow, 1997, cit., p. 65.
(1189) Ibid., p. 117.
(1190) Bolter, 1991, cit., p. 189.
(1191) Ibid., p. 148.
(1192) Ibid., p. 151.

تؤدّي دوراً ثانوياً إلى عنصر ضروري في إنجاز الحوار النصّي، بل إلى طرف يستطيع مناوأة المؤلّف محاولاً توجيه النص نحو منحى لا يتوقّعه الأخير[1193].

لهذا كلّه، فإن مهمّة مؤلّفي الحوار الجديد، حسب بولتر، تؤدّي إلى بناء بنية خيارات بدلاً من المعالجة الوحيدة للموضوع، أي بنية تفاعلية داخل النص الإلكتروني المتحرّك أبداً وغير المعزول إطلاقاً عن الأطر المتغيّرة التي يضعه فيها المتلقّي. هذا يعني أن النص الممنهل، لا ينغلق على نفسه كعالم مستقل، ولكنه يتحرّك نحو نصوص أخرى، داخل سياقات متغيّرة، ويدعو القارئ إلى المشاركة في عملية البناء نفسها، وفي عملية تحديد هويّة النص الذي يتّسم ببناء معماري وبنية إحالات[1194].

والأهم من ذلك أن هوية النص الإلكتروني لا يمكن أن تخرج إلى حيّز الوجود إلاّ من خلال عمل القارئ أثناء عملية القراءة، فالحاسوب يتحدّى القارئ لكي يكافح مع المؤلّف من أجل السيطرة على فضاء الكتابة[1195].

في الواقع فإن التغييرات التي يحدثها النص الإلكتروني في النصيّة تعيد تشكيل دور المؤلّف ودور المتلقّي:

فوضعية الأول تقترب من وضعية الثاني الذي يصبح طرفاً نشيطاً، مقلّصاً دور المؤلّف ومكتسباً حرية واستقلالية كبيرتين في عملية بناء المعنى. ويرى بولتر أن هذا التقاطع بين نشاطين يعيد طرح النقاش حول مفهوم سلطة المؤلّف وصورته التقليدية، حيث يفقد، في هذا الإطار، خواصه التخويفية والنبوآتية مرتدياً زيّ الحرفي[1196].

إن كلّ هذه الخواص النصيّة الممنهلة، تتضافر لتحدث، مجتمعة ومتفاعلة فيما بينها، التغيير الأهم الذي يكمن، كما يقول باولسون[1197]، في أن هذه التقانية الجديدة تطلب إلى القارئ ليس التلقّي فحسب، بل البناء النشيط والمستقلّ والاستقلالي، للمعنى.

ولعلّ من أهم الأفكار التي طرحها بارتز وديريدا وفوكو بهذا الصدد تتعلّق بالتعامل مع / الأنا / المؤلّف و / الأنا / القارئ كنص ممنهل، حيث تصبح هذه / الأنا / شبكة فاقدة المركزية (أو بدون مركز) من الكودات، وتؤدّي، في مستوى آخر، دور عقدة في شبكة أخرى تتّصف هي أيضاً باللامركزية.

(1193) Ibid., p. 196.
(1194) Ibid., pp. 196-205.
(1195) Landow, 1997, cit., p. 127.
(1196) Bolter, 1991, cit., p. 195.
(1197) R. Paulson, " The Noise of Culture : Literary Texts in a World of Information ", Ed. Cornell University Press, Ithaca, 1988, p. 139, in Landow, 1997, cit., p. 128.

في ذات المنحى، يرفض ليوتار[١١٩٨] النموذج الرومنسي للأنا المنعزلة، لصالح / أنا / تمثّل عقدة في شبكة معلومات، منخرطة في نسيج من العلاقات المعقدة والمتحركة كما أبداً من قبل، حيث الشاب والكهل، والرجل والمرأة، والغني والفقير، يتموضعون جميعاً داخل عقد في دارات اتّصالية كبيرة أو صغيرة.

في إطار هذه الهويّة الجديدة للمؤلّف والقارئ داخل النص الإلكتروني الممنهل، المتناثر عبر شبكات متّسعة الأبعاد، يعتبر لاندو[١١٩٩] أنه من الضروري وضع أطروحات فوكو حول " موت المؤلّف "[١٢٠٠] ضمن سياق الجدل القائم حول الذكاء الاصطناعي[١٢٠١]، ذلك أن وجود آلات قادرة على القيام بعمليات عقلية ممفصلة، من

(1198) F. Lyotard, " La condition Postmoderne ", Ed. Minuit, Paris, 1979, trad. " La condizione Postmoderna ", Ed. Feltrinelli, Milano, 1990, p. 32.

(1199) Landow, 1997, cit., p. 129.

(١٢٠٠) في سياق نقاشه حول موت المؤلّف يقول فوكو ثمة أكثر من طريقة لقتل المؤلّف؛ منها، على سبيل المثال، زحزحة استقلالية النص التي تؤدّي إلى تدمير ما يسمّى مؤلّفاً بالمعنى الأبوي للكتاب، أو تفتيت النص وتحويله إلى شبكة، أو تحريك حدود النصّية متيحاً لها التمدّد.
ويعود أساس الحديث عن موت المؤلّف إلى شتراوس الذي قدّم الأسطورة كنظام معقّد من التحوّلات بدون مركز، تجعل النص شبكة، وهو أمر طبيعيّ، فالشبكة تعدّ إحدى أهم صيغ البنيات المتزامنة.
ويعتقد إدوار سعيد أن القوّتين الرئيستين اللتين أفضيتا إلى تآكل سلطة الكائن الإنساني في النقاش المعاصر، هما، من جهة، المشكلات التي تبزغ في عملية تحديد أصالة الإنسان، ومن جهة أخرى، تطوّر علوم كاللسانيات والإنثيات التي تجعل موقف هذا الإنسان في الفكر مأساوياً، غير طبيعي، لا امتياز فيه وغير قابل للنهوض به.
ويعيد بعض المفكّرين، كسعيد وهايم، تآكل الكائن المفكّر، مباشرة إلى التقانية الإلكترونية المعلوماتية، فسعيد مثلاً، يعتبر أن نمو المعدّات الحاسوبية (hardware) التي تبثّ وتخزّن المعلومات، قد أضعف، بصورة لا رجعة فيها، الدور الظاهري للفرد: ويعتقد هايم أن فقدان سلطة المؤلّف هو نتيجة ضرورية لأي نص إلكتروني، وأن عشوائية وسهولة البحث في بنوك المعلومات تضعف سيطرة المؤلّف على ما يكتبه، إذ إن من يكتب عبر معالج معلومات (word processing) لا يستطيع أن ينجو من الشبكة.
- مزيد من التفاصيل حول سعيد وهايم في :
- E. Saïd, " Beginnings : Intention and Method ", Ed. Columbia University Press, New York, 1985.
- M. Foucault, " Qu'est -ce qu'un Auteur ? ", Bulletin de la Societé Française de Philosophie, LXIII, trad. " Che cos'è un Autore ? ", in Scritti Letterari, Ed. Feltrinelli, Milano, 1996, p. 4.
- C. Lévy-Strauss, " Le cru et le Cuit ", Ed. Plon, Paris, 1964.
- M. Heim, " Electric Language : A Philosophical Study of Word Processing ", Ed. Yale University Press, New Haven, 1987.

(1201) M. Foucault, " Qu'est -ce qu'un Auteur ? ",1996, op. cit., p. 4.

شأنها أن تضع حدّاً، حسب باجيلس[١٢٠٢]، للنقاش الدائر حول مشكلة " الجسد - العقل "، لأنه أصبح من الصعب عدم نسْب عقل واعٍ لتلك الآلات. و تتجلّى الفكرة العامة، تدريجياً، في أن الوعي هو، ببساطة، ما يحدث أو ما يحصل عندما تكون العناصر الإلكترونية متجمّعة بشكل صحيح.

يقول لاندو[١٢٠٣] إن / الأنا / المؤلّف التي أصبحت شبكة مفكّكة، قد أحدثت تغيّرات جذرية أيضاً في صورة المؤلّف، ذلك لأن فقدان الاستقلالية والمركزية النصّية ينعكس بشكل فوري على مفهوم التأليف، كما أن فقدان الحدود في المفهوم الجديد للنصّية يضيّع كيان المؤلّف، إذ يعيد التفكير في / الأنا /، التي تصبح، حسب التعبير الباختيني، طرائق لا تراتبية، حوارية تتيح وتشجّع العمل التعاوني وتيسّر المقاربات في فروع علمية متداخلة، وتفرض التفاعل بين أبحاث أنجزها علماء ينتمون إلى اختصاصات متنوّعة. كلّ ذلك يعني، في تفكير لاندو، أن النص الإلكتروني الممنهل، في نهاية المطاف، ليس له مؤلّف بالمعنى التقليدي للكلمة.

ويوضّح بولتر[١٢٠٤] هذا المفهوم، إذ يقول إن الخاصّية الجوهرية للنصّية الممنهلة في الوسيلة الإلكترونية تتجسّد في إلغاء التمايز بين الكتابة والتفسير، فالنص لم يعد أهم من التفسيرات التي يخضع لها لأنه لم يعد قادراً على الانفصال عنها. وهكذا، فإنه داخل الفضاء الإلكتروني للكتابة، حيث تعدّ كلّ قراءة تفسيراً أو إعادة كتابة للنص، تصبح القراءة والتفسير متساويين، ويغدو المؤلّف مدركاً، أثناء الكتابة، أنه ليس بصدد استبعاد القارئ عن عملية بناء النص، وأنه ليس قلقاً من فكرة المساس بمؤلّفه. ويقول بولتر إن فرادة النص الإلكتروني الممنهل تتجلّى في أنه لا يعارض النقد ولكنه يدخله بين ثناياه، مؤكّداً أن النص الذي يعيد تشكيل نفسه أمام كلّ قارئ وفي كلّ عملية قراءة، لا يشكو من عدم التناغم، وإن احتضن تناقضاته الداخلية، أو بالأحرى لأنه يحتضن تناقضاته الداخلية.

ويقدّم إدوار سعيد[١٢٠٥] وهايم[١٢٠٦] رؤية تتعارض مع مواقف هؤلاء المفكّرين تجاه وضعية المؤلّف، فهما يريان أن التقانيات الإلكترونية للمعلومات تتسبّب، بصورة مباشرة، في تآكل الكائن المفكّر، حيث يعتبر الأول أن نمو المعلومات، وخاصة نمو المعدّات التقانية لنشر وتخزين المعلومات، قد قلّص، بصورة لا رجعة فيها، الدور

(1202) Ibid., p. 3.

(1203) Landow, 1997, p. 129.

(1204) Bolter, Writing Space, cit., pp. 211-212.

(1205) Saïd, Beginnings.., 1985, cit., p. 51.

(1206) Heim, Electric Language.., 1987, cit., p. 220.

الظاهري للفرد، ويرى الثاني أن ضياع سلطة المؤلّف هو نتيجة ضرورية لأي نص إلكتروني، حيث تحول الكتابة الإلكترونية خصوصية القراءة والكتابة التأملية إلى شبكة عمومية، وتصبح البيئة الرمزية الشخصية، الضرورية للمؤلّف في عمله الإبداعي، مهدّدة من خلال الارتباطات مع النصّية الشمولية للتعبير الإنساني.

ولا يستطيع من يكتب عبر معالج الكلمات أن ينجو من الشبكة، ففلك العام يغدو كلّي الحضور ومصطلح " نشر " يكتسب معنى جديداً تماماً، والمعرفة المعاصرة فاقدة المركزية تصبح، كما يقول دولوز، " مراكز ترحالية " ذات بنيات مؤقّتة وغير دائمة تتسكّع، بصورة مستمرّة، بين تجمّع معلوماتي وآخر.

ويعالج لاندوو مفهوماً آخر للنصّية الممنهلة يرتبط بضياع الاتّجاه الذي يصفه بأنه أساس في أية مقاربة إبداعية للنص الممنهل. وينقل لاندوو[١٢٠٧] عن كونكلين، مبتدع هذا المصطلح، أن فقدان الاتّجاه هو الجنوح نحو عدم التعرّف على الموقع وعلى المنحى في وثيقة غير سطرية، وأن هذه الحالة تعدّ جزءاً لا يتجزأ من الوسيلة الاتّصالية نفسها، فمع إمكانية تنظيم المعلومات بصورة شديدة التعقيد، تنشأ مشكلة معرفة المشترك لموقعه داخل الشبكة وكيفية الوصول إلى مكان آخر فيها يعرفه أو يعتقد أنه موجود. ويقول كونكلين أن هذه المشكلة قائمة أيضاً في النصوص السطرية التقليدية، ولكن أمام القارئ خيارين فقط : خلق النص المرغوب إما في نقطة سابقة أو في نقطة لاحقة من النص التقليدي نفسه.

وينظر بيكهام[١٢٠٨] إلى هذه الحالة من الضياع في متاهات النص كمسألة إيجابية مرتبطة بحرية الإنسان وتطوّره، ويرى كوفر[١٢٠٩] أن الجزء الأكبر من سلطة النص التقليدي تأسّس على السطر، أي على تلك الحركة الإلزامية التي يقودها المؤلّف من بداية الجملة إلى النقطة، ومن بداية الصفحة إلى نهايتها ومن الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، وهي حركة سادت كامل حقبة المطبوع، رغم محاولات العديد من المؤلّفين التمرّد عليها. أما الآن، فإن التحرّر الحقيقي من الطغيان السطري قد أصبح ممكناً، بظهور النص الإلكتروني الممنهل وانتشاره، ذلك أن السطر فيه غير موجود إلاّ إذا تمّ اختراعه أو بناؤه. ويشدّد كوفر، بشكل خاص، على هذا التأثير التحريري لضياع الاتّجاه، إذ يقول إن البنيات التقليدية الآمنة للنص تمحى، وإن البعض يحاول

(1207) J. Conklin, " Hypertext: An Introduction and Survey ", Ieee Computer, 20, 1987, p. 38, in Landow, 1997, cit., p. 155.
(1208) M. Peckham, " Man's Rage for Chaos : Biology, Behavior and the Arts ", Schoken, New York, 1967, p. 41, in Landow, cit., p. 158.
(1209) R. Coover, " The End of Books ", New York Times Book Review, June 21, 1992, pp. 1-11, in Landow, cit., p. 159.

إعادة بنائها في حين أن آخرين يتوهون ويبتعدون عن المنطقة المرئية، وهناك كثيرون يرمون بأنفسهم في لجّة تلك التركيبة النصّية دون التساؤل عن مدى عمق المياه، ويعترفون أنه حتّى إذا اضطّروا إلى بذل جهود جبارة للبقاء طافين على السطح، فإن هذه الحلبة الجديدة هي قناة مثيرة ومنشّطة، وإن كانت محبطة، من أجل خلق أشكال جديدة من النصوص، وهي، في النهاية، وسيلة ثورية من شأنها أن تغيّر تماماً فنون الكتابة.

ويتحمّس جويس[١٢١٠] لخاصيّة هذه الضياع الاتّجاهي بالقوّة، لأنه يتطلّب حتمية تعاون القرّاء، فالنصوص الممنهلة البنائية تستوجب قدرة معيّنة على التحرك، وعلى خلق وتغيير واستعادة مفاهيم خاصة التقاها القارئ داخل معرفة تتطوّر وتتحرك. ويقول جويس إن هذه المفاهيم يتم الاحتفاظ بها كوجهة نظر تجاه قضية أو مشكلة، كآثار، كمسارات، كشبكات إلخ.. غير أنها مفاهيم في طريقها إلى أن تصبح بنية لشيء لم يوجد بعد.

• الأبعاد الجديدة للسيميولوجيا في النص الإلكتروني المنهل

يقول بولتر[١٢١١] إن الحاسوب، كفضاء للكتابة، يحدث ثورة في الحقل السيميولوجي، لأنه أصبح التعبير الملموس للرؤية السيميولوجية للغة وللاتّصال، حسب مفاهيم بيرس وسوسور وإيكو وغيرهم، وهذا أمر طبيعي، نظراً لأن السيميولوجيا نفسها تعدّ حصيلة لذات الطاقات الذهنية التي صنعت الحاسوب والمنطق الرمزي واللسانيات وفلسفة اللغة، ونظراً لأن الحاسوب نفسه هو عبارة عن آلة لصنع وصياغة إشارات رياضية وكلامية وإيقونية.

في السيميولوجيا الإلكترونية، من الضروري معرفة الفرق بين الإشارة والإحالة، بين تموضع موقع ما في الذاكرة الإلكترونية والمعنى الذي يخزّنه هذا الموقع، فهذه الثنائية تشكّل توصيفاً للآلة في كلّ مستوى، وتعدّ جوهر النص الممنهل الذي يمثّل شبكة إشارات تحيل إلى إشارات أخرى، داخل فضاء كتابي محدّد. وتمارس طبيعة المساحات والأدوات التي تستخدم لإنتاج تلك الإشارات تأثيرات حتمية على الإشارات، وبما أن الحاسوب يعدّ أداة كتابة سائلة فريدة من نوعها، فإن الصيرورة الواقعية للنشاط الإشاري وعملية الانتقال من إشارة إلى أخرى تليها في صناعة المعنى، تجد

(1210) M. Joyce, " Of Two Minds : Hypertext Pedagogy and Poetics ", Ed. University of Michigan Press, Ann Arbor, 1995, p. 4.
(1211) Bolter, Writing Space, cit., pp. 247- 252.

داخل الحاسوب، لأول مرّة في تاريخ الكتابة، تعبيراً ملموساً، لأن الحاسوب، خلافاً لوسائل اتّصال سابقة، يصنع بنفسه عملياته الإشارية كنص قادر على القراءة والكتابة بصورة مستقلّة.

إن الكلمات الموجودة في النص الإلكتروني تظهر إحالاتها لأنها تشكّل جزءاً من الوحدات الموضوعية الموصولة مع بنيات مماثلة عبر سلسلة من الروابط، وتتّصف الوحدات الموضوعية نفسها بطبيعة إشارية لأنها عبارة عن إشارات معقّدة ذات امتداد متنوّع، بدءاً من المقطع وحتّى الفصل بكامله. وتتحدّد الإشارة الموضوعية ليس من الكلمات التي يحتويها فحسب، وإنّما أيضاً من العلاقات التي تربطها بموضوعات أخرى يظهّرها الحاسوب ويجعلها عملية لحظة القراءة أو الكتابة، ما يجعل النص الممنهل بنية شبكية تحكمه روابط تشاركية ذات طبيعة اشتقاقية.

ضمن هذا الإطار، يعدّ الحاسوب عالماً ذاتي المرجعية حيث تجري عملية صناعة المعنى في جميع المراحل، وحيث تشكّل، ليس فقط الكلمات المتضمّنة في الوحدات الموضوعية المختلفة وإنّما أيضا الوحدات نفسها والروابط التي تجمعها، جزءاً من عملية إنتاج المعنى، فالنص، أو تعبيره البصري مؤلّف من اتّحاد كلمات ومحيطات دائرية وأسهم.

وتكمن خصوصية الفضاء الإلكتروني في الطبيعة الديناميّة للبنيات النصّية الموجودة فيه وفي إمكانية تغيير تلك البنيات أو إعادة تجميع عناصرها خلف الشاشة المقروءة. وخلافاً لتقانيات الكتابة اليدوية أو الطباعية التي تتطلّب جهداً عقلياً لتنشيط الإشارات، فإن الإشارات، في التقانية الإلكترونية الجديدة، تصبح ناشطة خارج إطار العقل الإنساني، ضمن نطاق الدارات الإلكترونية التي يقبع النص داخلها.

بهذه الآلية، يتم إنتاج التفسير والمعنى عبر الاتّصال التفاعليّ والحركات الجاذبة والنابذة للقطبين، أي للعقل الإنساني الذي يواجه النص ولبنية المعطيات المتمركزة خلف مساحة الشاشة. وهكذا، فإن الفضاء الإلكتروني لا يمنع القراءة التقليدية ولكنه يضاعف في داخله عملية التفسير.

واضح أن النص الممنهل هو دائماً لعبة إشارات، فالمؤلّف ينظّم الفضاء الإلكتروني بشكل يجعل إشارة معيّنة تحيل إلى إشارة أو إشارات أخرى، بحيث يصبح النظام الإلكتروني نفسه حامل التفسير لكل إشارة، وهذا يعني أن القارئ الإلكتروني يلعب دوراً نشيطاً في بناء النص الذي يغدو أرضاً متنازعاً عليها بين الكاتب والقارئ.

إلاّ أن بولتر[1212] يرى في الفضاء الإلكتروني منافساً ثالثاً، ذلك أن الحاسوب يمثّل، بشكل دائم، مؤلّفاً آخر بالنسبة للقارئ، كما يمثّل قارئاً آخر بالنسبة للمؤلّف، حيث يقوم بتفسير وتأويل الاثنين معاً، إذ أنه بمجرّد أن يصوغ المؤلّف النص كتوازن دقيق للإشارات، قد يضطّر الحاسوب إلى القيام بعمليات تعالج الإشارات المفردة أو البنية الكلّية، محدثة تغيّرات في هذا التوازن دون أن يكون هناك تدخّلاً مباشراً أو مستمراً من قبل الكاتب أو القارئ. ويمكن للمؤلّف أن يشكّل النص بصورة تجعله قابلاً للتغيّير الدائم عندما يمر القارئ عبر المسار، بشكل يستطيع معه هذا الأخير أن يحرق الوصلات التي تربطه بعناصر سابقة من النص، وبمقدور القارئ أن يسبر النص بحثاً عن مصطلحات مختلفة، وأن يشكّل مسارات جديدة قائمة على عملية البحث هذه.

بدهي أن الإشارة في السيميولوجيا ليست كياناً ساكناً وإنّما هي وظيفة وعلاقة توصل المعنى بحامله وتربط التعبير بالمحتوى. وكما يوضّح إيكو[1213]، فإن المفهوم الكلاسيكي للإشارة ينصهر في شبكة شديدة التعقيد من العلاقات المتغيّرة. ويشبّه السيميولوجيون هذه الشبكة بمشاهد الجزيئات المؤلّفة من مركّبات كيميائية مؤقّتة. ويستدعي إيكو تلك الكناية، ليؤكّد أن المعنى هو شكل من النشاط شبيه بالعالم النابض للجزيئات في نشاطها التركيبي والانحلالي للعلاقات التي تربط فيما بينها، غير أن شبكة العلاقات المتغيّرة التي أشار إليها تصف بشكل دقيق، حسب بولتر، الحاسوب والنص الممنهل، فالكتابة الإلكترونية تتيح صياغة شبكة خاصة من العلاقات بسهولة تذهب أبعد بكثير من مقدرة الكيميائي على الإمساك بناصية المشهد الجزيئي.

ويعتقد بولتر أن البعد الشفهي قد شهد مزيداً من التقلّص في الكتابة الإلكترونية، فكلّما اكتسب فعل الإحالة، شيئاً فشيئاً، خواصاً ظاهرة في النص الممنهل، كلّما كان هناك ازدياد موازٍ للتركيز على المعنى المرئي، أي على المرتسمات التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمة الشفهية. ما تزال هناك آثار سمعية في قراءة الشاشة المرئية، غير أنها ليست قادرة على إخفاء الطبيعة الاصطلاحية للعبة الإشارات. فالقواعد الاصطلاحية تكتسب وضوحاً أكبر وتفرض نفسها على المؤلّف والقارئ في اللحظة التي يتهيأ فيها الأول لأقلمة التشابكات بين الكلمات والصور في النص، معيداً تحديد قيود التفسير السارية المفعول بالنسبة إليه، وفي اللحظة التي يبدأ فيها الثاني في المرور على تلك التشابكات، مقايساً نفسه مع القيود الموضوعة، ومحدّداً، عن هذا الطريق، تفسيره الشخصي للنص.

(1212) Ibid., p. 253.
(1213) U. Eco, " A Theory of semiotics ", 1975,op. cit. pp. 48 ss.

ويشرح بولتر[١٢١٤] بعداً آخر للنص الممنهل، إذ يقول إن هذا النص هو شبكة دينامية من العلاقات، موصولة بمسارات يحدّد كلّ منها نظاماً معيّناً وتفسيراً ومعنى حسب كود خاص. ويساوي مجموع الوصْلات جميعاً حصيلة الإمكانيات التفسيرية القائمة للنص. وبما أن البنية التراكمية للوصْلات تعبّر، بشكل ملموس، عن المعنى التفسيري جميعاً للنص الإلكتروني، الذي يسمح فيه الحاسوب برؤية أن النص ليس سوى بنية من العلاقات، فإنه إذا جرى تبديل تلك العلاقات، كما يحدث لدى بناء أو إلغاء وصْلات معيّنة، فإن معنى النص يتغيّر.

ويرى كولير[١٢١٥] أنه لا معنى داخلي لعناصر نص ككيانات مستقلّة، بل إن المعنى ينجم عن علاقات قطبية ثنائية تحيل بدورها إلى علاقات أخرى في صيرورة تفسيرية للمعنى لانهائية على الصعيد النظري. ويقول بولتر إن الكتابة الإلكترونية تجعل هذه العلاقات القطبية عاملة ومتحركة في مستويات الكتابة التضاريسية جميعاً، وتجري صياغة التباينات كجملة من الوصلات التي تضع الوحدات التضاريسية في حالة توتّر مستمر، عبر جمعها أو تفريقها، ويستخدم القارئ الحاسوب، متحركاً، من خلال خطوط القوّة هذه، وفي تلك الحركة يكمن معنى النص.

وفيما يتعلّق بمفهوم التناصّ (intertextuality) الذي يعرّفه بارتز بأنه تلك العلاقات التبادلية لجميع النصوص المكتوبة حول ذات الموضوع بذات اللغة وداخل ذات الثقافة، فإن الكتابة الإلكترونية، بتمثّلاتها البنيوية الغرافيكية تشجّع على التفكير، حسب بولتر، بأن العلاقات التناصّية يمكن أن تكون معبّرة وظاهرة بشكل أكثر دقّة وتكاملاً من قبل، لأن عملية رسم خرائط نصّية في الفضاء الإلكتروني للكتابة يمكن أن يكون جماعياً، ولأن الحاسوب يسهّل تقانية التناصّية لدرجة أنه يضع في ضوء جديد تماماً الفكرة التقليدية عنها، محوّلاً إيّاها إلى بناء تناصّي حقيقي.

يعدّ التمثّل / التفسير في السيميولوجيا، عملية بلا حدود، وينجم، في تفكير بيرس، عن التقاء ثلاثة عناصر : الإشارة والشيء الممثّل والحامل للمعنى، المتساوي مع محدِّد مدلول الإشارة (interpretant)، والذي يمكن أن يعتبر بدوره إشارة تحتاج إلى تحديد. وبمقدور هذه العملية أن تستمر إلى ما لا نهاية، لأن كلّ حامل معنى جديد يدعو إلى تفسير إضافي. غير أن أي نظام واقعي له حدود، بما فيه الفضاء الإلكتروني، لأن الحاسوب نفسه، كتقانية للكتابة، معرّض للانتهاء. ولذلك، فإن شبكة العناصر في الكتابة الإلكترونية هي الأخرى محدودة بالضرورة، ما يعني أن مصير

(1214) Bolter, op. cit. pp. 247-252.

(1215) J. Culler, " The Pursuit of Signs : Semiotics, Literature, Deconstruction ", Ed. Cornell University Press, New York, 1981, in Bolter, cit. pp. 248-255.

التفسير، في نهاية المطاف، الانغلاق على نفسه. وهكذا، فإن السيميولوجيا والتفكيكيّة مرغمتان على الاعتراف بالطبيعة الانتهائية للعالم النصّي.

يقول بولتر[١٢١٦] إن الإلحاح على الخاصيّة اللامتناهية للتفسير يجسّد أحد أوجه الاستراتيجية التفكيكيّة الرامية إلى قلب كيان النصوص التقليدية، وقد اتّهمت هذه النظرية بالتشاؤمية والعدمية لكونها تركّز كلّ الجهد لتبيان عدم قابلية الوصول إلى المعنى المتعالي أو الفائق، في حين أن الرؤية الكلاسيكية الغربية ترى إمكانية بلوغ المعنى.

ويعتقد بولتر[١٢١٧] أن الرؤية الجديدة للإشارة تجد تعبيرها الجلّي في النص الإلكتروني الممنهل، حيث المؤلّف والقارئ يدركان أنه لا وجود في النص لأي شيء متعالٍ أو فائق، أي أنهما يعرفان أن العناصر الموضوعية التي أوجداها هي تتابعات عشوائية لوحدات رقمية غدت حاملة للمعنى، فقط من خلال ترابطاتها المتبادلة. وفي الحاسوب، يستوجب المعنى دائماً عملية إحالة وتوجّه مستمر من نقطة إلى أخرى. ولا يوجد في الفضاء الإلكتروني أي استرجاع لانهائي لأن منابع الآلة ليست لانهائية وإن كانت شاسعة. كلّ ذلك يعني أن الحاسوب يتجاوز التفكيكيّة غير القادرة، حتى الآن، على الاعتراف بالطبيعة العشوائية والمحدودة للكتابة.

يعتقد كولير انه من أجل فهم عالمنا الاجتماعي والثقافي، يجب أن نفكّر ليس في أشياء مستقلّة بل في بنيات رمزية وأنظمة علاقات، تخلق، من خلال إتاحة معنى لأشياء وأفعال، فضاء إنسانياً، حيث يعدّ العقل نفسه أيضاً عنصراً من عالم الإشارات، ويغدو نصاً قابلاً للتشكّل والسبر بموجب مبادئ الفضاء الإلكتروني للكتابة.

(1216) Bolter, cit., pp. 259-262.

(١٢١٧) كما يقول بولتر، وبقطع النظر عن انتقادات التقليديّين للنظرية التفكيكيّة التي تهدف إلى زعزعة وتغيير وضعيّة النص، فإن تبنّي الكتابة الإلكترونية الممنهلة للتقنيات التفكيكيّة، يضعها في شروط موفّقة لقلب المشروع التفكيكي برمّته رأساً على عقب، لأن النص الإلكتروني الممنهل يصل إلى القارئ كتجمّع مركّب، سائل ومؤقّت لنكمسات. فلماذا اللجوء إلى مزيد من التفكيك؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن أي نظام واقعي له حدود : المساحة الإلكترونية تخضع لحدود مماثلة لأن الكومبيوتر نفسه، كتقانية كتابة، له نهاية.

على أية حال، فإن النظرية التفكيكيّة، في محاولة لهدم التحديدية الاقتصادية الشمولية للنظريات الماركسية، تبالغ في التركيز على مفهوم " اللانهاية " في التفسير لدرجة أنها تقع هي الأخرى في ذات التحديدية القسرية.

و يطرح بولتر بعداً آخر في مجال المفهوم العام للطبيعة السيميولوجية المميّزة والفريدة التي يتّصف بها النص الممنهل ، إذ يقول إنه إذا كان من السهل النظر إلى الكتاب كعالم يستطيع العقل أن يكتشفه، فإن الخطوة الإضافية التي يجب القيام بها هي في اعتبار العقل نفسه عنصراً من عالم الإشارات هذا، وهو مفهوم يجد صداه في اعتقاد بيرس بأن التجلّي الظاهراتي للعقل بكل تعقيداته، هو إشارة يتم استخراجها عبر الاستدلال، وبأن الأفراد مكافئون للكلمات فالإنسان – الإشارة يكتسب معلومات ويصل إلى أن يكون معنى أكثر من قبل. ومن خلال هذه الكناية التي طرحها بيرس، يرى بولتر أن العقل الإنساني نفسه يصبح نصاً مهيأ للتشكيل والاكتشاف حسب مبادئ الفضاء الإلكتروني للكتابة، وأن الحاسوب، كنص ممنهل، يشكّل حلقة أخيرة في سلسلة الطامحين إلى لقب الكتاب الكلّي، إذ يتعهّد بإسقاط الحاجز الذي يفصل بين الفكر والكتابة، موحّداً العقل ومساحة الكتابة في كلّ واحد غير قابل للفسخ.

* * *

الفصل الثالث

المجتمعات الرقمية: إشكاليات الحرّية والديمقراطية

التقانيات المعلوماتية الجديدة والفكر الغربي المعاصر

لا شك أن التربة العقلية الخصبة والتفاعلات الاجتماعية الهائلة التي تتيحها التقانيات الاتّصالية الجديدة، استطاعت أن تنتج، خلال العقود الأخيرة، فكراً غنياً، أخذ يسهم إسهاماً حاسماً في إعادة تشكيل العلاقة بين التقانيات بمفهومها الواسع وبين الوجود الإنساني بكل مستوياته وتعقيداته. وتشهد حقول العلوم الإنسانية في الغرب، بجميع تفرّعاتها، نشاطاً لم يسبق له مثيل، يتركّز حول تشخيص طبيعة الروائز التي يمكن أن تمارسها التقانيات المعلوماتية الجديدة على نوعية وأشكال الحياة الإنسانية، وحول آليات ومناهج التعاطي الفكري والاجتماعي والسياسي والثقافي معها.

ومن الطبيعي أن يفضي هذا المخاض الحضاري الجديد في تاريخ الإنسانية إلى تبلور مفاهيم فكرية مختلفة ومتناقضة يستند بعضها إلى نظريات ومدارس تسعى، بدرجات متفاوتة، نحو التفاعل والتكيّف والاندماج مع الوقائع التقانية الجديدة، محاولة الإسهام في توجيه مساراتها، ويرتكز بعضها الآخر إلى فكر رافض يتخوّف من الآثار التي يمكن أن تترتّب على انتشار مثل تلك التقانيات. ولا تخلو الساحة الفكرية، بطبيعة الحال، من مواقف توفيقية، متباينة هي الأخرى، تحاول، بشكل أو بآخر، جسر الهوّة العميقة القائمة بين أيديولوجيات خاضت، في مراحل تاريخية ممتدّة، صراعات قرنية عنيفة.

في الحقل المناهض لهيمنة تلك التقانيات الجديدة على حياة المجتمعات الراهنة، ثمة نوعان من ردود الفعل، يتجلّى الأول في أن بعض الباحثين يستخدمون مصطلح "

التقانيات " في مفرداتهم للتدليل على ظاهرة مخيفة فحسب، أي ظاهرة لا تحمل في ثناياها سوى قوّة اغترابية وغزوَويّة. أما النوع الثاني من المقاومة، فينصبّ على مسألة أن التقانات المعلوماتية لا تستطيع مطلقاً أن تمارس تأثيرات ثقافية.

يعدّ الماركسي جيمسون[١٢١٨] من أبرز مفكّري التيّار المتبنّي لفكرة عدم جوهرية وأساسية التقانية في تطوّر الثقافة، إذ يعرب عن عدم استعداده للاعتراف بدور التقانيات، وخاصة تلك المعلوماتية، في عمليّات التغيّير الاجتماعي والثقافي، ويرى أن تحليل تأثيرات العامل التقاني على الثقافة يولّد بشكل حتمي تحديدية تقانية، وأنه ليس أبعد عن الماركسية من اعتبار أن المكتشفات والتقانية هي السّبب الأولي للتغيّير التاريخي.

ويعتقد جيمسون أن النظريات التي فسّرت الثورة الصناعية كنتيجة لإدخال الآلة البخارية، والتي تقدّم، في هذه المرحلة، ذات التفسيرات حول روائز التقانيات المعلوماتية الجديدة على المجتمع (ماكلوهان)، لا تأخذ في الحسبان العوامل الإنسانية للطبقات الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي للإنتاج.

غير إنه بفضل مسألة أن الماركسية نفسها تدخل نماذج وصفت، فيما مضى، بأنها ميكانيكية وميكانيكاوية في آليات التغيّير الاجتماعي، فإن جيمسون يعود ليقبل، بحذر، تلك النماذج، إذ يقول إن فئة الفعّالية الميكانيكية تحتفظ بسريان مفعولها الدائم في التحليل الثقافي، وإنه ليس من المفيد التنكّر لفئات تقع خارج تفكيرنا، عندما تستمرّ هذه الفئات في ممارسة روائزها على الواقع الموضوعي الذي يجري حوله تنظيم تأمّلاتنا.

في ذات المنحى، وعلى الرغم من أنه يقرّ بأن التقانية، أي العمل المشيّد، هي، حسب ماركس، " طبيعة " النشاط الإنساني، ما يضع موضع شك التميّيز بين الطبيعة والثقافة، على الأقل فيما يتعلّق بالحياة الإنسانية، فإن المفكّر رايان[١٢١٩]، أحد أهم روّاد الماركسية النقدية، والذي يعتبر أن التقانية هي العقل الإنساني الذي يحوّل العالم الطبيعي إلى آلة، يعود ليؤكّد، في نهاية المطاف، بأن دوافع هذا التحويل تكمن في رغبة منتمين إلى طبقة معيّنة – الرأسماليّين – في السيطرة على منتمين إلى طبقة أخرى – العمّال –.

(١٢١٨) لمزيد من التفاصيل حول أطروحات جيمسون، اقرأ:
- F. Jameson, " Marxism and Form ", trad. " Marxismo e Forma ", Ed. Liguori, Napoli, 1975.
- F. Jameson, " The Political Unconscious ", Ed. Cornell University Press, Ithaca, N. Y., trad. " L'Inconscio Politico ", Ed. Garzanti, Milano, 1990.

(1219) M. Ryan, " Marxism and Deconstruction : A Critical Articulation ", Ed. Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1982, in Landow, 1997, cit., p. 330.

في المقابل، وكما بدا واضحاً من عرض خصائص النص الإلكتروني الممنهل، يعدّ لاندوو، الذي حقّق أوّل تجسيد ملموس للنصّية الممنهلة في الحاسوب، من أكثر الباحثين انبهاراً بتداعيات الثورة المتسلّلة التي أخذت تفجّرها التقانيات المعلوماتية الجديدة في حياة الأفراد والجماعات، ومن أكثر الضليعين في معالجة تأثيرات تلك التقانيات على الأنظمة الاجتماعية الراهنة:

يقول لاندو[١٢٢٠] إن الإنسان الراهن لم يعد يستطيع اعتبار تقانيات المعلومات السابقة، كالقلم والورقة والآلات الكاتبة وآلات الطباعة كتقانيات " غير تقانية "، ولم يعد بمقدوره أن يرى في اللغة والخطابة والكتاب، تقانيات " طبيعية " وحتمية، نابعة من الفطرة، لأن فهمه لمصيرها، في بيئات رقمية، جعله ينظر إليها ويدركها كمستجدات تقانية، ولأنه تمكّن، في هذه اللحظة التاريخية، من تحقيق الانفصال العقلي الضروري عنها كشيء وكمنتج ثقافي، وتمكّن، بالتالي، حسب تعبير ديريدا، من أن يفتّت مركزيتها، بفضل دخوله معترك التقانيات المعلوماتية الجديدة.

وفي معرض نقده للأطروحات الماركسية المعاصرة، يقول لاندو إن الاستراتيجية التي يتّبعها ماركسيون كجيمسون، في إنكار التأثيرات المجتمعية لهذه البيئات الرقمية التي تشكّل تطوّراً جديداً في مسيرة التقانيات المعلوماتية، والتي أخذت ترشح جميع ثقافات التاريخ الإنساني، تنبع من فعل غير إرادي يتمثّل في أن عدم الاعتراف بأن اختراع غوتينبيرغ أو التلفزة يمكن أن يرتبط سببياً بجوانب أخرى للثقافة، يؤدّي إلى تحويل التقانية آلياً إلى ضرب من الغول الفكري والمحرّمات التي لا يمكن الحديث عنها علناً، كما تنبع من حاجتهم إلى إقصاء التقانية وتاريخها من التحليلات الماركسية.

ويشير لاندو[١٢٢١]، أن مشكلات التأكيدات التي يطرحها رايان تكمن في أن الوصف التقليصي الذي يقدّمه للتقانية، حيث يعتبرها مقتصرة فقط على الآلات الثقيلة، جعله يتجاهل سواء كلّ ما من شأنه أن يسبق الثورة الصناعية، سواء كلّ ما ينتمي إلى الحقبة الإلكترونية والنووية، رغم أنه يوضّح، في سياق آخر، بأن التراث اللينيني برمّته يعتمد على التقانية الثقيلة. كما أنها تكمن في الخلط الذي يقع فيه رايان بين الرأسماليّين وأرباب الإنتاج.

وينوّه لاندو بأن الاعتراض على تاريخ التقانية وطبيعة تأثيراتها المجتمعية، لا يقتصر على التيّار الماركسي المعاصر، فثمّة تردّد وتوجّس واضح لدى الأنسنيّين

(1220) Landow, 1997, cit., pp. 50- 53 & 330-335.
(1221) Ibid.

أيضاً، أمام احتمال أن تتمكّن التقانية من الاضطّلاع بأي دور حاسم في بعض جوانب الثقافة، وأمام إمكانية إعطاء أية أهميّة للتقانية في مجال التأثير على الفكر.

ويرى لاندو أن الجدل القائم، في هذه المرحلة، حول سياسة النص الإلكتروني الممنهل، يضع العديد من المفكّرين، ومنهم الماركسيّون، في حالة من الحرج والارتباك، لأن هذا الجدل يثير مسائل وإشكاليات تتعلّق بالسلطة والمكانة والتغيّرات المؤسّسية التي تقع كلّها في سياقات سياسية، والتي تفضي إلى عواقب سياسية[1222].

أيضاً كيرنان[1223]، الذي يعدّ من أبرز محلّلي تداعيات التقانيات الاتّصالية، فإنه يتصدّى للأطروحات الماركسية والليبرالية التقليدية، إذ يقول أنه لا جديد، بعد ماركس، في مسألة أن الأساليب الأوليّة للإنتاج تمارس تأثيراتها على الوعي وتعطي شكلاً للبنيات الفوقية، إلاّ أنه، سواء النظريات الليبرالية حول التقدّم سواء الجدلية التاريخية الماركسية، لم تستطيعا تلبية الحاجة إلى فهم التغيّرات المتولّدة من التقانيات، ولم تتمكّنا من تقديم عون ملموس للتحقّق من طبيعة ردود الفعل الأكثر فائدة والأكثر مغزى لهذه التبدّلات الجذرية. ويعتقد كيرنان أن هؤلاء المفكّرين يهمّشون بوضوح كلّ ما هو تقانية.

ويشير كيرنان، في معرض عرضه لآليات الانتقال المعقّد من المخطوط إلى ثقافة الطباعة، أن هذا الانتقال احتاج إلى زمن طويل جداً، وإنه جرى بصورة تدريجية ومرّ بمراحل عديدة ومتناقضة، غير أن الطباعة نقلت الأمم الأوروبية الأكثر تقدّماً، في نهاية المطاف، من مجتمعات سمعية إلى مجتمعات طباعية، وأسّست نظاماً جديداً للبنية الاجتماعية برمّتها وأعادت بناء الثقافة ولم تقتصر فقط على تغييرها. ويشدّد كيرنان على التناقض القائم بين القوّتين الرئيستين للطباعة وهما التضاعف العددي والثبات اللذين يدخل كلّ منهما في اللعبة أو يصبح مهيمناً، فقط ضمن شروط اقتصادية وسياسية وتقانية معيّنة.

أما جاك ديريدا[1224]، صاحب النظرية التفكيكيّة، والذي يقدّم تفسيرات أكثر توغّلاً للتأثيرات التي يمكن أن تمارسها ظاهرة التقانيات المعلوماتية الجديدة، منطلقاً من فرضيات وجعبات موسوعية بعد - حداثية تلحظ التطوّر غير المسبوق في مجال

(1222) Ibid.
(1223) A. Kernan, " Printing Technology ", Ed. Princeton University Press, Princeton, 1987, in Landow, 1997. cit., p. 329.
(١٢٢٤) العرض الكامل لنظرية ديريدا التفكيكية في مؤلّفه :
- J. Derrida, " La Dissémination ", Ed. Du Seuil, Paris, 1972, trad. " La Disseminazione ", Ed. Jaca Book, Milano, 1989.

الاتّصال الإنساني، فإنه، وخلافاً لبارتز الذي يركّز على لاسطرية النص، يوجّه اهتمامه إلى الطابع الانفتاحي للنص الممنهل وإلى طبيعته التناصيّة وعدم جدوى أي تمييز بين " داخله " و "خارجه ". ويؤكّد ديريدا أنه، ككلّ نص، لم يكن نص أفلاطون يستطيع ألاّ يدخل في علاقة، على الأقل بشكل افتراضي ودينامي وجانبي، مع جميع الكلمات التي يتألّف منها النظام اللغوي اليوناني.

ويصف ديريدا أنظمة النصوص الممنهلة الحالية، حيث يستطيع القارئ النشيط، من خلال استكشاف واختبار النص، أن يستخدم قواميس مزوّدة بمحلّلين صرفيّين قادرين على وصل الكلمات المفردة بمصطلحات من ذات العائلة وبأخرى مشتقّة ومناقضة. كما يقدّم وصفاً مفصّلاً لاقتصاد القراءة والكتابة الجديد في أشكاله الإلكترونية والافتراضية، لا في تلك الفيزيائية :

يقول ديريدا، في معرض حديثه عن النص الإلكتروني الممنهل، إنه شكل جديد للنص، أكثر حرّية وأكثر ثراء وأكثر إخلاصاً للتجربة الإنسانية المحتملة والواقعية، إذ أن هذا النص قادر على التواصل مع أي إشارة لغوية أو غير لغوية، شفهية أو مكتوبة. وتشكّل عواقب هذه القابلية لاحتضان مقاطع استشهادية ومفصولة، أهميّة أساسية بالنسبة للنص الممنهل، لأن الإشارة اللغوية تستطيع أن تحقّق قطيعة مع أي سياق قائم، وأن تولّد سياقات أخرى إلى ما لا نهاية، وبصورة غير قابلة للإشباع مطلقاً.

وكما لكسيات بارتز، يرى ديريدا أن النص مؤلّف من وحدات قرائية منفصلة، ويرتبط هذا المفهوم لديه بمنهجيته التفكيكيّة، إذ يقول في مؤلّفه غلاس (Glas)، إن موضوع هذا العمل وأسلوبه أيضاً هو " القطعة " (morceau) التي ترجمها أولمير[1225] بمقطع في قطعة موسيقية أو برشفة، وإن هذه القطعة منتزعة دوماً بالأسنان، والمقصود بها حسب أولمير، الفواصل والهلالين الدائريّين أو المربّعين : فعندما يتم الاستشهاد باللغة (الواقعة بين فارزتين)، فإنه يتحرّر، بالنتيجة، من ربق سياق قابض عليه.

ومن خلال التشديد الذي يتمسّك به ديريدا بالنسبة لانقطاعية النص، يشتقّ مفهوم النص الممنهل كمجمّع كبير يتلاءم وفكرة نسيج أو قماش من التول (tulle) الرقيق والشفّاف الذي يسمح للخيوط وللخطوط الواحدة أن تنفصل وتتفكّك بدورها، ولكن، في

(1225) G. Ulmer, " Applied Grammatology : Post (e) – Pedagogy from Jacques Derrida to Joseph Beuys ", Ed. Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1985, p. 57, in Landow, 1997, cit., p. 64.

الوقت نفسه، أن تعود لتحتوي في داخلها خيوطاً وخطوطاً أخرى. ويمضي ديريدا في نظريته حول النص الممنهل، مشبّهاً إيّاه بالمونتاج السينمائي، وبالتالي، معتبراً هذا الضرب من النصيّة، بالدرجة الأولى، عملية كتابية.

ويعتقد التفكيكي ديريدا أن مفهوم التفكيك قد لعب دوراً مفتاحياً في التغيّر الفكري، فعلم السلالات، على سبيل المثال، استطاع أن يرى النور كعلم، فقط في اللحظة التي أمكن فيها القيام بعمليات التفكيك، وفي اللحظة التي تمّت فيها إزاحة وطرد الثقافة الأوروبية - وبالتالي تاريخ الماورائية ومفاهيمها - من موقعها، ما اضطرّ هذه الثقافة إلى التخلّي عن اعتبار نفسها ثقافة مرجعية[١٢٢٦]. ويقول ديريدا إنه كان من الواجب الشروع في التفكير بأنه ليس هناك مركز، وبأن المركز لا يمكن أن يفكَّر فيه بشكل الغائب/ الحاضر، وبأنه ليس ثمة مكان ثابت بل وظيفة[١٢٢٧]. وهكذا، فإن قارئ النص الممنهل ليس سجين تنظيم ما أو تراتبية.

ولعلّ ديريدا[١٢٢٨] هو أكثر من ركّز على أن المعلوماتية ووسائل الاتّصال الحديثة الأخرى قد تسبّبت في تآكل سلطة النموذج السطري وسلطة الكتاب كصيغ مهيمنة ومتوافقة ثقافياً، إذ يعلن نهاية الكتابة السطرية ونهاية الكتاب، ذلك لأنه إذا أصبح شكل الكتاب خاضعاً لاضطراب عام، وإذا كان هذا الشكل أخذ يبدو أقل طبيعية وتاريخه يبدو أقل شفافية من أي وقت مضى، فإنه لم يعد قادراً على ضبط الصيرورات الكتابية الجديدة التي ستضطرّ إلى تفكيكه لدى تعاملها معه. ويعتقد ديريدا أن جوهر الموضوع يكمن في استحالة التلاعب بشكل الكتاب دون تغيير الباقي من الفكر الغربي برمّته. ويصف أولمير كتاب ديريدا، " الانسياح "، الذي حاول المؤلّف منهلته بقدر ما تسمح به تقانية الطباعة على الورق، بأنه وصف دقيق للنص الممنهل، حيث جاء فيه أن التبعثر، حسب امتداد معيّن لمفهوم النص، يضع قانوناً آخر لتأثيرات المعنى والمرجعية، ويقيم علاقة أخرى بين الكتابة بالمعنى الماوراني وبين ما هو خارجها، أي السياق التاريخي والسياسي والاقتصادي والجنسي إلخ.. وفي ذات الاتّجاه، يقول ميللر[١٢٢٩] إن مؤلّف ديريدا " غلاس " والحاسوب الشخصي ظهرا في وقت واحد تقريباً، وهما يسهمان، بشكل واعٍ ومتعمّد في تجاوز الكتاب السطري التقليدي وإحلال

(1226) Derrida, " L'Écriture et La Différence ", Ed. Seuil, Paris, 1967, trad. " La scrittura e La Differenza ", Ed. Einaudi, Torino, 1971, p. 363.
(1227) Ibid., p. 361.
(1228) Derrida, La Disseminazione, cit., p. 47.
(1229) H. Miller, " Literary Theory, Telecommunications and the Making of History, in Scholarship and Technology ", M. Katzen, British Library Research / Bowker Saur, London, 1991, p. 11.

النص الممنهل تعدّدي السطرية وتعدّدي الوسائل الاتّصالية، محلّه، فهذا الأخير أخذ يصبح بسرعة كبيرة، الشكل العادي للتعبير سواء في الثقافة سواء في دراسة أشكاله.

وحول هيكلية الكتابة الإلكترونية الممنهلة بشكل عام، يرى لاندو[١٢٣٠] أن النص الممنهل يستوجب بالضرورة نسبة من المعلومات غير الكلامية أعلى من النسبة التي تتقبّلها الكتابة الطباعية، ويعيد لاندو السبب إلى السهولة النسبية في إدخال مواد غير كلامية إلى النص الممنهل الذي ييسّر تكاملها. ويقول لاندو إن النص الممنهل يستجيب لطلب ديريدا في خلق نوع جديد من الكتابة الهيروغليفية التي تستطيع أن تتفادى بعض المشكلات الضمنية والحتمية التي تعاني منها الأنظمة الغربية للكتابة، فديريدا يعتقد أن إدخال عناصر بصرية في الكتابة يمثّل طريقة للهروب من قيود السطرية، وأن الرغبة في تكريس كتابة رسمنية جديدة، كوسيلة للتخلّص من مركزية الكلمة(logocentrism) تجد في النص الممنهل جواباً على العديد من متطلّباتها. وبما أن الأنظمة النصيّة الممنهلة تربط مقاطع من نص كلامي بصور، بذات السهولة التي تستطيع بها أن تربطها بمقاطع نصيّة أخرى، فإن النص الممنهل يحتوي أيضاً إمكانية التعدّدية الرمزية، ونظراً لأن الحاسوب يرقّم سواء الرموز الأبجدية سواء أية رموز أخرى ذات طبيعة مغايرة، فإن النص الإلكتروني يستطيع أن يحتضن بسهولة العناصر كافة معاً[١٢٣١].

ويعتقد لاندو أن الترابطات النصيّة الممنهلة، وإمكانية تدخّل القارئ والتنوّع، لا تقتصر على مناوءة الأشكال الاعتيادية لطرح الموضوعات، بل تمارس أيضاً تأثيرات شمولية، يتجلّى أولها في إضافة عنصر صدفي إلى النص، ويتجسّد التأثير الثاني في أن المؤلّف يفقد السيطرة على جوانب أساسية من منتجه، وخاصة فيما يتعلّق بالهوامش والحدود. ويكمن تأثير ثالث في أن النص يبدو مفتّتاً ومتحوّلاً إلى ذرّات في عناصره البنائية، إذ أن كلّ عنصر يكتسب حياة خاصة به ويصبح أكثر استقلالية، لأنه غدا أقلّ ارتباطاً بما سبقه وبما أعقبه بموجب تتابعية.

(1230) Landow, 1997, cit., p. 90.
(١٢٣١) يطلق على تقانة احتضان شاشة الحاسوب لوحدات كلامية وصورية، وصوتية وإيقونية متنوّعة، ضمن مقطع نصّي واحد، مصطلح وسائل الاتّصال الفائقة (hypermedia)، ويطلق على البيئة المعلوماتية التي تتيح قراءة وكتابة متوازية لنصوص وصور تتّخذ أبعاداً تضاريسية داخل شبكة وحيدة مصطلح وسائل الاتّصال التناصّي (intermedia). وتتّصف هذه الوسائل الإلكترونية ذات الأبعاد الكوكبية بالمرونة والدينامية والتفاعلية الآنية بين أطراف العملية الاتّصالية.

ويقول لاندو إن أشكال النصّية الممنهلة تبدي تزاوجات متنوّعة من الحالات الذرّية والانسياحية، وإن النص الإلكتروني الممنهل، خلافاً للنص المطبوع بواسطة تقانية الكتاب الذي يمتلك استقراراً مكانياً، يتمظهر دوماً بحالة تبدّلية لأنه غير موجود في حالة نهائية ويمكن تبديله بشكل دائم. ولذلك، فإن نصاً ممنهلاً، على عكس نص مطبوع، يبدو دينامياً نسبياً، لأنه مفتوح على تصحيح وتحديث وتجديد وتبديل. وهكذا، فإن النص الممنهل، وبقطع النظر عن أشكاله الترابطية، يؤذن بهجر الاستقرار الطباعي، وفي غياب الاستقرار لا يمكن لنص أن يكون موحّداً. كلّ ذلك يعني - حسب لاندو - أن للمقاطع أو للكسيات الممنهلة روابط ضعيفة مع المقاطع الأخرى في المؤلَّف الواحد، وروابط قوية، بالمقابل، مع نصوص مؤلّفين آخرين. والواقع أن أي لكسية تستطيع أن تتضم لأي نص تربط به، ما يبدّد فكرة الفصل الفكري لمؤلّف عن آخر. وبتأثير هذا الربطُ الإلكتروني وتناثر النص في نصوص أخرى، فإن التسيّق* والتناصّ الناجمين عن موضعة وحدات قرائية مفردة داخل شبكة من المسارات اليسيرة الإبحار تقرّب، فيما بعد، بين النصوص، بما فيها تلك المؤلّفة من كتّاب عديدين وتلك التي تمّ تصميمها بوسائل غير كلامية. ومن الطبيعي أن تؤدّي هذه التركيبة النصّية إلى إضعاف أو حتّى تحطيم أي معنى لوحدانية النص. ويتوقّع لاندو أن يؤدّي فقدان الثقة في نصّية موحّدة إلى إحداث تبدّلات عديدة في الثقافة الغربية.

من المحتّم أن تؤدّي هذه الارتباطات الإلكترونية للنص الممنهل والتي تمنح القارئ دوراً غير عادي، إلى تأثيرات على جانب كبير من الأهمّية، لعلّ أبرزها تجاوز السطرية الذي أدّى إلى حدوث تبدّل عميق في تجربة القراءة ووضع المتلقّي في مواقع إيجابية وفاعلة لا سابقة لها تجاه المرسل. لذلك، ليس من المنطقي اعتبار هذا التغيّر الجوهري في مواقع طرفي العملية الاتّصالية، بمثابة التخلّي عن ميل طبيعي لدى الإنسان.

وكما يؤكّد ماك آرثر[1232]، فإن بنية الكتب ليست طبيعية على الإطلاق، بل هي غير طبيعية بصورة كاملة، إذ استغرق تشييدها أكثر من أربعة آلاف سنة. ويشدّد ماك آرثر على أن الإنسان يميل دوماً إلى اعتبار المشيّدات الاجتماعية لعالمه، طبيعية. على جانب آخر، يلاحظ لاندو أن المفاهيم وتجارب " البداية " و" النهاية " تقتضي السطرية، ولكن شكل النص غير الخاضع للسطرية، أو بالأحرى النصّية الممنهلة

• اشتقاق من سياق.

(1232) T. McArthur, " Words of Reference : Lexicography, Learning and Language from Tablet to the Computer ", Ed. Cambridge University Press, 1986, in Landow, 1997, cit., p. 110.

تتموضع ضمن تتابعات متعدّدة، وليس ضمن غياب كامل للسطرية أو للتتابعية، ولذلك، فإن هذه النصّية تخلق بدايات عديدة ونهايات عديدة. واستناداً إلى مؤلّف إدوار سعيد[1233] حول مفهوم الأصل والانفتاح، يلاحظ لاندو أنه، خلافاً للطباعة، يتيح النص الممنهل نوعين من البدايات على الأقل، يتّصل النوع الأوّل باللكسية الواحدة، والثاني بمجمل اللكسيات للنص المركّب. فأمام كتلة من المواد الممنهلة المعزولة، إمّا لأنها تحتلّ نظاماً كاملاً وإمّا لأنها موجودة مؤقّتاً في بيئة منفصلة، على القارئ أن يبدأ القراءة من نقطة ما، وهذه النقطة تمثّل البداية. وفيما يرتبط بالمطبوع يقول إدوار سعيد إن بداية عمل هي، عملياً، المدخل الرئيس لما يقدّمه هذا العمل، ولكن ماذا يحدث عندما يقدّم العمل مداخل رئيسة عديدة، أي عدداً من المداخل يضاهي عدد المقاطع المترابطة التي من خلالها يمكن الوصول إلى اللكسية المفردة ؟ ويقدّم سعيد جواباً ممكناً إذ يؤكّد أن " بداية " ما، تشير أو توضّح أو تحدّد زمناً تالياً أو مكاناً تالياً أو عملاً تالياً. وباختصار، فإن تحديد بداية يتطلّب أيضاً تحديداً متعدّداً[1234]. وحسب سعيد فإن النص المتذرّر أيضاً يمكن أن يمثّل بداية عندما يؤدّي المكان أو نقطة انطلاق الترابط، دور بداية سلسلة أو مسار. بكلمات أخرى، يرى سعيد أن البداية هي النقطة الأولى في الزمان أو في المكان أو في الفعل، لصيرورة تمتلك دائمية معيّنة ومعنى. إذن، البداية هي الخطوة الأولى في عملية الإنتاج القصدي للمعنى.

وكما يعسّر النص الممنهل عملية تحديد بداية نص، سواء لأنه يغيّر فكرة القارئ عن النص، سواء لأنه يسمح لهذا القارئ بأن يبدأ قراءته من نقاط عديدة، فإنه يغيّر أيضاً معنى النهاية، فالقارئ لا يستطيع اختيار نقاط عديدة كنهاية فحسب، ولكنه قادر أيضاً على الاستمرار في تغذية النص بإضافات، موسّعاً إيّاه وجاعلاً منه شيئاً مختلفاً عمّا كان عليه في بداية القراءة.

ويقول نيلسون[1235] بهذا الصدد إنه لا توجد الكلمة الأخيرة، وليس من الممكن أن توجد حالة نهائية أو فكرة نهائية عن شيء ما، هناك دوماً وجهة نظر جديدة، فكرة جديدة وتفسير وإعادة تفسير. ويشبّه نيلسون النص بالماء الذي يجري بحرّية، خلافاً للجليد، معتبراً أن الوثائق الحيّة التي تجري بحرّية عبر الشبكة تخضع باستمرار لاستخدامات جديدة ولارتباطات جديدة جاهزة للقيام بعملية التفاعل التبادلي. وبالمقابل، فإن أي نسخة منفصلة عن النظام هي باردة وميّتة ومفتقدة لأي انفتاح على ترابطات جديدة.

(1233) E. Saïd, " Beginnings : Intention and Method ", Ed. Columbia University Press, New York, 1985, op. cit., p. 3.
(1234) Ibid.
(1235) Nelson, 1990, cit., pp. 57-58.

وفي تحليله لبعض مؤلّفات باختين، يقول إيمرسون[١٢٣٦] إن هذا الأخير لا يعتبر " الكلّ " ككيان منتهٍ، بل هو دائماً علاقة، ولذلك، فإن الكلّ لا يمكن أن يكون منتهياً وأن يوضع جانباً، وعندما يتم إنجاز هذا الكلّ فإنه يصبح، تعريفاً، عملاً مفتوحاً على التغيّر.

إن الأفكار التقليدية حول انتهائية العمل وحول المنتج الفكري المنتهي لا تجد – حسب لاندو – صدى لها في النص الممنهل الذي يؤدّي اختلافه الجوهري إلى صعوبة تحديده أو وصفه من خلال استخدام مصطلحات قديمة، لأن تلك المصطلحات تأتي من تقانية أخرى للتربية وللإعلام وتحمل خلفها فرضيات ضمنية غير قابلة للتوافق مع النص الممنهل. وكما يلاحظ ديريدا[١٢٣٧]، فإن شكلاً من النصيّة التي تتجاوز الطباعة يرغم على مدّ الصيغة المهيمنة للنص، ذلك لأن هذا الأخير لم يعد جسماً منتهياً من الكتابة أو مضموناً مؤطّراً في كتاب أو في هوامش كتاب، وإنّما هو شبكة متنوّعة ومتباينة ونسيج من الآثار التي تحيل، بشكل لانهائي، إلى نسيج آخر، وهي آثار تستند إلى آثار أخرى متباينة.

ولا يقتصر النص الممنهل على إعادة تحديد مفاهيم البداية والنهاية، وإنّما يعيد النظر أيضاً في حدود النص وهوامشه، ويقدّم النص الممنهل مخرجاً لما يطلق عليه جينيت[١٢٣٨] ضرباً من التدلّه ليس أقلّ خطورة من التعبّد في محراب المؤلّف، ألا وهو صنمية العمل المدرك كشيء مغلق وكامل ومطلق. وعندما يتم الانتقال من النص المادّي إلى النص الافتراضي ومن الطباعة إلى النص الإلكتروني الممنهل، فإن الحواف تبهت ويصبح من غير الممكن الوثوق بمفاهيم وافتراضات "الداخل" و "الخارج".

وهكذا، فإن الكتابة، وكما يعتقد دريدا[١٢٣٩]، يفترض أن تصبح من جديد ما كان يجب أن تبقى عليه دائماً، أي بدون سطرية وبدون حدود جليّة بين الداخل والخارج، بين الغياب والحضور، بين ذاتها وغير ذاتها، متجاوزة عادة التفكير السطري التي ترافقت مع تقانية الطباعة والتي أدّت غالباً إلى التفكير بمحدودية، خارج السياق، ما تسبّب في إضعاف الفكر بل في إفقاره.

(1236) C. Emerson, " Introduction a M. Bachtin, ", Ed. University of Minnesota, Minneapolis, 1984, p. XXXIX, in Landow, cit., p. 112.
(1237) Derrida, " Survivre, in Parages ", Ed. Galilée, Paris, 1985, pp. 21-22.
(1238) G. Genette, " Figures II ", Ed. Seuil, Paris, 1966, trad. " Figure II ", Ed. Einaudi, Torino, 1969, p. 121.
(1239) Derrida, La Disseminazione, cit., p. 158.

غير أن ديريدا، عبر شرحه لهذا المفهوم النصّي، يؤكّد أن ذلك لا يعني أن النص الممنهل يتسرّب من كل مكان كالماء المسفوح، ولا يعني أنه بالإمكان أن يغوص بصورة مشوّشة في العمومية اللاتعيّنية لعناصره، بل يعني، ببساطة، أنه ما دامت التمفصلات معترفاً بها بشكل صارم وحذر، من المحتّم تحرير قوى جاذبة مخبوءة تربط كلمة حاضرة بأخرى غائبة في نص أفلاطون.

بهذا المفهوم، يخرج النص الممنهل إلى حيّز الوجود نصاً مفتوح الحدود، يجسّد في عدم تمكّنه من استبعاد نصوص أخرى، النص الديريداني الذي تتداخل فيه كلّ الحدود المشكّلة لحافّة ما يسمّى نصاً. ويخضع هذا النص المتميّز إلى ما يصفه ديريدا بأنه ضرب من الفيضان النصّي الذي وضع في أزمة، الحدود كافّة[١٢٤٠].

انطلاقاً من هذه الرؤية للأنظمة النصيّة الإلكترونية، فإن الترابطات من الداخل ومن الخارج والتداخلات الجوّانية والتناصّية بين نقاط في النص (لكسيات وصور) تصبح متساوية، ما يفضي إلى تقارب بين النصوص وتراكم في حدودها المتشابكة.

ويقول لاندو[١٢٤١] إن خصائص النص الممنهل تقود إلى الاعتقاد بأن الثقافة التي تنهض بها الحواسيب تمتلك خواصاً مشتركة مع تلك الثقافة التي سادت خلال عصور الإنسان قبل الأبجدي، ويؤكّد أونغ[١٢٤٢] في هذا الخصوص، أن الحواسيب نقلت الإنسانية إلى الاتّصال السمعي الثانوي الذي يتشابه، بشكل مذهل، مع الاتّصال السمعي الأولي قبل الأبجدي، وخاصّة فيما يتعلّق بخاصّيته التشاركية ومضمونه المجتمعي وتركيزه على اللحظة الحاضرة وحتّى فيما يتّصل بطرائق استخدامه للصيغ. غير أن أونغ لم يلحظ الفرق الشاسع بين النص التقليدي والنص الممنهل، إذ يقول إن التصميم والموضعة التتابعية للكلمات والتي بدأت مع الكتابة وتفاقمت مع الطباعة، خضعت لدفع إضافي من قبل الحاسوب الذي يرفع إلى الحدّ الأقصى عملية إيداع الكلمة للفضاء وللحركة الإلكترونية المحلّية، ويحسّن التتابعية التحليلية جاعلاً إياها فورية تقريباً.

الواقع أن الأنظمة النصّية الممنهلة التي تدخل جميع النصوص في نسيج من العلاقات، تنتج، كما يؤكّد لاندو، تأثيرات مختلفة إذ تتيح قراءة وتفكيراً غير تتابعيّين، وتضعف حدود النصوص بطريقتين تتجلّى إحداهما في تصحيح العزلة المصطنعة لنص ما عن سياقاته، وتكمن الثانية في انتهاك إحدى الخصائص الأساسية للكتاب

(1240) Derrida, Survivre, in Parages, 1985, cit., p. 21.
(1241) Landow, 1997, cit., p. 116-117.
(1242) W.J. Ong, " Orality and Literacy,1982, trad.1986, op. cit., p. 191.

وهي، كما يرى أونغ[١٢٤٣]، خصيصة إنتاج تعبيرات منفصلة ومكتفية بذاتها، ذلك لأن النص الممنهل يشجّع التكامل وليس الاكتفاء الذاتي.

وهكذا، فإن النص الممنهل الذي يربط كتلة نصيّة بكوكبة نصيّة أخرى، يبطل تماماً العزلة المادّية للنص ويبطل بالتالي، حسب لاندو، جميع السلوكيات الناجمة عن هذه العزلة، فالأنظمة النصيّة الممنهلة التي تعطي إمكانية، سواء تدوين نص مفرد، سواء ربطه بنصوص أخرى متناقضة، تدمّر إحدى الخصائص الأهم للنص المطبوع ألا وهي انفصاله ومونولوجيّته، ذلك لأن موضعة نص ما داخل شبكة من نصوص أخرى تعني إرغامه على الوجود كجزء من حوار معقّد. وبتغيّير العلاقات المكانية والزمانية لنص ما مع نصوص أخرى، يتمكّن الربط الإلكتروني من تبديل تجربة القراءة بشكل جذري.

ويعتقد كيرنان[١٢٤٤]، مستنداً إلى نظرية بينيامين حول إزالة الأسطرة عن الفنون من خلال إعادة إنتاج نسخ لاحصر لها للعمل الفني، أن النص الممنهل يضاعف عملية إزالة الأسطرة بسبب قدرته على جعل حواف النص راشحة؛ ملغياً جزءاً من استقلاليته ووحدانيته، ومؤدّياً، بصورة فورية، إلى انهيار تراتبيّته التقليدية ونشوء نوع آخر من التراتبيّة تمتدّ فيه سلطة المركز نحو هوامش لا حدود لها، ويزول تماماً الانقسام الثنائي بين النصّ الرئيس وبين ما يحيط به من متعلّقات وملاحظات، ذلك لأن النص الرئيس في النصيّة الممنهلة هو، حسب لاندو[١٢٤٥]، ذاك الجزء الذي يقرؤه المتلقّي في لحظة معيّنة. غير أن صيرورة زوال الأسطرة والتراتبيّة التي تفاقمت مع الطباعة لا تفضي في النصوص الممنهلة، حسب باختين[١٢٤٦]، إلى قطع أو إضعاف السياق.

ويختلف ديريدا عن باختين وبارتز في هذه النقطة، إذ يشدّد على التعارض بين مقدّمة ونص رئيس، وبين نص رئيس ونصوص أخرى، معتبراً أن النصيّة الممنهلة الحقيقيّة، أي تلك الديريدانية، تمثّل تصنيفاً " آخر" تماماً حيث تتشابك الحدود بين التوطئة والنص الرئيس.

وفي مقاربة فلسفية لخصائص النص الممنهل، يقول لاندو[١٢٤٧]، إن هذا النص الذي يعيش بمبدأ الهوامش، يثير إشكاليات عديدة منها أن النص المتشابك، داخل إطار

(1243) Ibid., pp. 186-187.
(1244) Kernan, Printing Technology, 1987, cit., p. 182.
(1245) Landow, 1997, cit., p. 123.
(1246) M. Bachtin, " Problemy Poetiki, Dostoevskogo ", Moskva, Sov. Russia, 1979, p. 244, in Landow, cit., p. 123.
(1247) Landow, 1997, cit., p. 123.

المنهلة، يوجد كنص "آخر"، وهذا ما يقود إلى فكرة أو تجربة النص كـ "آخر"، فأي نص مرتبط يمكن أن يؤدّي دور ملاحظة أو تعليق أو نص تكاملي. على جانب آخر، يعلن النص الممنهل أن باستطاعة الهامش أن يعطي بقدر المركزي، ذلك لأن النص الممنهل يعيد تحديد المركز، رافضاً ضمان مركزية لأي لكسية خلال زمن يزيد عن زمن نظرة القارئ إليها.

وهكذا، فإن ذوبان المركزية داخل النص الممنهل، يجعل من هذه الوسيلة الاتّصالية، حسب لاندوو[١٢٤٨] قوّة ديمقراطية، ويؤسّس نموذجاً لمجتمع حواري، حيث لا تخلق ولا تهيمن محادثة ما أو منهجية ما أو أيديولوجية ما على محادثات أو منهجيات أو أيديولوجيات أخرى. وهذا ما يطلق عليه رورتي[١٢٤٩] الفلسفة البنائية التي تهدف إلى الحفاظ على المحادثة أكثر ممّا ترمي إلى اكتشاف الحقيقة الموضوعية، وهي شكل من الفلسفة التي تكتسب معنى، فقط لكونها احتجاجاً على محاولة قطع المحادثة التي تقترح هدف المقايسة الشمولية التي يتم الحصول عليها من خلال أقنمة سلسلة وصفية امتيازية. إن الخطر الذي يحاول الحديث البنائي أن يبعده هو أن تؤدّي أي مفردات أو أي طريقة يتوصّل فيها الناس إلى قناعة بذواتهم، إلى أن تدفعهم، بشكل مخادع، إلى الاعتقاد بأنه من الآن فصاعداً، يمكن أو يجب أن تكون عملية القطع هذه حدثاً عادياً. ويقول رورتي إن تجميد الثقافة الناجم عن هذا الضرب من القطع يعني بالنسبة للفلاسفة البنائيين نزع الأنسنة عن الإنسان. ويرى رورتي في النص الممنهل الذي يمتلك حكماً مسبقاً طبيعياً ضدّ الأقنمة وضدّ تكريس التوصيف الامتيازي، تجسيداً لمقاربة فلسفية حقيقية.

ويوضّح لاندو[١٢٥٠] هذا المفهوم، إذ يقول إن التقانيات الاتّصالية بعد - الحداثية والمناوئة للتراتبية تتيح لنص ما أو لرقابة ما تجربة أساسية تتمثّل في بثّ معلومات ونصوص وأفكار من شأنها أن تحقّق انتقالاً في السلطة من المؤلّف باتّجاه القارئ.

التقانيات الجديدة وإشكالية الحرّية والديمقراطية

من الواضح أن كلّ هذه الخصائص التي يتفرّد بها النص الإلكتروني الممنهل، تجعل البعض يفتتن بالتقانيات الجديدة ويحتفي بتأثيراتها وتداعياتها، وتجعل البعض الآخر ينظر إليها بحذر وتوجّس، رافضاً بشدّة تلك المفاهيم التي تؤكّد التأثير الحاسم

(1248) Ibid. p. 124.
(1249) R. Rorty, " Philosophy and the Mirror of Nature ", Ed. Princeton University Press, Princeton, trad. " La Filisofia e lo Specchio della Natura ", Ed. Bompiani, Milano, 1986, p. 290.
(1250) Landow, cit., p. 125.

للتقانيات الاتّصالية في إرهاصات العقل الإنساني وفي السلوكيات الاجتماعية وفي خضوع بنيات المجتمع، بشكل عام، لتغيّرات عميقة.

يوضّح سينغر[1251] دوافع هذا التخوّف الذي يعدّه أمراً طبيعياً، مستنداً إلى خلفيات تاريخية، إذ يقول عندما أدخلت الفسحات بين الكلمات في النص المكتوب، وأصبح من الممكن اتّباع طريقة القراءة الصامتة، حرّمت جامعات القرن الرابع عشر الميلادي في الغرب هذا الضرب من القراءة في الصفوف. كذلك، عندما ظهرت وانتشرت الكتب المطبوعة، أبدى العديد من أساتذة ذاك العصر خشيتهم من تلك " المؤلّلات " التعليمية الجديدة والخطيرة، التي تحوّل للطالب جزءاً مهمّاً من سلطة الأستاذ ومن معرفته، وتتيح للأشخاص إمكانية التعلّم الذاتي، خارج إطار السيطرة المؤسّساتية.

غير أنه يبدو أن التخوّف الأهم من تأثيرات تلك التقانيات الترحالية والكوكبية، يقع في الحقل السياسي، فكما يقول جيمسون، يجب الاعتراف بأنه لا يوجد شيء ليس اجتماعياً وتاريخياً، وأن كلّ شيء، في الحقيقة، وفي نهاية المطاف، هو سياسي.

ولذلك، ينوّه لاندو[1252]، بأن كلّ النقاشات حول النص الممنهل تثير مسائل سياسية ومسائل سلطة وامتيازات وتبدّلات مؤسّسية تنجم عنها عواقب وسياقات سياسية. ذلك أن التحقيق الكامل لنظام نصّي ممنهل في الشبكة، يخلق بالضرورة، قرّاء يتمتّعون بسلطات أكبر، لأن منطق تقانيات المعلومات الذي يجنح نحو بعثرة المعرفة، يفضي إلى تعاظم الدمقرطة وإلى لامركزية السلطة، كما يؤدّي إلى مزيد من الحرّية ومن سلطة الفرد.

على أية حال، فقد شرعت أنظمة النص الإلكتروني الممنهل، كما الكتب المطبوعة في حقبات زمنية أخرى، في تغيير أدوار عديدة وتحويل سلطات مّن فئات إلى أخرى، والتسبّب، بشكل مباشر وغير مباشر، في انزياح تدريجي للسلطة والنفوذ والقوّة نحو مواقع جديدة في المجتمع، وفي زعزعة أركان التمركز وتعميم اللامركزية بجميع أنواعها وأشكالها.

لهذا كلّه، يقرن العديد من باحثي ومحقّقي النص الإلكتروني الممنهل، بشكل دائم، بينه وبين الحرّية وازدياد سلطة الفرد، إذ يقولون إن جوهر النص الممنهل يكمن في كون المتلقّين أحراراً تماماً في متابعة الترابطات التي يريدون داخل الشبكة[1253]،

(1251) P. Saenger, " Books of Hours and the Reading Habits of the Later Middle Ages ", in Chartier R., The Culture of Print, Ed. Prinsceton University Press, Princeton, 1987, pp. 73-141.
(1252) Landow, cit., p. 334.
(1253) T. Mayes & M. Anderson, " Learning about Learning for Hypertext ", 1990, pp. 227-250, in Landow, cit., p. 335.

ويتحدّث مخترعو النص الإلكتروني الممنهل عن إمكانيات هذا الأخير في تقوية طبقة أكثر اتّساعاً من القرّاء – المؤلّفين[1254].

وكان نيلسون[1255]، مطلق التسمية على النص الممنهل، أوّل من شرح هذه الموضوعة إذ قال تخيّلوا ثقافة جديدة تحرّرية، حيث تفسيرات بديلة تسمح لأيّ إنسان بأن يختار المقاربة أو المقطع الذي يحقّق معه الانسجام الأكبر، وحيث الأفكار متاحة ومثيرة للاهتمام بالنسبة لأي كان.. بهذا الشكل، تستطيع التجربة الإنسانية أن تتمتّع بحرّية جديدة وبثراء جديد.

وفي ذات المنحى، يعتقد أونغ[1256] أن التقانيات ليست مجرّد مساعدات خارجية بسيطة، وإنما هي عوامل تفضي إلى تغيّرات في البنيات العقلية، فالكتابة خلقت الفكر والثقافة كما نعرفهما، والكتابة تمنح سلطات لأفراد، موفرة لهم وسائل للقيام بأعمال لم يكونوا ليتمكّنون من القيام بها بدون الكتابة، ومتيحة لهم، في الوقت نفسه، في أن يفكّروا بطرائق مختلفة. ويسوق أونغ أدلّة تاريخية على ذلك، إذ يقول إن الكتابة والقراءة اللتين كانتا مقتصرتين على نخبة محدودة جداً في الشرق الأوسط القديم، مثّلتا قدرات عمادية ساندت سلطة الدولة، إذ أتاحتا تسجيل الضرائب والأملاك ومعلومات أخرى، وأنه، من هذا المنطلق، فإن الكتابة التي استطاعت حفظ المعلومات وحمايتها، قد أدّت إلى تأثيرات أخرى سياسية، فبعد ظهورها بصورة تدريجية تمّ استخدامها من أجل تجميد الكودات الشرعية السومرية القديمة. ويقول أونغ إن الشهادات التاريخية يمكنها أن تحدّد أي مجموعات في مجتمع ما حصلت على امتيازات وأي مجموعات أخرى تضرّرت من هذه التغيّرات. ففي مجتمع معيّن، وفي علاقة قوّة خاصة، يمكن أن تكون طبقة النبلاء أو طبقة الكهّان والنبلاء قد أفادت من هذا التطوّر، في حين أنه، في مجتمع آخر، حيث يسود الاستقرار ووضوح القوانين، يمكن أن تكون الفوائد قد شملت أيضاً، مواطنين عاديّين. وعلى أية حال، يؤكّد أونغ، أنه خلال آلاف السنين، وبعد أن حقّقت انتشاراً داخل شرائح واسعة من مجتمعات عديدة، فإن الكتابة قد حركت، شيئاً فشيئاً، بيضة القبّان من الدولة إلى الفرد، من النبلاء إلى عامة الشعب.

يقول لاندو[1257]، بهذا الخصوص، إن التقانية تعطي دوماً سلطة لجهة ما، لمجموعة ما في المجتمع، وهو أمر له ثمن.

(1254) Ibid.
(1255) Nelson, Literary Machines, cit., 1990, p. 1/5.
(1256) Ong, Orality and Literacy, 1982, cit., p. 124.
(1257) Landow, 1997, cit., p. 338.

ويبيّن لين وايت[1258] أن إدخال ثلاثة اختراعات من الشرق الأقصى وضع الأسس التقانية للإقطاع : فالنير والمحراث المعدني أدّيا إلى جمع حصاد أكبر حجماً بكثير من حصاد الحرث السطحي لحقول صغيرة، وخلقا فائضاً غذائياً شجّع الملاّك على تجميع مساحات واسعة من الأرض. أما رِكاب الخيل فقد جعل القتال من على ظهر الخيول ممكناً ومكّن الفرسان والمقاتلين من استخدام السيوف الثقيلة والحراب دون المخاطرة بالسقوط على الأرض. وبذلـك، جمعت السلطة الاقتصاديـة، التي أوجدها مستخدمو النير والمحراث المعدنـي، أموالاً ابتاعت بواسطتها أسلحة مرتفعـة الثمن جرى استخدامها للدفاع عن المزارعين. وهكذا، فإن هذه الأشكال من التقانيـة الزراعية والعسكرية جسّدت، حسب وايت، عنصراً حاسماً، وإن لم يكن جوهرياً بالضرورة، لتكريس النظام الإقطاعي. ويقول وايت إن هذه التقانيات أعطت مزيداً من السلطة للفرسان والمقاتلين وملاّك الأراضي في مجتمع كان يبنى، بصورة متصاعدة، على أساس تراتبي، وأعطت أيضاً سلطة متزايدة للكنيسة التي أفادت من ازدياد الفائض الغذائي. ولا يشك وايت في أن صنّاع وبائعي تلك التقانيات قد حصلوا هم أيضاً على امتيازات وسلطة وثراء، في حين أن العمّال الزراعيين، الذين كانوا أحراراً في المجتمعات القبلية والذين اضطّروا إلى التنازل عن أرضهم ليصبحوا أقناناً، قد فقدوا جزءاً كبيراً من سلطتهم.

وحول ذات الموضوع، يقول كيرنان[1259] إن تقانية الطباعة، في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، أنتجت العديد من التغيّرات الاجتماعية والسياسية، فالنظام القديم للأدب المهذّب والبلاطي، الذي كان شفهياً وأرستقراطياً واستبدادياً ومتمركزاً بالدرجة الأولى في محيط البلاط، تمّت إزاحته وحلّ محلّه، تدريجياً، نظامٌ أدبي ديمقراطي قائم على الطباعة ومركّز على السوق. بالإضافة إلى ذلك، فإن الطباعة رفعت من عدد ومن شأن النقّاد والناشرين والمؤرّخين وحرّرت المؤلّفين، بشكل متصاعد، من ربق أولياء أمورهم حماة الفنون، ومن رقابة الدولة، وفي الوقت نفسه، حولت الجمهور من مجموعة صغيرة من القرّاء إلى أعداد كبيرة من الأشخاص الذين كانوا يبتاعون كتباً ليقرؤوها في محيطهم المنزلي الخاص. أيضاً القوانين التي صدرت حول حقوق التأليف آنذاك، أعادت تحديد دور المؤلّف جاعلة إيّاه مالكاً لكتاباته.

وفي السياق نفسه يقول بولتر[1260] إنه إذا كانت حضارة الطباعة قد شكّلت، خلال القرون الماضية، قوّة توحيدية وطنية وثقافية ولغوية، كما تقول إيزنشتاين، فإن الكتابة

(1258) Ibid.
(1259) Kernan, Printing Technology, cit., p. 4.
(1260) Bolter, Writing Space, cit., pp. 298-306.

الإلكترونية تحدث الأثر العكسي تماماً، إذ أنها تعارض التوحيد القياسي والتوحيد بصورة عامة والتراتبية، معطية نموذجاً نصّياً يتغيّر بالاتّفاق مع القارئ، بدلاً من أن يفرض على القارئ التكيّف مع مقاييسه الموحّدة.

ويعتبر بولتر أن الثقافة بحد ذاتها مساحة للكتابة وجملة من البنيات الرمزية، وأنه كما يمكن الحديث عن كتابة عقلية يمكن الحديث أيضاً عن كتابة ثقافية، فالإنسان يكتب داخل الثقافة التي يعيش فيها، ولذلك فإن الانتقال من الطباعة إلى الحاسوب في العصر الراهن، يرافقه انتقال من نظام تراتبي إلى نظام ثقافة شبكية (network culture) حيث أخذت تتفكّك جميع أشكال التراتبية، في الوقت الذي بدأ فيه الفرد يكتسب حرّية عمل متعاظمة. ويعتقد بولتر أن جزءاً كبيراً من عمليةُ التفكّك هذه تسير باتّجاه أهداف الديمقراطية الليبرالية.

غير أن بولتر يؤكّد أن انتهاء التراتبية لا يعني البتة انتهاء التنظيم الاجتماعي، فالفرد لا يكفّ عن تشكيل مجموعات، بل على العكس، فإن الأفراد يستطيعون اليوم تأليف مجموعات أكثر من أية حقبة مضت، لأنهم أحرار في أن يقيموا تنظيمات وفي أن يحلّوا أخرى كما يشاءون. ويرى بولتر في تلك التنظيمات التي يبادر الأفراد إلى تشكيلها وإعادة تشكيلها، بنيات طوعية وأفقية وليست عمودية وتراتبية، ذلك لأن الشبكة حلّت مكان التراتبية، ولأن النص الممنهل أصبح القدوة الاجتماعية الجديدة، التي يمكن أن تتعايش داخلها جميع محدّدات التشكيل الثقافي؛ دون أن يوضع أي محدّد منها ضمن شروط تحوّل ثقافة ما الهيمنة على أخرى.

وهكذا، فإن الأفراد قد أصبحوا، حسب بولتر، عناصر في شبكة نصّية ممنهلة شديدة التفرّع، وأخذ المجتمع بأكمله يكتسب الهويّة المتغيّرة للنص الممنهل، بعد أن سقط الإيمان في مشروعية التراتبية.

ويؤكّد بولتر أن هذا التحوّل الشبكي للثقافة تغذّيه، ليس فقط الميول المجتمعية، وإنّما أيضاً الأداة الواقعية للقراءة والكتابة التي توصّلت إلى السيطرة على أبجدية المجتمعات الراهنة. والأهم من ذلك أن نهاية الثقافة الطباعية التقليدية لا تعني نهاية الثقافة بمعناها الشامل، فالحاسوب هو، ببساطة، التقانية التي تحمل الثقافة نحو حقبة جديدة.

ولكن، رغم كلّ ما يسوقه معظم روّاد وباحثي النصّية الإلكترونية الممنهلة حول قدرة التقانيات المعلوماتية الجديدة بكل مستجدّاتها، على دفع المجتمعات الإنسانية الراهنة نحو مزيد من الحرّيات الفردية والعامة ونحو تعارم غير مسبوق للحياة

الديمقراطية، فإن العديد منهم يعود لينبّه إلى أن العلاقة القائمة بين انتشار تلك التقانيات وتفعيل عمليات تعميق الديمقراطية واللامركزية ليست آلية وحتمية، وإنّما تخضع لمقوّمات وشروط معقّدة ومتداخلة، من شأنها أن تغيّر طبيعة عناصر المعادلة، وأن تفضي، في نهاية المطاف، إلى نتائج مغايرة تماماً.

وقد عبّر ماكلوهان[١٢٦١] عن هذه الفكرة، مشيراً أن للتقانيات تأثيرات متعدّدة، بل وغالباً متناقضة. فالمركزية الصارمة، على سبيل المثال، تعدّ خصيصة مهمّة للمعرفة الأبجدية وللطباعة، ولكن ترسيخ الحقوق الفردية خلال حقبات الكتابة والطباعة لا يقلّ عنها أهمّية.

ويلاحظ ماكلوهان، مستنداً إلى إينيس[١٢٦٢]، أن تأثيرات اختراع الطباعة كانت جليّة في الحروب الدينية الوحشية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كما أن الطاقة التي جرى تطبيقها في الصناعة الاتّصالية خلال القرن العشرين أدّت إلى تسريع تكريس اللغات الوطنية وإلى تفاقم القومية وانفجار الثورات وانفلات شهوات التدمير الوحشي.

وحول الموضوع نفسه، تقول إيزنشتاين[١٢٦٣] في ضوء المذبحة الطويلة التي أعقبت الطباعة، من الصعب تخيّل كيف يمكن لأحد أن يعتبر أن إعادة إنتاج أكثر فعّالية للنصوص الدينية مثّلت مسألة حميدة. الحقيقة أن اختراع غوتنبيرغ الذي حيّاه الجميع كفن سلمي، أسهم، ربما أكثر من أي فن حربي، في تدمير التوافق المسيحي وفي تفجير الحروب الدينية.

وترى إيزنشتاين أن أحد أسباب تلك الحروب يمكن أن نجدها في مسألة أنه، مع الاستقرار الذي أوجدته الطباعة، أو بالأحرى مع النص الذي كتب حبراً أسود على ورق أبيض، أصبح من الصعوبة بمكان أن يتمكّن أحد من تعديل أو تغيير أو تبديل أو قلب الموقف الذي اتّخذه. وهكذا، فإن معارك الكتب مدّت، حسب إيزنشتاين، أمد الاستقطاب، كما أفضت حروب الكتيّبات إلى تسريع سيرورات الصراع الدموي. ولكن، ورغم ذلك كلّه، تعتقد إيزنشتاين أن الدفع الديمقراطي الذي تقوم به تقانيات المعلومات، على المدى الطويل، يتأتّى من عملية نشرها للمعلومات ومن السلطة التي يمكن أن ينتجها هذا الانتشار، ويبدو هذا الدفع بوضوح كبير في الاكتشاف الجذري

(1261) McLuhan, The Gutenberg Galaxy, 1962, cit., p. 291.
(1262) H. Innis, " The Bias of Communication ", Ed. University of Toronto Press, Toronto, p. 29, in McLuhan, The Gutenberg Galaxy, 1962, cit., p. 291.
(1263) E. Eisenstein, The Printing Press as an Agent of Change, cit., p. 369.

الجديد الذي يستند إلى أن الطريقة الفضلى لحماية المعلومة تكمن في نشر نسخ عديدة من النصوص التي تحتويها بدلاً من إخفائها[١٢٦٤].

ويعبّر رايان[١٢٦٥] عن ذات المفهوم إذ يقول إن الكتابة يمكن أن تنتمي لأي أحد، وهي تضع حدّاً لمفهوم الملكية والاستحواذ المطابق لذاته، الناشئ عن الحديث الشفهي.

وحتّى لاندو[١٢٦٦] يعتقد أن التقانيات، بصورة عامة، تمتلك منطقاً خاصاً بها، إذ يمكنها أن تنتج تأثيرات متباينة أو حتّى متناقضة، تبعاً للسياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة في مجتمع معيّن. ولكنه يرى، أنه، كما الأشكال التقانية الأخرى، فإن التقانيات المعلوماتية يمكن أن تكون سلاحاً ذا حدّين، وإن تبيّن أنها، على المدى الطويل والطويل جداً، تؤدّي دوماً إلى مزيد من الدمقرطة في مجال انتشار المعلومات وفي السلطة.

ورغم أنه يرى في التقانيات الجديدة قوّة تحرّرية، فإن نيلسون[١٢٦٧] نفسه يشدّد على أن لشبكات الاتّصال النصّية الممنهلة عواقب سياسية هائلة، وعلى أن ثمة حروباً عديدة قد تظهر في الأفق، فهناك مصالح كثيرة يمكن أن تسفر عن عدائية تجاه الحرّية، وهناك مشروعات وآفاق معيّنة تحتضن مستقبل الإنسانية، بالإضافة إلى مستقبل الماضي ومستقبل المستقبل، أي بالإضافة إلى نماذج المستقبل التي تصبح ممكنة أو محرّمة.

ومع ازدياد تغلغل تلك التقانيات في نسيج المجتمعات المتقدّمة، خلال العقد الأخير من القرن الماضي وبداية القرن الحالي، أصبح الجدل القائم بين الباحثين والمفكّرين الغربيين، حول طبيعة ومنحى التأثيرات التي يمكن أن تمارسها التقانيات الاتّصالية الجديدة، أكثر احتداماً وتشعّباً وملموسية. ولعلّ من أكثر الاتّجاهات الفكرية تحفّظاً على تداعيات التقانيات المعلوماتية الإلكترونية تتمثّل في المخاوف التي يعبّر عنها فيليب بروتون[١٢٦٨] تجاه عواقب الانتشار الكوكبي لشبكة الإنترنت، حيث يطرح ثلاثة

(1264) Ibid., pp. 90-98.
(1265) Ryan, Marxism and Deconstruction, in Landow, p. 340.
(1266) Landow, cit., p. 339.
(1267) Nelson, Literacy Machines, cit., p. 3/17.
(١٢٦٨) عرض فيليب بروتون أستاذ علم الاجتماع في جامعة ستراسبورغ الفرنسية هذه الأفكار في ورقة قدّمها إلى مؤتمر " التقانات المعلوماتية والمجتمع " الذي انعقد في بيروت خلال الفترة ما بين ١٤ و١٦ حزيران ٢٠٠١، والذي نظّمه المكتب الإقليمي لليونيسكو في بيروت، بالتنسيق مع الجامعة اللبنانية، ضمن إطار الفعّاليات التحضيرية لقمّة الفرانكوفونية المزمع عقدها في العاصمة اللبنانية.

مستويات من المشكلات، أولها يتعلّق، في المستوى التقاني، بتعذّر فرض أي آليـة مـن القيود على مواد فكرية وثقافية، داخل شبكة الإنترنت، تحرّض على التعصّب العرقي وغير العرقي، ويفترض ألاّ يطّلع عليها الفرنسيون وخاصة الشباب، لأن تأثيرها المباشر أو غير المباشر، يؤدّي إلى إثارة نعرات وتوتّرات وخيمة العواقب في مجتمع كالمجتمع الفرنسي، أصبح يحتضن، بصورة دائمة ومتزايدة، مزيجاً من الأعراق والديانات. كما أن مضامين من هذا النوع تسيء إلى العيش الحضاري بين الشعوب، إذ أنها ترسّخ حالات من التباغض والعنصرية واللاتسامح، تفضي بالضرورة إلى مزيد من العنف وتشعل صراعات خطيرة بين مختلف الحضارات الإنسانية.

وفي المستوى الاجتماعيّ، يبدي بروتون استياءه من اعتقاد بعض المفكّرين المعاصرين أن شبكة الإنترنت تمتلك وصفات سحرية للقضاء على أدواء المجتمعات المعاصرة. ففي مجال تفاقم العنف، يقول بروتون إن بعض المفكّرين يعتقدون أنه يمكن القضاء على ظاهرة العنف، بكل أشكالها ومستوياتها، عبر آلية الانفصال الاجتماعي، حيث تتم إزاحة المجتمعات الواقعية لتحلّ محلّها مجتمعات شبكية، تتفاعل فيما بينها بصورة سلمية وآمنة، من خلال التعاطي مع النصّية الممنهلة في الإنترنت، غير أن هؤلاء المفكّرين يضعون شرطاً لا غنى عنه من أجل تحقيق هذا الهدف، يتجلّى في أن الأطراف المتفاعلة والمتواصلة والمتحاورة، يجب أن تعيش داخل الشبكة فقط، دون أن تلتقي أو أن تتّصل فيزيائياً أو مادياً.

ويصف بروتون هذه الحلول بأنها غير معقولة وغير عملية، إذ لا يمكن للإنسان أن يتجرّد تماماً من روابطه المادّية والواقعية، ولا يمكن للمجتمعات أن تتحوّل إلى مجرّد كيانات خلّبية أو افتراضية، لكي تتمكّن من معالجة أدواء العصر وحلّ معضلات الجنس البشري.

وينتقل بروتون، عبر هذه الأطروحات إلى مفهوم آخر ثالث يتعلّق بالإناسة أو بالأنتروبولوجيا، إذ يتساءل عن مصير الحياة الإنسانية في مثل هذه الشروط، معتبراً أن التقانيات المعلوماتية الجديدة لا تؤدي، بالضرورة وبشكل آلي، إلى تحسين نوعية الحياة الإنسانية من حيث الشروط المادّية والروحية والوجودية.

ولكن، ورغم وجود مثل تلك التيّارات الفكرية المشكّكة في قدرة التقانيات الجديدة على حلّ معضلات العصر وعلى توفير مزيد من الحرّية والاستقلالية والديمقراطية للشعوب والأفراد، فأن العديد من المفكّرين، والذين ينتمون إلى تيّارات عقائدية ومفهومية متعارضة، يؤكّد، بدرجات متفاوتة من اليقين، أن تاريخ هذه التقانيات، بدءاً

من الكتابة وانتهاءً بالنص الإلكتروني الممنهل، يكشف، بشكل عام، عن تصاعد مستمر في عملية الدمقرطة أو، بمعنى آخر، في انسياح السلطة.

انطلاقاً من هذه الخلفيات التاريخية، يتساءل لاندو[1269] فيما إذا كان النص الإلكتروني الممنهل، كتقانية اتّصالية، يمتلك، هو الآخر، رسالة سياسية؟ ثمّ يجيب قائلاً إن الأنظمة النصّية الممنهلة تتمتّع بخصوصية كونها مضادّة للتراتبية وديمقراطية بطرائق عديدة، فهي تؤدّي، فعلياً، إلى اختفاء الحدود بين المؤلّف والقارئ، بدرجة كبيرة[1270]، ذلك أن هذا الأخير وليس المؤلّف، هو الذي يحدّد طريقة القراءة داخل النظام، وهو الذي يحدّد ترتيب ومبادئ القراءة. ويمتلك النص الإلكتروني الممنهل، حسب لاندو، إمكانيات تجعل منه نظاماً ديمقراطياً وتعدّدي المراكز بمعنى آخر: فبما أن القرّاء يسهمون بتعليقاتهم ووثائقهم، فإن الفصل الحادّ بين المؤلّف والقارئ يبهت ويتعرّض للذوبان، ولهذه المسألة عواقب عديدة على صعيد تعاظم إحساس القارئ بمسؤوليته عن مواد يمكن أن يقرأها الجميع، وعلى صعيد مشاركته الفعلية في الصناعة النصّية.

أيضاً ميللر[1271] يعتقد أن السياسة تعدّ وجهاً مهماً من التقانيات الجديدة للتعبير، ذلك أن تلك التقانيات ديمقراطية وعبر وطنية في جوهرها الداخلي، وهي تساعد على خلق أشكال جديدة وغير متخيّلة حتّى الآن للديمقراطية والتورّط والالتزام والسلطة السياسية.

أما رايان[1272]، فيتحدّث عن العواقب السياسية للنص الممنهل، منطلقاً من فرضية أن هناك علاقة ضرورة بين الأجهزة المفهومية والمؤسّسات السياسيّة، ويستند إلى تفكيكية ديريدا في شرح تلك العواقب إذ يقول إن الحقيقة المطلقة التي تعرّف بأنها تكيّف اللغة مع النيّة الواعية، دون أية آثار باقية أو تأثيرات جانبية، ليست قاعدة مبرّرة لنظرية أو لممارسة سياسية، لذلك، من المفترض أن يتم التخلّي عنها لصالح استراتيجيات متباينة مناسبة للسياق وخاضعة للوساطة بشكل معقّد. بكلمات أخرى، يعتقد رايان أن لامركزية المفهوم الميتافيزيقي يستدعي لامركزية في المشروع السياسي، وهذا يعني أن الموضوع الأساسي يكمن في بروز سياسة تصنعها مراكز متعدّدة واستراتيجيات متنوّعة، أقلّ جنوحاً نحو ترسيخ حالة مثالية مزعومة ومعتبرة،

(1269) Landow, cit., pp. 345-350.
(1270) N. Yankelovich & N. Meyrowits, Dam A. Van, " Reading and Writing the Electronic Book ", in Ieee Computer, 18 October, 1985, pp. 15-30, in Landow, cit.
(1271) Miller, Literary Theory, 1991, cit., p. 18.
(1272) Ryan, Marxism and Deconstruction, in Landow, p. 347.

مسبقاً، أصيلة وحسنة، وأكثر ميلاً نحو الارتقاء بقضايا كتوزيع السلطة المؤسّساتية والعمل والمال وديناميات السياسة الجنسية وتخصيص مصادر الثروة، وهي قضايا يجب أن يتم تحديد إشكالياتها بناء على أسس ملموسة وتشاركية.

ويحدّد رايان الرؤية السياسية الأساسية للماركسية النقدية التي يعدّها مضادّة تماماً للنموذج السوفييتي، فيقول إن الماركسيين النقديين يبتعدون عن التقاليد اللينينيّة إذ يطالبون بأشكال تنظيم سياسي غير إلغائية وغير نخبوية وغير تراتبية أو انضباطية. ويستلهم رايان أطروحاته من الجوانب الرئيسة للتفكيكيّة، وخاصة تأمّلات ديريدا، ليبني دفاعات ضد الشمولية الشيوعية. فكما غياب المركز والتعدّدية، أيضاً اللاانتهائية واللاتحديدية واللامقولية التي تتضمّنها النظرية التفكيكيّة، من شأنها - حسب رايان - أن تمنع التقاليد اللينينيّة من وضع تلك الرؤية السياسية المثيرة للإعجاب داخل قفص.

وفي حين أن رايان وباختين يوجّهان النقد للماركسية - اللينينيّة، وخاصة في مرحلتها الستالينية، فإن ديريدا التفكيكي ورورتي البنائي يهاجمان أفلاطون وورثته، إذ يعتقد رورتي[١٢٧٣] أن الفلاسفة البنائيّين يجدون أنفسهم متّفقين مع خيار ليسينغ لصالح الجنوح اللانهائي نحو الحقيقة، ضدّ كلّية الحقيقة. ويعتقد رورتي أن فكرة إمكانية بلوغ الحقيقة، بحد ذاتها، لامعقولة، لأن المفهوم الأفلاطوني حول الحقيقة كحقيقة، لامعقول.

ويرى لاندو[١٢٧٤] أن النص الإلكتروني الممنهل يمثّل التجسيد التقاني لهذه المفاهيم ولهذه السياسة، لأن خواص هذا النص تتماشى مع فرضية رايان حول ضرورة وجود أشكال مفتوحة، متعدّدة القطبية وغير تراتبية، للسياسة وللحكم.

ويعتقد أولمر[١٢٧٥] أن استخدام التقانيات الاتّصالية الجديدة هو جعل بعض المسلّمات الميتافيزيقية ملموسة، وبالنتيجة، فإنه عبر تغيير هذه المسلّمات (مسلّمة الهويّة على سبيل المثال) يمكن تحقيق التحوّل في الأنشطة الاتّصالية للإنسان.

ويعيد بولتر[١٢٧٦] نشوء وتبلور جميع هذه التيّارات الفكرية التي تقوم بمقاربات متباينة حول تأثيرات وآفاق التقانيات الجديدة، إلى وجود مجموعات مصالح خصوصية تدفع في اتّجاهات متعارضة. إلاّ أن بولتر يرى أن تلك التيّارات المتناوئة، بدءاً بالماركسية الجديدة والماركسية المسيحية والماركسية التفكيكيّة، مروراً

(1273) Rorty, Philosophy and the Mirror of Nature, cit., p. 290.
(1274) Landow, cit., pp. 349-350.
(1275) G. Ulmer, " Applied Grammatology : Pedagogy from Derrida to Beuys ", Ed. Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1985, p. 147.
(1276) Bolter, cit., pp. 300-302.

بالأنتروبولوجية والفرويدية الجديدة والتفكيكيّة، انتهاءً بمنظّري المعرفة والظاهراتية والبنيوية، تتفاعل وتترابط داخل نطاق التقانيات المعلوماتية الإلكترونية، لأن مفاهيم النصّية الممنهلة، أدّت إلى الكف عن جعل التوحيد العقائدي الكلّي الحضور، هدفاً نهائياً.

ويعتقد بولتر أن كلّ حقل من حقول المعرفة الراهنة هو نص ممنهل غير كامل وسيّئ التنظيم، غير أن هذا التفتّت الذي يعيشه العالم النصّي يجسّد مشكلة فقط لمن يحكم عليه بالمقاييس التوحيدية لتقانية الطباعة التي تتوقّع استقراراً نسبياً وتنظيماً تراتبياً للنصوص، في حين أن الحاسوب لا يقدّم سوى نوع وحيد ممكن من التوحيد الثقافي، هو التوحيد على صعيد عملي وإجرائي.

ويرى بولتر أنه داخل المكتبات الإلكترونية التي تتشكّل بصورة متسارعة، ثمة تصادم مضطّرب بين مجموعات في حالة صراع، يجب أن تعترف، في نهاية المطاف، باختلافاتها. ويقترح بولتر على هذه المجموعات أن تنسحب داخل شبكات تحتية خاصة، ضمن إطار الشبكة الكبرى، وأن تعمل في مستوى الترابطات التبادلية التي ترغب فيها.

الواقع أن هذا الضرب من الشبكات التحتية يتكاثر بتسارع كبير مؤدّياً إلى تشكّل مجموعات ثقافية ذات امتداد كوكبي. ويعتقد سيرج بوت - لاجوس[١٢٧٧] أن الإنترنت مسكونة الآن بأفراد ومؤسّسات هي نفسها التي نعرفها والتي كانت موجودة قبل الشبكة، ولكن داخل هذا المكان المسكون، تبزغ أشكال جديدة من العيش الاجتماعي، تولّد جماعات تتمتّع بخصيصة أساسية هي أنها جماعات لامكانية (délocalisées)، أي جماعات يبعد أعضاؤها عن بعضهم البعض جغرافياً لمسافات شاسعة، وهو أمر ليس بجديد، وإنّما الجديد أنه، بفضل الإنترنت، تستطيع تلك الجماعات أن تتألّف وأن تنمو وتستقر أو أن تختفي وتتلاشى بسرعة وسهولة كبيرتين.

ويعتبر لاجوس أنه من الخطأ اعتبار هذه الجماعات خلّبية أو افتراضية، لأن أعضاءها أشخاص حقيقيّون ولأنها يمكن أن تدار من قبل مؤسّسات هي الأخرى حقيقيّة[١٢٧٨].

(١٢٧٧) سيرج بوت - لاجوس، عضو في مرصد التقانيات من أجل التربية في أوروبا، ورقة حول " استخدامات الإنترنت، في التربية والثقافة "، مؤتمر " التقانات الجديدة والمجتمع "، المكتب الإقليمي لليونيسكو، بيروت، ١٤-١٦ حزيران، ٢٠٠١.

(١٢٧٨) يبدو أن لاجوس لا يعير اهتماماً للهواجس التي يبديها بروتون حول هيمنة المجتمعات الخلّبية أو الافتراضية والآثار السلبية التي يمكن أن تنجم عنها، إذ يرى أن هذا النوع -

وخلافاً لبولتر وغيره من الباحثين، لا يرى لاجوس في الإنترنت مكتبة عملاقة تستطيع أن تحتوي كلّ معارف العالم، لأنه من الصعب الموافقة بشكل جدّي على هذه الصورة، ولو أن الشبكة كانت مكتبة، فإنها تعدّ، حسب لاجوس، من أسوأ مكتبات الأرض لأنها سيئة الترتيب والتصنيف، ومن غير الممكن التميّز داخلها بين الحقيقة وعكسها وبين الغث والثمين، لذلك، فإن اعتبار الإنترنت مكتبة يعدّ، حسب لاجوس خطيئة، فالتشبيه غير صحيح ومخادع.

ويقترح لاجوس تشبيهين أفضل، أولهما تشبيه الإنترنت بالطريق، فالشبكة هي طريق حرّة ومفتوحة للجميع، حيث يقدّم أفراد ومؤسّسات للمارّة وثائق صنعوها، وكما كلّ طريق، فإن التنزّه على طريق الشبكة يؤدّي إلى مواجهة مخاطر، فقد يحظى الإنسان بلقاءات سيئة، وقد لا يجد، أحياناً، طريقه الصحيح. ومن أجل أن يجد المشترك طريقه الصحيح، يجب ألاّ يستدعي، كما يظن البعض، خدمات محرّكات البحث، بل أن يتحاور مع سكّان الشبكة، الأفراد والمنظّمين داخل جماعات لامكانية، ذلك لأن الشبكة تبقى بعمق، حسب لاجوس، مشبعة بثقافة تبادلية هي ثقافة مؤسّسيها.

ويقول لاجوس إن التشبيه الثاني هو اعتبار الإنترنت مختبراً ضخماً، فالشبكة ليست مكتبة يجري فيها ترتيب وتصنيف المعارف المشيّدة، ولكنها مطبخ خلفي، يتم فيه، في خضم الضجيج والصخب والانهماك الشديد وشئ من الفوضى، إعداد معارف جديدة، وهذا هو السبب الرئيس في جاذبية الإنترنت بالنسبة للمتعاملين معها، لأنهم، هم أيضاً، يجدون أنفسهم في وضع من الغليان المعرفي والإبداعي.

* * *

= من التواصل الإنساني كان موجوداً قبل ظهور شبكة الإنترنت، وأن تلك الجماعات ليست حلّية على الإطلاق بل هي مؤسّسات لامكانية (délocalisées) يديرها ويتفاعل من خلالها أشخاص حقيقيّون، مستخدمين وسيلة اتّصالية جديدة أكثر فعّالية، تتمتّع بأبعاد كوكبية.

الفصل الرابع

التقانيات المعلوماتية الجديدة، العالم العربي والإسلام

مدخل

إذا كانت تلك الخصائص الثورية للتقانيات المعلوماتية الجديدة مع كل ما يرافقها ويتفاعل في خضمّها من تبدّلات عميقة في البنيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقيمية، تضع الغرب المتقدّم الذي اكتشفها وأنتجها أمام تحدّيات غير مسبوقة وتثير جملة من التناقضات الجديدة وتفتح مجالات رحبة لنقاشات ومقاربات شتّى، تحاول، بطرائق مختلفة بل ومتعارضة أحياناً، استيعاب تلك المستجدّات واستقلابها عبر إعادة تركيب مجتمعي على صعيد قومي وعبر قومي يمثّل تعاظم ظاهرة العولمة وتداعياتها أهم آلياتها ومميّزاتها، فإن انتشار تلك التقانيات الاتّصالية الجديدة وتحولّها إلى سمات مميّزة للعصر الجديد، تجعل الوضع بالغ التعقيد والخطورة في الجنوب العربي والإسلامي الذي بدأ يدرك أبعاد هذه الأدوات المعلوماتية المختلفة جذرياً عن وسائل الاتّصال الجماهيري التقليدية وبشكل خاص، عن التلفزة الذي احتكرته جميع الأنظمة العربية[١٢٧٩] ومعظم الأنظمة الإسلامية في الداخل، وسيطرت عليه في الخارج[١٢٨٠]

(١٢٧٩) باستثناء لبنان.

(١٢٨٠) احتكرت السلطة في الدول العربية وسائل الإعلام المسموعة والمتلفزة الأرضية وسيطرت على أكثر من ٩٠٪ من القنوات العربية الفضائية (٧٤٪ عامة + ١٦٪ خاصة مموّلة ومراقبة من قبل الأنظمة العربية)، أما الـ ١٠٪ المتبقّية من القنوات الفضائية فهي قنوات خاصة مستقلّة ظاهرياً، منها أكثر من ٨٪ توجد في لبنان.

(قنص، عامر، جودية، بندقجي، أطروحة ليسانس غير منشورة، قسم الإعلام، جامعة دمشق، ١٩٩٩).

بعد ظهور وانتشار الفضائيات، مستغلّة نسب متزايدة من الأميّة في أوساط الشعوب العربية والإسلامية، ومستثمرة ذاك الذي يسمّيه بولتر[١٢٨١] الاستلاب التلفزي الذي يدفع المتلقّي إلى رد فعل انفعالي أكثر من قيامه بعمليّة فكّ شيفرة حول ما يمرّ أمامه على الشاشة الصغيرة، ذلك أن التلفزة، كوسيلة عاجزة عن تثبيت وحدات لها صفة الديمومة وكأداة سيميولوجية فقيرة، تغذّي التلقّي المزيّف على أنه تلقّ تطابقي وصورة حقيقية كاملة للعالم الواقعي، وتبرز الصورة على حساب المفهوم والرد الانفعالي على حساب التحليل، وتنجح، بالتالي، أكثر من أية وسيلة اتّصال أخرى، في تحقيق رغبة تلك الأنظمة، أي في توحيد الفكر وفي السيطرة التامة للثقافة العمودية.

بدهي أن انتشار الراديو على نطاق واسع قبلاً، ثم انتشار التلفزة والقنوات الفضائية لاحقاً، حطّم عزلة الشعب الأميّ في العالمين العربي والإسلامي عن ظاهرة الاتّصال الجماهيري، ولكن هذا الأمر بعيداً عن أن يؤسّس لأي شكل من أشكال الحريّة والديمقراطية انتهى إلى الإسهام في تقوية الشمولية ومركزية الحكم.

خواص الثقافة الممنهلة والواقع العربي والإسلامي

لا شك أن خصائص التقانيات الاتّصالية الجديدة، التي تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك التقليدية، قد تؤدّي إلى حدوث انقلاب كامل في الاتّجاه، أي قد تسهم إسهاماً حاسماً في كسر صنميّة المجتمعات العربية والإسلامية، تمهيداً لحركة تدريجية متصاعدة تخرج تلك المجتمعات من شرانقها وتطلقها في رحاب الزمن الراهن.

لذلك كلّه، ليس من الصعب إدراك أن تخوّف قوى دينية وعلمانية عربية وإسلامية من هذه التقانيات الاتّصالية الجديدة له أساس، ذلك لأن الخوّاص الجوهرية لتلك التقانيات تجعل من المتعذّر، إن لم يكن من المستحيل، وقف اجتياحها بأسلحة تقليدية أو على الأقل، الحدّ من تأثيراتها " المدمّرة "، ذلك لأن التبدّلات الناجمة عن الالتقاء بين التقانية المعلوماتية وبين الثقافة في أي حقبة، لها تأثيراتها السياسية، فكل شيء في نهاية المطاف، كما يقول جيميسون، هو في الحقيقة سياسي.

الواقع أن جميع سمات تلك التقانيات تجسّد، بصورة مدهشة، نقيض البنيات المادية والعقلية السائدة في الأرض العربية والإسلامية على اختلاف أنظمتها ومستويات تطوّرها.

(1281) Bolter, cit., pp. 289-293.

- فهذه التقانيات التي تجسّد، ليس فقط " الآخر " المجهول وإنما أيضاً وبخاصة العدو المرهوب، بحركيّته ولامحدوديّته ومؤقّتيته وكوكبيّته يتعارض، بشكل جليّ، مع ثباتية وجمود ومحدودية مركزية صارمة وشمولية مغلقة مفروضة في معظم تلك المجتمعات العربية والإسلامية[١٢٨٢].

- إن التعدّدية السطرية والتعدّدية التتابعية والهيكليات المتوازية أو الاشتمارتية أو الشبكاتية التي ينتج الحامل الإلكتروني من خلالها الفكر الممنهل معطياً إيّاه نماذج للإنتاج الثقافي مفتوحة الأفق، تتناقض مع السطرية ووحدانية التتابعية ووحدانية الاتّجاه للمفاهيم الاجتماعية والسياسية والثقافية العربية والإسلامية السائدة التي، ورغم تآكلها، تستمر في فرض نفسها كمسلّمات أزلية.

- إن البنيات اللاتراتبية للثقافة الإلكترونية تشكّل خطراً حقيقياً على العديد من التراتبيات العربية والإسلامية التي لا تستطيع إلاّ أن ترى في هذا " الفكر الترحالي "[١٢٨٣] قوة مقلقة ومحرّضة، قادرة على زعزعة أركان النظام ودكّ أسس "التعايش" التقليدية شديدة التراتبية.

(١٢٨٢) رغم أن التجربة الإيرانية تثير، منطقياً، اهتماماً كبيراً في الغرب والعالم، غير أن العملية الديمقراطية لم تصل بعد إلى نقطة اللاعودة إذ تبقى حتى الآن مفتوحة على كل الاحتمالات، من بينها التقهقر الذي يمكن أن يحدث بسبب الموقف العدائي والكابح لبيئات محافظة مؤثّرة تنظر بريبة إلى النموذج الديمقراطي الغربي المستورد.
وتستمد هذه البيئات قوة ونفوذاً من تمسكها بمرجعيات إسلامية غير قابلة للمساس ومن استنادها إلى القيم الأوّلية لثورة ١٩٧٩ وإلى شخصيات تم تقديسها في العقد الأول من الثورة الشعبية.
إن علاقات القوة الحسّاسة بين قوى الإصلاح داخل السلطة السياسية والتنظيمات الدينية المهيمنة، قد لا تتيح تكريساً مستقراً ومتكاملاً لهذا النموذج الأول للديمقراطية الإسلامية في الحقبة المعاصرة.
على جانب آخر، لا بد من الإشارة أن الحكم السياسي الإصلاحي قد اكتسب، عبر العقود الماضية، قبولاً شعبياً واسعاً ودعماً مهمّاً في الأوساط الثقافية المتنوّرة والنشطة والمصمّمة على صياغة وتطبيق مشروع ديمقراطي يمكن أن يحقّق التقاء مرجواً ومنتظراً بين الإسلام المعاصر والديمقراطية في سياق خصوصية كل مجتمع إسلامي.

(1283) Landow, op. cit., p. 66.

• إن الأطر العائمة والتداخل بين " الجوّاني " و " الخارجي " والحدود المفتوحة المتراكمة عبر توصيلات في الداخل والخارج من خلال الروابط الداخلية والخارجية للثقافة الرقمية، بعبارات أخرى " فيضان" هذا الضرب من الثقافة، كل ذلك، أخذ يحدث أزمة وجودية داخل الأنظمة المغلقة والانعزالية والراكدة في الكون العربي والإسلامي الذي يعمل معظمه جاهداً على مقاومة " الغزو " التكنومعلوماتي ويستمر في التبجّح " بفكر ذاتي " يقع خارج الزمن، غير قابل " للتلوّث الخارجي "، وبهويّة عربية لم تخرج إلى حيّز الوجود في الحقبة المعاصرة، وبسيادة وطنية دولتية لم يتمكّن من ممارستها قط الشعب السيّد، وبهويّة إسلامية غير واضحة وغير متبلورة بدأت تدخل، مع مطلع القرن الحالي، في حالة من الفوضى والغموض والتخبّط والتضليل الخطير.

بدهي أن كل هذه العناصر التناقضية بين الفكر الممنهل والفكر وحيد الخلية، تتضافر لتحدث التغيير الأهم ضمن نطاق مبدأ تبادلية العلاقة بين المرسل والمتلقّي: فلعبة الحرية التي يمارسها القارئ في رحاب التقانيات الاتّصالية الجديدة، وذلك التآكل للأنا[١٢٨٤] المؤلّف وخاصة تلك التبادلية في علاقة استخدام النصيّة الممثّلة في أشكالها الحوارية[١٢٨٥] تغلق نهائياً حقبة مطوّلة قدّم فيها " المؤلّف " العربي والإسلامي ذو القوّة الكليّة والحضور الشمولي، نفسه، داخل تلك النصيّة وخارجها وخلفها وفوقها، كلاعب وحيد يستحيل الاستغناء عنه في عملية بناء معنى محدّد وغير قابل للمراجعة، تستطيع الرعية الخرساء، المذعورة من هذا الصرح النصيّ الأحادي، أن تمارس فقط حق استيعاب محتوياته والعمل بموجبها عبر ممر وحيد وإجباري.

إن " المكتبيّين " العرب والمسلمين، أصحاب النصوص المغلقة، النهائية والأسطورية، لن يتمكّنوا من التخلّص من هذا " الشيء الكابوسي " كما فعل موظف مكتبة بورغس Borges ليستطيع إضاعة " كتاب الرمل " بين الرفوف الرطبة للمكتبة التي كان يعمل فيها، لأن الفكر الممنهل On-Line، هذه الوسيلة " المؤذية والإباحية " تفلت من عقابهم ومن رقاباتهم.

قد يستمر " موظّفو مكتبات " آخرون ينتمون إلى " الشعب الصغير " لفترة طويلة من الزمن، في أن يولدوا ويعيشوا ويموتوا، وهم يبحثون عن معنى محدود للامحدودية مكتبة أخرى، هي مكتبة بابل، سجناء غير واعين لتعظيم نص وحيد الخلية (monotext) لم يمثّل أبداً، في الحقيقة، مفتاح وخلاصة كل النصوص.

(1284) Landow, p. 127.
(1285) Bettetini, cit., p. 13.

ولكن، باستعارة عبارات جويس Joyce[١٢٨٦]، يمكن القول إن ثأر المجتمعات المدنية النخبوية العربية والإسلامية من القوة الشمولية لهذا النص وحيد الخلية، المستهلك والمتخلّف، قد بدأ في الشبكة.

في الإنترنت، داخل جميع محرّكات البحث، يمكن العثور على آلاف المواقع وعلى ملايين من النصوص الممنهلة، بلغات عديدة، يصوغها مثقفون عرب وإسلاميون أو تكتبها أحزاب ومؤسسات وهيئات وحركات من كل نوع، تنتمي إلى تيارات سياسية وثقافية متنوّعة، كلها تقريباً في المنفى، تتطرّق إلى موضوعات شتّى تقع في العديد من السياقات العربية والإسلامية.

عبر الإبحار في هذه المواقع، نجد أن أي فرد من الرعية يتحاور مع الأرواح العظيمة[١٢٨٧] للحكم الشمولي، على شاشة كومبيوتر، حيث نص البلاط، الرمز الأعلى للشمولية، الموجود هو أيضاً في الشبكة، ونص هذا الفرد العادي من الرعيّة، يكتسبان الأهمية نفسها. وهكذا، فإن الفكر وحيد اللون قد تحوّل رغماً عنه، كما السحر، إلى فكر ممنهل، والصمت المطوّل للرعية قد أمسى تناصّاً (intertext)، وهو أمر طبيعي لأن تقانيات النصيّة الممنهلة لا تعارض النقد وإنما تدمجه في نسيجها[١٢٨٨].

في الشبكة، هناك تزاحم وتدافع فكري صحيّ لأن السكان الصاخبين لـ " حديقة المسارات التي تتشعّب "، بشكواهم الصارخة، باحتجاجاتهم، بنقدهم، بحكاياتهم وخلافاتهم، يتحرّكون بحيوية داخل متاهة (تسوي بين) Ts'ui Pên (الشخصية الرئيسة التي رسمت المتاهة في رواية بورغس: حديقة المسارات التي تتشعّب)، متحدّين أرباب النص وحيد الخلية، بهدف إيجاد مستقبل آخر وأزمنة أخرى تتشعّب بدورها وتتكاثر[١٢٨٩].

• مجتمعات "أخرى" في الإنترنت

غير أن العنصر الأكثر إثارة للاهتمام في هذه البنية الاستثنائية هو أنه، داخل أحشاء هذه الظاهرة النصيّة الإلكترونية، يجري، يوماً بعد يوم، بناء مجتمعات إنسانية كاملة " أخرى "، خلّبية ولكن حيّة، تتعارض مع المجتمعات الواقعية الميّتة بسبب

(١٢٨٦) يقول جويس إن التقانيات التعدّدية الجديدة تمثّل ثأر النص من طغيان التلفزة. لمزيد من التفصيل، أنظر :

- Joyce, 1988, p. 14, in Bolter, p. 36.
(1287) Bolter, cit., p. 192.
(1288) Ibid. p. 211.
(1289) Perissinotto, cit., p. 90.

أصحاب نص أعلى (supertext) تم فرضه كمحتضن وحيد لكل الحقيقة، مهمّشاً وقامعاً أية حقيقة أخرى، ملاحقاً أية ذاكرة أو موسوعة عقلية يمكن أن تعرّض للخطر " المفروغ منه والمتوقّع " الذي رفع إلى مرتبة القانون غير القابل لإعادة النظر فيه.

إن هذا الكيان الإلكتروني الذي ينتشر، بلا هوادة، في الشبكة، مقدّماً نفسه للعالم، أخذ يحقّق إحياء تدريجياً للكيان الواقعي، مؤدياً إلى تعميق تناقضات بين تآكل المجتمعات التقليدية وبين وقائع التقانيات المعلوماتية الجديدة.

بعبارات أخرى، فإن هذه المجتمعات " الأخرى " التي أصبحت قائمة بفضل حامل خارجي للمعنى، قد بدأت تفك الحصار وتحرّر النفوس الناقدة في المجتمعات الواقعية، عبر تفاعلية وساطية حيث إنتاج المعنى " الآخر " يفلت من أي رقابة أو عقاب.

من المشروع التساؤل، في هذا السياق، حول نوعية التأثير الذي يمكن أن يمارسه هذا الضرب من النصيّة التفسيرية (metatext) أو النصيّة الممنهلة (hypertext) على الوقائع الموضوعية للعالم العربي وللعالم الإسلامي.

قد رأينا أن لاندو يربط النص الممنهل بالحرية وبتزايد تأثير الفرد، وأن أونغ يعتبر أن التقانيات الجديدة تؤدي إلى تغيّرات في البنيات العقلية، متيحة التفكير بشكل مختلف، وأن ميللر يرى في جوهر التقانيات النصيّة الممنهلة ديمقراطية وفوق-وطنية، تساعد على خلق أشكال جديدة وغير متخيّلة حتى الآن من المشاركة ومن الالتزام ومن السلطة السياسية، ويتوقّع رايان أن يفضي انتشار النص الممنهل الإلكتروني إلى سياسة قائمة على تعدّدية المراكز وعلى استراتيجيات تعدّدية، وكان نيلسون وجد في بيئة النصيّة الممنهلة، منذ أعوام عديدة، ثقافة جديدة تحرّرية ما يسمح للتجربة الإنسانية بالتمتّع بحرية جديدة وبثراء جديد.

إلاّ أن نيلسون نفسه وإيزنشتاين وماكلوهان ولاندو وغيرهم حذّروا من أن لتقانيات الاتصال الجديدة عواقب سياسية هائلة وأن ثمة حروباً عديدة وصراعات ونزاعات قد تظهر في الأفق وتتفاقم، فهناك مصالح كثيرة ومتشعّبة يمكن أن تسفر عن عدائية تجاه قيم الحرّية والديمقراطية.

طبيعي أن كل هؤلاء العلماء يتحركون من خلال سياقاتهم ويتحدّثون عن مجتمعات غربية حيث يوجد نموذج راسخ للتعايش الديمقراطي ونظام متجذّر من الحرّيات الفردية والمدنية والعامة.

التقانيات المعلوماتية الجديدة : حرية وديمقراطية أم حروب وصراعات؟

نحو أي اتجاه يمكن أن يتحرك، بالمقابل، اقتراب من التقانيات المعلوماتية في بلدان حيث مركزية السلطة مطلقة وحيث لا توجد نماذج واضحة المعالم للديمقراطية والحرّية؟

لاندو نفسه، مع أنه يجد في التقانيات المعلوماتية الجديدة قوة دمقرطة عظيمة، يعود إلى الحذر مؤكّداً أن التقانيات الجديدة، كغيرها، تمتلك منطقاً خاصاً بها، إذ يمكن أن تنتج تأثيرات متباينة، متناقضة، حسب السياقات السياسية والاقتصادية[١٢٩٠]، وأن التقانيات تمنح دائماً سلطة للبعض دون البعض الآخر، لمجموعة دون أخرى في المجتمع، وهذا له ثمن[١٢٩١].

مشيراً إلى النص الإلكتروني الممنهل بشكل خاص، يعتقد لاندو أن جميع النقاشات حوله تثير مسائل سياسية، مسائل سلطة وامتيازات مؤسّساتية[١٢٩٢].

كما رأينا، أيضاً ايزنشتاين تذكّر ، على سبيل المثال، أن اختراع غوتنبيرغ أسهم أيضاً في تدمير التوافق المسيحي وفي تفجير الحروب الطائفية[١٢٩٣]، وأن معارك الكتب قد أطالت الاستقطاب وأن حروب الكتيّبات قد أدت إلى تسريع العملية الاستقطابية[١٢٩٤].

وحتى ماكلوهان، مستنداً إلى اينيس، يلاحظ أن تأثيرات اختراع الطباعة كانت جليّة في الحروب الطائفية الطاحنة في أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر[١٢٩٥].

إن العالمين العربي والإسلامي يعيشان مرحلة تاريخية شبيهة نسبياً، يزيد من تفاقمها أن التغيّير يجب أن يتحقّق في مجتمعات، ليست فقط متعدّدة الطوائف، ولكن أيضاً متعدّدة الديانات والأعراق، حيث تجذّرت مشكلات ذات طابع سياسي واقتصادي، خلافات تتعلّق بأدوار التراتبيات الدينية الإسلامية، توتّرات عميقة ناجمة عن تناقضات اجتماعية وثقافية، مرشّحة دوماً للتفجّر في منعطفات تاريخية معينة.

(1290) Landow. p. 339.
(1291) Ibid. p. 339.
(1292) Ibid. p. 334.
(١٢٩٣) ايزنشتاين تعتقد بأن سبب هذه الحروب هو أنه مع ثبات الطباعة أو بالأحرى مع النص الذي وضع أسود على أبيض، يتّخذ موقف يصبح من الصعب تغيّيره أو قلبه.
(1294) Ibid. p. 340.
(1295) McLuhan M., "The Gutenberg Galaxy: the making of typographic man". University of Toronto Press, Toronto 1962. p. 286.

كما تمت الإشارة آنفاً، بما أن الفكر الإلكتروني الممنهل يعدّ مساحة تبرز خاصة اللغة الكلامية، فإنه يتحدّد كظاهرة نخبوية على الجبهة العربية والإسلامية، غير أن تأثيراته تمتد سريعاً لتشمل جماهير عريضة أميّة ونصف أميّة، من خلال وسائل الإعلام والاتصال التقليدية.

في المرحلة الحالية، المعارك القائمة حول عواقب التقانيات الاتصالية الجديدة تتعلّق، بصورة خاصة، بمثقّفين ومفكّرين عرب ومسلمين من /الداخل/ ومن /الخارج/[١٢٩٦].

في الساحة العلمانية، يلاحظ أن الجزء الأكبر من المفكّرين القوميّين والعروبيّين والماركسيّين[١٢٩٧] يحلّل الظاهرة منطلقاً من واقع مُعاش قبْلمعلوماتي، عندما كان عالم

(١٢٩٦) أي أولئك الذين يعيشون داخل الدول العربية والإسلامية، وأولئك الذين استقرّوا في بلدان المهاجر، خاصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

(١٢٩٧) يرى أهم المفكّرين العرب والإسلاميين في التقانيات المعلوماتية الجديدة الحاملة التقنية لعملية العولمة:

- " ازدهاراً لأيديولوجية السوق واختفاء الوطنية كقيمة.. لأن الشركات الكوكبية أو المتعدّية الجنسيات تفرض وجهة نظرها على حكومات الدول النامية " (إسماعيل صبري عبد الله، الندوة العربية العالمية التي نظّمتها مجلة الطريق في الذكرى العاشرة لاستشهاد مهدي عامل، مجلة الطريق، العدد الرابع، ١٩٩٧).
- والعولمة هي " الإمبريالية في مرحلة سقوط التعدّدية القطبية.. وفي عصر نواجه فيه تحوّلات جديدة في أشكال الاستغلال والاغتراب.." (أ. د. طيب تيزيني، محور العولمة وقضايا الهويّة، مجلّة النهج، العدد ١٤، ربيع ١٩٩٨/ العرب والعولمة، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، شباط ١٩٩٨).
- والعولمة " معنية بتنمية الفوارق وتعميم الفقر.. هي ثقافة الاختراق، أيديولوجيا ونفتاء يقفز على الدولة والأمة والوطن.." (د. عابد الجابري، ما هي العولمة؟، مجلة الطريق، العددان ٤ لعام ١٩٩٧ و٣ لعام ١٩٩٨).
- والعولمة هي " إمبراطورية الفوضى الرأسمالية.. سيطرة رأسمال متعدّي الجنسيات، بعمّم الفوضى ويحيّد تدخّل الدولة.." (سمير أمين، إمبراطورية الفوضى، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١) أيضاً العولمة هي، وفي جميع الأحوال، " تنمية مستحيلة في بلدان الأطراف " (سمير أمين، سنغافورة ثانية في المنطقة، بيرس، ١٩٩٤/١٠/٣١).
- والعولمة هي " استلابية.. قاتلة للحضارات وثقافات الشعوب وملغية للدول الوطنية والمجتمعات القومية" (محور العولمة وقضايا الهوية، مجلة النهج، العدد١٤، ١٩٩٨) وهي، باختصار، " نموذج للأمركة " (مجلة الطريق، العددان ٤ لعام ١٩٩٧ و٣ لعام ١٩٩٨). -

الجنوب، بعد انتهاء عصر الاستعمار التقليدي، منهمكاً في تكريس الاستقلال السياسي وترسيخ السيادة الوطنية وإعادة تثمين الهويّة الثقافية.

إن هؤلاء المفكّرين الذين يصوغون اقترابهم النظري مستخدمين جعبة موسوعية قديمة لإطلاق مفاهيم تجاوزتها الأحداث، يقعون داخل الإطار الثابت للنص الوحداني المحلّي ويمنعون أي إمكانية لظهور نصيّة تفسيرية وتعليقية (intertext)، لأنهم، مشَجّعين من قبل السلطة في بعض الحالات، لا يكتفون بتصفية ظاهرة شديدة التعقيد كالتقانيات الجديدة، من خلال صياغات مسطّحة وإدانات مجانيّة، وإنما يمارسون أيضاً ضغوطاً على أولئك المفكّرين /الداخليّين/ الذين يحاولون التعاطي مع الموضوع بموسوعات فكرية محدّثة : إن هؤلاء الأخيرين متهمون بالعمالة للغرب الإمبريالي وبخيانة المبادئ العليا للقومية والعروبة[١٢٩٨] .

في الحقل الإسلامي، يلاحظ حضور قوي لإسلام متنوّع، سواء /داخل/ أو /خارج/ العالم العربي والإسلامي، حيث يمكن التعرّف، من ناحية، على جبهة عريضة معتدلة لديها ميل كامن إلى الحوار واستعداد محسوس للتفاعل مع الحقائق التقانية الجديدة. في حين نجد، من ناحية أخرى، تجمّعات عديدة لإسلاميّين سلفيّيْن بكل تلوّناتهما. الإسلام السلفي الأول ذو طبيعة سلمية وإن كان يحتضن مفاهيم جامدة ويبدي شكوكاً عميقة نحو " الغزو التكنومعلوماتي" أما الإسلام السلفي الثاني فيشكو من ميول نحو العنف والانعزالية البيوريتانية، مديناً كل منجزات الفكر الغربي الذي يعتبره غير قابل للتعايش مع أساسيات الإسلام.

- والعولمة هي " إمبريالية ما بعد الاستقلال.. هي تعميق هيمنة أوروبا وأمريكا على العالم.. هي أيديولوجية تكشف عن تعصّبها وضيق أفقها في مواجهة أي نظرة مخالفة لها.. هي الأمركة الحديثة.. والهيمنة الثقافية والسياسية للرأسمالية الأمريكية على العالم.. هي الداروينية الاجتماعية.." (مقابلة مع أ. د. نايف بلوز، قسم الفلسفة وعلم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، لم تنشر بعد. ١٩٩٨).

(١٢٩٨) بعض المثقّفين العرب وخاصة من المصريين واللبنانيين كانوا عبّروا عن تفاؤلهم تجاه التقانيات الجديدة، معتبرين أنها يمكن أن تطوّر الحوار بين الأمم والأنظمة السياسية والمجتمعات مع المحافظة، في ذات الوقت، على المصالح العليا لجميع شعوب العالم. ولكن بعض هؤلاء المفكّرين، تراجعوا عن الكثير من أفكارهم بعد أن تعرّضوا لهجوم عنيف من قبل أغلبية المثقّفين القوميّين والعروبيين ومن قبل قطاعات واسعة من الإسلام الأورثوذكسي.

المفارقة أن هذه السلفيات تقع في ذات المساحة التي يتخندق فيها سواء المفكّرون القوميّون والعروبيّون والماركسيّون، سواء أولئك المفكّرون الغربيّون الذين أسّسوا مدرسة فكرية بطروحاتهم حول حتمية الصراع بين الحضارات[١٢٩٩].

في /الخارج/، أخيراً، هناك حضور نوعي مميز لثقافة عالية تتصدّى، بعقلانية وكفاية، لظاهرة معلوماتية تجد نفسها، منطقياً، معنية بها وترغب في التفاعل معها مورّطة أيضاً بيئات فكرية في الوطن الأم.

هذه البيئة الثقافية الرفيعة، العلمانية والدينية، /الداخلية/ و /الخارجية/، تشكّل النواة الصلبة لعملية انخراط العالم العربي والإسلامي في الوقائع التقانية الجديدة، ولكن فعلها يبقى محدوداً ومهدّداً بالعزلة بدون مساندة حاسمة لقوى نخبوية أخرى قادرة على تشغيل آلية الانخراط، محولّة المشاركة إلى ظاهرة ذات طابع جماهيري[١٣٠٠].

القوى التي تقع في حقل القومية والعروبة والاشتراكية والماركسية شهدت، في العقد الأخير من القرن الماضي، انكماشاً جوهرياً في أعقاب الإخفاق التاريخي للقومية[١٣٠١]، والانهيار الكلّي للاشتراكية الواقعية وسقوط النموذج الشيوعي العالمي والضغوط المتزايدة لليبرالية الجديدة.

كان الإسلام ، في تلك المرحلة، يتقدّم بين أنقاض هذه القوى، فارضاً نفسه كبديل طبيعي للقومية "الجزئية" والاشتراكية "الملحدة".

غير أنه في هذه المرحلة، وفي حين أخذ الانتشار السريع للتقانيات المعلوماتية الجديدة والتعميم المتصاعد للعولمة الناجم عنه، يحدث تبدّلات عميقة في المشهد العالمي، فإن استمرار الجمود والثباتية والتراتبية الصارمة والمركزية الشديدة في المجتمعات العربية والإسلامية، تتيح هامشاً واسعاً لحركة التطرّف الإسلامي في جميع

(١٢٩٩) أنظر: هانتيغتون "صراع الحضارات" وفوكوياما "نهاية التاريخ".

(١٣٠٠) في غياب أنظمة حرّة وديمقراطية في أغلبية الدول العربية والإسلامية، تطوّرت بعض وسائل الاتصال الخفيّة التي تفلت من رقابة الأجهزة: فبالإضافة إلى انتشار واسع للاتصال السمعي المباشر في أماكن العبادة وفي لقاءات خاصة، هناك تحوّل عريض "غير قانوني" للكاسيتات والفيديو والكتيّبات المحتوية على ثقافة دينية شعبية اكتسبت فعالية نتيجة وجود مناخ من الاستياء العام. هذه الوسائل الاتصالية تضمن، في مجموعها، تواصلاً غير مرئي بين النخبة والجماهير.

(١٣٠١) الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ وحرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ وجّهت الضربة القاضية لمصداقية العروبة.

مظاهره السلمية والعنفية، مضعفة، موضوعياً، مواقع إسلام براغماتي يشكّل انتصاره شرطاً لا غنى عنه لإنجاز القفزة القرنية دون انهيارات بنيوية ودون حروب أهلية وغير أهلية مدمّرة[١٣٠٢].

في هذا السياق، من المنطقي التفكير، إذن، أن أي انخراط سلمي للعالم العربي والإسلامي في العصر الراهن يجب أن يتم، ليس خارج أو بقطع النظر عن الإسلام الصاعد، وإنما عبر مشاركته الكاملة في عملية التأقلم السياسي والاقتصادي، وخاصة الاجتماعي.

ولكن هذه العملية لا يمكن تفعيلها وتسريعها بهدوء إلاّ عبر تقوية الروح المعتدلة التي تقود مواجهة قاسية مع مختلف أشكال التطرّف داخل ما أصبح يطلق عليها الصحوة الإسلامية. لقد درجت السلطة في المجتمعات العربية والإسلامية على استخدام التطرّف الإسلامي "كخطر قادم" لإخافة الأكثرية الخرساء ولمنع أي ضرب من الاحتجاج في سبيل تدعيم نصيّتها الوحيدة.

من أجل تفادي انهيار شامل، من الضروري أن تقلع السلطة عن ممارسة لعبتها التقليدية التي أمست شديدة الخطورة وغير مجدية، وأن تعمد، بالمقابل، إلى تفكيك نصيّتها وحيدة الخلية التي لم يعد من الممكن النهوض بها، من خلال:

- اتخاذ إجراءات جديّة تتيح تبدّلاً ملموساً في بنيات تلك المجتمعات بما يؤدي إلى تحويل نصيّاتها وحيدة الخلية إلى نصيّات تأويلية ونقاشية في إطار لامركزية متدرّجة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.
- إعادة الاعتبار إلى المجتمع المدني النخبوي الذي يجب أن يغدو الصانع الحقيقي للتغيّير.

(١٣٠٢) إن أحداث الجزائر وإندونيسيا تقدّم أمثولة في هذا المعنى: ففي الجزائر وجّه بعض جنرالات الجيش الممسك بكل السلطة، ضربة قاتلة لديمقراطية ناشئة وهشّة، أدت إلى قتل إسلام معتدل وتصالحي وإلى تفجّر دوائر عنف وفظاعات لم يعد من الممكن نسبها حتى إلى الإسلام الأكثر تطرّفاً وتعصّباً.

في إندونيسيا، تحوّل الاحتجاج ضد سلطة مركزية وفاسدة إلى صراع دموي بين الأكثرية المسلمة والأقلّية الكاثوليكية. من الصعب الاعتقاد أن السلطة، التي لم تكن تنوي القيام بإصلاحات بنيوية وتشريعية عميقة، غريبة عن حدوث مثل هذا الانحراف الخطير.

- تبديل المفهوم المجرّد والشعاري للسيادة إلى قيم ملموسة وبراغماتية تتّضح خطوطها شيئاً فشيئاً مع الأخذ في الحسبان المصالح الحيوية للأمة والمتطلّبات الموضوعية للمجريات فوق القومية.
- إحداث تغيّير تدريجي في الهويّات الوطنية والقومية المغلقة والانعزالية لتحويلها إلى هويّات مفتوحة وتفاعلية.
- تحرير تقانيات الإعلام والاتصال التقليدية تمهيداً لتحويلها من هيئات بيروقراطية تابعة للسلطة المركزية إلى مصادر مجتمعية مستقلّة للمعرفة.
- انفتاح حقيقي على التقانيات المعلوماتية الجديدة للشروع في إدخال تلك المجتمعات إلى العصر الراهن وتيسير التفاعلية بين مختلف النخب الثقافية في /الداخل/ و /الخارج/.

في مناخ من هذا النوع، يستطيع الإسلام المعتدل أن يعبّر عن نفسه بحرية وأن يتمتّع بإمكانيات وأدوات فاعلة لاستقطاب السلفية السلمية واحتوائها تحت مظلّة الاعتدال وتهميش التطرّف السلفي العنفي الداخلي والخارجي، من خلال الردّ والتصدّي لأنشطته، ليس فقط من قبل الدولة القامعة، وإنما أيضاً وخاصة من قبل جبهة إسلامية عريضة، قوية ومتماسكة، قادرة على عزل أي نوع من العمل العنفي.

عندما يتم استقطاب أو، على الأقل، تحييد مختلف المجموعات السلفية المسالمة، ويتم، نهائياً، دحر السلفية المتعصّبة، داخل إطار تلك الإجراءات الإصلاحية المؤسّسية والبنيوية، فإن ترسيخ أقدام الإسلام المعتدل، لا يكفي لقيادة التغيّير دون صدمات، إذا لم يعمل هذا الإسلام على الامتداد خارج نطاقه الديني البحت، ليحتضن جميع العناصر المعتدلة الأخرى الموجودة في تلك المجتمعات.

العنصر المسيحي هو بالتأكيد الأكثر أهمية، فمسيحيّو /الداخل/ يشكّلون واقعاً متجذّراً بعمق في الأرض العربية والإسلامية ومسيحيّو /الخارج/ المهاجرون خاصة إلى الغرب، متأقلمون تماماً ولكنهم مرتبطون بشدة ببلدانهم الأصلية.

وإذا كان من المفيد الاستمرار في الحوار الديني والفلسفي القائم منذ عقود بين التراتبيات الإسلامية والمسيحية العالية، فإنه من الأهمية بمكان تأسيس حوار أفقي داخل المجتمعات المدنية، قادر على تحقيق تحالفات عملية تستطيع التصدي لتحديات الحقبة الراهنة.

إن إقامة تحالف إسلامي مسيحيّ مستقر ومتماسك، في /الداخل/ و /الخارج/ قادر على التفاعل، مستقطباً مشاركة أطراف أخرى مستعدة للتعايش والتعاون، من شأنها أن توفّر شروطاً ضرورية لتحقيق الالتحام مع العصر الجديد، عبر استثمار إيجابي وفعّال للتراث التاريخي والثقافي الغني للإسلام والمسيحية واليهودية في ذلك الجنوب الذي احتضن كل الديانات السماوية التوحيدية.

في أفق من هذا النوع، يمكن عيش العصر الجديد، ليس من خلال النوء تحت وطأته سلبياً، ولكن من خلال المشاركة النشطة في ديناميته تطوّره، بهدف تقليص تأثيراته السلبية وفتح أفق تطوّر حقيقي ضمن نطاق آليات العولمة والإسهام في إسقاط أطروحة الصراع بين الحضارات، مع قوى عريضة أخرى في الغرب والشرق، في الشمال والجنوب، تعمل لتجاوز السيطرة الأحادية وتأسيس عملية تثبيت توازن جديد قائم على التعدّدية القطبية، حيث يمكن في إطاره حماية المصالح الحيوية لجميع الشعوب واحترام خصوصية جميع الحضارات[١٣٠٣].

إن الغرب، وخاصة الغرب الأوروبي سيكون مستعداً، في هذا السياق، للتعاون من أجل أن يدير، بفعالية، الوجه الآخر للعولمة ألا وهو " الغزو " الإنساني من الجنوب الفقير، المسحوق تحت وطأة شموليات مختلفة، الممزّق بسبب حروب أهلية وصراعات داخلية من كل ضرب، إلى الشمال الغني، المتقدّم، الديمقراطي والمستقر.

إن التدفّق الكثيف وغير المنقطع لموجات الهجرة التي أخذت تحدث تبدّلات مهمّة في البنيات الديموغرافية والاجتماسياسية والثقافية في القارة القديمة، يجب أن تثير اهتمام هذه الأخيرة في التفاعل مع تجمّعات معتدلة ومفتوحة على العصر الجديد في العالمين العربي والإسلامي ومع جاليات متأقلمة تماماً داخل نسيجها الاجتماعي.

من السذاجة الاعتقاد، على أي حال، أن كل هذا التتابع للأحداث، في إطار تحرير محتمل للمجتمعات العربية والإسلامية، يمكن أن يتحقّق بشكل ميكانيكي.

(١٣٠٣) الباحث الإسلامي محمد أركون يعتقد أن " الوظيفة الضرورية للمشروع النقدي للعقل الإسلامي، المندرجة في استراتيجية تغيّير الفكر الإسلامي الراهن، هي الإسهام الفكري والعلمي للعالم العربي والإسلامي في عملية انتقال الإنسانية من مرحلة التنافس بين الدول-الأمم لاحتكار الهيمنة، إلى مرحلة التعاون والمساندة لإنتاج تاريخ مشترك لجميع شعوب الأرض. (محمد أركون، " أين الفكر الإسلامي المعاصر؟ "، ترجمة صالح هاشم، دار الساقي للنشر، لندن، بيروت، ١٩٩٥، ص. ٢٥ و٢٧).

ترتدي " استراتيجيات شراكة "(١٣٠٩) تعدّدية وتتطلّب، بصورة قاطعة، "حداً أقصى من تدخّل المتلقّي"(١٣١٠).

إن علماء الإسلام المتنوّرين والإسلاميّين والنخب الفكرية العربية، في الداخل والخارج، يعدّون متلقّين أكفياء ومتخصّصين، ولذلك، من المفترض أن يعيدوا قراءة النص المقدّس، مستخدمين آليات مقاربة نصّية ممنهلة، لكي يتمكّنوا من تجاوز محدودية تلك النصوص الفقهية الربطية المتعلّقة بقراءة النص الأوّل، والتي تمّ بناؤها في أزمنة قديمة، وجرت صياغتها انطلاقاً من موسوعات وجعب معرفية غابرة، ولكي يشرعوا في إنتاج نصوص اجتهادية جديدة داخل إطار المرجعيّة الأعلى، أي النص الإلهي الممنهل ، عبر مشاركة كاملة " في صناعة المعنى "(١٣١١) تحتّم " تغييراً للإنتاج "(١٣١٢) الإنساني من خلال اعتماد موسوعات معرفية محدّثة، ومن خلال تكيّف مستمر وديناميّ مع وقائع الحقبة الراهنة.

ولكن، ولكي لا يفضي هذا التغيّير العميق الذي أدخلته التقانيات المعلوماتية الجديدة على مفاهيم النصّية إلى حدوث هزّات عنيفة في الكون العربي والإسلامي خلال هذه المرحلة الانعطافية الحرجة التي أضفت عليها أحداث أمريكا مزيداً من الخطورة، فإن توظيف خصائص تلك التقانيات في عمليات الإنتاج الفكري الإنساني يجب " ألاّ يقطع الصلة مع التقاليد السابقة "(١٣١٣)، لأن كفاية المسلم في تعامله مع النص الربطي تنجم عن " تجربته السابقة في قراءة هذا النص واستيعابه "(١٣١٤)، ولذلك، فإن العنصر الأساسي الذي يجب أن يشكّل جزءاً من هذه العمليات الطليعية هو في أن تحتوي جميع النصوص الربطية الجديدة " عدداً كافياً من العناصر المعروفة لكي يتمكّن المتلقّي من استيعاب المعلومات الجديدة "(١٣١٥).

ومن أجل ألاّ يحدث " اغتراب كامل، من خلال التضحية بالمألوف وترك المتلقّي في حالة ضياع وفقدان اتّجاه وفوضى "(١٣١٦)، وفي ذات الوقت لكي لا يبقى هذا المتلقّي أسير ماضوية ولاتاريخية قرنية، أفقدته كل قيمة تجديدية وكل استناد فعّال على الحقائق الجديدة، فإن بمقدور المؤلّفين الإسلاميّين للنصوص الربطية أن يعثروا،

(1309) Ibid. p. 216.
(1310) Ibid. p. 216.
(1311) G. Caprettini, " Segni, testi, gli strumenti semiotici ", Ed. UTET, Torino, 1997, p. 86.
(1312) Ibid. p. 86.
(1313) U. Valli, " Manuale di Semiotica ", Ed. Laterza, Bari, Roma, 2000, p.168.
(1314) Ibid. p. 168.
(1315) Ibid. p. 169.
(1316) Ibid. p. 169.

ضمن نطاق السياقات الراهنة، على " ذلك التوازن الدقيق بين ما كان معروفاً قبل القراءة (والذي يفترضه النص الربطي جزءاً من معرفة متلقّيه النموذجي)، وما هو جديد لم تسبق معرفته "(١٣١٧) في النص الربطي الثاني.

داخل حدود احترام هذا التوازن، فإن مفكّري الإسلام البراغماتي يمكنهم أن ينجزوا عملية تبديل جوهرية لحوامل المعنى (interpretants) مستبعدين، تدريجياً، الحوامل القديمة التي لم تعد مستجيبة لمتطلّبات العصر، عبر إدخال سلسلة جديدة من الحوامل ضمن إطار ما يطلق عليه بيرس " الحوامل الإشارية غير المحدودة "(١٣١٨) (illimitant Semioses) آخذين في الحسبان فكرة أن " كل إشارة يتم تفسيرها من قبل إشارة تالية، في تدرّجات لامحدودة افتراضياً، ينجم عنها أن تفسّر الثقافة إشارات بإشارات أخرى، منتجة سلسلة لامنقطعة من التفسيرات التي تقع على وتتشابك مع التفسيرات السابقة "(١٣١٩).

إن بناء سلسلة جديدة من حوامل المعنى تيسّر ولوجاً غير ملفت لعناصر ذات خواص " ملائمة " تنتج بدورها تغيّيرات تدرّيجية وضمنية تقريباً على محور المعالجة التسلسلية أو محور التراكيب المتعاقبة (Process axe) وعلى محور النظام (System axe) اللذين، معاً، "يحدّدان وينظّمان المصادر الثقافية والاتصالية المتوافرة للقيام بوظيفة معيّنة في مجتمع معيّن "(١٣٢٠).

لتسهيل هذه العمليات الحسّاسة، دون الوقوع السريع في تركيبات يخرّمها الكود (Code) التقليدي(١٣٢١)، من الضروري منهلة (Hypertextualisation) النصوص التناصّية

(1317) Ibid. p. 169.
(1318) Ibid. p. 29.
(1319) Ibid. p. 29.
(1320) Ibid. p. 49.

(١٣٢١) كتب الباحث السوري محمد شحرور، منذ عشر سنوات، كتاباً عنوانه " الكتاب والقرآن " قدّم فيه حوامل معنى جديدة جذرياً، قالباً بعنف محور التراكيب ومحور النظام، مقترحاً تفسيراً غير مألوف في مجال التشريعات القرآنية المتعلّقة بالميراث والحريات الفردية والمدنية والديمقراطية وأوضاع المرأة المسلمة والأسرة الخ.. فتعرّض لهجوم عنيف من جانب علماء مسلمين، من بينهم معتدلون ومرموقون كمرجعيات إسلامية، إذ اتّهموه بالهرطقة وأوعزوا، في المساجد ووسائل إعلام مختلفة بمقاطعة كتابه وإدانته كخارج على الإسلام أو مرتدّ.

لا شك أن كيل الاتّهامات وإطلاق الإدانات والتحريم تقطع الطريق على الشروع في حوارات علمية رصينة وبنّاءة، يمكن أن تشكّل أرضية ملائمة للانطلاق نحو إعادة قراءة التراث الديني في ضوء الوقائع الراهنة والمستقبلية عبر تعلّم واستخدام أدوات علمية متطوّرة ومتساوقة قادرة على صنع موسوعات معرفية جديدة، مفتوحة على التطوّر التدرّجي الهادئ، ومؤهّلة =

(intertexts)، والقيام، في ذات الوقت، بإنجاز تمرير للمعاني الجديدة عبر الوظيفة التأويلية للغة (Metalanguage) "(١٣٢٢)، لأن اللغة، حسب سابير(١٣٢٣)، لها حركة انحرافية تنجم عن أن اللغة يتم استخدامها وهذا الاستخدام يؤدي الى تشكّل تلوّنات لها اتجاه معيّن"(١٣٢٤).

إن منهلة النص تساعد، في الحقيقة، على تداخل " عناصر مستقرّة وعناصر متغيّرة "(١٣٢٥) في اللغة، خاصة بالمفاهيم المفردة المرتبطة بالموضوع الشامل الذي يتعامل معه المؤلّف.

ثمة موضوعات دينية تم تجميدها وأسطرتها عبر مئات السنين، يمكن أن تزال أسطرتها، تدريجياً، وأن تدخل في البنية المتاهية للنص الممنهل. لا شك أن المفكّرين الإسلاميين المتنوّرين سيجابهون في البداية ردود أفعال تعبّر عن الحيرة أو عدم الرضى، لأن التراث الديني الإنساني الهائل، المحفوظ والمنقوش في الذاكرة والمنقول عبر الأجيال ككل متماسك من المسلّمات التي لا تمس ومن النصوص المؤلّهة، سيقاوم التغيير، ولكن الحاجة الماسّة إلى التحرك وبراعة ومثابرة هؤلاء المفكّرين في صناعة نصوص اجتهادية مناسبة ستنتهي الى هدم جدران القرون الوسطى العربية والإسلامية، ذلك لأن معظم مجتهدي القرآن الكريم والحديث الشريف، في الحقل الديني وغير الديني، يتمتّعون بمصداقية في أوساط الجماهير الإسلامية التي تعتبرهم مرجعية لا غنى عنها في الحياة المادية والروحية للمؤمنين(١٣٢٦).

لتمثّل قيم الراهن وأقلمتها. ليس من مواقع لاتاريخية تتكئ على جعبات ثقافية معثرة ومشوّشة من شأنها أن تمعن في تهميش الوجود العربي والإسلامي، بل من موقع يتحرّك في قلب صيرورات التغيّير الذي لم يعد قابلاً لتحديد مكاني أو زماني. وإنما أصبح بطبيعته وجوهره إنسانياً يشمل كل أصقاع الأرض.

(1322) E. Sapir, " Il Linguaggio, introdizione alla linguistica", Ed. Einaudi, Torino, 1969, pp.151-155.

(1323) Ibid. p. 229.

(1324) Ibid. p. 229.

(1325) F. Braudel, " Histoire et sciences sociales, la longue durèe", Ed. Mondadori, Milano, 1973, p. 229.

(١٣٢٦) في المملكة العربية السعودية، سعى قلّة من الشيوخ المتعصّبين الذين خشوا فقد هيمنتهم وامتيازاتهم، على حمل العائلة المالكة على عدم إدخال الهاتف والراديو وبعدهما التلفزيون الى المملكة، معتبرين هذه الاختراعات ثمرة محرّمة للفكر الغربي " الملحد " ووسائل شيطانية لغرب عدو ينوي تدمير القيم الأخلاقية للإسلام. -

الاجتهاد والفكر الممنهل

نظراً لاتساع التراث الثقافي الإسلامي، لا بد للإسلاميين من تحديد أولويات في الاجتهاد تأخذ في الحسبان حيوية العلاقة القائمة، في عصر التقانيات المعلوماتية الجديدة، بين الإسلام والحرّية، وبين الإسلام والديمقراطية. ولا مناص أيضاً من لحظ مدى أهمية الاقتران والتلاحم بين قيم الحرّية والديمقراطية وبين آليات ومنهجيات الاجتهاد.

بناء على هذه الأولويات والمنطلقات، وفي مقاربة مبدئية من النص الأول في علاقته مع إشكالية الديمقراطية، يلاحظ أن الرحمن شاء أن يزوّد المؤمنين بآيتين مؤلّفتين من ست كلمات شديدة العمومية ومجرّدتين من أية تعليمات استخدام ملموس أو ظرفي: (في الآية الأولى، يقول تعالى ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾(١٣٢٧) وفي الآية الثانية، يأمر ﴿وشاورهم في الأمر﴾ (١٣٢٨)، وهو خطاب إلهي يطرح مبدأ الشورى)(١٣٢٩).

ولكن الفتوى التي صاغها علماء وفقهاء إسلاميون، سعوديون وعرب عديدون، معتدلون وواقعيون، لصالح التحديث أسقطت هذه الترّهات.

تدخل العربية السعودية اليوم التقانيات الأكثر تقدّماً وتعقيداً، والتي تمثّل، موضوعياً عناصر تناقض حادّ بينها وبين التنظيم المجتمعي الذي ما يزال مغلقاً ومنكفئاً على نفسه، ما سيؤدي، في نهاية المطاف، الى إحداث تبدّلات اجتماعية وثقافية تفتح المملكة على العصر الجديد عقلياً وقيمياً.

(١٣٢٧) القرآن الكريم، الآية ٣٨، سورة الشورى.

(١٣٢٨) القرآن الكريم، الآية ١٥٩، سورة آل عمران.

(١٣٢٩) لا توجد أية آية قرآنية تتعارض مع السيادة الكاملة للشعب، لأن تعاليم الإسلام المرتبطة بوجوب طاعة الله عزّ وجلّ وطاعة نبيّه محمد عليه الصلاة والسلام وطاعة أولي الأمر. لا تشير فيما إذا كان هؤلاء الأخيرين يجب أن يفرضوا فرضاً أو أن يتم اختيارهم من قبل سلطة عليا أو أن يتم انتخابهم مباشرة من قبل الشعب.

فقط النصوص الربطية والتفسيرية كرّست، خلال عصور إسلامية مختلفة، الطاعة المطلقة للخليفة، مستبعدة أي تمثيل انتخابي، خالقة تناقضاً مزيّفاً بين آيات قرآنية كريمة مرتبطة بالعلاقة بين السياسة والشعب من جهة وبين الديمقراطية من جهة أخرى.

إن المسألة المتعلّقة بضرورة تقليص سيادة الشعب داخل حدود الشريعة الإسلامية (التي يجب أن تبقى، بطبيعة الحال، المرجعية المطلقة للمسلمين) هي عبارة عن تناقض آخر مزيّف بين الإرادة الإلهية وبين إرادة الشعب المسلم، فهذا الأخير لا يمكن بأي حال أن يخالف أو أن يخرق -

إن اقتصار النص المقدّس على هاتين الآيتين يعبّر عن إرادة إلهية واضحة في منح المجتهد الإسلامي، فضاء لا حدود له وإمكانية تحرّك لانهائي في جوهره، ليس بالمعنى الافتراضي لعملية تفاوض المعنى بل بالمعنى الحقيقي لها.

ثمة آيات عديدة في مجال الحرّيات، بجميع أنواعها، وفي مجالات لا حصر لها تنظّم الحياة الإسلامية، تعبّر عن أزليّتها وصلاحيتها في كل زمان ومكان من خلال فيضان حوافها واستراتيجيات الشراكة الكاملة و التعدّدية التي تطرحها، ومن خلال مطالبتها بالحد الأقصى لتدخّل متلقّيها ومفسّرها.

أما فيما يتعلّق بالنص الإسلامي الإنساني، فإن حقبة التقانيات الجديدة تفرض إعادة نظر شاملة وجذرية في التراث الفكري جميعاً، استناداً إلى منهجيات وأدوات تفسيرية وتحليلية تزيل عن الثقافة الإسلامية خواصها الماضوية وتحرّرها من لاتاريخية أبقت الإسلام قروناً طويلة خارج سياقات الحضارة الإنسانية، وتدخلها في رحاب التناول العلمي الذي وحده يستطيع إدخال الفكر الإسلامي في نطاق العقلانية والراهنية.

لقد أوجدت التقانيات المعلوماتية الجديدة، التي يعدّ الفكر الممنهل أحد أهم منتجاتها، أدوات ملموسة وقواعد تأويلية وتفسيرية قلبت العديد من المفاهيم في طرائق التفكير الإنساني، من حق المسلم أن يستثمرها للخروج من دوائر التخلّف بكل أشكاله وليتمكّن من الإسهام، بفاعلية وإيجابية، في بناء حضارة تخترق انسداد الأفق القائم وتخرج عن نطاق المفروغ منه لتنطلق نحو أزمنة جديدة تتيح للمسلم أن يمسك بناصية حياته ووجوده وأن يملك مصيره ويرسم مستقبله.

انكفاء وعبودية أم حريّة وديمقراطية ؟

لا شك أن تبنّي العالم العربي والإسلامي للحريّة والديمقراطية منهجاً وأسلوب حياة لا يمكن أن يحقّق النقلة النوعية المطلوبة على أرض الواقع بصورة ميكانيكية وتلقائية أو عبر مبادرات فوقية وإجرائيات تشريعية وحقوقية بحتة، وإنما يحتاج، لكي لا يؤدّي إلى انتكاسات خطيرة ونتائج عكسية، إلى إحداث تغييرات عميقة في القناعات وطرائق

= القوانين القرآنية والسبب، ببساطة، لأنه إنسان مؤمن بكل ما أنزله الله تعالى، ولأن الإسلام أساساً هو دين الفطرة.

ولكن، في الوقت نفسه، فإن المسلم يجب ألاّ يكون مرغماً على تبنّي تفسيرات وحيدة لمعنى ومغزى تلك التشريعات الإلهية، وإنما له الحق في أن يختار ممثّليه الذين يعدّون وحدهم مخوّلين في أن يصوغوا تلك التفسيرات في إطار القوانين الإلهية.

التفكير. ولا شك أن تحقيق الاقتران العضوي بين استنباط مناهج اجتهاد جديدة عبر استثمار منجزات التقانيات وبين تحريك العقل والوجدان نحو استيعاب مبادئ الحريّة وقيم الديمقراطية، وما ينجم عن ذلك الاقتران من علاقة جدلية ديناميّة، من شأنه أن يسرّع الصيرورات وأن يسهم إسهاماً حاسماً في جعل تلك المبادئ والقيم وقائع أساسية، ومنطلقات مستقرّة ومغروسة في صميم النسيج الفكري العربي والإسلامي.

إذا استعرنا نظرية غريمس[١٣٣٠] حول الشيء القيّم، يمكن القول إن المنظّرين الإسلاميين يجب أن يجدوا ويعمّموا في اجتهاداتهم شيئاً قيّماً عقلياً (الحريّة والديمقراطية)، يمثّل نقطة استناد يمكن، انطلاقاً منها، إدراك أن النص الممنهل له معنى، يمكن نقله لآخرين، مبيّنين، مرّة بعد مرّة، التلاؤمات (Pertinences)، بدءاً من النص الأول (القرآن الكريم) الذي يستحيل التخلّي عن مرجعيته المطلقة.

هذا المعنى الممنهل يتعلّق بمسألة أن الفرد (المجتهد الإسلامي) يندمج مع شيء ما، هو الشيء القيّم، عبر " عملية نقل قيميّة " تؤدي، ما يطلق عليه بيرس تغيّيراً تفسيرياً، مع المحافظة على الارتباط الحيوي بين النص الممنهل الربطي وبين الجذور الثقافية التي وجد فيها المؤلّف دعامة والتي يمكن التعرّف عليها من قبل متلقّ، أي من قبل جمهور.

الشيء القيّم هو، في أفقية الفرد، شيء له معنى نهائي، معنى قاعدي، خلافاً لأشياء أخرى تقدّم له معنى استخدامياً فحسب. الشيء القيّم، بكلمات أخرى، هو ذلك الشيء الذي يقبض عليه المؤلّف ويفتح من خلاله فضاء جديداً.

من خلال هذا الكيان الفضائي يتم التعبير عن فكرة الاقتناء التي يجري تحويلها الى فعل ملموس.

الشيء القيّم هو كنز ثمين، هو خير لم يكن موجوداً من قبل وهو الآن موجود في ثنايا النص الممنهل الربطي والتأويلي، معطياً قيمة لم يكن المتلقّي المسلم يعرف شيئاً عنها، وفي لحظة التعرّف عليها يصبح أكثر غنى، أيضاً كشخص، ويحصل على مكتسبات ملموسة لأنه أصبح قادراً على أن يحتضن الحريّة والديمقراطية التي لم يكن

(1330) A. J. Greimas, J. Courtés, " Semiotique, Dictionnaire raisonné de la Theorie du Language ", Paris, 1979, p. 415.
- A.J. Greimas, " Alla Ricerca della Paura, in Del Senso ", trad. Ed. Bompiani, Milano, 1974, pp. 60-243.

يعرف، قبلاً، ماهيّتها والتي عرفها بعد أن أولجها عقله، وأولج جوهرها ومداها نظامه المعرفي[١٣٣١].

إن هذه النظرية تبيّن " أن الشيء القيّم الذي يتم اقتناؤه هو عنصر كنّا نعتقد، حتّى، أنه لم يكن له وجود أو أنه لا يحمل الخصائص المبحوث عنها "[١٣٣٢].

ولكن بعد أن تتم معرفته ويأتي تقديره، من خلال النص الممنهل الربطي المولّد للمعنى، يتم تأسيس الشيء القيّم على تناغمية داخلية وعلى قبول اجتماعي.. ذلك لأن المجتمع المرجعي يصبح بمقدوره أن يفسّر استخداماته، دافعاً إيّاه نحو قوننة مستقرة أو في طريقها الى الاستقرار[١٣٣٣].

غير أنه، وبعد العثور عليه واكتسابه واستيعابه في النسيج الاجتماعي، فإن الشيء القيّم لا يمكن أن يتحولّ الى شكل من أشكال القسر، أو أن يفرض نموذجاً وحيداً أو موحّداً لمجتمعات شديدة التنوّع.

كل بلد، انطلاقاً من وقائعه، له الحق وعليه الواجب في أن يندمج مع شيء قيّم (صيغة ديمقراطية) مقدّماً إيّاه كإسهام في النقاش العام ضمن إطار تلك المجتمعات، بهدف تحسين وإتقان عملية قيامه بوظائفه.

إن أصالة وفرادة كل شيء قيّم مفرد في مجال الديمقراطية يرفع من قيمته ويزيد إمكانية الاندماج فيه من قبل جميع عناصر الجسد الاجتماعي.

إن رياح الديمقراطية والحرية يجب أن تبدأ بالهبوب بقوة في تلك الأجزاء من الجنوب، لأن الشمولية قد أصبحت سلاحاً خطيراً موجّهاً، ليس فقط ضد الشعوب، وإنما أيضاً ضد تلك الأنظمة المركزية التي تبدو وكأنها آخر نوع من الديناصورات الشائخة السائرة نحو الانقراض، في عالم يرغب في دفنها الى الأبد.

(١٣٣١) يقول بعض المفكّرين العرب والمسلمين أن شعوب الجنوب لا تعرف العوم في بحر الديمقراطية وأن رميها في عبابه سيؤدي إلى غرقها.

لماذا يراد إدانة هذه الشعوب بالإفقار الفكري والتبعية والانكفاء ؟ لماذا لا يتاح لها أن تتعلّم كيفية البحث لإيجاد الشيء القيّم الذي ستكون قادرة، ككل شعوب الأرض، على تثمينه وتحسينه وإتقانه ؟

إن الشعوب العربية والإسلامية لها الحق في أن تختبر مغامرة أوليس الذي، باندماجه أثناء سفره، مع قيم قاعدية ثمينة، كان قد أصبح أكثر ثراء ونضجاً ومعرفة.

(1332) Caprettini, op. cit. p. 81.
(1333) Ibid. p. 83.

غير أنه من الضروري التشديد، للالتزام بواقعية معينة ومن أجل عدم خداع تلك الشعوب، على أن انخراط المجتمعات العربية والإسلامية في وقائع التقانيات المعلوماتية الجديدة ومختلف صيرورات العولمة لن يضعها في موقع الندّية مع الدول القويّة والمتقدّمة، وإنما سيبقيها إلى أجل غير مسمّى في وضعية التابع.

ولكن من جهة أخرى، من الضروري التشديد أيضاً على أن التقاعس عن الشروع في إحداث التغيّير البنيوي الذي تتطلّبه حقائق هذا القرن، والتخلّي عن الانخراط في عمليات التكيّف الفردي والجماعي الواعي، باسم استقلالية كاملة وهويّة بيوريتانية وسيادة ملينة، سينتهي الى جعل تلك الشعوب الجنوبية عبيد الحقبة التكنومعلوماتية.

* * *

المراجع

المراجع العربية

- القرآن الكريم، عثمان حسين، وزارة الأوقاف السورية، دمشق، ١٩٩٩م.
- أبو إصبع صالح، الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار آرام للدراسات والنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٩٥م.
- أبو جلال عبد الله، الإعلام وقضايا الوعي الاجتماعي في الوطن العربي، المستقبل العربي، العدد ١٤٧، ١٩٩١م.
- أبو زيد حامد ناصر، الإمام الشافعي: تأسيس العقيدة الحديثة، دار سيناء للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أبو زيد حامد ناصر، دوائر الخوف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
- أبو زيد فاروق، مدخل إلى علم الصحافة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- أبو زيد فاروق، النظم الصحفية في الوطن العربي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٦م.
- البطريق نسمة، التلفزيون والمجتمع والهويّة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
- البطريق نسمة، نظرية الإعلام المرئي والمسموع، دراسة في المدخل الاجتماعي، كلّية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.
- الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٩١م.

- الجابري محمد عابد، ما هي العولمة؟، مجلة الطريق، العددان ٤ لعام ١٩٩٧ و٣ لعام ١٩٩٨م.
- الجاحظ، البيان والتبيّين، دار الكتب العلمية، الجزء الثالث، بيروت.
- الجردي نبيل عارف، مقدّمة في علم الاتّصال، مكتبة الإمارات، ١٩٨٥م.
- أركون محمد، أين الفكر الإسلامي المعاصر؟، ترجمة صالح هاشم، دار الساقي للنشر، لندن، بيروت، ١٩٩٥م.
- أركون محمد، الفكر الإسلامي: نقد وتفسير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨م.
- أركون محمد، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٩م.
- الصادق النيهوم، الإسلام ضد الإسلام، شريعة من ورق، الطبعة الثالثة، دار الريّس، بيروت، ٢٠٠٠م.
- القادري نهوند، الإعلام الفضائي العربي وثقافة الترفيه، ندوة قسم الإعلام في جامعة دمشق حول الإعلام الفضائي العربي والعولمة، نيسان، ١٩٩٩م.
- الفهد ياسر، الصحافة الثقافية في الخليج العربي، دار البشائر، تاريخ بلا، دمشق.
- أمين سمير، إمبراطورية الفوضى، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١م.
- أمين سمير، سنغافورة ثانية في المنطقة، بيرس، ١٩٩٤/١٠/٣١م.
- العشماوي محمد سعيد، جوهر الإسلام، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٣م.
- النيروبية عروة، الإعلان التجاري المرئي، أحلام مؤجّلة ثمنها الاستلاب، صحيفة السفير، ١٨ شباط، ١٩٩٩م.
- الريسوني أحمد ومحمد جمال باروت، الاجتهاد: النص والواقع والمصلحة، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
- بن سلاّم محمد، طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، مطبعة المدني.
- تيزيني طيّب، محور العولمة وقضايا الهويّة، مجلّة النهج، العدد ١٤، ربيع ١٩٩٨م.

- تيزيني طيّب،العرب والعولمة، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٢٨، شباط ١٩٩٨م.
- حسين طه، من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، المجلّد الأول، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة رابعة، ١٩٨١م.
- حسين طه، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف بمصر.
- حمادة بسيوني إبراهيم، دور وسائل الاتّصال في صنع القرارات في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣م.
- حمّاد إبراهيم، أزمة المعارضة في الصحافة المصرية المعاصرة، ورقة عمل لندوة دراسة المجتمع المصري، الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٣م.
- خفاجي عمرو، مركز الأهرام للدراسات، صحيفة الحياة، ٥ شباط، ١٩٩٩م.
- دجاني نبيل، المجلّة الجزائرية للاتّصال، معهد علوم الإعلام والاتّصال، جامعة الجزائر، العدد ١٥، حزيران، ١٩٩٧م.
- رشتي جيهان، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.
- شحرور محمد، الكتاب والقرآن، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٠م.
- شحرور محمد، الإسلام والعقيدة: نظام القيم، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٦م.
- ضيف شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- عبد الله إسماعيل صبري، الندوة العربية العالمية التي نظّمتها مجلة الطريق في الذكرى العاشرة لاستشهاد مهدي عامل، مجلة الطريق، العدد الرابع، ١٩٩٧م.
- عباس بشار، التجربة الهندية لخلق قطاع وطني لتكنولوجيا المعلومات: بناء الهند بأيدي الهنود، مجلّة المعلوماتي، العدد ٩٤، خريف ٢٠٠٠م.
- عطية جمال و الزحيلي وهبة، تجديد الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

- عبد الكريم خليل، الجذور التاريخية للتشريع الإسلامي، دار سيناء للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.
- عبد النبي عبد الفتّاح، الأداء المهني للعاملين بالصحف المصرية، مجلّة اليقظة العربية، العدد ٨، آب، ١٩٩٠م.
- عبد النبي عبد الفتّاح، تكنولوجيا الاتّصال والثقافة بين النظرية والتطبيق، العربي للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.
- عبد المجيد ليلى، مجلّة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلّد الثالث والعشرون، ديسمبر، ١٩٩٤م.
- عمارة محمد، الإسلام وفلسفة الحكم، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
- قنص، العامر، جودية، بندقجي، السلوك الاتّصالي للجمهور الإعلامي العربي تجاه الصحن اللاقط، أطروحة ليسانس غير منشورة، إشراف فريال مهنا، قسم الإعلام، جامعة دمشق، ١٩٩٩م.
- مهنا فريال، الإعلام والنظم السياسية، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٣م.
- مهنا فريال، نحو بلاغة إعلامية معاصرة، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٣م.
- مهنا فريال، الإعلان التلفزي والتشريعات في المجتمعات الراهنة، المجلّة المصرية لبحوث الإعلام، كلّية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد ٥، ١٩٩٩م.
- مهنا فريال، جدلية المضمون والشكل في الخطاب الإعلامي العربي، مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلّد ١٦، العدد الأول، ٢٠٠٠م.
- مهنا فريال، تقنيات الإقناع في الإعلام الجماهيري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م.
- مهنا فريال، الإعلام الفضائي ووقائع العولمة، المجلّة المصرية لبحوث الإعلام، كلّية الإعلام، جامعة القاهرة، العدد السابع، يناير- يوليه، ٢٠٠٠م.

مجلات

- مجلّة النهج، بيروت، ١٩٩٧،١٩٩٨م.
- مجلة النهج، محور العولمة وقضايا الهوية، العدد١٤، ١٩٩٨م.
- مجلة الطريق، العددان ٤ لعام ١٩٩٧ و٣ لعام ١٩٩٨م.
- مقابلة مع أ. د. نايفَ بللوز، قسم الفلسفة وعلم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، لم تنشر، ١٩٩٨م.
- مجلّة المستقبل العربي، بيروت، ١٩٩٧،١٩٩٨م.
- مجلّة الطريق، بيروت، ١٩٩٧،١٩٩٨م.

■ سيرج بوت - لاجوس، عضو في مرصد التقانيات من أجل التربية في أوروبا، ورقة حول" استخدامات الإنترنت، في التربية والثقافة "، مؤتمر " التقانات الجديدة والمجتمع "، المكتب الإقليمي لليونيسكو، بيروت، ١٤-١٦ حزيران، ٢٠٠١م.

■ ندوة حول العولمة والعرب، مؤسّسة الوحدة العربية للدراسات، بيروت، ٢٠ كانون الأول، ١٩٩٨م.

■ برامج دينية تحتوي مقابلات مطوّلة مع شخصيات إسلامية عربية، قناة الجزيرة، قطر، ١٩٩٨-٢٠٠٠م.

■ مقابلات، حوارات، وموائد مستديرة حول موضوعات إسلامية في قنوات فضائية عربية خلال الفترة ١٩٩٨-٢٠٠٠م.

■ أقراص مدمّجة تحتوي تفسيرات لسور من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ٢٠٠٠م.

■ وثائق حول الإسلام والديمقراطية في أهم محركات البحث في الإنترنت باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية، العام ٢٠٠٠م.

* * *

المراجع الأجنبية

- Il Corano, nuova versione letterale italiana, note critico-illustrative del Dott. L. Bonelli, Editore Ulrico Hoepli, Milano, 1990.
- Abruzzese A., Estetiche del Wolkman, Ed. F. Pagano, Napoli, 1990.
- Adorno T., Résumé über Kulturindustrie, in Ohne Leitbild, Parva Aesthetica, Suhrkamp, Frankfurt, 1967, trad. Riassunto sull'Industria Culturale, in Petronio G. Letteratura di Massa, Letteratura di Cosumo, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1979.
- Adorno T., Minima Moralia, Berlin, 1951, trad. Minima Moralia, Ed. Einaudi, Torino, 1954.
- Adorno T., Television and the Patterns of Mass Culture, Quarterly of Film, Radio and Television, vol. 8, 1954, trad. Televisione e Modelli di cultura di Massa, Ed. Hoepli, Milano, 1969.
- Adorno T., On a Social Critique of Radio Music, in Berelson, Ed. Janowits, A Reader in Public Opinion and Propaganda, Free Press, New York, 1950, trad. Critica Sociale sulla Musica Radiofonica, in Livolsi M., Comunicazione e Cultura di Massa, Ed. Hoelpi, Milano, 1969.
- Agostini A., La Tematizzazione. Selezione e Memoria dell'Informazione Giornalistica, Rivista Problemi dell'Informazione, n° 4, 1984.
- Albert P., La Presse, Encyclopoche Larousse, Paris, 1977.
- Alexander J., The Mass News Media in Systemic, Historical and Comparative Perspective, Ed. Katz E. – Szcesko, Mass Media and Social Change, Sage, London, 1981.
- Arcidiacono A., Una Pericolosa Accelerazione, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Attali J., Lignes d'Orizon, Ed. Fayard, Paris, 1990.
- Agamben G., Infanzia e Storia. Distribuzione dell'Esperienza e Origine della Storia, Ed. Einaudi, Torino, 1978.
- Aroldi P., Conoscere con I New Media, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Audience and Social Structure ", in S. J. Ball-Rokeach & M. G. Cantor, Beverly Hills, Calif, Sage, 1986.
- Baker P. & Hacker S., "Understanding and Meaning ", Ed. University of Chicago Press, 1980.
- Balle F., Médias et Société, Ed, Montchrestien, Paris, 1984.
- Balle F., L'Information, Encyclopoche Larousse, Librairie Larousse, Paris, 1977.
- Balle F. & Padioleau G., Sociologie de l'Information, Larousse Université, Paris, 1973.
- Ball-Rokeach S. J. & Rokeach M. & Grube J. W., The Grat American Values Test: Influencing Behavior and Belief Through Television, Ed. Free Press, New York, 1984.
- Ball-Rokeach & Reardon K., Telelogic, Dialogic and Monologic Communication. A Comparison of Forms, in Rethinking Communication Research, Ed. P. Hawkins, S. Pingree & M. Wieman, Beverly Hills, Calif, Sage, 1988.

- Bambaro M., Informazione, Mass Media e Telematica, Ed. Clup, Milano, 1985.
- Bandura A., Social Learning Theory, Ed. Englewood, Prentice-Hall, 1977.
- Bandura A., Aggression: A Social Learning Analysis, Ed. Englewood Cliffs N. J., Prentice-Hall, 1973.
- Barnett Pearce W. & Vernon Cronen E., Communication, Action and Meaning: The Creation of Social Realities, Ed. Praeger, New York, 1980.
- Bartlett F., " Remembering ", Ed. Cambridge University Press, 1934, trad. "La Memoria. Studio di Psicologia Sperimentale e Sociale ", Ed. Angeli, Milano, 1990.
- Barthes R., " S/Z ", Ed. Seuil, Paris, 1970, trad., Einaudi, Torino, 1973.
- Baudrillard J., La Difficulté de Parler de la Communication, in L'Order Communicationnel, La Documentation Française, Paris, 1989.
- Baudrillard J., Le Crime Parfait, La Documentation Française, Paris, 1995.
- Bechelloni G., L'Immaginario Quotidiano. Televisione e Cultura di Massa, Ed. ERI, Torino, 1984.
- Bellenger L., L'Expressio Orale, 2° Ed. P. U. F., Paris, 1983.
- Berretta G., Lo Stato del Virtuale, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1998.
- Berger P. L. & Luckmann T., " The Social Construction of Reality ", Ed. Doubleday, New York, 1963, trad. La Realtà come Costruzione Sociale, Ed. Il Mulino, Bologna, 1974.
- Berger P. & Berger B., Sociology. A Biographical Approach, Basic Books, New York, trad. Sociologia. La Dimensione sociale della Vita Quotidiana, Ed. Il Mulino, Bologna, 1977.
- Bertrand J. C., Presse - Actualité, n° 106, Janvier, Paris, 1976.
- Bertrand C. J., Les Médias aux Etats-Unis, P. U. F., 2° Ed. Refondue, Paris, 1982.
- Bettetini G., La Conversazione Audiovisiva, Ed., Bompiani, Milano, 1984.
- Bettetini G., Teoria della Comunicazione, Ed. F. Angeli, Milano, 1994.
- Bettetini G., Una Ricerca Multidisciplinare sulla Dimenticanza Volontaria, in Ikon, Università Cattolica, Milano, n° 15 & 16, 1987.
- Bettetini G., Dall'Occhio alla Mente. Strategie Interpretative e Sistemi Testuali, in Problemi dell'Informazione, n° 3, Milano, 1988.
- Bettetini G., L'Occhio in Vendita, Ed. Marsilio, Venezia, 1985.
- Bettetini G., Il Segno dell'Informatica, Ed. Bompiani, Milano, 1987.
- Bettetini G., La Simulazione Visiva, Ed. Bompiani, Milano, 1991.
- Bettetini G. & Colombo F., Le Nuove Tecnologie della Comunicazione, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Bettetini G., Tecnologia e Informazione, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Bettetini, Internet, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Bettetini G., Gli Spazi dell'Ipertesto, Ed. Bompiani, Milano, 1999.

- Biocca F., Communication within Virtual Reality, in Journal of Communication, vol. 42, 4, 1992.
- Blok M., Time Allocation in Mass Communication Research, Ed. G. Hanneman, Norwood, 1979.
- Blumer J. & Gurevitch P., " The Political Effects of Mass Communication ", Ed. M. Gurevitch-T Bennett-J. Curran-J. Woollacott, Methuen, London, 1982.
- Blumer J. & Gurevitch M., The Personal and the Public. Observations on Agendas in Mass Communication Research, Ed. Gurevtch & Levy, Newbury Park, 1987.
- Böckelmann F., Theorie der Massenkommunikation. Das System Gergestellter öffentlichkeit, Wirkunsforschung und Gesellschftliche Kommunikationserhältnisse, Suhrkamp, Frankfurt, in Teoria della Comunicazione di Massa, Ed. Eri, Torino, 1980.
- Bohn H. & Ungurait, Mass Media: An Introduction to Modern Communication, Ed. Longman, New York, 1979.
- Bolter D. J., " Turing's Man. Western Culture in the Cumputer Age ", Ed. North Carolina Univ. Press, Chapel Hill, 1984, trad. L'Uomo di Turing. La Cultura Occidentale nell'Età del Computer, Ed. Pratiche, Parma, 1985.
- Bolter D. J., " Writing Space. The Cumputer, Hypertext, and the History of Writing ", Ed. LEA, Lawrence Erlbaum Associates Ltd., Hillsdale, Hove and London, 1991.
- Bolter J. D., Degrees in Freedom, Altavista.
- Borges J. L., Libro di Sabbia, Ed. Mondadori, Opere complete, Milano, 1984.
- Borges J. L., Biblioteca di Babele, Ed. Mondadori, Opere complete, Milano, 1984.
- Borges J. L., Il Giardino dei Semtieri che si Biforcano, Ed. Mondadori, Opere complete, Milano, 1984.
- Bostrom R. N., La Persuasione, Ed. Nuova ERI, Torino, 1990.
- Boudon R., Effets Pervers et Ordre Sicial, Ed. P. U. F., Paris, 1977.
- Bourdieu P. & Passeron J., Sociologues des Mythologies et Mythologies des Sociologues, Les Temps Modernes, 211, 1963, trad. Mitosociologia, Ed. Guaraldi, Firenze, 1971.
- Bovone L. & Rovati G., Sociologie Micro, Sociologie Macro, Ed. Vita & Pensiero, Milàno, 1988.
- Bricken W., Virtual Reality ; directions of growth, in virtual reality 91, London, 1991.
- Bricken W., Virtual Reality. Direction of Growth, in Imagina 92, Meeting, Paris, 1992.
- Brioschi E. T., Elementi di Economia e Tecnica della Pubblicità, 2° Ed. Vita& Pensiero, Milano, 1995.
- Braudel F., Histoire et sciences sociales, la longue durèe, trad. Ed. Mondadori, Milano, 1973.

- Bush V., As we May Think, in Atlantic Monthly n° 176, July, 1945, in Nelson, , Literay Machines ", 1990.
- Calabrese O., L'Età Neobarocca, Ed. Laterza, Bari, 1987.
- Cancrini L., La Morte Apparente, Ed. Eri, Torino, 1989.
- Candalino N., Indosseremo Il Computer, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1998.
- Caprettini G., " Segni, testi, gli strumenti semiotici ", Ed. UTET, Torino, 1997.
- Carassa F., Il Contesto Tecnologico della Vita Contemporanea, Ed. Vita & Pensiero, Milano, 1987.
- Carassini S. & Gasparini B., Rappresentare con I New Media, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Carità E. & Donat-Cattin C., La Galassia dei Nuovi Media, in Mass Media Anni 90, Gutenberg 2000, Torino, 1988.
- Carlini F., Un Plus di Realtà, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Carotenuto A., Realtà e Verità, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Cazeneuve J., La Société de L'Ubiquité, Ed. Denöel, Paris, 1972.
- Chiesi A., Sincronismi Sociali. L'Organizzazione Temporale della Società come Problema Sistemico e Negoziale, Ed. Il Mulino, Bologna, 1989.
- Cicourel A. V., " Cognitive Sociology: Language and Meaning in Social Interaction ", Ed. The Free Press, New York, 1974.
- Clausen J. A., Socialization and Society, Ed. Little Brown, Boston, 1968.
- Colombo F., Gli Archivi Imperfetti, Ed. Vita & Pensiero, Milano, 1986.
- Colombo F., Ombre Sintetiche, Ed. Liguori, Napoli, 1990.
- Colombo F., La Telefonia via Radio traguardo degli Anni Novanta, in Media Duemila,3, Milano, 1991.
- Colombo F., La Comunicazione Sintetica,, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Committee on Definitions of the American Association, A Glossary of Marketing Terms, reprint Chigago, 1963.
- Comte A., Corso di Filosofia Positiva, (1830-1842), trad. 2 voll, Torino, Ed. UTET, 1967.
- Condon J., When People Talk with People, in Basic Readins in Communication Theory, Ed. C. D. Morten, New York, Harper & Row, 1979.
- Cooley C.H., " Human Nature and the Social Order ", Ed. Schocken Books, New York, 1964.
- Couchot E., Images. De L'Optique au Numérique. Les Arts Visuels et L' Évolution des Technilogies, Ed. Hermes, Paris, 1988.
- Crane G., Redefining the Book: Some Preliminary Problems, Academic Computing, n° 2&5, 1988.
- Curtius R., European Literature and the Latin Middle Ages, Ed. Princeton University Press, Princeton, N.Y., 1973.

- Dadda L., La Tecnologia dell'Informazione alle Soglie del Terzo Millennio, in Media Duemila, 8, 1992.
- Dahrendorf R., " Reflections on the Revolution in Europe, Ed. Chatto and Windus, London, 1990.
- D'Arcy J., Revue Française de Communication, n° 3, Paris, 1979.
- De Carli L., Internet, Memoria e Oblio, Ed. Eri, Torino, 1997.
- DeFleur M. & Dennis E. E., Understanding Mass Communication, Boston ,Houghton, Mifflin,1981.
- DeFleur M L. & Dennis E., The Continuing Revolution in Technology, in Understanding Mass Communication, Boston, Houghton Mifflin, 1988.
- DeFleur M. L. & Ball-Rokeach S. J., Theories of Mass Communication, 5° Ed. Longman Publishing Group, New York, 1989.
- Degli Antoni G., Realtà Artificiale: Una Silenziosa Rivoluzione Cognitiva, Università degli Studi di Milano, Dipartimento di Scienze dell'Informazione, Ed. Tecnos, Milano, 1990.
- De Leonardis O., Il Terzo Escluso. Le Istituzioni come Vincoli e come Risorse, Ed. Feltrinelli, Milano, 1990.
- De Lillo A., Cenni Metodologici e schemi Interpretativi della Sociologia, in Livolsi, Ed. Teti, Milano, 1980.
- Deleuze G. & Guatteri F., Mille Plateaux, Capitalism et Schizophrenie, Les Editions de Minuit, Paris, 1980.
- De Kerckhove P., The Skin of Culture, Toronto, 1995.
- Derrida J., L'Écriture et La Différence, Ed. Seuil, Paris, 1967, trad. La scrittura e La Differenza, Ed. Einaudi, Torino, 1971.
- Derrida J., La Dissémination, Ed. Du Seuil, Paris, 1972, trad. La Disseminazione, Ed. Jaca Book, Milano, 1989.
- Derrida J., Glas, Ed. Galilée, Paris, 1974.
- Derrida J., Della Grammatologia, Ed. Jaca Book, Milano, 1976.
- Derrida J.,Living On, in AA.VV., Deconstruction and Criticism: a Continuum Book, Ed. Seabury Press New York, 1979.
- Derrida J., Survivre, in Parages, Ed. Galilée, Paris, 1985.
- Derrida J., Ecografia della Televisione, Ed. Bompiani, Milano, 1997.
- Documents: Directives CEE, n° 552, Octobre, 1989, " TV sans Frontière " Codice di Autodisciplina Pubblicitaria, 21° Ed. In vigore, Annuario, Milano,1995.
- Douglas M., How Institutions Think, Ed. Syracuse University Press, Syracuse, 1986.
- Donahoe J. W. & Wessells M. G., Learning, Language and Memory, Ed. Harper & Row, New York, 1980.
- Domenach J. M., La propagande Politique, 7° Ed. Que Sais-je ?, P. U. F., Paris, 1973.
- Durand J., Les Formes de la Communication, Ed. Dunod, Paris, 1981.

- Durkheim E., La Division du Travail Social, (1893), Ed. P. U. F., Paris, 1978.
- Eco U., A Theory of Semiotics, Ed. Indiana University Press & IV Ed. Bompiani, Milano, 1975.
- Eco U., Estetica e Teoria dell'Informazione, Ed. Bompiani, Milano, 1972.
- Eco U., Semiotica e Filisofia del Linguaggio, Ed. Einaudi, Torino, 1984.
- Eco U., Lector in Favola, la cooperazione interpretativa nei testi, Bompiani, Milano,1979.
- Eisenstein E., " The Printing Press as an Agent of Change ", Ed. Cambridge Univ. Press, vol. 2,1979.
- Eisenstein E., " The Printing Revolution in Early Modern Europe ", Ed. Cambridge Univ. Press, 1983.
- Elliot P., " The Making of a Television Series", a Case Study in the Production of Culture, Ed. Constable, London, 1972.
- Escarpit R., Théorie Generale de l'Information et de la Communication, Ed. Hachette, Paris, 1976.
- Fabbri P., Le Communicazioni di Massa: Sguardo Semiotico e Malocchio della Sociologia, Ed. Versus, 1973.
- Fejes F., Critical Mass Communication Research and Media Effects, Media, Culture and Society, n° 6, 1984.
- Ferguson M., Electronic Media and the Redefining of Time and Space, Ed. Ferguson, Public Communication, Sage, London, 1990.
- Ferrarotti F., Addio Uomo, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Ferrarotti F., Homo Sentiens, Ed. Liguori, Napoli, 1995.
- Finn R., Origins of Speech, in Science Digest, 1985.
- Floch M., Sémiotique, Marketing et Communication. Sous les Signes, les Stratégies,Ed. Presses Universitaires de France, Paris, 1990.
- Foucault M, " L'Archéologie du Savoir " Ed. Gallimard, Paris, 1969.
- Foucault M., Qu'est -ce qu'un Auteur ?,Bulletin de la Societé Française de Philosophie, LXIII, trad. Che cos'è un Autore ?, in Scritti Letterari, Ed. Feltrinelli, Milano, 1996.
- Freidson E., Communications Research and the Concept of the Mass, American Sociological Review, vol. 18, in Schramm-Roberts Eds., 1972.
- Freud S., Introduzione alla Psicanalisi (1915-1917), in Opere, 11 voll., Ed. Bollati Boringhieri, vol. VIII, Torino, 1976.
- Galtung J. & Ruge M., " The Structure of Foreign News ", Journal of Peace Research, vol. 1,rad. La struttura delle Notizie dall'Estero, in Baldi, Il Giornalismo come Professione, Ed. Il Saggiatore, Milano, 1980.
- Gans H., Deciding What's News, Ed. Pantheon Books, New York, 1979.
- Gasset O. Y., La Rebellion de las Masas, Madrid 1930, trad. La Rebellione delle Masse, Ed. Il Mulino, Bologna, 1962.
- Gaziano C., The Knowledge Gap. A Analytical Review of Media Effects, in Communication Research, vol. 10, n° 4, 1983.

- Gellrich M., The Idea of the Book in the Middle Ages: Language Theory, Mythology and Fiction, Ed. Cornell University Press, Ithaca, N.Y., 1985.
- Genette G., " Figures II ", Ed. Seuil, Paris, 1966, trad. " Figure II ", Ed. Einaudi, Torino, 1969.
- Ghersel F., La Televisione a Colori degli Anni Novanta, Ed. Tecniche Nuove, Milano, 1990.
- Gibson W., Neuromancer, trad. Neuromante, 2° Ed. Nord, Milano, 1991.
- Giddens A., The Constitution of Society, Ed. Polity Press, Cambridge, 1984.
- Golding P. & Murdock g., Theories of Communication and Theories of Society, Ed. Wilhoit, Mass Communication Review Yearbook, vol. 1, Sage, Beverly hills, 1978.
- Golding P. & Elliott P., " Making the News ", Ed. Longman, London, 1979.
- Graff G., " Storia dell'Alfabetizzazione Occidentale ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1989.
- Greimas A.J., Alla Ricerca della Paura, in Del Senso, trad. Ed. Bompiani, Milano, 1974.
- Greimas J. & Courtés C., Sémiotique. Dictionnaire Raisonné de la Théorie du Langage, Ed. Hachette, vol. 2, Paris, 1986.
- Grolier Electronic Publishing, The Electronic Encyclopedia on CD-ROM, Grolier Electronic Publishing, Danbury, CT. 1988.
- Gross L. & Morgan M., Television and Enculturation, in J. Dominick, Ed. Fletcher, Boston, 1985.
- Grossi G., Livelli di Mediazione Simbolica nell'Informazione di Massa, in Livolsi, Sociologia dei Processi Culturali, Ed. Angeli, Milano, 1983.
- Gunter B., The Perspective Audience, Ed. Anderson , Communication Yearbook, vol. 11, Sage, Newbury Park, 1988.
- Gunter B., Poor Reception, Misunderstanding and Forgetting Broadcast News, Ed. Erbaum, Hillsdale, 1987.
- Hall W. & Davis H. & Hutchings G., Rethinking Hypermedia: The Microcosm Approach, Ed. Kluwer, Boston, 1996.
- Halloran J., Introduction and Background, in Communication in the Community: An International Study on the Role of the Mass Media in Seven Communities, Reports and Papers on Mass Media Communications, Unesco, Paris, 1982.
- Hass C. R., La Pubblicitè: Théorie, Technique & Pratique, 4° Ed. Dunod, Paris 1965.
- Haveloch A., Preface to Plato, Ed. Harvard univ. Press, Cambridge, MA, 1963.
- Hawkins R. & Pingree S., " Television's Influence on Social Reality ", Ed. E. Wartella – Whitney – S. Windahl, Mass Communication Review Yearbook, vol. 4, Sage Beverly Hills, 1983.
- Herbin P., Vocabulaire de la Pubblicité, Ed. De la Gourdine, Lagny, 1964.
- Hirsch P., Television as a National Medium, Ed. D. Street, Handbook of Contemporary Urban Life, Jossey Bass, San Francisco, 1978.

- Hobbes T., Il Leviatano (1651), trad. Ed. UTET, Torino, 1965.
- Hawkins R. & Daly J.,Cognition and Connunication, Ed. Wienamm & Pingree, Sage, Newbury,1988.
- Heim M., Electric Language: A Philosophical Study of Word Processing, Ed. Yale University Press, New Haven, 1987.
- Heim M., The Metapgysics of Virtual Reality, in Helsel & Roth, Virtual Reality Theory, Practice and Promise, Ed. Meckler, London, 1991.
- Hoking W., Freedom of the Press, A framework of principle, A report from the Commission on Freedom of the Press, New York, 1972.
- Holts F.- Bonneau, L'Image et L'Ordinateur, Ed. Aubier Ina, Paris, 1986.
- Horkheimer M., Traditionelle und Kritische Theorie, Zeitschrift für Sozialforschung, vol. VI, 1947, trad. & Ed. In Rusconi, 1968.
- Horkheimer M. & Adorno T., Soziologische Excurse, vol. VI, Dei Frankfurter Beiträge zur Soziologie, Institut für Sozialforschung, 1956, trad. Lezioni di Sociologia, Ed. Einaudi, Torino, 1966.
- Horkheimer M. & Adorno T., Dialektik der Aufklärung, Philosophische Fragmente, Querido Verlag, Amesterdam, 1947, trad. Dialettica dell'Illuminismo, Ed. Einaudi, Torino, 1966.
- Hovland C. & Lumsdaine A. & Sheffield F., The Effect of Presenting one Side versus both Sides in Changing Opinions on a Cotroversial Subject, In Experiments on Mass Communication, Pinceton University Press, in Schramm - Roberts Eds., 1972.
- Hugo V., " Notre Dame de Paris " (1482).
- Innis H. A., Empire and Communications, Toronto, University of Toronto Press, 1972.
- Ignatieff M., L'Etica della Televisione, Ed. Comunità, Milano, 1988.
- Jacobelli J., La Realtà Virtuale, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1998.
- Jacobelli G., Una Mediazione in Più, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Jacques F., Le Scheéma Jakobsonien de la Communication est-il devenu un Obstacle Epistémologique ?, Ed. Langages, Connaissance et Pratique, Université de Lille 3, 1982.
- Jakobson R., Linguistics and Theory of Communication, in Proceeding of Symposia in Applied Mathematics Society, Rhode Island, 1961, trad. Saggi di Linguistica Generale, Ed. Feltrinelli, Milano, 1966.
- Jameson F., Marxism and Form, trad. Marxismo e Forma, Ed. Liguori, Napoli, 1975.
- Jameson F., The Political Unconscious, Ed. Cornell University Press, Ithaca, N. Y., trad. L'Inconscio Politico, Ed. Garzanti, Milano, 1990.
- Joyce M., Siren Shapes: Exploratory and Constructive Hypertexts, Academic Computing, 3,4, 1988.

- Joyce M., Of Two Minds: Hypertext Pedagogy and Poetics, Ed. University of Michigan Press, Ann Arbor, 1995.
- Kapferer J. N., Le Vie della Persuasione. L'Influenza dei Media e della Pubblicità sul Comportamento, Ed. ERI, Torino, 1982.
- Katz E. & Faulkes D., Public Opinion Quarterly, Princeton University Press, vol. 26, 1962.
- Katz E. & Lazarsfeld P., Personal Influence: The Part Played by People un the Flow of Mass Communications, Ed. Free Press, New York, 1955, trad. L'Influenza Personale nelle Comunicazioni di Massa, Ed. ERI, Torino, 1968.
- Katz E., Publicity and Pluralistic Ignorance, Notes on the Spiral of Silence, Ed. H. Baier – M. Kepplinger – K. Reumann, 1981.
- Klapper J. T., The Science of Human Communication, Basic Books, New York, 1963, in Livolsi M., comunicazione e cultura di Massa, Ed. Goepli, Milano, 1969.
- Kendall P. L. & Wolf K. M., Deviant Case Analysis in the Mr. Biggott Study: The Exception Refines the Role, 2° Ed. Arno Press, New York, 1979.
- Kretz F., Dialogue, service, Interactivité et leurs Composants: Aspects de Conception et d'Évacuation, in Bulletin IDATE, 1983.
- Krueger M., Artificial Reality II, Ed. Addison Wesley, London, 1991.
- Landow G., " Hypertext, The convergence of contemporary critical theory and technology ", The Johns Hopkins University Press, 1997.
- Lang K. & Lang G., Mass Communications and Public Opinion, in Rosenberg M., Ed. Turner R., New York, 1981.
- Lang &Lang, Methods as Master or Mastery over Method, Ed. M. Gurevitch & M. Levy, Sage, Beverly Hills, 1985.
- Lange B. P., Local / Global, in Technology Review, n° 99-100, 1997, in Gamaleri, Ed. Laterza, Roma, 1998.
- Lasswell H. D., Politics: Who Gets What, When, How, (1948), in Schramm-Roberts Eds., 1972.
- Laurel B., Computers as Theatre, Ed. Addison Wesley, London, 1991.
- Lazarsfeld P., Communication Research and the Social Psychologist, Ed. W. Denis, Pittsburgh, 1951.
- Lazarsfeld P. & Merton R., Mass Communication, Popular Taste and Organized Social Action, New York, 1948, trad. Mezzi di Comunicazione di Massa, Gusti Popolari e Azione Sociale Organizzata, Ed. Capecchi, Firenze, 1967.
- Leduc R., La Publicité: Une Force au Service de L'Entreprise, Préface de Gérin R., 2° Ed. Dunod, Paris, 1969.
- Lenin I. V., Despre presa, Ed. Politica, Bucuresti, 1960.
- Leod J. Mc & Blumer J., The Macrosocial Level of Communication Science, Ed. Berger & Chaffee, Handbook of Communication, Sage, Newbury Park, 1987.
- Levin R. A., Culture, Behavior and Personality, Ed. Aldine, Chicago, 1973.
- Levorato M., Racconti, Storie e Narrazioni. I Processi di Comprensione dei Testi, Ed. Il Mulino, Bologna, 1988.

- Levinson C., Pragmatics, Ed. Cambridge Univ. Press, 1983.
- Lévy P., Il Virtuale, Ed. Bompiani, Milano, 1997.
- Lévy P., L'Intellectuel Collectif, Ed. La Découverte, Paris, 1994.
- Lévy-Strauss C., Le cru et le Cuit, Ed. Plon, Paris, 1964.
- Liebert R. M. & Niele J. M. & Davidson E. S., The early Window: The Effects of Television on Children and Youth, Ed. Pergamon Press, New York, 1973.
- Liebermann B., Type and Typefaces, Ed. Myriadę Press, New Rochelle N. Y., 1978.
- Lindlof S., Natural Audiences. Qualitative Research of Media Uses and Effects, Ed. Ablex, Norwood, 1987.
- Lindlof S. &Lull J., Media Audience as Interpretive Communities, Ed. Anderson, Communication Yearbook, vol. 11, Sage, Newbury Park, 1988.
- Lippmann W., Public Opinion, Ed. Macmillan, New York, 1922, trad. Opinione Pubblica, Ed. Comunità, Milano, 1960.
- Lippman A., Lippman on Interactivity, Ed. Penguin Books, 1988.
- Lotman J. & Uspenski B., Tipologia della Cultura, Ed. Bompiani, Milano, 1975.
- Liska A., The Consistency Controversy: Reading on the Impact of Attitudes on Behavior, Ed. Wiley J & Sons, New York, 1975.
- Littlejohn S. W., Theories of Language and Nonverbal Coding, Theories of Human Communication, Ed. Belmont, Calif, Wadsworth, 1983.
- Locke J., Saggio sull'Intelletto Umano (1690), trad. Abbagnano, Ed. UTET, 1971.
- Losito G., Il Potere dei Media, Ed. NIS, Roma, 1994.
- Lull J., Ethnographic Studies of Broadcast Media Audience, Ed. Dominick & Fletcher, Boston, 1985.
- Lull J., World Families Watch Television, Ed. Sage, London, Newbury Park, 1988.
- Lull M., World Families Watch Television, Ed. Sage, 1988.
- Lynd R. & Lynd H., Middletown. A Study in American Culture, 1929, trad. Middletown, Ed. Comunità, Milano, 1970.
- Lyon D., La Società dell'Informazione, Ed. Il Mulino, Bologna, 1991.
- Lyotard F., La condition Postmoderne, Ed. Minuit, Paris, 1979, trad. La condizione Postmoderna, Ed. Feltrinelli, Milano, 1990.
- Mc Leod J. & Reeves B., On the Nature of Mass Media Effects, Ed. Whitey-Abeles, Television and Social Behavior, Erlbaum, Hillsdale, 1980.
- McLuhan M., The Gutenberg Galaxy: the making of typographic man, University of Toronto Press, Toronto 1962.
- MacLuhan M., La Galaxie Gutenberg face à l'Ère Électronique, Les Civilisations de l'Âge Orale à l'Imprimerie, Ed. Dame, Paris, 1967.
- McLuhan M., Understanding Media, 1964, Ed. Il Saggiatore, Milano, 1967.

- Maldonato T., Reale e Virtuale, Ed. Feltrunelli, Milano, 1992.
- Mantovani G., La Qualità dell'Interazione Uomo-Computer, Ed. Il Mulino, Bologna, 1991.
- Marchand M., La Communication à Domocile, in L'Ordre Communicationnel, La Documentation Française, Paris, 1989.
- Mariocchi M., Ipertesti, Ed. F. Angeli, Milano, 2000.
- Marcuse H., Zum Begriff des Wesens, Zeitschrift für Sozialforschung, vol. V, 1936, trad. In Rusconi, 1968.
- Marradi A., Concetti e Metodi per la Ricerca Sociale, Ed. Giuntina, Firenze, 1980.
- Marx – Angels, Opere, Editura de Stat pentru Literaturã, vol. 1, Bucuresti, 1957.
- Mayer M., The French Videotex System, Family and Consumer Studies, University of Utah, 1986.
- McQuail D., Communication, Ed. Longman, London, 1975.
- McQuail D., Prospettive nella Ricerca sui Mass Media, in Livolsi, Le Comunicazioni di Massa: Problemi e Prospettive, Ed. Angeli, Milano, 1981.
- McQuail D., Mass Communication Theory , An introduction, London, 1983, trad. Le Comunicazioni di Massa, Ed. Il Mulino, Bologna, 1986.
- McQuail D., " Is Media Theory Adequate to the Challenge of New Communication Technologies ? ", Ed. Gurevitch & Levy, Mass communication Review Yearbook, vol. 6, Sage, Newbury Park, 1987.
- Mead G.H., Mind, Self and Society: From the Standpoint of a Social Behaviorist, Ed. University of Chicago Press, 1934, trad. Mente, sé e Società, Ed. Giunti-Barbera, 1972.
- Meffesoli M., Le Temps des Tribus. Le Déclin de l'Individualisme dans les Sociétés de Masse, Ed. Hachette, Paris, 1988.
- Merton R., The Sociology of Knowledge and Mass Communication, Social Theory and Social Structure, Ed. Free Press, Glencoe, 1957.
- Meyrowitz J., No Sense of Place. The Impact of Electronic Media on Social Behavior, Ed. Oxford University Press, New York, 1985.
- Miller H., Literary Theory, Telecommunications and the Making of History, in Scholarship and Technology, M. Katzen, British Library Research / Bowker Saur, London, 1991.
- Miles I. & Rush H. & Turner K. & Bessant J., Information Horisons. The Long Term Social Implications of New Technologies, Ed. Elgar, Aldershot, 1988.
- Minc A., La Machine Égalitaire, Ed. Grasset, Paris, 1987.
- Miyo Y., The Knowledge – Gap hypothesis and Media Dependency, Ed. R. Bostrom, Communication Yearbook, vol. 7, Sage, Beverly Hills, 1983.
- Moles A., Sociodynamique de la Culture, Ed. Mouton, Paris, 1967.
- Mond G., Le Regime de l'Information dans les Pays Socialistes, I.F.P. Cours,1980.

- Mond G., Lenin et la Presse, Le Régime de l'Information dans les Pays socialistes, Ed. I.F.P., Paris, 1980.
- Morcellini M., Passaggio al Futuro. La Socializzazione nell'Età dei Mass Media, Ed. Angeli, Milano, 1992.
- Morgan J. & Spicer J., La Presse et L'État, La reglementation de la Presse écrite dans douze pays occidenteaux, Gouvernement de Québec, Ministère des Communications, 1982.
- Morin E., L'Esprit du Temps, Ed. Grasset, Paris, 1962.
- Moscovici G., La Psychanalyse: Son Image et Son Public, Ed. P. U. F., Paris,1961.
- Naturana H. & Valera F., Autopoiesis and Cognition. The Realization of Living, trad. Autopoiesi e Congnizione. La Realizzazione del Vivente, Ed. Marsilio, Venezia, 1985.
- Negroponte N., Prodotti e Servizi per le Reti Informatiche, in Le scienze, n° 279, Novembre, 1991.
- Nelson T.,The Xanadu Paradigm, Project Xanadu, Published Broadsheet, San Antonio, TX, 1987.
- Nelson T., Literay Machines 90/1, by T. H. Nelson, 1990.
- Neumann N., Die chweigespirale: Offentliche Meinung – Unsere Soziale Haut, Piper Verlag, Müchen, trad. The Spiral of silence. Public Opinion, Our Social Skin, University of Chicago Press, Chicago, 1980.
- Neumann N., The Spiral of Silence: Summary and Overview, European University Institute, Florence, 1985.
- Nielsen J., " Multimedia and Hypertext: The Internet and Beyond ", Ed. Academic Press, Boston, 1995.
- Noblitt J., Writing, Technology and Secondary Orality, Academic Computing, n° 2 & 5,1988.
- Nora S.& Minc A., Rapport sur L'Information de la Société, La Documentation Française, Paris, 1978.
- Nishimura Y. & Keiichi S., Dynamic Information Display, in Visible Language, n° 2 & 19.
- O'Keefe G. & Reid-Nash K., Socialising Functions, Ed. Berger & Chaffee, Hanbook of Communication Science, Sage, Newbury Park, 1987.
- Ong W., La Presenza della Parola, Ed. Il Mulino, Bologna, 1970.
- Ong W. J., " Orality and Literacy: The Technologizing of the Word ", Ed. Methuen, London, 1982, trad. " Oralità e Scrittura ", Ed. Il Mulino, Bologna, 1986.
- Orsolini M., Oralità e Scrittura nella Costruzione del Testo, Ed. La Nuova Italia, Firenze, 1991.
- Parisi D., La Guerra dei Mondi. Appunti sulla Planetarizzazione, Ed. Il Mulino, Bologna, 1988.

- Park R., Society, Collective Behavior, News and Opinion, Sociology and Modern Soc Ed. The Free Press, New York, 1955.
- Perrone L., Metodi Quantitativi della Ricerca Sociale, Ed. Feltrinelli, Milano, 1989.
- Pilati A., L'Industria dei Media, in il Goirnale Il Sole 24 Ore ", Milano, 1990, and P. Glisenti & R. Pesenti, Persuasori e Persuasi. I Mass Media degli Anni novanta, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1990.
- Pirandello L., Uno, Nessuno, Centomila (1927), in Tutti I Romanzi, Ed. Mondadori, Milano, 1975.
- Platone, Repubblica, in Dialoghi Politici e Lettere, in Adorno F., 2 voll, vol. 1, Ed. UTET, Torino, 1970.
- Platone, Parmenide, 132 A-B & Aristotele, Metafisica, 1,9,990.
- Porro R. & Livolsi M., Le Agenzie di Socializzazione: I Mass Media, in Livolsi, La Sociologia. Problemi e Metodi, Ed. Teti, Milano, 1981.
- Porro R., Da un Modello di Consumo Tradizionale ad una Ipotesi di Fruizione Multimediale, in M. Livolsi, Ed. F. Rositi, Roma, 1988.
- Portnoff I., L'Ordinateur Épouse le Téléphone et là Vidéo, Ed. Flammarion, Paris, 1992.
- Price V. & Roberts D., Public Opinion Processes, in Berger, Ed. S. Chaffee, Handbook of Communication Science, Sage, Newbury Park, 1987.
- Quéau P., Eloge de la Simulation, Ed. du Champ Vallon, Paris, 1986.
- Quéau P., Metaxu. Théorie de l'Art Intermediaire, Ed. Du Champ Vallon, Paris, 1989.
- Quéau P., Nœuds Virtuels, Relation,: Meeting: Labyrinthes Virtuels, Polytechnique de Milan, Mars, 1992.
- Quéau P., Les Métaphores du Virtuel, in Imagina, Meeting, INA, VI, Paris, 1992.
- Reale G., Eros Dèmone Mediatore, Ed. Bompiani, Milano, 1997.
- Revelli M., La sinistra Sociale. Oltre la Civiltà del Lavoro, Ed. Eri, Torino, 1997.
- Rheingold H., Virtual Reality, Ed. Secker & Warbury Limited, London, 1991.
- Richeri G., La TV che Conta, Ed. Baskerville, Bologna, 1993.
- Roberts D., The Nature of Communication Effects, in Schramm-Roberts Eds., 1972.
- Robert J., Libertés Pubbliques, Ed. P. U. F., 2° vol., Paris, 1977.
- Robert E., L'Écrit et La Communication, Ed. P. U. F., Paris, 1984.
- Robinson G., News Agencies and World News, Ed. University Press, Fribourg, 1981.
- Rogers E., Communication Technology. New Media in Society, Ed. The Free Press, New York, 1986.

- Rokeach S. J., The Origins of Individual Media System Dependency: Sociological Framework, in Communication Research, n° 12, New York, 1985.
- Rorty R., Philosophy and the Mirror of Nature, Ed. Princeton University Press, Princeton, trad. La Filisofia e lo Specchio della Natura, Ed. Bompiani, Milano, 1986.
- Rositi F., L'Informazione Televisiva: Frammentazione e Ricomposizione dell'Immagine della Società , Ed. ERI, Torino, 1975.
- Rositi F., I Modi dell'Argomentazione e l'Opinione Pubblica, Ed. Eri, Torino, 1982.
- Rusconi G. E., La Teoria Critica della Società, Ed. Il Mulino, Bologna, 1968.
- Saenger P., Books of Hours and the Reading Habits of the Later Middle Ages, in Chartier R., The Culture of Print, Ed. Prinseton University Press, Princeton, 1987.
- Saïd E., Beginnings: Intention and Method, Ed. Columbia University Pres, New York, 1985.
- Salvaggio J., Setting the Parameters for Information Society Research, in Bryant, Ed. D. Zillmann, Erlbaum, Hillsdale, 1986.
- Sankoff G., The Social Life of Language, Ed. University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1980.
- Sapelli G., Conflitti, Sviluppo, Dissociazione dagli Anni 50° ad Oggi, Ed. Marsilio,Venezia, 1989.
- Sapir E., " Language: An Introduction to the Study of Speech ", Ed. Harcourt Brace, New York, 1921 ,trad. in Il Linguaggio. Introduzione alla Linguistica, Ed. Einaudi, Torino, 1971.
- Sasson J., Dipendenza e Interdipendenzqa nel Sistema Ibternazionale. Un Esame dei Modelli Teorici, in Quaderni di sociologia, n° 3, 1980.
- Scheler M., " Sociologia del Sapere ", Ed. Abete, Roma, 1976.
- Schelling P., Micromotives and Macrobehavior, Norton, New York, 1978, trad. La Tyrannie des Petites Décisions, Ed. P. U. F., Paris, 1980.
- Schlesinger P., Pitting Reality together, BBC News, Ed. Constable, London, 1978.
- Schlesinger P., Rethinking the sociology of Journalism: Source Strategies and the Limits of Media.Centrism, Groupe Européen sur les Medias, Paris, 1988.
- Shannon C. & Weaver W., The Mathematical Theory of Communication, University of Illinois Press, Urbana, 1949, trad. La Teoria Matematica della Comunicazione, Ed. Etas Kompas, Milano, 1971.
- Shelley E. T. & Crocker J., " Schematic Basis of Social Information Processing, in Social Cognition, E. T. Hoggins, C. P. Herman & M. P. Zahne, Ed. Hillsdale, N. J. Erlbaum, 1976.
- Schelling T., Choice and Consequence, Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1984.

- Silbert F. & Peterson J. & Schramm W., Four Theories of the Press, Urbana, University of Illinois Press, 1963.
- Silj A., A Est di Dallas. Telefilm USA ed Europei a Confronto, Ed. Eri, Torino, VQPT, n° 84, 1988.
- Simmel G., Grundfragen der Soziologie (Individuum und Gesellschaft), de Gruyter, Berlin, trad. Forme e Giochi di Società, Ed. Feltrinelli, Milano, 1983.
- Slater D. & Elliott W., Television's Influence on social Reality, in Quarterly Journal of Speech, n° 68, 1982.
- Sontag S., A Barthes Reader, Ed. Hill & Wang, New York, 1982.
- Spencer H., Principi di Sociologia, (1876-1896), trad. Ferrarotti, 2 voll, Ed. UTET, Torino, 1968.
- Sproull L. & Kiesler S., Connections, The Mit Press, Cambridge, Mass, 1991.
- Stoetzel J., Fonction de la Presse, Études de Presse, vol. III, n. 1, 1951.
- Stone R., The War of Desire and Technology at the End of the Mechanical Age, The Mit Press, Cambridge, 1996.
- Toffler A., in Gamaleri G., Le Ambivalenze d'Oggi, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1998.
- Tomas D., Old Rituals for New Space: Rites de Passage and William Gibson's Cultural Model of Cyberspace, in Benedikt M. Cyberspace. First Steps, Ed. The Mit Press, Cambridge, 1991.
- Tönnies F., Comunità e Società, (1887), trad. Ed. Di Comunità, Milano, 1963.
- Tuchman G., Making News by Doing Work: Routinizing the Unexpected , American Journal of Sociology, 79, in Le Notizie come Risultato di un Lavoro: Applicazione della Routine all'Imprevisto, Baldi, Il Giornalismo come Professione, Ed. Il Saggiatore, Milano, 1980.
- Tufte E., The Visual Display of Quantitative Information, Graphics Press, Cheshire, CT, 1983.
- Turkle The Second Self, trad. il Secondo io, Ed. Frassinelli, Milano, 1985.
- Turkle S., Life on the Screen: Identity in the Age of Internet, The Free Press, New York,1995.
- Young & Ath, Academic Computing in the Year 2000, Academic Computing, vol. 20, 1989.
- Ulmer G., Applied Grammatology: Pedagogy from Derrida to Beuys, Ed. Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1985.
- Varela F., The Embodied Mind. Cognitive Science and Human Experience, Boston, 1991, in La Via di Mezzo della Conoscenza. Ed. Bompiani, Milano, 1992.
- Varela F., Un Know-how per l'Etica, Ed. Laterza, Roma-Bari, 1992.
- Valli B., Comunicazione e Media, Ed. Carocci, Roma, 1999.
- Valli U., Manuale di Semiotica, Ed. Laterza, Bari, Roma, 2000.

- Van Dijk T., Discourse Analysis: Its Development and Application to the Structure of News, Ed. Communication, Spring, New York, 1983.
- Van Dijk T. & Kintsch W., Strategies of Discoure Comprehension, Ed. Academic Press, New York, 1983.
- Vattimo G., La Società Trasparente, Ed. Garzanti, Milano, 1989.
- Vidali P., Esperienza e Comunicazione nei New Media, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Villani D., La Pubblicità ed I suoi Mezzi, Ed. Giuffrè, Milano, 1955.
- Virilio P., L'Orizon Négatif. Essai de Dromoscopie, Ed. Galilée, Paris, 1984.
- Vittadini N., Comunicare con I New Media, Ed. Bompiani, Milano, 1998.
- Voltaire, L'Encyclopédie (1765).
- Von Foerster H., Observing Systems. Seaside, trad. Sistemi che Osservano, in Draghi B., Ed. Ubaldini, Roma, 1982.
- Wall L., Distance Leads Enchantment: A Review of City of Bits, in Information Society, n° 12, 1996.
- Werner Severin J. & James Tankard W. jr., Communication Theories, Ed. Longman, New York, 1988.
- Weissberg R., Le Compact Réel/ virtuel, in Weissberg et Alii, Les chemins du Virtuel, Centre Pompidou, Paris, 1989.
- Weissberg J., Le Geste, La Connaissance, La Décision, in Weissberg & Alii, Les Chemins du Virtuel, Centre Pompidou, Paris, 1989.
- Weissberg R., Espaces Virtuels, in Immaginaire Numérique I, Paris, 1987.
- Wenders W., The Act of Seeing, Verlag der Autoren, trad. L'Atto di Vedere, Ed. Ubulibri, Milano, 1992.
- Williams F., The Impact of Television, Ed. Academic Press, London, 1986.
- Winkin Y., La Nouvelle Communication, Ed. Seuil, Paris, 1981.
- Wober M. & Gunter B., Television and Social Control, Ed. Gower, Aldershot, 1988.
- Wolf M., Teorie delle Comunicazioni di Massa, Ed. Bompiani, Milano, 1995.
- Wolf M., Gli Effetti Sociali dei Media, Ed. Bompiani, Milano, 1995.
- Worf B., " Language, Thought and Reality ", Ed. J. Wiley & Sons, New York, 1956.
- Wright C., Public Opinion Quarterly, Princeton University Press, 1973.
- Wright Mills C., Power, Politics and People, Oxford University Press, New York, 1963, trad. In Saggi di Sociologia della Conoscenza, Ed. Bompiano, Milano, 1971.
- Wynn E & Katz J., Hyperbole over Cyberspace, in The Information Society, n° 13, 1997.

- Youngblood G., Cinema Elettronico e Simulavro Digitale. Una Epistemologia dello Spazio Virtuale, Ed. Albertini & Lischi, Metamorfosi della Visione, ETS, Pisa, 1986.
- Zolla E., Uscite dal Mondo, Ed. Adelphi, Milano, 1992.
- Zucker H., The Variable Nature of Mass Media Influence, Ed. Ruben, New Brunswick, 1978.

❋ ❋ ❋

المحتويات